

فهرست ما فى النصف الأول من كتاب المستطرف فى كل فن مستظرف من الأبواب والفصول المعرف جميعها فى ديباجة الكتاب وهى أربعة وثمانون بابا منها فى هذا النصف اثنان وأربعون كما هو موضوع بهذه الفهرست المجعولة للاستدلال على أى باب من الأبواب أو فصل من الفصول فى أى صحيفة من صحائف هذا النصف

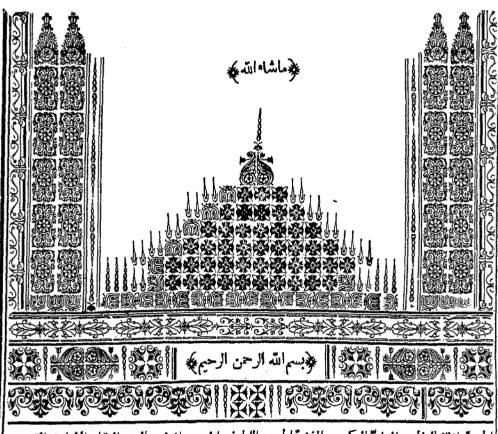
(تمت)

فهرست كتاب ثمرات الاوراق الموشى به هامش كتاب المستطرف

(تمت)

الجزء الأول من كتاب المستطرف في كل فن
مستظرف تأليف الامام الأوحد العالم
العلامه اللوذعي الفهامه الشيخ
شهاب الدين أحمد الابشيهي
تغمده الله بالرحمة
والرضوان
آمين

وبهامشه كتاب ثمرات الأوراق في المحاضرات لحجة العرب وترجمان الأدب الامام تقي الدين ابن أبي بكر بن علي المعروف بابن حجة الحموي الحنفي تغمده الله برحمته وأسكنه فراديس جنته مكملا بحجة آدابه للواقف عليه * بأن نظم في سموط فرائده عقود ذيليه أولهما في المحاضرات أيضا للامام ابن حجة المذكور ضاعف الله لناوله الاجور وثانيهما للعلامة الاديب والفهامة الاريب الهمام الكامل واللوذعي الفاضل الشيخ ابراهيم بن الاحدب بلغه الله في آخرته كل مأرب بمنه وكرمه آمين بجاه سيد الاولين والآخرين



الحمد لله الملك العظيم العلى الكبير الغنى الحميد اللطيف الخبير المنفرد بالعز والبقاء والارادة والتدبير الحى العليم الذى ليس كمثله شئ وهو السميع البصير تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شئ قدير أحمده حمد عبد معترف بالعجز والتقصير وأشكره على ما أعان عليه من قصد ويسر من عسير وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ولا مشير ولا ظهير له ولا وزير وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله البشير النذير السراج المنير المبعوث الى كافة الخلق من غنى وفقير ومأمور وأمير صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه صلاة يفوز قائلها من الله بمغفرة وأجر كبير وينجو بها فى الآخرة من عذاب السعير وحسبنا الله ونعم الوكيل فنعم المولى ونعم النصير ﴿أما بعد﴾ فقد رأيت جماعة من ذوى الهمم جمعوا أشياء كثيرة من الآداب والمواعظ والحكم وبسطوا مجلدات فى التواريخ والنوادر والأخبار والحكايات واللطائف ورقائق الأشعار وألفوا فى ذلك كتبا كثيرة وتفرد كل منها بفرائد فوائد لم تكن فى غيره من الكتب محصورة فاستخرت الله تعالى وجمعت من مجموعها هذا المجموع اللطيف وجعلته مشتملا على كل فن ظريف ﴿وسميته المستطرف فى كل فن مستظرف﴾ واستدللت فيه بآيات كثيرة من القرآن العظيم وأحاديث صحيحة من أحاديث النبى الكريم وطرزته بحكايات حسنة عن الصالحين الأخيار ونقلت فيه كثيرا مما أودعه الزمخشرى فى كتابه ربيع الابرار وكثيرا مما نقله ابن عبد ربه فى كتابه العقد الفريد ورجوت أن يجد مطالعه فيه كل ما يقصد ويريد وجمعت فيه لطائف وظرائف عديدة من منتخبات الكتب النفيسة المفيدة وأودعته من الأحاديث النبوية والأمثال الشعرية والألفاظ اللغوية والحكايات الجدية والنوادر الهزلية ومن الغرائب والدقائق والأشعار والرقائق ما تشنف بذكره الأسماع وتقر برؤيته العيون وينشرح بمطالعته كل قلب محزون شعر

من كل معنى يكاد الميت يفهمه * حسنا ويعشقه القرطاس والقلم

(وجعلته) يشتمل على أربعة وثمانين بابا من أحسن الفنون متوجة بألفاظ كأنها الدر المكنون كما قال بعضهم شعرا فى المعنى

فنى كل باب منه در مؤلف * كنظم عقود زينتها الجواهر

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

(قال) الشيخ الامام حجة العرب وترجمان الأدب تقى الدين أبو بكر بن حجة الحنفى منشئ دواوين الانشاء الشريف بالممالك الاسلامية تغمده الله برحمته (أما بعد) حمد الله الذى فكهنا بثمار أوراق العلماء والصلاة والسلام على نبيه شجرة العلم التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء وعلى آله وصحبه الذين هم فروع هذه الشجرة وأغصانها التى دنت لهذه الامة قطوفها المثمرة فانى وريت بتسمية هذا الكتاب بثمار الاوراق عالما أن قطوفه لم تدن لغير ذوى الاذواق ﴿فمن ذلك﴾ ما نقلته من درة الغواص لابى محمد القاسم بن على الحريرى صاحب المقامات أن أبا العباس المبرد روى أن بعض أهل الذمة سأل أبا عثمان المازنى فى قراءة كتاب سيبويه عنه وبذل له مائة دينار فى تدريسه اياه فامتنع أبو عثمان من ذلك فقال له المبرد جعلت فداك أترد هذه النفقة مع فاقتك واحتياجك اليها فقال أبو عثمان هذا الكتاب يشتمل على ثلثمائة حديث وكذا كذا آية من كتاب الله ولست أرى أن أمكن منها ذميا غيرة على كتاب الله تعالى وحمية له قال فاتفق أن غنت جارية بحضرة الواثق من شعر العرجى

أظلوم ان مصابكم رجلا
أهدى السلام تحية ظلم

فاختلف من بالحضرة فى اعراب رجلا فمنهم من نصبه وجعله اسم ان ومنهم من رفعه على انه خبرها والجارية مصرة على ان شيخها أبا عثمان المازنى لقنها اياه بالنصب فأمر الواثق باشخاصه قال أبو عثمان فلما مثلت بين يديه قال ممن الرجل قلت من مازن يا أمير

فان نظم العقد الذى فيه جوهر * على غير تأليف فما الدر فاخر

(وضمنته) كل لطيفة ونظمته بكل ظريفة وقرنت الأصول فيه بالفصول ورجوت أن يتيسر لى مارمته من الوصول (وجعلت) أبوابه مقدمة وفصلتها فى مواضعها مرتبة منظمة ليقصد الطالب الى كل باب منها عند الاحتياج اليه ويعرف مكانه بالاستدلال عليه فيجد كل معنى فى بابه ان شاء الله تعالى والله المسؤل فى تيسير المطلوب وأن يلهم الناظر فيه ستر ما يراه من خلل وعيوب انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير وهذه فهرست الكتاب والله سبحانه المهوّن للصعاب

المؤمنين قال أى المواز قلت من مازن ربيعة فكلمنى بكلام قومى وقال باسمك لانهم يقلبون الميم باء والباء ميما اذا كانت فى أول الاسماء فكرهت ان أجيبه على لغة قومى لئلا أواجهه بالمكر فقلت بكر يا أمير المؤمنين ففطن لما قصدته وأعجبه منى ذلك ثم قال ماتقول فى قول الشاعر

أظلوم ان مصابكم رجلا

أهدى السلام تحية ظلم

أترفع رجلا أم تنصبه فقلت الوجه النصب يا أمير المؤمنين قال ولم ذلك فقلت ان مصابكم مصدر بمعنى اصابتكم فأخذ اليزيدى فى معارضتى فقلت هو بمنزلة قولك ان ضربك زيدا ظلم فالرجل مفعول مصابكم ومنصوب به والدليل عليه ان الكلام متعلق الى أن تقول ظلم فيتم فاستحسنه الواثق وأمر له بألف دينار قال أبو العباس المبرد فلما عاد أبو عثمان الى البصرة قال لى كيف رأيت رددنا لله مائة فعوضنا ألفا (ونقلت من درة الغواص أيضا) ان حامد بن العباس سأل على بن عيسى فى ديوان الوزارة مادواء الخمار وكان قد علق به فأعرض عن كلامه وقال ما أنا وهذه المسئلة فخجل حامد منه والتفت الى قاضى القضاة أبى عمر فسأله عن ذلك فتنحنح لاصلاح صوته ثم قال قال الله تعالى وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا وقال النبى صلى الله عليه وسلم استعينوا على كل صنعة بصالح أهلها والاعشى هو المشهور بهذه الصناعة فى الجاهلية حيث قال

وكأس شربت على لذة

وأخرى تداويت منها بها

ثم تلاه أبو نواس فى الاسلام فقال

دع عنك لومى فان اللوم اغراء

وداونى بالتى كانت هى الداء

والثلاثون) فى كتمان السر وتحصينه وذم افشائه (الباب التاسع والثلاثون) فى الغدر والخيانة والسرقة والعداوة والبغضاء والحسد وفيه فصول (الباب الاربعون) فى الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها وفضل الجهاد وشدة البأس والتحريض على القتال وفيه فصول (الباب الحادي والأربعون) فى ذكر أسماء الشجعان وذكر الابطال وطبقاتهم وأخبارهم وذكر الجبناء وأخبارهم وذم الجبن (الباب الثانى والأربعون) فى المدح والثناء وشكر النعمة والمكافأة وفيه فصول (الباب الثالث والاربعون) فى الهجاء ومقدماته (الباب الرابع والأربعون) فى الصدق والكذب وفيه فصلان (الباب الخامس والاربعون) فى بر الوالدين وذم العقوق وذكر الأولاد وما يجب لهم وعليهم وصلة الرحم والقرابات وذكر الانسان وفيه فصول (الباب السادس والاربعون) فى الخلق وصفاتهم وأحوالهم وذكر الحسن والقبح والطول والقصر والألوان واللباس وما أشبه ذلك (الباب السابع والاربعون) فى ذكر الحلى والمصوغ والطيب والتطيب وما جاء فى التختم (الباب الثامن والاربعون) فى الشباب والشيب والصحة والعافية وأخبار المعمرين وما أشبه ذلك وفيه فصول (الباب التاسع والاربعون) فى الأسماء والكنى والالقاب وما استحسن منها (الباب الخمسون) فى الاسفار والاغتراب وما قيل فى الوداع والفراق والحث على ترك الاقامة بدار الهوان وحب الوطن والحنين الى الاوطان (الباب الحادى والخمسون) فى ذكر الغنى وحب المال والافتخار بجمعه (الباب الثانى والخمسون) فى ذكر الفقر ومدحه (الباب الثالث والخمسون) فى ذكر التلطف فى السؤال وذكر من سئل فجاد (الباب الرابع والخمسون) فى ذكر الهدايا والتحف وما أشبه ذلك (الباب الخامس والخمسون) فى العمل والكسب والصناعات والحرف والعجز والتوانى وما أشبه ذلك (الباب السادس والخمسون) فى شكوى الزمان وانقلابه بأهله والصبر على المكاره والتسلى عن نوائب الدهر وفيه ثلاثة فصول (الباب السابع والخمسون) فيما جاء فى اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدة والسرور بعد الحزن ونحو ذلك (الباب الثامن والخمسون) فى ذكر العبيد والاماء والخدم وفيه فصلان (الباب التاسع والخمسون) فى أخبار العرب وذكر غرائب من عوائدهم وعجائب أمرهم (الباب الستون) فى الكهانة والقيافة والزجر والعرافة والفأل والطيرة والفراسة والنوم والرؤيا (الباب الحادى والستون) فى الحيل والخدائع المتوصل بها الى بلوغ المقاصد والتيقظ والتبصر ونحو ذلك (الباب الثانى والستون) فى ذكر الدواب والوحوش والطير والهوام والحشرات مرتبا على حروف المعجم (الباب الثالث والستون) فى ذكر نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتهم (الباب الرابع والستون) فى خلق الجان وصفاتهم (الباب الخامس والستون) فى ذكر البحار وما فيها من العجائب وذكر الانهار والآبار وفيه فصول (الباب السادس والستون) فى ذكر عجائب الارض وما فيها من الجبال والبلدان وغرائب البنيان وفيه فصول (الباب السابع والستون) فى ذكر المعادن والاحجار وخواصها (الباب الثامن والستون) فى الاصوات والالحان وذكر الغناء واختلاف الناس ومن كرهه واستحسنه (الباب التاسع والستون) فى ذكر المغنين والمطربين وأخبارهم ونوادر الجلساء فى مجالس الخلفاء (الباب السبعون) فى ذكر القينات والاغانى (الباب الحادى والسبعون) فى ذكر العشق ومن بلى به والافتخار به والعفاف وأخبار من مات بالعشق وما فى معنى ذلك وفيه فصول (الباب الثانى والسبعون) فى ذكر رقائق الشعر والمواليا والدوبيت وكان وكان والموشحات والزجل والقومة والالغاز ومدح الاسماء والصفات وفيه فصول (الباب الثالث والسبعون) فى ذكر النساء وصفاتهن ونكاحهن وطلاقهن وما يمدح وما يذم من عشرتهن وفيه فصول (الباب الرابع والسبعون) فى ذم الخمر وتحريمها والنهى عنها (الباب الخامس والسبعون) فى المزاح والنهى عنه وما جاء فى الترخيص فيه والبسط والتنعم وفيه فصول (الباب السادس والسبعون) فى النوادر والحكايات وفيه فصول (الباب السابع والسبعون) فى الدعاء وآدابه وشروطه وفيه فصول (الباب الثامن والسبعون) فى القضاء والقدر وأحكامهما والتوكل على الله تعالى (الباب التاسع والسبعون) فى التوبة وشروطها والندم والاستغفار (الباب الثمانون) فى ذكر الامراض والعلل والطب والدواء من السنة والعيادة وثوابها وما أشبه ذلك وفيه فصول (الباب الحادى والثمانون) فى ذكر الموت وما يتصل به من القبر وأحواله (الباب الثانى والثمانون) فى الصبر والتأسى والتعازى والمراثى ونحو ذلك وفيه فصول (الباب الثالث والثمانون) فى ذكر الدنيا وأحوالها وتقلبها بأهلها والزهد فيها

ونحو

فاسفر حينئذ وجه حامد وقال لابن عيسى ما ضرك يا بارد أن تجيب ببعض ما أجاب به مولانا قاضى القضاة وقد استظهر فى جواب المسئلة بقول الله تعالى أولا ثم بقول النبى صلى الله عليه وسلم ثانيا وأدى المعنى وخرج من العهدة فكان خجل ابن عيسى أكثر من خجل حامد لما ابتدأه بالمسئلة انتهى (ويضارع هذه الحكاية) فى لين بعض القضاة المتقشفين واذعانهم مع الزهد والتقشف للمستفتين ما نقلته من درة الغواص للحريرى أيضا قال اجتمع قوم على شراب فتغنى مغنيهم بشعر حسان

ان التى ناولتنى فرددتها

قتلت قتلت فهاتها لم تقتل

كلتاهما حلب العصير فعاطنى

بزجاجة أرخاهما للمفصل

فقال بعضهم امرأتى طالق ان لم أسأل الليلة عبيد الله بن الحسن القاضى عن علة هذا الشعر كيف قال ان التى فوحد ثم قال كلتاهما فثنى فاشفقوا على صاحبهم وتركوا ما كانوا فيه ومضوا يتخطون القبائل الى بنى شقرة فوجدوا عبيد الله بن الحسن يصلى فلما فرغ من صلاته قالوا له قد جئناك فى أمر دعتنا اليه الضرورة وشرحوا له الخبر وسألوا الجواب فقال مع زهده وتقشفه ان التى ناولتنى فرددتها عنى بها الخمرة الممزوجة بالماء ثم قال كلتاهما حلب العصير يريد الخمرة المتحلبة من العنب والماء المتحلب من السحاب المكنى عنه بالمعصرات انتهى (قال الحريرى) وقد بقى فى الشعر ما يحتاج الى تفسيره أما قوله ان التى ناولتنى فرددتها قتلت قتلت فانه خاطب به الساقى الذى ناوله كاسا ممزوجة لانه يقال قتلت الخمرة اذا مزجتها فاراد أن يعلمه انه فطن لما فعله ثم ما اقتنع بذلك منه حتى دعا عليه بالقتل فى مقابلة المزج

ونحو ذلك (الباب الرابع والثمانون) فى فضل الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وهو آخر الابواب ختمتها بالصلاة على سيد العباد أرجو بذلك شفاعته صلى الله عليه وسلم يوم المعاد

❁ الباب الاول فى مبانى الاسلام وفيه خمسة فصول ❁

❁ الفصل الاول فى الاخلاص لله تعالى والثناء عليه ❁

وهو أن تعلم أن الله تعالى واحد لا شريك له فرد لا مثل له صمد لا ند له أزلى قائم أبدى دائم لا أول لوجوده ولا آخر لابديته قيوم لا يفنيه الابد ولا يغيره الامد بل هو الاول والآخر والظاهر والباطن منزه عن الجسمية ليس كمثله شئ وهو فوق كل شئ فوقيته لا تزيده بعدا عن عباده وهو أقرب الى العبيد من حبل الوريد وهو على كل شئ شهيد وهو معكم أينما كنتم لا يشابه قربه قرب الاجسام كما لا يشابه ذاته ذوات الاجرام منزه عن أن يحده زمان مقدس عن أن يحيط به مكان تراه أبصار الابرار فى دار القرار على ما دلت عليه الآيات والأخبار حى قادر جبار قاهر لا يعتريه عجز ولا قصور ولا تأخذه سنة ولا نوم له الملك والملكوت والعزة والجبروت خلق الخلق وأعمالهم وقدر أرزاقهم وآجالهم لا تحصى مقدوراته ولا تتناهى معلوماته عالم بجميع المعلومات لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السموات يعلم السر وأخفى ويطلع على هواجس الضمائر وخفيات السرائر مريد للكائنات مدبر للحادثات لا يجرى فى ملكه قليل ولا كثير جليل ولا حقير خير أو شر نفع أو ضر الا بقضائه وقدره وحكمه ومشيئته فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فهو المبدئ المعيد الفاعل لما يريد لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ولا مهرب لعبد عن معصيته الا بتوفيقه ورحمته ولا قوة له على طاعته الا بمحبته وارادته لو اجتمع الانس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا فى العالم ذرة أو يسكنوها دون ارادته لعجزوا سميع بصير متكلم بكلام لا يشبه كلام خلقه وكل ما سواه سبحانه وتعالى فهو حادث أوجده بقدرته وما من حركة وسكون الا وله فى ذلك حكمة دالة على وحدانيته قال الله تعالى ان فى خلق السموات والارض الآية وقال أبو العتاهية

فيا عجبا كيف يعصى الاله ❊ أم كيف يجحده الجاحد ❊ وفى كل شئ له آية
تدل على انه الواحد ❊ ولله فى كل تحريكة ❊ وتسكينة فى الورى شاهد

وقال غيره

كل ما ترتقى اليه بوهم ❊ من جلال وقدرة وسناء
فالذى أبدع البرية أعلى ❊ منه سبحان مبدع الاشياء

(وقال) على رضى الله عنه فى بعض وصاياه لولده اعلم يا بنى انه لو كان لربك شريك لاتتك رسله ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ولعرفت أفعاله وصفاته ولكنه اله واحد لا يضاده فى ملكه أحد وعنه عليه الصلاة والسلام كل ما يتصور فى الاذهان فالله سبحانه بخلافه وقال لبيد بن ربيعة

ألا كل شئ ما خلا الله باطل ❊ وكل نعيم لا محالة زائل ❊ وكل ابن أنثى لو تطاول عمره
الى الغاية القصوى فللقبر آيل ❊ وكل أناس سوف تدخل بينهم ❊ دويهية تصفر منها الانامل
وكل امرئ يوما سيعرف سعيه ❊ اذا حصلت عند الاله الحصائل

(وروى) أن النبى صلى الله عليه وسلم قال وهو على المنبر ان أشعر كلمة قالتها العرب

❊ ألا كل شئ ما خلا الله باطل ❊ ثم بعد هذا الاعتقاد الاقرار بالشهادة بأن محمدا رسول الله بعثه برسالته الى الخلائق كافة وجعله خاتم الانبياء ونسخ بشريعته الشرائع وجعله سيد البشر والشفيع المشفع فى المحشر وأوجب على الخلق تصديقه فيما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة فلا يصح ايمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت من سؤال منكر ونكير وهما ملكان من ملائكة الله تعالى يسألان العبد فى قبره عن التوحيد والرسالة ويقولان له من ربك وما دينك ومن نبيك ويؤمن بعذاب القبر وأنه حق وأن الميزان حق والصراط حق والحساب حق وان الجنة حق والنار حق وأن الله تعالى يدخل الجنة من يشاء بغير حساب وهم المقربون وأنه يخرج عصاة الموحدين من النار بعد الانتقام حتى لا يبقى فى جهنم من فى قلبه مثقال ذرة من الايمان ويؤمن بشفاعة الانبياء ثم بشفاعة العلماء ثم بشفاعة الشهداء وأن يعتقد فضل الصحابة رضى الله تعالى عنهم ويحسن الظن بجميعهم على ما وردت به الاخبار وشهدت به الآثار فمن اعتقد جميع ذلك مؤمنا به موقنا فهو من أهل

ثم انه عقب الدعاء عليه بأن استعطى منه ما لم تفعل يعنى الصرف التى لم تخرج وقوله أرخاها للفصل يعنى به اللسان وسمى مفصلا بالكسر لانه يفصل بين الحق والباطل قال الحريرى وليس على ما اعتمده القاضى عبيد الله من الاستماح وخفض الجناح ما يقدح فى نزاهته ويغض من نبله ونباهته والله أعلم ونقلت من درة الغواص) أن عروة ابن أذينة الشاعر وفد على هشام ابن عبد الملك فى جماعة من الشعراء فلما دخلوا عليه عرف عروة فقال له ألست القائل

لقد علمت وما الاسراف من خلقى
ان الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسعى له فيعنينى تطلبه
ولو قعدت أتانى لا يعنينى

وأراك قد جئت من الحجاز الى الشام فى طلب الرزق فقال له يا أمير المؤمنين زادك الله بسطة فى العلم والجسم ولا رد وافدك خائبا والله لقد بالغت فى الوعظ وأذكرتنى ما أنسانيه الدهر وخرج من فوره الى راحلته فركبها وتوجه راجعا الى الحجاز فلما كان فى الليل ذكره هشام وهو فى فراشه فقال رجل من قريش قال حكمة ووفد الى فجبهته ورددته عن حاجته وهو مع ذلك شاعر لا آمن ما يقول فلما أصبح سأل عنه فاخبر بانصرافه وقال لا جرم ليعلم أن الرزق سيأتيه ثم دعا مولى له وأعطاه ألفى دينار وقال الحق بهذه ابن أذينة وأعطه اياها قال فلم أدركه الا وقد دخل بيته فقرعت الباب عليه فخرج الى فاعطيته المال فقال أبلغ أمير المؤمنين قولى سعيت فاكديت ورجعت الى بيتى فاتانى رزقى (ويضارع هذه الحكاية) ما حكى عن هدبة بن خالد رحمه الله تعالى قال حضرت مائدة المأمون فلما رفعت المائدة جعلت التقط ما فى الارض فنظر الى المأمون فقال أما شبعت

الحق والسنة مفارق لعصابة الضلال والبدعة رزقنا الله الثبات على هذه العقيدة وجعلنا من أهلها ووفقنا للدوام الى الممات على التمسك والاعتصام بحبلها انه سميع مجيب فهذه العقيدة قد اشتملت على أحد أركان الاسلام الخمسة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى الاسلام على خمس شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصيام رمضان وحج البيت من استطاع اليه سبيلا

(الفصل الثاني في الصلاة وفضلها) قال الله تعالى حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين وقال تعالى وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وقال تعالى ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا * واختلفوا في اشتقاق اسم الصلاة مم هو فقيل هو من الدعاء وتسمية الصلاة دعاء معروفة في كلام العرب فسميت الصلاة صلاة لما فيها من الدعاء وقيل سميت بذلك من الرحمة قال الله تعالى ان الله وملائكته يصلون على النبي فهي من الله رحمة ومن الملائكة استغفار ومن الناس دعاء قال صلى الله عليه وسلم اللهم صل على آل أبي أوفى أى ارحمهم وقيل سميت بذلك من الاستقامة من قولهم صليت العود على النار اذا قومته والصلاة تقيم العبد على طاعة الله وخدمته وتنهاه عن خلافه قال الله تعالى ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وقيل لانها صلة بين العبد وربه وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال علم الايمان الصلاة فمن فرغ لها قلبه وحافظ عليها بحدودها فهو مؤمن وعن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أنه قال وهو على المنبر ان الرجل ليشيب عارضاه في الاسلام وما أكمل لله تعالى صلاة قيل وكيف ذلك قال لا يتم ركوعها وسجودها وخشوعها وتواضعه واقباله على الله فيها وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه فاذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه وقيل للحسن ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوها فقال لانهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره وقال بعضهم لا تفوت أحدا صلاة في جماعة الا بذنب * وكانت رابعة العدوية تصلي في اليوم والليلة ألف ركعة وتقول والله ما اريد بها ثوابا ولكن ليسر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول للانبياء عليهم الصلاة والسلام انظروا الى امرأة من أمتي هذا عملها في اليوم والليلة * وقال بعضهم صليت خلف ذي النون المصري فلما أراد أن يكبر رفع يديه وقال الله ثم بهت وبقي كأنه جسد لا روح فيه اعظاما لربه جل وعلا ثم قال الله أكبر فظننت ان قلبي انخلع من هيبة تكبيره * وقيل أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام يا داود كذب من ادعى محبتي واذا جن عليه الليل نام عني أليس كل محب يحب الخلوة بحبيبه * ولعبد الله ابن المبارك رضى الله تعالى عنه

اذا ما الليل أظلم كابدوه * فيسفر عنهم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا * وأهل الأمن في الدنيا هجوع

وكان سيدي الشيخ الامام العلامة فتح الدين بن أمين الدين الحكم النحريري رحمه الله كثيرا ما يتمثل بهذه الابيات

يا أيها الراقد كم ترقد * قم يا حبيبي قد دنا الموعد
وخذ من الليل ولو ساعة * تحظى اذا ما هجع الرقد
من نام حتى ينقضي ليله * لم يبلغ المنزل لو يجهد

وكان سيدي أويس القرني لا ينام ليلة ويقول ما بال الملائكة لا يفترون ونحن نفتر وقال حذيفة رضى الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة وقال هشام بن عروة كان أبي يطيل المكتوبة ويقول هي رأس المال وقال أبو الطفيل سمعت أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه يقول يا أيها الناس قوموا الى نيرانكم فأطفؤها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الصلاة الى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر * وجزأ محمد بن المنكدر عليه وعلى أمه وعلى أخته الليل أثلاثا فماتت أخته فجزأه عليه وعلى أمه فماتت أمه فقام الليل كله * وكان مسلم بن بشار اذا أراد أن يصلي في بيته يقول لاهله تحدثوا فلست أسمع حديثكم * وكان اذا دخل البيت سكت أهله فلا يسمع لهم كلام فاذا قام الى الصلاة تحدثوا وضحكوا ووقع حريق الى جنبه وهو في الصلاة فما شعر به حتى أطفئ * وكان الحمام يقع على رأس ابن الزبير في المسجد الحرام يحسبه جذعا منصوبا بالطول انتصابه في الصلاة وكانت العصافير تقع على ظهر ابراهيم بن شريك وهو ساجد كما تقع على الحائط * وختم القرآن في ركعة واحدة أربعة من الائمة عثمان بن عفان وتميم الداري وسعيد بن جبير وأبو حنيفة رضى الله تعالى عنهم ورأى الأوزاعي شابا بين القبر والمنبر فلما طلع الفجر استلقى ثم قال

يا شيخ قلت بلى يا أمير المؤمنين ولكن حدثني حماد بن سلمة عن ثابت بن أنس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من التقط ما تحت مائدته أمن من الفقر فنظر المأمون الى خادم واقف بين يديه فأشار اليه فما شعرت أن جاءني ومعه منديل فيه ألف دينار فناولني اياه فقلت يا أمير المؤمنين وهذا من ذاك انتهى (ومن لطائف ما جنيت من ثمرات الاوراق) ان رجلا من الحذاق كان يكتب كتابا والى جانبه آخر فانتهى في كتابه الى اسم عمرو فكتبه بغير واو فقال يا مولانا لا زدها واو الفرق بينه وبين عمر فقال له والله لقد تفضل مولانا بزيادة واو يعني تفوضل (قلت) وبعضهم يرى ان الواو تزاد بعد لا النافية في الجواب اذا قيل هل فعلت كذا وكذا فيقول لا وعافاك الله * قال أبو الفرج بن الجوزي روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال لرجل عربي أكان كذا وكذا فقال لا أطال الله بقاك فقال الامام عمر رضى الله عنه قد علمتم فلم تتعلموا هلا قلت لا وعافاك الله (وحكى) عن الصاحب بن عباد انه قال هذه الواو هنا أحسن من واوات الاصداغ في وجنات الملاح (قلت) وهذه الواو أعني واو عمر ونظم فيها الشعراء كثيرا منهم أبو نواس قال يهجو أشجع السلمي

قل ان يدعي سليمى سفاها
لست منها ولا قلامة ظفر
انما أنت من سليمى كواو
ألحقت في الهجاء ظلما بعمرو (وقال أبو سعيد الرستمي وأجاد)
أفي الحق أن يعطى ثلاثون شاعرا
ويحرم ما دون الرضا شاعر مثلي
كما سامحوا عمرا بواو مزيدة
وضويق بسم الله في ألف الوصل

(ومن لطائف المجتنى) ما نقل عن السلطان صلاح الدين يوسف بن

*عندا الصباح يحمد القوم السرى * فقال يا ابن أخي لك ولأصحابك لا للجمالين وكان خلف بن أيوب لا يطرد الذباب عن وجهه في الصلاة فقيل له كيف تصبر فقال بلغني أن الفساق يتصبرون تحت السياط ليقال فلان صبور وأنا بين يدي ربي أفلا أصبر على ذباب يقع علي وقال أبو صفوان بن عوانة ما من منظر أحسن من رجل عليه ثياب بيض وهو قائم يصلي في القمر كأنه يشبه الملائكة وقال الحسن ما كان في هذه الأمة أعبد من فاطمة عليها السلام بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تقوم بالأسحار حتى تورمت قدماها وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تورمت قدماه وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وكانت دموعه تقع في مصلاه كوكف المطر وكان ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام يسمع لقلبه خفقان وغليان * هذا خوف الحبيب والخليل مع ما أعطيا من الاجلال والاكرام وشرف المقام فالعجب كيف يطمئن قلب من أزعجته الآثام وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل قال له ادع الله أن يجعلني رفيقك في الجنة فقال أعني على نفسك بكثرة السجود وقال حاتم الأصم رحمه الله تعالى فاتتني صلاة الجماعة مرة فعزاني أبو اسحق البخاري وحده ولو مات لي ولد لعزاني أكثر من عشرة آلاف لان مصيبة الدين عندهم أهون من مصيبة الدنيا وكان السلف رضي الله تعالى عنهم يعزون أنفسهم ثلاثة أيام اذا فاتتهم التكبيرة الأولى وسبعا اذا فاتتهم الجماعة وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه (وأنشد بعضهم)

خسر الذي ترك الصلاة وخابا * وأبى معادا صالحا ومآبا * ان كان يجحدها فحسبك أنه *
أضحى بربك كافرا مرتابا * أو كان يتركها لنوع تكاسل * غطى على وجه الصواب حجابا
فالشافعي ومالك رأيا له * ان لم يتب حد الحسام عقابا
والرأي عندي للامام عذابه * بجميع تأديب يراه صوابا

اللهم أعنا على الصلاة وتقبلها منا بكرمك ولا تجعلنا من الغافلين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين (ومما يستحسن الحاقه بهذا الفصل) ذكر شيء من فضل السواك والاذان (أما السواك) فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة وقال أيضا صلاة على أثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة على غير سواك وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام ليتهجد يشوص فاه بالسواك وقال صلى الله عليه وسلم السواك مطهرة للفم مرضاة للرب وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لو يعلم الناس ما في السواك لبات مع الرجل في لحافه وقال أيضا أفواهكم طرق لكلام ربكم فنظفوها * والاختيار في السواك أن يكون بعود الاراك ويجزي بغيره من العيدان وبالسعد والاشنان والخرقة الخشنة وغير ذلك مما ينظف ويستاك عرضا مبتدئا بالجانب الايمن من فيه وينوي به الاتيان بالسنة والسواك بعود الزيتون يزيل الحفر من الاسنان وقال الاصحاب يقول عند السواك اللهم بارك لي فيه يا أرحم الراحمين ويستاك في ظاهر الاسنان وباطنها ويمر السواك على أطراف أسنانه وأضراسه وسقف حلقه امرارا لطيفا ويستاك بعود متوسط لا شديد اليبوسة ولا شديد اللين فان اشتد يبسه لينه بالماء وقد قيل ان من فضائل السواك أنه يذكر الشهادة عند الموت ويسهل خروج الروح (وأما الاذان) فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه قيل في قوله تعالى ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا نزلت في المؤذنين وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يغفر الله للمؤذن مدى صوته ويشهد له ما سمعه من رطب ويابس عن معاوية رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة رواه مسلم وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين رواه البخاري ومسلم وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا انس ولا شيء الا شهد له يوم القيامة رواه البخاري والأحاديث في فضله كثيرة مشهورة والله سبحانه وتعالى أعلم

(الفصل الثالث في الزكاة وفضلها) قرن الله سبحانه وتعالى الزكاة بالصلاة في مواضع شتى من كتابه قال الله تعالى وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وقال تعالى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة

أيوب فيسل انه قال يوما للقاضي الفاضل لنا مدة لم نر فيها العماد الكاتب فلعله ضعيف امض اليه وتفقد أحواله فلما دخل الفاضل الى دار العماد وجد أشياء أنكرها في نفسه مثل آثار مجالس أنس ورائحة خمر وآلات طرب فانشد

ما ناصحتك خبايا الود من رجل
مالم ينلك بمكروه من العذل
محبتي فيك تأبى عن مسامحتي
بأن أراك على شيء من الزلل

فلما قام من عنده نزع العماد عما كان فيه وأقلع ولم يعد الى شيء من ذلك البتة (ومن اللطائف) ما نقل عن الملك الظاهر رحمه الله تعالى قيل انه لما استعرض الأمير بدر الدين بيليك الخازندار ايشتريه قال له أنا حر يا مولانا السلطان وأحسن الكتابة فاحضرت له دواة فكتب يقول

لولا الضرورة ما فارقتكم أبدا
ولا تنقلت من ناس الى ناس

فأعجبه الاستشهاد بهذا البيت ورغبه ذلك في مشتراه (ويضارعه ما حكي عن الصاحب كمال الدين ابن العديم) قيل ان انسانا رفع قصة الى الصاحب المشار اليه فأعجبه خطها فامسكها وقال لرافعها هذا خطك قال لا ولكن حضرت الى باب مولانا فوجدت بعض مماليكه فكتبها الي فقال علي به فلما حضر وجده مملوكه فقال هذا خطك قال نعم قال فهذه طريقتي من هو الذي أظهرك عليها فقال يا مولانا كنت اذا وقعت لاحد على قصة أخذتها منه وسألته المهلة حتى أكتب عليها سطرين أو ثلاثة فأمره أن يكتب بين يديه ابراه فكتب

وما تنفع الآداب والعلم والحجى
وصاحبها عند الكمال يموت

فكان اعجاب الصاحب بالاستشهاد أكثر من الخط ورفع منزلته بعد ذلك (وأذكرني اتفاق التورية في الكمال هنا) ما حكي عن القاضي

وايتاء الزكاة وقال تعالى ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة وعن بريدة رضى الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ماحبس قوم الزكاة الاحبس الله عنهم القطر وعن عائشة رضى الله تعالى عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ماخالطت الزكاة مالا قط الا أهلكته وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من كان عنده مايزكى ولم يزك ومن كان عنده مايحج ولم يحج سال الرجعة يعنى قوله تعالى رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت (ولنلحق) بهذا الفصل ذكر شئ من الصدقة وفضلها وماجاء فيها وما أعد الله تعالى للمتصدقين من الأجر والثواب ودفع البلاء قال الله تعالى ان الله يجزى المتصدقين وقال تعالى والمتصدقين والمتصدقات الآية والآيات الكريمة فى ذلك كثيرة والأحاديث الصحيحة فيه مشهورة وروى الترمذى فى جامعه بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره وفى صحيح مسلم وموطأ مالك وجامع الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مانقص مال من صدقة أو قال مانقصت صدقة من مال ومازاد الله عبدا بعفو الا عزا وماتواضع عبد الا رفعه الله تعالى (ودخلت) امرأة شلاء على عائشة رضى الله عنها فقالت كان أبى يحب الصدقة وأمى تبغضها لم تتصدق فى عمرها الا بقطعة شحم وخلقة فرأيت فى المنام كأن القيامة قد قامت وكأن أمى قد غطت عورتها بالخلقة وفى يدها الشحمة تلحسها من العطش فذهبت الى أبى وهو على حافة حوض يسقى الناس فطلبت منه قدحا من ماء فسقيت أمى فنوديت من فوق ألا من سقاها فشل الله يدها فانتبهت كما ترين (ووقف) سائل على امرأة وهى تتعشى فقامت فوضعت لقمة فى فيه ثم بكرت الى زوجها فى مزرعة فوضعت ولدها عنده وقامت لحاجة تريد قضاءها فاختلسه الذئب فوقفت وقالت يارب ولدى فأتاها آت فأخذ بعنق الذئب فاستخرجت ولدها من غير أذى ولا ضرر فقال لها هذه اللقمة بتلك اللقمة التى وضعتيها فى فم السائل (وعشش) ورشان فى شجرة فى دار رجل فلما همت أفراخه بالطيران زينت امرأة ذلك الرجل له أخذ افراخ ذلك الورشان ففعل ذلك مرارا وكلما افرخ الورشان أخذوا افراخه فشكا الورشان ذلك الى سليمان عليه السلام وقال يارسول الله أردت ان يكون لى أولاد يذكرون الله تعالى من بعدى فأخذها الرجل بأمر امرأته ثم أعاد الورشان الشكوى فقال سليمان لشيطانين اذا رأيتماه يصعد الشجرة فشقاه نصفين فلما أراد الرجل ان يصعد الشجرة اعترضه سائل فاطعمه كسرة من خبز شعير ثم صعد وأخذ الافراخ على عادته فشكا الورشان ذلك الى سليمان عليه السلام فقال للشيطانين ألم تفعلا ما أمرتكما به فقال اعترضنا ملكان فطرحانا فى الخافقين (وقال) النخعى كانوا يرون ان الرجل الظلوم اذا تصدق بشئ دفع عنه البلاء وكان الرجل يضع الصدقة فى يد الفقير ويتمثل قائما بين يديه ويسأله قبولها حتى يكون هو فى صورة السائل وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الصدقة تسد سبعين بابا من الشر وعنه صلى الله عليه وسلم قال ردوا صدمة البلاء ولو بمثل رأس الطائر من الطعام وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال ردوا مذمة السائل ولو بظلف محرق وعنه أيضا صلى الله عليه وسلم اتقوا النار ولو بشق تمرة وقال عيسى صلوات الله وسلامه عليه من رد سائلا خائبا لم تغش الملائكة ذلك البيت سبعة أيام وكان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يناول المسكين بيده وعنه صلى الله عليه وسلم مامن مسلم يكسو مسلما ثوبا الا كان فى حفظ الله ما كانت عليه منه رقعة وقال عبد العزيز بن عمير الصلاة تبلغك نصف الطريق والصوم يبلغك باب الملك والصدقة تدخلك عليه وعن الربيع بن خيثم انه خرج فى ليلة شاتية وعليه برنس خز فرأى سائلا فاعطاه اياه وتلا قوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لا يرد القضاء الا الدعاء ولا يزيد فى العمر الا البر وان سوء الخلق شؤم وحسن الملكة نماء والصدقة تدفع ميتة السوء وقال يحيى بن معاذ ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا الا من الصدقة وعن عمر رضى الله تعالى عنه ان الأعمال تباهت فقالت الصدقة انا أفضلكن وعن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تداركوا الهموم والغموم بالصدقات يدفع الله ضركم وينصركم على عدوكم وعن عبيد بن عمير قال يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط وأعطش ما كانوا قط فمن أطعم لله أشبعه الله ومن سقى لله سقاه الله ومن كسا لله كساه الله وقال الشعبى من لم ير نفسه الى ثواب الصدقة أحوج من الفقير الى صدقته فقد أبطل صدقته وضرب بها وجهه وكان الحسن بن صالح اذا جاءه سائل

فخر الدين لقمان والقاضى تاج الدين أحمد بن الاثير رحمهما الله انهما كانا صحبة السلطان على تل العجول ولفخر الدين مملوك اسمه الطنبا فاتفق أنه طلب مملوكه المذكور وناداه ياطنبا فقال له نعم ولم يأته وكانت ليلة عطرة مظلمة فاخرج فخر الدين بن لقمان رأسه من الخيمة فقال تقول نعم ولم أرك فقال القاضى تاج الدين

فى ليلة من جمادى ذات أندية
لا يبصر الكلب فى ارجائها الطنبا

(ومن اتفاق التورية) أيضا ما كتبه الشيخ شرف الدين بن عبد العزيز الأنصارى شيخ شيوخ حماة ملغزا فى باب الى والده

ماواقف فى المخرج
يذهب طورا ويجى
لست أخاف شره * مالم يكن بمرتج

فكتب اليه والده فى الجواب ذهاب واياب وخوف وشر هذا باب خصومة والسلام (قيل) ان الصاحب جمال الدين بن مطروح كتب لبعض الرؤساء رقعة الى صديق له يشفع فيها عنده فكتب ذلك الرئيس هذا الأمر على فيه مشقة فكتب ابن مطروح فى جوابه لولا المشقة فلما وقف عليها فهم الاشارة الى قول المتنبى

لولا المشقة ساد الناس كلهم
الجود يفقر والاقدام قتال

وقضى الشغل على الفور انتهى

* (قيل) * ان يوسف الصديق عليه السلام كتب على باب السجن لما خرج منه هذا قبر الاحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء (وقال الشاعر)

دعوى الاخاء على الرخاء كثيرة
بل فى الشدائد تعرف الاخوان

(ولله در يزيد بن المهلب) من ذى مروءة وسخاء وتصديق أمل فانه كان فى سجن الحجاج يعذب فدخل عليه يزيد بن الحكم وقد حل عليه نجم وكانت نجومه فى كل أسبوع

فان كان عنده ذهب أو فضة أو طعام أعطاه فان لم يكن عنده من ذلك شيء أعطاه دهنا أو غيره مما ينتفع به فان لم يكن عنده شيء أعطاه كحلا أو أخرج ابرة وخيطا فرقع بهما ثوب السائل (ووجه) رجل ابنه في تجارة فغضت أشهر ولم يقع له على خبر فتصدق برغيفين وأرخ ذلك اليوم فلما كان بعد سنة رجع ابنه سالما رابحا فسأله أبوه هل أصابك في سفرك بلاء قال نعم غرقت السفينة بنا في وسط البحر وغرقت في جملة الناس واذا بشابين أخذاني فطرحاني على الشط وقالا لي قل لوالدك هذا برغيفين فكيف لو تصدقت بأكثر من ذلك وقال علي رضي الله تعالى عنه وكرم الله وجهه اذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك فيوافيك به حيث تحتاج اليه فاغتنم حمله اياه ولله در القائل حيث قال يبكي على الذاهب من ماله * وانما يبقى الذي يذهب

(وحكى) ان رجلا عبد الله سبعين سنة فبينما هو في معبده ذات ليلة اذ وقفت به امرأة جميلة فسألته أن يفتح لها وكانت ليلة شاتية فلم يلتفت اليها وأقبل على عبادته فولت المرأة فنظر اليها فأعجبته فملكت قلبه وسلبت لبه فترك العبادة وتبعها وقال الى أين فقالت الى حيث أريد فقال هيهات صار المراد مريدا والأحرار عبيدا ثم جذبها فادخلها مكانه فأقامت عنده سبعة أيام فعند ذلك تذكر ما كان فيه من العبادة وكيف باع عبادة سبعين سنة بمعصية سبعة أيام فبكى حتى غشي عليه فلما أفاق قالت له يا هذا والله أنت ما عصيت الله مع غيري وأنا ما عصيت الله مع غيرك واني أرى في وجهك أثر الصلاح فبالله عليك اذا صالحك مولاك فاذكرني قال فخرج هائما على وجهه فآواه الليل الى خربة فيها عشرة عميان وكان بالقرب منهم راهب يبعث اليهم في كل ليلة بعشرة أرغفة فجاء غلام الراهب على عادته بالخبز فمد ذلك الرجل العاصي يده فأخذ رغيفا فبقي منهم رجل لم يأخذ شيأ فقال أين رغيفي فقال الغلام قد فرقت عليكم العشرة فقال أبيت طاويا فبكى الرجل العاصي وناول الرغيف لصاحبه وقال لنفسه أنا أحق ان أبيت طاويا لاني عاص وهذا مطيع فنام واشتد به الجوع حتى أشرف على الهلاك فأمر الله تعالى ملك الموت بقبض روحه فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة هذا رجل فر من ذنبه وجاء طائعا وقالت ملائكة العذاب بل هو رجل عاص فأوحى الله تعالى اليهم ان زنوا عبادة السبعين سنة بمعصية السبع ليال فوزنوها فرجحت المعصية على عبادة السبعين سنة فأوحى الله اليهم ان زنوا معصية السبع ليال بالرغيف الذي آثر به على نفسه فوزنوا ذلك فرجح الرغيف فتوفته ملائكة الرحمة وقبل الله توبته (وحكى) ان رجلا جلس يوما يأكل هو وزوجته وبين أيديهما دجاجة مشوية فوقف سائل ببابه فخرج وانتهره فذهب فاتفق بعد ذلك ان الرجل افتقر وزالت نعمته وطلق زوجته وتزوجت بعده برجل آخر فجلس يأكل معها في بعض الأيام وبين أيديهما دجاجة مشوية واذا بسائل يطرق الباب فقال الرجل لزوجته ادفعي اليه هذه الدجاجة فخرجت بها اليه فاذا هو زوجها الأول فدفعت اليه الدجاجة ورجعت وهي باكية فسألها زوجها عن بكائها فأخبرته ان السائل كان زوجها وذكرت له قصتها مع ذلك السائل الذي انتهره زوجها الأول فقال لها زوجها أنا والله ذلك السائل (وذكر) عن مكحول ان رجلا أتى الى أبي هريرة رضي الله عنه فقال ادع الله لابني فقد وقع في نفسي الخوف من هلاكه فقال له ألا أدلك على ما هو أنفع من دعائي وأنجع وأسرع اجابة قال بلى قال تصدق عنه بصدقة تنوي بها نجاة ولدك وسلامة ما معه فخرج الرجل من عنده وتصدق على سائل بدرهم وقال هذا خلاص ولدي وسلامته وما معه فنادى في تلك الساعة مناد في البحر ألا ان الفداء مقبول وزيد مغاث فلما قدم سأله أبوه عن حاله فقال يا أبت لقد رأيت في البحر عجبا يوم كذا وكذا في وقت كذا وكذا وهو اليوم الذي تصدق فيه والده عنه بالدرهم وذلك انا أشرفنا على الهلاك والتلف فسمعنا صوتا من الهواء ألا ان الفداء مقبول وزيد مغاث وجاءنا رجال عليهم ثياب بيض فقدموا السفينة الى جزيرة كانت بالقرب منا وسلمنا وصرنا بخير أجمعين والآثار والحكايات في ذلك كثيرة وفيما أشرت اليه كفاية ان وعى وأن ليس للانسان الا ما سعى والله أعلم

﴿الفصل الرابع في الصوم وفضله وما أعد الله للصائم من الأجر والثواب﴾ (قال) الله تعالى يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون قيل الصوم عموم وخصوص وخصوص الخصوص * فصوم العموم هو كف البطن والفرج وسائر الجوارح عن قصد الشهوة * وصوم الخصوص هو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام * وصوم خصوص الخصوص هو صوم

ستة عشر ألف درهم فقال له

أصبح في قيدك السماحة وال
جود وفضل السلاح والحسب
ولا تضجرن ان تتابعت نعم
وصارف في البلاء محتسب
برزت سبق الجياد في مهل
وقصرت دون سعيك العرب

فالتفت يزيد الى مولى له وقال أعطه نجم هذا الأسبوع ونصبر على العذاب الى السبت الآخر ﴿قال الاصمعي﴾ حضرت مجلس الرشيد وفيه مسلم بن الوليد اذ دخل أبو نواس فقال له الرشيد ما أحدثت بعدنا يا أبا نواس فقال يا أمير المؤمنين ولو في الخمر فقال قاتلك الله ولو في الخمر فانشد

يا شقيق النفس من حكم
نمت عن ليلي ولم أنم

حتى انتهى الى آخرها فقال

فتمشت في مفاصلهم
كتمشي البرء في السقم

فقال أحسنت والله يا غلام اعطه عشرة آلاف درهم وعشر خلع فاخذها وخرج قال الأصمعي فلما خرجنا من عنده قال لي مسلم بن الوليد ألم تر الى الحسن بن هانئ كيف سرق شعري وأخذ به مالا وخلعا فقلت له وأي معنى سرق لك قال قوله فتمشت في مفاصلهم البيت فقلت وأي شيء قلت فقال

كأن قلبي وشاحاها اذا خطرت
وقلبها قلبها في الصمت والخرس
تجري محبتها في قلب وامقها
جري السلافة في أعضاء منتكس

﴿ترجمة المعتزلة﴾

المعتزلة طائفة من المسلمين يرون ان أفعال الخير من الله وأفعال الشر من الانسان وان القرآن مخلوق محدث ليس بقديم وان الله تعالى غير مرئي يوم القيامة وان المؤمن اذا ارتكب الذنب مثل الزنا وشرب الخمر كان في منزلة بين منزلتين يعنون بذلك انه ليس بمؤمن ولا

القلب عن الهموم الدنية وكفه عما سوى الله بالكلية * قال رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الجسد الصيام وعنه
صلى الله عليه وسلم أنه قال للصائم فرحتان فرحة عند افطاره وفرحة عند لقاء ربه وقال وكيع فى قوله تعالى
كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الايام الخالية انها أيام الصوم تركوا فيها الاكل والشرب وعن أبى هريرة
رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من أفطر يوما فى رمضان من غير رخصة رخصها الله له لم
يقض عنه صيام الدهر روى فى صحيح النسائى عنه أيضا صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا جاء رمضان فتحت أبواب
الجنة وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين وروى الزهرى أن تسبيحة واحدة فى شهر رمضان أفضل من
ألف تسبيحة فى غيره وروى عن قتادة انه كان يقول من لم يغفر له فى شهر رمضان فلن يغفر له فى غيره وقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم لو يعلم الناس ما فى شهر رمضان من الخير لتمنت أمتى أن يكون رمضان السنة
كلها ولو أذن الله للسموات والأرض أن تتكلما لشهدتا لمن صام رمضان بالجنة وقال صلى الله عليه وسلم ليس
من عبد يصلى فى ليلة من شهر رمضان الا كتب الله له بكل ركعة ألفا وخمسمائة حسنة وبنى له بيتا فى الجنة من
ياقوتة حمراء لها سبعون ألف باب لكل باب منها مصراعان من ذهب وله بكل سجدة يسجدها شجرة يسير
الراكب فى ظلها مائة عام وقال صلى الله عليه وسلم ان لكل صائم دعوة فاذا أراد أن تقبل فليقل فى كل ليلة عند
فطره يا واسع المغفرة اغفر لى وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه من صام يوما من رمضان خرج من ذنوبه
كيوم ولدته أمه فاذا انسلخ عنه الشهر وهو حى لم يكتب عليه خطيئة حتى الحول ومن عطش نفسه لله فى يوم
شديد الحر من أيام الدنيا كان حقا على الله أن يرويه يوم القيامة وقال بعضهم الصيام زكاة البدن ومن صام
الدهر فقد وهب نفسه لله تعالى وروى فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم
قال الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة ورمضان الى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر وعنه صلى الله
عليه وسلم أنه قال صيام ثلاثة أيام من كل شهر كصيام الدهر وهى الأيام البيض وهى الثالث عشر والرابع عشر
والخامس عشر من كل شهر وفى صحيح البخارى عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه
وسلم أنه قال من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه * وفضل الصوم غزير لانه خصه الله تعالى
بالاضافة اليه كما ثبت فى الصحيح من الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال مخبرا عن ربه عز وجل كل عمل
ابن آدم له الا الصوم فانه لى وأنا أجزى به وقد يكتفى فى فضله بهذا الحديث الجليل وحسبنا الله ونعم الوكيل

* الفصل الخامس فى الحج وفضله * قال الله تعالى ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا وقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم من خرج من بيته حاجا أو معتمرا فمات أجرى الله له أجر الحاج والمعتمر الى يوم
القيامة وقال صلى الله عليه وسلم من استطاع الحج ولم يحج فليمت ان شاء يهوديا وان شاء نصرانيا وفى الحديث
ان من الذنوب ذنوبا لا يكفرها الا الوقوف بعرفة وفيه أعظم الناس ذنبا من وقف بعرفة فظن أن الله لم يغفر له
وهو أفضل يوم فى الدنيا وفى الخبر ان الحجر الاسود ياقوتة من يواقيت الجنة وأنه يبعثه الله يوم القيامة وله عينان
ولسان ينطق به يشهد لمن استلمه بحق وصدق وجاء فى الحديث الصحيح ان آدم عليه الصلاة والسلام لما قضى
مناسكه لقيته الملائكة فقالوا يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام وقال مجاهد ان الحجاج اذا قدموا مكة
تلقتهم الملائكة فسلموا على ركبان الابل وصافحوا ركبان الحمر واعتنقوا المشاة اعتناقا وكان من سنة السلف
رضى الله عنهم أن يشيعوا الغزاة ويستقبلوا الحجاج ويقبلوهم بين أعينهم ويسألوهم الدعاء لهم ويبادروا ذلك
قبل أن يتدنسوا بالآثام وعن النبى صلى الله عليه وسلم ان الله قد وعد هذا البيت أن يحجه كل سنة ستمائة ألف
فان نقصوا كملهم الله تعالى من الملائكة وان الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة فكل من حجها يتعلق بأستارها
ويسعى حولها حتى تدخل الجنة فيدخل معها (وحكى) أن جميلة الموصلية بنت ناصر الدولة أبى محمد بن حمدان
حجت سنة ست وثمانين وثلثمائة فصارت تاريخا مذكورا وقيل انها سقت أهل الموسم كلهم السويق بالطبرزد
والثلج واستصحبت البقول المزروعة فى المراكن على الجمال وأعدت خمسمائة راحلة للمنقطعين ونثرت على
الكعبة عشرة آلاف دينار ولم تستصبح فيها وعندها الا بشموع العنبر وأعتقت ثلثمائة عبد ومائتى جارية
وأغنت الفقراء والمجاورين (ولما) بنى آدم عليه الصلاة والسلام البيت وقال يا رب ان لكل عامل أجرا فما أجر
عملى قال اذا طفت به غفرت لك ذنوبك قال زدنى قال جعلته قبلة لك ولأولادك قال يا رب زدنى قال أغفر لكل

كافر وان اعجاز القرآن فى الصرفة
لا أنه فى نفسه معجز ولو لم يصرف الله
العرب عن معارضته لأتوا بما يعارضه
وان من دخل النار لم يخرج منها
وانما سموا معتزلة لان واصل بن
عطاء كان يجلس الى الحسن
البصرى رضى الله تعالى عنه فلما
ظهر الخلاف وقالت الخوارج بكفر
مرتكب الكبائر وقال الجماعة بانهم
مؤمنون وان فسقوا بالكبائر
خرج واصل عن الفريقين وقال ان
الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا
كافر بل هو فى منزلة بين منزلتين
فطرده الحسن رضى الله تعالى عنه
من مجلسه فاعتزل عنه فقيل لاتباعه
معتزلة * ولم يزل مذهب الاعتزال
ينمو الى أيام الرشيد فظهر بشر
المريسى وأحضر الشافعى مكبلا فى
الحديد فسأله بشر والسؤال ما تقول
يا قرشى فى القرآن فقال اياى تعنى
قال نعم قال مخلوق فخلى عنه وأحس
الشافعى رضى الله عنه بالشر وان
الفتنة تشتد فى اظهار القول بخلق
القرآن فهرب من بغداد الى مصر ولم
يقل الرشيد رحمه الله بخلق القرآن
فكان الأمر بين أخذ وترك الى
أن ولى المأمون فقال بخلق القرآن
وبقى يقدم رجلا ويؤخر أخرى فى
الدعوة الى ذلك الى ان قوى عزمه فى
السنة التى مات فيها وطلب الامام
أحمد بن حنبل رضى الله عنه فأخبر
فى الطريق أنه توفى فبقى الامام
محبوسا بالرقة حتى بويع المعتصم
فأحضر الى بغداد وعقد له مجلس
المناظرة وفيه عبد الرحمن بن اسحق
والقاضى أحمد بن أبى داود وغيرهما
فناظروه ثلاثة أيام فلم ينقطع فى بحث
وسفه أقوال الجميع فأمر به
فضرب بالسياط الى ان أغمى عليه
ورمى على بارية وهو مغشى عليه
ثم حمل وصار الى منزله ولم يقل بخلق
القرآن ومكث فى السجن ثمانية
وعشرين شهرا ولم يزل يحضر الجمعة

من استغفرني من الطائفين به من أهل التوحيد من أولادك قال يارب حسبي * وفي الحديث الحج المبرور ليس له جزاء الا الجنة وقيل للحسن ما الحج المبرور قال أن ترجع زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة (وأول) من كسا الكعبة الديباج عبد الله بن الزبير وكانت كسوتها المسوح والانطاع وكان يطيبها حتى يوجد ريحها من خارج الحرم وكان حكيم بن حزام يقيم عشية عرفة مائة بدنة ومائة رقبة فيعتق الرقاب عشية عرفة وينحر البدن يوم النحر وكان يطوف بالبيت فيقول لا اله الا الله وحده لا شريك له نعم الرب ونعم الاله أحبه وأخشاه (وروى) الحسن بن علي رضي الله عنهما يطوف بالبيت ثم صار الى المقام فصلى ركعتين ثم وضع خده على المقام فجعل يبكي و يقول عبيدك ببابك خويدمك ببابك سائلك ببابك مسكينك ببابك يردد ذلك مرارا ثم انصرف رضي الله عنه فمر بمساكين معهم فلق خبز يأكلون فسلم عليهم فدعوه الى الطعام فجلس معهم وقال لولا أنه صدقة لأكلت معكم ثم قال قوموا بنا الى منزلي فتوجهوا معه فاطعمهم وكساهم وأمر لهم بدراهم (وحج) عبد الله بن جعفر رضي الله عنه ومعه ثلاثون راحلة وهو يمشي على رجليه حتى وقف بعرفات فاعتق ثلاثين مملوكا وحملهم على ثلاثين راحلة وأمر لهم بثلاثين ألفا وقال أعتقتهم لله تعالى لعله يعتقني من النار وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما اني لأستحيي من ربي أن ألقاه ولم أمش الى بيته فمشى من المدينة الى مكة عشرين مرة (ومن) لطيف ما أنشد عمرو ابن حيان الضرير حين لم يهد اليه الحجاج شيأ

كأن الحجيج الآن لم يقربوا منى * ولم يحملوا منها سواكا ولا نعلا
أتونا فما جادوا بعود أراكة * ولا وضعوا في كف طفل لنا نقلا

(وقال غيره)

يحجون بالمال الذي يجمعونه * حراما الى البيت العتيق المحرم
ويزعم كل منهمو أن وزره * يحط ولكن فوقه في جهنم

(وقال آخر)

حج في الدهر حجة * حج فيها وأحرما * وأتانا من الحجا
ز كما راح محرما * فهو ذو الحجة الذي * ما توقى محرما

(وتخاصم) بدوي مع حاج عند منصرف الناس فقيل له أتخاصم رجلا من الحجاج فقال

يحج لكيما يغفر الله ذنبه * ويرجع قد حطت عليه ذنوب

وقال أبو الشمقمق

اذا حججت بمال أصله دنس * فما حججت ولكن حجت العير
ما يقبل الله الا كل طيبة * ما كل من حج بيت الله مبرور

والله سبحانه وتعالى أعلم

(الباب الثاني في العقل والذكاء والحمق وذمه وغير ذلك)

نص الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز ومنزل خطابه الوجيز على شرف العقل وقد ضرب الله سبحانه وتعالى الامثال وأوضحها و بين بدائع مصنوعاته وشرحها فقال تعالى وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له أقبل فاقبل ثم قال له أدبر فادبر فقال عز من قائل وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أعز علي منك بك آخذ و بك أعطي و بك أحاسب و بك أعاقب وقال أهل المعرفة والعلم العقل جوهر مضي خلقه الله عز وجل في الدماغ وجعل نوره في القلب يدرك به المعلومات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة *(واعلم)* أن العقل ينقسم الى قسمين قسم لا يقبل الزيادة والنقصان وقسم يقبلهما فأما الأول فهو العقل الغريزي المشترك بين العقلاء وأما الثاني فهو العقل التجريبي وهو مكتسب وتحصل زيادته بكثرة التجارب والوقائع وباعتبار هذه الحالة يقال ان الشيخ أكمل عقلا وأتم دراية وان صاحب التجارب أكثر فهما وأرجح معرفة ولهذا قيل من بيضت الحوادث سواد لمته وأخلقت التجارب لباس جدته وأراه الله تعالى لكثرة ممارسته تصاريف أقداره واقضيته كان جديرا برزانة العقل ورجاحة الدراية وقد يخص الله تعالى بالطافه الخفية من يشاء من عباده فيفيض عليه من خزائن مواهبه رزانة عقل وزيادة معرفة تخرجه عن حد الاكتساب ويصير بها راجحا على ذوي التجارب والآداب ويدل على ذلك قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام فيما أخبر الله تعالى به في محكم كتابه العزيز حيث يقول وآتيناه الحكم صبيا فمن سبقت له سابقة من الله تعالى في قسم السعادة وأدركته عناية أزلية أشرقت على

و يفتي ويحدث حتى مات المعتصم وولي الواثق فاظهر ما أظهر من المحنة وقال للامام أحمد لا تجمعن اليك أحدا ولا تساكني في بلد أنا فيه فاختفى الامام أحمد لا يخرج الى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق وولي المتوكل فاحضره وأكرمه وأطلق له مالا فلم يقبله وفرقه وأجرى على أهله وولده في كل شهر أربعة آلاف درهم ولم تزل جارية الى أن مات المتوكل وفي أيامه ظهرت السنة وكتب الى الآفاق برفع ما وقع من المحنة واظهار السنة وتكلم في مجلسه بالسنة ولم يزالوا أعني المعتزلة في قوة الى أيام المتوكل ولم يكن في هذه الامة الاسلامية أهل بدعة أكثر منهم (ومن) مشاهيرهم على ما ذكروا من الفضلاء الاعيان الجاحظ وواصل ابن عطاء والقاضي عبد الجبار والرماني النحوي وأبو علي الفارسي وأقضى القضاة الماوردي الشافعي وهذا غريب ومن المعتزلة أيضا الصاحب بن عباد وصاحب الكشاف والفراء النحوي والسيرافي وابن جني والله أعلم (ومما جنيته من ثمرات الأوراق) ان الرشيد سأل جعفرا عن جواريه فقال يا أمير المؤمنين كنت في الليلة الماضية مضطجعا وعندي جاريتان وهما يكبساني فتناومت عنهما لانظر صنيعهما واحداهما مكية والأخرى مدنية فمدت المدنية يدها الى ذلك الشيء فلعبت به فانتصب قائما فوثبت المكية وقعدت عليه فقالت المدنية أنا أحق به لانني حدثت عن مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من أحيا أرضا ميتة فهي له فقالت المكية وأنا حدثت عن معمر عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ليس الصيد لمن أثاره انما الصيد لمن أخذه

باطنه أنوار ملكوتية وهداية ربانية فاتصف بالذكاء والفطنة قلبه وأسفر عن وجه الاصابة ظنه وان كان
حديث السن قليل التجربة كما نقل في قصة سليمان بن داود عليهما السلام وهو صبي حيث رد حكم أبيه داود
عليه السلام في أمر الغنم والحرث وشرح ذلك فيما نقله المفسرون أن رجلين دخلا على داود عليه السلام
أحدهما صاحب غنم والآخر صاحب حرث فقال أحدهما ان هذا دخلت غنمه بالليل الى حرثي فأهلكته ولم تبق لي فيه شيأ فقال داود عليه السلام الغنم لصاحب الحرث عوضا عن حرثه فلما خرجا من عنده مرا على
سليمان عليه السلام وكان عمره اذ ذاك على ما نقله أئمة التفسير احدى عشرة سنة فقال لهما ما حكم بينكما الملك
فذكرا له ذلك فقال غير هذا أرفق بالفريقين فعادا الى داود عليه السلام وقالا له ما قاله ولده سليمان عليه
السلام فدعاه داود عليه السلام وقال له ما هو الأرفق بالفريقين فقال سليمان تسلم الغنم الى صاحب الحرث
وكان الحرث كرما قد تدلت عناقيده في قول أكثر المفسرين فيأخذ صاحب الكرم الأغنام يأكل لبنها وينتفع
بدرها ونسلها ويسلم الكرم الى صاحب الأغنام ليقوم به فاذا عاد الكرم الى هيئته وصورته التي كان عليها ليلة
دخلت الغنم اليه سلم صاحب الكرم الغنم الى صاحبها وتسلم كرمه كما كان بعناقيده وصورته فقال له داود القضاء
كما قلت وحكم به كما قال سليمان عليه السلام وفي هذه القصة نزل قوله تعالى وداود وسليمان اذ يحكمان في الحرث
اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما فهذه المعرفة والدراية
لم تحصل لسليمان بكثرة التجربة وطول المدة بل حصلت بعناية ربانية وألطاف الهية واذا قذف الله تعالى شيأ
من أنوار مواهبه في قلب من يشاء من خلقه اهتدى الى مواقع الصواب ورجح على ذوي التجارب والاكتساب
في كثير من الأسباب ويستدل على حصول كمال العقل في الرجل بما يوجد منه وما يصدر عنه فان العقل معنى
لا تمكن مشاهدته فان المشاهدة من خصائص الأجسام فأقول يستدل على عقل الرجل بأمور متعددة منها
ميله الى محاسن الأخلاق واعراضه عن رذائل الأعمال ورغبته في اسداء صنائع المعروف وتجنبه ما يكسبه
عارا ويورثه سوء السمعة * وقد قيل لبعض الحكماء بم يعرف عقل الرجل فقال بقلة سقطه في الكلام وكثرة
اصابته فيه فقيل له فان كان غائبا فقال باحدى ثلاث اما برسوله واما بكتابه واما بهديته فان رسوله قائم مقام
نفسه وكتابه يصف نطق لسانه وهديته عنوان همته فبقدر ما يكون فيه من نقص يحكم به على صاحبها وقيل
من أكبر الأشياء شهادة على عقل الرجل حسن مداراته للناس ويكفي أن حسن المداراة يشهد لصاحبه بتوفيق
الله تعالى اياه فانه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من حرم مداراة الناس فقد حرم التوفيق فمقتضاه
أن من رزق المداراة لم يحرم التوفيق وقالوا العاقل الذي يحسن المداراة مع أهل زمانه وقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم الجنة مائة درجة تسعة وتسعون منها لأهل العقل وواحدة لسائر الناس وقال علي بن عبيدة العقل
ملك والخصال رعية فاذا ضعف عن القيام عليها وصل الخلل اليها فسمعه أعرابي فقال هذا كلام يقطر عسله
وقيل بأيدي العقول تمسك أعنة النفوس وكل شئ اذا كثر رخص الا العقل فانه كلما كثر غلا وقيل لكل شئ
غاية وحد والعقل لا غاية له ولا حد ولكن الناس يتفاوتون فيه تفاوت الأزهار في المروج * واختلف الحكماء
في ماهيته فقال قوم هو نور وضعه الله طبعا وغريزة في القلب كالنور في العين وهو يزيد وينقص ويذهب ويعود
وكما يدرك بالبصر شواهد الأمور كذلك يدرك بنور القلب المحجوب والمستور وعمى القلب كعمى البصر قال الله
تعالى فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور وقيل محل العقل الدماغ وهو قول أبي حنيفة
رحمه الله تعالى وذهب جماعة الى أنه في القلب كما روى عن الشافعي رحمه الله تعالى واستدلوا بقوله تعالى فتكون
لهم قلوب يعقلون بها وبقوله تعالى ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أي عقل وقالوا التجربة مرآة العقل
ولذلك حمدت آراء المشايخ حتى قالوا المشايخ أشجار الوقار لا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم فهم وعليكم بآراء
الشيوخ فانهم ان عدموا ذكاء الطبع فقد أفادتهم الأيام حيلة وتجربة (قال الشاعر)

ألم تر أن العقل زين لأهله * ولكن تمام العقل طول التجارب

(وقال آخر)

اذا طال عمر المرء في غير آفة * أفادت له الأيام في كرها عقلا

(وقال) عامر بن عبد قيس اذا عقلك عقلك عما لا يعنيك فأنت عاقل * ويقال لا شرف الا شرف العقل ولا غنى
الا غنى النفس وقيل يعيش العاقل بعقله حيث كان كما يعيش الأسد بقوته حيث كان قال الشاعر

فضحك الرشيد حتى استلقى على
قفاه وقال هل من سلوة عنهما فقال
جعفر هما مولاهما بحكم أمير
المؤمنين وحملهما اليه (ومن ذلك)
ما حكى عن بعض المطربين انه غنى
في جماعة عند بعض الأمراء

اذا أنت أعطيت السعادة لم تبل
ولو نظرت شزرا اليك القبائل
وان فوق الاعداء نحوك أسهما
ثنتها على أعقابهن المناصل

فطرب الامير الى الغاية ولما زاد
طربه قال لبعض مماليكه هات
خلعة لهذا المغني ولم يفهم المغني
ما يقوله الامير فقام لقلة حظه الى
بيت الخلاء وفي غيبته جاء المملوك
بالخلعة فوجد المغني غائبا وقد حصل
في المجلس عربدة وأمر الأمير
باخراج الجميع فقيل للمغني بعد
ما خرج ان الامير كان قد أمر لك
بخلعة فلما كان بعد أيام حضر المغني
عند ذلك الأمير وغنى فقال

اذا أنت أعطيت السعادة لم تبل
ولو نظرت شزرا اليك القبائل

بفتح التاء وضم الباء فأنكروا عليه
فقال نعم لاني لما بلت في ذلك اليوم
فاتتني السعادة من الامير فأوضحوا
له القصة فضحك وأعجبه ذلك وأمر
له بخلعة (ومن المنقول) ان عبد
الله بن المعتز من خلفاء بني العباس
مع كماله وغزارة فضله كان لم يزل
منغصا في مدة حياته بويع له
بالخلافة وظن ان الحظ قد تنبه له فلم
يتم الأمر له الا يوما واحدا ثم قبض
عليه وقتل رحمه الله تعالى على انه
ما وافق على ولاية الامر حتى
اشترط عليهم ان لا يسفكوا في
واقعته دما ومحله من الادب لا يخفى
وشمعة فضله كالصبح لا تقط ولا تطفى
وقد قيل

لله درك من ملك بمضيعة
ناهيك في العلم والعلياء والحسب
ما فيه لو ولا ليت فتنقصه
وانما أدركته حرفة الادب

اذا لم يكن للمرء عقل فانه * وان كان ذا بيت على الناس هين
ومن كان ذا عقل أجل لعقله * وأفضل عقل عقل من يتدين

وقالوا العاقل لا تبطره المنزلة السنية كالجبل لا يتزعزع وان اشتدت عليه الريح والجاهل تبطره أدنى منزلة كالحشيش يحركه أدنى ريح وقيل لعلى رضى الله تعالى عنه صف لنا العاقل قال هو الذى يضع الشئ مواضعه قيل فصف لنا الجاهل قال قد فعلت يعنى الذى لا يضع الشئ مواضعه وقال المنصور لولده خذ عنى ثنتين لا تقل من غير تفكير ولا تعمل بغير تدبير وقال أردشير أربعة تحتاج الى أربعة الحسب الى الادب والسرور الى الامن والقرابة الى المودة والعقل الى التجربة وقال كسرى أنوشروان أربعة تؤدى الى أربعة العقل الى الرياسة والرأى الى السياسة والعلم الى التصدير والحلم الى التوقير وقال القاسم بن محمد من لم يكن عقله أغلب الخصال عليه كان حتفه من أغلب الخصال عليه وقيل أفضل العقل معرفة العاقل بنفسه وقيل ثلاثة هن رأس العقل مداراة الناس والاقتصاد فى المعيشة والتحبب الى الناس وقيل من أعجب برأى نفسه بطل رأيه ومن ترك الاستماع من ذوى العقول مات عقله وعن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنه أنه قال أهل مصر أعقل الناس صغارا وأرحمهم كبارا وقيل العاقل المحروم خير من الاحمق المرزوق وقيل لا ينبغى للعاقل أن يمدح امرأة حتى تموت ولا طعاما حتى يستمرئه ولا يثق بخليل حتى يستقرضه وقيل طول اللحية أمان من العقل وسئل بعضهم أيما أحمد فى الصبا الحياء أم الخوف قال الحياء لان الحياء يدل على العقل والخوف يدل على الجبن وقيل غضب العاقل على فعله وغضب الجاهل على قوله وقال أبو الدرداء رضى الله تعالى عنه قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عويمر ازدد عقلا تزدد من الله تعالى قربا قلت بأبى وأمى ومن لى بالعقل قال اجتنب محارم الله تعالى وأد فرائض الله تعالى تكن عاقلا ثم تنفل الى صالح الأعمال تزدد فى الدنيا عقلا وتزدد من الله قربا وعزا وحكى عن بعض أهل المعرفة قال حياة النفس بالروح وحياة الروح بالذكر وحياة القلب بالعقل وحياة العقل بالعلم ويروى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه انه كان ينشد هذه الابيات ويترنم بها

ان المكارم أخلاق مطهرة * فالعقل أولها والدين ثانيها * والعلم ثالثها والحلم رابعها
والجود خامسها والعرف سادسها * والبر سابعها والصبر ثامنها * والشكر تاسعها واللين عاشيها
والعين تعلم من عينى محدثها * ان كان من حزبها أو من أعاديها
والنفس تعلم أنى لا أصدقها * ولست أرشد الاحين أعصيها

(وقال) بعض الحكماء العاقل من عقله فى ارشاد ورأيه فى امداد فقوله سديد وفعله حميد والجاهل من جهله فى اغراء فقوله سقيم وفعله ذميم ولا يكفى فى الدلالة على عقل الرجل الاغترار بحسن ملبسه وملاحة سمته وتسريح لحيته وكثرة ملقته ونظافة بزته اذ كم من كنيف مبيض وجلد مفضض وقد قال الاصمعى رأيت بالبصرة شيخا له منظر حسن وعليه ثياب فاخرة وحوله حاشية وهرج وعنده دخل وخرج فاردت ان أختبر عقله فسلمت عليه وقلت له ما كنية سيدنا فقال أبو عبد الرحمن الرحيم مالك يوم الدين قال الاصمعى فضحكت منه وعلمت قلة عقله وكثرة جهله ولم يدفع ذلك عنه غزارة خرجه ودخله وقد يكون الرجل موسوما بالعقل مرموقا بعين الفضل فيصدر منه حالة تكشف عن حقيقة حاله وتشهد عليه بقلة عقله واختلاله * وقيل ان اياس بن معاوية القاضى كان من أكابر العقلاء وكان عقله يهديه الى سلوك طرق لا يكاد يسلكها من لم يهتد اليها فكان من جملة الوقائع التى صدرت منه وشهدت له بالعقل الراجح والفكر القادح انه كان فى زمانه رجل مشهور بين الناس بالامانة فاتفق أن رجلا أراد أن يحج فأودع عند ذلك الرجل الامين كيسا فيه جملة من الذهب ثم حج فلما عاد من حجه جاء الى ذلك الرجل وطلب كيسه منه فأنكره وجحده فجاء الى القاضى اياس وقص عليه القصة فقال القاضى هل أخبرت بذلك أحدا غيرى قال لا قال فهل علم الرجل انك أتيت الى قال لا قال انصرف واكتم أمرك ثم عد الى بعد غد فانصرف ثم ان القاضى دعا ذلك الرجل المستودع فقال له قد حصل عندى أموال كثيرة ورأيت ان أودعها عندك فاذهب وهئ لها موضعا حصينا فمضى ذلك الرجل وحضر صاحب الوديعة بعد ذهاب الرجل فقال له القاضى اياس امض الى خصمك واطلب منه وديعتك فان جحدك فقل له امض معى الى القاضى اياس أتحاكم أنا وأنت عنده فلما جاء اليه دفع اليه وديعته فجاء الى القاضى وأعلمه

(وقال ابن الساعاتى)
عفت القريض فلا أسمو له أبدا
حتى لقد عفت ان أرويه فى الكتب
هجرت نظمى له لا من مهانته
لكنها خيفة من حرفة الادب

قلت وما برح الزمان مولعا بخمول أهل الادب وخمود نارهم كان الملك الافضل نور الدين على بن صلاح الدين يوسف من كبار أهل الادب وكان حسن السيرة متديناً عاقلاً ان عاقب على ذنب وله المناقب الجميلة وكان أكبر اخوته ومع كمال صفاته وآدابه التى سارت بها الركبان ما صفا له الدهر ولا هناه بالملك بعد أبيه السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى لبث مدة يسيرة بدمشق المحروسة ثم حضر اليه عمه أبو بكر العادل وأخوه الملك العزيز عثمان فأخرجاه من ملكه بدمشق الى صرخد ثم جهزاه الى سميساط وفى ذلك كتب الى الامام الناصر ببغداد

مولاى ان أبا بكر وصاحبه
عثمان قد منعا بالسيف حق على
فانظر الى حظ هذا الاسم كيف لقى
من الأواخر ما لاقى من الأول

فكتب الناصر الجواب ولكن الفرق مثل الصبح

وافى كتابك يا ابن يوسف معلنا
بالصدق يخبر ان أصلك طاهر
غصبوا عليا حقه اذ لم يكن
بعد النبى له بيثرب ناصر
فاصبر فان غدا عليه حسابهم
وابشر فناصرك الامام الناصر

ولم ينصره الامام الناصر بل توفى فجأة بسميساط رحمه الله تعالى ومن شعره ما ذكره ابن واصل فى مفرج الكروب

يا من يسود شعره بخضابه
فعساه من أهل الشبيبة يحصل
ها فاختضب بسواد حظى مرة
ولك الأمان بانه لا ينصل

قلت ومثله الملك الناصر داود

بذلك ثم ان ذلك الرجل المستودع جاء الى القاضي طامعا في تسليم المال فسبه القاضي وطرده وكانت هذه الواقعة مما تدل على عقله وصحة فكره (ولما) مات بعض الخلفاء اختلفت الروم واجتمعت ملوكها فقالوا الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض فتمكننا الغرة منهم والوثبة عليهم وعقدوا لذلك المشورات وتراجعوا فيه بالمناظرات واجمعوا على أنه فرصة الدهر وكان رجل منهم من ذوي العقل والمعرفة والرأي غائبا عنهم فقالوا من الحزم عرض الرأي عليه فلما أخبروه بما أجمعوا عليه قال لا أرى ذلك صوابا فسألوه عن علة ذلك فقال في غد أخبركم ان شاء الله تعالى فلما أصبحوا أتوا اليه وقالوا قد وعدتنا ان تخبرنا في هذا اليوم بما عولنا عليه فقال سمعا وطاعة وأمر باحضار كلبين عظيمين قد أعدهما ثم حرش بينهما وحرض كل واحد منهما على الآخر فتواثبا وتهارشا حتى سالت دماؤهما فلما بلغا الغاية فتح باب بيت عنده وأرسل على الكلبين ذئبا كان قد أعده لذلك فلما أبصراه تركا ما كانا عليه وتألفت قلوبهما ووثبا جميعا على الذئب فقتلاه فأقبل الرجل على أهل الجمع فقال مثلكم مع المسلمين مثل هذا الذئب مع الكلاب لا يزال الهرج بين المسلمين ما لم يظهر لهم عدو من غيرهم فاذا ظهر تركوا العداوة بينهم وتألفوا على العدو فاستحسنوا قوله واستصوبوا رأيه فهذه صفة العقلاء

﴿وأما ذم الحمق﴾ فقد قال ابن الاعرابي الحماقة مأخوذة من حمقت السوق اذا كسدت فكأنه كاسد العقل والرأي فلا يشاور ولا يلتفت اليه في أمر من الامور والحمق غريزة لا تنفع فيها الحيلة وهو داء دواؤه الموت قال الشاعر

لكل داء دواء يستطب به * الا الحماقة أعيت من يداويها

والحمق مذموم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الأحمق أبغض الخلق الى الله تعالى اذ حرمه أعز الاشياء عليه وهو العقل ويستدل على صفة الاحمق من حيث الصورة بطول اللحية لان مخرجها من الدماغ فمن أفرط طول لحيته قل دماغه ومن قل دماغه قل عقله ومن قل عقله فهو أحمق وأما صفته من حيث الافعال فترك نظره في العواقب وثقته بمن لا يعرفه والعجب وكثرة الكلام وسرعة الجواب وكثرة الالتفات والخلو من العلم والعجلة والخفة والسفه والظلم والغفلة والسهو والخيلاء ان استغنى بطر وان افتقر قنط وان قال أفحش وان سئل بخل وان سأل ألح وان قال لم يحسن وان قيل له لم يفقه وان ضحك قهقه وان بكى صرخ وان اعتبرنا هذه الخلال وجدناها في كثير من الناس فلا يكاد يعرف العاقل من الاحمق * قال عيسى عليه السلام عالجت الابرص والأكمه فأبرأتهما وعالجت الاحمق فأعياني والسكوت عن الاحمق جوابه ونظر بعض الحكماء الى أحمق على حجر فقال حجر على حجر ﴿وحكى﴾ ان أحمقين اصطحبا في طريق فقال أحدهما للآخر تعال نتمن على الله فان الطريق تقطع بالحديث فقال أحدهما أنا أتمنى قطائع غنم أنتفع بلبنها ولحمها وصوفها وقال الآخر أنا أتمنى قطائع ذئاب أرسلها على غنمك حتى لا تترك منها شيأ قال ويحك أهذا من حق الصحبة وحرمة العشرة فتصايحا وتخاصما واشتدت الخصومة بينهما حتى تماسكا بالاطواق ثم تراضيا على ان أول من يطلع عليهما يكون حكما بينهما فطلع عليهما شيخ بحمار عليه زقان من عسل فحدثاه بحديثهما فنزل الزقين وفتحهما حتى سال العسل على التراب ثم قال صب الله دمي مثل هذا العسل ان لم تكونا أحمقين * وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال كان رجل يتعبد في صومعة فامطرت السماء وأعشبت الأرض فرأى حماره يرعى في ذلك العشب فقال يارب لو كان لك حمار لرعيته مع حماري هذا فبلغ ذلك بعض الانبياء عليهم الصلاة والسلام فهم أن يدعو عليه فأوحى الله اليه لا تدع عليه فاني أجازي العباد على قدر عقولهم ويقال فلان ذو حمق وافر وعقل نافر ليس معه من العقل الا ما يوجب حجة الله عليه وخطب سهل هند بنت عتبة فحمقته فقال

وما هو حي يا هند الا حجية * أحرها ذلي بحسن الخلائق
ولو شئت خادعت الفتى عن قلوصه * ولا طمت في البطحاء من كل طارق

ويقال للابله السليم القلب هو من بقر الجنة لا ينطح ولا يرمح والاحمق المؤذي هو من بقر سقر والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿الباب الثالث في القرآن وفضله وحرمته وما أعد الله تعالى لقارئه من الثواب العظيم والأجر الجسيم﴾

قال الله تعالى ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر وسمى الله تعالى القرآن كريما فقال تعالى انه لقرآن كريم وسماه حكيما فقال تعالى يس والقرآن الحكيم وسماه مجيدا فقال تعالى ق والقرآن المجيد أنزله الله

ابن الملك المعظم وكان داود صاحب الكرك مارخ مع كمال فضله منكدا مشتتا في البلاد توجه الى بغداد ومعه فخر القضاة بن بصاقة والشيخ شمس الدين الخسرو شاهي وقد استصحب جواهر نفيسة والتجأ الى الامام الناصر وطلب الحضور بين يديه ليشاهده في الملا فما قدر له ذلك ولا وافق الخليفة عليه حتى امتدحه بقصيدته البائية التي مطلعها

ودان ألمت بالكثيب ذوائبه
وجنح الدجى وحف تجول غياهبه
تقهقه في تلك الربوع رعوده
وتبكي على تلك الطلول سحائبه

وقال منها في حكاية حاله مع الخليفة

أيحسن في شرع المعالي ودينها
وأنت الذي تعزى اليه مذاهبه
بأني أخوض الدو والدو مقفر
سباريته مقفرة وسباسبه
ويأتيك غيري من بلاد قريبة
له الامن فيها صاحب لا يجانبه
فيلقى دنوا منك لم ألق مثله
ويحظى ولا أحظى بما أنا طالبه
وينظر في لألاء قدسك نظرة
فيرجع والنور الامامي صاحبه
ولو كان يعلوني بنفس ورتبة
وصدق ولاء لست فيه أصاقبه
لكنت أسلي النفس عما ترومه
وكنت أزود العين عما تراقبه
ولكنه مثلي ولو قلت انني
أزيد عليه لم يعب ذاك عائبه

الناصر يشير الى مظفر الدين كوكبوري بن كوجك فانه قدم الى الديوان فطلب الحضور فاذن له وبرز له الخليفة وشاهد وجهه ولما وقف الخليفة على هذه القصيدة أعجبته غاية الاعجاب وهي من النظم البديع في غاية لا تدرك فاستدعاه بعد شطر من الليل واجتمع به خلوة وما تم له ما ظفر به مظفر الدين المذكور وسبب ذلك أن الخليفة راعى عمه المذكور والذي ثبت عند أهل التاريخ أن عمه العادل

تعالى على سيد الانام وخاتم الانبياء الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام فكان من أعظم معجزاته ان أعجز الله الفصحاء عن معارضته وعن الاتيان بآية من مثله قال تعالى قل فأتوا بسورة من مثله وقال تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا فهو النور المبين والحق المستبين لاشئ أسطع من أعلامه ولا أصدع من أحكامه ولا أفصح من بلاغته ولا أرجح من فصاحته ولا أكثر من افادته ولا ألذ من تلاوته قال رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن فيه خبر من قبلكم ونبأ من بعدكم وحكم ما بينكم وقال أيضا صلى الله عليه وسلم أصفر البيوت بيت صفر من كتاب الله تعالى وقال الشعبي الذى يقرأ القرآن انما يحدث عن ربه عز وجل ووفد غالب ابن صعصعة على على بن أبى طالب كرم الله وجهه ومعه ابنه الفرزدق فقال له من أنت قال غالب بن صعصعة قال ذو الابل الكثيرة قال نعم قال فما فعلت بابلك قال أذهبتها النوائب وزعزعتها الحقوق قال ذلك خير سبلها ثم قال له يا أبا الأخطل من هذا الذى معك قال ابنى وهو شاعر قال علمه القرآن فهو خير له من الشعر فكان ذلك فى نفس الفرزدق حتى قيد نفسه وآلى على نفسه أن لا يحل قيده حتى يحفظ القرآن فحفظه فى سنة وفى ذلك قال

وما صب رجلى فى حديد مجاشع * مع القيد الا حاجة لى أريدها

وقال أنس رضى الله عنه قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يا بنى لا تغفل عن قراءة القرآن اذا أصبحت واذا أمسيت فان القرآن يحيى القلب الميت وينهى عن الفحشاء والمنكر ﴿وحكى﴾ الزمخشرى فى كتابه ربيع الأبرار قال ومن حكايات الحشوية ما قيل ان ابراهيم الخواص مر بمصروع فأذن فى أذنه فناداه الشيطان من جوفه دعنى أقتله فانه يقول القرآن مخلوق * وكان سفيان الثورى رحمه الله تعالى اذا دخل رمضان ترك جميع العبادة وأقبل على قراءة القرآن * وكان الامام مالك بن أنس رحمه الله تعالى اذا دخل شهر رمضان يفر من مذاكرة الحديث ومجالسة أهل العلم ويقبل على القراءة فى المصحف وكان أبو حنيفة والشعبى رحمهما الله تعالى يختمان فى رمضان ستين ختمة وقال على رضى الله تعالى عنه من قرأ القرآن فمات فدخل النار فهو ممن كان يتخذ آيات الله هزوا وقال الشعبى اللسان عدل على الأذن والقلب فاقرأ قراءة تسمعها أذنك ويفهمها قلبك وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ القرآن ثم رأى ان أحدا أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر ما عظم الله وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ان القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد قيل يا رسول الله وما جلاؤها قال قراءة القرآن وذكر الموت وقال عمر بن ميمون من نشر مصحفا حين يصلى الصبح فقرأ مائة آية رفع الله له مثل عمل جميع أهل الدنيا وقال على كرم الله وجهه من قرأ القرآن وهو قائم فى الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة ومن قرأه وهو جالس فى الصلاة فله بكل حرف خمسون حسنة ومن قرأه فى غير صلاة وهو على وضوء فخمسة وعشرون حسنة ومن قرأه على غير وضوء فعشر حسنات وقال ابن عباس رضى الله عنهما لان أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحب الى من أن أقرأ القرآن كله هذرمة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرؤا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا وعن صالح المزنى قال قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى يا صالح هذه القراءة فأين البكاء وكان عثمان رضى الله عنه يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة الى المائدة وليلة السبت بالانعام الى هود وليلة الأحد بيوسف الى مريم وليلة الاثنين بطه الى طسم موسى وفرعون وليلة الثلاثاء بالعنكبوت الى ص وليلة الأربعاء بتنزيل الى الرحمن ويختم ليلة الخميس * وعن على رضى الله عنه لا خير فى عبادة لا فقه فيها ولا خير فى قراءة لا تدبر فيها وكان عكرمة بن أبى جهل رضى الله تعالى عنه ولعن أباه اذا أنشر المصحف أغمى عليه ويقول هو كلام ربى وأبطأت عائشة رضى الله عنها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقال ما حبسك قالت قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتا منه فقام فاستمع اليه طويلا ثم قال هذا سالم مولى أبى حذيفة الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثله وقال ابن عيينة رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقلت يا رسول الله قد اختلفت على القراآت فعلى قراءة من تأمرنى فقال على قراءة أبى عمرو * وعن أبى عمرو انى لم أزل أطلب أن أقرأه كما قرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكما أنزل عليه فقدمت مكة فلقيت بها عدة من التابعين ممن قرأ على الصحابة رضى الله عنهم أجمعين فقرأت عليهم فاشددبها يدك * فينبغى للانسان أن يحافظ على تلاوة القرآن ليلا ونهارا سفرا وحضرا * وقال الشيخ محيى الدين

ما فعل ذلك الا حسدا له على كمال أدواته وبلاغة آدابه وقيل انه كتب خطا منسوبا ازرى بالحدائق المدبجة (وحكى صاحب الريحان والريعان) قال حضر شاب ذكى بعض مجالس الأدب فقال بعضهم ما تصحيف نصحت فخنتنى قال تصحيف حسن فاستغرب امراءه وكان بالمجلس شاعر من أهل بلنسية فاتهم الشاب وقال مختبرا له ما تصحيف بلنسية فأطرق ساعة ثم قال أربعة أشهر فجعل البلنسى يقول صدق ظنى انك تدعى وتنتحل ما تقول والفتى يضحك ثم قال له أشعرت أنت يا شاعر فقال له وأى نسبة بين أربعة أشهر وبين بلنسية فقال له ان لم يكن فى اللفظ فهو فى المعنى ثم قام وهو يقول ذلك فتنبه بعض الحاضرين ونظر فاذا أربعة أشهر ثلث سنة وهو تصحيف بلنسية فخجل الشاعر المنازع ومضى الى الشاب معترفا ومعتذرا انتهى وهذا المعنى فى بلنسية نظمه الشيخ بدر الدين الدمامينى أحجية فقال

أيا واحد العصر ما بلدة
محاسنها فى الورى تذكر
تجى ما يرادف تصحيفها
وحقك أربعة أشهر

(ومن الغريب) ما نقل عن الفقيه عمارة اليمنى الشاعر أنه مر بمصلوب فقال

ومد على صليب الصلب منه
يمينا لا تطول الى الشمال
ونكس رأسه لعتاب قلب
دعاه الى الغواية والضلال

فلم يمض ثلاثة أيام حتى صلب بين القصرين مع الجماعة الغرماء (وكان) الفقيه نجم الدين عمارة أديبا ماهرا فقيها شافعى المذهب من أهل السنة قدم فى دولة الفاطميين الى الديار المصرية وصاحبها ابو منصور الفائز بن الظافر ووزيره الصالح بن رزيك فكان

النووى رحمه الله تعالى فى كتابه الأذكار وقد كان للسلف رضى الله عنهم عادات مختلفة فى القدر الذى يختمون فيه فكانت جماعة منهم يختمون فى كل شهر ختمة وآخرون فى كل عشر ليال ختمة وآخرون فى كل ثلاث ليال ختمة وكان كثيرون فى كل يوم وليلة ختمة وختم جماعة فى كل يوم وليلة ختمتين وختم بعضهم فى اليوم والليلة ثمان ختمات أربعا فى الليل وأربعا فى النهار وروى أن مجاهدا رحمه الله تعالى كان يختم القرآن فى شهر رمضان فيما بين المغرب والعشاء * وأما الذين ختموا القرآن فى ركعة فلا يحصون لكثرتهم فمنهم عثمان بن عفان وتميم الدارى وسعيد بن جبير رضى الله تعالى عنهم وروينا فى مسند الامام المجمع على حفظه وجلالته واتقانه وبراعته أبى محمد الدارمى رحمه الله عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال اذا وافق ختم القرآن أول الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح واذا وافق أول النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسى قال الدارمى هذا حديث حسن عن سعد وأفضل القراءة ما كان فى الصلاة وأما فى غير الصلاة فأفضلها قراءة الليل والنصف الأخير أفضل من الأول والقراءة بين المغرب والعشاء محبوبة وأما قراءة النهار فأفضلها بعد صلاة الصبح ولا كراهة فى وقت من الأوقات ولا فى أوقات النهى عن الصلاة ويستحب الاجتماع عند الختم لحصول البركة وقيل ان الدعاء يستجاب عند ختم القرآن وان الرحمة تنزل عند ختمه ويستحب الدعاء عقب الختم استحبابا مؤكدا تأكيدا شديدا ويجب على القارى الاخلاص فى قراءته وأن يريد بها وجه الله تعالى وأن لا يقصد بها توصلا الى شئ سوى ذلك وأن يتأدب مع القرآن ويستحضر فى ذهنه انه يناجى ربه سبحانه وتعالى ويتلو كتابه فيقرأ على حالة من يرى الله تعالى فانه ان لم يكن يراه فان الله يراه وينبغى للقارى اذا أراد القراءة أن ينظف فمه بالسواك وأن يكون شأنه الخشوع والتدبر والخضوع فهذا هو المقصود والمطلوب وبه تنشرح الصدور وتتيسر المرغوب ودلائله أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر وقد كان الواحد من السلف رضى الله عنهم يتلو آية واحدة ليلة كاملة يتدبرها ويستحب البكاء والتباكى لمن لا يقدر على البكاء فان البكاء عند القراءة صفة العارفين وشعار عباد الله الصالحين قال الله تعالى ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا * وقال السيد الجليل صاحب الكرامات والمعارف والمواهب واللطائف ابراهيم الخواص رضى الله تعالى عنه دواء القلب خمسة أشياء قراءة القرآن بالتدبر وخلو البطن وقيام الليل والتضرع عند السحر ومجالسة الصالحين وقد جاءت آثار بفضيلة رفع الصوت بالقراءة وآثار بفضيلة الاسرار قال العلماء ان أراد القارى بالاسرار بعد الرياء فهو أفضل فى حق من يخاف ذلك فان لم يخف الرياء فالجهر أفضل بشرط أن لا يؤذى غيره من مصل أو نائم أو غيرهما والأحاديث فى فضل القراءة وآداب حملة القرآن كثيرة غير محصورة ومن أراد الزيادة فلينظر فى كتاب التبيان فى آداب حملة القرآن لشيخ مشايخ الاسلام محيى الدين النووى قدس الله روحه ونور ضريحه وقد جاء فى فضل القرآن أحاديث كثيرة * وروى فى فضل قراءة سور من القرآن فى اليوم والليلة فضل كبير منها يس وتبارك الملك والواقعة والدخان فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال من قرأ يس فى يوم وليلة ابتغاء وجه الله تعالى غفر له وفى رواية له من قرأ سورة الدخان فى ليلة أصبح مغفورا له وفى رواية عن ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة وعن جابر رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينام كل ليلة حتى يقرأ الم تنزيل الكتاب وتبارك الملك وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال من قرأ فى ليلة اذا زلزلت الأرض كانت له كعدل نصف القرآن ومن قرأ قل يا أيها الكافرون كانت له كعدل ربع القرآن ومن قرأ قل هو الله أحد كانت له كعدل الثلث والأحاديث بنحو ما ذكرناه كثيرة وقد أشرنا الى المقاصد منها والله تعالى أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿الباب الرابع فى العلم والأدب وفضل العالم والمتعلم﴾

قال الله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وقال تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلموا العلم فان تعلمه لله حسنة ودراسته تسبيح والبحث عنه جهاد وطلبه عبادة وتعليمه صدقة وبذله لأهله قربة لانه معالم الحلال والحرام وبيان سبيل الجنة والمؤنس فى الوحشة والمحدث فى الخلوة والجليس فى الوحدة والصاحب فى الغربة والدليل

عنده فى أكرم محل وأعز جانب واتحد به على ما كان بينهما من الاختلاف فى العقيدة ثم رحل الى اليمن وعاد الى مصر وأقام بها الى أن زالت دولة الفاطميين على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ورثى أهل القصر بقصيدته التى أولها

رميت يا دهر كف المجد بالشلل
ورعته بعد حسن الحلى بالعطل

﴿ومنها﴾

قدمت مصر فأولتنى خلائفها
من المكارم ما أربى على الأمل
قوم عرفت بهم كسب الالوف ومن
تمامها انها جاءت ولم أسل
يا لائمى فى هوى أبناء فاطمة
لك الملامة ان قصرت فى عذل
بالله زر ساحة القصرين وابك معى
عليهما لا على صفين والجمل
ماذا ترى كانت الأفرنج فاعلة
بنسل آل أمير المؤمنين على

وهى طويلة فى غاية الحسن فلما بلغت السلطان صلاح الدين تغير عليه (وقيل) انه استفتى عليه فى قوله من قصيدته الميمية

وكان مبدأ هذا الأمر من رجل
سعى فأصبح يدعى سيد الامم

فأفتى الفقهاء بقتله وقالوا ان هذا الكلام رأى الفلاسفة فى النبوات وانها بالتكسب وهى احدى المسائل التى كفروا بها والصحيح انه يجتبى من رسله من يشاء ولم يكن أحد من الأنبياء عنده شعور بانه يكون فيما بعد نبيا والذى يظهر ان هذا مفتعل على الفقيه عمارة نظمه بعض أعدائه على لسانه ودسه فى تلك القصيدة وما يبعد أن القاضى الفاضل رحمه الله كان له ميل الى هلاكه لانه لما استشاره السلطان صلاح الدين فى ضربه قال الكلب يسكت ثم ينبح قال فيسجن قال يرجى له الخلاص قال فيقتل قال كذا الملوك اذا أرادوا شيأ فعلوه

على السراء والمعين على الضراء والزين عند الاخلاء والسلاح على الأعداء وبالعلم يبلغ العبد منازل الأخيار فى الدرجات العلى ومجالسة الملوك فى الدنيا ومرافقة الأبرار فى الآخرة والفكر فى العلم يعدل الصيام ومذاكرته تعدل القيام وبالعلم توصل الارحام وتفصل الاحكام وبه يعرف الحلال والحرام وبالعلم يعرف الله ويوحد وبالعلم يطاع الله ويعبد (قيل) العلم درك حقائق الاشياء مسموعا ومعقولا وقال النبى صلى الله عليه وسلم خير الدنيا والآخرة مع العلم وشر الدنيا والآخرة مع الجهل وعنه عليه الصلاة والسلام يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء يوم القيامة فلا يفضل أحدهما على الآخر ولغدوة فى طلب العلم أحب الى الله من مائة غزوة ولا يخرج أحد فى طلب العلم الا وملك موكل به يبشره بالجنة ومن مات وميراثه المحابر والاقلام دخل الجنة وقال على كرم الله وجهه أقل الناس قيمة أقلهم علما وقال أيضا رضى الله عنه العلم نهر والحكمة بحر والعلماء حول النهر يطوفون والحكماء وسط البحر يغوصون والعارفون فى سفن النجاة يسيرون وقال موسى عليه السلام فى مناجاته الهى من أحب الناس اليك قال عالم يطلب علما وقال بعض السلف رضى الله عنهم العلوم أربعة الفقه للاديان والطب للابدان والنجوم للازمان والنحو للسان وقيل العالم طبيب هذه الامة والدنيا داؤها فاذا كان الطبيب يطلب الداء فتى يبرئ غيره (وسئل) الشعبى عن مسئلة فقال لا علم لى بها فقيل له ألا تستحى فقال ولم أستحى مما لم تستح الملائكة منه حين قالت لا علم لنا وعن النبى صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم وروى كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وقال على كرم الله وجهه من نصب نفسه للناس اماما فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه وقيل مؤدب نفسه ومعلمها أحق بالاجلال من مؤدب الناس ومعلمهم وأنشدوا

يا أيها الرجل المعلم غيره * هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى * كيما يصح به وأنت سقيم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا * أبدا وأنت من الرشاد عديم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها * فاذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويهتدى * بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتى مثله * عار عليك اذا فعلت عظيم

وقال بعضهم

انى رأيت الناس فى عصرنا * لا يطلبون العلم للعلم
الا مباهاة لاصحابه * وعدة للغش والظلم

(نظر) رجل الى امرأته وهى صاعدة فى السلم فقال لها أنت طالق ان صعدت وطالق ان نزلت وطالق ان وقفت فرمت نفسها الى الارض فقال لها فداك أبى وأمى ان مات الامام مالك احتاج اليك أهل المدينة فى أحكامهم وقال النبى صلى الله عليه وسلم هلاك أمتى فى شيئين ترك العلم وجمع المال * وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الاعمال فقال العلم بالله والفقه فى دينه وكررها عليه فقال يا رسول الله أسألك عن العمل فتخبرنى عن العلم فقال ان العلم ينفعك معه قليل العمل وان الجهل لا ينفعك معه كثير العمل وقال عيسى عليه السلام من علم وعمل عد فى الملكوت الاعظم عظيما * وقال الخليل عليه السلام العلوم أقفال والاسئلة مفاتيحها وعنه عليه السلام زلة العالم مضروب بها الطبل وزلة الجاهل يخفيها الجهل وقال الحسن رأيت أقواما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون من عمل بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه والعامل بغير علم كالسائر على غير طريق فاطلبوا العلم طلبا لا يضر بالعبادة واطلبوا العبادة طلبا لا يضر بالعلم وقال يزيد بن ميسرة من أراد بعلمه وجه الله تعالى أقبل الله بوجهه ووجوه العباد اليه ومن أراد بعلمه غير وجه الله صرف الله وجهه ووجوه العباد عنه وعن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ألا أخبركم بأجود الأجواد قالوا بلى يا رسول الله قال الله أجود الاجواد وأنا أجود ولد آدم وأجود من بعدى رجل علم علما فنشره يبعث يوم القيامة أمة وحده ورجل جاد بنفسه فى سبيل الله حتى قتل وقال الثورى كان يقال العالم الفاجر فتنة لكل مفتون وعن الفضيل رحمه الله تعالى أنه قال لو أن أهل العلم أكرموا أنفسهم وأعزوا هذا العلم وصانوه وأنزلوه حيث أنزله الله اذا لخضعت لهم رقاب الجبابرة وانقاد لهم الناس وكانوا لهم تبعا ولكنهم أذلوا أنفسهم وبذلوا علمهم لابناء الدنيا فهانوا وذلوا فانا لله وانا اليه راجعون فاعظم بها مصيبة والله أعلم وللقاضى العلامة أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى وقد أحسن كل الاحسان

ونهض فأمر بصلبه فتبع الغرماء فلما أمسكوه مروا به على باب الفاضل فلما رآه مقبلا قام ودخل الى بيته وأغلق الباب فقال الفقيه عمارة

عبد الرحيم قد احتجب
ان الخلاص من العجب

(نكتة أدبية) قال ابن سناء الملك من أبيات

صلينى وهذا الحسن باق فربما
يعزل بيت الحسن منه ويكنس

فوقف القاضى الفاضل رحمه الله على هذه القصيدة وكتب الى ابن سناء الملك من جملة فصل وما قلت هذه الغاية الا وتعلمنى انها البداية ولا قلت هذا البيت آية القصيدة الا وتلا ما بعده وما نريهم من آية أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ولا عيب فى هذه المحاسن الا قصور الافهام وتقصير الانام والا فقد لهج الناس بما تحتها ودونوا ما دونها والقصيدة فائقة فى حسنها بديعة فى فنها ولكن بيت يعزل ويكنس أردت أن أكنسه من القصيدة فان لفظة الكنس غير لائقة بمكانها انتهى فأجاب ابن سناء الملك قائلا قد علم المملوك ما نبه عليه مولانا من أمر البيت الذى أراد أن يكنسه من القصيدة وقد كان المملوك مشغوفا بهذا البيت مستحليا له معجبا به معتقدا ان قافيته بيته أمير ذلك الشعر وسيدة قوافيه وما أوقعه فى الكنس الا ابن المعتز حيث يقول

وقوامى مثل القناة من الخط
وخدى من لحيتى مكنوس

والمولى يعلم ان المملوك لم يزل يجرى خلف هذا الرجل ويتعثر ويطلب مطالبه فتتعسر عليه وتتعذر وما مال المملوك الا الى طريق من ميله اليه طبعه ولا سار الا الى من دله عليه سمعه ورأى المملوك أبا عبادة قد قال

ويا عاذلى فى عبرة قد سفحتها
لبين وأخرى قبلها للتحبب
يحاول منى شيمة غير شيمتى

كأنما طرزت فى خلع حسان شعر

ولم أقض حق العلم ان كنت كلما * بدا طمع صيرته لى سلما
ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى * لاخدم من لاقيت لكن لاخدما
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة * اذا فاتباع الجهل قد كان أسلما
فان قلت زند العلم كاب فانما * كبا حين لم نحرس حماه وأظلما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم * ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا * محياه بالاطماع حتى تجهما

وقيل من لم يتعلم فى صغره لم يتقدم فى كبره وقال الفضيل شر العلماء من يجالس الامراء وخير الامراء من يجالس العلماء وقال لقمان جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فان الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الارض بماء السماء وقيل من عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار وكان ابن مسعود رضى الله عنه اذا رأى طالبي العلم قال مرحبا بكم ينابيع الحكمة ومصابيح الظلمة خلقان الثياب جدد القلوب رياحين كل قبيلة وقال على رضى الله عنه كفى بالعلم شرفا أن يدعيه من لا يحسنه ويفرح به اذا نسب اليه وكفى بالجهل ضعة أن يتبرأ منه من هو فيه ويغضب اذا نسب اليه وعن النبي صلى الله عليه وسلم ما آتى الله أحدا علما الا أخذ عليه الميثاق أن لا يكتمه أحدا ودعا بعضهم لآخر فقال جعلك الله ممن يطلب العلم رعاية لا رواية وممن يظهر حقيقة ما يعلمه بما يعمله وعن عمر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال على باب الجنة شجرة تحمل ثمارا كثدى النساء يخرج من تحتها عين ماء يشرب منها العلماء والمتعلمون مثل اللبن الحليب والناس عطاش وعن ابن مسعود رضى الله عنه من تعلم بابا من العلم ليعلمه الناس ابتغاء وجه الله أعطاه الله أجر سبعين نبيا وعن أنس رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويل لأمتى من علماء السوء يتخذون العلم تجارة يبيعونها الا أربح الله تجارتهم (شعر)

العلم أنفس شئ أنت ذاخره * من يدرس العلم تدرس مفاخره
أقبل على العلم واستقبل مقاصده * فأول العلم اقبال وآخره

(قال) الشعبي دخلت على الحجاج حين قدم العراق فسألنى عن اسمى فأخبرته ثم قال يا شعبي كيف علمك بكتاب الله قلت عنى يؤخذ قال كيف علمك بالفرائض قلت الى فيها المنتهى قال كيف علمك بانساب الناس قلت أنا الفيصل فيها قال كيف علمك بالشعر قلت أنا ديوانه قال لله أبوك وفرض لى أموالا وسودنى على قومى فدخلت عليه وأنا صعلوك من صعاليك همدان وخرجت وأنا سيدهم (قال البستى)

اذا لم يزد علم الفتى قلبه هدى * وسيرته عدلا وأخلاقه حسنا
فبشره ان الله أولاه فتنة * تغشيه حرمانا وتوسعه حزنا

وقال الهيثم بن جميل شهدت مالك بن أنس رضى الله عنه سئل عن ثمان وأربعين مسئلة فقال فى ثنتين وثلاثين منها لا أدرى وقال الاوزاعى شكت النواويس الى الله تعالى ما تجد من نتن ريح الكفار فأوحى الله اليها بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه وقال على رضى الله عنه من أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السماء والارض ولصالح اللخمى شعر

تعلم اذا ما كنت لست بعالم * فما العلم الا عند أهل التعلم
تعلم فان العلم أزين للفتى * من الحلة الحسناء عند التكلم

(ودخل) عبد الله بن مسلم الهذلى على المهدى فى القراء فاخذ عشرة آلاف درهم ثم دخل فى الرماة فأخذ عشرة آلاف درهم ثم دخل فى المغنين فاخذ كذلك ثم دخل فى القصاص فأخذ كذلك فقال المهدى لم أر كاليوم أجمع لما يجمع الله فى أحد منك ومل جماعة من الحكماء مجالسة رجل فتور واعنه فى بيت فرقى السطح وجعل يستمع من كوة حتى وقع عليه الثلج فصبر فشكر الله له ذلك فجعله امام الحكماء لا يختلفون فى شئ الا صدروا عن رأيه وشكا رجل الى وكيع بن الجراح سوء الحفظ فقال له استعن على الحفظ بترك المعاصى فأنشأ يقول

شكوت الى وكيع سوء حفظى * فأرشدنى الى ترك المعاصى
وذلك ان حفظ العلم فضل * وفضل الله لا يؤتى لعاصى

ووجد فى بعض الآثار عن بعضهم أنه قال اذا أردت أن تكون أحفظ الناس فقل عند رفع الكتاب أو المصحف

وتطلب منى مذهبا غير مذهبى
وقال
وما زارنى الا ولهت صبابة
اليه والا قلت أهلا ومرحبا
فعلم المملوك ان هذه طريقة لا تسلك وعقيلة لا تملك وغاية لا تدرك ووجد المملوك أبا تمام قد قال
سلم على الربع من سلمى بذى سلم
ووجدته أيضا قد قال
* خشنت عليه أخت بنى خشين *
فاشمأز من هذا اللفظ طبعه واقشعر منه فهمه ونبا عنه ذوقه وكان سمعه يتجرعه ولا يكاد يسيغه ووجد هذا المبدع السيد عبد الله بن المعتز قد قال
وقفت بالربع أشكو فقد مشبهه
حتى بكت بدموعى أعين الزهر
لو لم أعرها دموع العين تسفحها
لرحمتى لاستعارتها من المطر
وقد قال
قد لك غصن لا شك فيه كما
وجهك شمس نهاره جسدك
فوجد المملوك طبعه الى هذا الأمر مائلا وخاطره فى بعض الأحيان عليه سائلا فنسج على هذا الأسلوب وغلب على خاطره مع علمه انه المغلوب وحبك الشئ يعمى ويصم فقد أعماه حبه وأصمه الى أن نظم تلك اللفظة فى تلك الابيات تقليدا لابن المعتز فالها وحمل أثقالها وهى زلة تغتفر فى جنب حسناته وأما المملوك فهى عورة ظهرت فى أبياته (فاجابه الفاضل بقوله) ولا حجة فيما احتج به بابن المعتز عن الكنس فى بيته فانه غير معصوم من الغلط ولا يقلد الا فى الصواب فقط وقد علم بما ذكره ابن رشيق فى العمدة من تهافت طبعه وتباين صنعه ومخالفته وضعه فذكر من محاسنه ما لا يعلق معه كتاب ومن بارده وغثه ما لا تلبس عليه الثياب وقد تعصب القاضى السعيد على أبى تمام فنقصه حظه وأما البحترى فاعطاه أكثر من حقه وقال
ولو كان هذا موضع العتب لاشتفى

أو ابتداء القراءة في كل شئ أردت بسم الله وسبحان الله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم عدد كل حرف كتب ويكتب أبد الآبدين ودهر الداهرين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم (قيل) واذا أردت أن لا تنسى حرفا فقل قبل القراءة اللهم افتح علينا حكمتك وانشر علينا رحمتك ياذا الجلال والاكرام واذا أردت أن ترزق الحفظ فقل خلف كل صلاة مكتوبة آمنت بالله الواحد الاحد الحق لا شريك له وكفرت بما سواه (ومن فوائد سيدي الشيخ الصالح شهاب الدين أحمد بن موسى بن عجيل رحمه الله تعالى في الحفظ) يقرأ في كل يوم عشر مرات ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما الى قوله تعالى وكنا فاعلين ياحي ياقيوم يارب موسى وهرون ويارب ابراهيم ويارب محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام ألزمني الفقه وارزقني العلم والحكمة والعقل برحمتك ياأرحم الراحمين وعن أبي يوسف قال مات لي ولد فأمرت من يتولى دفنه ولم أدع مجلس أبي حنيفة خوفا أن يفوتني منه يوم وقال محمد بن اسحق بن خزيمة مارأيت تحت أديم السماء أعلم بالحديث ولا أحفظ له من محمد بن اسمعيل البخاري حتى كان يقال ان حديثا لا يعرفه محمد بن اسمعيل ليس بحديث وقال البخاري رحمه الله تعالى أحفظ مائة ألف حديث صحيح ومائتي ألف حديث غير صحيح وقال ماوضعت في كتابي الصحيح حديثا الا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين وقال أخرجته من ستمائة ألف حديث وصنفته في ست عشرة سنة وجعلته حجة فيما بيني وبين الله تعالى وقال مجاهد أتينا عمر ابن عبد العزيز لنعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه وكان يقال الليث ابن سعد رحمه الله تعالى ذهب علمه كله بموته ولهذا قال الشافعي لما قدم مصر بعد موته والله لانت أعلم من مالك وانما أصحابك ضيعوك وقال الليث بن سعد ماهلك عالم قط الا ذهب ثلثا علمه ولو حرص الناس ويقال اذا سئل العالم فلا تجب أنت فان ذلك استخفاف بالسائل والمسؤل وقالوا من خدم المحابر خدمته المنابر (شعر)

لا تدخر غير العلو * م فانها نعم الذخائر
فالمرء لو ربح البقا * مع الجهالة كان خاسر

وللشافعي رضي الله تعالى عنه شعر

أخي لن تنال العلم الا بستة * سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة * وصحبة أستاذ وطول زمان

وقال الزهري العلماء أربعة سعيد بن المسيب بالمدينة وعامر الشعبي بالكوفة والحسن البصري بالبصرة ومكحول بالشام وقال بعضهم العلماء سرج الازمنة كل عالم سراج زمانه يستضئ به أهل عصره وقيل لابراهيم بن عيينة أي الناس أطول ندامة قال أما في الدنيا فصانع المعروف الى من لا يشكره وأما في الآخرة فعالم مفرط (شعر)

كن عالما وارض بصف النعال * ولا تكن صدرا بغير الكمال
فان تصدرت بلا آلة * صيرت ذاك الصدر صف النعال

وقيل لما اجتمع موسى بالخضر عليهما السلام جاء عصفور فاخذ بمنقاره من البحر قطرة ثم حط على وزك الخضر ثم طار فنظر الخضر الى موسى عليه السلام وقال يانبي الله ان هذا العصفور يقول ياموسى أنت على علم من علم الله علمكه الله لا يعلمه الخضر والخضر على علم من علم الله علمه الله اياه لا تعلمه أنت وأنا على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه أنت ولا الخضر وما علمي وعلمك وعلم الخضر في علم الله الا كهذه القطرة من هذا البحر قال الله تعالى ولا يحيطون بشئ من علمه الا بما شاء وقال تعالى وما يعلم جنود ربك الا هو وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما خلق الله تعالى أربعين ألف عالم الانس والجن عالمان والبواقي لا يعلمها الا هو وقال موسى عليه السلام يارب قد قلت للسموات والارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فلو لم تطعك السموات والارض ماذا كنت فاعلا بهما قال ياموسى كنت آمر دابة من دوابي أن تبتلعهما قال موسى يارب وأين تلك الدابة قال في مرج من مروجي قال موسى يارب وأين ذلك المرج قال في علم من علمي لا يعلمه الا أنا وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في فكرة فقال فيم تفكرون تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فان الله خلق من جانب الغرب أرضا يقال لها البيضاء تقطعها الشمس في أربعين يوما فيها خلق ماعصوا الله طرفة عين فقال ابن عمر يارسول الله أين ابليس منهم قال ماعلموا بابليس خلق أم لا قال أمن بني آدم قال ماعلموا بآدم خلق أم لا فهذه كلها مما أعدها الله في علم غيبه انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون فسبحان

فؤادي ولكن للعتاب مواضع

(قال) الشيخ صلاح الدين الصفدي لما وقف على هذا الفصل رأيت ابن سناء الملك استعمل هذه اللفظة في غير هذا الموضع ولم يتعظ بنهي الفاضل ولا ارعوى ولا ازدجر عما قبحه بل غلب عليه الهوى فقال

وخلصني من يدي عشقه
ظلام على خده حندسه
كنست فؤادي من حبه
ولحيته كانت المكنسه

(قلت) ما برح الشيخ صلاح الدين غفر الله له يذوق تقليدا كقوله عن ابن سناء الملك لما استعمل في هذه الصيغة المشتملة على الهجو بشاعة المكنسة ولم يتعظ بنهي الفاضل ولا ارعوى ولا ازدجر عما قبحه بل غلب عليه الهوى أما نقد الفاضل على بن سناء الملك بوضع المكنسة على وجنة معشوقته التي ليس للعذار بوجنتها شعور فنقد صحيح * وأما وضع مكنسة اللحية على وجنة من طلعت لحيته وكان جائرا على عاشقه وسبكها هنا في قالب الهجو فهو نوع من المرقص والمطرب ولو وقف الفاضل على هذه المكنسة لاعدها لا يساته انتهى (ومن لطائف المنقول) ماحكي عن الشيخ مجد الدين ابن دقيق العيد والد قاضي القضاة تقي الدين تغمدهما الله برحمته ورضوانه وهو ان الشيخ مجد الدين المشار اليه كان كثير الاحسان الى أصحابه يسعى لهم على قدر استحقاقهم فيمن يصلح للحكم وفيمن يصلح للعدالة فجاءه بعض طلبته وشكا اليه رقة الحال وكثرة الضرورة فقال له اكتب قصتك وأنا أتحدث مع الولد فكتب ذلك الطالب المملوك فلان يقبل الأرض وينهي انه فقير ومظرور بالظاء القائمة وقليل الحض بالضاد وناولها للشيخ فلما قرأها تبسم وقال يافقير سبحان الله ضرك قائم وحظك

الذي بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون وقال قتادة لو كان أحد منا مكتفيا من العلم لاكتفى نبي الله موسى عليه السلام اذ قال هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا وقال الحكماء أفضل العلم وقوف العالم عند علمه وقال بعضهم ليس العلم ما خزنته الدفاتر وانما العلم ما خزنته الصدور وقيل العلم يؤدي الى التصدير وقيل من تواضع للعلم ناله ومن لم يتواضع له لم ينله وقيل من رق علمه رق وجهه ومن لم يستفد بالعلم مالا اكتسب به جمالا العلم نور وهدى والجهل غي وردى وقال بعضهم العالم يعرف الجاهل والجاهل لا يعرف العالم لان العالم كان جاهلا والجاهل لم يكن عالما وقيل أربعة يسودون العبد العلم والادب والصدق والامانة وقيل أهل العراق أطلب الناس للعلم وقال حماد بن سلمة مثل الذي يطلب الحديث ولا يعرف النحو كمثل الحمار عليه مخلاة لا شعير فيها ولابراهيم بن خلف المهراني

النحو يصلح من لسان الالكن * والمرء تكرمه اذا لم يلحن
واذا طلبت من العلوم أجلها * فأجلها منها مقيم الالسن

وقال علي بن بشار

رأيت لسان المرء آية عقله * وعنوانه فانظر بماذا تعنون
ولا تعد اصلاح اللسان فانه * يخبر عما عنده ويبين
ويعجبني زي الفتى وجماله * فيسقط من عيني ساعة يلحن

ودخل اعرابي السوق فوجدهم يلحنون فقال سبحان الله يلحنون ويربحون * وكلم أبو موسى بعض قواده فلحن فقال لم لا تنظر في العربية فقال بلغني ان من نظر فيها قل كلامه فقال ويحك لان يقل كلامك بالصواب خير لك من أن يكثر كلامك بالخطا وكان يقال مجالسة الجاهل مرض للعاقل وقال أبو الاسود الدؤلي اذا أردت أن تعذب عالما فاقرن به جاهلا وقال الشاعر

جهلت ولم تدري بأنك جاهل * ومن لي بأن تدري بأنك لا تدري

وقال رجل للحسن أنا أفصح الناس قال لا تقل هذا قال فخذ علي كلمة واحدة قال هذه واحدة أبو جهل كناه المسلمون بذلك وكانت قريش تكنيه أبا الحكم فقال حسان رضي الله تعالى عنه

الناس كنوه أبا حكم * والله كناه أبا جهل

﴿وأما ما جاء في الادب﴾ فقد قال بعض الحكماء العقل يحتاج الى مادة من الادب كما تحتاج الابدان الى قوتها من الطعام وقال علي كرم الله وجهه الادب كنز عند الحاجة عون على المروأة صاحب في المجلس أنيس في الوحدة تعمر به القلوب الواهية وتحيا به الالباب الميتة وينال به الطالبون ما حاولوا وقيل عقل بلا أدب كشجاع بلا سلاح ﴿وحكى﴾ أن رجلا تكلم بين يدي المأمون فأحسن فقال ابن من أنت قال ابن الادب يا أمير المؤمنين قال نعم النسب انتسبت اليه ولهذا قيل المرء من حيث يثبت لا من حيث ينبت ومن حيث يوجد لا من حيث يولد قال الشاعر

كن ابن من شئت واكتسب أدبا * يغنيك محموده عن النسب
ان الفتى من يقول ها أنا ذا * ليس الفتى من يقول كان أبي

وقال بعض الحكماء من كثر أدبه كثر شرفه وان كان وضيعا وبعد صيته وان كان خاملا وساد وان كان غريبا وكثرت حوائج الناس اليه وان كان فقيرا قال بعض الشعراء

لكل شيء زينة في الورى * وزينة المرء تمام الادب
قد يشرف المرء بآدابه * فينا وان كان وضيع النسب

وقال بعض الاعاجم مفتخرا

مالي عقلي وهمتي حسبي * ما أنا مولى وما أنا عربي
اذا انتمى منتم الى أحد * فانني منتم الى أدبي

وقيل الفضل بالعقل والادب لا بالاصل والحسب وقيل المرء بفضيلته لا بفصيلته وبكماله لا بجماله وبآدابه لا بثيابه وقيل لرجل من أدبك قال رأيت جهل الجهال قبيحا فاجتنبته فتأدبت ومن أدب ولده صغيرا سر به كبيرا من عرف الادب اكتسب به المال والجاه خير الخلال الادب وشر المقال الكذب وقيل لبقراط ما الفرق بين من له أدب ومن لا أدب له قال كالفرق بين الحيوان الناطق والحيوان الذي ليس بناطق ودخل أبو العالية على ابن عباس رضي الله عنهما فاقعده معه على السرير وأقعد رجالا من قريش تحته فرأى سوء نظرهم

اليه

سناقط انتهى * ومن لطائف المنقول عن قاضي القضاة شمس الدين ابن خلكان رحمه الله تعالى أنه كان يهوى بعض أولاد الملوك وله فيه الأشعار الرائقة يقال ان أول يوم زاره بسط له الطرحة وقال ما عندي أعز من هذه طأ عليها ولما فشا أمرهما وعلم به أهله منعوه من الركوب فكتب اليه

يا سادتي اني قنعت وحقكم
في حبكم منكم بأيسر مطلب
ان لم تجودوا بالوصال تعطفا
ورأيتم هجري وفرط تجنبي
لا تمنعوا عيني القريحة أن ترى
يوم الخميس جمالكم في الموكب
لو كنت تعلم يا حبيبي ما الذي
ألقاه من كمد اذا لم تركب
لرحمتني ورثيت لي من حالة
لولاك لم يك حملها من مذهبي
قسما بوجهك وهو بدر طالع
وبليل طرتك التي كالغيهب
وبقامة لك كالقضيب ركبت من
أخطارها في الحب أصعب مركب
لو لم أكن في رتبة أرعى لها الـ
عهد القديم صيانة للمنصب
لهتكت ستري في هواك ولذ لي
خلع العذار ولج فيك مؤنبي
لكن خشيت بأن تقول عواذلي
قد جن هذا الشيخ في هذا الصبي
فارحم فديتك حرقة قد قاربت
كشف القناع بحق ذيالك النبي

(قال الشيخ جمال الدين) ابن عبد القادر التبريزي الذي يهواه القاضي شمس الدين بن خلكان رحمه الله الملك المسعود بن الملك الظاهر وكان قد تيمه حبه وكنت أنام عنده بالعادلية فتحدثنا في بعض الليالي الى أن ذهب الناس فقال لي نم أنت ههنا وألقى علي فروة قرظ وقام يدور حول بركة العادلية ويقول في دورانه

أنا والله هالك * آيس من سلامتي
أو أرى القامة التي
قد أقامت قيامتي

اليه وحموصة وجوههم فقال مالكم تنظرون الى نظر الشحيح الى الغريم المفلس هكذا الادب يشرف الصغير على الكبير ويرفع المملوك على المولى ويقعد العبيد على الاسرة وقال جالينوس ان ابن الوضيع اذا كان أديبا كان نقص أبيه زائدا فى منزلته وابن الشريف اذا كان غير أديب كان شرف أبيه زائدا فى سقوطه وقيل أحسن الادب أن لا يفتخر المرء بادبه وسمع معاوية رجلا يقول أنا غريب فقال كلا الغريب من لا أدب له ويقال اذا فاتك الادب فالزم الصمت فهو من أعظم الآداب ولعبد الملك بن صالح

فى الناس قوم أضاعوا المجد أولهم * مافى المكارم والتقوى لهم أرب
سوء التأدب أرداهم وأرذلهم * وقد يزين صحيح المنصب الادب

وقيل أربعة تسود العبد الأدب والعلم والصدق والامانة وقال بعض الحكماء خمسة لا تتم الا بخمسة لا يتم الحسب الا بالادب ولا يتم الجمال الا بالحلاوة ولا يتم الغنى الا بالجود ولا يتم البطش الا بالجراءة ولا يتم الجهاد الا بالتوفيق والله تعالى أعلم

﴿الباب الخامس فى الآداب والحكم وما أشبه ذلك﴾

قال الحكماء اذا أراد الله بعبد خيرا ألهمه الطاعة وألزمه القناعة وفقهه فى الدين وعضده باليقين فاكتفى بالكفاف واكتسى بالعفاف واذا أراد به شرا حبب اليه المال وبسط منه الآمال وشغله بدنياه ووكله الى هواه فركب الفساد وظلم العباد الثقة بالله أزكى أمل والتوكل عليه أوفى عمل من لم يكن له من دينه واعظ لم تنفعه المواعظ من سره الفساد ساءه المعاد كل يحصد مازرع ويجزى بما صنع لا يغرنك صحة نفسك وسلامة أمسك فمدة العمر قليلة وصحة النفس مستحيلة من أطاع هواه باع دينه بدنياه ثمرة العلوم العمل بالمعلوم من رضى بقضاء الله لم يسخطه أحد ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد أفضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه خير الناس من أخرج الحرص من قلبه وعصى هواه فى طاعة ربه نصرة الحق شرف ونصرة الباطل سرف البخيل حارس نعمته وخازن لورثته من لزم الطمع عدم الورع اذا ذهب الحياء حل البلاء علم لا ينفع كدواء لا ينجع من جهل المرء أن يعصى ربه فى طاعة هواه ويهين نفسه فى اكرام دنياه أيام الدهر ثلاثة يوم مضى لا يعود اليك ويوم أنت فيه لا يدوم عليك ويوم مستقبل لا تدرى ما حاله ولا تعرف من أهله من كثر ابتهاجه بالمواهب اشتد انزعاجه للمصائب لا تبت على غير وصية وان كنت من جسمك فى صحة ومن عمرك فى فسحة عظ المسىء بحسن أفعالك ودل على الجميل بجميل خلالك اياك وفضول الكلام فانه يظهر من عيوبك ما بطن ويحرك من عدوك ما سكن لا يجد العجول فرحا ولا الغضوب سرورا ولا الملول صديقا حسن النية من العبادة حسن الجلوس من السياسة من زاد فى خلقه نقص فى حظه من ائتمن الزمان خانه أظهر الناس محبة أحسنهم لقاء لا يكمل للانسان دينه حتى يكون فيه أربع خصال يقطع رجاءه عما فى أيدى الناس ويسمع شتم نفسه ويصبر ويحب للناس ما يحب لنفسه ويثق بمواعيد الله اياك والحسد فانه يفسد الدين ويضعف اليقين ويذهب المروأة قيل لأفلاطون ما الشىء الذى لا يحسن أن يقال وان كان حقا قال مدح الانسان نفسه أربعة تؤدى الى أربعة الصمت الى السلامة والبر الى الكرامة والجود الى السيادة والشكر الى الزيادة من ساء تدبيره أهلكه حده الغرة ثمرة الجهل آفة القوة استضعاف الخصم آفة النعم قبح المن آفة الذنب حسن الظن الحزم أسد الآراء والغفلة أضر الأعداء من قعد عن حيلته أقامته الشدائد ومن نام عن عدوه أيقظته المكايد من قرب السفلة واطرح ذوى الاحساب والمروآت استحق الخذلان من عفا تفضل من كظم غيظه فقد حلم من حلم فقد صبر ومن صبر فقد ظفر من ملك نفسه عند أربع حرمه الله على النار حين يغضب وحين يرغب وحين يرهب وحين يشتهى من طلب الدنيا بعمل الآخرة فقد خسرهما ومن طلب الآخرة بعمل الدنيا فقد ربحهما كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله فاقصره على الجميل واقتصر منه على القليل كل امرىء يعرف بقوله ويوصف بفعله فقل سديدا وافعل حميدا من عرف شانه وحفظ لسانه وأعرض عما لا يعنيه وكف عن عرض أخيه دامت سلامته وقلت ندامته كن صموتا وصدوقا فالصمت حرز والصدق عز من أكثر مقاله سئم ومن أكثر سؤاله حرم من استخف باخوانه خذل ومن اجترأ على سلطانه قتل ما عز من أذل جيرانه

(وقيل) ان قاضى القضاة شمس الدين المشار اليه رحمه الله سأل بعض أهل دمشق المحروسة وكان المسؤل من خواص أصحابه عن ترجمته عند أهل دمشق فاستعفاه من ذلك فالح عليه فقال أما العلم والفضل فهم مجمعون عليه وأما النسب فيدعون فيه الادعاء ويقولون ان مولانا يأكل الحشيش ويحب الغلمان (فقال) أما النسب والكذب فيه فهذا نوع من الهذيان ولو أردت أن أنتسب الى العباس أو الى على بن أبى طالب أو الى أحد من الصحابة لاجاز ذلك وأما النسب الى قوم لم يبق منهم بقية وأصلهم فرس مجوس فما فيه فائدة وأما الحشيشة فالكل ارتكاب محرم واذا كان ولا بد فكنت أشرب الخمر فانه ألذ وأما محبة الغلمان فالى غد أجيبك عن المسئلة انتهى (ومما يناسب لطيفة قاضى القضاة شمس الدين ما نقلته من روض الجليس ونزهة الانيس) حكى عن سليمان بن محمد المهدى الصقلى قال كان بافريقية رجل نبيه شاعر وكان يهوى غلاما جميلا من غلمانه فاشتد كلفه به وكان الغلام يتجنى عليه ويعرض عنه كثيرا فبينما هو ذات ليلة وقد انفرد بنفسه ليشرب الخمر اذ ذكر محبوبه فجرى بخاطره ما يفعله به من التجنى فزاد سكره وقام من الفور وقد غلب عليه سكر الغرام وسكر المدام فاخذ قبس نار وجعله عند باب الغلام يحرق عليه داره فلما دارت النار بالباب بادر الناس باطفائها واعتقلوه فلما أصبحوا انهضوا به الى القاضى فاعلموه بفعله فقال له القاضى لاى شىء أحرقت باب هذا الغلام فانشد على الفور

لما تمادى على بعادى
وأضرم النار فى فوادى
ولم أجد من هواه بدا
ولا معينا على السهاد

ولا سعد من حرم اخوانه خير النوال ماوصل قبل السؤال أولى الناس بالنوال أزهدهم فى السؤال من
حسن صفاؤه وجب اصطفاؤه من غاظك بقبيح الشتم منه فغظه بحسن الحلم عنه من يبخل بماله على نفسه
جاد به على زوج عرسه اذا اصطنعت المعروف فاستره واذا اصطنع اليك فانشره من جاور الكرام أمن
من الاعدام من طاب أصله زكا فرعه من أنكر الصنيعة استوجب القطيعة من من بمعروفه سقط
شكره ومن أعجب بعمله حبط أجره من رضى من نفسه بالاساءة شهد على أصله بالرداءة من رجع فى
هبته بالغ فى خسته من رقى فى درجات الهمم عظم فى عيون الأمم من كبرت همته كثرت قيمته من ساء
خلقه ضاق رزقه من صدق فى مقاله زاد فى جماله من هان عليه المال توجهت اليه الآمال من جاد
بماله جل ومن جاد بعرضه ذل خير المال ما أخذ من الحلال وصرف فى النوال وشر المال ما أخذ من
الحرام وصرف فى الآثام أفضل المعروف اغاثة الملهوف من تمام المروأة أن تنسى الحق لك وتذكر
الحق عليك وتستكبر الاساءة منك وتستصغرها من غيرك من أحسن المكارم عفو المقتدر جود الرجل
يحببه الى أصدقائه وبخله يبغضه الى أوداته لاتسىء الى من أحسن اليك ولا تعن على من أنعم عليك
من كثر ظلمه واعتداؤه قرب هلاكه وفناؤه من طال تعديه كثرت أعاديه شر الناس من ينصر الظلوم
ويخذل المظلوم من حفر حفيرا لأخيه كان حتفه فيه من سل سيف العدوان أغمد فى رأسه من لم يرحم
العبرة سلب النعمة ومن لم يقل العثرة سلب القدرة لاتحتاج من يذهلك خوفه ويعلك سيفه صمت تسلم
به خير من نطق تندم عليه من قال مالا ينبغى سمع مالا يشتهى جرح الكلام أصعب من جرح الحسام
من سكت عن جاهل فقد أوسعه جوابا وأوجعه عتابا من أمات شهوته أحيا مروأته من كثرت عوارفه
كثرت معارفه من لم تقبل توبته عظمت خطيئته اياك والبغى فانه يصرع الرجال ويقطع الآجال
الناس فى الخير أربعة أقسام منهم من يفعله ابتداء ومنهم من يفعله اقتداء ومنهم من يتركه حرمانا ومنهم
من يتركه استحسانا فمن فعله ابتداء فهو كريم ومن فعله اقتداء فهو حكيم ومن تركه حرمانا فهو شقى ومن
تركه استحسانا فهو دنى من سالم سلم ومن قدم الخير غنم من لزم الرقاد عدم المراد ومن دام كسله خاب
أمله العجول مخطىء وان ملك والمتأنى مصيب وان هلك من أمارات الخذلان معادات الاخوان استفساد
الصديق من عدم التوفيق الرفق مفتاح الرزق من نظر فى العواقب سلم من النوائب ومن أسرع
فى الجواب أخطأ فى الصواب من ركب العجل أدركه الزلل من ضعفت آراؤه قويت أعداؤه من قلت
فضائله ضعفت وسائله من فعل ماشاء لقى ماساء من كثر اعتباره قل عثاره من ركب جده غلب
ضده القليل مع التدبير أبقى من الكثير مع التبذير ظن العاقل أصح من يقين الجاهل قليل تحمد
آخرته خير من كثير تذم عاقبته من خاف سطوتك تمنى موتك اذا استشرت الجاهل اختار لك الباطل
من أعجبته آراؤه غلبته أعداؤه من قصر عن السياسة صغر عن الرياسة لاتشتك ضعفك الى عدوك
فانك تشمته بك وتطمعه فيك من لم يعمل لنفسه عمل للناس ومن لم يصبر على كده صبر على الافلاس من
أفشى سره أفسد أمره الحازم من حفظ مافى يده ولم يؤخر شغل يومه لغده من طلب مالا يكون طال تعبه
لاتفتح بابا يعييك سده ولاترم سهما يعجزك رده سوء التدبير سبب التدمير اغمد سيفك ماناب عنك لسانك
ليس العجب من جاهل يصحب جاهلا ولكن العجب من عاقل يصحبه لان كل شىء ينفر من ضده ويميل الى
جنسه اذا نزل القدر بطل الحذر رب عطب تحت طلب ومنية تحت أمنية لايخلو المرء من ودود يمدح
وعدو يقدح الجوع خير من الخضوع الكذوب متهم وان صدقت لهجته ووضحت حجته من طاوعه
طرفه اشتد حتفه من لم تسر حياته لم تغم وفاته من أعظم الذنوب تحسين العيوب الشرف بالهمم العالية
لابالرمم البالية اذا ملك الأراذل هلك الأفاضل من ساءت أخلاقه طاب فراقه من حسنت خصاله
طاب وصاله بعد يورث الصفاء خير من قرب يوجب الجفاء اللسان سيف قاطع لايؤمن حده والكلام
سهم نافذ لايمكن رده من اطلع على جاره انهتكت حجة أستاره أجهل الناس من قل صوابه وكثر
اعجابه أظهر الناس نفاقا من أمر بالطاعة ولم يأتمر بها ونهى عن المعصية ولم ينته عنها من سلا عن
المسلوب كمن لم يسلب ومن صبر على النكبة كمن لم ينكب الفضيلة بكثرة الآداب لابفراهة الدواب من

حملت نفسى على وقوفى
بيابه وقفة الجواد
فطار من بعض نار قلبى
أقل فى الوصف من زناد
فاحرق الباب دون على
ولم يكن ذاك من مرادى
قال فاستظرف القاضى واقعته
واستملح شعره ورق لحكاية حاله
وتحمل عنه ما أفسده من باب الغلام
وأطلقه (ومما يناسب هذه اللطائف)
قيل انه رفع الى المأمون ان حائكا
يعمل السنة كلها لايتعطل فى عيد
ولا جمعة فاذا ظهر الورد طوى عمله
وغرد بصوت عال
طاب الزمان وجاء الورد فاصطبحوا
مادام للورد أزهار ونوار
فاذا شرب مع ندمائه على الورد غنى
اشرب على الورد من حمراء صافية
شهرا وعشرا وخمسا بعدها عددا
ولا يزالون فى صبوح وغبوق مابقيت
وردة فاذا انقضى الورد عاد الى عمله
وغرد بصوت عال
فان يبقنى ربى الى الورد أصطبح
وان مت والهفى على الورد والخمر
سألت اله العرش جل جلاله
يواصل قلبى فى غبوق الى الحشر
فقال المأمون لقد نظر هذا الرجل الى
الورد بعين جليلة فينبغى ان نعينه
على هذه المروأة فامر ان يدفع له فى
كل سنة عشرة آلاف درهم فى زمن
الورد (ومن اللطائف ماحكى عن
مجير الدين الخياط الدمشقى) قيل انه
كان يهوى غلاما من أولاد الجند
فشرب مجير الدين فى بعض الليالى
وسكر فوقع فى الطريق فمر الغلام
عليه بشمعة وهو راكب فرآه فى
الليل مطروحا على الطريق فوقع
عليه بالشمعة ونزل فاقعده ومسح
وجهه فسقط من الشمعة نقطة على
وجهه ففتح عينيه فرأى محبوبه على
رأسه فاستيقظ وأنشد
يامحرقا بالنار وجه محبه
مهلا فان مدامعى تطفيه

زادت شهوته نقصت مروأته من عرف بشئ نسب اليه ومن اعتاد شيأ حرص عليه عند الجدال يظهر فضل الرجال من أخر الأكل لذ طعامه ومن أخر النوم طاب منامه موت فى دولة وعز خير من حياة فى ذلة وعجز مقاساة الفقر هى الموت الأحمر ومسئلة الناس هى العار الأكبر حق يضر خير من باطل يسر كم من مرغوب فيه يسوء ولا يسر ومرهوب منه ينفع ولا يضر عثرة الرجل تزيل القدم وعثرة اللسان تزيل النعم المزاح يورث الضغائن من حلم ساد ومن تفهم ازداد معاشرة ذوى الألباب عمارة القلوب شر ما صحب المرء الحسد ربما أصاب الأعمى رشده وأخطأ البصير قصده اليأس خير من التضرع الى الناس لا تكن ضاحكا فى غير عجب ولا ماشيا فى غير أرب من سعى بالنميمة حذره القريب ومقته الغريب الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استبد برأيه أشرف الغنى ترك المنى من ضاق خلقه مله أهله الحسد للصديق من سقم المودة كل الناس راض عن عقله دنياك كلها وقتك الذى أنت فيه استر سوأة أخيك لما يعلم فيك خمول الذكر أسنى من الذكر الذميم العجلة أخت الندامة من كرم أصله لان قلبه ومن قل لبه زاد عجبه ربما أدرك بالظن الصواب ليس لمعجب رأى ولا لمتكبر صديق سل عن الرفيق قبل الطريق وعن الجار قبل الدار لا تعادين أحدا فانك لا تخلو من عداوة جاهل أو عاقل فاحذر من حكمة العاقل وجهل الجاهل ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدل على ربه من قل سروره كان الموت راحته لا تردن على ذى خطأ خطأه فيستفيد منك علما ويتخذك عدوا استحى من ذم من لو كان حاضرا لبالغت فى مدحه ومدح من لو كان غائبا لسارعت الى ذمه وقيل المنفعة توجب المحبة والمضرة توجب البغضة والمخالفة توجب العداوة والمتابعة توجب الالفة والعدل يوجب اجتماع القلوب والجور يوجب الفرقة وحسن الخلق يوجب المودة وسوء الخلق يوجب المباعدة والانبساط يوجب المؤانسة والانقباض يوجب الوحشة والكبر يوجب المقت والتواضع يوجب الرفعة والجود يوجب المدح والبخل يوجب الذم والتوانى يوجب التضييع والحزم يوجب السرور والحذر يوجب السلامة واصابة التدبير توجب بقاء النعمة وبالتأنى تسهل المطالب وبحسن المعاشرة تدوم المحبة وبخفض الجانب تأنس النفوس وبسعة خلق المرء يطيب عيشه والاستهانة توجب التباعد وبكثرة الصمت تكون الهيبة وبعدل المنطق تجلب الجلالة وبالنصفة تكثر المواصلة وبالافضال يعظم القدر وبصالح الأخلاق تزكو الأعمال وباحتمال المؤن يجب السودد وبالحلم على السفيه تكثر أنصارك عليه وبالرفق والتودد تستحق اسم الكرامة وبترك ما لا يعنيك يتم لك الفضل * واعلم ان السياسة تكسو أهلها المحبة ومن صغر الهمة الحسد للصديق على النعمة والنظر فى العواقب نجاة ومن لم يحلم ندم ومن صبر غنم ومن سكت سلم ومن اعتبر أبصر ومن أبصر فهم ومن فهم علم ومن أطاع هواه ضل ومع العجلة الندامة ومع التأنى السلامة وزارع البر يحصد السرور وصاحب العقل مغبوط وصداقة الجاهل تعب اذا جهلت فاسأل واذا زللت فارجع واذا أسأت فاندم واذا ندمت فاقلع المروآت كلها تبع للعقل والرأى تبع للتجربة والعقل أصله التثبت وثمرته السلامة والأعمال كلها تتبع القدر واختار العلماء أربع كلمات من أربع كتب فمن التوراة من قنع شبع ومن الانجيل من اعتزل نجا ومن الزبور من سكت سلم ومن القرآن من يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم واجتمعت حكماء العرب والعجم على أربع كلمات لا تحمل بطنك ما لا يطيق ولا تعمل عملا لا ينفعك ولا تغتر بامرأة ولا تثق بمال ولو كثر والله تعالى أعلم

﴿الباب السادس فى الأمثال السائرة وفيه فصول﴾

﴿الفصل الأول فيما جاء من ذلك فى القرآن العظيم وأحاديث النبى الكريم﴾

﴿اعلم﴾ ان الأمثال من أشرف ما وصل به اللبيب خطابه وحلى بجواهره كتابه وقد نطق كتاب الله تعالى وهو أشرف الكتب المنزلة بكثير منها ولم يخل كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها وهو أفصح العرب لسانا وأكملهم بيانا فكم فى ايراده واصداره من مثل يعجز عن مباراته فى البلاغة كل بطل وسنذكر ان شاء الله تعالى بعد ذلك نبذة من أمثال العرب والمولدين والعامة * فمن أمثال كتاب الله تعالى قوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون الآن حصحص الحق قضى الأمر الذى فيه تستفتيان أليس الصبح بقريب

أحرق بها جسدى وكل جوارحى
واحذر على قلبى فانك فيه

(ومن اللطائف ما حكاه الأصمعى) قال مررت بكناس يكنس كنيفا وهو يغنى ويقول

أضاعونى وأى فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر

فقلت له أما سداد الثغر فلا علم لنا كيف أنت فيه وأما سداد الكنيف فمعلوم قال الاصمعى وكنت حديث السن فاردت العبث به فأعرض عنى مليا ثم أقبل على وأنشد

وأكرم نفسى أننى ان أهنتها
وحقك لم تكرم على أحد بعدى

فقلت وأى كرامة حصلت لها منك وما يكون من الهوان أكثر مما أهنتها به فقال بل لا والله من الهوان ما هو أكثر وأعظم مما أنا فيه فقلت له وما هو فقال الحاجة اليك والى أمثالك فقال فانصرفت وأنا أخزى الناس (ذكرت) بقول الكناس غريم الأصمعى ما يضارع ذلك أعنى قوله

أضاعونى وأى فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر

قيل انه كان لأبى حنيفة رضى الله عنه جار اسكاف بالكوفة يعمل نهاره أجمع فاذا جنه الليل رجع الى منزله بلحم وسمك فيطبخ اللحم ويشوى السمك فاذا دب فيه السكر أنشد

أضاعونى وأى فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر

ولا يزال يشرب ويردد البيت الى أن يغلبه السكر وينام وكان الامام أبو حنيفة يصلى الليل كله ويسمع حديثه وانشاده ففقد صوته بعض الليالى فسأل عنه فقيل أخذه العسس منذ ثلاثة أيام وهو محبوس فصلى الامام الفجر وركب بغلته ومشى واستأذن على الأمير فقال ائذنوا له واقبلوا به راكبا حتى يطأ البساط

ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة ليس لها من دون الله كاشفة أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وحيل بينهم وبين ما يشتهون لكل نبإ مستقر قل كل يعمل على شاكلته وعسى أن تكرهوا شيأ ويجعل الله فيه خيرا كثيرا وان تصبكم سيئة يفرحوا بها كل نفس بما كسبت رهينة حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ما على الرسول الا البلاغ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ما على المحسنين من سبيل تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى هل جزاء الاحسان الا الاحسان ولا ينبئك مثل خبير ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم كل حزب بما لديهم فرحون لا يكلف الله نفسا الا وسعها لا يستوى الخبيث والطيب ففررت منكم لما خفتكم وان كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين لا يجليها لوقتها الا هو فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى كل يوم هو فى شان فبأى حديث بعده يؤمنون وما ربك بغافل عما تعملون واهجرهم هجرا جميلا من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ان هى الا فتنتك فاعتبروا يا أولى الأبصار وانه لقسم لو تعلمون عظيم ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ولتعلمن نبأه بعد حين وكان بين ذلك قواما لمثل هذا فليعمل العاملون كل من عليها فان كل نفس ذائقة الموت أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون (ومن) الأمثال من الحديث النبوى انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرى ما نوى نية المرء خير من عمله آفة العلم النسيان من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه اذا أتاكم كريم قوم فأكرموه أنزلوا الناس منازلهم اليد العليا خير من اليد السفلى من مات غريبا مات شهيدا مطل الغنى ظلم يد الله مع الجماعة الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق من غشنا فليس منا سيد القوم خادمهم الحياء شعبة من الايمان تخير والنطفكم ابدأ بنفسك ثم بمن تعول حدث عن البحر ولا حرج المجالس بالامانات كل ميسر لما خلق له اطلبوا الخير من حسان الوجوه اياك وما يعتذر منه الوحدة خير من الجليس السوء استعينوا على الحوائج بالكتمان الندم توبة لا يكون المؤمن طعانا ولا لعانا دع ما يريبك الى ما لا يريبك من كثر سواد قوم فهو منهم انصر أخاك ظالما أو مظلوما انتظار الفرج عبادة كاد الفقر أن يكون كفرا نعم صومعة الرجل بيته الأعمال بخواتيمها

﴿الفصل الثانى فى أمثال العرب﴾ ان من البيان لسحرا ان الجواد قد يعثر ان البلاء موكل بالمنطق ان أخاك الهيجاء من يسعى معك * ومن يضر نفسه لينفعك أنف فى السماء واست فى الماء ان الذليل الذى ليست له عضد أى الرجال المهذب انما هو كبرق خلب اذا أدبر الدهر عن قوم كفى عدوهم أمرهم اياك أعنى فاسمعى ياجارة ان لم يكن وفاق ففراق انك لا تجنى من الشوك العنب اذا جاء القضاء ضاق الفضاء ان المنايا كهم خيرها الأبكار اذا كنت مناطحا فناطح بذوات القرون أوى الى ركن بلا قواعد اياك أن تضرب بلسانك عنقك أكل وحمد خير من أكل وذم آفة المروءة خلف الوعد اذا قلت له زن طأطأ رأسه وحزن اذا أتاك أحد الخصمين وقد فقئت عينه فلا تقض له حتى يأتيك خصمه فلعله فقئت عيناه ترك الذنب أيسر من طلب التوبة اتق شر من تحسن اليه الناس اخوان وشتى فى الشيم بلغ السيل الزبى أجع كلبك يتبعك حافظ على الصديق ولو فى الحريق اشتدى أزمة تنفرجى أتبع السيئة الحسنة تمحها الخيل أعرف بفرسانها رمتنى بدائها وانسلت رب رمية من غير رام الرياح مع السماح رب أكلة تمنع أكلات استراح من لا عقل له رب أخ لم تلده أمك رب طمع أدى الى عطب ربما كان السكوت جوابا رب ملوم لا ذنب له رب عين أنم من لسان رحم الله من أهدى الى عيوبى ركوب الخنافس ولا المشى على الطنافس سبق السيف العذل زوج من عود خير من قعود سبك من بلغك السب سحابة صيف عن قليل تقشع شر أيام الديك يوم تغسل رجلاه طاعة النساء ندامة أطلب تظفر طرف الفتى يخبر عن لسانه ظاهر العتاب خير من باطن الحقد عند الصباح يحمد القوم السرى الظلم مرتعه وخيم عند النطاح يغلب الكبش الأجم

لما دخل على الأمير أجلسه مكانه وقال ما حاجة الامام فقال لى جار اسكاف أخذه العسس منذ ثلاثة أيام فتأمر بتخليته فقال نعم وكل من أخذ تلك الليلة الى يومنا هذا ثم أمر بتخليته وتخليتهم أجمعين فركب الامام وتبعه جاره الاسكاف فلما وصل الى داره قال له الامام أبو حنيفة أترانا أضعناك قال لا بل حفظت ورعيت جزاك الله خيرا عن صحبة الجوار ورعايته ولله على أن لا أشرب بعدها خمرا فتاب من يومه ولم يعد الى ما كان عليه انتهى (ومما يناسب هذه اللطائف) ما ذكره الحريرى فى كتابه الموسوم بتوشيح البيان نقل أن أحمد بن المعدل كان يجد بأخيه عبد الصمد وجدا عظيما على تباين طريقيهما لان أحمد كان صواما قواما وكان عبد الصمد سكيرا خمورياوكانا يسكنان دارا واحدة ينزل أحمد فى غرفة أعلاها وعبد الصمد فى أسفلها فدعا عبد الصمد ليلة جماعة من ندمائه وأخذ فى القصف والعزف حتى منعوا أحمد الورد ونغصوا عليه التهجد فاطلع عليهم وقال أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض فرفع عبد الصمد رأسه وقال وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم (وذكرت) بهذا الاقتباس الذى خلب القلوب هنا بحسن موقعه اقتباسا خلب قلوب الناس لعظم موقعه وما ذاك الا أن الحاكم الفاطمى على ما ذكر لما بنى المسجد الجامع بالقاهرة المعزية المجاور لباب الفتوح قيل انه فسد حاله فى آخر أمره وادعى الالوهية وكتب بسم الحاكم الرحمن الرحيم وجمع الناس الى الايمان به وبذل لهم نفائس وكان ذلك فى فصل الصيف والذباب يتراكم على الحاكم والخدام تدفعه ولا يندفع فقرأ فى ذلك الوقت بعض

العبد يقرع بالعصا * والحر تكفيه الملامه
اعقل وتوكل العتاب قبل العقاب عند الرهان تعرف السوابق عند الامتحان يكرم المرء أو يهان عند النازلة تعرف أخاك فى القمر ضياء والشمس أضوأ منه القول ما قالت حذام *لقد أسمعت لو ناديت حيا * أقلل طعامك يحمد منامك كل فتاة بابيها معجبة كل كلب ببابه نباح كاد العروس أن يكون ملكا كثرة العتاب توجب البغضاء أكثر مصارع الرجال تحت بروق المطامع الكلام أنثى والجواب ذكر كل اناء يرشح بما فيه كما تزرع تحصد كل امرئ فى بيته صبي كلب جوال خير من أسد رابض *لقد ذل من بالت عليه الثعالب* ليس الخبر كالعيان لكل صارم نبوة ولكل جواد كبوة لكل قادم دهشة *لعل لها عذرا وأنت تلوم* لكل ساقطة لاقطة لكل مقام مقال لك لسان من رطب ويدان من خشب للباطل جولة ثم يضمحل ليست النائحة الثكلى مثل المستأجرة لكل غد طعام لكل دهر دولة ورجال لا عطر بعد عروس لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين لا يضر السحاب نباح الكلاب لا تقتن من كلب سوء جروا مقتل الرجل بين فكيه ما حك جلدك مثل ظفرك من عتب على الدهر طال عتبه معاتبة الأخوان خير من فقدهم النفس مولعة بحب العاجل هذه بتلك والبادى أظلم ياحبذا الأمارة ولو على الحجارة يكسو الناس واسته عارية يداك منك وان كانت شلاء

(الفصل الثالث فى أمثال العامة والمولدين) التسلط على المماليك دناءة اجلس حيث يؤخذ بيدك وتبر ولا تجلس حيث يؤخذ برجلك وتجر اجرأ الناس على الأسد أكثرهم له رؤية الحاجة تفتق الحيلة الحاوى لا ينجو من الحيات الحبة تدور والى الرحى ترجع المؤذى ردى كلما جاوبته صدى الأسواق موائد الله فى أرضه السلامة احدى الغنيمتين الشاة المذبوحة لا يؤلمها السلخ الطير بالطير يصاد اطلع القرد فى الكنيف فقال هذه المرآة لهذا الوجه الظريف العادة طبيعة خامسة الغائب حجته معه الخضوع عند الحاجة رجولية الناس اتباع لمن غلب النكاح يفسد الحب النصح بين الملا تقريع الحرحر وان مسه الضر والعبد عبد وان ملك الدر الثقيل اذا تخفف صار طاعونا أضيع من حلى على زنجية العسل للزرنيخ والاسم للنورة انشط من ابر دخل نصفه البغل الهرم لا يفزعه صوت الجلجل بدن وافر وقلب كافر تزاوروا ولا تجاوروا تعاشروا كالأخوان وتعاملوا كالأجانب ثمرة العجلة الندامة جواهر الأخلاق تفضحها المعاشرة حيثما سقط لقط خذ اللص قبل أن يأخذك خذ القليل من اللئيم وذمه ذل من لا سفيه له ريق العدو سم قاتل رب ساع كقاعد زكاة البدن العلل زلق الحمار وكان من سهوة المكارى زلة الرجل عظم يجبر وزلة اللسان لا تبقى ولا تذر سلطان غشوم خير من فتنة تدوم سواء قوله وبوله سفير السوء يفسد ذات البين شهر ليس لك فيه رزق لا تعد أيامه صديق الوالد عم الولد ضرب الطبل تحت الكساء طاعة الولاة بقاء العز طفيلى ويقترح عناية القاضى خير من شاهدى عدل دلت على أهلها براقش (وهو اسم كلبة نبحت فدلت على الجيش فقتلوهم) غش القلوب يظهر فى فلتات الألسن وصفحات الوجوه غنى المرء فى الغربة وطن فر من الموت وفى الموت وقع فم يسبح وقلب يذبح فلان كالكعبة يزار ولا يزور قيل للزمار تهيأ للزمر قال المزمار فى كمى والريح فى فمى كل قليلا تعش كثيرا كلامه ريح فى قفص كالابرة تكسو الناس وهى عريانة كلمة حكمة من جوف خرب كاد المريب يقول خذونى كنت سندا فصرت مطرقة كل ما فاتك من الدنيا فهو غنيمة كلما طار قصوا جناحه لو كان المزاح فحلا لم ينتج الا شرا لسان الجاهل مفتاح حتفه لكل جديد لذة لو ضاعت صنعة ما وجدت الا فى قفاه لو كان فى البوم خير ما فات الصياد من اعتمد على شرف آبائه فقد عقهم من سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلا وبالله التوفيق

(الفصل الرابع فى الأمثال من الشعر المنظوم مرتبة على حروف المعجم)

(حرف الألف)

ألا كل شئ ما خلا الله باطل * وكل نعيم لا محالة زائل * اذا جاء موسى وألقى العصا
فقد بطل السحر والساحر * اذا لم يكن فيكن ظل ولا جنا * فأبعدكن الله من شجرات
اذا كنت فى فكرى وقلبى ومقلتى * فأى مكان من مكانك ألطف * اذا أراد كريم منع صاحبه

القراء وكان حسن الصوت يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيأ لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره أن الله لقوى عزيز فاضطربت الامة لعظم وقوع هذه الآية الشريفة فى حكاية الحال حتى كأن الله أنزلها تكذيبا للحاكم فيما ادعاه وسقط الحاكم من فوق سريره خوفا من أن يقتل وولى هاربا وأخذ فى استجلاب ذلك الرجل الى أن اطمأن اليه فجهزه رسولا الى بعض الجزائر وأمر باغراقه ورؤى بعد ذلك فى المنام فقيل له ما وجدت فقال ما قصر معى صاحب السفينة أرسى بى على باب الجنة (ومن الاقتباسات التى وقعت للمتأخرين فى أحسن المواقع المتعلقة بحكاية الحال) ما سمعت وشهدت حكاية حاله بالجامع الأموى وما ذاك الا أن قاضى القضاة علاء الدين أبا البقاء الشافعى رحمه الله تعالى كان قد عزل من وظيفة قضاء القضاة بدمشق المحروسة فعاد الى وظيفته وألبس التشريف من قلعة دمشق وحضر الى الجامع على العادة ومعه أخوه قاضى القضاة بدر الدين الشافعى بالديار المصرية فاستفتح الشيخ معين الدين الضرير المقرى وقرأ قالوا يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت الينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا الى آخر الآية فحصل بالجامع الأموى ترنم صفق له النسر بجناحيه (وروى المرزبان) باسناده أن المجنون خرج مع أصحاب له يمتار من وادى القرى فمر بجبلى نعمان فقالوا ان هذين جبلا نعمان وقد كانت ليلى تنزلهما قال فأى ريح تهب من نحو أرضها الى هذا المكان فقالوا الصبا فقال والله لا أبرح حتى تهب

فليس يخفى عليه كيف ينفعه * اذا ما أتيت الأمر من غير بابه * ضللت وان تقصد الى الباب تهتد
اذا أنت لم تنصف أخاك وجدته * على طرف الهجران ان كان يعقل * اذا لم يكن عندى نوال هجرتنى
وان كان لى مال فانت صديقى * الناس فى طلب المعاش وانما * بالجد يرزق منهم من يرزق
أيها السائل عما قد مضى * هل جديد مثل ملبوس خلق * انما أنفسنا عارية
والعوارى حكمها أن تسترد * ان العدو وان أبدى مسالمة * اذا رأى منك يوما غرة وثبا
أتمنى على الزمان محالا * أن ترى مقلتاى طلعة حر * اذا ملك لم يكن ذاهبه
فدعه فدولته ذاهبه * اذا ثارت خطوب الدهر يوما * عليك فكن لها ثبت الجنان
اذا كنت لا ترضى بما قد ترى * فدونك الحبل به فاختنق * ان الأمور اذا بدت لزوالها
فعلامة الادبار فيها تظهر * اذا ضاع شئ بين أم وبنتها * فاحداهما لا شك ذلك آخذه
اذا كان رب البيت بالطبل ضاربا * فلا تلم الصبيان فيه على الرقص * اذا ما أراد الله اهلاك نملة
سمت بجناحيها الى الجو تصعد * اذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنى * أصبت حليما أو أصابك جاهل
اذا لم تستطع أمرا فدعه * وجاوزه الى ما تستطيع * اذا صوت العصفور طار فؤاده
ولكن حديد الناب عند الثرائد * أهن عامرا اكرم عليه فانما * أخو عامر من مسه بهوان
اذا محاسنى اللاتى أتيت بها * عدت ذنوبا فقل لى كيف أعتذر * اخوان صدق ما رأوك بغبطة
فاذا افتقرت فقد هوى بك من هوى * اذا اعتاد الفتى خوض المنايا * فايسر ما يمر به الوحول
ألم تر أن المرء تدوى يمينه * فيقطعها عمدا ليسلم سائره * اذا أنت لم تعلم طبيبك كل ما
يسوءك أبعدت الدواء عن السقم * اذا أنت حملت الخؤن أمانة * فانك قد أسندتها شر مسند
أكل خليل هكذا غير منصف * وكل زمان بالكرام بخيل * اذا أنت عبت المرء ثم أتيته
فانت ومن تزرى عليه سواء * أسأت اذ أحسنت ظنى بكم * والحزم سوء الظن بالناس
الحادثات اذا لم خطوبها * فلها مساو مرة ومحاسن * الخير لا يأتيك متصلا
والشر يسبق سيله مطره * العلم ينهض بالخسيس الى العلا * والجهل يقعد بالفتى المنسوب
الكفر بالنعمة يدعو الى * زوالها والشكر أبقى لها * أيا دارهم ما كنت أنت بدارهم
ولا أنا مذ سار الركاب بهم أنا * أقلب طرفى لا أرى غير صاحب * يميل مع النعماء حيث تميل
اذا ما قضيت الدين بالدين لم يكن * قضاء ولكن ذاك غرم على غرم

(حرف الباء الموحدة) بنا فوق ما تشكو فصبرا لعلنا * نرى فرجا يشفى السقام قريبا
بالملح نصلح ما نخشى تغيره * فكيف بالملح ان حلت به الغير
بنى عمنا ان العداوة شانها * ضغائن تبقى فى نفوس الأقارب

(حرف التاء المثناة الفوقية) تحن اليه أفئدة البرايا * وتهوى اه الخلائق للسماع
تلوم على القطيعة من أتاها * وأنت سننتها للناس قبلى * تلجى الضرورات فى الامور الى
سلوك ما لا يليق بالأدب * تفرقت الظباء على خراش * وما يدرى خراش ما يصيد
تجتلى الأذن منه أحسن مما * تجتلى العين من وجوه البدور

(حرف الجيم) جن له الدهر فنال الغنى * آه ان أعقله الدهر
جربت أهلى وأهليه فما تركت * لى التجارب فى ود امرئ غرضا

(حرف الحاء المهملة) حياك من لم تكن ترجو تحيته * لولا الدراهم ما حياك انسان

(حرف الخاء المعجمة) خفض الجأش واصبرن رويدا * فالرزايا اذا توالت تولت
خليلى ان الحب صعب مراسه * وان عزيز القوم فيه يهان * خاطر بنفسك كى تصيب غنيمة
ان الجلوس مع العيال قبيح * خيالك فى عينى وذكرك فى فمى * ومثواك فى قلبى فاين تغيب
خن من أمنت ولا تركن الى أحد * فما صحبتك الا بعد تجريبى

(حرف الدال المهملة) داود محمود وأنت مذمم * عجبا لذاك وأنتما من عود

الصبا فأقام فى ناحية من الجبل ومضوا فامتاروا له ولهم ثم أتوا فحبسهم حتى هبت الصبا ورحل معهم وفى ذلك يقول

أيا جبلى نعمان بالله خليا
نسيم الصبا يخلص الى نسيمها
أجد بردها أو تشف منى حرارة
على كبد لم يبق الا صميمها
فان الصبا ريح اذا ما تنسمت
على نفس مهموم تجلت همومها

وضمن البيت الأول الشيخ صفى الدين الحلى فى مليح اسمه نعمان

أقول وقد عانقت نعمان ليلة
بنور محياه انار أديمها
وقد أرسلت ألياه نحوى فسوة
يروح كرب المستهام شميمها
أيا جبلى نعمان بالله خليا
نسيم الصبا يخلص الى نسيمها

(وكان) لابن الجوزى رحمه الله تعالى زوجة اسمها نسيم الصبا فاتفق انه طلقها فحصل له عند ذلك ندم وهيام أشرف منه على التلف فحضرت فى بعض الأيام مجلس وعظه فحين رآها عرفها فاتفق انه جاء امرأتان وجلستا أمامه فحجبتاها عنه فأنشد فى الحال

أيا جبلى نعمان بالله خليا
نسيم الصبا يخلص الى نسيمها

(قلت) وعلى ذكر نعمان والحكاية عنه فما ألطف ما ذكره الشيخ بدر الدين حسن بن زفر الطبيب الأربلى فى كتابه روضة الجليس ونزهة الأنيس وهو أن بعض الرؤساء قال أخبرنى بعض الأصحاب قال كنت يوما جالسا عند صديق لى بالموصل اذ جاءه كتاب من بغداد من صديق له وفيه تشوق وفيه عتاب بهذا البيت

تناسيتم العهد القديم كأننا
على جبلى نعمان لن نجمعا

فأخذ يستحسن هذا البيت ويهتز له فقلت بالله عليك أسألك شيأ لا تخفه قال سل قلت هذه معشوقتك

دعني أنهب الأموال حتى * أعف الأكرمين عن اللئام

(حرف الذال المعجمة) ذو العقل يشقى في النعيم بعقله * وأخو الجهالة في الشقاوة منعم

(حرف الراء) رب مهزول سمين عرضه * وسمين الجسم مهزول الحسب

ردوا على محاسنها سودتها * فيكم بلا حق ولا استحقاق * رضيت ولا أرضى اذا كان مسخطي
من الأمر ما فيه رضا صاحب الأمر * رب يوم بكيت منه فلما * صرت في غيره بكيت عليه

(حرف الزاي) زنيم ليس يعرف من أبوه * بغي الأم ذو حسب لئيم

(حرف السين المهملة) سروري أن تبقى بخير ونعمة * واني من الدنيا بذلك قانع
سوء حظي أنالني منك هجرا * فعلى الحظ لا عليك العتاب * سبكناه ونحسبه لجينا
فأبدى الكير عن خبث الحديد * ستذكرني اذا جربت غيري * وتعلم أنني نعم الصديق

(حرف الشين المعجمة) شفيعي اليك الله لا رب غيره * وليس الى رد الشفيع سبيل
شكرتك قبل الخبر ان كنت واثقا * بأني بعد الخبر لا شك شاكر

(حرف الصاد المهملة) صح لنا والده أولا * وأنت في حل من الوالده

(حرف الضاد المعجمة) ضاقت ولم تضق لما انفرجت * والعسر مفتاح كل ميسور

(حرف الطاء المهملة) طويل عمر المعالي والندى أبدا * قصير عمر الأعادي والمواعيد
طوبى لأعين قوم أنت بينهم * فالقوم في نزهة من وجهك الحسن

(حرف الظاء المشالة) ظهرت خيانات الثقات وغيرهم * حتى اتهمنا رؤية الأبصار
ظلمت امرأ كافيته غير خلقه * وهل كانت الأخلاق الا غرائزا

(حرف العين المهملة) علم الله كيف أنت فأعطا * ك المحل الجليل من سلطانه
على المرء أن يسعى لما فيه نفعه * وليس عليه أن يساعده الدهر * عسى فرج يأتي به الله انه
له كل يوم في خليقته أمر * عتبت على عمرو فلما تركته * وجربت أقواما بكيت على عمرو

(حرف الغين المعجمة) غني بلا دين عن الخلق كلهم * وان الغني الا عن الشيء لا به
غلام أتاه اللؤم من شطر نفسه * ولم يأته من شطر أم ولا أب

(حرف الفاء) فلم أر كالأيام للمرء واعظا * ولا كصروف الدهر للمرء هاديا
فنفسك أكرمها فانك ان تهن * عليك فلن تلقى لها الدهر مكرما * فصبر جميل ان في اليأس راحة
اذا الغيث لم يمطر بلادك ماطره * فما أكثر الأصحاب حين تعدهم * ولكنهم في النائبات قليل
فان كانت الأجسام منا تباعدت * فان المدى بين القلوب قريب * فلو كان حمد يخلد المرء لم يمت
ولكن حمد المرء غير مخلد * فان تفق الأنام وأنت منهم * فان المسك بعض دم الغزال

(حرف القاف) قد يجمع المال غير آكله * ويأكل المال غير من جمعه
قد زال ملك سليمان فعاوده * والشمس تنحط في المجرى وترتفع * قد يدرك المتأني بعض حاجته
وقد يكون مع المستعجل الزلل * قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه * خلق وجيب قميصه مرقوع

(حرف الكاف) كلوا اليوم من رزق الاله وأبشروا * فان على الخلاق رزقكم غدا
كفى زاجرا للمرء أيام دهره * تروح له بالواعظات وتغتدي * كنت من كربتي أفر اليهم
فهم كربتي فأين الفرار * كانوا بني أم ففرق شملهم * عدم العقول وخفة الاحلام
كل المصائب قد تمر على الفتى * فتهون غير شماتة الأعداء * كأنك من كل النفوس مركب
فأنت الى كل الأنام حبيب * كالكلب ان جاع لم يعدمك بصبصة * وان ينل شبعا ينبح من الأشر

(حرف اللام) لعمرك ما يدري الفتى كيف يتقي * اذا هو لم يجعل له الله واقيا
لعمري ما ضاقت بلاد بأهلها * ولكن أخلاق الرجال تضيق * للموت فينا سهام وهي صائبة
من فاته اليوم سهم لم يفته غدا * لو أن خفة عقله في رجله * سبق الغزال ولم يفته الأرنب
لو كان ما بي في صخر لأنحله * فكيف يحمله خلق من الطين * لعمرك ما الأيام الا معارة

صاحبة هذا الكتاب هل كنت تأتيها من وراء الدار فقال أي والله ومن أين علمت ذلك فقلت من البيت لانه اذا كرتك فيه بجملي نعمان وهما كناية عند الظرفاء من أهل الأدب عن جانبي الكفل للمليح والمليحة فقال والله ما أدركت ما أدركت (ونقلت من اللطائف المسبوكة في قالب التورية) ان بعض الكتاب دخل يسلم على بعض فضلاء النحاة وكان من أصحابه فوجده قائما يلوط بأحد الغلمان الملاح من طلبته في قراءة النحو ولم يره الغلام فجلس النحوي في مكانه وبقي الغلام واقفا مبهوتا فقال الكاتب للنحوي مالي أرى هذا الغلام واقفا فقال النحوي وقع عليه الفعل فانتصب (ومثل ذلك قصة ابن عنين مع الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل) لما كتب اليه في مرضه

انظر الي بعين مولى لم يزل
يولي الندى وتلاف قبل تلاقي
أنا كالذي أحتاج ما يحتاجه
فاغنم دعائي والثناء الوافي

فحضر اليه المعظم بنفسه ومعه ثلثمائة دينار وقال له أنت الذي وأنا العائد وهذه الصلة (وظرف من قال)

وذي أدب بارع لكنه
أولجت فيه قد اعتنق
فقلت قد يتك أعصر عليه
ففيه اللذاذة لو تعترف
فقال أجدت ولكن لحنت
لقولك أعصر بفتح الألف
فقلت لك الويل من أحمق
فقال وأحمق لا ينصرف

(وأظرف منه قول الحسين بن الريان)

أتيت حانة خمار وصاحبها
مماجن متقن للنحو ذو لسن
وحوله كل هيفاء منعمة
وكل علق رشيق أهيف حسن

فما استطعت من معروفها تزود * لكل امرئ حالان بؤس ونعمة * وأعطفهم في النائبات أقاربه

﴿حرف الميم﴾ من يحمد الناس يحمدوه * والناس من عابهم يعاب

من لم يعدنا اذا مرضنا * ان مات لم نشهد الجنازه * متى يبلغ البنيان يوما تمامه

اذا كنت تبنيه وغيرك يهدم * من كان فوق محل الشمس رتبته * فليس يرفعه شئ ولا يضع

من الناس من يخشى الأباعد نفعه * ويشقى به حتى الممات أقاربه * ما كان في المخدع من أمركم

فانه في المسجد الجامع * ماقام عمرو وفي الولا * ية قائما حتى قعد

﴿حرف النون﴾

نسود أعلاها وتأبى أصولها * وليس الى رد الشباب سبيل * نحن بنو الموتى فما بالنا

نعاف ما لا بد من شربه * ندمت ندامة الكسعي لما * رأت عيناه ما صنعت يداه

﴿حرف الهاء﴾ هنا كم الله بالدنيا ومتعكم * بما نحب لكم منها وترضاه

هل بالحوادث والايام من عجب * أم هل الى رد ما قد فات من طلب * هب الدنيا تقاد اليك عفوا

أليس مصير ذاك الى الزوال * هنيأ لمن لا ذاق للدهر لوعة * ولم تأخذ الايام منه نصيبا

هم يحسدوني على موتي فواحزني * حتى على الموت لا أخلو من الحسد

﴿حرف الواو﴾ ولم أر كالمعروف أما مذاقه * فحلو وأما وجهه فجميل

واذا خشيت من الامور مقدرا * وهربت منه فنحوه تتوجه * والرزق يخطئ باب عاقل قومه

ويبيت بوابا بباب الأحمق * ولا يغررك طول الحلم مني * فما أبدا تصادفني حليما

ولا خير فيمن لا يوطن نفسه * على نائبات الدهر حين تنوب * واذا أتتك مذمتي من ناقص

فهي الشهادة لي بأني كامل * وما المرء خير في حياة * اذا ما عد من سقط المتاع

وما المرء الا كالهلال وضوؤه * يوافي تمام الشهر ثم يغيب * وقد تسلب الايام حالات أهلها

وتعدو على أسد الرجال الثعالب * ومن يأمن الدهر الخؤن فانني * برأي الذي لا يأمن الدهر أقتدي

واذا افتقرت الى الذخائر لم تجد * ذخرا يكون كصالح الأعمال * ومن يكن الغراب له دليلا

يمر به على جيف الكلاب * ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا * من الزاد يطرح نفسه أي مطرح

ولم يمنع الكريم وما به * بخل ولكن سوء حظ الطالب * ولا بات يسقينا سوى الماء وحده

وهذا جزا من بات ضيف الضفادع * ومن عاش في الدنيا فلا بد أن يرى * من العيش ما يصفو وما يتكدر

ولو دامت الدولات دامت لغيرنا * رعايا ولكن ما لهن دوام * وأحسن فان المرء لا بد ميت

وانك مجزي بما كنت ساعيا * ولا ترين الناس الا تجملا * وان كنت صفر الكف والبطن طاويا

وما لامرئ طول الخلود وانما * يخلده طول الثناء فيخلد * ولرب نازلة يضيق بها الفتى

ذرعا وعند الله منها المخرج * وكان رجائي أن أعود ممتعا * فصار رجائي أن أعود مسلما

وتجلدي للشامتين أريهم * أني لريب الدهر لا أتضعضع * ولا بد من شكوى الى ذي مروأة

يواسيك أو يسليك أو يتوجع * وهون حزني عن خليلي انني * اذا شئت لاقيت الذي مات صاحبه

ويوم علينا ويوم لنا * ويوم نساء ويوم نسر

﴿حرف اللام ألف﴾

لا تنظرن الى الجهالة والحجى * وانظر الى الاقبال والادبار * لا تسأل المرء عن خلائقه

في وجهه شاهد من الخبر * لا يصبر الحر تحت ضيم * وانما يصبر الحمار

لا تنه عن خلق وتأتي مثله * عار عليك اذا فعلت عظيم * لا يبالي الشتم عرض

كله شتم وذم * لا تنظرن الى امرئ ما أصله * وانظر الى أفعاله ثم احكم

لا يسكن المرء في أرض يهان بها * الا من العجز أو من قلة الحيل * لا يقبلون الشكر ما لم ينعموا

نعما يكون لها الثناء تبيعا * لا أسأل الناس عما في ضمائرهم * ما في ضميري لهم من ذاك يكفيني

﴿حرف الياء المثناة التحتية﴾

فقال لي اذ رأى عيني قد انصرفت
الى النساء كلام الحاذق الفطن
أنث وركب وصف واعدل بمعرفة
واجمع وزد واسترح من عجمة وزن
(ومثله ما حكى) أن بعض الفقراء
وقف على باب نحوي فقرعه فقال
النحوي من بالباب فقال سائل
فقال ينصرف فقال اسمي أحمد
فقال النحوي لغلامه اعط سيبويه
كسرة ﴿ومثله قول ابن عنين﴾
شكا ابن المؤيد من عزله
وذم الزمان وأبدى السفه
فقلت له لا تذم الزمان
فتظلم أيامه المنصفه
ولا تعجبن اذا ما صرفت
فلا عدل فيك ولا معرفه
﴿وألطف منه قول القائل﴾
ورقيع أراد أن يعرف النحـ
ـو بزي العيار لا المستفتي
قال لي لست تعرف النحو مثلي
قلت سلني عنه أجب في الوقت
قال ما المبتدا وما الخبر المجرو
ر أوجز فقلت ذقنك في استي
(وأحسن منه وأبدع قول الشيخ
زين الدين بن الوردي)
وشادن يسألني
ما المبتدا والخبر
مثلهما لي مسرعا
فقلت أنت القمر
﴿ومن النكت المسبوكة في قالب
التورية أيضا﴾ ما قيل ان شهاب
الدين العزوفي حضر عند الملك
الاشرف وقد دخل اليه سعد الدين
الحكيم فقال الملك الاشرف لشهاب
الدين ما تقول في سعد الدين الحكيم
فقال يا مولانا السلطان اذا كان بين
يديك فهو سعد الدين وعلى السماط
سعد بلع وفي الحماء عن الضيوف
سعد الأخبية وعند مرض المسلمين
سعد الذابح قال فضحك الملك
الاشرف واستحسن اتفاقه البديعي
(وأبدع منه في هذا الباب) ما نقل
عن الشيخ نظام الدين قيس قيل انه

يفــرمن المنيــة كل حى * ولاينجى من القـدر الحـذار * يريك الرضا والغل حشو جفونه
وقد تنطق العينان والفم ساكت * يهـم للشـعير اذا رآه * ويعبس ان رأى وجـه اللجام
يفارقـنى من لا أطيق فراقه * ويصحبنى فى الناس من لا أريده * يزيد تفضـلا وأزيد شكرا
وذلــك دأبه أبدا ودابي * يواسى الغراب الذئب فى كل صيده * وما صارت الغربان فى سعف النخل
يهون علينا ان تصاب جسومنا * وتسـلم أعراض لنا وعقـول * يغر الفــتى مر الليالى سليمة
وهن به عما قليــل غـوائر * يغيظـنى وهو عـلى رســله * والمرء فى غيظ ســواه حليم
يريك البشاشة عند اللقا * ويبريك فى السر برى القلم

(الفصل الخامس فى الأمثال السائرة بين الرجال والنساء مرتبة على حروف المعجم)

(حرف الألف)

ان كنت ما تعمل جميل اعمل كما يعمـل معك اذا أبغضـك جارك حول باب دارك اذا كان صاحبك عسـل لا تلحسه كله المستعجل والبطى عند المعدية يلتقى ألف ذقن ولا سلام عليكم ألف ذقن ولا ذقنى اذا غاب عنك أصله كانت دلائل نسبته فعله اذا وصلت وسلام الله بدمع عاقسم الله اذا كنت أعمى وأطروش شم رائحة النقوش اذا كان النبيذ دردى والعشيق كردى والبقل فول حار والعشاء بيسار ايش يكون الحال اذا كان القطن أحمر والمغسل أعور والدكة مخلعة والنعش مكسر اعلم ان الميت من أهل سـقر والوادى الأحمر ايش ينفع الضراط عند طلوع الروح قال تقريف للحاضرين وتفريق للاشكة القشر والنشر والعشا خبيزة أكل الدقة والنوم فى الأزقة ولا دجاجـة محمرة يعقبها مشقة ايش أنت فى الحارة يا مخـل بلا طاره الرجم بالطوب ولا الهروب اذا وقعت يا فصيح لا تصـيح أقرع يقول لا اقرع امش بنا نزرع فى بركة القرعان ايش ما يطلع يطلع النصف لى والربع لى والثمن لى والثمن الآخر لك ولى العـدو ما يبقى حبيب حتى يصـير الحمار طبيب اقعد يا حمار حتى ينبت لك الشعير أى موضع راح الحزين يلقى جنازة قال الشاعر

ان دام هذا السير يا مسعود * لا جمل يبقى ولا قعود

(غيره) اذا لم تكن لى والزمان شرم برم * فلا خير فيك والزمان ترللى

(غيره) اذا أقبلت كادت تقاد بشعرة * واذا أدبرت كادت تقد السلاسلا

(حرف الباء الموحدة)

بينما يتروى البخيل قضى الكريم حاجته بينما يسـعد المعتر فرغ عمره بينما أصـل قبره نسيت همه بينما يعدل المعتر حاله جاء الموت شاله بينما يخلص ربنا حقى انفرقعت جوزة حلقى بينما يقطع الجريد يفـعل الله ما يريد بينما يجى الدرياق من العـراق يكون الملسوع مات بين حانه وبانه حلقت لحانه بدوى مقـروح لقى التمر مطروح أين يخلى ويروح بدال لحمتك وقلقاسك هات لك شد على راسك بدال اللحمة والباذنجان هات لك قيص يا عريان بدال لحمتك التـلاته هات لك شـد يا شماته بقى للكلاب سرج وغاشيه وغلمان وحاشيه بقى للخرا يحلف بالطلاق بعد الجوع والقله بقى لك حمار وبغله

(حرف التاء المثناة فوق)

تموت الحدادى وعينها فى الصيد تعالوا بنا نقتبح ونرجـع غـدا نصطلح تدحرج الحر العنـد البعر قال له ايش أنت قال له بزم قردش ترك الفضول من حزم العقول تراب العمل ولا زعفران البطالة تسـكر وتخانق ما هو شى موافـق تجارة الأحـق على أهل بيتـه تضارب الريح مع الموج جاء الهـم على النواتيـه تزاوروا ولا تجاوزوا تبات نار تصبح رماد لها رب يدبرها

(حرف الثاء المثلثة)

ثوب العيرة ما يدفى ثقيل واسمه صخر بن جبل ثور علقوه أعمى عليـه قال حتى يطلع شى يرشوه عليـه ثور عاجز ما يدور ساقيه ثقيل من أولاد الزنا مر العنا ثوب عليه وثوب على الوتد قال أنا اليوم أحسن من كل من فى البلد

(حرف الجيم)

جور القط ولا عدل الفار جمل موضع جمل يبرك جمل المقل دموعه جمل يحبسه قال وأين المحبة جيت أصـطاد صادونى جار له حق وجار ماله حق وجار لا صحبته عافية جارك مرآتك ان لم ينظر وجهك نظر قفاك جاء كتاب

لقى الصاحب عز الدين عبد العزيز بن منصور فسأله الصاحب عن حاله فقال

حال متى علم ابن منصور بها
جاء الزمان الى منها تائبا

(قلت ان نظام الدين أحق من أبى الطيب بهذا البيت (ومن النكت بالتورية أيضا) قيل ان بعض الماجنات أرادت السـفر فلقيها بعض المجان فقال لها خـذى معك هذا الكتاب وأشار الى ذكره فقالت له على الفوران لم ألق أمك أعطـه أختك (ومثـل ذلك) ان الشيخ بدر الدين بن الصاحب لقى شخصا ومعه مليحان فقال ما اسمـك فقال عبـد الواحد فقال أخرج منهما فأنا عبـد الاثنين (ومثله) ان ابن نقيلة المغنى مرض وأشرف على الموت فجاء اليه ابن الصاحب يعوده فقال له كيف حال النقيليـة فقال ما أخوفنى أن تصـير مـدفونة (ومثله) ان بعض المجان رأى امرأة حاملة سر موجـة فقال لها متى زوجك حملك تركاشـه فقالت له رح لا رميك منـه بفردة (ومثله) ان بعضـهم رأى امرأة حاملة فردة سقمان لتخيطه فقال لها اعتـق هـذا الغراب فقالت له رح لا سيبه ينقرك (ومثـله) ان الشيخ بدر الدين المـذكور أولا حضر الى مجلس قاضى القضاة ناصر الدين المالكى فذكروا محاسن القاضى محب الدين ناظر الجيشـين وحسن اخلاقه ثم ذكروا محاسن الشـعر فانشده قاضى القضاة

فكم أب قد علا بابن ذرى شرف
كما علت برسول الله عدنان

فكل من الجماعة أثنى على هذا البيت فقال الشيخ بدر الدين بن الصاحب والقاضى محب الدين يحب هـذا البيت فطـر بواله (ومما وقع له بذلك المجلس) انه لما قدم المشروب على العادة كان قد تولى السقاية مملوك له اسمه يكتمر فلما شرب الشيخ بدر

من عند خاله قال كل من هو في حاله جاء كتاب من عند عمه قال كل من هو ملهي بهمه جاؤا يعملوا خيل الباشا
مدت أم قويق رجلها جوزوها الله مالها الا له اجوزوا مشكاح لريه ماعلى الاثنين فيه

﴿حرف الحاء المهملة﴾

حاجة لاتهمك وصى عليها زوج أمك حول حبيبي ماعونه وقدرته مع كانونه حمار حنكوه بالتوت على باب الغيط يموت حلينا القلوع وأرسينا وأصبحنا على ماأمسينا حب وداري وا كره وداري حدثتني ونصحتني عايرتني وفرحتني حط فليساتك في كمك واشتر أبوك وأمك حبة قرض تخرب أرض

﴿حرف الخاء المعجمة﴾

خذيني وارفعي فيه أنا حصاد ملوخيه وعند الخبز آكل ميه وعند الشغل مالي نيه خبثت لي وصلحت لك خذ ذا الصبي فوق صبيانك تمام لاحزانك خزينه في جره وملحه في صره خبزه بلا ادام و يعزم على الجيران

﴿حرف الدال المهملة﴾

دار الظالم خراب ولو بعد حين درهم لك ودرهم عليك لا لك ولا عليك دواء مالا تشتهي النفوس تعجيل الفراق

﴿حرف الذال المعجمة﴾

ذا درب مايسد ريح ذي ماهي رمانه الا قلوب ملانه ذالي وذا أيدي عليه ذي مائده مايقعد عليها طفيلي ذا الخبز ماهو من ذا العجين ذا الولد خرا من ظرفه كل من شال رجليه حك أنفه ذكروا مصر القاهرة قامت باب اللوق بحشايشها ذكروا المدن جاءت القرى تحجل

﴿حرف الراء المهملة﴾

راح ذاك الزمان بناسه وجا هذا الزمان بفاسه وكل من تكلم بالحق كسروا راسه رأوا حمارا راكب حيط قالوا الى أين يا حمار قال مسافر قالوا من كانت هذه المطية مطيته لايشرق ولا يغرب رأوا سكران يقرأ قالوا غني تشاكل روحك رأوا شيخا يتهجى قالوا يختم على الصراط رأوا وردانه على سنداس قالوا ما الذي الفسقية الاذي البلطية رأوا على قبر مكتوب يا سعادة ساكنه قالوا أبصر من يزاحمه راكب بلاش وبناغش مراة الريس ركبتك وراي حطيت يدك في الخرج راح الجندي وخلى خلقه عندي رزق الكلاب على المجانين راسين في عمامه مايكون راحت على جمل وجاءت على قطه قال ما الذي الشيلة الاذي الحطه قال الشاعر

راح الذي كنا نعيش بفضله بين الورى * وبقي الذين حياتهم ووجودهم مثل الخرا

﴿حرف الزاي المعجمة﴾

زقزوق على بركه يضحك وهو ضحكه زاويه بلا عيش بنيت ليش زوج القصيره يحسبها صغيره زوجت بنتي اقعد في دارها جاءتني وأربعة وراها قال الشاعر

زوجت بنتي تستتر * وتعلى بيتي قماش
جاءت لها في أكلها * وتبكها طلع بلاش

زنبور زن على بحر مسن قال له ايش تريد قال الحسك قال أنا الحس البولاد زنبور زن على فاس بحش قال له ايش تطلب قال له عسل قال له قصدت معدن يادندن

﴿حرف السين المهملة﴾

سل المجرب ولا تنس الطبيب سموك مسحر قال فرغ رمضان سموك حبل قال وطوات سموك راجح قال ان شاء الله تجي الحق سبع وزرو لا استتر (قال الشاعر)

سيغني الله عن بقراط دن * ويأتي الله باللبن الحليب

(وقال آخر)

سيغني الله عن زيد وعمرو * ويأتي الله بالفرج القريب

﴿حرف الشين المعجمة﴾

شره ووضيع و بغضب سريع شي مانابه وتقطعت ثيابه شعر يحلق وشعر مايحلق شرب السموم القاتلة ولا الحاجة الى السفل شعني ولا تدعكني شي مايجي على القلب عنايته صعبه شراء العبد ولا تربيته شخت بغله عامت زبله ركبت خنفسه زمر زنبور قال ماذا الجوق الجليل الا لمقطعات النيل

﴿حرف الصاد المهملة﴾

صام سنة وفطر على بصله صبري على الحبيب ولا فقده صاحب يضر عدو مبين صباح الفوال ولا صباح العطار صباحك يا أعور قال ذي خناقه بايته صباح الخير ياجاري انت في دارك وأنا في داري

الدين قال له قاضي القضاة ماتقول ياشيخ قال رأيت ملك العلماء بكتمر الساقي (ومثله) أن الصاحب ابن سكر أراد قارئا يقرأ بالمدرسة التي أنشأها بالقاهرة فاختاروا له رجلين أحدهما اسمه زيادة والآخر مرتضى فوقع في ظهر القصة مرتضى زيادة و زيادة مرتضى (ومثله) ان أبا الحسن الجزار جاء الى باب الصاحب زين الدين بن الزبير فاذن للناس في الدخول ولم يأذن له فكتب في ورقة

الناس كلهم كالاير قد دخلوا * والعبد مثل الخصى ملقي على الباب

فلما قرأها ابن الزبير قال لحاجبه أخرج الى الباب وقل يا خصي ادخل فدخل أبو الحسين وهو يقول هذا دليل على السعة (ومن التنكيت والمشنعة بالتورية) ان الشيخ صلاح الدين الصفدي قال أخبرني الشيخ فتح الدين بن سيد الناس بالقاهرة قال قلت للشيخ تقي الدين بن دقيق العيد ان بهاء الدين بن النحاس يرجح أبا تمام على المتنبي فما رأيك أنت فسكت فقلت ثانيا فقال كنت كذا في الأول قال الشيخ صلاح الدين ولما حكيت للشيخ جمال الدين بن نباتة قال أنا على رأي ابن دقيق العيد قال الشيخ صلاح الدين وممن رأيته يعظم أبا تمام شيخنا أثير الدين ويرجحه على المتنبي فعذلناه في ذلك فقال أنا ما أسمع عذلا في حبيب اهـ (ونقلت) من خط الصاحب فخر الدين بن مكانس رحمه الله قال سافرت سنة احدى وستين وسبعمائة مع الصاحب فخر الدين بن قزوينة الى دمشق المحروسة وقد ولي نظر مملكتها ووالدي رحمه الله افتاءها وكان له دوادار يسمى صبحا وهو من عتقاء جده الوزير أمين الدين بن الغنام وكان لطيفا كثير النوادر فاتفق أن جمال الدين بن الرهاوي موقع دست الوزارة ركب يوما فتقنطر به

﴿حرف الضاد المعجمة﴾

ضرب الحبيب كأ كل الزبيب ضربتين فى الراس تعمى ضرب وبكى وسبق يشتكى ضربة على كيس غيرى كأنها فى عدل حنا ضمنوا حدايه لغراب قال الكل يطيروا ضربوا بياع الكسبره خرى بياع التوم قال ذى داهية جات على الحضريه

﴿حرف الطاء المهملة﴾

طارت الطيور بارزاقها طفيلى و يجلس فى الصدر طفيلى و يقترح طويل الكم خطار قليل الفرخ فى الدار طبق وجار يه على صحن بسار يه طبلوا جاء كم عشمان يد من وراو يد من قدام طعامك ماجانى ودخانك أعمانى طار طيرك وأخذه غيرك طول ما أعيش يكفينى رعى الحشيش طول الغيبه وجانا بالخيبه

﴿حرف الظاء المعجمة﴾

ظهرك عندى نصف الليل

﴿حرف العين المهملة﴾

عنقود مدلى فى الهوا من لا يصل اليه يقول حامض ولا استوى عشق بداله لا أباله عاشق ما يسمع بكا صغير عاشق ما يسمع كلام مفارق عاشق مقل شئ مازرع ايش جا يستغل عزومه حسبت عليك كل و بحاق عينيك عند المخاصة يبان القبليط عند الطعان يبان الفارس من الجبان عريان التينه وفى حزامه سكينه عريان وفى كمه ميزان

﴿حرف الغين المعجمة﴾

غابت السباع ولعبت الضباع غربه وكربه ما يحمل الحال غطاس وقلقاس تحسين فى قدره غالى السوق ولا رخيص البيت

﴿حرف الفاء﴾

فرجه بلا كسر تعمى البصر فقير ونفير وكلامه كثير و يقول هاتوا عشا من يحنى فوق الشراطه ملح أودانه فارس خرا و يسوق فى الوحل فارس خرا واسمه عنتر فارس خراو يسابق الخيل فرد ضربه فى الرأس تكفى فصدوا قرد ضرط قالوا به دم زايد فرغت الرمانة ياجانم

﴿حرف القاف﴾

قالوا للاعمى زوق عصاتك قال هو أنا محب فيها * قالوا للحمار اجتر قال مضغ المحال ما ينطلى * قالوا للقرد شب قال أيادى ملاح وتمسك المأصول * قالوا للقرد اطلب من ربك قال أنا هو عنده بوجه يبسط * قالوا للجمل زمر قال لا شفف ملومة ولا أيادى مفرودة * قالوا للدبه طرزى قالت ذى خفة أيادى * قالوا للكلاب احرثوا قالوا ما جرت بهذا عاده * قالوا للغراب مالك تسرق الصابون قال الاذى طبعى * قالوا لبقر الديوان اذامتم يكفنوكم فى حرير قالوا الشتهينا نروح بجلودنا * قالوا للغزالة ارحلى حركت ذنبها * قالوا للعرب ارحلوا حملوا المناسف

﴿حرف الكاف﴾

كل من عودته بأ كالك كلما نظرك جاع * كشكار دايم ولا علامة مقطوعة * كل كرها وأشرب كرها ولا تعاشر كرها * كل هم كاوى عندهمى ياوى * كل شئ لا يشبه قانيه حرام * كل مائة عصفور ما يجو حدايه * كل ألف مصه ما يجو بغصه كل ألف بوسه ما يجو بعبوسه * كملت يا لحان بالشعره والصنان * كل حبيبى كل المعانى أعرج وقيليط ومعجبانى كمل حبيبى وأ كمل أعرج وقيليط وأحول وفيه عادة أخرى لمن يواصل يخرا * كأنه خان للفجر لا يوحشه من غاب ولا يؤانسه من حضر * كأنه من طواحين الكشكار داير على رجل الفار * كأنه عصفور ينيك بلاش و ياوى فى الاعشاش

﴿حرف اللام﴾

لولاك يا كمى ما أكلت يا فمى لولاك يا لسانى ما انسكيت يا قفاى لولا الغيرة والحسد كانت عجوزة كفت بلد لولا أختك ما صرت ابن عمتك لو قليناها بليه ما جاءت هكذا لو كان فيها خير ما رماها طير لك وعليك ما يصعب عليك لك اسوة بغيرك لقمة بدقه ولا خروف بزقه لقمة تحت حيطه ولا خروف بعيطه لو سلم الكرم من حارسه طابت مغارسه لو تقطع يده وتدليها من فيه صنعة ما يخليها لو عمل لى من الذهب وليه هو عندى بتلك العين القديه لو شال رأسه الى السما كان عصيدة عما لو نظر الجمل لصفه كان كدمه لولا الكشط والبرابة ما كانت أولاد الخرا كتاب

﴿حرف الميم﴾

محبة بلا حنه ما تساوى حبه ماشلتك يا دمعتى الالشدتى من عاشر غير جنسه دق الهم صدره من قدم النحس تعب فى تأخيره من عاشر الحداد احترق بناره من عاشر الزيدانى فاحت عليه روايحه من ركب فى غير

الفرس وداس على رأس احليله فحمل الى داره وأقام أياما الى أن عوفى وحضر مجلس الوزارة وهو غاص بالناس فقال الصاحب ما سبب تأخرك فقال تقنطر بى الفرس وداس رأس احليلى فكدت أموت والآن فقد لطف الله تعالى وحصل البرء والشفاء فقال له صبيح الحمد لله على سلامة الخصى فانقلب المجلس ضحكا وخجل ابن الرهاوى وانصرف (وحكى) ان بعض الرؤساء كان له خادم وعبد فدخل يوما فوجد العبد فوق الخادم فضربه وخرج فرأى بعض أصدقائه فسأله عن غيظه فقال هذا العبد النحس فعل بالخويدم الصغير فقال بل مولانا السيد الكبير فخجل منه وأبرزها فى قالب المجون (وأنشد ابن الجوزى فى بعض مجالس وعظه)

أصبحت ألطف من مر النسيم على
زهر الرياض يكاد الوهم يؤلمنى
من كل معنى لطيف أجتلى قدحا
وكل ناطقة فى الكون تطربنى

فقام اليه انسان فقال يا سيدى الشيخ فان كان الناطق حمارا فقال أقول له يا حمار اسكت (ويعجبنى قول برهان الدين القيراطى)

صاح هذى قباب طيبة لاحت
وفؤادى على اللقاء حريص
وتبدت نخيلها للمطايا
فعيون المطى للنخل خوص

(ويطربنى ما حكاه أبو الفوارس ابن اسرائيل الدمشقى) قال كنت يوما عند السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فحضر رسول صاحب المدينة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ومعه قود وهدايا فلما جلس أخرج من كمه مروحة بيضاء عليها سطران بالسعف الأحمر وقال الشريف يخدم مولانا السلطان و يقول هذه المروحة ما رأى مولانا السلطان ولا أحد من بنى أيوب مثلها فاستشاط السلطان

سرجه وغرزه دخل الهوا استه وهزه من لا يحط يده لزنده ما يعرف حره من برده ما رأيتك يا نور حتى أبيضت العيون مالى على فراقكم جلد الاهجاجى من البلد ما كفاناهم أبونا قام أبونا جاب أبوه قال خذوا جدكم ربوه من عدم نابه ونصابه وثيابه وشبابه كان الموت أولى به من يكام القبح يروح عرضه وينفضح ما تنقدوهم كلهم زغلية ما فيهم من يعجب النقاد

﴿حرف النون﴾

نواية تسند الجرة قال وتسند الزبر الكبير نفسك أتلفت أى شئ أخلفت نصف البلا ولا البلا كله ناقص ونحاس ناموسة باتت على شجرة أصبحت تقول خاطرك قالت لها وأنت كنت على أى ورقة نيتك مطيتك نسيت يا فلاح ما كنت فيه كعبك المشقق والوحل فيه نيلك حتى تبقى ديك

﴿حرف الهاء﴾

هانت الزلابيه حتى أكلها بنو وائل هات المسك وانتر هدية تعرقوها تخليتها ولا لومها هدية الاحباب على ورق السداب قال هو أعمى عن ورق الموز هو عرس تأكل وتنسل أهدوا هدية وأعينهم فيها يقولوا الله يردها هاتوا ذا الغزل المخبل لذى القلب المدبل

﴿حرف الواو﴾

واحد نتفه وآخر لقفه وقال آخر يا قريب الفرج واحد يخطبواله وهو قائم عليه قال أنا فى حاجتك واحد جائز رأى قرد يجرش ترمس قال ما الذى الفاكهة البدرية الأذى الصورة القمرية واحد سموه عنبر وسنعته مربانى قال الذى كسبه فى الاسم خسره فى الصنعة وحش ويكش ويقعد فى الوش ويغنى بلينا بكم وقت أكل الدجاج ما يفتكرونى وفى وقت شيل التراب هات يدك وايش قام على تومه بفصل الحكومه وقت الشوى والبخنى ماقلت يا أخى الحقنى ووقت ضرب الدرة قلت أصفعو وأصفعنى

﴿حرف اللام ألف﴾

لا تعيرنى ولا أعيرك الدهر حيرنى وحيرك لا أصل شريف ولا وجه ظريف لا أخوك ولا ابن عمك تشق ثوبك على ايش لا عاش بليس الاحراس ولا دراس لا عاش العار ولا بنى له دار لا ربح ثوابه ولا خلاه لاصحابه لا فى الفراق نجد راحة ولا فى الوصل لا تشكرن فتى حتى تجربه لا تفرح لمن يروح حتى تنظر من يجى لا يضر السحاب نبح الكلاب لا يغرك تظريف الاصل فى ريفى

﴿حرف الياء﴾

ياشب مليح ما أحسن وصفك لا فى يدك ولا فى طرفك ياويل من ذاق الغنى بعد جوعه يموت وفى قلبه من الهم واجس يا طارق الباب بعد العشى لا تطرق الباب ما تم شئ يامن ملنا ما كان حلنا لساما الثانى العشرة سنة يهنيكم قدومه قدحا لم بشومه يا ليتنا انكسرنا ولا بك انتصرنا ياويل من كان عشيه من بيت خيه يا طالب الشر بلا أصل تعال للصائم بعد العصر

﴿أمثال النساء * حرف الألف﴾

أحبك ياسوارى مثل معصمى الذى فى قلب أم حنين تحلم به فى الليل ان كنت حره لا تضيعى نقابك بره ان لم تعملى وتفتخرى والا اقعدى وانعفرى ان كانت الداية أحن من الوالدة قال دى داهية عياره الكلام لك يا جاره الا أنت حماره ايش تعمل الماشطه فى الوجه المشوم ايش قام على الحزينه بالنقش والزينه ايش ينفع النفخ فى الوجه الاصم أرملة عدس ومتزوجه عدس اقعدى بعد سكى اسم الزوج ولا طعم الترمل العاقلة فينا ترفى بيقطينا اذا كان زوجى راضى ايش فضول القاضى استعارت الرعنه شئ حسبته لها أخذت المقص ودارته لها اقعدى فى عشك حتى يجى حد ينشك

﴿حرف الباء الموحدة﴾

بعد ان كنتى لى وحدى بقيت أسمع أخبارك بعد سنة وشهرين جابت بنت بشفرين بعد أن كان زوجها بقى طباخ فى عرسها بعد مشيك فى الحلقه بقى لك سلالم وغرفه واسمك ستيته بعد أمى وأختى السكل جيرانى بينما تنقلب الحولة انصرف القاضى بنت الحرا ترف لا بن الحرا بدف باتت ناموسه على جميزه قالت صبحك الله بالخير قالت مين درى بك قبله بدال ما تمشى وتهزى كتفك رقبى فرد تخفك بخرا وتزاحم بالبوس بقى لام

صلاح الدين غضبا فقال الرسول يا مولانا السلطان لا تعجل قبل تأملها وكان السلطان صلاح الدين ملكا حليما فتأملها فاذا عليها مكتوب

أنا من نخلة تجاور قبرا
ساد من فيه سائر الناس طرا
شملتنى عناية القبر حتى
صرت فى راحة ابن أيوب أقرا

واذا هى من خوص النخل الذى فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فقبلها السلطان صلاح الدين ووضعها على رأسه وقال لرسول صاحب المدينة النبوية صدقت فيما قلت من تعظيم هذه المروحة (وأحسن ما سمع فيها) قول عرقلة الدمشقى

ومحبوبة فى القيظ لم تخل من يد
وفى القر تسلوها اكف الحبائب
اذا ما الهوى المقصور هيج عاشقا
أتت بالهوى الممدود من كل جانب

(وقال غيره وأجاد)

ومروحة أهدت الى النفس روحها
لدى القيظ مبثوثا باهداء ريحها
روينا عن الريح الشمال حديثها
على ضعفه مستخرجا من صحيحها

(نقل الحافظ اليعمرى) ان أبا نصر المنذرى واسمه أحمد بن يوسف دخل على أبى العلاء المعرى فى جماعة من أهل الأدب فأنشد كل واحد منهم من شعره ما تيسر فأنشده أبو نصر

وقانا لفحة الرمضاء واد
سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا
حنو الوالدات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا
ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا
فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى
فتلمس جانب العقد النظيم

فقال أبو العلاء أنت أشعر من بالشأم ثم رحل أبو العلاء الى بغداد فدخل

سيسى برقع وللصفدعه زماره بعد مشيك فى الحلافى لبستى الصافى بعيد على الحزينه تستعمل الزينه

﴿حرف التاء﴾

تابت القحبه يوم وليله قالت ما بقى فى البلد حكام تضاربت المجنونه والحمقا حسبته الرعنه من حقا تضارب وتتعرى وتصيح ياقلة رجالى تأخذوا أبوناوتسكابرونا ترتانه وبيبانه ومفاتيح الخزانه تباهت القرعه بشعر بنت أختها تخلونى والا أستحل بجارنا قالت اذا كان ذا فى قلبك خذيه بلا استحلال تتغمى بالحرج ولا تخلى الغنج تقعد عيوشه فى دارتها مالاحد حاجة فى زيارتها ﴿حرف الثاء﴾

ثوب سيدى ثوب حبيبى ثوب ستى ثوب قحبه ﴿حرف الجيم﴾

جاره بجاره والعداوه خساره جانى عذولى ورثالى ماهى محبه الا شماتة لى جاريه وزبديه على باذنجانه مقليه جاتنا العروه مكحله قطران لاغيره وقلبها فرحان جاب ثيابه يغسلهم بلا صابونه معهم

﴿حرف الحاء المهملة﴾

حوله وتتنقب بنخ حزانى ماعندهم دقيق اشتروا لهم منخل رقيق حزانى ماعندهم خبز اشتروا لهم بعشره ملوخيه حزينه وواعيه حبله ومرضعه وعلى كتفها أربعه وطلعت الجبل تجيب دو للجبل حوله ونصرانيه لاملحه ولا أصل طيب حزينه مالها ملوك سمت زنبورها خوشكادم حزينه مالها ملك اكترت لها بواب حزينه مالها كاملية طلبت لها خف وشعريه

﴿حرف الخاء المعجمة﴾

خطبوها تعززت وكان زمان البوار خلت زوجها مكروب وراحت تشوف المصلوب خذى قطيفه وأكفى سرى قالت ما يطاوعنى قلبى خلت ما يعنيها واتبعت حك رجليها

﴿حرف الدال المهملة﴾

درى زوجك بكتبتك تمى نهارك مع ليلتك دق من أسفل ولا تطلع ما أنت على القلب

﴿حرف الذال المعجمة﴾

ذكرت العجوز اطلالها ﴿حرف الراء﴾

رقصتى ما أحسنتى كان قعادك أجل رعنا يضحكوا بها وهى تضحك تساعدهم رأوا جاموسه منقبه بحصير قالوا ما لذا الشكل الوضيع الا ذا القماش الرفيع راحت تبيع ربعه غابت جمعه راحت رجال الهيبه وبقية رجال الخيبه راحت رجال اللحم والقلقاس وبقيت رجال الخبز بالفسفاس رأوا خنفسه على مكنسه قالوا ما لذى الصيفه الا ذا الحمار الازعر ﴿حرف الزاى﴾

زمر بالزميره تبان لك العاقله من المجيننه زوجى ما حكم على قام لى عشيقى بشمعة زوجوا بنت نشادرى السرباتى قالوا قليلات الحرا تتدحرج لبعضها ﴿حرف السين المهملة﴾

سودا وتتنقب بسباخ سود امنقبه قفل على خزانه سألوها عن أبيها قالت جدى شعيب

﴿حرف الشين المعجمة﴾

شدى قرطاسك من عند موسه قالوا داشى ما فرحتى به وأنتى عروسه شامته ومعزيه

﴿حرف الصاد المهملة﴾

صارت القحبه واعظه صارت القو يقة شاعره ﴿حرف الضاد المعجمة﴾

ضحك ابن سنه غمى على أمه قالت ما أخف دمه ﴿حرف الطاء المهملة﴾

طلعت ترحم نزلت تتوحم ﴿حرف الظاء المعجمه﴾

ظريفه وعفيفه ولها نفس شريفه ﴿حرف العين المهملة﴾

عميا تحفف مجنونه وتقول حواجبك سود مقرونه عاقله وجابت طفله وجاتها خطار واشتروا لها قلقاس ذكر وحطب أخضر فى نهار مطر وقالوا لها اطبخى على قدر لحمه تقع الصلحه عجوزه وجابت غلام اذا جنت لاتلام عجوزه وخرفانه دى داهيه كانه ﴿حرف الغين المعجمة﴾

غيرك يقوم مقامك عليش قلبى أعذبه ﴿حرف الفاء﴾

المنازى عليه فى جماعة من أهل الأدب ببغداد وأبو العلاء لا يعرف منهم أحدا فانشد كل واحد ما حضره من شعره حتى جاءت نوبة المنازى فانشد

لقد عرض الحمام لنا بسجع
اذا أصغى له ركب تلاحى
شجى قلب الخلى فقيل غنى
وبرح بالشجى فقيل ناحا
وكم للشوق فى أحشاء صب
اذا اندملت أجدلها جراحا
ضعيف الصبر عنك وان تقاوى
وسكران الفؤاد وان تصاحى
بذاك بنو الهوى سكرى صحاة
كأحداق المها مرضى صحاحا

فقال أبو العلاء ومن بالعراق عطفا على قوله من بالشام انتهى (نادرة) مشى البيدق العزيزى مع شاب موسوم بالجمال فقال له شمس الدين ابن المنجم الشاعر أراك يا بيدق تفرزنت حول هذه النفس فقال واذا كان فقال أخشى عليك من ذلك الرخ لا يقطعك من الحاشية ويرميك عن الفرس ويقطع عليك الرقعة ولو كان فى كف الفيل (ومثله فى الظرف) ان بعض الأجناد كان كثير اللعب بالشطرنج وكان الجندى خليعا ظريفا فاعطاه الأمير فى بعض الأيام فرسا وقال له لا تفرط فيها فقال نعم وبعد ذلك التقاه الأمير وهو لابس جوخة فقال ويلك أين الفرس فقال ياخوند ضربنى الشتاء شاه مات فتسترت بالفرس (ويعجبنى قول الشيخ بدر الدين بن الصاحب)

تأمل تر الشطرنج كالدهر دولة
نهارا وليلا ثم بؤسا وأنعما
محركها باق وتفنى جميعها
وبعد الفنا تحيا وتبعث أعظما

(قلت) ويشبه هذا قول الفاضل وقد أخرج له السلطان الملك الناصر صلاح الدين من القصر من يعانى الخيال أعنى خيال الظل

فرحت حزينه خربت مدينه

﴿حرف القاف﴾

قالوا الاغانى تزوقوا قلبوا عصابيهم قحبه ما كنست بيتها كنست المسجد قالوادى قحبه تطلب الثواب

﴿حرف الكاف﴾

كل من تبعت هواها صارت سراو يلها رداها كبرتى يا برقوقه و بقى لك دبوقه كانوا مغانى صاروا مسلاهى لاراحت ولاجات كما هى كالى قليه و باتى هنيه كأنها من الباسيطه قماش على جريده كأنها حزمة فجل أصفر وعرقها أخضر كأنها من عمايم اليهود صفرا طويلة رفيعة كأنها من بيت الوالى ما يتحدث فيها سوى الماشيه كأنها ضبة جعيدى مخلوعه ولا تأخذشى

﴿حرف اللام﴾

لو كان ينقش الا السمان بارت المواشط من زمان للساعة ما حبلت جابت المرسين لولا المعاير ما كانت الحراير

﴿حرف الميم﴾

ماشطه وتمشط بنتها من افتكرنا بيا سمينا اما نسينا

﴿حرف النون﴾

نواية تسند الجرة قال وتسند الزير الكبير

﴿حرف الهاء﴾

هش ياد بانا أنا حبلى من مولانا

﴿حرف الواو﴾

وجه لا يرى بالذهب يشترى

﴿حرف اللام ألف﴾

لا أننى مليحة ولا تغنى بايش تدلى

﴿حرف الياء﴾

يعيش المدلل بلا مكل يا غزالة الاقمار أين كنتى بالنهار يا ما تحت النقاب والشعرية من كل بلية يا من ملنا ما كان حلنا للساعه مالنا فى العشرة سنه

﴿الباب السابع فى البيان والبلاغة والفصاحة وذكر الفصحاء من الرجال والنساء وفيه فصول﴾

﴿الفصل الأول فى البيان والبلاغة﴾ أما البيان فقد قال الله تعالى الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان وقال صلى الله عليه وسلم ان من البيان لسحرا قال ابن المعتز البيان ترجمان القلوب وصيقل العقول * وأما حده فقد قال الجاحظ البيان اسم جامع لكل ما كشف لك عن المعنى * وأما البلاغة فانها من حيث اللغة هى أن يقال بلغت المكان اذا أشرفت عليه وان لم تدخله قال الله تعالى فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى أم لكم أيمان علينا بالغة أى وثيقة كأنها قد بلغت النهاية وقال اليونانى البلاغة وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة وقال الهندى البلاغة تصحيح الأقسام واختيار الكلام وقال الكندى يجب للبليغ أن يكون قليل اللفظ كثير المعانى وقيل ان معاوية سأل عمر ابن العاص من أبلغ الناس فقال أقلهم لفظا وأسهلهم معنى وأحسنهم بديهة ولو لم يكن فى ذلك الفخر الكامل لما خص به سيد العرب والعجم صلى الله عليه وسلم وافتخر به حيث يقول نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلام وذلك انه كان عليه الصلاة والسلام يتلفظ باللفظ اليسير الدال على المعانى الكثيرة * وقيل ثلاثة تدل على عقول أصحابها الرسول على عقل المرسل والهدية على عقل المهدى والكتاب على عقل الكاتب * وقال أبو عبد الله وزير المهدى البلاغة ما فهمته العامة ورضيت به الخاصة وقال البحترى خير الكلام ما قل وجل ودل ولم يمل * وقالوا البلاغة ميدان لا يقطع الا بسوابق الأذهان ولا يسلك الا ببصائر البيان وقال الشاعر

لك البلاغة ميدان نشأت به * وكلنا بقصور عنك نعترف
مهد لى العذر فى نظم بعثت به * من عنده الدر لا يهدى له الصدف

(وروى) أن ليلى الأخيلية مدحت الحجاج فقال يا غلام اذهب الى فلان فقل له يقطع لسانها قال فطلب حجاما فقالت ثكلتك أمك انما أمرك أن تقطع لسانى بالصلة فلولا تبصرها بانحاء الكلام ومذاهب العرب والتوسعة فى اللفظ ومعانى الخطاب لتم عليها جهل هذا الرجل * وقال الثعالبى البليغ من يحول الكلام على حسب الأمانى ويخيط الألفاظ على قدر المعانى والكلام البليغ ما كان لفظه فحلا ومعناه بكرا وقال الامام فخر الدين الرازى رحمة الله تعالى عليه فى حد البلاغة انها بلوغ الرجل بعبارته كنه ما فى قلبه مع الاحتراز عن الايجاز المخل والتطويل الممل وهذه الأصول شعب وفصول لا يحتمل كشفها هذا المجموع ويحصل الغرض بهذا القدر وبالله التوفيق الى أقوم طريق

ليفرجه عليه فقام الفاضل عند الشروع فى عمله فقال له الناصر ان كان حراما فبالحضرة وكان حديث العهد بخدمته قبل أن يلى السلطنة فأراد أن يكدر عليه فقعد الى آخره فلما انقضى ذلك قال له الملك الناصر كيف رأيت ذلك قال رأيت موعظة عظيمة رأيت دولا تمضى ودولا تأتى ولما طوى الازار اذا المحرك واحد فأخرج ببلاغته هذا الجد فى هذا الهزل انتهى (وللشيخ بدر الدين الصاحب مضمنا فى الشطرنج)

أميل لشطرنج أهل النهى
وأسلوه من ناقل الباطل
وكم رمت تهذيب لعابها
وتأبى الطباع على الناقل

(ويعجبنى قول الشيخ عز الدين الموصلى حيث قال)

يا جاهل شطرنج ينادى وقد
أمات نفس اللعب من عكسه
ما تفعل الأفعال فى جاهل
ما يفعل الجاهل فى نفسه

(وقال الشيخ جمال الدين ابن نباتة)

أفديه لاعب شطرنج قد اجتمعت * فى شكله من معانى الحسن أشتات
عيناه منصوبة للقلب غالبة * والخد فيه لقتل النفس شامات

(نادرة لطيفة)

حكى ان السراج الوراق جهز غلاما له يوما ليبتاع له زيتا طيبا ليأكل به لفتا فأحضره وقلبه على اللفت فوجده زيتا حارا فأنكر على الغلام ذلك وأخذه وجاء الى البياع وقال له لم تفعل مثل هذا فقال له والله يا سيدى مالى ذنب لانه قال اعطنى زيتا السراج انتهى (ومثله) ما حكاه الصاحب فخر الدين بن مكانس عن صاحبه سراج الدين القوصى انه كان حصل له طلوع فى جسده فتردد اليه المزين وصنع له فتائل على العادة قال فقلت له يوما كيف الحال يا سراج

﴿الفصل

(الفصل الثاني في الفصاحة) قال الامام فخر الدين الرازي رحمة الله تعالى عليه اعلم أن الفصاحة خلوص الكلام من التعقيد وأصلها من قولهم أفصح اللبن اذا أخذت عنه الرغوة وأكثر البلغاء لا يكادون يفرقون بين البلاغة والفصاحة بل يستعملونهما استعمال الشيئين المترادفين على معنى واحد في تسوية الحكم بينهما ويزعم بعضهم أن البلاغة في المعاني والفصاحة في الألفاظ ويستدل بقولهم معنى بليغ ولفظ فصيح * وقال يحيى بن خالد ما رأيت رجلا قط الا هبته حتى يتكلم فان كان فصيحا عظم في صدري وان قصر سقط من عيني * وقد اختلف الناس في الفصاحة فمنهم من قال انها راجعة الى الألفاظ دون المعاني ومنهم من قال انها لا تختص الألفاظ وحدها واحتج من خص الفصاحة بالألفاظ بأن قال نرى الناس يقولون هذا لفظ فصيح وهذه الألفاظ فصيحة ولا نرى قائلا يقول هذا معنى فصيح فدل على أن الفصاحة من صفات الألفاظ دون المعاني وان قلنا انها تشمل اللفظ والمعنى لزم من ذلك تسمية المعنى بالفصيح وذلك غير مألوف في كلام الناس والذي أراه في ذلك أن الفصيح هو اللفظ الحسن المألوف في الاستعمال بشرط أن يكون معناه المفهوم صحيحا حسنا * ومن المستحسن في الألفاظ تباعد مخارج الحروف فاذا كانت بعيدة المخارج جاءت الحروف متمكنة في مواضعها غير قلقة ولا مكدودة والمعيب من ذلك كقول القائل

لو كنت كنت كتمت الحب كنت كما * كنا وكنت ولكن ذاك لم يكن

وكقول بعضهم أيضا

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه * ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

وكقول الآخر

وقبر حرب بمكان قفر * وليس قرب قبر حرب قبر

قيل ان هذا البيت لا يمكن انشاده في الغالب عشر مرات متوالية الا ويغلط المنشد فيه لان القرب في المخارج يحدث ثقلا في النطق به وقيل من عرف بفصاحة اللسان لحظته العيون بالوقار * وبالفصاحة والبيان أستولى يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام على مصر وملك زمام الأمور وأطلعه الملك على الخفي من أمره والمستور قال الشاعر

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * ولم يبق الا صورة اللحم والدم

وسمع النبي صلى الله عليه وسلم من عمه العباس كلاما فصيحا فقال بارك الله لك يا عم في جمالك أي فصاحتك (وعرضت) على المتوكل جارية شاعرة قال أبو العيناء يستجيزها * أحمد الله كثيرا * فقالت * حيث أنشاك ضريرا * فقال يا أمير المؤمنين قد أحسنت في اسائتها فاشترها * وقال فيلسوف كما أن الآنية تمتحن بأطنانها فيعرف صحيحها من مكسورها فكذلك الانسان يعرف حاله من منطقه * وقال المبرد قلت للمجنون أجزني هذا البيت

أرى اليوم يوما قد تكاثف غيمه * وأبراقه فاليوم لا شك ماطر

فقال

وقد حجبت فيه السحائب شمسه * كما حجبت وردا لخدود المحاجر

وقال عبد الملك لرجل حدثني فقال يا أمير المؤمنين افتتح فان الحديث يفتح بعضه بعضا * وقال الهيثم بن صالح لابنه يا بني اذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب قال يا أبت فان أنا أكثرت وأكثرت يعني كلاما وصوابا قال يا بني ما رأيت موعوظا أحق بان يكون واعظا منك * وقال الشعبي كنت أحدث عبد الملك بن مروان وهو يأكل فيحبس اللقمة فيقول أجزها أصلحك الله فان الحديث من وراء ذلك فيقول والله لحديثك أحب الي منها * وقال ابن عيينة الصمت منام العلم والنطق يقظته ولا منام الا بتيقظ ولا يقظة الا بمنام قال ابن المبارك

وهذا اللسان بريد الفؤاد * يدل الرجال على عقله

ومر رجل بأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ومعه ثوب فقال له أبو بكر رضي الله عنه أتبيعه فقال لا رحمك الله فقال أبو بكر لو تستقيمون لقومت ألسنتكم هلا قلت لا ورحمك الله (ومنه) ما حكى ان المأمون سأل يحيى بن أكثم عن شيء فقال لا وأيد الله أمير المؤمنين فقال المأمون ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها * وكان الصاحب يقول هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ ويقال للسان سبع صغير الجرم عظيم الجرم وقال بعضهم شعرا

سحبان يقصر عن بحور بيانه * عجزا ويفرق منه تحت عباب
وكذاك قس ناطق بعكاظه * يعيا لديه بحجة وجواب

الدين فقال كيف حال سراج فيه سبع فتائل (ورأيت له في ديوانه يداعب سراج الدين المذكور بقوله)

يا ذا السراج اشتري ارى فانت به * أولى وذلك للامر الذي وجبا
سكندري وتدعى بالسراج وذا * مثل المنار اذا ما قام وانتصبا

(نادرة لطيفة) اجتمع محدث ونصراني في سفينة فصب النصراني من ركوة كانت معه في مشربة وشرب وصب وعرض على المحدث فتناولها من غير فكر ولا مبالاة فقال النصراني جعلت فداك هذا خمر فقال من أين علمت أنها خمر قال اشتراها غلامي من خمار يهودي وحلف أنها خمر عتيق فشربها بالعجلة وقال للنصراني أنت أحمق نحن أصحاب الحديث نروي عن الصحابة والتابعين أفنصدق نصرانيا عن غلامه عن يهودي والله ما شربتها الا لضعف الاسناد *(نادرة لطيفة)* نظر طفيلي الى قوم ذاهبين فلم يشك انهم في دعوة ذاهبون الى وليمة فقام وتبعهم فاذا هم شعراء قد قصدوا السلطان بمدائح لهم فلما أنشد كل واحد شعره وأخذ جائزته لم يبق الا الطفيلي وهو جالس ساكت فقال له أنشد شعرك فقال لست بشاعر قيل فمن أنت قال من الغاوين الذين قال الله تعالى في حقهم والشعراء يتبعهم الغاوون فضحك السلطان وأمر له بجائزة الشعراء (وحكى) الهيثم ابن عدي قال ماشيت الامام أبا حنيفة رضي الله تعالى عنه في نفر من أصحابه الى عيادة مريض من أهل الكوفة وكان المريض بخيلا وتواصينا على أن نعرض بالغداء فلما دخلنا وقضينا حق العيادة قال بعضنا آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قال فتمطى

(وقيل) انه حج مع ابن المنكدر شابان فكانا اذا رأيا امرأة جميلة قالا قد أبرقنا وهما يظنان ان ابن المنكدر لا يفطن فرأيا قبيحة فيها امرأة فقالا بارقة وكانت قبيحة فقال ابن المنكدر بل صاعقة * وكان أصحاب أبي على الثقفي اذا رأوا امرأة جميلة يقولون حجة فعرضت لهم قبيحة فقالوا داحضة وكتب ابراهيم بن المهدى اياك والتتبع لوحشى الكلام طمعا فى نيل البلاغة فان ذلك العناء الأكبر وعليك بما سهل مع تجنبك لألفاظ السفل ويقال القول على حسب همة القائل يقع والسيف بقدر عضد الضارب يقطع وقال الأحنف سمعت كلام أبي بكر حتى مضى وكلام عمر حتى مضى وكلام عثمان حتى مضى وكلام على حتى مضى رضى الله تعالى عنهم ولا والله ما رأيت فيهم أبلغ من عائشة وقال معاوية رضى الله تعالى عنه ما رأيت أبلغ من عائشة رضى الله تعالى عنها ما أغلقت بابا فأرادت فتحه الا فتحته ولا فتحت بابا فأرادت اغلاقه الا أغلقته (ومن غريب الحكايات الواردة على سبيل الرمز وهو من الذكاء والفصاحة ما حكى أن رجلا كان أسيرا فى بنى بكر بن وائل وعزموا على غزو قومه فسألهم فى رسول يرسله الى قومه فقالوا لا ترسله الا بحضرتنا لئلا تنذرهم وتحذرهم فجاؤا بعبد أسود فقال له أتعقل ما أقوله لك قال نعم انى لعاقل فأشار بيده الى الليل فقال ما هذا قال الليل قال ما أراك الا عاقلا ثم ملأ كفيه من الرمل وقال كم هذا قال لا أدرى وانه لكثير فقال أيما أكثر النجوم أم النيران قال كل كثير فقال أبلغ قومى التحية وقل لهم يكرموا فلانا يعنى أسيرا كان فى أيديهم من بنى بكر بن وائل فان قومه لى مكرمون وقل لهم ان العرفج قد دنا وشكت النساء وأمرهم أن يعروا ناقتى الحمراء فقد أطالوا ركوبها وأن يركبوا جملى الأصهب بامارة ما أكلت معكم حيسا واسألوا عن خبرى أخى الحرث فلما أدى العبد الرسالة اليهم قالوا لقد جن الأعور والله ما نعرف له ناقة حمراء ولا جملا أصهب ثم دعوا بأخيه الحرث فقصوا عليه القصة فقال قد أنذركم أما قوله قد دنا العرفج يريد أن الرجال قد استلأموا ولبسوا السلاح وأما قوله شكت النساء أى أخذت الشكاء للسفر وأما قوله أعروا ناقتى الحمراء أى ارتحلوا عن الدهناء واركبوا الجمل الأصهب أى الجبل وأما قوله أكلت معكم حيسا أى ان اخلاطا من الناس قد عزموا على غزوكم لان الحيس يجمع التمر والسمن والاقط فامتثلوا أمره وعرفوا لحن الكلام وعملوا به فنجوا * وأسرت طيء غلاما من العرب فقدم أبوه ليفديه فاشتطوا عليه فقال أبوه والذى جعل الفرقدين يمسيان ويصبحان على جبل طيء ما عندى غير ما بذلته ثم انصرف وقال لقد أعطيته كلاما ان كان فيه خير فهمه فكأنه قال له الزم الفرقدين يعنى فى هروبك على جبل طيء ففهم الابن ما أراده أبوه وفعل ذلك فنجى * وكانت علية بنت المهدى تهوى غلاما خادما اسمه طل فحلف الرشيد أن لا تكلمه ولا تذكره فى شعرها فاطلع الرشيد يوما عليها وهى تقرأ فى آخر سورة البقرة فان لم يصبها وابل فالذى نهى عنه أمير المؤمنين ومن ذلك قولهم تركت فلانا يأمر وينهى وهو على شرف الموت أى يأمر بالوصية وينهى عن النوح ويقال ما رأيت فلانا أى ما ضربته فى رئته ولا كلمته أى ما جرحته فان الكلوم الجراح وما رأيت ربيعا فالربيع حظ الأرض من الماء والربيع النهر وما رأيت كافرا ولا فاسقا فالكافر السحاب والفاسق الذى تجرد من ثيابه وما رأيت فلانا راكعا ولا ساجدا ولا مصليا فالراكع العاثر الذى كبا لوجهه والساجد المدمن النظر والمصلى الذى يجىء بعد السابق وما أخذت لفلان دجاجة ولا فروجا فالدجاجة الكبة من الغزل والفروجة الدراعة وما أخذت لفلان بقرة ولا ثورا فالبقرة العيال الكثيرة يقال جاء فلان يسوق بقره أى عياله والثور القطعة الكبيرة من الأقط ﴿(وحكى)﴾ أن معاوية رضى الله تعالى عنه بينما هو جالس فى بعض مجالسه وعنده وجوه الناس فيهم الأحنف بن قيس اذ دخل رجل من أهل الشام فقام خطيبا وكان آخر كلامه ان لعن عليا رضى الله تعالى عنه ولعن لاعنه فقال الأحنف يا أمير المؤمنين ان هذا القائل لو يعلم أن رضاك فى لعن المرسلين للعنهم فاتق الله يا أمير المؤمنين ودع عنك عليا رضى الله تعالى عنه فلقد لقى ربه وأفرد فى قبره وخلا بعمله وكان والله المبرور سيفه الطاهر ثوبه العظيمة مصيبته فقال معاوية يا أحنف لقد تكلمت بما تكلمت وايم الله لتصعدن على المنبر فتلعنه طوعا أو كرها فقال له الأحنف يا أمير المؤمنين ان تعفنى فهو خير لك وان تجبرنى على ذلك فوالله لا تجرى شفتاى به أبدا فقال قم فاصعد قال أما والله لأنصفنك فى القول والفعل قال وما أنت قائل ان أنصفتنى قال أصعد المنبر فأحمد الله وأثنى عليه وأصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ثم أقول أيها الناس ان أمير المؤمنين معاوية أمرنى أن ألعن عليا الا وان معاوية

وعليا

المريض وقال ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج فغمز أبو حنيفة أصحابه وقال قوموا فالكم هنا من فرج انتهى * ومن غرائب المنقول * أن يحيى بن اسحق كان طبيبا حاذقا صانعا بيده وكان فى صدر دولة عبد الرحمن الناصر لدين الله واستوزره نقل عنه من حذقه انه أتى اليه بدوى على حماره وهو يصيح على باب داره أدركونى وكلموا الوزير بخبرى فلما دخل عليه قال ما بالك قال ورم باحليلى منعنى النوم منذ أيام وأنا فى الموت فقال له اكشف عنه فاذا هو وارم فقال لرجل جاء معه أحضر لى حجرا أملس فطلبه فوجده فقال له ضع عليه الاحليل فلما تمكن احليل الرجل على الحجر جمع الوزير يده وضرب الاحليل ضربة غشى على الرجل منها ثم اندفع الصديد يجرى فلما انقطع جريان الصديد فتح الرجل عينيه ثم بال فى أثر ذلك فقال له اذهب فقد برأت علتك وأنت رجل عابث واقعت بهيمة فى دبرها فصادفت شعيرة من علفها لحجت فى عين الاحليل فورم لها وقد خرجت فى الصديد فقال له الرجل قد فعلت ذلك وهذا يدل على الحذق المفرط (ومثله) ان ابن جميع الاسرائيلى كان من الاطباء المشهورين والعلماء المذكورين خدم سلطان مصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وحظى فى أيامه وكان رفيع المنزلة نافذ الامر * ومما نقل عنه فى حذقه انه كان جالسا فى دكان وقد مرت عليه جنازة فلما نظر اليها صاح يا أهل الميت ان صاحبكم لم يمت ولا يحل أن تدفنوه حيا فقال بعضهم لبعض هذا الذى يقوله لا يضرنا وتمتحن أن نمتحنه فان كان حيا فهو المراد

وعليا اقتتلا فاختلفا فادعى كل واحد منهما انه مبغي عليه وعلى فئته فاذا دعوت فأمنوا رحمكم الله ثم أقول اللهم العن أنت وملائكتك وأنبياؤك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه والعن الفئة الباغية اللهم العنهم لعنا كثيرا أمنوا رحمكم الله يامعاوية لا أزيد على هذا ولا أنقص حرفا ولو كان فيه ذهاب روحي فقال معاوية اذا نعفيك يا أبا بحر * وقال معاوية لعقيل بن أبي طالب ان عليا قد قطعك وأنا وصلتك ولا يرضيني منك الا أن تلعنه على المنبر قال أفعل فصعد المنبر ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم أيها الناس ان معاوية بن أبي سفيان قد أمرني ان ألعن علي بن أبي طالب فالعنوه فعليه لعنة الله ثم نزل فقال له معاوية انك لم تبين من لعنت منهما بينه فقال والله لا زدت حرفا ولا نقصت حرفا والكلام الى نية المتكلم ودخلت امرأة على هرون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه فقالت يا أمير المؤمنين أقر الله عينك وفرحك بما آتاك وأتم سعدك لقد حكمت فقسطت فقال لها من تكونين أيتها المرأة فقالت من آل برمك ممن قتلت رجالهم وأخذت أموالهم وسلبت نوالهم فقال اما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله ونفذ فيهم قدره وأما المال فردود اليك ثم التفت الى الحاضرين من أصحابه فقال أتدرون ما قالت هذه المرأة فقالوا ما نراها قالت الا خيرا قال ما أظنكم فهمتم ذلك أما قولها أقر الله عينك أي أسكنها عن الحركة واذا سكنت العين عن الحركة عميت وأما قولها وفرحك بما آتاك فأخذته من قوله تعالى حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة وأما قولها وأتم الله سعدك فأخذته من قول الشاعر

اذا تم أمر بدا نقصه * ترقب زوالا اذا قيل تم

وأما قولها لقد حكمت فقسطت فأخذته من قوله تعالى وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا فتعجبوا من ذلك (وحكى) أن بعضهم دخل على عدوه من النصارى فقال له أطال الله بقاءك وأقر عينك وجعل يومي قبل يومك والله انه ليسرني ما يسرك فأحسن اليه وأجازه على دعائه وأمر له بصلة وكان ذلك دعاء عليه لان معنى قوله أطال الله بقاءك حصول منفعة المسلمين به في أداء الجزية وأما قوله وأقر عينك فمعناها سكن الله حركتها أي أعماها وأما قوله وجعل يومي قبل يومك أي جعل الله يومي الذي أدخل فيه الجنة قبل يومك الذي تدخل فيه النار وأما قوله انه ليسرني ما يسرك فان العافية تسره كما تسر الآخرة فانظر الى الاشتراك وفائدته ولولا الاشتراك ما تهيأ لمستتر مراد ولا سلم في التخلص قياد وكان حماد الراوية لا يقرأ القرآن فكلفه بعض الخلفاء القراءة في المصحف فصحف في نيف وعشرين موضعا من جملتها قوله تعالى وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون بالغين المعجمة والسين المهملة وقوله وما كان استغفار ابراهيم لابيه الاعن موعدة وعدها اياه بالباء الموحدة ليكون لهم عدوا وحزنا بالباء الموحدة وما يجحد بآياتنا الا كل ختار بالجيم والباء الموحدة هم أحسن أثاثا ورئيا بالزاي وترك الهمزة عذابي أصيب به من أشاء بالسين المهملة صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة بالنون والعين المهملة سلام عليكم لا نبتغي باسقاط التاء بل الذين كفروا في عزة وشقاق بالغين المعجمة والراء المهملة قرن الشقاق بالغرة وهذا لا يقع الا من الأذكياء (وحكى) أن المأمون ولى عاملا على بلاد وكان يعرف منه الجور في حكمه فارسل اليه رجلا من أرباب دولته ليمتحنه فلما قدم عليه أظهر له أنه قدم في تجارة لنفسه ولم يعلمه أن أمير المؤمنين عنده علم منه فاكرم نزله وأحسن اليه وسأله أن يكتب كتابا الى أمير المؤمنين المأمون يشكر سيرته عنده ليزداد فيه أمير المؤمنين رغبة فكتب كتابا فيه بعد الثناء على أمير المؤمنين أما بعد فقد قدمنا على فلان فوجدناه آخذا بالعزم عاملا بالحزم قد عدل بين رعيته وساوى في أقضيته أغنى القاصد وأرضى الوارد وأنزلهم منه منازل الأولاد وأذهب ما بينهم من الضغائن والاحقاد وعمر منهم المساجد الدثرة وأفرغهم من عمل الدنيا وشغلهم بعمل الآخرة وهم مع ذلك داعون لأمير المؤمنين يريدون النظر الى وجهه والسلام فكان معنى قوله آخذا بالعزم أي اذا عزم على ظلم أو جور فعله في الحال وقوله قد عدل بين رعيته وساوى في أقضيته أي أخذ كل ما معهم حتى ساوى بين الغني والفقير وقوله عمر منهم المساجد الدثرة وأفرغهم من عمل الدنيا وشغلهم بعمل الآخرة يعني أن الكل صار وافقراء لا يملكون شيأ من الدنيا ومعنى قوله يريدون النظر الى وجه أمير المؤمنين أي ليشكوا حالهم وما نزل بهم فلما جاء الكتاب الى المأمون عزله عنهم لوقته وولى عليهم غيره (ومن ذلك ما حكى) أن القاضي الفاضل كان له صديق خصيص به وكان صديقه هذا قريبا من الملك الناصر صلاح الدين وكان فيه فضيلة تامة فوقع بينه وبين الملك أمر فغضب عليه

وان لم يكن حيا فما يتغير علينا شيء فاستدعوه اليهم وقالوا بين لنا ما قلت فأمرهم بالعود الى البيت وأن ينزعوا أكفانه فلما فرغوا من ذلك أدخله الحمام وسكب عليه الماء الحار وأحمى بدنه ونطله فظهر فيه أدنى حس وتحرك حركة خفيفة فقال أبشروا بعافيته ثم تم علاجه الى أن أفاق وصاح فكان ذلك مبدأ اشتهاره بشدة الحذق والعلم ثم انه سئل بعد ذلك ومن أين علمت أن في ذلك الميت بقية روح وهو في الاكفان محمول فقال نظرت الى قدميه فوجدتهما قائمتين وأقدام الموتى منبسطة فحدست انه حي وكان حدسي صائبا

* نادرة لطيفة * قيل ان المنصور ابن أبي عامر الاندلسي كان اذا قصد غزاة عقد لواءه بجامع قرطبة ولم يسر الى الغزاة الا من الجامع فاتفق انه في بعض حركاته للغزاة توجه الى الجامع لعقد اللواء فاجتمع عنده القضاة والعلماء وأرباب الدولة فرفع حامل اللواء اللواء فصادف ثريا من قناديل الجامع فانكسرت على اللواء وتبدد عليه الزيت فتطير الحاضرون من ذلك وتغير وجه المنصور فقال رجل ابشر يا أمير المؤمنين بغزاة هينة وغنيمة سارة فقد بلغت أعلامك الثريا وسقاها الله من شجرة مباركة فاستحسن المنصور ذلك واستبشر به وكانت الغزوة من أبرك الغزوات (ومثل هذا) لما خرج المنصور العباسي الى قتال أبي يزيد الخارجي في جماعة من الأولياء وواجه الحصن سقط الرمح من يده فأخذه بعض الأولياء فمسحه وقال

فألقت عصاها واستقر بها النوى * كما قر عينا بالاياب المسافر

قال فضحك المنصور وقال لم لا قلت فألقى موسى عصاه فقال يا أمير المؤمنين العبد تكلم بما عنده من

وهم بقتله فتسحب الى بلاد التتر وتوصل الى ان صار وزيرا عندهم وصار يعرف التتر كيف يتوصل الى الملك الناصر بما يؤذيه فلما بلغه ذلك نفر منه وقال للفاضل اكتب اليه كتابا عرفه فيه انى أرضى عليه واستعطفه غاية الاستعطاف الى أن يحضر فاذا حضر قتلته واسترحت منه فتحير الفاضل بين الاثنين صديقه يعز عليه والملك لا يمكنه مخالفته فكتب اليه كتابا واستعطفه غاية الاستعطاف ووعده بكل خير من الملك فلما انتهى الكتاب ختمه بالحمدلة والصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم وكتب ان شاء الله تعالى كما جرت به العادة فى الكتب فشددان ثم أوقف الملك على الكتاب قبل ختمه فقرأه فى غاية الكمال وما فهم ان وكان قصد الفاضل ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فلما وصل الكتاب الى الرجل فهمه وكتب جوابه بانه سيحضر عاجلا فلما أراد أن ينهى الكتاب وكتب ان شاء الله تعالى مد النون وجعل فى آخرها ألفا وأراد بذلك انا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فلما وصل الكتاب الى الفاضل فهم الاشارة ثم أوقف الملك على الجواب بخطه ففرح بذلك (وحكى) أن بعض الملوك طلع يوما الى أعلى قصره يتفرج فلاحت منه التفاتة فرأى امرأة على سطح دار الى جانب قصره لم ير الراؤن أحسن منها فالتفت الى بعض جواريه فقال لها لمن هذه فقالت يا مولاى هذه زوجة غلامك فيروز قال فنزل الملك وقد خامره حبها وشغف بها فاستدعى بفيروز وقال له يا فيروز قال لبيك يا مولاى قال خذ هذا الكتاب وامض به الى البلد الفلانية وائتنى بالجواب فاخذ فيروز الجواب وتوجه الى منزله فوضع الكتاب تحت رأسه وجهز أمره وبات ليلته فلما أصبح ودع أهله وسار طالبا لحاجة الملك ولم يعلم بما قد دبره الملك وأما الملك فانه لما توجه فيروز قام مسرعا وتوجه مختفيا الى دار فيروز فقرع الباب قرعا خفيفا فقالت امرأة فيروز من بالباب قال أنا الملك سيد زوجك ففتحت له فدخل وجلس فقالت له أرى مولانا اليوم عندنا فقال زائرا فقالت أعوذ بالله من هذه الزيارة وما أظن فيها خيرا فقال لها ويحك اننى أنا الملك سيد زوجك وما أظنك عرفتينى فقالت بل عرفتك يا مولاى ولقد علمت انك الملك ولكن سبقتك الأوائل فى قولهم

سأترك ماءكم من غير ورد * وذاك لكثرة الوراد فيه
اذا سقط الذباب على طعام * رفعت يدى ونفسى تشتهيه
وتجتنب الأسود ورود ماء * اذا كان الكلاب ولغن فيه
ويرتجع الكريم خميص بطن * ولا يرضى مساهمة السفيه

وما أحسن يا مولاى قول الشاعر

قل للذى شفه الغرام بنا * وصاحب الغدر غير مصحوب
والله لا قال قائل أبدا * قد أكل الليث فضلة الذيب

ثم قالت أيها الملك تأتى الى موضع شرب كلبك تشرب منه قال فاستحيا الملك من كلامها وخرج وتركها فنسى نعله فى الدار هذا ما كان من الملك * وأما ما كان من فيروز فانه لما خرج وسار تفقد الكتاب فلم يجده معه فى رأسه فتذكر انه نسيه تحت فراشه فرجع الى داره فوافق وصوله عقب خروج الملك من داره فوجد نعل الملك فى الدار فطاش عقله وعلم أن الملك لم يرسله فى هذه السفرة الا لأمر يفعله فسكت ولم يبد كلاما وأخذ الكتاب وسار الى حاجة الملك نقضاها ثم عاد اليه فانعم عليه بمائة دينار فمضى فيروز الى السوق واشترى ما يليق بالنساء وهيأ هدية حسنة وأتى الى زوجته فسلم عليها وقال لها قومى الى زيارة بيت أبيك قالت وماذاك قال ان الملك أنعم علينا وأريد أن تظهرى لأهلك ذلك قالت حبا وكرامة ثم قامت من ساعتها وتوجهت الى بيت أبيها ففرحوا بها وبما جاءت به معها فاقامت عند أهلها مدة شهر فلم يذكرها زوجها ولا ألم بها فاتى اليه أخوها وقال له يا فيروز اما ان تخبرنا بسبب غضبك واما أن تحاكمنا الى الملك فقال ان شئتم الحكم فافعلوا فما تركت لها على حقا فطلبوه الى الحكم فاتى معهم وكان القاضى اذذاك عند الملك جالسا الى جانبه فقال أخو الصبية أيد الله مولانا قاضى القضاة انى أجرت هذا الغلام بستانا سالم الحيطان ببئر ماء معين عامرة وأشجار مثمرة فاكل ثمره وهدم حيطانه وأخرب بئره فالتفت القاضى الى فيروز وقال له ما تقول يا غلام فقال فيروز أيها القاضى قد تسلمت هذا البستان وسلمته اليه أحسن ما كان فقال القاضى هل سلم اليك البستان كما كان قال نعم ولكن أريد منه السبب لرده قال القاضى ما قولك قال والله يا مولاى ما رددت البستان كراهة فيه وانما جئت يوما من الأيام فوجدت فيه أثر الأسد فخفت أن يغتالنى فحرمت دخول البستان اكراما للاسد قال وكان الملك متكئا فاستوى جالسا وقال يا فيروز ارجع الى بستانك آمنا مطمئنا فوالله ان الأسد دخل البستان ولم يؤثر فيه أثرا ولا التمس منه ورقا ولا ثمرا ولا

اشارات المتأدبين وتكلم أمير المؤمنين بما أنزل على النبي من كلام رب العالمين فكان الأمر على ماذكره وأخذ الحصن وحصل الظفر بأبى يزيد (حكى) ان الشيخ شهاب الدين بن محمود قال عدت قاضى القضاة شمس الدين بن خلكان فى دمشق بالمدرسة النجيبية سنة احدى وثمانين وستمائة فأنشدنى لبعض أهل الأدب فى نقيب الأشراف بالمدائن رثاء خلب قلبي وهو يقول

قد قلت للرجل المولى غسله * هلا أطاع كنت من نصحائه
جنبه ماءك ثم غسله وبما * اذرت عيون المجد عند بكائه
وأزل أناوية الحنوط ونحها * عنه وحنطه بطيب ثنائه
ومر الملائكة الكرام بنقله * شرفا ألست تراهم بازائه
لا توه أعناق الرجال بحمله * يكفى الذى حملوه من نعمائه

قال الشيخ شهاب الدين فوقع فى نفسى انه أحق الناس بهذا الرثاء وانه نعى نفسه فمات فى ذلك الأسبوع برد الله مضجعه * نكتة لطيفة * قيل انه لما رجع الشيخ شهاب الدين السهروردى رحمه الله من الشام الى بغداد وجلس على عادته أخذ يتقال أحوال الناس ويهضم جانب الرجال ويقول انه ما بقى من يجارى وقد خلت الدنيا وأنشد

ما فى الصحاب أخو وجد نطارحه * حديث نجد ولا خل نجاريه

فصاح من أطراف المجلس رجل عليه قباء وكلوتة فقال يا شيخ كم تنتقص بالقوم والله ان فيهم من لم يرض أن يجاريك وقصاراك أن تفهم ما يقول هلا قلت

ما فى الصحاب وقد سارت حمولهم * الا محب له فى الركب محبوب
كأنما يوسف فى كل راحلة

شيأ ولم يلبث فيه غير لحظة يسيرة وخرج من غير بأس ووالله ما رأيت مثل بستانك ولا أشد احترازا من حيطانه على شجره قال فرجع فيروز الى داره وورد زوجته ولم يعلم القاضي ولا غيره بشيء من ذلك والله أعلم * وهذا كله مما يأتي به الانسان من غرائب الكنايات الواردة على سبيل الرمز ومنه ما يجده المتستر في أمره من الراحة في كتمان حاله مع لزوم الصدق ورضا الخصم بما وافق مراده لان في المعاريض مندوحة عن الكذب كما روى في غزوة بدر ان النبي صلى الله عليه وسلم كان سائرا باصحابه يقصد بدرا فلقيهم رجل من العرب فقال ممن القوم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم من ماء فاخذ ذلك الرجل يفكر و يقول من ماء من ماء يردده لينظر أي العرب يقال لهم ماء فسار النبي صلى الله عليه وسلم باصحابه لوجهته وكان قصده أن يكتم أمره وقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله فان الله عز وجل قال فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق وكما روى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال للكافر الذي سأله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت ذهابهما الى الغار هو رجل يهديني السبيل وقد صدق فيما قال رضي الله عنه فقد هداه وهدانا السبيل ولا سبيل أوضح ولا أقوم من الاسلام وكما حكى عن الامام الشافعي رضي الله عنه أنه لما سأله بعض المعتزلة بحضرة الرشيد ما تقول في القرآن فقال الشافعي اياي تعني قال نعم قال مخلوق فرضي خصمه منه بذلك ولم يرد الشافعي الا نفسه وكما حكى عن ابن الجوزي رحمه الله تعالى أنه سئل وهو على المنبر وتحته جماعة من مماليك الخليفة وخاصته وهم فريقان قوم سنية وقوم شيعة فقيل له من أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر أم على رضي الله عنهما فقال أفضلهما بعده من كانت ابنته تحته فارضى الفريقين ولم يرد الا أبا بكر رضي الله عنه لان الضمير في ابنته يعود الى أبي بكر رضي الله عنه وهي عائشة رضي الله عنها وكانت تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم والشيعة ظنوا أن الضمير في ابنته يعود الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي فاطمة رضي الله عنها وكانت تحت على رضي الله عنه فهذه منه جيدة حسنة وكلمة باتت جفون الفريقين منها وسنة والله أعلم

﴿الفصل الثالث في ذكر الفصحاء من الرجال﴾ دخل الحسن بن الفضل على بعض الخلفاء وعنده كثير من أهل العلم فاحب الحسن أن يتكلم فزجره وقال يا صبي تتكلم في هذا المقام فقال يا أمير المؤمنين ان كنت صبيا فلست باصغر من هدهد سليمان ولا أنت باكبر من سليمان عليه السلام حين قال أحطت بما لم تحط به قال ألم تر أن الله فهم الحكم سليمان ولو كان الأمر بالكبر لكان داود أولى (ولما) أفضت الخلافة الى عمر بن عبد العزيز أتته الوفود فاذا فيهم وفد الحجاز فنظر الى صغير السن وقد أراد أن يتكلم فقال ليتكلم من هو أسن منك فانه أحق بالكلام منك فقال الصبي يا أمير المؤمنين لو كان القول كما تقول لكان في مجلسك هذا من هو أحق به منك قال صدقت فتكلم فقال يا أمير المؤمنين انا قدمنا عليك من بلد نحمد الله الذي من علينا بك ما قدمنا عليك رغبة منا ولا رهبة منك أما عدم الرغبة فقد أمنا بك في منازلنا وأما عدم الرهبة فقد أمنا جورك بعدلك فنحن وفد الشكر والسلام فقال له عمر رضي الله عنه عظني يا غلام فقال يا أمير المؤمنين ان أناسا غرهم حلم الله وثناء الناس عليهم فلا تكن ممن يغره حلم الله وثناء الناس عليه فتزل قدمك وتكون من الذين قال الله فيهم ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون فنظر عمر في سن الغلام فاذا له اثنتا عشرة سنة فانشدهم عمر رضي الله عنه

تعلم فليس المرء يولد عالما * وليس أخو علم كمن هو جاهل
فان كبير القوم لا علم عنده * صغير اذا التفت عليه المحافل

﴿وحكى﴾ ان البادية قحطت في أيام هشام فقدمت عليه العرب فهابوا أن يكلموه وكان فيهم درواس بن حبيب وهو ابن ست عشرة سنة له ذؤابة وعليه شملتان فوقعت عليه عين هشام فقال لحاجبه ما شاء أحد أن يدخل على الا دخل حتى الصبيان فوثب درواس حتى وقف بين يديه مطرقا فقال يا أمير المؤمنين ان للكلام نشرا وطيا وانه لا يعرف ما في طيه الا بنشره فان أذن لي أمير المؤمنين أن أنشره نشرته فأعجبه كلامه وقال انشره لله درك فقال يا أمير المؤمنين انه أصابتنا سنون ثلاث سنة أذابت الشحم وسنة أكلت اللحم وسنة دقت العظم وفي أيديكم فضول مال فان كانت لله ففرقوها على عباده وان كانت لهم فعلام تحبسونها عنهم وان كانت لكم فتصدقوا بها عليهم فان الله يجزي المتصدقين فقال هشام ما ترك الغلام لنا في واحدة من الثلاث عذرا فأمر للبوادي بمائة ألف دينار وله بمائة ألف درهم ثم قال له ألك حاجة قال ما لي حاجة في خاصة نفسي دون

والحي في كل بيت منه يعقوب فصاح السهروردي ونزل عن الكرسي وطلب الشاب فلم يجده ﴿حكى﴾ عن ابن المطرزي الشاعر انه مر وفي رجله نعل بالية بالشريف الرضي فأمر باحضاره وقال أنشدني أبياتك التي تقول فيها

اذا لم تبلغني اليك ركائبي
فلا وردت ماء ولا رعت العشبا

فانشده اياها فلما انتهى الى هذا البيت أشار الى نعله البالية وقال هذه كانت ركائبك فاطرق ابن المطرزي ساعة ثم قال لما عادت هبات مولانا الشريف الى مثل قوله

وخذ النوم من جفوني فاني
قد خلعت الكرى على العشاق

عادت ركائبي الى مثل ما ترى لانك خلعت ما لا تملك على من لا يقبل فخجل الشريف وقابله بما يليق من الاكرام ﴿قلت﴾ وأما الأجوبة الهاشمية وبلاغتها فهي في المحل الارفع ﴿فمن ذلك﴾ انه اجتمع عند معاوية عمرو بن العاص والوليد بن عقبة وعقبة بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة فقالوا يا أمير المؤمنين ابعث لنا الى الحسن بن على فقال لهم فيم فقالوا كي نوبخه ونعرفه ان أباه قتل عثمان فقال لهم انكم لا تنتصفون منه ولا تقولون شيأ الا كذبكم الناس ولا يقول لكم شيأ ببلاغته الا صدقه الناس فقالوا ارسل اليه فانا سنكفيك أمره فارسل اليه معاوية فلما حضر قال يا حسن اني لم أرسل اليك ولكن هؤلاء أرسلوا اليك فاسمع مقالتهم وأجب ولا تحرمني فقال الحسن عليه السلام فليتكلموا ونسمع فقام عمرو بن العاص فحمد الله وأثنى عليه ثم قال هل تعلم يا حسن ان أباك أول من أثار الفتنة وطلب الملك فكيف رأيت صنع الله به ثم قام الوليد بن عقبة بن أبي معيط فحمد الله وأثنى عليه ثم قال يا بني هاشم كنتم اصهارا

عامة المسلمين فخرج من عنده وهو من أجل القوم (وقيل) ان سعد بن ضمرة الأسدى لم يزل يغير على النعمان ابن المنذر يستلب أمواله حتى عيل صبره فبعث اليه يقول ان لك عندى ألف ناقة على أنك تدخل فى طاعتى فوفد عليه وكان صغير الجثة فاقتحمته عينه وتنقصه فقال مهلا أيها الملك ان الرجال ليسوا بعظم أجسامهم وانما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ان نطق نطق ببيان وان صال صال بجنان ثم أنشأ يقول

يا أيها الملك المرجو نائله * انى امرؤ معشر شم الذرى زهر * فلا تغرنك الأجسام ان لنا
أحلام عاد وان كنا الى قصر * فكم طويل اذا أبصرت جثته * تقول هذا غداة الروع ذو ظفر
فان ألم به أمر فافظعه * رأيته خاذلا بالأهل والزمر

فقال صدقت فهل لك علم بالامور قال انى لأنقض منها المفتول وأبرم منها المحاول وأجيلها حتى تجول ثم أنظر فيها الى ماتؤول وليس للدهر بصاحب من لا ينظر فى العواقب قال فتعجب النعمان من فصاحته وعقله ثم أمر له بألف ناقة وقال له ياسعد ان أقمت واسيناك وان رحلت وصلناك فقال قرب الملك أحب الى من الدنيا وما فيها فأنعم عليه وأدناه وجعله من أخص ندمائه ﴿وحكى﴾ ان هرقل ملك الروم كتب الى معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه يسأله عن الشئ ولا شئ وعن دين لا يقبل الله غيره وعن مفتاح الصلاة وعن غرس الجنة وعن صلاة كل شئ وعن أربعة فيهم الروح ولم يركضوا فى أصلاب الرجال وأرحام النساء وعن رجل لا أب له وعن رجل لا أم له وعن قبر جرى بصاحبه وعن قوس قزح ماهو وعن بقعة طلعت عليها الشمس مرة واحدة ولم تطلع عليها قبلها ولا بعدها وعن ظاعن ظعن مرة واحدة ولم يظعن قبلها ولا بعدها وعن شجرة نبتت من غير ماء وعن شئ تنفس ولا روح له وعن اليوم وأمس وغدو بعد غد وعن البرق والرعد وصوته وعن المحو الذى فى القمر فقيل لمعاوية لست هناك ومتى أخطأت فى شئ من ذلك سقطت من عينه فاكتب الى ابن عباس يخبرك عن هذه المسائل فكتب اليه فأجابه أما الشئ فالماء قال الله تعالى وجعلنا من الماء كل شئ حى وأما لا شئ فانها الدنيا تبيد وتفنى وأما دين لا يقبل الله غيره فلا اله الا الله وأما مفتاح الصلاة فالله أكبر وأما غرس الجنة فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وأما صلاة كل شئ فسبحان الله وبحمده وأما الأربعة الذين فيهم الروح ولم يركضوا فى أصلاب الرجال وأرحام النساء فآدم وحواء وناقة صالح وكبش اسمعيل وأما الرجل الذى لا أب له فالمسيح وأما الرجل الذى لا أم له فآدم عليه السلام وأما القبر الذى جرى بصاحبه فحوت يونس عليه السلام سار به فى البحر وأما قوس قزح فأمان من الله لعباده من الغرق وأما البقعة التى طلعت عليها الشمس مرة واحدة فبطن البحر حين انفلق لبنى اسرائيل وأما الظاعن الذى ظعن مرة ولم يظعن قبلها ولا بعدها فجبل طور سيناء كان بينه وبين الأرض المقدسة أربع ليال فلما عصت بنو اسرائيل أطاره الله تعالى بجناحين فنادى مناد ان قبلتم التوراة كشفته عنكم والا ألقيته عليكم فأخذوا التوراة معتذرين فرده الله تعالى الى موضعه فذلك قوله تعالى واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم الآية وأما الشجرة التى نبتت من غير ماء فشجرة اليقطين التى أنبتها الله تعالى على يونس عليه السلام وأما الشئ الذى تنفس بلا روح فالصبح قال الله تعالى والصبح اذا تنفس وأما اليوم فعمل وأمس فمثل وغد فأجل وبعد غد فأمل وأما البرق فمخاريق بأيدى الملائكة تضرب بها السحاب وأما الرعد فاسم الملك الذى يسوق السحاب وصوته زجره وأما المحو الذى فى القمر فقول الله تعالى وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ولولا ذلك المحو لم يعرف الليل من النهار ولا النهار من الليل * ودعا بعض البلغاء لصديق له فقال تمم الله عليك ما أنت فيه وحقق ظنك فيما ترجوه وتفضل عليك بما لم تحتسبه ﴿وحكى﴾ أن الحجاج سأل يوما الغضبان بن القبعثرى عن مسائل يمتحنه فيها من جملتها أن قال له من أكرم الناس قال أفقههم فى الدين وأصدقهم لليمين وأبذلهم للمسلمين وأكرمهم للمهانين وأطعمهم للمساكين قال فمن ألأم الناس قال المعطى على الهوان المقتر على الاخوان الكثير الألوان قال فمن شر الناس قال أطولهم جفوة وأدومهم صبوة وأكثرهم خلوة وأشدهم قسوة قال فمن أشجع الناس قال أضربهم بالسيف وأقراهم للضيف وأتركهم للحيف قال فمن أجبن الناس قال المتأخر عن الصفوف المنقبض عن الزحوف المرتعش عند الوقوف المحب ظلال السقوف الكاره لضرب السيوف قال فمن أثقل الناس قال المتفنن فى الملام

بعثمان بن عفان فنعم الصهر كان يفضلكم ويقربكم ثم بغيتم عليه فقتلتموه ولقد أردنا يا حسن قتل أبيك فأنقذنا الله منه ولو قتلناه بعثمان ما كان علينا من الله ذنب ثم قام عقبة فقال تعلم يا حسن ان أباك بغى على عثمان فقتله حسدا على الملك والدنيا فسلبها ولقد أردنا قتل أبيك حتى قتله الله تعالى ثم قام المغيرة بن شعبة فكان كلامه كله سبا لعلى وتعظيما لعثمان فقام الحسن عليه السلام فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال بك أبدأ يا معاوية لم يشتمنى هؤلاء ولكن أنت تشتمنى بغضا وعداوة وخلافا لجدى صلى الله عليه وسلم ثم التفت الى الناس وقال أنشدكم الله أتعلمون أن الرجل الذى شتمه هؤلاء كان أول من آمن بالله وصلى للقبلتين وأنت يا معاوية يومئذ كافر تشرك بالله وكان معه لواء النبى صلى الله عليه وسلم يوم بدر ومع معاوية وأبيه لواء المشركين ثم قال أنشدكم الله والاسلام أتعلمون أن معاوية كان يكتب الرسائل لجدى صلى الله عليه وسلم فأرسل اليه يوما فرجع الرسول وقال هو يأكل فرد الرسول اليه ثلاث مرات كل ذلك وهو يقول هو يأكل فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا أشبع الله بطنه أما تعرف ذلك فى بطنك يا معاوية ثم قال وأنشدكم الله أتعلمون ان معاوية كان يقود بأبيه على جمل وأخوه هذا يسوقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الله الجمل وقائده وراكبه وسائقه هذا كله لك يا معاوية وأما أنت يا عمرو فتنازع فيك خمسة من قريش فغلب عليك شبه ألأمهم حسبا وشرهم منصبا ثم قمت وسط قريش فقلت انى شانئ محمدا فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم ان شانئك هو الأبتر ثم هجوت محمدا صلى الله

الضنين بالسلام المهذار فى الكلام المقبقب على الطعام قال فمن خير الناس قال أكثرهم احسانا وأقومهم ميزانا وأدومهم غفرانا وأوسعهم ميدانا قال لله أبوك فكيف يعرف الرجل الغريب أحسيب هو أم غير حسيب قال أصلح الله الأمير ان الرجل الحسيب يدلك أدبه وعقله وشمائله وعزة نفسه وكثرة احتماله وبشاشته وحسن مداراته على أصله فالعاقل البصير بالاحساب يعرف شمائله والنذل الجاهل يجهله فمثله كمثل الدرة اذا وقعت عند من لا يعرفها ازدراها واذا نظر اليها العقلاء عرفوها وأكرموها فهى عندهم لمعرفتهم بها حسنة نفيسة فقال الحجاج لله أبوك فما العاقل والجاهل قال أصلح الله الأمير العاقل الذى لا يتكلم هذرا ولا ينظر شزرا ولا يضمر غدرا ولا يطلب عذرا والجاهل هو المهذار فى كلامه المنان بطعامه الضنين بسلامه المتطاول على امامه الفاحش على غلامه قال لله أبوك فما الحازم الكيس قال المقبل على شأنه التارك لما لا يعنيه قال فما العاجز قال المعجب بآرائه الملتفت الى ورائه قال هل عندك من النساء خبر قال أصلح الله الأمير انى بشأنهن خبير ان شاء الله تعالى ان النساء من أمهات الأولاد بمنزلة الاضلاع ان عدلتها انكسرت ولهن جوهر لا يصلح الا على المداراة فمن داراهن انتفع بهن وقرت عينه ومن شاورهن كدرن عيشه وتكدرت عليه حياته وتنغصت لذاته فأكرمهن أعفهن وأفخر أحسابهن العفة فاذا زلن عنها فهن أنتن من الجيفة فقال له الحجاج يا غضبان انى موجهك الى ابن الأشعث وافدا فما أنت قائل له قال أصلح الله الأمير أقول ما يرديه ويؤذيه ويضنيه فقال انى أظنك لا تقول له ما قلت وكأنى بصوت جلاجلك تجلجل فى قصرى هذا قال كلا أصلح الله الأمير ساحدده لسانى وأجريه فى ميدانى قال فعند ذلك أمره بالمسير الى كرمان فلما توجه الى ابن الأشعث وهو على كرمان بعث الحجاج عينا عليه أى جاسوسا وكان يفعل ذلك مع جميع رسله فلما قدم الغضبان على ابن الأشعث قال له ان الحجاج قد هم بخلعك وعزلك فخذ حذرك وتغده قبل أن يتعشى بك فأخذ حذره عند ذلك ثم أمر للغضبان بجائزة سنية وخلع فاخرة فأخذها وانصرف راجعا فأتى الى رملة كرمان فى شدة الحر والقيظ وهى رملة شديدة الرمضاء فضرب قبته فيها وحط عن رواحله فبينما هو كذلك اذا باعرابى من بنى بكر بن وائل قد أقبل على بعير قاصدا نحوه وقد اشتد الحر وحميت الغزالة وقت الظهيرة وقد ظمئ ظمأ شديدا فقال السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقال الغضبان هذه سنة وردها فريضة قد فاز قائلها وخسر تاركها ما حاجتك يا اعرابى قال أصابتنى الرمضاء وشدة الحر والظمأ فتيممت قبتك أرجو بركتها قال الغضبان فهلا تيممت قبة أكبر من هذه وأعظم قال أيتهن تعنى قال قبة الأمير ابن الأشعث قال تلك لا يوصل اليها قال ان هذه أمنع منها فقال الاعرابى ما اسمك يا عبد الله قال آخذ فقال وما تعطى قال أكره أن يكون لى اسمان قال بالله من أين أنت قال من الأرض قال فأين تريد قال أمشى فى مناكبها فقال الاعرابى وهو يرفع رجلا ويضع أخرى من شدة الحر أتقرض الشعر قال انما يقرض الفار فقال أفتسجع قال انما تسجع الحمامة فقال يا هذا ائذن لى أن أدخل قبتك قال خلفك أوسع لك فقال قد أحرقنى حر الشمس قال مالى عليها من سلطان فقال الرمضاء أحرقت قدمى قال بل عليها تبرد فقال انى لا أريد طعامك ولا شرابك قال لا تتعرض لما لا تصل اليه ولو تلفت روحك فقال الاعرابى سبحان الله قال نعم من قبل أن تطلع أضراسك فقال الاعرابى ما عندك غير هذا قال بلى هراوة أضرب بها رأسك فاستغاث الاعرابى يا جار بنى كعب قال الغضبان بئس الشيخ أنت فوالله ما ظلمك أحد فتستغيث فقال الاعرابى ما رأيت رجلا أقسى منك أتيتك مستغيثا فحجبتنى وطردتنى هلا أدخلتنى قبتك وطارحتنى القريض قال مالى بمحادثتك من حاجة فقال الاعرابى بالله ما اسمك ومن أنت فقال أنا الغضبان بن القبعثرى فقال اسمان منكران خلقا من غضب قال قف متوكئا على باب قبتى برجلك هذه العوجاء فقال قطعها الله ان لم تكن خيرا من رجلك هذه الشنعاء قال الغضبان لو كنت حاكما لجرت فى حكومتك لان رجلى فى الظل قاعدة ورجلك فى الرمضاء قائمة فقال الاعرابى انى لأظنك حروريا قال اللهم اجعلنى ممن يتحرى الخير ويريده فقال انى لأظن عنصرك فاسدا قال ما أقدرنى على اصلاحه فقال الأعرابى لا أرضاك الله ولا حياك ثم ولى وهو يقول

لا بارك الله فى قوم تسودهم * انى أظنك والرحمن شيطانا
أتيت قبته أرجو ضيافته * فأظهر الشيخ ذو القرنين حرمانا

عليه وسلم بثلاثين بيتا من الشعر فقال النبى صلى الله عليه وسلم اللهم انى لا أحسن الشعر ولكن العن عمرو بن العاص بكل بيت لعنة ثم انطلقت الى النجاشى بما علمت وعملت فأكذبك الله وردك خائبا فأنت عدو بنى هاشم فى الجاهلية والاسلام فلم نلمك على بغضك واما انت يا ابن ابى معيط فكيف الومك على سبك لعلى وقد جلد ظهرك فى الخمر ثمانين سوطا وقتل اباك صبرا بامر جدى وقتله جدى بامر ربى ولما قدمه للقتل قال من للصبية يا محمد فقال لهم النار فلم يكن لكم عند النبى الا النار ولم يكن لكم عند على غير السيف والسوط واما انت يا عتبة فكيف تعد احدا بالقتل لم لا قتلت الذى وجدته فى فراشك مضاجعا لزوجتك ثم امسكتها بعد ان بغت واما انت يا اعور ثقيف ففى اى ثلاث تسب عليا أفى بعده من رسول الله صلى الله عليه وسلم ام فى حكم جائر ام فى رغبة فى الدنيا فان قلت شيأ من ذلك فقد كذبت واكذبك الناس وان زعمت ان عليا قتل عثمان فقد كذبت واكذبك الناس واما وعيدك فانما مثلك كمثل بعوضة وقفت على نخلة فقالت لها استمسكى فانى اريد ان اطير فقالت لها النخلة ما علمت بوقوفك فكيف يشق على طيرانك وانت فما شعرنا بعداوتك فكيف يشق علينا سبك ثم نفض ثيابه وقام فقال لهم معاوية ألم أقل لكم انكم لا تنتصفون منه فوالله لقد أظلم على البيت حتى قام فليس فيكم بعد اليوم خير انتهى

﴿ومن غريب النقل﴾

ان شريك بن الاعور دخل على معاوية وهو يختال فى مشيته فقال له معاوية والله انك لشريك وليس لله من شريك وانك ابن الاعور والصحيح خير من الاعور وانك لدميم

فلما قدم الغضبان على الحجاج وقد بلغه الجاسوس ماجرى بينه وبين ابن الأشعث وبين الاعرابى قال له الحجاج يا غضبان كيف وجدت أرض كرمان قال أصلح الله الأمير أرض يابسة الجيش بها ضعاف هزلاء ان كثروا جاعوا وان قلوا ضاعوا فقال له الحجاج ألست صاحب الكلمة التى بلغتنى انك قلت لابن الأشعث تغد بالحجاج قبل أن يتعشى بك فوالله لاحبسنك عن الوساد ولانزلنك عن الجياد ولأشهرنك فى البلاد قال الأمان أيها الأمير فوالله ماضرت من قيلت فيه ولا نفعت من قيلت له فقال له ألم أقل لك كأنى بصوت جلاجلك تجلجل فى قصرى هذا اذهبوا به الى السجن فذهبوا به فقيد وسجن فمكث ماشاء الله ثم ان الحجاج ابتنى الخضراء بواسط فاعجب بها فقال لمن حوله كيف ترون قبتى هذه وبناءها فقالوا أيها الأمير انها حصينة مباركة منيعة نضرة بهجة قليل عيبها كثير خيرها قال لم لم تخبرونى بنصح قالوا لا يصفها لك الا الغضبان فبعث الى الغضبان فأحضره وقال له كيف ترى قبتى هذه وبناءها قال أصلح الله الأمير بنيتها فى غير بلدك لالك ولا لولدك لاتدوم لك ولا يسكنها وارثك ولا تبقى لك وما أنت لها بباق فقال الحجاج قد صدق الغضبان ردوه الى السجن فلما حملوه قال سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين فقال أنزلوه فلما أنزلوه قال رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين فقال اضربوا به الأرض فلما ضربوا به الأرض قال منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى فقال جروه فأقبلوا يجرونه وهو يقول بسم الله مجراها ومرساها ان ربى لغفور رحيم فقال الحجاج ويلكم اتركوه فقد غلبنى دهاء وخبثا ثم عفا عنه وأنعم عليه وخلى سبيله (وحدث) الزبير قال دخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون وقد كانت ضياعهم أخذت فقال السلام عليك يا أمير المؤمنين محمد بن عبد الملك بين يديك سليل نعمتك وغصن من أغصان دوحتك أتأذن لى فى الكلام فقال تكلم فقال الحمد لله رب العالمين ولا اله الا الله رب العرش العظيم وصلى الله والملائكة على محمد خاتم النبيين ونستمتع الله لحياطة ديننا ودنيانا ورعاية أدنانا وأقصانا ببقائك يا أمير المؤمنين ونسأل الله أن يمد فى عمرك من أعمارنا وأن يقيك الأذى بأسماعنا وأبصارنا فان الحق لا تعفو آثاره ولا ينهدم مناره ولا ينبت حبله ولا يزول مادمت بين الله وبين عباده والأمين على بلاده يا أمير المؤمنين هذا المقام مقام العائذ بظلك الهارب الى كنفك الفقير الى رحمتك وعدلك من تعاود النوائب وسهام المصائب وكلب الدهر وذهاب النعمة وفى نظر أمير المؤمنين ما يفرج كربة المكروب ويبرد غليل القلوب وقد نفذ أمر أمير المؤمنين فى الضياع التى أفادناها نعم آبائه الطيبين ونوافل أسلافه الطاهرين الراشدين وقد قمت مقامى هذا متوسلا اليك يا آبائك الطيبين وبالرشيد خير الهداة الراشدين والمهدى ناصر المسلمين والمنصور منكل الظالمين ومحمد خير المحمدين بعد خاتم النبيين مزدلفا اليك بالطاعة التى أفرع عليها غصنى واحتنكت بها سنى وريش بها جناحى متعوذا من شماتة الأعداء وحلول البلاء ومفارقة الشدة بعد الرخاء يا أمير المؤمنين قد مضى جدك المنصور وعمك صالح بن على جدى وبينهما من الرضاع والنسب ما علمه أمير المؤمنين وعرفه وقد أثبت الله الحق فى نصابه وأقره فى داره وأربابه يا أمير المؤمنين ان الدهر ذو اغتيال وقد يقلب حالا بعد حال فارحم يا أمير المؤمنين الصبية الصغار والعجائز الكبار الذين سقاهم الدهر كدرا بعد صفو ومرا بعد حلو وهبنا نعم آبائك اللاتى غذتنا صغارا وكبارا وشبابا وأشياخا وأمشاجا فى الاصلاب ونطفا فى الأرحام وقد منا فى القرابة حيث قدمنا الله منك فى الرحم فان رقابنا قد ذلت لسخطك ووجوهنا قد عنت لطاعتك فاقلنا عثرتنا يا أمير المؤمنين ان الله قد سهل بك الوعور وجلا بك الديجور وملأ من خوفك القلوب والصدور بك يردع الفاسق ويقمع بك المنافق فارتبط نعم الله عندك بالعفو والاحسان فان كل راع مسؤل عن رعيته وان النعم لا ينقطع المزيد فيها حتى ينقطع الشكر عليها يا أمير المؤمنين انه لا عفو أعظم من عفو امام قادر عن مذنب عاثر وقد قال الله جل ثناؤه وتعالت قدرته وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم أحاط الله أمير المؤمنين بستره الواقى ومنعه الكافى ثم أنشد يقول

أمير المومنين أتاك ركب * لهم قربى وليس لهم تلاد * هم الصدر المقدم من قريش
وأنت الرأس تتبعك العباد * لقد طابت بك الدنيا ولذت * وأرجو أن يطيب بك المعاد
فكيف تنالكم لحظات عين * وكيف يقل سوددك البلاد

قال

والوسيم خير من الدميم فبم سودك قومك فقال له شريك والله انك لمعاوية وما معاوية الا كلبة عوت فاستعوت فسميت معاوية وانك ابن حرب والسلم خير من الحرب وانك ابن صخر والسهل خير من الصخر وانك ابن أمية وما أمية الا أمة صغرت فسميت أمية فكيف صرت أمير المؤمنين فقال له معاوية أقسمت عليك الا ما خرجت عنى

﴿نكتة لطيفة﴾ اتفق ان الملك المعظم عزم على الصيد فقال له بعض جماعته يا مولانا ان القمر فى العقرب والسفر فيه مذموم والمصلحة أن تصبر الى أن ينزل القمر القوس فعزم على الصبر فبينما هو مفكر اذ دخل عليه مملوك له من أحسن الناس وجها فوقف امامه وقد توشح بقوس فقال له بعض الحاضرين بالله يا مولانا اركب فى هذه الساعة فهذا القمر قد حل فى القوس حقيقة فقام لوقته وركب استبشارا بالقول فلم ير أطيب من تلك السفرة ولا أكثر من صيدها

﴿ومن غرائب المنقول﴾ ما حكى اسحق النديم عن أبيه قال استأذنت الرشيد أن يهب لى يوما من الجمعة لانبعث فيه بجوارى واخوانى فأذن لى فى يوم السبت وقال هو يوم أستثقله فاله فيه بما شئت قال فاقمت يوم السبت بمنزلى وتقدمت لاصلاح طعامى وشرابى وأمرت بوابى باغلاق الباب وأن لا يأذن لاحد من الناس فبينما أنا فى مجلسى والحرم قد حففن بى اذا أنا بشيخ عليه هيبة وجمال وعلى رأسه قلنسوة وبيده عكازة مقمعة بالفضة وروائح الطيب تفوح منه فداخلنى لدخوله على مع ما قدمت من الوصية غيظ عظيم وهممت بطرد بوابى ومن يحجبنى لاجله فسلم على أحسن سلام فرددت عليه وأمرته بالجلوس فجلس وأخذ فى حديث الناس وأيام العرب وأشعارها حتى سكن

قال فاستحسن المأمون كله وأمر له بالحلل الفاخرة والجوائز السنية وأمر برد ضياعه وقرب منزلته وأدناه ودفع اليه من المال ما أغناه (ومن) حكايات الفصحاء ونوادر البلغاء ما حكى ان عبد الملك بن مروان جلس يوما وعنده جماعة من خواصه وأهل مسامرته فقال أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه وله على ما يتمناه فقام اليه سويد بن غفلة فقال أنا لها يا أمير المؤمنين قال هات فقال نعم يا أمير المؤمنين أنف بطن ترقوة ثغر جمجمة حلق خد دماغ ذكر رقبة زند ساق شفة صدر ضلع طحال ظهر عين غبب فم قفا كف لسان منخر نغنوغ هامة وجه يد وهذه آخر حروف المعجم والسلام على أمير المؤمنين فقام بعض أصحاب عبد الملك وقال يا أمير المؤمنين أنا أقولها من جسد الانسان مرتين فضحك عبد الملك وقال لسويد أسمعت ما قال قال أصلح الله الأمير أنا أقولها ثلاثا فقال هات ولك ما تتمناه فابتدأ يقول أنف أسنان أذن بطن بنصر بزة ترقوة تمرة تبنة ثغر ثنايا ثدى جمجمة جنب جبهة حلق حنك حاجب خد خنصر خاصرة دبر دماغ دراديرذقن ذكر ذراع رقبة رأس ركبة زند زردمة زب فهنالك ضحك عبد الملك حتى استلقى على قفاه ساق سرة سبابة شفة شفر شارب صدر صدغ صلعة ضلع ضفيرة ضرس طحال طرة طرف ظهر ظفر ظلم عين عنق عاتق غبب غلصمة غنة فم فك فؤاد قلب قفا قدم كف كتف كعب لسان لحية لوح منخر مرفق منكب نغنوغ ناب نن هامة هيئة هيف وجه وجنة ورك يمين يسار يافوخ ثم نهض مسرعا فقبل الأرض بين يدى أمير المؤمنين قال فعندها ضحك عبد الملك وقال والله ما تزيد ناعليهم شيأ أعطوه ما يتمناه ثم أجازه وأنعم عليه وبالغ في الاحسان اليه (وكان) الحجاج بن يوسف الثقفي من الفصحاء وكان على عتوه واسرافه جوادا وكان اذا ضحك واستغرق في الضحك أتبع ذلك بالاستغفار مرات وكان يطعم على ألف خوان وكان يطوف على الموائد ويقول يا أهل الشأم مزقوا الخبز لئلا يعود اليكم ثانيا وكان يجلس على كل مائدة عشرة رجال وذلك في كل يوم وكان يقول أرى الناس يتخلفون عن طعامى فقيل له انهم يكرهون الحضور قبل أن يدعوا فقال قد جعلت رسولي اليهم كل يوم الشمس اذا طلعت وعند المساء اذا غربت (حكى) عن عبد الملك بن عمير أنه قال لما بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان اضطراب أهل العراق جمع أهل بيته وأولى النجدة من جنده وقال أيها الناس ان العراق كدر ماؤها وكثرت غوغاؤها وأملولح عذبها وعظم خطبها وظهر ضرامها وعسر اخماد نيرانها فهل من ممهد لهم بسيف قاطع وذهن جامع وقلب ذكى وأنف حمى فيخمد نيرانها ويردع غيلانها وينصف مظلومها ويداوى الجرح حتى يندمل فتصفو البلاد وتأمن العباد فسكت القوم ولم يتكلم أحد فقام الحجاج وقال يا أمير المؤمنين أنا للعراق قال ومن أنت لله أبوك قال أنا الليث الضمضام والهزبر الهشام أنا الحجاج بن يوسف قال ومن أين قال من ثقيف كهوف الضيوف ومستعمل السيوف قال اجلس لا أم لك فلست هناك ثم قال مالى أرى الرؤس مطرقة والالسن معتقلة فلم يجبه أحد فقام اليه الحجاج وقال أنا مجندل الفساق ومطفئ نار النفاق قال ومن أنت قال أنا قاصم الظلمة ومعدن الحكمة الحجاج بن يوسف معدن العفو والعقوبة وآفة الكفر والريبة قال اليك عنى وذاك فلست هناك ثم قال من للعراق فسكت القوم وقام الحجاج وقال أنا للعراق فقال اذن أظنك صاحبها والظافر بغنائمها وان لكل شئ يا ابن يوسف آية وعلامة فما آيتك وما علامتك قال العقوبة والعفو والاقتدار والبسط والازورار والادناء والابعاد والجفاء والبر والتأهب والحزم وخوض غمرات الحروب بجنان غير هيوب فمن جادلني قطعته ومن نازعني قصمته ومن خالفني نزعته ومن دنا منى أكرمته ومن طلب الأمان أعطيته ومن سارع الى الطاعة بجلته فهذه آيتى وعلامتى وما عليك يا أمير المؤمنين أن تبلونى فان كنت للاعناق قطاعا وللاموال جماعا وللارواح نزاعا ولك في الأشياء نفاعا والا فليستبدل بي أمير المؤمنين فان الناس كثير ولكن من يقوم بهذا الأمر قليل فقال عبد الملك أنت لها فما الذى تحتاج اليه قال قليل من الجند والمال فدعا عبد الملك صاحب جنده فقال هيئ له من الجند شهوته وألزمهم طاعته وحذرهم مخالفته ثم دعا الخازن فأمره بمثل ذلك فخرج الحجاج قاصدا نحو العراق قال عبد الملك بن عمير فبينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة اذ أتانا آت فقال هذا الحجاج قدم أميرا على العراق فتطاولت الأعناق نحوه وأفرجوا له عن صحن المسجد فاذا نحن به يمشى وعليه عمامة حمراء متلثما بها ثم صعد المنبر فلم يتكلم كلمة واحدة ولا نطق بحرف حتى غص المسجد بأهله وأهل الكوفة يومئذ ذوو حالة حسنة وهيئة جميلة فكان الواحد منهم

ما بى فظننت أن هامانى قصدوا مسرتى بادخاله على لظرفه وأدبه فقلت له هل لك في الطعام فقال لا حاجة لى به فقلت هل لك في الشراب فقال ذاك اليك قال فشربت رطلا وسقيته مثله فقال يا أبا اسحق هل لك في أن تغنى ونسمع منك ما فقت به على العام والخاص قال فغاظني منه ذلك ثم سهلت الامر على نفسى وأخذت العود وضربت وغنيت فقال أحسنت يا ابراهيم فازددت غيظا وقلت ما رضى بما فعله حتى سمانى باسمى ولم يحسن مخاطبتى ثم قال هل لك في أن تزيدنا ونكافئك قال فتقدمت وأخذت العود وضربت وغنيت وتحفظت وقمت بما غنيته قياما تاما فطرب وقال أحسنت يا سيدى ثم قال أتأذن لعبدك في الغناء فقلت شأنك واستضعفت عقله كيف سولت له نفسه أن يغنى بحضرتى بعد ما سمعه منى فأخذ العود وجسه فوالله لقد خلته ينطق بلسان عربى واندفع يغنى

ولى كبد مقروحة من يبيعنى
بها كبدا ليست بذات قروح
أباها على الناس لا يشترونها
ومن يشترى ذا علة بصحيح

قال ابراهيم فوالله لقد ظننت أن الحيطان والابواب وكل ما في البيت يجيبه ويغنى معه وبقيت مبهوتا لا أستطيع الكلام ولا الحركة لما خالط قلبي ثم غنى ألا يا حمامات اللوى الابيات فكاد يذهب عقلى طربا ثم قال يا ابراهيم خذ هذا الغناء وانح نحوه في غنائك وعلمه جواريك فسألته أن يعيد ما غناه فقال لم تحتج الى شئ من ذلك ثم غاب من بين عينى فارتعت وقمت الى السيف فجردته ثم غدوت نحو الابواب وقلت للجوارى أى شئ سمعتن فقلن سمعنا أحسن غناء فخرجت متحيرا الى باب الدار فوجدته

يدخل المسجد ومعه العشرون والثلاثون من أهل بيته ومواليه واتباعه عليهم الخز والديباج قال وكان في المسجد يومئذ عمير بن صابئ التميمي فلما رأى الحجاج على المنبر قال لصاحب له أسبه لكم قال اكفف حتى نسمع ما يقول فأبى ابن صابئ وقال لعن الله بني أمية حيث يولون ويستعملون مثل هذا على العراق وضيع الله العراق حيث يكون هذا أميرها فوالله لو دام هذا أميرا كما هو ما كان بشيء والحجاج ساكت ينظر يمينا وشمالا فلما رأى المسجد قد غص بأهله قال هل اجتمعتم فلم يرد عليه أحد شيأ فقال اني لا أعرف قدر اجتماعكم فهل اجتمعتم فقال رجل من القوم قد اجتمعنا اصلح الله الأمير فكشف عن لثامه ونهض قائما فكان أول شيء نطق به أن قال والله اني لأرى رؤسا أينعت وقد حان قطافها واني لصاحبها واني لأرى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى والله يا أهل العراق ان أمير المؤمنين نثر كنانة بين يديه فعجم عيدانها فوجدني أمرها عودا وأصلبها مكسرا فرماكم بي لأنكم طالما أثرتم الفتنة واضطجعتم في مراقد الضلال والله لأنكلن بكم في البلاد ولاجعلنكم مثلا في كل واد ولاضربنكم ضرب غرائب الأبل واني يا أهل العراق لا أعد الا وفيت ولا أعزم الا أمضيت فاياي وهذه الزرافات والجماعات وقيل وقال وكان ويكون يا أهل العراق انما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأتاها وعيد القرى من ربها فاستوثقوا واستقيموا واعملوا ولا تميلوا وتابعوا وبايعوا واجتمعوا واستمعوا فليس مني الاهذار والاكثار انما هو هذا السيف ثم لا ينسلخ الشتاء من الصيف حتى يذل الله لأمير المؤمنين صعبكم ويقيم له أودكم ثم اني وجدت الصدق مع البر ووجدت البر في الجنة ووجدت الكذب مع الفجور ووجدت الفجور في النار وقد وجهني أمير المؤمنين اليكم وأمرني أن أنفق فيكم وأوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة واني أقسم بالله لا أجد رجلا يتخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام الا ضربت عنقه يا غلام اقرأ كتاب أمير المؤمنين فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك بن مروان الى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم فلم يرد أحد شيأ فقال الحجاج اكفف يا غلام ثم أقبل على الناس فقال أيسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون شيأ عليه هذا أدبكم الذي تأدبتم به أما والله لأدبنكم أدبا غير هذا الأدب اقرأ يا غلام فقرأ حتى بلغ قوله سلام عليكم فلم يبق أحد الا قال وعلى أمير المؤمنين السلام ثم نزل بعد ما فرغ من خطبته وقراءته ووضع للناس عطاياهم فجعلوا يأخذونها حتى أتاه شيخ يرعش فقال أيها الأمير اني على الضعف كما ترى ولي ابن هو أقوى مني على الأسفار أفتقبله بديلا مني فقال نقبله أيها الشيخ فلما ولى قال له قائل أتدري من هذا أيها الأمير قال لا قال هذا عمير بن صابئ الذي يقول

همت ولم أفعل وكدت وليتني * تركت على عثمان تبكي حلائله

ولقد دخل هذا الشيخ على عثمان رضي الله عنه وهو مقتول فوطئ في بطنه فكسر ضلعين من أضلاعه فقال الحجاج ردوه فلما ردوه قال له الحجاج أنت الفاعل بأمير المؤمنين عثمان ما فعلت يوم قتل الدار ان في قتلك أيها الشيخ اصلاحا للمسلمين يا سياف اضرب عنقه فضرب عنقه وكان من أمره بعد ذلك ما عرف وسطر ﴿ومن حكايات الحجاج﴾ ما حكي أنه لما أسرف في قتل أسرى دير الجماجم وأعطى الأموال بلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فشق عليه وكتب اليه أما بعد فقد بلغني عنك اسراف في الدماء وتبذير في العطاء وقد حكمت عليك في الدماء في الخطأ بالدية وفي العمد بالقود وفي الأموال أن تردها الى مواضعها ثم تعمل فيها برأيي فانما هو مال الله تعالى ونحن أمناؤه فان كنت أردت الناس لي فما أغناني عنهم وان كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم وسيأتيك عني أمران لين وشدة فلا يؤمننك الا الطاعة ولا يوحشنك الا المعصية واذا أعطاك الله عز وجل الظفر فلا تقتلن جانحا ولا أسيرا وكتب في أسفل الكتاب

اذا أنت لم تترك أمورا كرهتها * وتطلب رضائي بالذي أنا طالبه
فان ترني غفلة قرشية * فيا ربما قد غص بالماء شاربه
وان ترني وثبة أموية * فهذا وهذا كل ذا أنا صاحبه
فلا تأمنني والحوادث جمة * فانك تجزى بالذي أنت كاسبه
فلا تعد ما يأتيك مني وان تعد * يقمن به يوما عليك نوادبه
فلا تمنعن الناس حقا علمته * ولا تعطين ما ليس للناس واجبه
فانك ان تعط الحقوق فانما النوافل شيء لا يثيبك واهبه *

فلما ورد الكتاب على الحجاج كتب الى أمير المؤمنين أما بعد فقد ورد كتاب أمير المؤمنين يذكر اسرافي في الدماء

مغلقا فسألت البواب عن الشيخ فقال أي شيخ والله ما دخل اليك اليوم أحد من الناس فرجعت لا تأمل أمري فاذا به قد هتف من بعض جوانب الدار فقال لا بأس عليك يا أبا اسحق أنا ابليس وقد اخترت منادمتك في هذا اليوم فلا ترتاع فركبت على الفور الى الرشيد وأتحفته بهذه الظرفة فقال ويحك اعتبر الاصوات التي أخذتها منه فأخذت العود فاذا هي راسخة في صدري فطرب الرشيد وأمر لي بصلة وقال ليته متعنا يوما واحدا كما أمتعك قال أبو الفرج الاصبهاني هكذا حدثنا ابن أبي الازهر وما أدري ما أقول فيه (ويضارع هذا ما أورده ابن خلكان في ترجمة ابن دريد) قال أبو بكر محمد بن الحسين بن دريد سقطت من منزلي فانكسر بعض أعضائي فسهرت ليلتي فلما كان آخر الليل غمضت عيني فرأيت رجلا طويلا أصفر الوجه كوسجا دخل علي وأخذ بعضادتي الباب وقال أنشدني أحسن ما قلت في الخمر فقلت ما ترك أبو نواس لأحد شيأ في هذا الباب فقال أنا أشعر منه فقلت ومن أنت قال أبو ناجية من أهل الشام وأنشدني

وحمراء قبل المزج صفراء بعده
بدت بين ثوبي نرجس وشقائق
حكت وجنة المعشوق صرفا فسلطوا
عليها مزاجا فاكتست لون عاشق

فقلت له أسأت قال ولم قلت لانك قلت وحمراء فقدمت الحمرة ثم قلت نرجس وشقائق فقدمت الصفرة فقال ما هذا الاستقصاء في هذا الوقت يا بغيض وأبو ناجية من كنى ابليس قال قاضي القضاة شمس الدين محمد بن خلكان في تاريخه وفي رواية أخرى ان الشيخ أبا علي الفارسي قال أنشدني ابن دريد هذين البيتين وقال جاءني ابليس في المنام ثم ذكر بقية الكلام الخ

وتبذيري في الاموال ولعمري مابالغت في عقوبة أهل المعصية ولاقضيت حقوق أهل الطاعة فان كان قتلي العصاة اسرافا واعطائي المطيعين تبذيرا فليمض لي أمير المؤمنين ماسلف والله ماأصبت القوم خطأ فأديهم ولاظلمتهم عمدا فأقادبهم ولاقتلت إلا لك ولاأعطيت الافيك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وكتب في أسفل الكتاب

اذا أنا لاأبغي رضاك وأتقي * أذاك فليلي لاتوارى كواكبه
ومالامرئ بعد الخليفة جنة * تقيه من الامر الذي هو راكبه
اذا قارف الحجاج فيك خطيئة * لقامت عليه بالصياح نوادبه
اذا أنا لم أدن الشفيق لنصحه * وأقص الذي تسرى الي عقاربه
وأعط المراسي في البلاء عطية * لرد الذي ضاقت على مذاهبه
فمن يتقي بؤسي ويرجو مودتي * ويخشى غدا والدهر جم نوائبه
وأمري اليك اليوم ماقلت قلته * ومالم تقله لم أقل مايقاربه
ومهما أردت اليوم مني أردته * ومالم ترده اليوم اني مجانبه
وقف بي على حد الرضا لاأجوزه * مدى الدهر حتى يرجع الدر حالبه
والا فدعني والامور فانني * شفيق رفيق أحكمته تجاربه

فلما انتهى الكتاب الى عبد الملك قال خاف أبو محمد صولتي ولم يعاود لامر كرهته ان شاء الله تعالى فمن يلومني على محبته ياغلام اكتب اليه الشاهد يرى مالايرى الغائب وأنت أعلى عينا بما هنالك ❊وفي مروج الذهب للمسعودي❊ ان أم الحجاج وهي الفارعة بنت همام ولدته مشوها لادبر له فثقب له دبر وأبى أن يقبل الثدي وأعياهم أمره فيقال ان الشيطان تصور له في صورة الحرث بن كادة حكيم العرب فسألهم عن ذلك فأخبره بخبر من أهله فقال لهم اذبحوا له تيسا وألعقوه من دمه وأولغوه فيه ثم أطلوا به وجهه ففعلوا ذلك فقبل الثدي فلاجل ذلك كان لايصبر عن سفك الدماء وكان يخبر عن نفسه ان أكبر لذاته سفك الدماء وارتكاب أمور لايقدر غيره عليها وكانت أمه متزوجة قبل أبيه الحرث بن كادة فدخل عليها يوما في السحر فوجدها تخلل أسنانها فطلقها فسألته لم فعلت فقال لها ان كنت باكرت الغداء فأنت شرهة وان كان بقايا طعام بفيك فأنت قذرة فقالت كل ذلك لم يكن وانما تخللت من شظايا السواك فقال قضي الامر فتزوجها بعده يوسف بن عقيل الثقفي فاولدها الحجاج وقيل ان الحجاج تقلد الامارة وهو ابن عشرين سنة ومات وله ثلاث وخمسون سنة وكان من عنف السياسة وثقل الوطأة وظلم الرعية والاسراف في القتل على مالايبلغه وصف أحصي من قتله الحجاج بأمره سوى من قتله في حروبه فكانوا مائة ألف وعشرين ألفا ووجد في سجنه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة لم يجب على أحد منهم قطع ولاقتل وكان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد ولم يكن لحبسه سقف يستر الناس من الحر والبرد وقيل للشعبي أكان الحجاج مؤمنا قال نعم بالطاغوت وقال لوجاءت كل أمة بخبيثها وفاسقها وجئنا بالحجاج وحده لزدنا عليهم والله أعلم وقد مضى القول في ذكر الفصحاء من الرجال وحكاياتهم وما أعان الله تعالى عليه واستحضرته من أخبارهم وأنا قائل ان شاء الله تعالى ما استحضرته من ذكر فصحاء النساء وأخبارهن وحكاياتهن والله المستعان

❊ذكر فصحاء النساء وحكاياتهن❊

❊حكي❊ عن أبي عبد الله النميري انه قال كنت يوما مع المأمون وكان بالكوفة فركب للصيد ومعه سرية من العسكر فبينما هو سائر اذ لاحت له طريدة فاطلق عنان جواده وكان على سابق من الخيل فاشرف على نهر ماء من الفرات فاذا هو بجارية عربية خماسية القد قاعدة النهد كانها القمر ليلة تمامه وبيدها قربة قد ملأتها ماء وحملتها على كتفها وصعدت من حافة النهر فانحل وكاؤها فصاحت برفيع صوتها ياأبت أدرك فاها قد غلبني فوها لاطاقة لي بفيها قال فعجب المأمون من فصاحتها ورمت الجارية القربة من يدها فقال لها المأمون ياجارية من أي العرب أنت قالت أنا من بني كلاب قال وما الذي حملك أن تكوني من الكلاب فقالت والله لست من الكلاب وانما أنا من قوم كرام غير لئام يقرون الضيف ويضربون بالسيف ثم قالت يافتى من أي الناس أنت فقال أوعندك علم بالانساب قالت نعم قال لها أنا من مضر الحمراء قالت من أي مضر قال من أكرمها نسبا وأعظمها حسبا وخيرها أما وأبا ممن تهابه مضر كلها قالت أظنك من كنانة قال أنا من كنانة قالت فمن أي كنانة قال من أكرمها مولدا وأشرفها محتدا وأطولها في المكرمات يدا ممن تهابه كنانة وتخافه

(ونقل) ابن خلكان وغيره ان أبا بكر بن قريعة قاضي السندية وغيرها من أعمال بغداد كان من عجائب الدنيا في سرعة البديهة بالأجوبة عن جميع مايسئل عنه في أفصح لفظ وأملح سجع وكان مختصا بحضرة الوزير أبي محمد المهلبي ومنقطعا اليه وله مسائل وأجوبة مدونة في أيدي الناس وكان رؤساء ذلك العصر والعلماء والفضلاء يداعبونه ويكتبون له المسائل الغريبة المضحكة فيكتب الأجوبة من غير توقف ولايكتب الامطابقا لما سألوه وكان الوزير المذكور يغري به جماعة يصنعون له المسائل الهزلية من معان شتى من النوادر (فمن ذلك) ما كتب اليه بعض الفضلاء على سبيل الامتحان مايقول القاضي أيده الله تعالى في رجل سمى ولده مداما وكناه أبا الندامى وسمى ابنته الراح وكناها أم الأفراح وسمى عبده الشراب وكناه أبا الاطراب وسمى وليدته القهوة وكناها أم النشوة أينهى عن بطالته أم يؤدب على خلاعته (فكتب تحت السؤال) لونعت هذا لأبي حنيفة لأقعده خليفة وعقد له راية وقاتل تحتها من خالف رأيه ولو علمنا مكانه لقبلنا أركانه فان أتبع هذه الأسماء أفعالا وهذه الكنى استعمالا لاعلمنا أنه أحيا دولة المجون وأقام لواء ابن الزرجون فبايعناه وشايعناه وان تكن أسماء سماها ماله بها من سلطان خلعنا طاعته وفرقنا جماعته فنحن الى امام فقال أحوج منا الى امام فوال (وكتب اليه العباس الكاتب) ما يقول القاضي وفقه الله تعالى في يهودي زنى بنصرانية فولدت له ولدا جسمه للبشر ووجهه للبقر وقد قبض عليهما فما يرى القاضي فيهما (فكتب تحت سؤاله بديها) هذا من أكبر الشهود على الملاعين اليهود

فقالت اذن أنت من قريش قال أنا من قريش قالت من أى قريش قال من أجملها ذكرا وأعظمها فخرا من تهابه قريش كلها وتخشاه قالت أنت والله من بنى هاشم قال أنا من بنى هاشم قالت من أى هاشم قال من أعلاها منزلة وأشرفها قبيلة ممن تهابه هاشم وتخافه قال فعند ذلك قبلت الارض وقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين قال فعجب المأمون وطرب طربا عظيما وقال والله لاتزوجن بهذه الجارية لانها من أكبر الغنائم ووقف حتى تلاحقته العساكر فنزل هناك وأنفذ خلف أبيها وخطبها منه فزوجه بها وأخذها وعاد مسرورا وهى والدة ولده العباس والله أعلم ﴿وحكى﴾ ان هندا بنت النعمان كانت أحسن أهل زمانها فوصف للحجاج حسنها فأنفذ اليها يخطبها وبذل لها مالا جزيلا وتزوج بها وشرط لها عليه بعد الصداق مائتى ألف درهم ودخل بها ثم انها انحدرت معه الى بلد أبيها المعرة وكانت هند فصيحة أديبة فأقام بها الحجاج بالمعرة مدة طويلة ثم ان الحجاج رحل بها الى العراق فأقامت معه ماشاء الله ثم دخل عليها فى بعض الايام وهى تنظر فى المرآة وتقول

وما هند الا مهرة عربية * سليلة أفراس تحللها بغل
فان ولدت فحلا فلله درها * وان ولدت بغلا فجاء به البغل

فانصرف الحجاج راجعا ولم يدخل عليها ولم تكن علمت به فأراد الحجاج طلاقها فأنفذ اليها عبد الله بن طاهر وأنفذ لها معه مائتى ألف درهم وهى التى كانت لها عليه وقال يا ابن طاهر طلقها بكلمتين ولا ترد عليهما فدخل عبد الله ابن طاهر عليها فقال لها يقول لك أبو محمد الحجاج كنت فبنت وهذه المائتا ألف درهم التى كانت لك قبله فقالت اعلم يا ابن طاهر انا والله كنا فما حمدنا وبنا فما ندمنا وهذه المائتا ألف درهم التى جئت بها بشارة لك بخلاصى من كلب ثقيف ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها ووصف له جمالها فأرسل اليها يخطبها فأرسلت اليه كتابا تقول فيه بعد الثناء عليه اعلم يا أمير المؤمنين أن الاناء ولغ فيه الكلب فلما قرأ عبد الملك الكتاب ضحك من قولها وكتب اليها يقول اذا ولغ الكلب فى اناء أحدكم فليغسله سبعا احداهن بالتراب فاغسلى الاناء يحل الاستعمال فلما قرأت كتاب أمير المؤمنين لم يمكنها المخالفة فكتبت اليه بعد الثناء عليه يا أمير المؤمنين والله لا أحل العقد الا بشرط فان قلت ماهو الشرط قلت أن يقود الحجاج محملى من المعرة الى بلدك التى أنت فيها ويكون ماشيا حافيا بحليته التى كان فيها أولا فلما قرأ عبد الملك ذلك الكتاب ضحك ضحكا شديدا وأنفذ الى الحجاج وأمره بذلك فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجاب وامتثل الامر ولم يخالف وأنفذ الى هند يأمرها بالتجهز فتجهزت وسار الحجاج فى موكبه حتى وصل المعرة بلد هند فركبت هند فى محمل الزفاف وركب حولها جواريها وخدمها وأخذ الحجاج بزمام البعير يقوده ويسير بها فجعلت هند تتواغد عليه وتضحك مع الهيفاء دايتها ثم انها قالت للهيفاء يا داية اكشفى لى سجف المحمل فكشفته فوقع وجهها فى وجه الحجاج فضحكت عليه فأنشد يقول

فان تضحكى منى فيا طول ليلة * تركتك فيها كالقباء المفرج

فأجابته هند تقول

وما نبالى اذا أرواحنا سلمت * بما فقدناه من مال ومن نشب
فالمال مكتسب والعز مرتجع * اذا النفوس وقاها الله من عطب

ولم تزل كذلك تضحك وتلعب الى أن قربت من بلد الخليفة فرمت بدينار على الارض ونادت يا جمال انه قد سقط منا درهم فارفعه الينا فنظر الحجاج الى الارض فلم يجد الا دينارا فقال انما هو دينار فقالت بل هو درهم قال بل دينار فقالت الحمد لله سقط منا درهم فعوضنا الله دينارا فخجل الحجاج وسكت ولم يرد جوابا ثم دخل بها على عبد الملك بن مروان فتزوج بها وكان من أمرها ما كان وقد وجدت فى بعض النسخ ماهو أوسع من هذا ولكن اقتصرت على القليل منه اذ فيه الغرض والله أعلم وقيل ان جارية عرضت على الرشيد ليشتريها فتأملها وقال لولا خذ بها ينك فلولا كلف بوجهها وخنس بأنفها لاشتريتها فلما سمعت الجارية مقالة أمير المؤمنين قالت مبادرة يا أمير المؤمنين اسمع منى ما أقول فقال قولى فأنشدت تقول

ما سلم الظبى على حسنه * كلا ولا البدر الذى يوصف
الظبى فيه خنس بين * والبدر فيه كلف يعرف

قال فعجب من فصاحتها وأمر بشرائها وقيل عرضت على المأمون جارية بارعة فى الجمال فائقة فى الكمال غير

انها

فأنهم أشربوا حب العجل فى صدورهم حتى خرج من أيورهم وأرى ان يناط رأس اليهودى برأس العجل ويصلب على عنق النصرانية الساق مع الرجل ويسحبان على الأرض وينادى عليهما ظلمات بعضها فوق بعض والسلام (نادرة لطيفة) ولما خرج أبو جعفر المنصور يريد الحج بالناس قال لعيسى بن موسى الهادى أنت تعلم ان الخلافة صائرة اليك وأريد أن أسلم لك عمى وعمك عبد الله بن على فخذه واقتله واياك أن تجبن فى أمره ثم مضى المنصور الى الحج وكتب اليه من الطريق يستحثه على ذلك فكتب اليه قد أنفذت أمر أمير المؤمنين وكان الأمر بخلاف ذلك فلم يشك أبو جعفر أنه قتله ودعا عيسى بن موسى كاتبه يونس فقال له ان المنصور دفع الى عمه وأمرنى بقتله فقال له يريد أن يقتلك به فانه أمرك بذلك سرا ويدعى به عليك علانية والرأى أن تستره فى منزلك ولا تطلع عليه أحدا فان طلبه منك علانية دفعته اليه علانية ولا تدفعه اليه سرا أبدا ففعل ذلك وقدم المنصور ندس على عمومته من يحركهم أن يسألوا المنصور أن يهب لهم أخاهم عبد الله ففعلوا ذلك وكلموه فأجاب وقال نعم على بعيسى بن موسى فأتاه فقال يا عيسى كنت دفعت اليك عمى وعمك عبد الله قبل خروجى الى الحج وأمرتك أن يكون فى منزلك مكرما قال قد فعلت ذلك قال قد كلمنى فيه عمومتك فرأيت الصفح عنه فائتنى به قال يا أمير المؤمنين ألم تأمرنى بقتله قال لا بل أمرتك بحبسه عندك ثم قال المنصور لعمومته ان هذا قد أقر لكم بقتل أخيكم وادعى انى أمرته بذلك وقد كذب قالوا فادفعه الينا نقتله قال شأنكم فأخرجوه الى صحن الدار واجتمع الناس واشتهر الأمر فقام أحدهم وشهر سيفه وتقدم الى

أنها كانت تعرج برجلها فقال لمولاها خذ بيدها وارجع فلولا عرج بها الا اشتريتها فقالت الجارية يا أمير المؤمنين انه في وقت حاجتك لا يكون بحيث تراه فأعجبه سرعة جوابها وأمر بشرائها ❊ومن ذلك❊ ما حكى ان كريم الملك كان من ظرفاء الكتاب فعبر يوما تحت جوسق ببستان فرأى جارية ذات وجه زاهر وكمال باهر لا يستطيع أحد وصفها فلما نظر اليها ذهل عقله وطار لبه فعاد الى منزله وأرسل اليها هدية نفيسة مع عجوز كانت تخدمه وكانت الجارية عزباء وكتب اليها رقعة يعرض اليها بالزيارة في جوسقها فلما قرأت الرقعة قبلت الهدية ثم أرسلت اليه مع العجوز عنبرا وجعلت فيه زر ذهب وربطت ذلك على منديل وقالت للعجوز هذا جواب رقعته فلما رأى كريم الملك ذلك لم يفهم معناه وتحير في أمره وكانت له ابنة صغيرة السن فلما رأت أباها متحيرا في ذلك قالت له يا أبت أنا علمت معناه قال وما هو لله درك قالت

أهدت لك العنبر في جوفه ❊ زر من التبر خفي اللحام

فالزروا العنبر معناهما ❊ زرهكذا مختفيا في الظلام

قال فعجب من فطنتها وفصاحتها واستحسن ذلك منها ❊وحكى❊ ان طائفة من بني تميم كانوا يكسرون أول الفعل فمرت فتاة منهم جميلة الصورة على جماعة فناداها شخص منهم وأراد أن يوقعها فيما ينسب اليهم من كسر لفعل فقال لأي شئ يا بني تميم ماتكتنون فقالت ولم لا نكتني وكسرت الفعل فضحك عليها وقال أفعل ان شاء الله فخجلت من قوله وتغير وجهها وأرادت أن توقعه كما أوقعها فقالت له هل تحسن شيأ من العروض قال نعم قالت قطع لي

حوّلوا عنا كنيستكم ❊ يا بني حمالة الحطب

فقطعه فوقف على عن ثم ابتدأ بالنون والالف مع بقية الحروف فضحكت عليه وأضحكت أصحابه فقال ويحك لم تبرحي حتى أخذت بثارك ❊وحكى❊ ان شاعرا كان له عدو فبينما هو سائر ذات يوم في بعض الطرق اذا هو بعدوه فعلم الشاعر أن عدوه قاتله لا محالة فقال له يا هذا أنا أعلم أن المنية قد حضرت ولكن سألتك الله اذا أنت قتلتني امض الى داري وقف بالباب وقل ❊ ألا أيها البنتان ان أباكما ❊ فقال سمعا وطاعة ثم انه قتله فلما فرغ من قتله أتى الى داره ووقف بالباب وقال ❊ ألا أيها البنتان ان أباكما ❊ وكان للشاعر ابنتان فلما سمعتا قول الرجل ❊ ألا أيها البنتان ان أباكما ❊ أجابتاه بفم واحد ❊ قتيل خذا بالثار ممن أتاكما ❊ ثم تعلقتا بالرجل ورفعتاه الى الحاكم فاستقرره فاقر بقتله فقتله والله أعلم ❊وقيل بينما كثير عزة مار بالطريق يوما اذا هو بعجوز عمياء على قارعة الطريق تمشي فقال لها تنحي عن الطريق فقالت له ويحك ومن تكون قال أنا كثير عزة قالت فبحك الله وهل مثلك يتنحى له عن الطريق قال ولم قالت ألست القائل

وما روضة بالحسن طيبة الثرى ❊ يمج الندى جثجاثها وعرارها

بأطيب من أردان عزة موهنا ❊ اذا أوقدت بالمجمر اللدن نارها

ويحك يا هذا لو تبخر بالمجمر اللدن مثلي ومثل أمك لطاب ريحهما لا قلت مثل سيدك امرئ القيس

وكنت اذا ما جئت بالليل طارقا ❊ وجدت بها طيبا وان لم تطيب

فقطعته ولم يرد جوابا ❊وقيل أتي الحجاج بامرأة من الخوارج فقال لاصحابه ما تقولون فيها قالوا عاجلها بالقتل أيها الأمير فقالت الخارجية لقد كان وزراء صاحبك خيرا من وزرائك يا حجاج قال ومن هو صاحبي قالت فرعون استشارهم في موسى عليه السلام فقالوا أرجئه وأخاه ❊وأتي بأخرى من الخوارج فجعل يكلمها وهي لا تنظر اليه فقيل لها الأمير يكلمك وأنت لا تنظرين اليه فقالت اني لاستحيي ان أنظر الى من لا ينظر الله اليه (وحكى) ابن الجوزي في كتابه المنتظم في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لما ولي عمر رضي الله عنه الخلافة بلغه أن أصدقة أزواج النبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة درهم وان فاطمة رضي الله عنها كان صداقها على علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أربعمائة درهم فأدى اجتهاد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أن لا يزيد أحد على صداق البضعة النبوية فاطمة رضي الله عنها فصعد المنبر وحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال أيها الناس لا تزيدوا في مهور النساء على أربعمائة درهم فمن زاد ألقيت زيادته في بيت مال المسلمين فهاب الناس أن يكلموه فقامت امرأة في يدها طول فقالت له كيف يحل لك هذا والله تعالى يقول وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيأ فقال عمر رضي الله عنه امرأة أصابت ورجل أخطأ ❊ وقيل جاءت امرأة الى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فقالت يا أمير المومنين ان زوجي يصوم النهار ويقوم الليل فقال لها نعم الرجل زوجك وكان

عيسى ليضربه فقال عيسى لا تعجلوا فان عمي جردوني الى أمير المؤمنين فردوه اليه فقال يا أمير المؤمنين انما أردت بقتله قتلي هذا عملك حتى ان أمرتني بدفعه اليهم دفعته قال ائتنا به فأتى به فجعله في بيت فسقط عليه فمات وكان المنصور قد وضع في أساس البيت ملحا لما شرع في عمارته وأعده لهذا المعنى ولما جلس فيه عمه أجرى الماء في أساس البيت سرا بحيث لا يشعر به أحد فذاب الملح وسقط البيت وركب المنصور بعد موت عمه وفي خدمته عباس ابن المتوفى وكان يباسطه في كل وقت فقال له المنصور وهو يحادثه هل تعرف ثلاثة في أول أسمائهم عين قتلوا ثلاثة في أول أسمائهم عين قال لا أعرف الا ما تقول العامة يا أمير المؤمنين ان عليا قتل عثمان وكذبوا والله وعبد الملك بن مروان قتل عبد الله بن الزبير وسقط البيت على عم أمير المؤمنين قال فضحك المنصور وقال اذا سقط البيت على عمي فما ذنبي قال قلت مالك ذنب يا أمير المؤمنين وقتل عبد الله كان بسبب البيعة التي تقدمت له مع السفاح وشرحها يطول انتهى (ونقلت من خط قاضي القضاة شمس الدين ابن خلكان ما صورته) نقلت من خط القاضي كمال الدين بن العديم من مسودة تاريخه أن ابن الدقاق البلنسي الشاعر المشهور كان يسهر الليل ويشتغل بالأدب وكان أبوه حدادا فقيرا فلامه وقال يا ولدي نحن فقراء ولا طاقة لنا بالزيت الذي تسهر عليه فاتفق انه برع في العلم والأدب وقال الشعر وعمل في أبي بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية قصيدة مطربة أولها

ياشمس خدر مالها مغرب ❊ وبدر تم قط لا يحجب

وقال منها

في مجلسه رجل يسمى كعبا فقال يا أمير المومنين ان هذه المرأة تشكو زوجها في أمر مباعدته اياها عن فراشه فقال له كما فهمت كلامها احكم بينهما فقال كعب علي بزوجها فاحضر فقال له ان هذه المرأة تشكوك قال أفي أمر طعام أم شراب قال بل في أمر مباعدتك اياها عن فراشك فانشأت المرأة تقول

يا أيها القاضي الحكيم أنشده * ألهى خليلي عن فراشي مسجده
نهاره وليله لا يرقده * فلست في أمر النساء احمده

فانشد الزوج يقول

زهدني في فرشها وفي الحلل * أني امرؤ أذهلني ما قد نزل
في سورة النمل وفي السبع الطول * وفي كتاب الله تخويف يجل

فقال له القاضي

ان لها عليك حقا لم يزل * في أربع نصيبها لمن عقل
* فعاطها ذاك ودع عنك العلل *

ثم قال ان الله تعالى أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع فلك ثلاثة أيام بلياليهن ولها يوم وليلة فقال عمر رضي الله عنه لا أدري من أيكم أعجب أمن كلامها أم من حكمك بينهما اذهب فقد وليتك البصرة ❊حكاية المتكلمة بالقرآن❊ قال عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى خرجت حاجا الى بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام فبينما أنا في بعض الطريق اذ أنا بسواد على الطريق فتميزت ذلك فاذا هي عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف فقلت السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقالت سلام قولا من رب رحيم قال فقلت لها يرحمك الله ما تصنعين في هذا المكان قالت ومن يضلل الله فلا هادي له فعلمت أنها ضالة عن الطريق فقلت لها أين تريدين قالت سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى فعلمت أنها قد قضت حجها وهي تريد بيت المقدس فقلت لها أنت منذ كم في هذا الموضع قالت ثلاث ليال سويا فقلت ما أرى معك طعاما تأكلين قالت هو يطعمني ويسقين فقلت فبأي شيء تتوضئين قالت فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فقلت لها ان معي طعاما فهل لك في الأكل قالت ثم أتموا الصيام الى الليل فقلت ليس هذا شهر رمضان قالت ومن تطوع خيرا فان الله شاكر عليم فقلت قد أبيح لنا الافطار في السفر قالت وأن تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون فقلت لم لا تكلميني مثل ما أكلمك قالت ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد فقلت فمن أي الناس أنت قالت ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا فقلت قد أخطأت فاجعليني في حل قالت لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم فقلت فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة قالت وما تفعلوا من خير يعلمه الله قال فأنخت ناقتي قالت قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم فغضضت بصري عنها وقلت لها اركبي فلما أرادت ان تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها فقالت وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم فقلت لها اصبري حتى أعقلها قالت ففهمناها سليمان فعقلت الناقة وقلت لها اركبي فلما ركبت قالت سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وانا الى ربنا لمنقلبون قال فاخذت بزمام الناقة وجعلت أسعى وأصيح فقالت واقصد في مشيك واغضض من صوتك فجعلت أمشي رويدا رويدا وأترنم بالشعر فقالت فاقرؤا ما تيسر من القرآن فقلت لها لقد أوتيت خيرا كثيرا قالت وما يذكر الا أولوا الألباب فلما مشيت بها قليلا قلت ألك زوج قالت يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم فسكت ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة فقلت لها هذه القافلة فمن لك فيها فقالت المال والبنون زينة الحياة الدنيا فعلمت أن لها أولادا فقلت وما شأنهم في الحج قالت وعلامات وبالنجم هم يهتدون فعلمت أنهم أدلاء الركب فقصدت بها القباب والعمارات فقلت هذه القباب فمن لك فيها قالت واتخذ الله ابراهيم خليلا وكلم الله موسى تكليما يا يحيي خذ الكتاب بقوة فناديت يا ابراهيم يا موسى يا يحيي فاذا أنا بشبان كأنهم الأقمار قد أقبلوا فلما استقر بهم الجلوس قالت فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه فمضى أحدهم فاشترى طعاما فقدموه بين يدي فقالت كلوا واشربوا هنيأ بما أسلفتم في الأيام الخالية فقلت الآن طعامكم علي حرام حتى تخبروني بأمرها فقالوا هذه أمنا لها منذ أربعين سنة لم تتكلم الا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن فسبحان القادر على ما يشاء فقلت ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

ناشدتك الله نسيم الصبا
أين استقرت بعد نازينب
لم تسر الا بشذاء رفها
أولا فما ذا النفس الطيب

فاطلق له ثلثمائة دينار فجاء الى أبيه وهو جالس في حانوته منكب على صنعته فوضعها في حجره وقال خذ هذه وابتع بها زيتا انتهى (حكي عن عبد العزيز بن الفضل) قال خرج القاضي أبو العباس أحمد ابن عمر بن شريح وأبو بكر بن داود وأبو عبد الله نفطويه الى وليمة فافضى بهم الطريق الى مكان ضيق فاراد كل منهم تقديم صاحبه عليه فقال ابن شريح ضيق الطريق يورث سوء الأدب فقال ابن داود لكنه تعرف به مقادير الرجال فقال نفطويه اذا استحكمت المودة بطلت التكاليف (وحكي عن شريح جد أبي العباس المشهور بالصلاح الوافر) انه كان أعجميا لا يعرف بلسان العرب شيأ فاتفق له انه رأى الباري عز وجل في النوم فحادثه وقال يا شريح طلب كن فقال يا خداي ساربسار وهذا لفظ أعجمي معناه بالعربي يا شريح اطلب فقال يا رب رأسا برأس كما يقال رضيت ان أخلص رأسا برأس (ومن لطائف المنقول) انه كان بالعقيبة ظاهر دمشق المحروسة خان تجمع فيه أسباب الملاذ ويتفق فيه من الفسوق والفجور ما لا يحد ولا يوصف فرجع ذلك الى أبي الفتح موسى بن أبي بكر العادل بن أيوب الملقب بالاشرف فهدمه وعمره جامعا وسماه الناس جامع التوبة كأنه تاب الى الله وأناب عما كان فيه وجرت في خطابته نكتة لطيفة وهي أنه كان بمدرسة الشام التي خارج البلد امام يعرف بالجمال قيل انه كان في زمان صباه يلعب بشيء من الملاهي وهي التي تسمى الجفانة ولما كبر حسنت

﴿الباب الثامن فى الاجوبة المسكتة والمستحسنة ورشقات اللسان وما جرى مجرى ذلك﴾

(قيل) ان معن بن زائدة دخل على المنصور فقال له هيه يا معن تعطى مروان بن أبي حفصة مائة ألف على قوله

معن بن زائدة الذى زادت به * شرفا على شرف بنو شيبان

فقال كلا يا أمير المؤمنين انما أعطيته على قوله

مازلت يوم الهاشمية معلنا * بالسيف دون خليفة الرحمن

فمنعت حوزته وكنت وقاءه * من وقع كل مهند وسنان

فقال أحسنت والله يا معن وأمر له بالجوائز والخلع * ووفد ابن أبي محجن على معاوية فقام خطيبا فأحسن فحسده معاوية وأراد أن يوقعه فقال له أنت الذى أوصاك أبوك بقوله

اذا مت فادفنى الى جنب كرمة * تروى عظامى بعد موتى عروقها

ولا تدفننى فى الفلاة فاننى * أخاف اذا مامت أن لا أذوقها

قال بل أنا الذى يقول أبى لا تسأل الناس ما مالى وكثرته * وسائل الناس ما جودى وما خلقى

أعطى الحسام غداة الروع حصته * وعامل الرمح أرويه من العلق * وأطعن الطعنة النجلاء عن عرض

وأكتم السر فيه ضربة العنق * ويعلم الناس أنى من سراتهم * اذا سما بصر الرعديد بالفرق

فقال له معاوية أحسنت والله يا ابن أبي محجن وأمر له بصلة وجائزة (وقيل) أخذ عبد الملك بن مروان بعض أصحاب شبيب الحارثى فقال له ألست القائل ومنا شريد والبطين وقعنب * ومنا أمير المؤمنين شبيب

فقال يا أمير المؤمنين انما قلت ومنا أمير المؤمنين شبيب وأردت بذلك منادا لك فكان ذلك سببا لنجاته * ودخل شريك بن الأعور على معاوية وكان دميما فقال له معاوية انك لدميم والجميل خير من الدميم وانك لشريك وما لله من شريك وان أباك لأعور والصحيح خير من الأعور فكيف سدت قومك فقال له انك معاوية وما معاوية الا كلبة عوت فاستعوت الكلاب وانك لابن صخر والسهل خير من الصخر وانك لابن حرب والسلم خير من الحرب وانك لابن أمية وما أمية الا أمة صغرت فكيف صرت أمير المؤمنين ثم خرج وهو يقول

أيشتمنى معاوية بن حرب * وسيفى صارم ومعى لسانى * وحولى من ذوى يزن ليوث

ضراغمة تهش الى الطعان * يعير بالدمامة من سفاه * وربات الحجال من الغوانى

ودخل يزيد بن أبي مسلم صاحب شرطة الحجاج على سليمان بن عبد الملك بعد موت الحجاج فقال له سليمان قبح الله رجلا أجرك رسنه وأولاك أمانته فقال يا أمير المؤمنين رأيتنى والأمر لك وهو عنى مدبر فلو رأيتنى وهو على مقبل لاستكبرت منى ما استصغرت واستعظمت منى ما استحقرت فقال سليمان أترى الحجاج استقر فى جهنم فقال يا أمير المؤمنين لا تقل ذلك فان الحجاج وطأ لكم المنابر وأذل لكم الجبابرة وهو يجىء يوم القيامة عن يمين أبيك وشمال أخيك فحيثما كانا كان * وقال يهودى لعلى بن أبي طالب رضى الله عنه مالكم لم تلبثوا بعد نبيكم الا خمس عشرة سنة حتى تقاتلتم فقال على كرم الله وجهه ولم أنتم لم تجف أقدامكم من البلل حتى قلتم يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة * ووجد الحجاج على منبره مكتوبا قل تمتع بكفرك قليلا انك من أصحاب النار فكتب تحته قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور * ودخل عقيل على معاوية وقد كف بصره فأجلسه معه على سريره ثم قال له أنتم معشر بنى هاشم تصابون فى أبصاركم فقال له عقيل وأنتم معشر بنى أمية تصابون فى بصائركم * وقيل اجتمعت بنو هاشم يوما عند معاوية فأقبل عليهم وقال يا بنى هاشم ان خيرى لكم لممنوح وان بابى لكم لمفتوح فلا يقطع خيرى عنكم ولا يرد بابى دونكم ولما نظرت فى أمرى وأمركم رأيت أمرا مختلفا انكم ترون أنكم أحق بما فى يدى واذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقوقكم قلتم أعطانا دون حقنا وقصر بنا عن قدرنا فصرت كالمسلوب والمسلوب لا حمد له هذا مع انصاف قائلكم واسعاف سائلكم قال فأقبل عليه ابن عباس رضى الله عنهما فقال والله ما منحتنا شيأ حتى سألناه ولا فتحت لنا بابا حتى قرعناه ولئن قطعت عنا خيرك فخير الله أوسع منك ولئن أغلقت دوننا بابا لنكفن أنفسنا عنك وأما هذا المال فليس لك منه الا ما للرجل من المسلمين ولولا حقنا فى هذا المال لم يأتك منا زائر يحمله خف ولا حافر أكفاك أم أزيدك قال كفانى يا ابن عباس * وقال معاوية يوما أيها الناس ان الله حبا قريشا بثلاث فقال لنبيه صلى الله

طريقته وعاشر العلماء وأهل الصلاح حتى صار معدودا فى الاخيار فلما احتاج الجامع المذكور الى خطيب رشح جانبه للخطابة لكثرة الثناء عليه فتولاها فلما توفى تولى بعده العماد الواسطى الواعظ وكان متهما باستعمال الشراب وكان صاحب دمشق يومئذ الملك الصالح عماد الدين اسمعيل بن العادل أيوب فكتب اليه الجمال عبد الرحيم المعروف بابن رويتينة أبياتا وهى هذه

يا مليكا أوضح الحـ
ـق لدينا وأبانه
جامع التوبة قد حمـ
ـلنى منه أمانه
قال قل للملك الصا
لح أعلى الله شانه
يا عماد الدين يا من
حمد الناس زمانه
كم الى كم أنا فى بؤ
س وضر واهانه
لى خطيب واسطى
يعشق الشرب ديانه
والذى قد كان من قبـ
ـل يغنى بجفانه
فكنحن ومازا
نا ولا أبرح حانه
ردنى للنمط الاو
ل واستبق زمانه

(ومن لطائف المنقول) ان بثينة وعزة دخلتا على عبد الملك بن مروان فانحرف الى عزة وقال أنت عزة كثير قالت لست لكثير بعزة لكننى أم بكر قال أتروين قول كثير

وقد زعمت انى تغيرت بعدها
ومن ذا الذى يا عز لا يتغير

قالت لست أروى هذا ولكننى أروى قوله

كانى أنادى أو أكلم صخرة
من الصم لو تمشى بها العصم زلت

ثم انصرف الى بثينة فقال أنت بثينة جميل قالت نعم يا أمير

عليه وسلم وانذر عشيرتك الأقربين ونحن عشيرته الأقربون وقال تعالى وانه لذكر لك ولقومك ونحن قومه وقال تعالى لايلاف قريش ايلافهم ونحن قريش فأجابه رجل من الأنصار فقال على رسلك يامعاوية فان الله تعالى يقول وكذب به قومك وهو الحق وأنتم قومه وقال تعالى ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون وأنتم قومه وقال تعالى وقال الرسول يارب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا وأنتم قومه ثلاثة بثلاثة ولو زدتنا لزدناك * وقال معاوية أيضا لرجل من اليمن ما كان أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة فقال أجهل من قومي قومك الذين قالوا حين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ولم يقولوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا اليه * وقال يوما لجارية بن قدامة ما كان أهونك على قومك اذ سموك جارية فقال ما كان أهونك على قومك اذ سموك معاوية وهي الأنثى من الكلاب قال اسكت لا أم لك قال أم لي ولدتني أما والله ان القلوب التي أبغضناك بها لبين جوانحنا والسيوف التي قاتلناك بها لفي أيدينا وانك لم تهلكنا قسوة ولم تملكنا عنوة ولكنك أعطيتنا عهدا وميثاقا وأعطيناك سمعا وطاعة فان وفيت لنا وفينا لك وان نزعت الى غير ذلك فانا تركنا وراءنا رجالا اشدادا وأسنة حدادا فقال معاوية لا أكثر الله في الناس مثلك ياجارية فقال له قل معروفا فان شر الدعاء محيط بأهله * وخطب معاوية يوما فقال ان الله تعالى يقول وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم فعلام تلومونني اذا قصرت في عطاياكم فقال له الاحنف وانا والله لا نلومك على ما في خزائن الله ولكن على ما أنزله الله لنا من خزائنه فجعلته في خزائنك وحلت بيننا وبينه * وقيل دخل مجنون الطاق يوما الى الحمام وكان بغير مئزر فرآه أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه وكان في الحمام فغمض عينيه فقال له المجنون متى أعماك الله قال حين هتك سترك (ومن ذلك) ما حكي أن الحجاج خرج يوما متنزها فلما فرغ من نزهته صرف عنه أصحابه وانفرد بنفسه فاذا هو بشيخ من بني عجل فقال له من أين أيها الشيخ قال من هذه القرية قال كيف ترون عمالكم قال شر عمال يظلمون الناس ويستحلون أموالهم قال فكيف قولك في الحجاج قال ذاك ما ولي العراق شر منه قبحه الله وقبح من استعمله قال أتعرف من أنا قال لا قال أنا الحجاج قال جعلت فداك أو تعرف من أنا قال لا قال أنا فلان بن فلان مجنون بني عجل أصرع في كل يوم مرتين قال فضحك الحجاج منه وأمر له بصلة * وقال رجل لصاحب منزل أصلح خشب هذا السقف فانه يقرقع قال لا تخف فانه يسبح قال اني أخاف أن تدركه رقة فيسجد * وقالت عجوز لزوجها أما تستحي أن تزني ولك حلال طيب قال أما حلال فنعم وأما طيب فلا * وقال ملك لوزيره ما خير ما رزقه العبد قال عقل يعيش به قال فان عدمه قال أدب يتحلى به قال فان عدمه قال مال يستره قال فان عدمه قال فصاعقة تحرقه وتريح منه العباد والبلاد وتنبأ رجل في زمن المنصور فقال له المنصور أنت نبي سفلة فقال جعلت فداك كل نبي يبعث الى شكله (ومن الاجوبة المسكتة المستحسنة) ما ذكر أن ابراهيم مغني الرشيد غنى يوما بين يديه فقال له أحسنت أحسن الله اليك فقال له يا أمير المؤمنين انما يحسن الله الي بك فأمر له بمائة ألف درهم * وقال رجل لبعض العلوية أنت بستان فقال العلوي وأنت النهر الذي يسقى منه البستان * وذبحت عائشة رضي الله تعالى عنها شاة وتصدقت بها وأفضلت منها كتفا فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم ما عندك منها فقالت ما بقي منها الا كتف فقال كلها بقي الا الكتف وقال عبد الله بن يحيى لأبي العيناء كيف الحال قال أنت الحال فانظر كيف أنت لنا فأمر له بمال جزيل وأحسن صلته وكان عمرو بن سعد بن سالم في حرس المأمون ليلة فخرج المأمون يتفقد الحرس فقال لعمرو من أنت قال عمرو عمرك الله ابن سعد أسعدك الله ابن سالم سلمك الله قال أنت تكلؤنا الليلة قال الله يكلؤك يا أمير المؤمنين وهو خير حفظا وهو أرحم الراحمين فقال المأمون

ان أخا الهيجاء من يسعى معك * ومن يضر نفسه لينفعك
ومن اذا ريب زمان صدعك * شتت فيك شمله ليجمعك

ادفعوا اليه أربعة آلاف دينار قال عمرو وددت لو أن الابيات طالت وقال المعتصم للفتح بن خاقان وهو صبي صغير أرأيت يافتح أحسن من هذا الفص لفص كان في يده قال نعم يا أمير المؤمنين اليد التي هو فيها أحسن منه

المؤمنين قال ما الذي رأى فيك جميل حتى لهج بذكرك من بين نساء العالمين قالت الذي رأى الناس فيك فجعلوك خليفتهم قال فضحك حتى بدا له ضرس أسود ولم ير قبل ذلك وفضل بثينة على عزة في الجائزة ثم أمرهما أن يدخلا على عاتكة فدخلتا عليها فقالت لعزة اخبريني عن قول كثير

قضى كل ذي دين فوفى غريمه
وعزة ممطول معنى غريمها

ما كان دينه وما كنت وعدتيه قالت كنت وعدته قبلة ثم تأثمت منها قالت عاتكة وددت انك فعلت وأنا كنت تحملت اثمها عنك ثم ندمت عاتكة واستغفرت الله تعالى وأعتقت عن هذه الكلمة أربعين رقبة انتهى (ويعجبني قول أسامة ابن منقذ في ابن طليب المصري وقد احترقت داره)

انظر الى الايام كيف تسوقنا
قسرا الى الاقرار بالاقدار
ما أوقد ابن طليب قط بداره
نارا وكان خرابها بالنار

قلت ومما يناسب هذه الواقعة ان الوجيه بن صورة المصري دلال الكتب بمصر كان له دار موصوفة بالحسن فاحترقت فعمل فيها نشو الملك المعروف بابن المنجم

أقول وقد عاينت دار ابن صورة
وللنار فيها مارج يتضرم
كذا كل مال أصله من نهاوش
فعما قليل في نهابر يعدم
وما هو الا كافر طال عمره
فجاءته لما استبطأته جهنم

قلت وهذه اللطائف تضارع قصة أبي الحسين الجزار مع بعض أهل الادب بمصر وكان شيخنا قد ظهر عليه جرب فالتطخ بالكبريت فلما سمع أبو الحسين الجزار بذلك كتب اليه

أيها السيد الاديب دعاء
من محب خال عن التنكيت

فاعجبه جوابه وأمر له بصلة وكسوة * وقيل ان رجلا سأل العباس رضى الله عنه أأنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر وأنا ولدت قبله وقال معاوية لسعيد ابن مرة الكندى أأنت سعيد قال أمير المؤمنين السعيد وأنا ابن مرة وقال المأمون للسيد بن أنس أأنت السيد قال أمير المؤمنين السيد وأنا ابن أنس وقال الحجاج للمهلب وهو يماشيه أأنا أطول أم أنت قال الأمير أطول وأنا أبسط قامة أراد الطول وهو الفضل والاجوبة بهذا المعنى كثيرة لو تتبعتها لعجزت عنها ولكنى اقتصرت على هذا وأوجزت وفيما ذكرته من ذلك كفاية وأسأل الله تعالى العون والعناية

* الباب التاسع فى ذكر الخطب والخطباء والشعر والشعراء وسرقاتهم وكبوات الجياد وهفوات الامجاد *

قيل خطب المأمون فقال عباد الله اتقوا الله وأنتم فى مهل بادروا الاجل ولا يغرنكم الأمل فكأنى بالموت قد نزل فشغلت المرء شواغله وتولت عنه فواصله وهيئت أكفانه وبكاه جيرانه وصار الى التراب الخالى بجسده البالى فهو فى التراب عفير والى ما قدم فقير * وقال الشعبى ما سمعت أحدا يخطب الا تمنيت أن يسكت مخافة أن يخطئ ما خلا زيادا فانه لا يزداد اكثارا الا ازداد احسانا (وخطب) على رضى الله عنه فقال فى خطبته عباد الله الموت الموت ليس منه فوت ان أقمتم أخذكم وان فررتم منه أدرككم الموت معقود بنواصيكم فالنجا النجا والوحا الوحا فان وراءكم طالبا حثيثا وهو القبر ألا وان القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ألا وانه يتكلم فى كل يوم ثلاث كلمات فيقول أنا بيت الظلمة أنا بيت الوحشة أنا بيت الديدان ألا وان وراء ذلك اليوم يوما أشد منه يوما يشيب فيه الصغير ويسكر فيه الكبير وتذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ألا وان وراء ذلك اليوم يوما أشد منه فيه نار تتسعر حرها شديد وقعرها بعيد وحليها حديد وماؤها صديد ليس لله فيها رحمة قال فبكى المسلمون بكاء شديدا ثم قال ألا وان وراء ذلك اليوم جنة عرضها كعرض السموات والأرض أعدت للمتقين أدخلنا الله واياكم دار النعيم وأجارنا واياكم من العذاب الأليم (وخطب) الحجاج بن يوسف فقال فى بعض خطبه ان ابراهيم بن عبد الله بن الحسن رضى الله عنه خطب بالبصرة فقال أيها الناس كل كلام فى غير ذكر فهو لغو وكل صمت فى غير فكر فهو سهو والدنيا حلم والآخرة يقظة والموت متوسط بينهما ونحن فى أضغاث أحلام * قيل اجتمع الناس عند معاوية وقام الخطباء لبيعة يزيد وأظهر قوم الكراهة فقام رجل من الخطباء من عذرة يقال له يزيد بن المقنع فاخترط من سيفه شبرا ثم قال أمير المؤمنين هذا وأشار الى معاوية ثم قال فان يهلك فهذا وأشار الى يزيد ثم قال فمن أبى فهذا وأشار الى سيفه فقال له معاوية أنت سيد الخطباء

* فصل فى ذكر الشعر والشعراء وسرقاتهم *

قيل ما استدعى شارد الشعر بمثل الماء الجارى والشرف العالى والمكان الخضر الخالى وقيل أمسك على النابغة الجعدى أربعين يوما فلم ينطق بالشعر ثم ان بنى جعدة غزوا فظفروا فاستخفه الطرب والفرح فرام الشعر فذل له ما استصعب عليه فقال له قومه والله لنحن باطلاق لسان شاعرنا أسر منا بالظفر بعدونا * وقال أبو نواس ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة منهن الخنساء وليلى فما ظنك بالرجال وقال الخليل الشعراء أمراء الكلام يتصرفون فيه كيف شاؤا جائز لهم فيه ما لا يجوز لغيرهم من اطلاق المعنى وتقييده ومن تسهيل اللفظ وتعقيده وقيل وفد زياد بن عبد الله على معاوية فقال له أقرأت القرآن قال نعم قال أفرضت الفريض قال نعم قال أرويت الشعر قال لا فكتب الى عبد الله أبا زياد بارك الله لك فى ابنك فأروه الشعر فقد وجدته كاملا وانى سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول أرووا الشعر فانه يدل على محاسن الأخلاق وينهى عن مساويها وتعلموا الانساب فرب رحم مجهولة قد وصلت بعرفان النسب وتعلموا من النجوم ما يدلكم على سبلكم فى البر والبحر ولقد هممت بالهرب يوم صفين فما ثبتنى الا قول القائل

أقول لها اذا جشأت وجاشت * مكانك تحمدى أو تستريحى

وقيل لم ير قط أعلم بالشعر والشعراء من خلف الأحمر كان يعمل الشعر على ألسنة الفحول من القدماء فلا يتميز عن مقولهم ثم تنسك فكان يختم القرآن كل يوم وليلة وبذل له بعض الملوك مالا جزيلا على أن يتكلم فى بيت من الشعر شكوا فيه فأبى * وكان الحسن بن على رضى الله عنه يعطى الشعراء فقيل له فى ذلك فقال خير مالك

أنت شيخ وقد قربت من النا
ر فكيف ادهنت بالكبريت

(قيل) ان أبا القاسم الزعفرانى مدح الصاحب ابن عباد بقصيدة نونية وانتهى الى قوله منها

وحاشية الدار يمشون فى
صنوف من الخز الا أنا

فقال الصاحب قرأت فى أخبار معن بن زائدة الشيبانى أن رجلا قال له احملنى أيها الامير فأمر له بناقة وفرس وبغل وحمار وجارية ثم قال لو علمت أن الله سبحانه وتعالى خلق مركوبا غير هذا لحملتك عليه وقد أمرنا لك من الخز بجبة وقميص وعمامة ودراعة وسراويل ومنديل ومطرف ورداء وكساء وجورب وكيس ولو علمنا لباسا من الخز لأعطيناكه (وبلغ) حديث معن المذكور للعلاء بن أيوب فقال رحم الله ابن زائدة لو كان يعلم أن الغلام يركب لامر له به ولكنه كان عربيا خالصا لم يدنس بقاذورات الأعاجم انتهى (قيل) ان بيوت الشعر أربعة فخر ومديح وهجاء ونسيب وكان جرير أفحل شعراء الاسلام فى الأربعة (فالفخر قوله)

اذا غضبت عليك بنو تميم
حسبت الناس كلهم غضابا

(والمديح قوله)

ألستم خير من ركب المطايا
وأندى العالمين بطون راح

(والهجاء قوله)

فغض الطرف انك من نمير
فلا كعبا بلغت ولا كلابا

(والنسيب قوله)

ان العيون التى فى طرفها حور
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به
وهن أضعف خلق الله انسانا

(وقال أبو عبيدة)

التقى جرير والفرزدق بمنى وهما حاجان فقال الفرزدق لجرير

فانك لاق بالمنازل من منى

ماوقيت به عرضك * وقال أبو الزناد ما رأيت أروى للشعر من عروة قلت له ما أرواك يا أبا عبد الله فقال وما روايتي مع رواية عائشة رضي الله عنها ما كان ينزل بها شئ الا أنشدت فيه شعرا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل بقول القائل كفى الاسلام والشيب للمرء ناهيا اولم ينطق به موزونا فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه أشهد أنك رسول الله حقا وتلا قوله تعالى وما علمناه الشعر وما ينبغي له (ولنذكر نبذة من سرقات الشعراء وسقطاتهم) (فمن ذلك) قول قيس بن الحطيم وهو شاعر الأوس وشجاعها

وما المال والاخلاق الا معارة * فما اسطعت من معروفها فتزود

وكيف يخفى ما أخذه مع اشتهار قصيدة طرفة بن العبد وهي معلقة على الكعبة يقول فيها

لعمرك ما الايام الا معارة * فما اسطعت من معروفها فتزود

(ومن ذلك) قول عبدة بن الطبيب

فما كان قيس هلكه هلك واحد * ولكنه بنيان قوم تهدما

أخذه من قول امرئ القيس فلو أنها نفس تموت سوية * ولكنها نفس تساقط أنفسا

ويقال من سرق شيأ واسترقه فقد استحقه وهو أن يسرق الشاعر المعنى دون اللفظ * فمن السرقة الفاحشة قول كثير في عبد الملك بن مروان

اذا ما أراد الغزو لم يثن همه * حصان عليها عقد در يزينها

أخذه من قول الحطيئة ولم يغير سوى الروي

اذا ما أراد الغزو لم يثن همه * حصان عليها لؤلؤ وشنوف

وجرير على سعة بحره وقدرته على غرر الشعر وابتكار الكلام نقل قوله

فلو كان الخلود بفضل قوم * على قوم لكان لنا الخلود

من قول زهير وهو شعر مشهور يحفظه الصبيان وترويه النسوان وهو

فلو كان حمد يخلد المرء لم يمت * ولكن حمد المرء غير مخلد

وقد قال الشماخ وأمر ترجى النفس ليس بنافع * وآخر تخشى ضيره لا يضيرها

وهو مأخوذ من قول الآخر ترجى النفوس الشئ لا تستطيعه * وتخشى من الأشياء مالا يضيرها

وأبو تمام مع قوته وقدرته على الكلام يقول

وأحسن من نور تفتحه الصبا * بياض العطايا في سواد المطالب

أخذه من قول الاخطل رأيت بياضا في سواد كأنه * بياض العطايا في سواد المطالب

(ومن سقطات الشعراء) ما قيل ان أبا العتاهية كان مع تقدمه في الشعر كثير السقط روى أنه لقي محمد ابن مبادر بمكة فمازحه وضاحكه ثم انه دخل على الرشيد فقال يا أمير المؤمنين هذا شاعر البصرة يقول قصيدة في كل سنة وأنا أقول في كل سنة مائتي قصيدة فأدخله الرشيد اليه وقال ما هذا الذي يقول أبو العتاهية فقال يا أمير المؤمنين لو كنت أقول كما يقول ألا يا عتبة الساعه * أموت الساعة الساعة

لقلت كثيرا ولكني أقول ابن عبد الحميد يوم توفي * هد ركنا ما كان بالمهدود

مادري نعشه ولا حاملوه * ما على النعش من عفاف وجود

فأعجب الرشيد قوله وأمر له بعشرة آلاف درهم فكاد أبو العتاهية يموت غما وأسفا وكان بشار بن برد يسمونه أبا المحدثين ويسلمون اليه في الفضيلة والسبق وبعض أهل اللغة يستشهد بشعره ومع ذلك قال

انما عظم سليمى حبتي * قصب السكر لا عظم الجمل

واذا أدنيت منها بصلا * غلب المسك على ريح البصل

هذا مع قوله اذا قامت لمشيتها تثنت * كأن عظامها من خيزران

ومع قوله في الفخر كأن مثار النقع فوق رؤسنا * وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ومع قوله أيضا اذا أنت لم تشرب مرارا على القذى * ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

وأبو الطيب المتنبي في فضله المشهور وأخذه بزمام الكلام وقوته على رقائق المعاني وعلى ما في شعره من الحكم والامثال

نفارا فأخبرني بما أنت فاخر

فقال له جرير بلبيك اللهم لبيك قال أبو عبيدة أصحابنا يستحسنون هذا الجواب من جرير ويعجبون منه (قيل) لما استخلف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وفد الشعراء اليه وأقاموا ببابه أياما لا يؤذن لهم فبينما هم كذلك اذ مر بهم رجاء بن حيوة وكان جليس عمر فلما رآه جرير داخلا قام اليه وأنشده

يا أيها الرجل المرخي عمامته

هذا زمانك فاستأذن لنا عمرا

فدخل عليه ولم يذكر له شيأ من أمرهم ثم مر بهم عدي بن ارطاة فقال جرير أبياتا آخرها قوله

لا تنس حاجتنا لقيت مغفرة

قد طال مكثي عن أهلي وأوطاني

قال فدخل عدي على عمر فقال يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة قال ويحك يا عدي مالي وللشعراء قال أعز الله أمير المؤمنين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد امتدح وأعطى ولك في رسول الله عليه الصلاة والسلام اسوة حسنة قال كيف قال امتدحه العباس بن مرداس السلمي فأعطاه حلة فقطع بها لسانه قال أوتروي من قوله شيأ قال نعم قوله

رأيتك يا خير البرية كلها

نشرت كتابا جاء بالحق معلما

شرعت لنا دين الهدى بعد جورنا

عن الحق لما أصبح الحق مظلما

ونورت بالبرهان أمرا مدلسا

وأطفأت بالاسلام نارا تضرما

فمن مبلغ عني النبي محمدا

وكل امرئ يجزى بما كان قدما

أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجه

وكان قديما ركنه قد تهدما

فقال عمر ويلك يا عدي من بالباب منهم قال عمر بن أبي ربيعة قال أليس هو الذي يقول

ثم نبهتها فمدت كعابا * طفلة ما تبين

والامثال السائرة يقول وضاقت الارض حتى صار هارب بهم * اذا رأى غير شيء ظنه رجلا
وغير شيء معناه المعدوم والمعدوم لا يرى فهذا سقط فاحش * ومما يستهجن من قوله وتكاد أن تمجه الاسماع
قوله تقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا * قلاقل عيش كلهن قلاقل
وقوله وقد جمع بين قبح اللفظ و برودة المعنى
ان كان مثلك كان أو هو كائن * فبرئت حينئذ من الاسلام
ومن معانيه المسروقة قوله ونهب نفوس أهل النهب أولى * باهل المجد من نهب القماش
أخذه من قول أبي تمام ان الاسود أسود الغاب همتها * يوم الكريهة فى المسلوب لا السلب
قال أبو عبد الله الزبيرى اجتمع راوية جرير وراوية كثير وراوية جميل وراوية الاحوص وراوية نصيب فافتخر كل منهم وقال صاحبي أشعر فحكموا السيدة سكينة بنت الحسين رضى الله تعالى عنهما بينهم لعقلها وتبصرها بالشعر فخرجوا حتى استأذنوا عليها وذكروا لها أمرهم فقالت لراوية جرير أليس صاحبك الذى يقول طرقتك صائدة القلوب وليس ذا * وقت الزيارة فارجعى بسلام
وأى ساعة أحلى من الزيارة بالطروق قبح الله صاحبك وقبح شعره فهلا قال فادخلى بسلام ثم قالت لراوية كثير أليس صاحبك الذى يقول يقر بعيني ما يقر بعينها * وأحسن شيء ما به العين قرت
وليس شيء أقر بعينها من النكاح أيحب صاحبك ان ينكح قبح الله صاحبك وقبح شعره ثم قالت لراوية جميل أليس صاحبك الذى يقول فلو تركت عقلي معي ما طلبتها * ولكن طلابيها لما فات من عقلي
فما أراه هوى وانما طلب عقله قبح الله صاحبك وقبح شعره ثم قالت لراوية نصيب أليس صاحبك الذى يقول
أهيم بدعد ما حييت فان أمت * فواحزني من ذا يهيم بها بعدي
فماله همة الا من يتعشقها بعده قبحه الله وقبح شعره هلا قال
أهيم بدعد ما حييت فان أمت * فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى
ثم قالت لراوية الاحوص أليس صاحبك الذى يقول
من عاشقين تواعدا وتراسلا * ليلا اذا نجم الثريا حلقا
باتا بانعم ليلة وألذها * حتى اذا وضح الصباح تفرقا
قبحه الله وقبح شعره هلا قال تعانقا فلم تثن على واحد منهم وأحجم رواتهم عن جوابها رضى الله عنها (وروى) ابن الكلبي قال لما أفضت الخلافة الى عمر بن عبد العزيز وفدت اليه الشعراء كما كانت تفد على الخلفاء من قبله فأقاموا ببابه أياما لا يؤذن لهم فى الدخول حتى قدم عدى بن ارطاة عليه وكان منه بمكانة فتعرض له جرير وقال
يا أيها الرجل المزجى مطيته * هذا زمانك انى قد خلا زمنى
أبلغ خليفتنا ان كنت لاقيه * أنى لدى الباب كالمشدود فى قرن
لا تنس حاجتنا لاقيت مغفرة * قد طال مكثي عن أهلي وعن وطني
فقال نعم يا أبا عبد الله فلما دخل على عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه قال يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك وألسنتهم مسمومة وسهامهم صائبة فقال عمر رضى الله عنه مالى وللشعراء فقال يا أمير المؤمنين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مدح فأعطى وفيه اسوة لكل مسلم قال صدقت فمن بالباب منهم قال ابن عمك عمر بن أبي ربيعة القرشي قال لا قرب الله قرابته ولا حيا وجهه أليس هو القائل
ألا ليتني فى يوم تدنو منيتي * شممت الذى ما بين عينيك والفم
وليت طهورى كان ريقك كله * وليت حنوطى من مشاشك والدم
و ياليت سلمى فى القبور ضجيعتى * هنالك أو فى جنة أو جهنم
فليته عدو الله تمنى لقاءها فى الدنيا ثم يعمل عملا صالحا والله لا يدخل على أبدا فمن بالباب غيره ممن ذكرت قال جميل بن معمر العذرى قال أليس هو القائل
ألا ليتنا نحيا جميعا فان نمت * يوافى لدى الموت ضريحي ضريحها
فما أنا فى طول الحياة براغب * اذا قيل قد سوى عليها صفيحها
أظل نهارى لا أراها وتلتقى * مع الليل روحى فى المنام وروحها
والله لا يدخل على أبدا فمن بالباب غيره ممن ذكرت قال كثير عزة قال أليس هو القائل
رهبان مدين والذين عهدتهم * يبكون من حذر العذاب قعودا

رجع الكلام * ساعة ثم انها بعد قالت
* و يلنا قد عجلت يا ابن الكرام *
فلو كان عدو الله اذ فجر كتم على نفسه لكان استر له لا يدخل والله على أبدا فمن بالباب سواه قال الفرزدق قال أو ليس الذى يقول
هما دلتاني من ثمانين قامة
كما انقض باز أقتم الريش كاسره
فلما استوت رجلاى فى الأرض قالتا
أحى فيرجى أم قتيل نحاذره
لا يدخل على والله فمن بالباب سواه قال الأخطل قال يا عدى هو الذى يقول
ولست بصائم رمضان طوعا
ولست بآكل لحم الأضاحى
ولست بزاجر عيسا بكورا
الى بطحاء مكة للنجاح
ولست بزائر بيتا عتيقا
بمكة أبتغى فيه صلاحى
ولست بقائم بالليل أدعو
قبيل الصبح حى على الفلاح
ولكني سأشربها شمولا
وأسجد عند منبلج الصباح
والله لا يدخل على وهو كافر أبدا فمن بالباب سوى من ذكرت قال الاحوص قال أليس الذى يقول
الله بيني و بين سيدها
يفر منى بها وأتبعه
فما هو بدون من ذكرت فمن هنا أيضا قال جميل بن معمر قال أليس هو الذى يقول
ألا ليتنا نحيا جميعا وان أمت
يوافق فى الموتى ضريحى ضريحها
فلو كان عدو الله تمنى لقاءها فى الدنيا ليعمل بعد ذلك صالحا لكان أصلح والله لا يدخل على أبدا فهل سوى من ذكرت أحد قال جرير قال أما هو الذى يقول
طرقتك صائدة القلوب وليس ذا
وقت الزيارة فارجعى بسلام
فان كان ولا بد فهو الذى يدخل فلما مثل بين يديه قال يا جرير اتق الله ولا تقل الا حقا فأنشده قصيدته

لو يسمعون كما سمعت حديثها * خروا لعزة ركعا وسجودا

أبعده الله فوالله لا يدخل على أبدا فمن بالباب غيره ممن ذكرت قال الاحوص الانصارى قال أبعده الله والله لا دخل على أبدا أليس هو القائل وقد أفسد على رجل من أهل المدينة جاريته حتى هرب بها منه

الله بينى وبين سيدها * يفر منى بها وأتبعه

فمن بالباب غيره ممن ذكرت قال همام بن غالب الفرزدق قال أليس هو القائل يفتخر بالزنا فى قوله

هما دلتانى من ثمانين قامة * كما انقض بازلين الريش كاسره

فلما استوت رجلاى فى الارض قالتا * أحى فيرجى أم قتيل نحاذره

فقلت ارفعوا الاحراس لا يفطنوا بنا * ووليت فى أعقاب ليل أبادره

والله لا دخل على أبدا فمن بالباب غيره ممن ذكرت قال الاخطل التغلبى قال أليس هو القائل

ولست بصائم رمضان عمرى * ولست بآكل لحم الاضاحى

ولست بزاجر عيسا بكورا * الى اطلال مكة بالنجاح

ولست بقائم كالعبد يدعو * قبيل الصبح حى على الفلاح

ولكنى سأشربها شمولا * وأسجد عند منبلج الصباح

أبعده الله عنى فوالله لا دخل على أبدا ولا وطئ لى بساطا وهو كافر فمن بالباب غيره من الشعراء ممن ذكرت قال جرير قال أليس هو القائل

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا * وقت الزيارة فارجعى بسلام

فان كان ولا بد فهذا فأذن له قال عدى بن ارطاة فخرجت فقلت ادخل يا جرير فدخل وهو يقول

ان الذى بعث النبى محمدا * جعل الخلافة فى الامام العادل

وسع الخلائق عدله ووقاره * حتى ارعووا وأقام ميل المائل

انى لأرجو منه نفعا عاجلا * والنفس مولعة بحب العاجل

والله أنزل فى الكتاب فريضة * لابن السبيل وللفقير العائل

فلما مثل بين يديه قال يا جرير اتق الله ولا تقل الا حقا فأنشأ يقول

كم باليمامة من شعثاء أرملة * ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر

ممن بعدلك يكفى فقد والده * كالفرخ فى العش لم يدرج ولم يطر

أأذكر الجهد والبلوى التى نزلت * أم قد كفانى ما بلغت من خبرى

انا لنرجو اذا ما الغيث أخلفنا * من الخليفة ما نرجوا من المطر

ان الخلافة جاءته على قدر * كما أتى ربه موسى على قدر

هذى الارامل قد قضيت حاجتها * فمن لحاجة هذا الارمل الذكر

الخير مادمت حيا لا يفارقنا * بوركت يا عمر الخيرات من عمر

فقال والله يا جرير لقد وافيت الامر ولا أملك الا ثلاثين دينارا فعشرة أخذها عبد الله ابنى وعشرة أخذتها أم عبد الله ثم قال لخادمه ادفع اليه العشرة الثالثة فقال والله يا أمير المؤمنين انها لاحب مال اكتسبته ثم خرج فقال له الشعراء ماوراءك يا جرير فقال ورائى ما يسوء كم خرجت من عند أمير يعطى الفقراء ويمنع الشعراء واننى عنه لراض ثم أنشأ يقول

رأيت رقى الجن لا يستفزه * وقد كان شيطانى من الجن راقيا

﴿ومما جاء فى كبوات الجياد وهفوات الامجاد﴾

قال الاحنف الشريف من عدت سقطاته وقلت عثراته وقالوا كل صارم ينبو وكل جواد يكبو وكان الاحنف بن قيس حليما سيدا يضرب به المثل وقد عدت له سقطة وهو ان عمرو بن الاهتم دس اليه رجلا يسفهه فقال يا أبا بحر ما كان أبوك فى قومه قال كان أوسطهم وسيدهم ولم يتخلف عنهم فرجع اليه ثانيا ففطن انه من قبل عمرو بن الاهتم فقال ما كان أبوك قال كانت له فتوة ومروأة ومكارم أخلاق ولم يكن أهتم سلاحا وقال سعيد بن المسيب ما فاتنى الاذان فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أربعين سنة ثم قام يريد الصلاة فوجد الناس قد خرجوا من المسجد وقال قتادة ما نسيت شيأ قط ثم قال يا غلام ناولنى نعلى قال انتعل فى رجلك وكان هشام بن عبد الملك من رجال بنى أمية ودهاتهم وقد عدت له سقطات منها ان الحادى حدا به يوما فقال

ان عليك أيها البختى * أكرم من تمشى به المطى

فقال هشام صدقت وذكر عنده سليمان أخوه فقال والله لاشكونه يوم القيامة الى أمير المؤمنين عبد الملك

الرائية المشهورة التى منها

انا لنرجوا اذا ما الغيث أخلفنا
من الخليفة ما نرجوا من المطر
نال الخلافة أو كانت له قدرا
كما أتى ربه موسى على قدر
هذى الارامل قد قضيت حاجتها
فمن لحاجة هذا الارمل الذكر
الخير مادمت حيا لا يفارقنا
بوركت يا عمر الخيرات من عمر

فقال يا جرير ما أرى لك فيما ههنا حقا قال بلى يا أمير المؤمنين انى ابن سبيل ومنقطع فقال له ويحك يا جرير قد ولينا هذا الامر ولا نملك الا ثلثمائة درهم فمائة أخذها عبد الله ومائة أخذتها أم عبد الله يا غلام أعطه المائة الباقية قال فأخذها جرير وقال والله لهى أحب الى مما اكتسبته ثم خرج فقال له الشعراء ماوراءك فقال ما يسوء كم خرجت من عند خليفة يعطى الفقراء ويمنع الشعراء وانى عليه لراض وأنشد

رأيت رقى الشيطان لا تستفزه
وقد كان شيطانى من الجن راقيا

(ومن لطائف الظرف) ما حدث ابراهيم بن المهدى قال قال لى جعفر يوما انى استأذنت أمير المؤمنين فى الخلوة غدا فهل أنت مساعدى فقلت جعلت فداك أنا أسعد بمساعدتك وأسر بمحادثتك قال فبكر الى بكور الغراب قال فأتيته عند الفجر فوجدت الشمعة بين يديه وهو ينتظرنى للميعاد فصلينا ثم افضنا الى الحديث وقدم الطعام فأكلنا فلما غسلنا أيدينا خلعت علينا ثياب المنادمة ثم ضمخنا بالخلوق ومدت الستائر ثم انه ذكر حاجة فدعا الحاجب فقال اذا أتى عبد الملك فائذن له يعنى قهرمانه فاتفق ان جاء عبد الملك بن صالح الهاشمى شيخ الرشيد وهو من جلالة القدر والورع والامتناع من منادمة أمير المؤمنين على أمر جليل وكان

ولما ولى الخلافة قال الحمد لله الذى أنقذنى من النار بهذا المقام قال النابغة أى الرجال المهذب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿الباب العاشر فى التوكل على الله تعالى والرضا بما قسم والقناعة وذم الحرص والطمع وما أشبه ذلك وفيه فصول﴾

﴿الفصل الاول فى التوكل على الله تعالى﴾ قال الله تعالى وتوكل على الحى الذى لا يموت وقال تعالى وعلى ربهم يتوكلون وقال تعالى ومن يتوكل على الله فهو حسبه وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير رواه مسلم قيل معناه متوكلون وقيل قلوبهم رقيقة وعن البراء بن عازب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتعود بطانا وأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام يا داود من دعانى أجبته ومن استغاثنى أغثته ومن استنصرنى نصرته ومن توكل على كفيته فأنا كافى المتوكلين وناصر المستنصرين وغياث المستغيثين ومجيب الداعين (حكى) انه كان فى زمن هرون الرشيد قد حصل للناس غلاء سعر وضيق حال حتى اشتد الكرب على الناس اشتدادا عظيما فأمر الخليفة هرون الرشيد الناس بكثرة الدعاء والبكاء وأمر بكسر آلات الطرب ففى بعض الايام رؤى عبد يصفق ويرقص ويغنى فحمل الى الخليفة هرون الرشيد فسأله عن فعله ذلك من دون الناس فقال ان سيدى عنده خزانة بر وأنا متوكل عليه أن يطعمنى منها فلهذا أنا ذا لا أبالى فأنا أرقص وأفرح فعند ذلك قال الخليفة اذا كان هذا قد توكل على مخلوق مثله فالتوكل على الله أولى فسلم للناس أحوالهم وأمرهم بالتوكل على الله تعالى (وحكى) أن حاتما الاصم كان رجلا كثير العيال وكان له أولاد ذكور واناث ولم يكن يملك حبة واحدة وكان قدمه التوكل فجلس ذات ليلة مع أصحابه يتحدث معهم فتعرضوا لذكر الحج فداخل الشوق قلبه ثم دخل على أولاده فجلس معهم يحدثهم ثم قال لهم لو أذنتم لابيكم أن يذهب الى بيت ربه فى هذا العام حاجا ويدعو لكم ماذا عليكم لو فعلتم فقالت زوجته وأولاده أنت على هذه الحالة لا تملك شيأ ونحن على ماترى من الفاقة فكيف تريد ذلك ونحن بهذه الحالة وكان له ابنة صغيرة فقالت ماذا عليكم لو أذنتم له ولا يهمكم ذلك دعوه يذهب حيث شاء فانه مناول للرزق وليس برزاق فذكرتهم ذلك فقالوا صدقت والله هذه الصغيرة يا أبانا انطلق حيث أحببت فقام من وقته وساعته وأحرم بالحج وخرج مسافرا وأصبح أهل بيته يدخل عليهم جيرانهم يوبخونهم كيف أذنوا له بالحج وتأسف على فراقه أصحابه وجيرانه فجعل أولاده يلومون تلك الصغيرة ويقولون لو سكت ما تكلمنا فرفعت الصغيرة طرفها الى السماء وقالت الهى وسيدى ومولاى عودت القوم بفضلك وأنك لا تضيعهم فلا تخيبهم ولا تخجلنى معهم فبينما هم على هذه الحالة اذ خرج أمير البلدة متصيدا فانقطع عن عسكره وأصحابه فحصل له عطش شديد فاجتاز بيت الرجل الصالح حاتم الأصم فاستسقى منهم ماء وقرع الباب فقالوا من أنت قال الأمير ببابكم يستسقيكم فرفعت زوجة حاتم رأسها الى السماء وقالت الهى وسيدى سبحانك البارحة بتنا جياعا واليوم يقف الأمير على بابنا يستسقينا ثم انها أخذت كوزا جديدا وملأته ماء وقالت للمتناول منها اعذرونا فاخذ الأمير الكوز فشرب منه فاستطاب الشرب من ذلك الماء فقال هذه الدار لأمير فقالوا لا والله بل لعبد من عباد الله الصالحين يعرف بحاتم الأصم فقال الأمير لقد سمعت به فقال الوزير يا سيدى لقد سمعت انه البارحة أحرم بالحج وسافر ولم يخلف لعياله شيأ وأخبرت انهم البارحة باتوا جياعا فقال الأمير ونحن أيضا قد ثقلنا عليهم اليوم وليس من المروأة أن يثقل مثلنا على مثلهم ثم حل الأمير منطقته من وسطه ورمى بها فى الدار ثم قال لأصحابه من أحبنى فليلق منطقته فحل جميع أصحابه مناطقهم ورموا بها اليهم ثم انصرفوا فقال الوزير السلام عليكم أهل البيت لآتينكم الساعة بثمن هذه المناطق فلما نزل الأمير رجع اليهم الوزير ودفع اليهم ثمن المناطق مالا جزيلا واستردها منهم فلما رأت الصبية الصغيرة ذلك بكت بكاء شديدا فقالوا لها ما هذا البكاء انما يجب أن تفرحى فان الله قد وسع علينا فقالت يا أم والله انما بكائى كيف بتنا البارحة جياعا فنظر الينا مخلوق نظرة واحدة فأغنانا بعد فقرنا فالكريم الخالق اذا نظر الينا لا يكلنا الى أحد طرفة عين اللهم انظر الى أبينا ودبره بأحسن التدبير هذا ما كان من أمرهم ﴿وأما ما كان من أمر حاتم أبيهم فانه لما خرج محرما ولحق بالقوم توجع

الرشيد قد اجتهد أن يشرب معه قدحا واحدا فلم يقدر عليه ترفعا لنفسه فلما رفع الستر وطلع علينا سقط فى أيدينا وعلمنا أن الحاجب قد غلط بينه وبين عبد الملك القهرمان فأعظم جعفر ذلك وارتاع له ثم قام اجلالا له فلما نظر الى تلك الحال دعا غلامه فدفع اليه سيفه وعمامته ثم قال اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم قال فجاء اليه الغلمان فطرحوا عليه الثياب الحرير وضمخوه ودعى بالطعام فطعم وشرب ثلاثا ثم قال ليخفف عنى فانه شئ ما شربته والله فتهلل وجه جعفر وفرح ثم التفت اليه فقال جعلت فداءك بالغت فى الخير والفضل فهل من حاجة تبلغ اليها قدرتى وتحيط بها نعمتى فاقضيها مكافأة لما صنعت قال بلى ان فى قلب أمير المؤمنين على غضبا فتسأله الرضا عنى فقال له جعفر قد رضى أمير المؤمنين عنك ثم قال وعلى عشرة آلاف دينار فقال هى لك حاضرة من مالى ومن مال أمير المؤمنين مثلها ثم قال وابنى ابراهيم أحب أن أشد ظهره بصهر من أمير المؤمنين قال قد زوجه أمير المؤمنين ابنته العالية قال وأحب أن تخفق على رأسه الالوية قال قد ولاه أمير المؤمنين مصر فانصرف عبد الملك بن صالح قال ابراهيم بن المهدى فبقيت متحيرا متعجبا من اقدام جعفر على أمير المؤمنين من غير استئذان وقلت عسى أن يجيبه فيما سأل من الرضا والمال والولاية ولكن من أطلق لجعفر أو لغيره تزويج بنات الرشيد فلما كان من الغد بكرت الى باب الرشيد لأرى ما يكون فدخل جعفر فلم يلبث حتى دعا بأبى يوسف القاضى وابراهيم ابن عبد الملك بن صالح فخرج ابراهيم وقد عقد نكاحه بالعالية بنت الرشيد وعقد له على مصر

أمير الركب فطلبوا له طبيبا فلم يجدوا فقال هل من عبد صالح فدل على حاتم فلما دخل عليه وكلمه دعا له فعوفي الأمير من وقته فأمر له بما يركب وما يأكل وما يشرب فنام تلك الليلة متفكرا في أمر عياله فقيل له في منامه يا حاتم من أصلح معاملته معنا أصلحنا معاملتنا معه ثم أخبر بما كان من أمر عياله فأكثر الثناء على الله تعالى فلما قضى حجه ورجع تلقته أولاده فعانق الصبية الصغيرة وبكى ثم قال صغار قوم كبار قوم آخرين ان الله لا ينظر الى أكبركم ولكن ينظر الى أعرفكم به فعليكم بمعرفته والاتكال عليه فانه من توكل على الله فهو حسبه * ومن كلام الحكماء من أيقن أن الرزق الذي قسم له لا يفوته تعجل الراحة ومن علم أن الذي قضى عليه لم يكن ليخطئه فقد استراح من الجزع ومن علم أن مولاه خير له من العباد فقصده كفاه همه وجمع شمله وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم يوما فقال يا غلام اني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعت على أن تضرك بشيء لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الصحف وجفت الأقلام ﴿ورفع﴾ الى الرشيد أن بدمشق رجلا من بني أمية عظيم المال والجاه كثير الخيل والجند يخشى على المملكة منه وكان الرشيد يومئذ بالكوفة قال منارة خادم الرشيد فاستدعاني الرشيد وقال اركب الساعة الى دمشق وخذ معك مائة غلام وائتني بفلان الأموي وهذا كتابي الى العامل لا توصله له الا اذا امتنع عليك فاذا أجاب فقيده وعادله بعد أن تحصي جميع ما تراه وما يتكلم به واذكر لي حاله وما آله وقد أجلتك لذهابك ستا ولمجيئك ستا ولاقامتك يوما أفهمت قلت نعم قال فسر على بركة الله فخرجت أطوي المنازل ليلا ونهارا لا أنزل الا للصلاة أو لقضاء حاجة حتى وصلت ليلة السابع باب دمشق فلما فتح الباب دخلت قاصدا نحو دار الأموي فاذا هي دار عظيمة هائلة ونعمة طائلة وخدم وحشم وهيئة ظاهرة وحشمة وافرة ومصاطب متسعة وغلمان فيها جلوس فهجمت على الدار بغير اذن فبهتوا وسألوا عني فقيل لهم ان هذا رسول أمير المؤمنين فلما صرت في وسط الدار رأيت أقواما محتشمين فظننت أن المطلوب فيهم فسألت عنه فقيل لي هو في الحمام فأكرموني وأجلسوني وأمروا بمن معي ومن صحبني الى مكان آخر وأنا أتفقد الدار وأتأمل الأحوال حتى أقبل الرجل من الحمام ومعه جماعة كثيرة من كهول وشبان وحفدة وغلمان فسلم علي وسألني عن أمير المؤمنين فأخبرته أنه بعافية فحمد الله تعالى ثم أحضرت له أطباق الفاكهة فقال تقدم يا منارة كل معنا فقلت تأملت تأملا كثيرا اذ لم يمكنني فقلت ما آكل فلم يعاودني ورأيت ما لم أره الا في دار الخلافة ثم قدم الطعام فوالله ما رأيت أحسن ترتيبا ولا أعطر رائحة ولا أكثر آنية منه فقال تقدم يا منارة فكل قلت ليس لي به حاجة فلم يعاودني ونظرت الى أصحابي فلم أجد أحدا منهم عندي فحرت لكثرة حفدته وعدم من عندي فلما غسل يديه أحضر له البخور فتبخر ثم قام فصلى الظهر فأتم الركوع والسجود وأكثر من الركوع بعدها فلما فرغ استقبلني وقال ما أقدمك يا منارة فناولته كتاب أمير المؤمنين فقبله ووضعه على رأسه ثم فضه وقرأه فلما فرغ من قراءته استدعى جميع بنيه وخواص أصحابه وغلمانه وسائر عياله فضاقت الدار بهم على سعتها فطار عقلي وما شككت أنه يريد القبض علي فقال الطلاق يلزمه والحج والعتق والصدقة وسائر أيمان البيعة لا يجتمع منكم اثنان في مكان واحد حتى ينكشف أمره ثم أوصاهم على الحريم ثم استقبلني وقدم رجليه وقال هات يا منارة قيودك فدعوت الحداد فقيده وحمل حتى وضع في المحمل وركبت معه في المحمل وسرنا فلما صرنا في ظاهر دمشق ابتدأ يحدثني بانبساط ويقول هذه الضيعة لي تعمل في كل سنة بكذا وكذا وهذا البستان لي وفيه من غرائب الأشجار وطيب الثمار كذا وكذا وهذه المزارع يحصل لي منها كل سنة كذا وكذا فقلت يا هذا ألست تعلم أن أمير المؤمنين أهمه أمرك حتى أنفذني خلفك وهو بالكوفة ينتظرك وأنت ذاهب اليه ما تدري ما تقدم عليه وقد أخرجتك من منزلك ومن بين أهلك ونعمتك وحيدا فريدا وأنت تحدثني حديثا غير مفيد ولا نافع لك ولا سألتك عنه وكان شغلك بنفسك أولى بك فقال انا لله وانا اليه راجعون لقد أخطأت فراستي فيك يا منارة ما ظننت انك عند الخليفة بهذه المكانة الا لوفور عقلك فاذا أنت جاهل عامي لا تصلح لمخاطبة الخلفاء أما خروجي على ما ذكرت فاني على ثقة من ربي الذي بيده ناصيتي وناصية أمير المؤمنين فهو لا يضر ولا ينفع الا بمشيئة الله تعالى فان كان قد قضى علي بأمر فلا حيلة لي بدفعه ولا قدرة لي على منعه وان لم يكن قد قدر الله

والرايات والألوية بين يديه وحملت البدر الى منزل عبد الملك وخرج جعفر وأشار الينا فقال تعلقت قلوبكم بحديث عبد الملك فأحببتم علم آخره لما دخلت على أمير المؤمنين ومثلت بين يديه قال كيف كان يومك يا جعفر فقصصت عليه القصة حتى بلغت الى دخول عبد الملك وكان متكئا فاستوى جالسا وقال ايه ولله أبوك فقلت سألني في رضا أمير المؤمنين قال فبم أجبت قلت قد رضي أمير المؤمنين عنك قال قد رضيت ثم ماذا قلت وذكر أن عليه عشرة آلاف دينار قال فبم أجبته قلت قد قضاها أمير المؤمنين عنك قال قد قضيت قلت وذكر أنه راغب في أن يشد ظهر ولده ابراهيم بصهر منك قال فبم أجبته قلت قد زوجه أمير المؤمنين ابنته العالية قال قد أمضيت ذلك ثم ماذا لله أبوك قلت وذكر أنه يشتهي أن تخفق على رأس ولده ابراهيم الألوية قال فبم أجبته قلت قد ولاه أمير المؤمنين مصر قال قد وليته فأحضر ابراهيم والقضاة والفقهاء وأتم له جميع ذلك من ساعته قال ابراهيم بن المهدي فوالله ما أدري أيهم أكرم وأعجب ما ابتدأه عبد الملك من الموافقة وشرب الخمر ولم يكن شربها قط ولباسه ما لبس من لبسه من ثياب المنادمة أم اقدام جعفر على الرشيد بما أقدم أم امضاء الرشيد جميع ما حكم به جعفر عليه (ومن لطائف المنقول) ما حكي عن أبي معشر البلخي المنجم الامام المصنف صاحب التصانيف المفيدة في علم النجوم قيل انه كان متصلا بخدمة بعض الملوك وان ذلك الملك طلب رجلا من أتباعه وأكابر دولته ليعاقبه بسبب جريمة صدرت منه فاستخفى وعلم أن أبا معشر يدل عليه بالطريقة التي يستخرج بها

على بشئ فلو اجتمع أمير المؤمنين وسائر من على وجه الأرض على أن يضروني لم يستطيعوا ذلك الا باذن الله تعالى وما لى ذنب فأخاف وانما هذا واش وشى عند أمير المؤمنين ببهتان وأمير المؤمنين كامل العقل فاذا اطلع على براءتى فهو لا يستحل مضرتى وعلى عهد الله لا كلمتك بعدها الا جوابا ثم أعرض عنى وأقبل على التلاوة ومازال كذلك حتى وافينا الكوفة بكرة اليوم الثالث عشر واذا النجب قد استقبلتنا من عند أمير المؤمنين تكشف عن أخبارنا فلما دخلت على الرشيد قبلت الأرض فقال هاتِ يامنارة أخبرنى من يوم خروجك عنى الى يوم قدومك على فابتدأت أحدثه بأمورى كلها مفصلة والغضب يظهر فى وجهه فلما انتهيت الى جمعه لاولاده وغلمانه وخواصه وضيق الدار بهم وتفقدى لأصحابى فلم أجد منهم أحدا اسود وجهه فلما ذكرت عينه عليهم تلك الأعيان المغلظة تهلل وجهه فلما قلت انه قدم رجليه أسفر وجهه واستبشر فلما أخبرته بحديثى معه فى ضياعه وبساتينه وما قلت له وما قال لى قال هذا رجل محسود على نعمته ومكذوب عليه وقد أزعجناه وأرعبناه وشوشنا عليه وعلى أولاده وأهله اخرج اليه وانزع قيوده وفكه وأدخله على مكرما ففعلت فلما دخل قبل الارض فرحب به أمير المؤمنين وأجلسه واعتذر اليه فتكلم بكلام فصيح فقال له أمير المؤمنين سل حوائجك فقال سرعة رجوعى الى بلدى وجمع شملى بأهلى وولدى قال هذا كائن فسل غيره قال عدل أمير المؤمنين فى عماله ما أحوجنى الى سؤال قال فخلع عليه أمير المؤمنين ثم قال يامنارة اركب الساعة معه حتى ترده الى المكان الذى أخذته منه قم فى حفظ الله وودائعه ورعايته ولا تقطع أخبارك عنا وحوائجك فانظر الى حسن توكله على خالقه فانه من توكل عليه كفاه ومن دعاه لباه ومن سأله أعطاه ماتمناه وروى أن هذه الكلمات وجدها كعب الأحبار مكتوبة فى التوراة فكتبها وهى يا ابن آدم لاتخافن من ذى سلطان مادام سلطانى باقيا وسلطانى لا ينفد أبدا يا ابن آدم لا تخش من ضيق الرزق مادامت خزائنى ملآنة وخزائنى لاتنفد أبدا يا ابن آدم لا تأنس بغيرى وأنا لك فان طلبتنى وجدتنى وان أنست بغيرى فتك وفاتك الخير كله يا ابن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب وقسمت رزقك فلا تتعب وفى أكثر منه فلا تطمع ومن أقل منه فلا تجزع فان أنت رضيت بما قسمته لك أرحت قلبك وبدنك وكنت عندى محمودا وان لم ترض بما قسمته لك فوعزتى وجلالى لاسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش فى البر ولا ينالك منها الا ما قد قسمته لك وكنت عندى مذموما يا ابن آدم خلقت السموات السبع والأرضين السبع ولم أعى بخلقهن أيعيينى رغيف أسوقه لك من غير تعب يا ابن آدم أنا لك محب فبحقى عليك كن لى محبا يا ابن آدم لا تطالبنى برزق غد كما لا أطالبك بعمل غد فانى لم أنس من عصانى فكيف من أطاعنى وأنا على كل شئ قدير وبكل شئ محيط (قال الشاعر)

وما ثم الا الله فى كل حالة * فلا تتكل يوما على غير لطفه
فكم حالة تأتى ويكرهها الفتى * وخيرته فيها على رغم أنفه

ولمؤلفه رحمه الله تعالى

توكل على الرحمن فى الأمر كله * فما خاب حقا من عليه توكلا
وكن واثقا بالله واصبر لحكمه * تفز بالذى ترجوه منه تفضلا

﴿الفصل الثانى فى القناعة والرضا بما قسم الله تعالى﴾ جاء فى تفسير قوله تعالى من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة أن المراد بها القناعة وقال صلى الله عليه وسلم القناعة مال لا ينفد وقيل يارسول الله ما القناعة قال الاياس عما فى أيدى الناس واياكم والطمع فانه الفقر الحاضر وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه من القناعة بالجانب الأوفر وانه كان يشتهى الشئ فيدافعه سنة قال الكندى

العبد حر ما قنع * والحر عبد ما طمع

وقال بشر بن الحرث خرج فتى فى طلب الرزق فبينما هو يمشى فأعيا فاوى الى خراب يستريح فيه فبينما هو يدير بصره اذ وقعت عيناه على أسطر مكتوبة على حائط فتأملها فاذا هى

انى رأيتك قاعدا مستقبلى * فعلمت انك للهموم قرين * هون عليك وكن بربك واثقا
فأخو التوكل شأنه التهوين * طرح الأذى عن نفسه فى رزقه * لما تيقن أنه مضمون

قال فرجع الفتى الى بيته ولزم التوكل وقال اللهم أدبنا أنت قال الجاحظ انما خالف الله تعالى بين طبائع الناس ليوفق بينهم فى مصالحهم ولولا ذلك لا اختاروا كلهم الملك والسياسة والتجارة والفلاحة وفى ذلك بطلان

الخبايا والأشياء الكامنة فأراد أن يعمل شيأ حتى لا يهتدى اليه ويبعد عنه حديثه فأخذ طستا وجعل فيه دما وجعل فى الدم هاون ذهب وقعد على الهاون أياما وتطلبه الملك وبالغ فى الطلب فلما عجز عنه أحضر أبا معشر وطلب اظهاره فعمل المسئلة التى يستخرج بها وسكت زمانا حائرا فقال له الملك ما سبب سكوتك وحيرتك فقال أرى شيأ عجيبا فقال وما هو قال أرى الرجل المطلوب على جبل من ذهب والجبل فى بحر من دم ولا أعلم فى العالم موضعا على هذه الصفة فقال له أعد نظرك ففعل ثم قال ما أرى الا ما ذكرت وهذا شئ ما وقع لى مثله فلما أيس الملك من تحصيله نادى فى البلد بالامان للرجل ولما أخفاه فلما اطمأن الرجل ظهر وحضر بين يدى الملك فسأله عن الموضع الذى كان فيه فأخبره بما اعتمد عليه فأعجبه حسن احتياله فى اخفاء نفسه ولطافة أبى معشر المنجم فى استخراجه وله غير ذلك من الاصابات (قال قاضى القضاة شمس الدين بن خلكان) ومما يناسب هذا من فطن المتطببين ما رواه الحسين بن ادريس الحلوانى قال سمعت الامام محمد بن ادريس الشافعى رضى الله عنه يقول ما أفلح سمين قط الا أن يكون محمد بن الحسن قيل له ولم ذلك قال لانه لا يعدو العاقل احدى خلتين اما ان يهتم لآخرته ومعاده أو لدنياه ومعاشه والشحم مع الهم لا ينعقد ثم قال وكان بعض ملوك الارض قديما كثير الشحم لا ينتفع بنفسه فجمع الحكماء وقال احتالوا لى بحيلة يخف عنى لحمى هذا قليلا قال فما قدروا له على شئ فجاءه رجل عاقل لبيب متطبب فقال عالجنى ولك الغنى قال أصلح الله الملك أنا طبيب منجم دعنى حتى أنظر الليلة

المصالح وذهاب المعايش فكل صنف من الناس مزين لهم ما هم فيه فالحائك اذا رأى من صاحبه تقصيرا أو خلفا قال ويلك يا حجام والحجام اذا رأى مثل ذلك من صاحبه قال ويلك يا حائك فجعل الله تعالى الاختلاف سببا للائتلاف فسبحانه من مدبر قادر حكيم ألا ترى الى البدوى فى بيت من قطعة خيش معمد بعظام الجيف كلبه معه فى بيته لباسه شملة من وبر أو شعر ودواؤه بعر الابل وطيبه القطران وبعر الظباء وحلى زوجته الودع وثماره المقل وصيده اليربوع وهو فى مفازة لا يسمع فيها الاصوت بومة وعواء ذئب وهو قانع بذلك مفتخر به وقال سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه يا بنى اذا طلبت الغنى فاطلبه فى القناعة فانها مال لا ينفد واياك والطمع فانه فقر حاضر وعليك باليأس فانك لم تيأس من شئ الا أغناك الله عنه وأتى ابا داود الطائى فاقة كبيرة فجاءه حماد بن أبى حنيفة رضى الله عنه بار بعمائة درهم من تركة أبيه وقال هى من مال رجل ما أقدم عليه أحدا فى زهده وورعه وطيب كسبه فقال لو كنت أقبل من أحد شيأ لقبلتها تعظيما للميت واكراما للحى ولكنى أحب أن أعيش فى عز القناعة وقال عيسى عليه الصلاة والسلام اتخذوا البيوت منازل والمساجد مساكن وكلوا من بقل البرية واشربوا من الماء القراح واخرجوا من الدنيا بسلام وأنشد المبرد

ان ضن زيد بما فى بطن راحته * فالارض واسعة والرزق مبسوط
ان الذى قدر الأشيا بحكمته * لم ينسنى قاعدا والرحل محطوط

قال عبد الواحد بن زيد ما أحسب أن شيأ من الأعمال يتقدم الصبر الا الرضا ولا أعلم درجة أرفع من الرضا وهو رأس المحبة قيل له متى يكون العبد راضيا عن ربه قال اذا سرته المصيبة كما تسره النعمة وكان عبد الله بن مرزوق من ندماء المهدى فسكر يوما ففاتته الصلاة فجاءته جارية له بجمرة فوضعتها على رجله فانتبه مذعورا فقالت له اذا لم تصبر على نار الدنيا فكيف تصبر على نار الآخرة فقام فصلى الصلوات وتصدق بما ملكه وذهب يبيع البقل فدخل عليه فضيل وابن عيينة فاذا تحت رأسه لبنة وما تحت جنبه شئ فقالا له انه لم يدع أحد شيأ لله الا عوضه الله منه بدلا فما عوضك عما تركت له قال الرضا بما أنا فيه وقال الثورى ما وضع أحد يده فى قصعة غيره الا ذل له وقال الفضيل من رضى بما قسم الله له بارك الله له فيه وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول الشمس فى الشتاء جلالى ونور القمر سراجى وبقل البرية فاكهتى وشعر الغنم لباسى أبيت حيث يدركنى الليل ليس لى ولد يموت ولا بيت يخرب أنا الذى كببت الدنيا على وجهها (بيت مفرد)

ان القناعة من يحلل بساحتها * لم يلق فى ظلها هما يؤرقه

(وقال) عيسى عليه الصلاة والسلام انظروا الى الطير تغدو وتروح ليس معها شئ من أرزاقها لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها فان زعمتم أنكم أكبر بطونا من الطير فهذه الوحوش والبقر والحمر لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها وقيل وفد عروة بن أذينة على هشام بن عبد الملك فشكا اليه خلته فقال له ألست القائل

لقد علمت وما الاسراف من خلقى * ان الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسعى اليه فيعيينى تطلبه * ولو قعدت أتانى ليس يعيينى

وقد جئت من الحجاز الى الشام فى طلب الرزق فقال يا أمير المؤمنين لقد وعظت فابلغت وخرج فركب ناقته وكر الى الحجاز راجعا فلما كان من الليل نام هشام على فراشه فذكر عروة فقال فى نفسه رجل من قريش قال حكمة ووفد على فجبهته ورددته خائبا فلما أصبح وجه اليه بألفى دينار فقرع عليه الرسول باب داره بالمدينة وأعطاه المال فقال أبلغ أمير المؤمنين منى السلام وقل له كيف رأيت قولى سعيت فأكديت فرجعت فأتانى رزقى فى منزلى ولما ولى عبد الله بن عامر العراق قصده صديقان له أنصارى وثقفى فلما سارا تخلف الانصارى وقال الذى أعطى ابن عامر العراق قادر على أن يعطينى فوفد الثقفى وقال احوز الحظين فلما دخل على عبد الله بن عامر قال له ما فعل زميلك الانصارى قال رجع الى أهله فأمر للثقفى بأربعة آلاف دينار وبعث الى الانصارى بثمانية آلاف دينار فخرج الثقفى وهو يقول

فوالله ما حرص الحريص بنافع * فيغنى ولا زهد القنوع بضائر * خرجنا جميعا من مساقط روسنا
على ثقة منا بجود ابن عامر * فلما أنخنا الناجعات ببابه * تخلف عنى اليثربى ابن جابر
وقال ستكفينى عطية قادر * على ما يشاء اليوم للخلق قاهر * فان الذى أعطى العراق ابن عامر

فى طالعك الأرى أى دواء يوافقه فلما أصبح قال أيها الملك الأمان فلما أمنه قال رأيت طالعك يدل على انه لم يبق من عمرك غير شهر واحد فان اخترت عالجتك وان أردت بيان ذلك فاحبسنى عندك فان كان لقولى حقيقة فخل عنى والا فاقتص منى قال فحبسه ثم رفع الملك الملاهى واحتجب عن الناس وخلا وحده مغتما فكلما انسلخ يوم ازداد هما وغما حتى هزل وخف لحمه ومضى لذلك ثمان وعشرون يوما فبعث اليه وأخرجه فقال ماترى فقال أعز الله الملك أنا أهون على الله من أن أعلم الغيب والله انى لم أعلم عمرى فكيف أعلم عمرك ولكن لم يكن عندى دواء الا الغم فلم أقدر أجلب اليك الغم الا بهذه الحيلة فان الغم يذيب الشحم فأجازه على ذلك وأحسن اليه غاية الاحسان وذاق حلاوة الفرح بعد مرارة الغم (قلت) ويعجبنى قول جعفر بن شمس الخلافة فى هذا المعنى

هى شدة يأتى الرخاء عقيبها
وأسى يبشر بالسرور العاجل
واذا نظرت فان بؤسا عاجلا
للمرء خير من نعيم زائل

(ويعجبنى قوله وان كان فى غير ما نحن فيه)

مدحتك ألسنة الانام مخافة
وتشاهدت لك بالثناء الاحسن
أترى الزمان مؤخرا فى مدتى
حتى أعيش الى انطلاق الالسن

(نادرة لطيفة) نقل عن قاضى القضاة شمس الدين ابن خلكان فى تاريخه ان الجنيد قال ما انتفعت بشئ كانتفاعى بأبيات سمعتها قيل له وما هى قال مررت بدرب القراطيس فسمعت جارية تغنى من دار وتقول هذه الأبيات

اذا قلت أهدى الهجر لى حلل الاسى
تقولين لولا الهجر لم يطب الحب

لربى الذى أرجو لسد مفاقرى * فقلت خلالى وجهه ولعله * سيجعل لى حظ الفتى المتزاور
فلما رآنى سال عنه صبابة * اليه كما حنت ظؤار الاباعر
فابت وقد أيقنت أن ليس نافعا * ولا ضائرا شئ خلاف المقادر

قيل أوحى الله تعالى الى موسى صلوات الله وسلامه عليه أتدرى لم رزقت الأحمق قال لا يارب قال ليعلم العاقل أن طلب الرزق ليس بالاحتيال ولبعض العرب

ولا تجزع اذا أعسرت يوما * فقد أيسرت فى الزمن الطويل * ولا تظنن بربك ظن سوء
فان الله أولى بالجميل * وأن العسر يتبعه يسار * وقول الله أصدق كل قيل
فلو أن العقول تسوق رزقا * لكان المال عند ذوى العقول

وأوحى الله تعالى الى يوسف عليه الصلاة والسلام انظر الى الأرض فنظر اليها فانفجرت فرأى دودة على صخرة ومعها الطعام فقال له أترانى لم أغفل عنها وأغفل عنك وأنت نبى وابن نبى ودخل على بن أبى طالب رضى الله عنه المسجد وقال لرجل كان واقفا على باب المسجد أمسك على بغلتى فأخذ الرجل لجامها ومضى وترك البغلة فخرج على وفى يده درهمان ليكافئ بهما الرجل على امساكه بغلته فوجد البغلة واقفة بغير لجام فركبها ومضى ودفع لغلامه الدرهمين يشترى بهما لجاما فوجد الغلام اللجام فى السوق قد باعه السارق بدرهمين فقال على رضى الله عنه ان العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر ولا يزداد على ما قدر له وقيل لراهب من أين تأكل فأشار الى فيه وقال الذى خلق هذه الرحى يأتيها بالطحين وقال سليم بن المهاجر الجبلى

كسوت جميل الصبر وجهى فصانه * به الله عن غشيان كل بخيل * فما عشت لم آت البخيل ولم أقم
على بابه يوما مقام ذليل * وان قليلا يستر الوجه أن يرى * الى الناس مبذولا لغير قليل

وصلى معروف الكرخى خلف امام فلما فرغ من صلاته قال الامام لمعروف من أين تأكل قال اصبر حتى أعيد صلاتى التى صليتها خلفك قال ولم قال لان من شك فى رزقه شك فى خالقه وقال أبو حازم مالم يكتب لى لو ركبت الريح ما أدركته وقال عمر بن أبى عمر اليونانى

غلا السعر فى بغداد من بعد رخصه * وانى فى الحالين بالله واثق
فلست أخاف الضيق والله واسع * غناه ولا الحرمان والله رازق

وقال القهستانى

غنى بلا دنيا عن الخلق كلهم * وان الغنى الا عن الشئ لا به

وقال منصور الفقيه

الموت أسهل عندى * بين القنا والأسنه * والخيل تجرى سراعا
مقطعات الأعنه * من أن يكون لنذل * على فضل ومنه

(وأنشد أعرابى)

أيا مالك لا تسأل الناس والتمس * بكفيك فضل الله فالله أوسع
ولو تسأل الناس التراب لاوشكوا * اذا قيل هاتوا أن يملوا ويمنعوا

وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصنى قال عليك باليأس عما فى أيدى الناس واياك والطمع فانه فقر حاضر وقيل اذا وجدت الشئ فى السوق فلا تطلبه من صديقك وقيل لاعرابية من أين معاشكم قالت لو لم نعش الا من حيث نعلم لم نعش وقال أعرابى أحسن الأحوال حال يغبطك بها من دونك ولا يحقرك معها من فوقك وقال المعرى

اذا كنت تبغى العيش فابغ توسطا * فعند التناهى يقصر المتطاول
توقى البدور النقص وهى أهلة * ويدركها النقصان وهى كوامل

(وقال آخر)

اقنع بايسر رزق أنت نائله * واحذر ولا تتعرض للارادات
فما صفا البحر الا وهو منتقص * ولا تعكر الا فى الزيادات

وقال أعرابى استظهر على الدهر بخفة الظهر قال هشام بن ابراهيم البصرى

وكم ملك جانبته عن كراهة * لاغلاق باب أو لتشديد حاجب
ولى فى غنى نفسى مراد ومذهب * اذا انصرفت عنى وجوه المذاهب

وقيل ينبغى أن يكون المرء فى دنياه كالمدعو الى الوليمة ان أتته صحفة تناولها وان لم تأته لم يرصدها ولم يطلبها وقال شقيق ابن ابراهيم البلخى قال لى ابراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى أخبرنى عما أنت عليه قلت ان

وان قلت ما أذنبت قالت مجيبة
حياتك ذنب لا يقاس به ذنب
فصعقت وصحت فبينما أنا كذلك اذ خرج صاحب الدار فقال ما هذا ياسيدى فقلت له ما سمعت فقال انها هبة منى اليك فقلت قد قبلت وهى حرة لوجه الله تعالى ثم دفعها لبعض أصحابنا بالرباط فولدت منه ولدا نبيلا حج على قدميه ثلاثين حجة (وذكر قاضى القضاة شمس الدين بن خلكان فى ترجمة أبى على الفارسى) أنه كان يوما يساير عضد الدولة بن بويه فى ميدان سيران فقال له لم انتصب المستثنى فى قولنا قام القوم الا زيدا فقال الشيخ بفعل مقدر تقديره استثنى زيدا فقال له عضد الدولة هلا رفعته وقدرت الفعل امتنع زيد فانقطع وقال هذا الجواب ميدانى ثم انه لما رجع الى منزله وضع فى ذلك كلاما حسنا وحمله اليه فاستحسنه (وحكى أبو القاسم أحمد الاندلسى) قال جرى ذكر الشعر بحضرة أبى على الفارسى وأنا حاضر فقال انى لاغبطكم على قول الشعر فان خاطرى لا يوافقنى الى ذلك مع تحقيق العلوم التى هى من مواده فقال له رجل فما قلت قط شيأ منه قال ما أعلم ان لى شعرا غير ثلاثة أبيات فى الشيب وهى قولى

خضبت الشيب لما كان عيبا
وخضب الشيب أولى ان يعابا
ولم أخضب مخافة هجر خلى
ولا عيبا خشيت ولا عتابا
ولكن المشيب بدا ذميما
فصيرت الخضاب له عقابا

(ومن لطائف المنقول ان أبا محمد الوزير المهلبى) كان فى غاية من الأدب والمحبة لأهله وكان قبل اتصاله بمعز الدولة بن بويه فى شدة عظيمة من الضرورة والمضايقة وسافر وهو على تلك الحالة ولقى فى سفره شدة عظيمة فاشتهى

رزقت أكلت وان منعت صبرت قال هكذا تعمل كلاب بلخ فقلت كيف تعمل أنت قال ان رزقت آثرت وان منعت شكرت وقال بعضهم

هي القناعة فالزمها تعش ملكا * لو لم يكن منك الا راحة البدن
وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها * هل راح منها بغير القطن والكفن

(وقال آخر) وان القناعة كنز الغنى * فصرت بأذيالها أمتسك
فلا ذا يراني على بابه * ولا ذا يراني له منهمك
فصرت غنيا بلا درهم * أمر على الناس شبه الملك

جاء فتح الموصلي الى أهله بعد العتمة فلم يجد عندهم شيئا للعشاء ووجدهم بغير سراج فجلس ليلته يبكي من الفرح ويقول بأي يد كانت مني تركت مثلي على هذه الحالة والله تعالى أعلم

﴿الفصل الثالث في ذم الحرص والطمع وطول الأمل﴾ قال الله تعالى ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر قال يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك الا ما أكلت فأفنيت ولبست فأبليت وتصدقت فأمضيت وروى عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يا عائشة ان أردت اللحوق بي فليكفك من الدنيا كزاد الراكب واياك ومجالسة الأغنياء ولا تستخلقي ثوبا حتى ترقعيه وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين وهلاك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل وقيل الحرص ينقص من قدر الانسان ولا يزيد في رزقه وقيل لحكيم ما بال الشيخ أحرص على الدنيا من الشاب قال لانه ذاق من طعم الدنيا ما لم يذقه الشاب وما أحسن ما قال بعضهم

اذا طاوعت حرصك كنت عبدا * لكل دنيئة تدعى اليها

﴿وقال آخر وأجاد﴾

قد شاب رأسي ورأس الدهر لم يشب * ان الحريص على الدنيا لفي تعب

وقيل للاسكندر ما سرور الدنيا قال الرضا بما رزقت منها قيل فما غمها قال الحرص عليها وقال الحسن لو رأيت الأجل ومروره لنسيت الأمل وغروره وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه اشترى أسامة ابن زيد وليدة بمائة دينار الى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا تعجبون من أسامة اشترى الى شهر ان أسامة لطويل الأمل وقال ابن عباس رضي الله عنهما كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يخرج فيبول ثم يمسح بالتراب فأقول ان الماء منك قريب فيقول ما يدريني لعلي ما أبلغه وعن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه لا يزال الكبير شابا في اثنين حب المال وطول الأمل وقيل لمحمد بن واسع كيف تجدك قال قصير الأجل طويل الأمل سيء العمل وقيل من جرى في عنان أمله كان عاثرا بأجله لو ظهرت الآجال لافتضحت الآمال ولقد أحسن أبو العباس أحمد بن مروان في قوله

وذي حرص تراه يلم وفرا * لوارثه ويدفع عن حماه
ككلب الصيد يمسك وهو طاو * فريسته ليأكلها سواه

ولقد أحسن من قال في الجناس الحقيقي

اذا ما نازعتك النفس حرصا * فأمسكها عن الشهوات أمسك
ولا تحرص ليوم أنت فيه * وعد فرزق يومك رزق أمسك

ومن كلام الحكماء اياكم وطول الأمل فان من الهاه أمله أخزاه عمله قال عبد الصمد بن المعذل

ولي أمل قطعت به الليالي * أراني قد فنيت به وداما

قال الحسن اياكم وهذه الأماني فانه لم يعط أحد بالأمنية خيرا قط في الدنيا ولا في الآخرة (قال قس بن ساعدة)

وما قد تولى فهو لا شك فائت * فهل ينفعني ليتني ولعلني

(وقال آخر) ولا تتعلل بالأماني فانها * عطايا أحاديث النفوس الكواذب

(وقال آخر وأجاد) الله أصدق والآمال كاذبة * وجل هذي المنى في الصدر وسواس

(وقال آخر) شط المزار بسعدى وانتهى الأمل * فلا خيال ولا رسم ولا طلل

الا

اللحم فلم يقدر عليه فقال ارتجالا
ألا موت يباع فاشتريه
فهذا العيش ما لا خير فيه
ألا موت لذيذ الطعم يأتي
يخلصني من العيش الكريه
اذا أبصرت قبرا من بعيد
وددت لو انني فيما يليه
ألا رحم المهيمن نفس حر
تصدق بالوفاة على أخيه
وكان له رفيق يقال له أبو عبد الله الصوفي وقيل أبو الحسن العسقلاني فلما سمع الابيات اشترى له لحما بدرهم وطبخه وأطعمه وتفارقا وتنقلت الأحوال وولي الوزارة ببغداد لمعز الدولة المذكور وضاق الحال برفيقه الذي اشترى له اللحم في السفر وبلغه وزارة المهلبي فقصده وكتب اليه
ألا قل للوزير فدته نفسي
مقال مذكر ما قد نسيه
أتذكر اذ تقول لضيق عيش
ألا موت يباع فاشتريه
(فلما) وقف عليها تذكر الحال وهزته أريحية الكرم فأمر له بسبعمائة درهم ووقع له في رقعته مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ثم دعا به فخلع عليه وقلده عملا يرتفق منه انتهى ﴿وذكر الحريري صاحب المقامات في كتابه المسمى بدرة الغواص﴾ ما مثاله قال حماد الراوية كان انقطاعي الى يزيد بن عبد الملك ابن مروان في خلافته وكان أخوه هشام يجفوني لذلك فلما مات يزيد وأفضت الخلافة الى هشام خفته ومكثت في بيتي سنة لا أخرج الا الى من أثق به من اخواني سرا فلما لم أسمع أحدا ذكرني في السنة أمنت وخرجت وصليت الجمعة في الرصافة فاذا شرطيان قد وقفا علي وقالا يا حماد أجب الامير يوسف بن عمر الثقفي وكان واليا على العراق فقلت في نفسي من هذا كنت أخاف ثم قلت

الارجاء فما أدرى أندركه * أم يستمر فيأتى دونه الأجل

(وقال أبو العتاهية) لقد لعبت وجد الموت فى طلبى * وان فى الموت لى شغلا عن اللعب

لو شمرت فكرتى فيما خلقت له * ما اشتد حرصى على الدنيا ولا طلبى

(وله أيضا) تعالى الله يا سلم بن عمرو * أذل الحرص أعناق الرجال

هب الدنيا تقاد اليك عفوا * أليس مصير ذلك للزوال

﴿وقد ضمنت البيت الأخير فقلت﴾

أيا من عاش فى الدنيا طويلا * وأفنى العمر فى قيل وقال * وأتعب نفسه فيما سيفنى

وجمع من حرام أو حلال * هب الدنيا تقاد اليك عفوا * أليس مصير ذلك للزوال

(ومما جاء فى الطمع وذمه) قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع وقال رضى الله عنه ما الخمر صرفا بأذهب لعقول الرجال من الطمع وفى الحديث اياك والطمع فانه الفقر الحاضر وقال فيلسوف العبيد ثلاثة عبد رق وعبد شهوة وعبد طمع وقال بعضهم من أراد أن يعيش حرا أيام حياته فلا يسكن قلبه الطمع وقيل اجتمع كعب وعبد الله بن سلام فقال له كعب يا ابن سلام من أرباب العلم قال الذين يعملون به قال فما أذهب العلم عن قلوب العلماء بعد أن علموه قال الطمع وشره النفس وطلب الحوائج الى الناس * واجتمع الفضيل وسفيان وابن كريمة اليربوعى فتواصوا ثم افترقوا وهم مجمعون على أن أفضل الاعمال الحلم عند الغضب والصبر عند الطمع وقيل لما خلق الله آدم عليه السلام عجن بطينته ثلاثة أشياء الحرص والطمع والحسد فهى تجرى فى أولاده الى يوم القيامة فالعاقل يخفيها والجاهل يبديها ومعناه أن الله تعالى خلق شهوتها فيه قال اسمعيل بن قطرى القراطيسى

حسبى بعلمى ان نفع * ما الذل الا فى الطمع * من راقب الله نزع

عن سوء ما كان صنع * ما طار طير وارتفع * الا كما طار وقع

(وقال سابق البربرى)

يخادع ريب الدهر عن نفسه الفتى * سفاها وريب الدهر عنها يخادعه

ويطمع فى سوف ويهلك دونها * وكم من حريص أهلكته مطامعه

وقيل لاشعب ما بلغ من طمعك قال أرى دخان جارى فأفت خبزى وقال أيضا ما رأيت رجلين يتساران فى جنازة الا قدرت ان الميت أوصى لى بشئ من ماله وما زفت عروس الا كنست بيتى رجاء أن يغلطوا فيدخلوا بها الى قال بعضهم لا تغضبن على امرئ * لئن مانع ما فى يديه

واغضب على الطمع الذى * استدعاك تطلب ما لديه

والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿الباب الحادى عشر فى المشورة والنصيحة والتجارب والنظر فى العواقب﴾

قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وشاورهم فى الأمر واختلف أهل التأويل فى أمره بالمشاورة مع ما أمده الله تعالى من التوفيق على ثلاثة أوجه أحدها أنه أمره بها فى الحرب ليستقر له الرأى الصحيح فيعمل عليه وهذا قول الحسن ثانيها أنه أمره بالمشاورة لما علم فيها من الفضل وهذا قول الضحاك ثالثها أنه أمره بمشاورتهم ليستن به المسلمون وان كان فى غنية عن مشورتهم وهذا قول سفيان وقال ابن عيينة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد أمرا شاور فيه الرجال وكيف يحتاج الى مشاورة المخلوقين من الخالق مدبر أمره ولكنه تعليم منه ليشاور الرجل الناس وان كان عالما وقال عليه الصلاة والسلام ما خاب من استخار ولا ندم من استشار ولا افتقر من اقتصد وقال عليه الصلاة والسلام من أعجب برأيه ضل ومن استغنى بعقله زل وكان يقال ما استنبط الصواب بمثل المشاورة وقال حكيم المشورة موكل بها التوفيق لصواب الرأى * وقال الحسن الناس ثلاثة فرجل رجل ورجل نصف رجل ورجل لا رجل فأما الرجل الرجل فذو الرأى والمشورة وأما الرجل الذى هو نصف رجل فالذى له رأى ولا يشاور . وأما الرجل الذى ليس برجل فالذى ليس له رأى ولا يشاور وقال المنصور لولده خذ عنى ثنتين لا تقل فى غير تفكير ولا تعمل بغير تدبير وقال الفضل المشورة

ثم ما تدعانى حتى آتى أهلى واودعهم ثم اسير معه كافة الاما الى ذلك من سبيل فاستسلمت فى ايديهما ثم صرت الى يوسف بن عمر وهو فى الايوان الأحمر فسلمت عليه فرد على السلام ورمى الى بكتاب فيه بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هشام أمير المؤمنين الى يوسف ابن عمر أما بعد فاذا قرأت كتابى هذا فابعث الى حماد الراوية من يأتيك به من غير تروبع وادفع له خمسمائة دينار وجملا مهريا يسير عليه ثنتى عشرة ليلة الى دمشق فأخذت الدنانير ونظرت فاذا جمل مرحول فركبت وسرت حتى وافيت دمشق فى ثنتى عشرة ليلة فنزلت على باب هشام واستأذنت فأذن لى فدخلت عليه وهو جالس على طنفسة حمراء وعليه ثياب من حرير أحمر وقد ضمخ بالمسك فسلمت عليه فرد على السلام واستدنانى فدنوت منه حتى قبلت رجله فاذا جاريتان لم أر أحسن منهما قط فقال كيف أنت وكيف حالك فقلت بخير يا أمير المؤمنين فقال أتدرى فيم بعثت اليك فقلت لا قال بعثت اليك بسبب بيت خطر ببالى لا أعرف قائله قلت وما هو يا أمير المؤمنين قال

ودعوا بالصبوح يوما فجاءت
قينة فى يمينها ابريق

فقلت يقوله عدى بن زيد العبادى فى قصيدة قال أنشدنيها فأنشدته

بكر العاذلون فى وضح الصبـ
ـح يقولون لى أما تستفيق

ويلومون فيك يا ابنة عبد الله
والقلب عندكم موثوق

لست أدرى اذا كثر العذل فيها
أعدو يلومنى أم صديق

(قال حماد فانتهيت فيها الى قوله)

ودعوا بالصبوح يوما فجاءت
قينة فى يمينها ابريق

قدمته على عقار كعين الـ
ـديك صفى سلافها الراووق

فيها بركة وانى لاستشير حتى هذه الحبشية الأعجمية وقال اعرابى لا مال أوفر من العقل ولا فقر أعظم من الجهل ولا ظهر أقوى من المشورة وقيل من بدأ بالاستخارة وثنى بالاستشارة فحقيق أن لا يخيب رأيه وقيل الرأى السديد أحمى من البطل الشديد (قال أبو القاسم النهروندى)

وما ألف مطرور السنان مسدد * يعارض يوم الروع رأيا مسددا

وقال على رضى الله عنه خاطر من استغنى برأيه وسمع محمد بن داود وزير المأمون قول القائل

اذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة * فان فساد الرأى أن يترددا

فأضاف اليه قوله

وان كنت ذا عزم فانفذه عاجلا * فان فساد العزم أن يتقيدا

ولمحمد بن ادريس الطائى

ذهب الصواب برأيه فكأنما * آراؤه اشتقت من التأييد
فاذا دجا خطب تبلج رأيه * صبحا من التوفيق والتسديد

ولمحمد الوراق)

ان اللبيب اذا تفرق أمره * فتق الامور مناظرا ومشاورا
وأخو الجهالة يستبد برأيه * فتراه يعتسف الامور مخاطرا

وقال الرشيد حين بدا له تقديم الامين على المأمون فى العهد

لقد بان وجه الرأى لى غير انني * عدلت عن الأمر الذى كان أحزما
فكيف يرد الدر فى الضرع بعدما * توزع حتى صار نهبا مقسما
أخاف التواء الامر بعد استوائه * وأن ينقض الحبل الذى كان أبرما

(وقال آخر)

خليلى ليس الرأى فى جنب واحد * أشيرا على اليوم ماتريان

(ووصف) رجل عضد الدولة فقال له وجه فيه ألف عين وفم فيه ألف لسان وصدر فيه ألف قلب وقال أردشير بن بابك أربعة تحتاج الى أربعة الحسب الى الأدب والسرور الى الأمن والقرابة الى المودة والعقل الى التجربة وقال لا تستحقر الرأى الجزيل من الرجل الحقير فان الدرة لا يستهان بها لهوان غائصها وقال جعفر بن محمد لا تكونن أول مشير واياك والرأى الخطير وتجنب ارتجال الكلام ولا تشيرن على مستبد برأيه ولا على متلون ولا على لجوج وقيل ينبغى أن يكون المستشار صحيح العلم مهذب الرأى فليس كل عالم يعرف الرأى الصائب وكم ناقد فى شئ ضعيف فى غيره قال أبو الأسود الدؤلى

وما كل ذى نصح بمؤتيك نصحه * وما كل مؤت نصحه بلبيب
ولكن اذا ما استجمعا عند واحد * فحق له من طاعة بنصيب

وكان اليونان والفرس لا يجمعون وزراءهم على أمر يستشيرونهم فيه وانما يستشيرون الواحد منهم من غير أن يعلم الآخر به لمعان شتى منها لئلا يقع بين المستشارين منافسة فتذهب اصابة الرأى لان من طباع المشتركين فى الامر التنافس والطعن من بعضهم فى بعض وربما سبق أحدهم بالرأى الصواب فحسدوه وعارضوه وفى اجتماعهم أيضا للمشورة تعريض السر للاذاعة فاذا كان كذلك وأذيع السر لم يقدر الملك على مقابلة من أذاعه للابهام فان عاقب الكل عاقبهم بذنب واحد وان عفا عنهم ألحق الجانى بمن لا ذنب له وقيل اذ أشار عليك صاحبك برأى ولم تحمد عاقبته فلا تجعلن ذلك عليه لوما وعتابا بان تقول أنت فعلت وأنت أمرتنى ولولا أنت فهذا كله ضجر ولوم وخفة وقال أفلاطون اذا استشارك عدوك فجرد له النصيحة لانه بالاستشارة قد خرج من عداوتك الى موالاتك وقيل من بذل نصحه واجتهاده لمن لا يشكره فهو كمن بذر فى السباخ قال الشاعر يمدح من له رأى وبصيرة

بصيرا باعقاب الأمور كأنما * يخاطبه من كل أمر عواقبه

وقال ابن المعتز المشورة راحة لك وتعب على غيرك وقال الأحنف لا تشاور الجائع حتى يشبع ولا العطشان حتى يروى ولا الاسير حتى يطلق ولا المقل حتى يجد (ولما) أراد نوح بن مريم قاضى مرو أن يزوج ابنته استشار جارا له مجوسيا فقال سبحان الله الناس يستفتونك وأنت تستفتينى قال لا بد أن تشير على قال ان رئيس الفرس كسرى كان يختار المال ورئيس الروم قيصر كان يختار الجمال ورئيس العرب كان يختار الحسب ورئيسكم محمد كان يختار الدين فانظر لنفسك بمن تقتدى وكان يقال من أعطى أربعا لم يمنع أربعا من أعطى الشكر لم يمنع المزيد ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة

ومن

بحرة حين من بحها فقال أما

مزجت لذ طعمها من يذوق

قال فطرب هشام ثم قال أحسنت يا حماد سل حاجتك قلت احدى الجاريتين قال هما جميعا لك بما عليهما وما لهما فاقام عنده مدة ثم وصله بمائة ألف درهم قلت انظر أيها المتأمل الى نفاق رخيص الادب فى ذلك العصر وكساد غاليه فى هذا العصر وبشهادة الله أن البيت الذى طلب حماد الراوية بسببه من بغداد الى دمشق فى اثنى عشرة ليلة وأجيز عليه بالجاريتين والمائة ألف درهم تأنف نفسى أن أضعه فى قصيدة من قصائدى لرخصه وسفالته وهو

ودعوا بالصبوح يوما فجاءت

قينة فى يمينها ابريق

(وكنت أود) أن أكون فى ذلك العصر ويسمع هشام بن عبد الملك قولى فى هذا الباب من قصيدة قلتها

فى ليلة رقم البدر المنير لها

طرازا به لعصا الجوزاء نقرات

وبات لى من المساء اذ تبسم لى

تحت الضفائر صبحات وغبقات

والراح دق على فهمى تصورها

لكن لها ضاع فى الكاسات نفحات

كانت علامة تحقيق وقال فى

هى المنازل لى فيها علامات

مذ انشأتنا جمعنا فى محاسنها

مغردين وللانشاء سجعات

هذا وأفواه كاساتى قد ابتسمت

ومازجتها ثغور لولويات

ومن يقل حركات الهم ما سكنت

فللحباب على التسكين جزمات

(قال ثعلب) ما أحد من الشعراء تكلم فى الليل الطويل الا قارب ولكن خالد الكاتب أبدع فيه فقال

رقدت فلم ترث للساهر

وليل المحب بلا آخر

ولم تدر بعد ذهاب الرقا

د ما صنع الدمع بالناظر

وقال بعض من كان يحضر مجالس المبرد كنا نختلف اليه فاذا كان

ومن أعطى المشورة لم يعدم الصواب وقيل اذا استخار الرجل ربه واستشار صحبه وأجهد رأيه فقد قضى ما عليه ويقضي الله تعالى في أمره ما يحب وقال بعضهم خمير الرأى خير من فطيره وتقديمه خير من تأخيره وقالت الحكماء لا تشاور معلما ولا راعى غنم ولا كثير القعود مع النساء ولا صاحب حاجة يريد قضاءها ولا خائفا ولا حاقنا وقيل سبعة لا ينبغى لصاحب لب أن يشاورهم جاهل وعدو وحسود ومراء وجبان وبخيل وذو هوى فان الجاهل يضل والعدو يريد الهلاك والحسود يتمنى زوال النعمة والمرائى واقف مع رضا الناس والجبان من رأيه الهرب والبخيل حريص على جمع المال فلا رأى له فى غيره وذو الهوى أسير هواه فلا يقدر على مخالفته (وحكى) أن رجلا من أهل يثرب يعرف بالاسلمى قال ركبنى دين أثقل كاهلى وطالبنى به مستحقوه واشتدت حاجتى الى ما لا بد منه وضاقت على الأرض ولم أهتد الى ما أصنع فشاورت من أثق به من ذوى المودة والرأى فأشار على بقصد المهلب بن أبى صفرة بالعراق فقلت له تمنعنى المشقة وبعد الشقة وتيه المهلب ثم انى عدلت عن ذلك المشير الى استشارة غيره فلا والله ما زادنى على ما ذكره الصديق الأول فرأيت أن قبول المشورة خير من مخالفتها فركبت ناقتى وصحبت رفقة فى الطريق وقصدت العراق فلما وصلت دخلت على المهلب فسلمت عليه وقلت له أصلح الله الامير انى قطعت اليك الدهناء وضربت أكباد الابل من يثرب فانه أشار على بعض ذوى الحجى والرأى بقصدك لقضاء حاجتى فقال هل أتيتنا بوسيلة أو بقرابة وعشيرة فقلت لا ولكنى رأيتك أهلا لقضاء حاجتى فان قمت بها فأهل لذلك أنت وان يحل دونها حائل لم أذم يومك ولم أيأس من غدك فقال المهلب لحاجبه اذهب به وادفع اليه ما فى خزانة مالنا الساعة فأخذنى معه فوجدت فى خزانته ثمانين ألف درهم فدفعها الى فلما رأيت ذلك لم أملك نفسى فرحا وسرورا ثم عاد الحاجب به اليه مسرعا فقال هل ما وصلك يقوم بقضاء حاجتك فقلت نعم أيها الامير وزيادة فقال الحمد لله على نجح سعيك واجتنائك جنى مشورتك وتحقق ظن من أشار عليك بقصدنا قال الاسلمى فلما سمعت كلامه وقد أحرزت صلته أنشدته وأنا واقف بين يديه

يا من على الجود صاغ الله راحته * فليس يحسن غير البذل والجود * عمت عطاياك أهل الارض قاطبة فأنت والجود منحوتان من عود * من استشار فباب النجح منفتح * لديه فيما ابتغاه غير مردود

ثم عدت الى المدينة فقضيت دينى ووسعت على أهلى وجازيت المشير على وعاهدت الله تعالى أن لا أترك الاستشارة فى جميع أمورى ما عشت (وحكى) عن الخليفة المنصور أنه كان صدر من عمه عبد الله بن على بن عبد الله بن العباس أمور مولمة لا تحتملها حراسة الخلافة ولا تتجاوز عنها سياسة الملك فحبسه عنده ثم بلغه عن ابن عمه عيسى بن موسى بن على وكان واليا على الكوفة ما أفسد عقيدته فيه وأوحشه منه وصرف وجه ميله اليه عنه فتألم المنصور من ذلك وساء ظنه وتارق جفنه وقل أمنه وتزايد خوفه وحزنه فادته فكرته الى أمر دبره وكتمه عن جميع حاشيته وستره واستحضر ابن عمه عيسى بن موسى وأجراه على عادة اكرامه ثم أخرج من كان بحضرته وأقبل على عيسى وقال له يا ابن العم انى مطلعك على أمر لا أجد غيرك من أهله ولا أرى سواك مساعدا لى على حمل ثقله فهل أنت فى موضع ظنى بك وعامل ما فيه بقاء نعمتك التى هى منوطة ببقاء ملكى فقال له عيسى ابن موسى أنا عبد أمير المؤمنين ونفسى طوع أمره ونهيه فقال ان عمى وعمك عبد الله قد فسدت بطانته واعتمد على ما بعضه يبيح دمه وفى قتله صلاح ملكنا فخذه اليك واقتله سرا ثم سلمه اليه وعزم المنصور على الحج مضمرا ان ابن عمه عيسى اذا اقتل عمه عبد الله ألزمه القصاص وسلمه الى أعمامه اخوة عبد الله ليقتلوه به قصاصا فيكون قد استراح من الاثنين عبد الله وعيسى قال عيسى فلما أخذت عمى وأفكرت فى قتله رأيت من الرأى أن أشاور فى قضيته من له رأى عسى أن أصيب الصواب فى ذلك فاحضرت يونس بن قرة الكاتب وكان لى حسن ظن فى رأيه وعقيدة صالحة فى معرفته فقلت له ان أمير المؤمنين دفع الى عمه عبد الله وأمرنى بقتله واخفاء أمره فما رأيك فى ذلك وما تشير به فقال لى يونس أيها الامير احفظ نفسك بحفظ عمك وعم أمير المؤمنين فانى أرى لك أن تدخله فى مكان داخل دارك وتكتم أمره عن كل أحد ممن عندك وتتولى بنفسك حمل طعامه وشرابه اليه وتجعل دونه مغالق وأبوابا وأظهر لأمير المؤمنين انك قتلته وأنفذت أمره فيه وانتهيت الى العمل بطاعته فكأنى به اذا تحقق منك انك فعلت ما أمرك به وقتلت عمه أمرك باحضاره على رؤس الاشهاد فان اعترفت انك قتلته بأمره أنكر أمره لك وآخذك بقتله وقتلك قال عيسى بن موسى فقبلت مشورة يونس وعملت بها وأظهرت لأمير

آخر المجالس أملى علينا من طرف الاخبار وملح الاشعار ما نرتاح الى حفظه فأنشدنا يوما مرثية زياد الاعجم فى المغيرة بن المهلب التى منها

فاذا مررت بقبره فاعقر له * كوم الهجان وكل طرف سابح
وانضح جوانب قبره بدمائها * فلقد يكون أخا دم وذبائح

قال فخرجت من عنده وأنا أديرها فى اساقى لأحفظها فاذا بشيخ قد خرج من خربة وفى يده حجر فهم أن يرمينى به فتترست بالمحبرة والدفتر فقال ماذا تقول أتشتمنى فقلت اللهم لا ولكنى كنت عند أستاذنا أبى العباس المبرد فانشدنا مرثية زياد الأعجم فى المغيرة ابن المهلب فقال له ايه ايه أنشدنى ما أنشدكم بارد كم لا مبردكم فانشدته فقال والله ما أجود الراثى ولا أنصف المرثى ولا أحسن الراوى قلت فما عساه أن يقول قال كان يقول

احملانى ان لم يكن لكما عقر * الى جنب قبره فاعقرانى
وانضحا من دمى عليه فقد كا * ن دمى من نداه لو تعلمان

قال فقلت هل رأيت أحدا واسى أحدا بنفسه قال نعم هذا الفتى الفتح ابن خاقان طرح نفسه على المتوكل حتى خلط لحمه بلحمه ودمه بدمه ثم تركنى وتولى فلما عدت الى المبرد قصصت عليه القصة فقال أتعرفه قلت لا قال ذلك خالد الكاتب تأخذه السوداء أيام الباذنجان انتهى * قيل كبر خالد الكاتب حتى دق عظمه ورق جلده وقوى به الوسواس ورؤى ببغداد والصبيان يتبعونه فاسند ظهره الى قصر المعتصم والصبيان يصيحون به يا بارد فقال كيف أكون باردا وأنا الذى أقول

بكى عاذلى من رحمتى فرحمته * وكم مثله من مسعد ومعين

المؤمنين انى أنفذت أمره ثم حج المنصور فلما قدم من حجه وقد استقر فى نفسه انى قد قتلت عمه عبد الله دس الى عمومته اخوة عبد الله وحثهم على أن يسألوه فى أخيهم ويستوهبوه منه فجاؤا اليه وقد جلس والناس بين يديه على مراتبهم فسألوه فى عبد الله فقال نعم ان حقوقكم تقتضى اسعافكم بحاجتكم كيف وفيها صلة رحم واحسان الى من هو فى مقام الوالد ثم أمر باحضار عيسى بن موسى فاحضر لوقته فقال ياعيسى كنت دفعت اليك قبل خروجى الى الحج عمى عبد الله ليكون عندك فى منزلك الى حين رجوعى فقال عيسى قد فعلت يا أمير المؤمنين فقال المنصور قد سألنى فيه عمومتك وقد رأيت الصفح عنه وقضاء حاجتهم وصلة الرحم باجابة سؤالهم فيه فأتنا به الساعة قال عيسى فقلت يا أمير المؤمنين ألم تأمرنى بقتله والمبادرة الى ذلك قال كذبت لم آمرك بذلك ولو أردت قتله لاسلمته الى من هو بصدد ذلك ثم أظهر الغيظ وقال لعمومته قد أقر بقتل أخيكم مدعيا انى أمرته بقتله وقد كذب على قالوا يا أمير المؤمنين فادفعه الينا لنقتله به ونقتص منه فقال شأنكم به قال عيسى فاخذونى الى الرحبة واجتمع الناس على فقام واحد من عمومتى الى وسل سيفه ليضربنى به فقلت له ياعم أفاعل أنت قال أى والله كيف لا أقتلك وقد قتلت أخى فقلت لهم لا تعجلوا وردونى الى أمير المؤمنين فردونى اليه فقلت يا أمير المؤمنين انما أردت قتلى بقتله والذى دبرته على عصمنى الله تعالى من فعله وهذا عمك باق حى سوى فان أمرتنى بدفعه اليهم دفعته اليهم الساعة فاطرق المنصور وعلم ان ريح فكره صادفت اعصارا وان انفراده بتدبيره قارف خسارا ثم رفع رأسه وقال ائتنا به فمضى عيسى وأحضر عبد الله فلما رآه المنصور قال لعمومته اتركوه عندى وانصرفوا حتى أرى فيه رأيا قال عيسى فتركته وانصرفت وانصرف اخوته فسلمت روحى وزالت كربتى وكان ذلك ببركة الاستشارة بيونس وقبول مشورته والعمل بها ثم ان المنصور أسكن عبد الله فى بيت أساسه قد بنى على الملح ثم أرسل الماء حوله ليلا فذاب الملح وسقط البيت فمات عبد الله ودفن بمقابر باب الشام وسلم عيسى من هذه المكيدة ومن سهام مراميها البعيدة

﴿وما جاء فى النصيحة﴾ اعلموا أن النصيحة للمسلمين وللخلائق أجمعين من سنن المرسلين قال الله تعالى اخبارا عن نوح عليه الصلاة والسلام ولا ينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم واليه ترجعون وقال شعيب عليه السلام ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين وقال صالح عليه السلام ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الدين النصيحة ان الدين النصيحة ان الدين النصيحة قالوا لمن يارسول الله قال لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين ولعامتهم * فالنصح لله هو وصفه بما هو أهله وتنزيهه عما ليس له بأهل والقيام بتعظيمه والخضوع له ظاهرا وباطنا والرغبة فى محابه والبعد عن مساخطه وموالاة من أطاعه ومعاداة من عصاه والجهاد فى رد العصاة الى طاعته قولا وفعلا * والنصيحة لكتابه اقامته فى التلاوة وتحسينه عند القراءة وتفهم ما فيه والذب عنه من تأويل المحرفين وطعن الطاعنين وتعليم ما فيه للخلائق أجمعين قال الله تعالى كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب * والنصيحة للرسول عليه السلام احياء سنته بالطلب لها واحياء طريقته فى بث الدعوة وتأليف الكلمة والتخلق بالاخلاق الطاهرة * والنصيحة للائمة معاونتهم على ما كلفوا القيام به بتنبيههم عند الغفلة وارشادهم عند الهفوة وتعليمهم ما جهلوا وتحذيرهم ممن يريد بهم السوء واعلامهم باخلاق عمالهم وسيرتهم فى الرعية وسد خلتهم عند الحاجة ورد القلوب النافرة اليهم * والنصيحة لعامة المسلمين الشفقة عليهم وتوقير كبيرهم والرحمة لصغيرهم وتفريج كربهم وتوقى ما يشغل خواطرهم ويفتح باب الوسواس عليهم (واعلم) ان جرعة النصيحة مرة لا يقبلها الا أولوا العزم وقال ميمون بن مهران قال لى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه قل لى فى وجهى ما أكره فان الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه ما يكره وفى منثور الحكم ودك من نصحك وقلاك من مشى فى هواك وقال أبو الدرداء رضى الله عنه ان شئتم لانصحن لكم ان أحب عباد الله الى الله الذين يحببون الله تعالى الى عباده ويعملون فى الأرض نصحا ولورقة بن نوفل

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم * انى النذير فلا يغرركم أحد
لا شئ مما ترى تبقى بشاشته * الا الاله ويردى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه * والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

وقال بعض الخلفاء لجرير بن يزيد انى قد أعددتك لأمر قال يا أمير المؤمنين ان الله تعالى قد أعد لك منى قلبا

ورقت دموع العين حتى كأنها
دموع دموعى لا دموع جفونى

(وحدث أبو الحسن على ابن مقلة) قال حدثنى أبى عن عمه قال اجتاز بى خالد الكاتب وأنا على باب دارى بسر من رأى والصبيان حوله يعبثون به فجاءنى لما رآنى وسألنى صرفهم عنه فصرفتهم وأدخلته دارى وقلت له ما تشتهى تأكل قال الهريسة فتقدمت باصلاحها له فلما أكل قلت أى شئ تحب بعد هذا قال رطب فأمرت باحضاره فاكل فلما فرغ من أكله قلت له أنشدنى من شعرك فأنشدنى

تناسيت ما أوعيت سمعك ياسمعى
كأنك بعد الضر خال من النفع
فان كنت مطبوعا على الصد والجفا
فمن أين لى صبر فاجعله طبعى
لئن كان أضحى فوق خديك روضة
فان على خدى غديرا من الدمع

فقلت زدنى فقال لا يساوى هريسك ورطبك غير هذا (ومن المروى عنه) قال بعض طلبة المبرد خرجت من مجلس المبرد فلقيت خالد الكاتب فقال من أين قلت من مجلس المبرد قال بل البارد ثم قال ما الذى أنشدكم اليوم قلت أنشدنى

أعار الغيث نائله * اذا ما ماؤه نفدا
وان أسد شكا جبنا
أعار فؤاده الاسدا

فقال أخطأ قائل هذا الشعر قلت كيف قال ألا تعلم انه اذا أعار الغيث نائله بقى بلا نائل واذا أعار الأسد فؤاده بقى بلا فؤاد قلت فكيف كان يقول فأنشد

علم الغيث الندى من يده
مذ دعاه علم البأس الأسد
فاذا الغيث مقر بالندى
واذا الليث مقر بالجلد

قال فكتبتهما وانصرفت ﴿نادرة لطيفة﴾ دخل أبو دلامة على المهدى فانشده قصيدة فقال سل حاجتك فقال يا أمير المؤمنين هب

معقود بنصيحتك ويدا مبسوطة لطاعتك وسيفا مجردا على عدوك وأنشد الأصمعي

النصح أرخص ما باع الرجال فلا * ترد على ناصح نصحا ولا تلم
ان النصائح لا تخفى مناهلها * على الرجال ذوي الألباب والفهم

ولعاذ بن مسلم

نصحتك والنصيحة ان تعدت * هوى المنصوح عز لها القبول
فخالفت الذي لك فيه حظ * فنالك دون ما أملت غول

وقيل أشار فيروز بن حصين على يزيد بن المهلب أن لا يضع يده في يد الحجاج فلم يقبل منه وسار اليه فحبسه وحبس أهله فقال فيروز

أمرتك أمرا حازما فعصيتني * فأصبحت مسلوب الامارة نادما * أمرتك بالحجاج اذ أنت قادر
فنفسك أولى اللوم ان كنت لائما * فما أنا بالباكي عليك صبابة * وما أنا بالداعي لترجع سالما

ويقال من اصفر وجهه من النصيحة اسود لونه من الفضيحة وقال طرفة

ولا ترفدن النصح من ليس أهله * وكن حين تستغني برأيك غانيا
وان امرأ يوما تولى برأيه * فدعه يصيب الرشد أو يك غاويا

وفي مثله قال بعضهم

من الناس من ان يستشرك فتجتهد * له الرأي يستغششك ما لم تتابعه
فلا تمنحن الرأي من ليس أهله * فلا أنت محمود ولا الرأي نافعه

والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿الباب الثاني عشر في الوصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة وما أشبه ذلك﴾

قال الله تعالى ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن وقال الله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون وقال تعالى ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وقال تعالى والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات * والآيات في ذلك كثيرة مشهورة وفوائدها جمة منشورة وروينا في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان * وقال شيخنا محيي الدين النووي رحمة الله تعالى عليه في قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم ان هذه الآية الكريمة مما يغتر بها أكثر الجاهلين ويحملونها على غير وجهها بل الصواب في معناها أنكم اذا فعلتم ما أمرتم به لا يضركم ضلالة من ضل * ومن جملة ما أمروا به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والآية مرتبة في المعنى على قوله تعالى ما على الرسول الا البلاغ * وقال محمد ابن تمام الموعظة جند من جنود الله تعالى ومثلها مثل الطين يضرب به على الحائط ان استمسك نفع وان وقع أثر * ومن كلام علي رضي الله تعالى عنه لا تكونن ممن لا تنفعه الموعظة الا اذا بالغت في ايلامه فان العاقل يتعظ بالأدب والبهائم لا تتعظ الا بالضرب وأنشد الجاحظ

وليس يزجركم ما توعظون به * والبهم يزجرها الراعي فتنزجر

وكتب رجل الى صديق له أما بعد فعظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك واستحي من الله بقدر قربه منك وخفه بقدر قدرته عليك والسلام وقيل من كان له من نفسه واعظ كان له من الله حافظ وقال لقمان الموعظة تشق على السفيه كما يشق صعود الوعر على الشيخ الكبير * قيل أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام انك ان أتيتني بعبد آبق كتبتك عندي حميدا ومن كتبته عندي حميدا لم أعذبه بعدها أبدا وقال الرشيد لمنصور بن عمار عظني وأوجز فقال يا أمير المؤمنين هل أحد أحب اليك من نفسك قال لا قال ان أردت أن لا تسيء الى من تحب فافعل وقال النبي صلى الله عليه وسلم في بعض خطبه أيها الناس الأيام تطوى والأعمار تفنى والابدان في الثرى تبلى وان الليل والنهار يتراكضان تراكض البريد ويقربان كل بعيد ويخلقان كل جديد وفي ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات ورغب في الباقيات الصالحات * ولما لقي ميمون بن مهران الحسن البصري قال له لقد كنت أحب ان ألقاك فعظني فقرأ الحسن البصري أفرأيت من اتخذ الهه هواه أفرأيت ان متعناهم

لي كلبا قال فغضب وقال أقول لك سل حاجتك تقول هب لي كلبا فقال يا أمير المؤمنين الحاجة لي أو لك فقال بل لك فقال اني أسألك أن تهب لي كلب صيد فأمر له بكلب فقال يا أمير المؤمنين هبني خرجت للصيد أعدو على رجلي فأمر له بدابة فقال له يا أمير المؤمنين فمن يقوم عليها فأمر له بغلام فقال يا أمير المؤمنين هبني صدت صيدا وأتيت به المنزل فمن يطبخه فأمر له بجارية فقال يا أمير المؤمنين فهؤلاء أين يبيتون فأمر له بدار فقال يا أمير المؤمنين قد صيرت في عنقي عيالا فمن أين لي ما يقوت هؤلاء قال المهدي اعطوه جريب نخل ثم قال هل بقيت لك حاجة قال نعم تأذن لي ان أقبل يدك انتهى (وحكي) أن هشام بن عبد الملك قدم حاجا الى بيت الله الحرام فلما دخل الحرم قال ائتوني برجل من الصحابة فقيل يا أمير المؤمنين قد تفانوا قال فمن التابعين فأتى بطاوس اليماني فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم بأمير المؤمنين ولم يكنه وجلس الى جانبه بغير اذنه وقال كيف أنت يا هشام فغضب من ذلك غضبا شديدا حتى هم بقتله فقيل له أنت يا أمير المؤمنين في حرم الله وحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكون ذلك فقال يا طاوس ما حملك على ما صنعت قال وما صنعت قال خلعت نعليك بحاشية بساطي ولم تسلم بيا أمير المؤمنين ولم تكنني وجلست بازائي بغير اذني وقلت يا هشام كيف أنت فقال له طاوس أما خلع نعلي بحاشية بساطك فاني أخلعهما بين يدي رب العزة في كل يوم خمس مرات ولا يعاتبني ولا يغضب علي وأما قولك لم تسلم علي بامرة المؤمنين فليس كل المؤمنين راضيا بامرتك فخفت أن أكون كاذبا وأما قولك لم تكنني فان الله

سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون. فقال عليك السلام أبا سعيد لقد وعظتني أحسن موعظة * ولما ضرب ابن ملجم لعنه الله عليا رضي الله عنه دخل منزله فاعترته غشية ثم أفاق فدعا الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما وقال أوصيكما بتقوى الله تعالى والرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا ولا تأسفا على شيء فاتكما منها فانكما عنها راحلان افعلا الخير وكونا للظالم خصما وللمظلوم عونا ثم دعا محمدا ولده وقال له أما سمعت ما أوصيت به أخويك قال بلى قال فاني أوصيك به وعليك ببر أخويك وتوقيرهما ومعرفة فضلهما ولا تقطع أمرا دونهما ثم أقبل عليهما وقال أوصيكما به خيرا فانه أخوكما وابن أبيكما وأنتما تعلمان ان أباه كان يحبه فأحباه ثم قال يا بني أوصيكم بتقوى الله في الغيب والشهادة وكلمة الحق في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر والعدل في الصديق والعدو والعمل في النشاط والكسل والرضا عن الله في الشدة والرخاء يا بني ما شر بعده الجنة بشر ولا خير بعده النار بخير وكل نعيم دون الجنة حقير وكل بلاء دون النار عافية يا بني من أبصر عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره ومن رضي بما قسم الله له لم يحزن على ما فاته ومن سل سيف البغي قتل به ومن حفر لأخيه بئرا وقع فيها ومن هتك حجاب أخيه هتكت عورات بنيه ومن نسي خطيئته استعظم خطيئة غيره ومن أعجب برأيه ضل ومن استغنى بعقله زل ومن تكبر على الناس ذل ومن خالط الأنذال احتقر ومن دخل مداخل السوء اتهم ومن جالس العلماء وقر ومن مزح استخف به ومن أكثر من شيء عرف به ومن كثر كلامه كثر خطؤه ومن كثر خطؤه قل حياؤه ومن قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه مات قلبه ومن مات قلبه دخل النار يا بني الأدب ميزان الرجل وحسن الخلق خير قرين يا بني العافية عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت الا عن ذكر الله تعالى وواحد في ترك مجالسة السفهاء يا بني زينة الفقر الصبر وزينة الغنى الشكر يا بني لا شرف أعلى من الاسلام ولا كرم أعز من التقوى ولا شفيع أنجح من التوبة ولا لباس أجمل من العافية. يا بني الحرص مفتاح التعب ومطية النصب (ولما) حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة نظر الى أهله يبكون حوله فقال جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم له بالبكاء وترك لكم جميع ما جمع وتركتم عليه ما حمل ما أعظم منقلب هشام ان لم يغفر الله له وقال الأوزاعي للمنصور في بعض كلامه يا أمير المؤمنين أما علمت أنه كان بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يابسة يستاك بها ويردع بها المنافقين فأتاه جبريل عليه السلام فقال يا محمد ما هذه الجريدة التي بيدك أقذفها لئلا تملأ قلوبهم رعبا فكيف بمن سفك دماء المسلمين وانتهب أموالهم يا أمير المؤمنين ان المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا الى القصاص من نفسه بخدشة خدشها اعرابيا من غير تعمد يا أمير المؤمنين لو أن ذنوبا من النار صب ووضع على الأرض لأحرقها فكيف بمن يتجرعه ولو أن ثوبا من النار وضع على الأرض لأحرقها فكيف بمن يتقمصه ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب فكيف بمن يتسلسل بها ويرد فضلها على عاتقه وروى زيد ابن أسلم عن أبيه قال قلت لجعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكان والي المدينة احذر أن يأتي رجل غدا ليس له في الاسلام نسب ولا أب ولا جد فيكون أولى برسول الله صلى الله عليه وسلم منك كما كانت امرأة فرعون أولى بموسى وكما كانت امرأة نوح وامرأة لوط أولى بفرعون ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ومن أسرع به عمله لم يبطئ به نسبه وروى زياد عن مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه قال لما بعث أبو جعفر الى مالك بن أنس وابن طاوس قال دخلنا عليه وهو جالس على فرش وبين يديه أنطاع قد بسطت وجلادون بأيديهم السيوف يضربون الأعناق فأومأ الينا ان اجلسا فجلسنا فاطرق زمانا طويلا ثم رفع رأسه والتفت الى ابن طاوس وقال حدثني عن أبيك قال سمعت أبي يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى في ملكه فأدخل عليه الجور في حكمه فأمسك أبو جعفر ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه قال مالك فضممت ثيابي مخافة أن يناله شيء من دم ابن طاوس ثم قال يا ابن طاوس ناولني هذه الدواة فأمسك عنه فقال ما يمنعك أن تناولنيها قال أخاف أن تكتب بها معصية فأكون شريكك فيها فلما سمع ذلك قال قوما عني فقال ابن طاوس ذلك ما كنا نبغي قال مالك فما زلت أعرف لابن طاوس فضله من ذلك اليوم وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لكعب الأحبار يا كعب خوفنا قال أو ليس فيكم كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم قال بلى يا كعب ولكن خوفنا فقال يا أمير المؤمنين اعمل فانك لو وافيت يوم القيامة بعمل سبعين

عز وجل سمى أنبياءه فقال يا داود يا يحيى يا عيسى وكنى أعداءه فقال تبت يدا أبي لهب وأما قولك جلست بازائي فاني سمعت أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه يقول اذا أردت أن تنظر الى رجل من أهل النار فانظر الى رجل جالس وحوله قوم قيام فقال له عظني فقال له اني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول ان في جهنم حيات وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته ثم قام فخرج انتهى (نادرة لطيفة) مروية عن أبي عمر عامر الشعبي ولكن يتعين أن نبدأ بشيء من ترجمته أولا قال الزهري العلماء أربعة ابن المسيب بالمدينة والحسن البصري بالبصرة ومكحول بالشام والشعبي بالكوفة ويقال انه أدرك خمسمائة من الصحابة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (والنادرة الموعود بذكرها) هي ما حكى الشعبي قال أنفذني عبد الملك بن مروان الى ملك الروم فلما وصلت اليه جعل لا يسألني عن شيء الا أجبته وكانت الرسل لا تطيل الاقامة فحبسني عنده أياما كثيرة فلما أردت الانصراف قال أمن بيت المملكة أنت فقلت لا ولكني من العرب فدفع الي رقعة وقال اذا أديت الرسائل الى صاحبك أوصل اليه هذه الرقعة قال فأديت الرسائل عند وصولي الى عبد الملك وأنسيت الرقعة فلما وصلت الباب أريد الخروج تذكرت الرقعة فرجعت فأوصلتها اليه فقال لي هل قال لك شيأ قبل أن يدفعها اليك قلت نعم قال لي أنت من أهل بيت المملكة قلت لا ولكني رجل من العرب في الجملة ثم خرجت من عند عبد الملك فلما بلغت الباب طلبني فرددت فلما مثلت بين يديه قال أتدري ما في الرقعة قلت لا قال اقرأها فقرأتها

نبيا الا ازدريت عملهم مما ترى فنكس عمر رضي الله عنه رأسه وأطرق مليا ثم رفع رأسه وقال يا كعب خوفنا فقال يا أمير المؤمنين لو فتح من جهنم قدر منخر ثور بالمشرق ورجل بالمغرب لغلى دماغه حتى يسيل من حرها فنكس عمر ثم أفاق فقال يا كعب زدنا فقال يا أمير المؤمنين ان جهنم لتزفر زفرة يوم القيامة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل الا جثا على ركبتيه يقول يارب لا أسألك اليوم الا نفسي * وقال سيدي الشيخ أبو بكر الطرطوشي رحمه الله تعالى عليه دخلت على الأفضل بن أمير الجيوش وهو أمير على مصر فقلت السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فرد السلام على نحو ما سلمت ردا جميلا وأكرمني اكراما جزيلا وأمرني بدخول مجلسه وأمرني بالجلوس فيه فقلت أيها الملك ان الله تعالى قد أحلك محلا عليا شامخا وأنزلك منزلا شريفا باذخا وملكك طائفة من ملكه وأشركك في حكمه ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك وليس الشكر باللسان وانما هو بالفعال والاحسان قال الله تعالى اعملوا آل داود شكرا واعلم أن هذا الذي أصبحت فيه من الملك انما صار اليك بموت من كان قبلك وهو خارج عنك بمثل ما صار اليك فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة فان الله تعالى سائلك عن الفتيل والنقير والقطمير قال الله تعالى فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون وقال تعالى وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين واعلم أيها الملك ان الله تعالى قد آتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود عليهما السلام فسخر له الانس والجن والشياطين والطير والوحش والبهائم وسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع فقال له هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب فوالله ما عدها نعمة كما عددتموها ولا حسبها كرامة كما حسبتموها بل خاف أن تكون استدراجا من الله تعالى ومكرا به فقال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر فافتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم وأغث الملهوف أعانك الله على نصر المظلوم وجعلك كهفا للملهوف وأمانا للخائف ثم أتممت المجلس بان قلت قد رحت البلاد شرقا وغربا فما اخترت مملكة وارتحت اليها ولذت لى الاقامة فيها غير هذه المملكة ثم أنشدته

والناس أكيس من أن يحمدوا رجلا * حتى يروا عنده آثار احسان

(وقال) الفضل بن الربيع حج هرون الرشيد سنة من السنين فبينما أنا نائم ذات ليلة اذ سمعت قرع الباب فقلت من هذا فقال أجب أمير المؤمنين فخرجت مسرعا فقلت يا أمير المؤمنين لو أرسلت الى أتيتك فقال ويحك قد حاك في نفسي شئ لا يخرجه الا عالم فانظر لى رجلا أسأله عنه فقلت ههنا سفيان بن عيينة فقال امض بنا اليه فأتيناه فقرعت عليه الباب فقال من هذا فقلت أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعا فقال يا أمير المؤمنين لو أرسلت الى أتيتك فقال جد لما جئناله فحادثه ساعة ثم قال له أعليك دين قال نعم فقال يا أبا العباس اقض دينه ثم انصرفنا فقال ما أغنى عنى صاحبك شيأ فانظر لى رجلا أسأله قلت ههنا عبد الرزاق بن همام فقال امض بنا اليه فأتيناه فقرعت عليه الباب فقال من هذا فقلت أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعا فقال يا أمير المؤمنين لو أرسلت الى أتيتك فقال جد لما جئناله فحادثه ساعة ثم قال له أعليك دين قال نعم فقال يا أبا العباس اقض دينه ثم انصرفنا فقال ما أغنى عنى صاحبك شيأ فانظر لى رجلا أسأله فقلت ههنا الفضيل بن عياض فقال امض بنا اليه فأتيناه فاذا هو قائم يصلى في غرفته يتلو آية من كتاب الله تعالى وهو يرددها فقرعت عليه الباب فقال من هذا فقلت أجب أمير المؤمنين فقال مالى ولأمير المؤمنين فقلت سبحان الله أما تجب عليك طاعته ففتح الباب ثم ارتقى الى أعلى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ الى زاوية من زوايا الغرفة فجعلنا نجول عليه بايدينا فسبقت كف الرشيد كفي اليه فقال أواه من كف ما ألينها ان نجت غدا من عذاب الله تعالى فقلت في نفسي ليكلمنه الليلة بكلام نقى من قلب تقى فقال جد لما جئناله رحمك الله تعالى فقال وفيم جئت حملت على نفسك وجميع من معك حملوا عليك حتى لو سألتهم أن يتحملوا عنك شقصا من ذنب ما فعلوا ولكان أشدهم حبا لك اشدهم هربا منك ثم قال ان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظى ورجاء بن حيوة فقال لهم انى قد ابتليت بهذا البلاء فاشيروا على فعد الخلافة بلاء وعددتها أنت وأصحابك نعمة فقال سالم بن عبد الله ان أردت النجاة غدا من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن افطارك فيها على الموت وقال محمد بن كعب ان أردت النجاة غدا من عذاب الله تعالى فليكن كبير المسلمين عندك أبا وأوسطهم عندك أخا وأصغرهم عندك

فاذا فيها المجيب من قوم فيهم مثل هذا كيف ملكوا غيره قلت يا أمير المؤمنين لو علمت ما فيها ما حملتها وانما قال هذا لأنه لم يرك قال أتدرى لم كتبها قلت لا قال حسدنى عليك فأراد أن يغرينى بقتلك انتهى (وقيل) كان الشعبي ضئيلا نحيلا فقيل له في ذلك فقال زوحمت في الرحم وكان قد ولد هو وأخ آخر وأقام في البطن سنتين ذكره صاحب كتاب المعارف (ويقال) ان الحجاج قال له يوما كم عطاؤك في السنة فقال ألفين فقال له ويحك كم عطاؤك قال ألفان فقال ويحك كيف لحنت أولا فقال لحن الأمير فلحنت فلما أعرب أعربت وما يحسن أن يلحن الأمير وأعرب فاستحسن ذلك منه وأجازه (نادرة بديعة غريبة) منقولة عن سديد الملك أبي الحسن على بن منقذ صاحب قلعة شيزر وكان سديد المذكور مقصودا من البلاد ممدوحا مدحه جماعة من الشعراء كابن الخياط والخفاجي وغيرهما وله شعر جيد أيضا ومنه قوله وقد غضب على مملوكه فضربه

أسطو عليه وقلبي لو تمكن من
كفي غلهما غيظا الى عنقي
وأستعين اذا عاقبته حنقا
وأين ذل الهوى من عزة الحنق

وكان موصوفا بقوة الفطنة ويحكى عنه في ذلك حكاية عجيبة وهي انه كان يتردد على حلب قبل تملكه قلعة شيزر وصاحب حلب يومئذ تاج الملوك محمود بن صالح بن مرداس فجرى أمر خاف سديد الملك منه على نفسه فخرج من حلب الى طرابلس الشام وصاحبها يومئذ جلال الملك بن عمار فأقام عنده فتقدم محمود صاحب حلب الى كاتبه أبي نصر محمد بن الحسين بن على النحاس الحلبي أن يكتب الى سديد الملك

ولدا فبر أباك وارحم أخاك وتحنن على ولدك وقال رجاء بن حيوة ان أردت النجاة غدا من عذاب الله تعالى فاحب للمسلمين ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ثم متى شئت مت وانى لأقول هذا وانى لاخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام فهل معك رحمك الله مثل هؤلاء القوم من يامرك بمثل هذا فبكى هرون بكاء شديدا حتى غشى عليه فقلت له ارفق يا أمير المؤمنين فقال يا ابن الربيع قتلته أنت وأصحابك وأرفق به أنا ثم أفاق هرون الرشيد فقال زدنى فقال يا أمير المؤمنين بلغنى أن عاملا لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه شكا اليه سهرا فكتب له عمر يقول يا أخى اذكر سهر أهل النار فى النار وخلود الأبدان فان ذلك يطرد بك الى ربك نائما ويقظان واياك ان تزل قدمك عن هذا السبيل فيكون آخر العهد بك ومنقطع الرجاء منك فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه فقال له عمر ما أقدمك فقال له لقد خلعت قلبى بكتابك لا وليت ولاية أبدا حتى ألقى الله عز وجل فبكى هرون بكاء شديدا ثم قال زدنى قال يا أمير المؤمنين ان العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم جاء اليه فقال يا رسول الله أمرنى امارة فقال النبى صلى الله عليه وسلم يا عباس نفس تحييها خير من امارة لا تحصيها ان الامارة حسرة وندامة يوم القيامة فان استطعت أن لا تكون أميرا فافعل فبكى هرون الرشيد بكاء شديدا ثم قال زدنى يرحمك الله فقال يا حسن الوجه أنت الذى يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة فان استطعت أن تقى هذا الوجه من النار فافعل واياك أن تصبح وتمسى وفى قلبك غش لرعيتك فان النبى صلى الله عليه وسلم قال من أصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة فبكى هرون الرشيد بكاء شديدا ثم قال له أعليك دين قال نعم دين لربى يحاسبنى عليه فالويل لى ان ناقشنى والويل لى ان سألنى والويل لى ان لم يلهمنى حجتى قال هرون انما أعنى دين العباد قال ان ربى لم يامرنى بهذا وانما أمرنى أن أصدق وعده وأطيع أمره قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين فقال له هرون هذه ألف دينار خذها وأنفقها على عيالك وتقو بها على عبادة ربك فقال سبحان الله أنا دللتك على سبيل الرشاد تكافئنى أنت بمثل هذا سلمك الله ووفقك ثم صمت فلم يكلمنا فخرجنا من عنده فقال لى هرون اذا دللتنى على رجل فدلنى على مثل هذا فان هذا سيد المسلمين اليوم (واعلم) ان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر له شروط وصفات قال سليمان الخواص من وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهى نصيحة ومن وعظه على رؤس الاشهاد فانما بكته * وقالت ام الدرداء رضى الله تعالى عنها من وعظ أخاه سرا فقد سره وزانه ومن وعظه علانية فقد ساءه وشانه ويقال من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وسره ومن وعظه جهرا فقد فضحه وضره * وعن عبد العزيز بن أبى رواد قال كان الرجل اذا رأى من أخيه شيأ أمره فى ستر ونهاه فى ستر فيوجر فى ستره ويوجر فى أمره ويوجر فى نهيه وعن عمر رضى الله تعالى عنه اذا رأيتم أخا لكم ذا زلة فقوموه وسددوه وادعوا الله أن يرجع به الى التوبة فيتوب عليه ولا تكونوا أعوانا للشيطان على أخيكم وبالله التوفيق الى أقوم طريق وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

❊ الباب الثالث عشر فى الصمت وصون اللسان والنهى عن الغيبة والسعى بالنميمة ومدح العزلة وذم الشهرة وفيه فصول ❊

❊ الفصل الأول فى الصمت وصون اللسان ❊ قال الله تعالى ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد وقال تعالى ان ربك لبالمرصاد (واعلم) أنه ينبغى للعاقل المكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام الا كلاما تظهر المصلحة فيه ومتى استوى الكلام وتركه فى المصلحة فالسنة الامساك عنه لانه قد يجر الكلام المباح الى حرام أو مكروه بل هذا كثير وغالب فى العادة والسلامة لا يعادلها شىء وروينا فى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت قال الشافعى رضى الله عنه فى الأم اذا أراد أحدكم الكلام فعليه أن يفكر فى كلامه فان ظهرت المصلحة تكلم وان شك لم يتكلم حتى تظهر وروينا فى صحيحيهما عن أبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه قال قلت يا رسول الله أى المسلمين أفضل قال من سلم الناس من لسانه ويده وروينا فى كتاب الترمذى عن عقبة ابن عامر رضى الله تعالى عنه قال قلت يا رسول الله ما النجاة قال امسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك قال الترمذى حديث حسن وروينا فى كتاب الترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن

كتابا يتشوقه فيه ويستعطفه ويستدعيه الى حلب ففهم الكاتب انه يقصد له شرا اذا جاء اليه وكان الكاتب صديقا الى سديد الملك فكتب الكاتب كما أمره مخدومه الى ان بلغ الى آخره وهو ان شاء الله فشدد النون وفتحها فلما وصل الكتاب الى سديد الملك عرضه على ابن عمار صاحب طرابلس ومن بمجلسه من خواصه فاستحسنوا عبارة الكتاب واستعظموا ما فيه من رغبة محمود فيه وايثاره لقربه فقال سديد الملك انى أرى ما لا ترون فى الكتاب ثم أجاب عن الكتاب بما اقتضاه الحال وكتب فى جملة فصول الكتاب أنا الخادم المقر بالانعام وكسر الهمزة من أنا وشدد النون فلما وصل الكتاب الى محمود ووقف عليه سر بما فيه وقال لاصدقائه قد علمت ان الذى كتبته لا يخفى على مثله وقد أجاب بما طيب قلبى عليه وكان الكاتب قد قصد قوله تعالى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاجاب سديد الملك بقوله انا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها وكانت هذه الحكاية معدودة من شدة تيقظه وفهمه انتهى ❊ وحكى الصابى فى كتاب الاعيان والامثال ❊ ان رجلا اتصلت عطلته وانقطعت مادته فزور كتابا من الوزير أبى الحسن على بن الفرات وزير المقتدر بالله العباسى الى ابن زيتون الماردانى عامل مصر يتضمن المبالغة فى الوصايا وزيادة الاكرام وعمل الصالح فلما دخل مصر اجتمع بابن زيتون ودفع اليه الكتاب فلما قرأ ابن زيتون الكتاب ارتاب فى أمره لتغير لفظ الخطاب عما جرت به العادة وكون الدعاء أكثر مما يقتضيه محله فراعاه مراعاة قريبة ووصله صلة قليلة وحبسه عنده على وعد وعده به ثم كتب الى أبى الحسن بن الفرات يذكر الكتاب الذى ورد عليه وأنفذه بعينه فلما

النبي صلى الله عليه وسلم قال من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه والأحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة وفيما أشرت اليه كفاية لمن وفقه الله تعالى (وأما الآثار) عن السلف وغيرهم في هذا الباب فكثيرة لا تحصر لكن ننبه على شيء منها* فمما جاء من ذلك ما بلغنا أن قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي اجتمعا فقال أحدهما لصاحبه كم وجدت في ابن آدم من العيوب فقال هي أكثر من أن تحصى وقد وجدت خصلة ان استعملها الانسان سترت العيوب كلها قال وما هي قال حفظ اللسان وقال الامام الشافعي رضي الله عنه لصاحبه الربيع ياربيع لا تتكلم فيما لا يعنيك فانك اذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها وقال بعضهم مثل اللسان مثل السبع ان لم توثقه عدا عليك ولحقك شره ومما أنشدوه في هذا الباب

احفظ لسانك أيها الانسان * لا يلدغنك انه ثعبان
كم في المقابر من قتيل لسانه * كانت تهاب لقاءه الشجعان

وقال الفارسي

لعمرك ان في ذنبي لشغلا * لنفسي عن ذنوب بني أميه
على ربي حسابهم اليه * تناهى علم ذلك لا اليه

وقال علي رضي الله عنه اذا تم العقل نقص الكلام وقال أعرابي رب منطق صدع جمعا وسكوت شعب صدعا وقال وهب بن الورد بلغنا ان الحكمة عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت والعاشر في عزلة الناس وقال علي بن هشام رحمة الله تعالى عليه

لعمرك ان الحلم زين لأهله * وما الحلم الا عادة وتحلم
اذا لم يكن صمت الفتى عن ندامة * وعي فان الصمت أولى وأسلم

وقال ابن عيينة من حرم الخير فليصمت فان حرمهما فالموت خير له وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبي ذر رضي الله عنه عليك بالصمت الا من خير فانه مطردة للشيطان وعون على أمر دينك ومن كلام الحكماء من نطق في غير خير فقد لغا ومن نظر في غير اعتبار فقد سها ومن سكت في غير فكر فقد لها وقيل لو قرأت صحيفتك لأغمدت صفيحتك ولو رأيت ما في ميزانك لختمت على لسانك ولما خرج يونس عليه السلام من بطن الحوت طال صمته فقيل له ألا تتكلم فقال الكلام صيرني في بطن الحوت وقال حكيم اذا أعجبك الكلام فاصمت واذا أعجبك الصمت فتكلم وكان يقال من السكوت ما هو أبلغ من الكلام لان السفيه اذا سكت عنه كان في اغتمام وقيل لرجل بم ساد كم الأحنف فوالله ما كان بأكبركم سنا ولا بأكثركم مالا فقال بقوة سلطانه على لسانه وقيل الكلمة أسيرة في وثاق الرجل فاذا تكلم بها صار في وثاقها وقيل اجتمع أربعة ملوك فتكلموا فقال ملك الفرس ما ندمت على ما لم أقل مرة وندمت على ما قلت مرارا وقال قيصر أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت وقال ملك الصين ما لم أتكلم بكلمة ملكتها فاذا تكلمت بها ملكتني وقال ملك الهند العجب ممن يتكلم بكلمة ان رفعت ضرت وان لم ترفع لم تنفع وكان بهرام جالسا ذات ليلة تحت شجرة فسمع منها صوت طائر فرماه فأصابه فقال ما أحسن من حفظ اللسان بالطائر والانسان لو حفظ هذا لسانه ما هلك وقال علي رضي الله تعالى عنه بكثرة الصمت تكون الهيبة وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه الكلام كالدواء ان أقللت منه نفع وان أكثرت منه قتل وقال لقمان لولده يا بني اذا افتخر الناس بحسن كلامهم فافتخر أنت بحسن صمتك يقول اللسان كل صباح وكل مساء للجوارح كيف أنتن فيقلن بخير ان تركتنا قال الشاعر

احفظ لسانك لا تقول فتبتلى * ان البلاء موكل بالمنطق

الفصل الثاني في تحريم الغيبة

اعلم ان الغيبة من أقبح القبائح وأكثرها انتشارا في الناس حتى لا يسلم منها الا القليل من الناس وهي ذكرك الانسان بما يكره ولو بما فيه سواء كان في دينه أو بدنه أو نفسه أو خلقه أو خلقه أو ماله أو ولده أو والده أو زوجته أو خادمه أو عمامته أو ثوبه أو مشيته أو حركته أو بشاشته أو خلاعته أو غير ذلك مما يتعلق به سواء ذكرته بلفظك أو بكتابك أو رمزت اليه بعينك أو يدك أو رأسك أو نحو ذلك فأما الدين فكقولك سارق خائن ظالم متهاون بالصلاة متساهل في النجاسات ليس بارا بوالديه قليل الأدب لا يضع الزكاة مواضعها لا يجتنب الغيبة وأما البدن فكقولك أعمى أو أعرج أو أعمش أو قصير أو طويل أو أسود أو أصفر وأما غيرهما فكقولك فلان قليل الأدب متهاون بالناس لا يرى لأحد عليه حقا كثير النوم كثير الأكل وما أشبه ذلك أو كقولك فلان أبوه نجار أو اسكاف أو حداد أو حائك تريد تنقيصه بذلك أو

وثق عليه ابن الفرات عرف الرجل وذكر ما كان عليه من الحرمة وماله من الحقوق القديمة عليه فعرضه على كتابه وعرفهم الصورة وتعجب اليهم منها وقال لهم ما الرأي في مثل هذا الرجل فقال بعضهم تأديبه وقال بعضهم قطع ابهامه وقال أجلهم محضرا يكشف لابن زيتون أمره ويرسم له بطرده وحرمانه فقال ابن الفرات ما أبعدكم من الخير رجل توسل بنا وحمل المشقة الى مصر وأمل الخير بجاهنا والانتساب الينا يكون حاله عند أحسنكم نظرا تكذيب ظنه وتخييب سعيه والله لا كان هذا أبدا ثم أخذ القلم ووقع على الكتاب المزور هذا كتابي ولست أعلم لم أنكرت أمره واعترضتك فيه شبهة وليس كل من يخدمنا نعرفه وهذا رجل خدمني أيام نكبتي فأحسن تفقده ورفده وصرفه فيما يعود نفعه عليه ثم رد الكتاب الى ابن زيتون من يومه ومضت على ذلك مدة طويلة اذ دخل على ابن الفرات رجل ذو هيئة مقبولة وبزة جميلة فأقبل يدعو له ويثني عليه ويبكي ويقبل يديه والارض فقال له ابن الفرات من أنت بارك الله فيك قال صاحب الكتاب المزور الى ابن زيتون الذي صححه كرم الوزير بفضله فضحك ابن الفرات وقال كم وصل اليك منه قال أوصل الى من ماله ومن قسطه على عماله عشرين ألف دينار فقال الحمد لله على صلاح حالك ثم اختبره فوجده كاتبا سديدا فاستخدمه انتهى والحمد لله على ذلك

ذكر الحصري في كتابه المسمى بالدر المصون في سر الهوى المكنون

ان الجاحظ ذكر للواثق لتأديب بعض أولاده فلما رآه استبشع منظره فأمر له بعشرة آلاف درهم وصرفه قال الجاحظ فخرجت من عنده فرأيت محمد بن ابراهيم وهو

فلان سيء الخلق متكبر مراء معجب عجول جبار ونحو ذلك أو فلان واسع الكم طويل الذيل وسخ الثوب ونحو ذلك وقد روينا في صحيح مسلم وسنن أبي داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكره قيل وإن كان في أخي ما أقول قال إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته قال الترمذي حديث حسن صحيح وروينا في سنن أبي داود والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت قلت للنبي صلى الله عليه وسلم حسبك من صفية كذا وكذا قال بعض الرواة تعني قصيرة فقال لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته أي خالطته مخالطة يتغير بها طعمه وريحه لكثرة نتنها وروينا في سنن أبي داود عن أنس رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرج بي إلى السماء مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم وروي عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الرجل ليزني فيتوب الله عليه وإن صاحب الغيبة لم يغفر له حتى يغفر له صاحبها وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال من اغتاب المسلمين وأكل لحومهم بغير حق وسعى بهم إلى السلطان جيء به يوم القيامة تحرزقة عيناه ينادي بالويل والثبور يعرف أهله ولا يعرفونه وقال معاوية بن قرة أفضل الناس عند الله أسلمهم صدرا وأقلهم غيبة وقال الأحنف في خصلتان لا أغتاب جليسي إذا غاب عني ولا أدخل في أمر قوم لا يدخلوني فيه وقيل للربيع بن خيثم ما نراك تعيب أحدا فقال لست عن نفسي راضيا فأتفرغ لذم الناس وأنشد لنفسي أبكي لست أبكي لغيرها * لنفسي من نفسي عن الناس شاغل

وقال كثير عزة وسعى إلى بعيب عزة نسوة * جعل الإله خدودهن نعالها

وقال محمد بن حزم أول من عمل الصابون سليمان وأول من عمل السويق ذو القرنين وأول من عمل الحيس يوسف وأول من عمل خبز الجرداق نمروذ وأول من كتب في القراطيس الحجاج وأول من اغتاب إبليس لعنه الله اغتاب آدم عليه السلام * وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام أن المغتاب إذا تاب فهو آخر من يدخل الجنة وإن أصر فهو أول من يدخل النار ويقال لا تأمن من كذب لك أن يكذب عليك ومن اغتاب عندك غيرك أن يغتابك عند غيرك وقيل للحسن البصري رضي الله تعالى عنه إن فلانا اغتابك فأهدى إليه طبقا من رطب فأتاه الرجل وقال له اغتبتك فأهديت إلي فقال الحسن أهديت إلي حسناتك فأردت أن أكافئك وعن ابن المبارك رحمه الله تعالى قال لو كنت مغتابا أحدا لاغتبت والدي لأنهما أحق بحسناتي وإذا حاكى إنسان إنسانا بأن يمشي متعارجا أو متطأطئا أو غير ذلك من الهيآت يريد تنقيصه بذلك فهو حرام وبعض المتفقهين والمتعبدين يعرضون بالغيبة تعريضا تفهم به كما يفهم بالتصريح فيقال لأحدهم كيف حال فلان فيقول الله يصلحنا الله يغفر لنا الله يصلحه نسأل الله العافية نحمد الله الذي لم يبتلنا بالدخول على الظلمة نعوذ بالله من الكبر يعافينا الله من قلة الحياء الله يتوب علينا وما أشبه ذلك مما يفهم تنقيصه فكل ذلك غيبة محرمة ﴿واعلم﴾ أنه كما يحرم على المغتاب ذكر الغيبة كذلك يحرم على السامع استماعها فيجب على من يسمع إنسانا يبتدئ بغيبة أن ينهاه إن لم يخف ضررا فإن خافه وجب عليه الإنكار بقلبه ومفارقة ذلك المجلس إن تمكن من مفارقته فإن قال بلسانه اسكت وقلبه يشتهي سماع ذلك قال بعض العلماء إن ذلك نفاق قال الله تعالى وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ومما أنشدوه في هذا المعنى

وسمعك صن عن سماع القبيح * كصون اللسان عن النطق به
فإنك عند سماع القبيح * شريك لقائله فانتبه
وكم أزعج الحرص من طالب * فوافى المنية في مطلبه

﴿الفصل الثالث في تحريم السعاية بالنميمة﴾ قال الله تعالى ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم الآية وحسبك بالنمام خسة ورذيلة سقوطه وضعته والهماز المغتاب الذي يأكل لحوم الناس الطاعن فيهم وقال الحسن البصري هو الذي يغمز بأخيه في المجلس وهو الهمزة اللمزة وقال علي والحسن البصري رضي الله عنهما العتل الفاحش السيء الخلق وقال ابن عباس رضي الله عنهما العتل الفاتك الشديد المنافق وقال عبيد بن عمير العتل الأكول الشروب القوي الشديد يوضع في الميزان فلا يزن شعيرة وقال الكلبي هو الشديد في كفره

وقيل

يريد الانحدار إلى مدينة السلام فعرض علي الانحدار معه فانحدرت ونصبت ستارة وأمر بالغناء فاندفعت عوادة تغني

كل يوم قطيعة وعتاب
ينقضي دهرنا ونحن غضاب
ليت شعري أنا خصصت بهذا
دون ذا الخلق أم كذا الأحباب

ثم سكتت فأمر طنبورية فغنت

وارحمتا للعاشقينا
ما إن أرى لهم معينا
كم يهجرون ويصرمو
ن ويقطعون فيصبرونا

فقالت لها العوادة فيصنعون ماذا فقالت يصنعون هكذا وضربت بيدها على الستارة وبدت كأنها فلقة بدر ثم رمت بنفسها في الماء قال وكان على رأس محمد غلام يضاهيها في الجمال وفي يده مذبة فألقى المذبة من يده لما رأى ما صنعت الجارية ثم أتى إلى موضع سقوطها ونظر إليها وأنشد

أنت التي غرقتني
بعد القضا لو تعلمينا

ورمى بنفسه في أثرها فأدار الملاح الحراقة فإذا بهما متعانقين ثم غاصا فهال ذلك محمدا واستعظمه وقال يا عمرو إن لم تحدثني حديثا يسليني عنهما ألحقتك بهما قال الجاحظ فحضرني خبر سليمان بن عبد الملك وقد قعد يوما للمظالم وعرضت عليه القصص فمرت قصة فيها مكتوب إن رأى أمير المؤمنين أعزه الله أن يخرج إلى جاريته فلانة حتى تغنيني ثلاثة أصوات فعل إن شاء الله تعالى فاغتاظ سليمان لذلك وأمر من يأتيه برأسه ثم أردفه رسولا آخر أن يدخل به إليه فلما دخل قال ما حملك على ما صنعت قال الثقة بحلمك والاتكال على عفوك فأمره بالقعود حتى لم يبق أحد من بني أمية إلا خرج ثم أمر بالجارية فأخرجت ومعها عود فقال لها غني

وقيل العتل الشديد الخصومة بالباطل والزنيم هو الذى لا يعرف من أبوه قال الشاعر

زنيم ليس يعرف من أبوه * بغى الأم ذو حسب لئيم

وروينا فى صحيحى البخارى ومسلم عن حذيفة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل الجنة نمام وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم مر بقبرين فقال انهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله قال الامام أبو حامد الغزالى رحمه الله تعالى عليه النميمة انما تطلق فى الغالب على من ينم قول الغير الى المقول فيه كقوله فلان يقول فيك كذا فينبغى للانسان أن يسكت عن كل ما رآه من أحوال الناس الا ما فى حكايته فائدة لمسلم أو دفع معصية وينبغى لمن حملت اليه النميمة وقيل له قال فيك فلان كذا ان لا يصدق من نم اليه لان النمام فاسق وهو مردود الخبر وان ينهاه عن ذلك وينصحه ويقبح فعله ويبغضه فى الله تعالى فانه بغيض عند الله والبغض فى الله واجب وان لا يظن بالمنقول عنه السوء لقول الله تعالى اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم وسعى رجل الى بلال بن أبى بردة برجل وكان أمير البصرة فقال له انصرف حتى أكشف عنك فكشف عنه فاذا هو ابن بغى يعنى ولد زنا قال أبو موسى الاشعرى رضى الله عنه لا ينم على الناس الا ولد بغى وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ألا أخبركم بشراركم قالوا بلى يا رسول الله قال شراركم المشاؤن بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون العيوب وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين ملعون كل شغاز ملعون كل قتات ملعون كل نمام ملعون كل منان والشغاز المحرش بين الناس يلقى بينهم العداوة والقتات النمام والمنان الذى يعمل الخير ويمن به وأما السعاية الى السلطان والى كل ذى قدرة فهى المهلكة والحالقة لانها تجمع الخصال الذميمة من الغيبة وشؤم النميمة والتغرير بالنفوس والأموال فى النوازل والأحوال وتسلب العزيز عزه وتحط المسكين عن مكانته والسيد عن مرتبته فكم دم أراقه سعى ساع وكم حريم استبيح بنميمة نمام وكم من صفيين تباعدا وكم من متواصلين تقاطعا وكم من محبين افترقا وكم من الفين تهاجرا وكم من زوجين تطالقا فليتق الله ربه عز وجل رجل ساعدته الأيام وتراخت عنه الأقدار أن يصغى لساع أو يستمع لنمام * ووجد فى حكم القدماء أبغض الناس الى الله المثلث قال الأصمعى هو الرجل يسعى بأخيه الى الامام فيهلك نفسه وأخاه وامامه وقال بعض الحكماء احذروا أعداء العقول ولصوص المودات وهم السعاة والنماموں اذا سرق اللصوص المتاع سرقوا هم المودات وفى المثل السائر من أطاع الواشى ضيع الصديق وقد تقطع الشجرة فتنبت ويقطع اللحم السيف فيندمل واللسان لا يندمل جرحه * ودفع انسان رقعة الى الصاحب بن عباد يحثه فيها على أخذ مال يتيم وكان مالا كثيرا فكتب اليه على ظهرها النميمة قبيحة وان كانت صحيحة والميت رحمه الله واليتيم جبره الله والساعى لعنه الله ولا حول ولا قوة الا بالله وروينا فى كتاب أبى داود والترمذى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يبلغنى أحد من أصحابى عن أحد شيأ فانى أحب أن أخرج اليكم وأنا سليم الصدر * ومن الناس من يتلون ألوانا ويكون بوجهين ولسانين فيأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه وذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها قال صالح بن عبد القدوس رحمه الله تعالى

قل للذى لست أدرى من تلونه * أناصح أم على غش يناجينى

انى لأكثر مما سمتنى عجبا * يد تشج وأخرى منك تأسونى

تغتابنى عند أقوام وتمدحنى * فى آخرين وكل عنك يأتينى

هذان شيآن قد نافيت بينهما * فاكفف لسانك عن شتمى وتزيينى

وقيل لألف لحوح جوح خير من واحد متلون وكان يشبه المتلون بأبى براقش وأبى قلمون فأبو براقش طائر منقط بألوان النقوش يتلون فى اليوم ألوانا وأبو قلمون ضرب من ثياب الحرير ينسج بالروم يتلون ألوانا ويقال للطائش الذى لا ثبات معه أبو رياح تشبيها بتمثال فارس من نحاس بمدينة حمص على عمود حديد فوق قبة بباب الجامع يدور مع الريح وعيناه ممدودة وأصابعها مضمومة الا السبابة فاذا أشكل عليهم مهب الريح عرفوه به فانه يدور بأضعف نسيم يصيبه والذى يعمله الصبيان من قرطاس على قصبة يسمى أبا رياح أيضا ويقال أخلاق الملوك مثل فى المتلون قال بعضهم

ويوم كأخلاق الملوك تلونا * فصحو وتغييم وطل ووابل

أشبهه اياك يا من صفاته * دنو واعراض ومنع ونائل

ما تقول لك فقال الفتى غنى
تألق البرق نجديا فقلت له
يا أيها البرق انى عنك مشغول
فغنته فقال له سليمان أتأمر لى
برطل فأتى به فشربه ثم قال لها غنى
حبذا رجعها اليها يداها
فى يدى درعها تحل الازارا
فغنته فقال لسليمان أتأمر لى
برطل فأتى به فشربه ثم قال غنى
أفاطم مهلا بعض هذا التدلل
وان كنت قد أزمعت صرمى فأجملى
فغنته فقال لسليمان أتأمر لى
برطل فلما استتم شربه حتى صعد
على الفور على قبة لسليمان فرمى
بنفسه على دماغه فمات فقال
سليمان انا لله وانا اليه راجعون
أتراه الأحمق ظن انى أخرج اليه
جاريتى وأردها الى ملكى يا غلمان
خذوا بيد هذه الجارية وانطلقوا
بها الى أهله ان كان له أهل والا
فبيعوها وتصدقوا بثمنها عليه
فلما انطلقوا بها نظرت الى حفيرة فى
دار سليمان اتخذت للمطر فجذبت
نفسها من أيديهم ثم قالت
من مات عشقا فليمت هكذا
لا خير فى عشق بلا موت
فرمت بنفسها فى الحفيرة فماتت
فسرى عن محمد وأحسن صلتى
انتهى (وكتب) أبو منصور
أفتكين التركى متولى دمشق
الى عضد الدولة بن بويه كتابا مضمونه
ان الشام قد صفا وصار فى يدى
وزال عنه حكم صاحب مصر وان
قويتنى بالأموال والرجال والعدد
حاربت القوم فى مستقرهم فكتب
اليه عضد الدولة فى جوابه هذه
الكلمات وهى متشابهة فى الخط
لا تعرف الا بعد النقط والضبط
وهى غرك عزك فصار قصار ذلك
ذلك فاخش فاحش فعلك فعلك
تهدأ بهذا قال القاضى شمس الدين
ابن خلكان تغمده الله برحمته لقد
أبدع غاية الابداع (قلت) وأبدع

وكام معاوية الأحنف في شيء بلغه عنه فأنكره الأحنف فقال له معاوية بلغني عنك الثقة فقال له الأحنف ان الثقة لا يبلغ مكروها وكان الفضل بن سهل يبغض السعاية واذا أتاه ساع يقول له ان صدقتنا أبغضناك وان كذبتنا عاقبناك وان استقلتنا أقلناك وكتب في جواب كتاب ساع نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية لأن السعاية دلالة والقبول اجازة وليس من دل على شيء وأخبر به كمن قبله وأجازه فاتقوا الساعي فانه لو كان في سعايته صادقا لكان في صدقه لئيما اذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة وقيل من سعى بالنميمة حذره الغريب ومقته القريب وقال المأمون النميمة لا تقرب مودة الا أفسدتها ولا عداوة الا جددتها ولا جماعة الا بددتها ثم لا بد لمن عرف بها ونسب اليها ان يجتنب ويخاف من معرفته ولا يوثق بمكانه وأنشد بعضهم

من نم في الناس لم تؤمن عقاربه * على الصديق ولم تؤمن أفاعيه
كالسيل بالليل لا يدري به أحد * من أين جاء ولا من أين يأتيه
الويل للعهد منه كيف ينقضه * والويل للود منه كيف يفنيه

(وقال آخر) يسعى عليك كما يسعى اليك فلا * تأمن غوائل ذي وجهين كياد

وقال صالح بن عبد القدوس رحمه الله تعالى

من يخبرك بشتم عن أخ * فهو الشاتم لا من شتمك
ذاك شيء لم يواجهك به * انما اللوم على من أعلمك

(وقال آخر) ان يعلموا الخير أخفوه وان علموا * شرا أذاعوا وان لم يعلموا كذبوا

(وقال آخر) ان يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا * مني وما سمعوا من صالح دفنوا
صم اذا سمعوا خيرا ذكرت به * وان ذكرت بسوء عندهم أذنوا

وقال الحسن ستر ما عاينت أحسن من اشاعة ما ظننت وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه من سمع بفاحشة فأفشاها فهو كالذي أتاها

﴿ومما جاء في النهي عن اللعن﴾

ما روينا في صحيحي البخاري ومسلم عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن المؤمن كقتله وروينا في صحيح مسلم أيضا عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة وروينا في سنن أبي داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان العبد اذا لعن شيأ صعدت اللعنة الى السماء فتغلق أبواب السماء دونها ثم تهبط الى الأرض فتغلق أبوابها دونها ثم تأخذ يمينا وشمالا فاذا لم تجد مساغا رجعت الى الذي لعن ان كان أهلا لذلك والا رجعت الى قائلها ويجوز لعن أصحاب الأوصاف المذمومة على العموم كقوله لعن الله الظالمين لعن الله الكافرين لعن الله اليهود والنصارى لعن الله الفاسقين لعن الله المصورين ونحو ذلك * وثبت في الأحاديث الصحيحة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الواصلة والمستوصلة وانه قال لعن الله آكل الربا وأنه قال لعن الله المصورين وأنه قال لعن الله من لعن والديه وأنه قال لعن الله من ذبح لغير الله وأنه قال لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وانه قال لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال وجميع هذه الألفاظ في البخاري ومسلم بعضها فيهما وبعضها في أحدهما والله أعلم

﴿ومما جاء في العزلة ومدح الخمول وذم الشهرة﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الخمول نعمة وكل يتبرأ والظهور نقمة وكل يتمنى وقال بعضهم

تلحف بالخمول تعش سليما * وجالس كل ذي أدب كريم

(وقال جعفر بن القراء) من أخمل النفس أحياها وروحها * ولم يبت طاويا منها على ضجر
ان الرياح اذا اشتدت عواصفها * فليس ترمي سوى العالي من الشجر

وقال اعرابي رب وحدة أنفع من جليس ووحشة أنفع من أنيس وكان أبو معاوية الضرير يقول في خصلتان ما يسرني بهما رد بصري قلة الاعجاب بنفسي وخلو قلبي من اجتماع الناس الي وقال عمر رضي الله عنه خذوا حظكم من العزلة * وصعد حسان على أطم من آطام المدينة ونادى بأعلى صوته يا صباحاه فاجتمعت الخزرج فقالوا ما عندك قال قلت بيت شعر فأحببت أن تسمعوه قالوا هات يا حسان فقال

وان امرأ أمسى وأصبح سالما * من الناس الا ما جنى لسعيد

منه قول السلامي فيه من قصيدته التي منها

اليك طوى عرض البسيطة جاعل * قصار المطايا أن يلوح لها القصر
فكنت وعزمي في الظلام وصارمي * ثلاثة أشياء كما اجتمع النسر
وبشرت آمالي بملك هو الورى * ودار هي الدنيا ويوم هو الدهر

قال ابن خلكان هذا على الحقيقة هو السحر الحلال كما يقال * وقد أخذ هذا المعنى القاضي أبو بكر الارجاني فقال

يا سائلي عنه لما جئت أمدحه * هذا هو الرجل العاري من العار
لقيته فرأيت الناس في رجل * والدهر في ساعة والأرض في دار

ولكن أين الثريا من الثرى * وألم أبو الطيب المتنبي أيضا بهذا المعنى لكنه ما استوفى بقوله

هو الغرض الأقصى ورؤيتك المنى * ومنزلك الدنيا وأنت الخلائق

ولكن ليس لأحد منهما طلاوة بيت السلامي انتهى ﴿نادرة لطيفة﴾ كان أبو بكر المحلي يتولى نفقات أبي المسك كافور الاخشيدي وكان له في كل عيد أضحى عادة وهو أن يسلم الى أبي بكر المذكور بغلا محملا ذهبا وجريدة تتضمن أسماء قوم من حد القرافة الى الجبانة وما بينهما قال أبو بكر المذكور وكان يمشي معي صاحب الشرطة ونقيب يعرف المنازل وأطوف من بعد العشاء الأخيرة الى آخر الليل حتى أسلم ذلك الى من تضمنت اسمه الجريدة فاطرق منزل كل انسان ما بين رجل وامرأة وأقول الأستاذ أبو المسك كافور الاخشيدي يهنئك بالعيد ويقول لك اصرف هذا في منفعتك فادفع اليه ما جعل له وفي آخر وقت زاد في الجريدة الشيخ أبا عبد الله بن جابر وجعل له في ذلك العيد مائة دينار فطفت في تلك الليلة وأنفقت المال في أربابه ولم يبق الا الصرة

ولما بنى سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه منزله بالعقيق قيل له تركت منازل اخوانك وأسواق الناس ونزلت بالعقيق فقال رأيت أسواقهم لاغية ومجالسهم لاهية فوجدت الاعتزال فيما هنالك عافية وقيل لعروة أخى مرداس لم لا تحدثنا ببعض ما عندك من العلم فقال أكره أن يميل قلبي باجتماعكم الى حب الرياسة فاخسر الدارين وقال سفيان بن عيينة دخلنا على الفضل في مرضه نعوده فقال ما جاء بكم والله لو لم تجيؤا لكان أحب الى ثم قال نعم الشئ المرض لولا العيادة وقيل للفضل ان ابنك يقول وددت لو أنى بالمكان الذى أرى الناس فيه ولا يرونى فقال ويح ابنى لم لا أتمها فقال لا أراهم ولا يرونى وقال على رضى الله تعالى عنه طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وطوبى لمن لزم بيته وأكل قوته واشتغل بطاعته وبكى على خطيئته فكان من نفسه فى شغل والناس منه فى راحة وقال سفيان الزهد فى الدنيا هو الزهد فى الناس وقيل لراهب فى صومعته ألا تنزل فقال من مشى على وجه الأرض عثر والكلام فى مثل هذا كثير وقد اكتفينا بهذا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

❊ الباب الرابع عشر فى الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الاسلام وما يجب للسلطان على الرعية وما يجب لهم عليه ❊

روى عن الحسن أنه قال للحجاج سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقروا السلاطين وبجلوهم فانهم عز الله وظله فى الأرض اذا كانوا عدولا فقال الحجاج ألم تكن فيهم اذا كانوا عدولا قال قلت بلى وعن عمر رضى الله تعالى عنه قال قلت للنبي صلى الله عليه وسلم أخبرنى عن هذا السلطان الذى ذلت له الرقاب وخضعت له الأجساد ما هو وقال ظل الله فى الأرض فاذا أحسن فله الأجر وعليكم الشكر واذا أساء فعليه الأصر وعليكم الصبر وعنه عليه الصلاة والسلام أيما راع استرعى رعيته ولم يحطها بالأمانة والنصيحة من ورائها الا ضاقت عليه رحمة الله تعالى التى وسعت كل شئ وقال مالك بن دينار رضى الله تعالى عنه وجدت فى بعض الكتب يقول الله تعالى أنا ملك الملوك رقاب الملوك بيدى فمن أطاعنى جعلتهم عليه رحمة ومن عصانى جعلتهم عليه نقمة لا تشغلوا ألسنتكم بسب الملوك ولكن توبوا الى الله يعطفهم عليكم وقال جعفر ابن محمد رحمه الله تعالى عليه كفارة عمل السلطان الاحسان الى الاخوان وقال كسرى لسيرين ما أحسن هذا الملك لو دام فقال لو دام لأحد ما انتقل الينا ومر طارق الشرطى بابن شبرمة فى موكبه فقال

أراها وان كانت تحب فانها ❊ سحابة صيف عن قليل تقشع

وجلس الاسكندر يوما فما رفع اليه حاجة فقال لا أعد هذا اليوم من أيام ملكى وقال الجاحظ ليس شئ ألذ ولا أسر من عز الأمر والنهى ومن الظفر بالأعداء ومن تقليد المنن أعناق الرجال لأن هذه الأمور نصيب الروح وحظ الذهن وقسمة النفس وقيل الملك خليفة الله فى عباده ولن يستقيم أمر خلافته مع مخالفته وقال الحجاج سلطان تخافه الرعية خير من سلطان يخافها وقال أردشير لابنه يا بنى الملك والدين أخوان لا غنى لأحدهما عن الآخر فالدين أس والملك حارس وما لم يكن له أس فمهدوم وما لم يكن له حارس فضائع قيل لما دنت وفاة هرمز وامرأته حامل عقد التاج على بطنها وأمر الوزراء بتدبير المملكة حتى ولدته ولدا فتملك وأغار العرب على نواحى فارس فى صباه فلما أدرك ركب وانتخب من أهل النجدة فرسانا وأغار على العرب فانهكهم بالقتل ثم خلع أكتاف سبعين ألفا فقيل له ذو الأكتاف وأمر العرب حينئذ بارخاء الشعور ولبس المصبغات وأن يسكنوا بيوت الشعر وأن لا يركبوا الخيل الا عراة (وقيل) من أخلاق الملوك حب التفرد كان أردشير اذا وضع التاج على رأسه لم يضع أحد على رأسه قضيب ريحان واذا لبس حلة لم ير على أحد مثلها واذا تختم بخاتم كان حراما على أهل المملكة أن يتختموا بمثله وكان سعيد بن العاص بمكة اذا اعتم لم يعتم أحد بمثل عمامته ما دامت على رأسه وكان الحجاج اذا وضع على رأسه عمامة لم يجترى أحد من خلق الله أن يدخل عليه بمثلها وكان عبد الملك اذا لبس الخف الاصفر لم يلبس أحد مثله حتى ينزعه وأخبرنى من سافر الى اليمن انه لا يأكل الاوز بها أحد غير الملك وقيل من حق الملك أن يفحص عن اسرار الرعية فحص المرضعة عن ابنها وكان أردشير متى شاء قال لارفع أهل مملكته وأوضعهم كان عندك فى هذه الليلة كيت وكيت حتى كان يقال يأتيه ملك من السماء وما ذاك الا بتفحصه وتيقظه وكان علم عمر رضى الله عنه بمن نأى عنه كعلمه بمن بات معه على وساد واحد ولقد اقتفى

فجعلتها فى كمى وسرت مع النقيب حتى أتينا منزله بظاهر القرافة فطرقت الباب فنزل الينا الشيخ وعليه أثر السهر فسلمت عليه فلم يرد على وقال ما حاجتك قلت الاستاذ أبو المسك كافور يخص الشيخ بالسلام فقال والى بلدنا قلت نعم قال حفظه الله الله يعلم انى أدعو له فى الخلوات وادبار الصلوات عسى الله سامعه ومستجيبه قلت وقد أنفذ معى نفقة وهى هذه الصرة ويسألك قبولها التصرف فى مؤنة هذا العيد المبارك فقال نحن رعيته ونحبه فى الله تعالى وما نفسد هذه المحبة بعلة فراجعته القول فتبين لى الضجر فى وجهه والقلق واستحييت من الله أن أقطعه عما هو عليه فتركته وانصرفت قال فجئت فوجدت الأمير قد تهيأ للركوب وهو ينتظرنى فلما رآنى قال ايه يا أبا بكر قلت أرجو الله أن يستجيب فيك كل دعوة صالحة دعيت لك فى هذه الليلة وفى هذا اليوم الشريف فقال الحمد لله الذى جعلنى لايصال الراحة الى عباده ثم أخبرته بامتناع ابن جابار فقال نعم هو جدير لم تجر بيننا وبينه معاملة قبل هذا اليوم ثم قال لى عد اليه واركب دابة من دواب النوبة واطرق بابه فاذا نزل اليك فانه سيقول لك ألم تكن عندنا فلا ترد عليه جوابا ثم استفتح واقرأ بسم الله الرحمن الرحيم طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى الا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى يا ابن جابار الأستاذ كافور يقول لك ومن كافور العبد الأسود ومن هو ومولاه ومن الخلق ليس لأحد مع الله ملك ولا شركة تلاشى الناس كلهم ههنا أتدرى من هو معطيك وعلى من رددت أنت ما سألت وانما هو أرسل لك يا ابن

معاوية أثره وتعرف الى ز ياد رجل فقال أتتعرف الى وأنا أعرف بك من أبيك وأمك وأعرف هذا البرد الذى عليك ففزع الرجل حتى ارتعد من كلامه وعن بعض العباسيين قال كان المأمون رحمه الله تعالى فى امرأة خطبتها وسألته النظر اليها فقال يا أبا فلان من قصتها وحليتها وفعلها وشأنها كيت وكيت فوالله ما زال يصفها ويصف أحوالها حتى أبهتنى ﴿وعما جاء فى طاعة ولاة أمور الاسلام﴾ أمر الله تعالى بذلك فى كتابه العزيز على لسان نبيه الكريم فقال تعالى يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم وروينا فى صحيح البخارى عن جابر بن عبد الله الانصارى رضى الله عنهما قال بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة والسمع والطاعة والنصح لكل مسلم *وسئل كعب الاحبار عن السلطان فقال ظل الله فى أرضه من ناصحه اهتدى ومن غشه ضل وعن حذيفة ابن اليمان رضى الله عنه لا تسبوا السلطان فانه ظل الله فى الارض به يقوم الحق و يظهر الدين وبه يدفع الله الظلم و يهلك الفاسقين وقال عمر بن عبد العزيز لمؤدبه كيف كانت طاعتى لك قال أحسن طاعة قال فأطعنى كما كنت اطيعك خذ من شار بك حتى تبدو شفتاك ومن ثو بك حتى تبدو عقباك وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ومن أطاع أمرى فقد أطاعنى ومن عصى أمرى فقد عصانى وقد ورد فى الاحاديث الصحيحة ان النبى صلى الله عليه وسلم أمر بالسمع والطاعة لولى الامر ومناصحته ومحبته والدعاء له ولو تتبعت ذلك لطال الكلام لكن اعلم ارشدنى الله واياك الى الاتباع وجنبنا الزيغ والابتداع ان من قواعد الشريعة المطهرة والملة الحنيفية المحررة أن طاعة الائمة فرض على كل الرعية وان طاعة السلطان تؤلف شمل الدين وتنظم أمور المسلمين وان عصيان السلطان يهدم أركان الملة وان أرفع منازل السعادة طاعة السلطان وان طاعته عصمة من كل فتنة و بطاعة السلطان تقام الحدود وتؤدى الفروض وتحقن الدماء وتؤمن السبل وما أحسن ما قالت العلماء ان طاعة السلطان هدى لمن استضاء بنورها وان الخارج عن طاعة السلطان منقطع العصمة برىء من الذمة وان طاعة السلطان حبل الله المتين ودينه القويم وأن الخروج منها خروج من أنس الطاعة الى وحشة المعصية ومن غش السلطان ضل وزل ومن أخلص له المحبة والنصح حل من الدين والدنيا فى أرفع محل وان طاعة السلطان واجبة أمر الله تعالى بها فى كتابه العظيم المنزل على نبيه الكريم وقد اقتصرنا فى ذلك على ما اوردناه واكتفينا بما بيناه ونسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا وأن يعيذنا من شرور أنفسنا وسيآت أعمالنا وأن يصلح شأننا انه قريب مجيب وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين

﴿الباب الخامس عشر فيما يجب على من صحب السلطان والتحذير من صحبته﴾

(أما صحبة السلطان) فقد قال ابن عباس رضى الله عنهما قال لى أبى يا بنى انى أرى أمير المؤمنين يستخليك ويستشيرك و يقدمك على الاكابر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وانى أوصيك بخلال ثلاث لا تفشين له سرا ولا تجربن عليه كذبا ولا تغتابن عنده أحدا قال الشعبى رحمه الله تعالى قلت لابن عباس كل واحدة منهن خير من ألف فقال أى والله ومن عشرة آلاف وقال بعض الحكماء اذا زادك السلطان تأنيسا فزده اجلالا واذا جعلك أخا فاجعله أبا واذا زادك احسانا فزده فعل العبد مع سيده واذا ابتليت بالدخول على السلطان مع الناس فاخذوا فى الثناء عليه فعليك بالدعاء له ولا تكثر فى الدعاء له عند كل كلمة فان ذلك شبيه بالوحشة والغربة *وقال مسلم بن عمر لمن خدم السلطان لا تغتر بالسلطان اذا أدناك ولا تتغير منه اذا أقصاك *وروى ان بعض الملوك استصحب حكيما فقال له أصحبك على ثلاث خصال قال وما هن قال لا تهتك لى سترا ولا تشتم لى عرضا ولا تقبل فى قول قائل حتى تستشيرنى قال هذا لك فما لى عليك قال لا أفشى لك سرا ولا أدخر عنك نصيحة ولا أوثر عليك أحدا قال نعم الصاحب للمستصحب أنت وقال بزرجمهر اذا خدمت ملكا من الملوك فلا تطعه فى معصية خالقك فان احسانه اليك فوق احسان الملك وايقاعه بك أغلظ من ايقاعه *وقالوا اصحب الملوك بالهيبة لهم والوقار لانهم انما احتجبوا عن الناس لقيام الهيبة وان طال أنسك بهم تزدد غما *وقالوا اعلم السلطان وكانك تتعلم منه واشر عليه وكانك تستشيره واذا أحلك السلطان من نفسه بحيث يسمع منك و يثق بك فاياك والدخول بينه و بين بطانته فانك لا تدرى متى يتغير منك فيكونون عونا عليك واياك ان تعادى من اذا شاء أن يطرح

بما بارأت ما تفرق بين السبب والمسبب * قال أبو بكر فركبت وسرت فطرقت منزله فنزل الى فقال لى مثل لفظ كافور فاضربت عن الجواب وقرأت طه ثم قلت له ما قال لى كافور فبكى وقال لى أين ما حملت فاخرجت الصرة فاخذها وقال علمنا الاستاذ كيف التصوف قلت له أحسن الله جزاءك ثم عدت اليه فاخبرته بذلك فسر وسجد شكرا لله تعالى وقال الحمد لله على ذلك (ونقل ابن خلكان فى تاريخه) أن أبا عبد الله محمد بن الاعرابى كان يزعم أن الأصمعى وأبا عبيدة لا يحسنان شيأ وكان يقول جائز فى كلام العرب أن يعاقب بين الضاد والظاء فلا يخطىء من يجعل هذا فى موضع هذا وينشد

الى الله أشكو من خليل أوده
ثلاث خصال كلها لى غائض

و يقول هكذا سمعته بالضاد (ومن النوادر اللطيفة) ورد أبو نصر الفارابى الى دمشق على سيف الدولة ابن حمدان وهو اذ ذاك سلطانها قيل انه لما دخل عليه وهو بزى الأتراك وكان ذلك زيه دائما وقف فقال له سيف الدولة اجلس فقال حيث أنا أو حيث أنت فقال حيث أنت فتخطى رقاب الناس حتى انتهى الى مسند سيف الدولة وزاحمه فيه حتى أخرجه عنه وكان على رأس سيف الدولة مماليك وله معهم لسان خاص يسارّهم به فقال لهم بذلك اللسان ان هذا الشيخ قد أساء الأدب وانى سائله عن أشياء ان لم يعرفها اخرجوا به فقال له أبو نصر بذلك اللسان أيها الأمير اصبر فان الأمور بعواقبها فعجب سيف الدولة منه وعظم عنده ثم أخذ يتكلم مع العلماء والحاضرين فى كل فن فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل حتى صمت الكل وبقى يتكلم وحده ثم أخذوا يكتبون ما يقوله

ثيابه و يدخل مع الملك فى ثيابه فعل وفى الأمثال القديمة احذروا زمارة المخدة وفيه قيل بيت مفرد

ليس الشفيع الذى يأتيك متزرا * مثل الشفيع الذى يأتيك عريانا

وقال يحيى بن خالد اذا صحبت السلطان فداره مداراة المرأة العاقلة لصحبة الزوج الأحمق ﴿وأما ما جاء فى التحذير من صحبة السلطان﴾ فقد اتفقت حكماء العرب والعجم على النهى عن صحبة السلطان قال فى كتاب كليلة ودمنه ثلاثة لا يسلم عليها الا القليل صحبة السلطان وائتمان النساء على الأسرار وشرب السم على التجربة *وكان يقال قد خاطر بنفسه من ركب البحر وأعظم منه خطرا من صحب السلطان وكان بعض الحكماء يقول أحق الأمور بالتثبت فيها أمور السلطان فان من صحب السلطان بغير عقل فقد لبس شعار الغرور وفى حكم الهند صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخطر * وقيل للعتابى لم لا تصحب السلطان على ما فيك من الأدب قال لانى رأيته يعطى عشرة آلاف فى غير شئ ويرمى من السور فى غير شئ ولا أدرى أى الرجلين أكون * وقال معاوية لرجل من قريش اياك والسلطان فانه يغضب غضب الصبى و يبطش بطش الأسد * وقال ميمون بن مهران قال لى عمر بن عبد العزيز يا ميمون احفظ عنى أربعا لا تصحبن السلطان وان أمرته بالمعروف ونهيته عن المنكر ولا تخلون بامرأة وان أقرأتها القرآن ولا تصل من قطع رحمه فانه لك أقطع ولا تتكلم بكلام اليوم تعتذر منه غدا وكم رأينا و بلغنا من صحب السلطان من أهل الفضل والعقل والعلم والدين ليصلحه فقسد هو به فكان كما قيل

عدوى البليد الى الجليد سريعة * والجمر يوضع فى الرماد فيخمد

ومثل من صحب السلطان ليصلحه مثل من ذهب ليقيم حائطا مائلا فاعتمد عليه ليقيمه فخر الحائط عليه فاهلكه قال الشاعر

ومعاشر السلطان شبه سفينة * فى البحر ترجف دائما من خوفه

ان أدخلت من مائه فى جوفها * يغتالها مع مائها فى جوفه

وفى كتاب كليلة ودمنه لا يسعد من ابتلى بصحبة الملوك فانهم لا عهد لهم ولا وفاء ولا قريب ولا حميم ولا يرغبون فيك الا أن يطمعوا فيما عندك فيقربوك عند ذلك فاذا قضوا حاجتهم منك تركوك ورفضوك ولا ود للسلطان ولا اخاء والذنب عنده لا يغفر * وقالت الحكماء صاحب السلطان كراكب الأسد يخافه الناس وهو لمركوبه أخوف * وقال محمد بن واسع والله لسف التراب وقضم العظم خير من الدنو من أبواب السلاطين * وقال محمد بن السماك الذباب على العذرة خير من العالم على أبواب الملوك * وقيل من صحب السلطان قبل أن يتأدب فقد غرر بنفسه * وقال ابن المعتز من شارك السلطان فى عز الدنيا شاركه فى ذل الآخرة وعنه اذا زادك السلطان تأنيسا فزده تهيبا واحتشاما * وقال أبو على الصغانى اياك والملوك فان من والاهم أخذوا ماله ومن عاداهم أخذوا رأسه وقيل مكتوب على باب قرية من قرى بلخ اعمها بهار أبواب الملوك تحتاج الى ثلاثة عقل وصبر ومال وتحته مكتوب كذب عدو الله من كان له واحد منها لم يقرب باب السلطان وقال حسان بن ربيع الحميرى لا تثقن بالملك فانه ملول ولا بالمرأة فانها خؤن ولا بالدابة فانها شرود وقال عبيد بن عمير ما ازداد رجل من السلطان قربا الا ازداد من الله بعدا ولا كثرت أتباعه الا كثرت شياطينه ولا كثر ماله الا كثر حسابه وقال ابن المبارك رحمه الله

أرى الملوك بأدنى الدين قد قنعوا * ولا أراهم رضوا فى العيش بالدون

فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال بعضهم فى ولاة بنى مروان

اذا ما قطعتم ليلكم بعدامكم * وأفنيتموا أيامكم بمنام * فمن ذا الذى يغشاكم فى ملمة

ومن ذا الذى يغشاكم بسلام * رضيتم من الدنيا بأيسر بلغة * بلثم غلام أو بشرب مدام

ولم تعلموا أن اللسان موكل * بمدح كرام أو بذم لئام

نهت الحكماء عن خدمة الملوك فقالوا ان الملوك يستعظمون فى الثواب رد الجواب و يستقلون فى العقاب ضرب الرقاب وقيل شر الملوك من أمنه الجرىء وخافه البرىء والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

فصرفهم سيف الدولة وخلا به فقال له هل لك فى أن تأكل قال لا فقال فهل لك أن تشرب قال لا فقال هل تسمع قال نعم فأمر سيف الدولة باحضار القيان فحضر كل ماهر فى الصنعة بأنواع الملاهى فخطأ الجميع فقال له سيف الدولة هل تحسن هذه الصنعة قال نعم ثم أخرج من وسطه خريطة ففتحها فأخرج منها عيدانا وركبها ثم لعب بها فضحك كل من فى المجلس ثم فكها وركبها تركيبا آخر فبكى كل من فى المجلس ثم فكها وغير تركيبها وحركها فنام كل من فى المجلس حتى البواب فتركهم نياما وخرج * وهو الذى وضع القانون وكان منفردا بنفسه لا يجالس الناس وكان مدة اقامته بدمشق لا يكون غالبا الا عند مجتمع المياه أو مشتبك الرياض وهناك يؤلف كتبه وكان أزهد الناس فى الدنيا لا يحتفل بامر مسكن ولا مكسب وسأله سيف الدولة فى مرتب من بيت المال فقال يكفينى أربعة دراهم ولم يزل على ذلك الى أن توفى سنة تسع وثلاثين وثلثمائة بدمشق وصلى عليه سيف الدولة وأربعة من خواصه وقد ناهز ثمانين سنة ودفن ظاهر دمشق خارج الباب الصغير (ومن المنقول من خط القاضى الفاضل) أن نور الدين الشهيد كتب الى راشد الدين سنان صاحب القلاع الاسماعيلية كتابا يهدده فيه فشق ذلك على سنان فكتب اليه بما هو فوق الوصف بحكاية الحال وهو

يا ذا الذى بقراع السيف هددنا
لا قام مصرع قلب كنت تصرعه
قام الحمام الى البازى يهدده
واستصرخت باسود الغاب أضبعه
أضحى يسد فم الأفعى باصبعه
يكفيه ماذا تلاقى منه أصبعه
وقفنا على تفصيله وجمله وعلمنا ماهددنا به من قوله وعمله فيالله العجب

﴿الباب السادس عشر في ذكر الوزراء وصفاتهم وأحوالهم وما أشبه ذلك﴾

قال الله تعالى حاكيا عن موسى عليه السلام واجعل لي وزيرا من أهلي فلو كان السلطان يستغني عن الوزراء لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران عليه السلام ثم ذكر حكمة الوزارة فقال أشدد به أزري وأشركه في أمري دلت هذه الآية على أن الوزارة تشد قواعد المملكة وأن يفوض اليه السلطان اذا استكملت فيه الخصال المحمودة ثم قال كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا دلت هذه الآية على أن بصحبة العلماء والصالحين وأهل الخبرة والمعرفة تنتظم أمور الدنيا والآخرة وكما يحتاج أشجع الناس الى السلاح وأفره الخيل الى السوط وأحد الشفار الى المسن كذلك يحتاج أجل الملوك وأعظمهم وأعلمهم الى الوزير وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة الا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه والمعصوم من عصمه الله وقال وهب بن منبه قال موسى لفرعون آمن ولك الجنة ولك ملكك قال حتى أشاور هامان فشاوره في ذلك فقال له هامان بينما أنت اله تعبد اذ صرت تعبد فأنف واستكبر وكان من أمره ما كان وعلى هذا النمط كان وزير الحجاج يزيد بن مسلم لا يألوه خبالا ولبئس القرناء شر قرين لشر خدين وأشرف منازل الآدميين النبوة ثم الخلافة ثم الوزارة وفي الأمثال نعم الظهير الوزير وأول ما يظهر نبل السلطان وقوة تمييزه وجودة عقله في انتخاب الوزراء وانتقاء الجلساء ومحادثة العقلاء فهذه ثلاث خلال تدل على كماله وبهذه الخلال يجمل في الخلق ذكره وترسخ في النفوس عظمته والمرء موسوم بقرينه وكان يقال حلية الملوك وزينتهم وزراؤهم وفي كتاب كليلة ودمنة لا يصلح السلطان الا بالوزراء والأعوان وقال شريح بن عبيد لم يكن في بني اسرائيل ملك الا ومعه رجل حكيم اذا رآه غضبان كتب اليه صحائف في كل صحيفة ارحم المسكين واخش الموت واذكر الآخرة فكلما غضب الملك ناوله الحكيم صحيفة حتى يسكن غضبه ومثل الملك الخير والوزير السوء الذي يمنع الناس خيره ولا يمكنهم من الدنو منه كالماء الصافي فيه التمساح فلا يستطيع المرء دخوله وان كان سابحا والى الماء محتاجا ومثل السلطان كمثل الطبيب ومثل الرعية كمثل المرضى ومثل الوزير كمثل السفير بين المرضى والأطباء فاذا كذب السفير بطل التدبير وكما أن السفير اذا أراد أن يقتل أحدا من المرضى وصف للطبيب نقيض دائه فاذا سقاه الطبيب على صفة السفير هلك العليل كذلك الوزير ينقل الى الملك ما ليس في الرجل فيقتله الملك فمن ههنا شرط في الوزير أن يكون صدوقا في لسانه عدلا في دينه مأمونا في أخلاقه بصيرا بأمور الرعية وتكون بطانة الوزير أيضا من أهل الأمانة والبصيرة وليحذر الملك أن يولي الوزارة لئيما فاللئيم اذا ارتفع جفا أقاربه وأنكر معارفه واستخف بالأشراف وتكبر على ذوي الفضل * ودخل بعض الوزراء على بعض الخلفاء وكان الوزير من أهل العقل والأدب فوجد عنده رجلا ذميا كان الخليفة يميل اليه ويقربه فقال الوزير منشدا

يا ملكا طاعته لازمه * وحبه مفترض واجب ان الذي شرفت من أجله * يزعم هذا انه كاذب

وأشار الى الذمي فسأله يا أمير المؤمنين عن ذلك فسأله فلم يجد بدا من أن يقول هو صادق فاعترف بالاسلام وكان بعض الملوك قد كتب ثلاث رقاع وقال لوزيره اذا رأيتني غضبان فادفع الي رقعة بعد رقعة وكان في الأولى انك لست باله وانك ستموت وتعود الى التراب فيأكل بعضك بعضا وفي الثانية ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء وفي الثالثة اقض بين الناس بحكم الله فانهم لا يصلحهم الا ذلك ولما كانت أمور المملكة عائدة الى الوزراء وأزمة الملوك في أكف الوزراء سبق فيهم من العقلاء المثل السائر فقالوا لا تغتر بمودة الأمير اذا غشك الوزير واذا أحبك الوزير فثم ولا تخش الأمير ومثل السلطان كالدار والوزير بابها فمن أتى الدار من بابها ولج ومن أتاها من غير بابها انزعج وموقع الوزارة من المملكة كموقع المرآة من البصر فكما أن من لم ينظر في المرآة لا يرى محاسن وجهه وعيوبه كذلك السلطان اذا لم يكن له وزير لا يعلم محاسن دولته وعيوبها ومن شروط الوزير أن يكون كثير الرحمة للخلق رؤفا بهم ﴿واعلم﴾ أنه ليس للوزير أن يكتم عن السلطان نصيحة وان استثقلها وموضع الوزير من المملكة كموضع العينين من الرأس وكما أن المرآة لا تريك وجهك الا بصفاء جوهرها وجودة صقلها ونقائها من الصدا كذلك السلطان لا يكمل أمره الا بجودة عقل الوزير وصحة فهمه ونقاء قلبه والله تعالى أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل

من ذبابة تطن في أذن الفيل وبعوضة تعد في التماثيل ولقد قالها من قبلك قوم آخرون فدمرنا عليهم فما كان لهم من ناصرين أو للحق تدحضون وللباطل تنصرون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون وأما ما صدر من قولك فتلك أماني كاذبه وخيالات غير صائبه فان الجواهر لا تزول بالأعراض كما ان الأرواح لا تضمحل بالأمراض فان عدنا الى الظواهر والمحسوسات وعدلنا عن البواطن والمعقولات فلنا أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله ما أوذي نبي ما أوذيت ولقد علمتم ما جرى على عترته وأهل بيته وشيعته والحال ما حال والأمر ما زال ولله الحمد في الآخرة والأولى اذ نحن مظلومون لا ظالمون ومغصوبون لا غاصبون وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا وقد علمتم ظاهر حالنا وكيفية رجالنا وما يتمنونه من الفوت ويستقربون به الى حياض الموت قل فتمنوا الموت ان كنتم صادقين وفي أمثال العامة أو للبط تهددون بالشط فهي للبلاء جلبابا وتدرع للرزايا أثوابا وانك لكالباحث حتفه بظلفه أو الجادع أنفه بكفه وما ذلك على الله بعزيز ﴿ومن غرائب الظرف ما حكاه ابن خلكان في تاريخه﴾ قال حدثني من أثق به ان شخصا قال له رأيت في تآليف أبي العلاء المعري ما صورته أصلحك الله وأبقاك لقد كان من الواجب أن تأتينا اليوم الى منزلنا الخالي لكي يحدث لي أنسك يا زين الأخلاء فما مثلك من غير عهدا أو غفل وسأله من أي الابحر وهل هو بيت واحد أم أكثر فان كان أكثر فهل أبياته على روي واحد أو مختلفة الروي قال فافكر فيه ثم أجابه بجواب حسن قال ابن خلكان فقلت للقائل اصبر

ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين والحمد لله رب العالمين

❊الباب السابع عشر فى ذكر الحجاب والولاية وما فيهما من الغرر والخطر❊

(أما الحجاب) فقد قيل لا شئ أضيع للمملكة وأهلك للرعية من شدة الحجاب وقيل اذا سهل الحجاب أحجمت الرعية عن الظلم واذا عظم الحجاب هجمت على الظلم وقال ميمون بن مهران كنت عند عمر بن عبد العزيز فقال لحاجبه من بالباب فقال رجل أناخ ناقته الآن يزعم أنه ابن بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن له أن يدخل فلما دخل قال حدثنى أبى أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من ولى شيأ من أمور المسلمين ثم حجب عنه حجبه الله عنه يوم القيامة فقال عمر لحاجبه الزم بيتك فما رؤى على بابه بعد ذلك حاجب وكان خالد بن عبد الله القسرى يقول لحاجبه اذا أخذت مجلسى فلا تحجبن عنى أحدا فان الوالى لا يحتجب الا لثلاث عيب يكره أن يطلع عليه أحد أو ريبة يخاف منها أن تظهر أو بخل يكره معه أن يسئل شيأ وكانت العجم تقول لا شئ أضيع للمملكة من شدة حجاب الملك ولا شئ أهيب للرعية وأكف لهم عن الظلم من سهولته وقيل لبعض الحكماء ما الجرح الذى لا يندمل قال حاجة الكريم الى اللئيم ثم يرده بغير قضائها قيل فما الذى هو أشد منه قال وقوف الشريف بباب الدنى ثم لا يؤذن له ووقف عبد الله بن العباس بن الحسن العلوى على باب المأمون يوما فنظر اليه الحاجب ثم أطرق فقال عبد الله لقوم معه انه لو أذن لنا لدخلنا ولو صرفنا لانصرفنا ولو اعتذر الينا لقبلنا وأما النظرة بعد النظرة والتوقف بعد التعرف فلا افهم معناه ثم تمثل بهذا البيت

وما عن رضا كان الحمار مطيتى ❊ ولكن من يمشى سيرضى بما ركب

ثم انصرف فبلغ ذلك المأمون فضرب الحاجب ضربا شديدا وأمر لعبد الله بصلة جزيلة وعشر دواب (قال الشاعر)

رأيت أناسا يسرعون تبادرا ❊ اذا فتح البواب بابك أصبعا
ونحن جلوس ساكتون رزانة ❊ وحلما الى أن يفتح الباب أجمعا

ووقف رجل خراسانى بباب أبى دلف العجلى حينا فلم يؤذن له فكتب رقعة وتلطف فى وصولها اليه وفيها

اذا كان الكريم له حجاب ❊ فما فضل الكريم على اللئيم

فاجابه أبو دلف بقوله

اذا كان الكريم قليل مال ❊ ولم يعذر تعلل بالحجاب
وأبواب الملوك محجبات ❊ فلا تستنكرن حجاب بابى

(ومن) محاسن النظم فى ذم الاحتجاب قول بعضهم

سأهجركم حتى يلين حجابكم ❊ على أنه لا بد سوف يلين
خذوا حذركم من صفوة الدهر انها ❊ وان لم تكن خانت فسوف تخون

(وقال آخر)

ماذا على بواب داركم الذى ❊ لم يعطنا اذنا ولا يستأذن
لو رد نارد اجميلا عنكم ❊ أو كان يدفع بالتى هى أحسن

(وقال آخر)

أمرت بالتسهيل فى الاذن لى ❊ ولم يرا الحاجب أن يأذنا
فلن ترانى بعدها عائدا ❊ وان تراه بعد مستأذنا

(وقال آخر)

ولقد رأيت بباب دارك جفوة ❊ فيها لحسن صنيعك التكدير
ما بال دارك حين تدخل جنة ❊ وبباب دارك منكر ونكير

(وقال آخر)

اذا جئت ألقى عند بابك حاجبا ❊ محياه من فرط الجهالة حالك
ومن عجب مغناك جنة قاصد ❊ وحاجبها من دون رضوان مالك

(وقال آخر)

سأترك بابا أنت تملك اذنه ❊ ولو كنت أعمى عن جميع المسالك
فلو كنت بواب الجنان تركتها ❊ وحولت رجلى مسرعا نحو مالك

(وقال آخر)

ماذا يفيدك أن تكون محجبا ❊ والعبد بالباب الكريم يلوذ
ما أنت الا فى الحصار معى فلا ❊ تتعب فكل محاصر مأخوذ

(وقال أبو تمام)

سأترك هذا الباب ما دام اذنه ❊ على ما أرى حتى يلين قليلا

حتى أنظر فيه ولا تقل ما قاله فأجاب القاضى شمس الدين بن خلكان بعد حسن النظر بما أجاب به عنه الرجل وهذه الكلمات تخرج من بحر الرجز وتشتمل على أربعة أبيات فى روى اللام وهى على صورة يصوغ استعمالها عند العروضيين ومن لا يكون له بهذا الفن معرفة ينكرها لاجل قطع الموصول منها ولا بد من الاتيان بها لتظهر صورة ذلك وهى

أصلحك الله وأبـ ❊ ـقاك لقد كان من الـ
واجب أن تأتينا الـ ❊ ـيوم الى منزلنا الـ
خالى لكى يحدث لى ❊ أنسك يا زين الاخلـ
لا فما مثلك من ❊ غير عهدا أو غفل

(قلت) وعلى ذكر أبى العلاء الضرير يعجبنى قول مظفر بن جماعة الضرير

قالوا عشقت وأنت أعمى ❊ ظبيا كحيل الطرف ألمى
وحلاه ما عاينتها ❊ وتقول قد شغفتك وهما
وخياله بك فى المنا ❊ م فما أطاف ولا ألما
من أين أرسل للفؤا ❊ د وأنت لم تنظره سهما
ومتى رأيت جماله ❊ حتى كساك هواه سقما
وباى جارحة وصلـ ❊ ـت لوصفه نثرا ونظما
فاجبت انى موسو ❊ ى العشق انصاتا وفهما
أهوى بجارحة السما ❊ ع ولا أرى ذات المسمى

❊ويعجبنى أيضا قول ضرير آخر❊

وغادة قالت لاترابها ❊ ياقوم ما أعجب هذا الضرير
أيعشق الانسان ما لا يرى ❊ فقلت والدمع بعينى غزير
ان لم تكن عينى رأت شخصها ❊ فانها قد مثلت فى الضمير

فما خاب من لم يأته متعمدا * ولا فاز من قد نال منه وصولا

اذا لم نجد للاذن عندك موضعا * وجدنا الى ترك المجى سبيلا

واستأذن رجل على أمير فقال للحاجب قل له ان الكرى قد خطب الى نفسى وانما هى هجعة وأهب فخرج الحاجب فقال له الرجل ما الذى قال لك قال قال كلاما لا أفهمه وهو يريد أن لا يأذن لك وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه انما أمهل فرعون مع دعواه الالوهية لسهولة اذنه وبذل طعامه وقال عمرو بن مرة الجهنى لمعاوية سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من أمير يغلق بابه دون ذوى الحاجة والخلة والمسئلة الا أغلق الله أبواب السموات دون حاجته وخلته ومسئلته * وجاء النامى الشاعر لبعض الأمراء فحجبه فقال

سأصبر ان جفوت فكم صبرنا * لمثلك من أمير أو وزير رجوناهم فلما أخلفونا

تمادت فيهم غير الدهور * فبتنا بالسلامة وهى غنم * وباتوا فى المحابس والقبور

ولما لم ننل منهم سرورا * رأينا فيهم كل السرور

(وأنشدوا فى ذلك أيضا) قل للذين تحجبوا عن راغب * بمنازل من دونها الحجاب

ان حال عن لقياكم بوابكم * فالله ليس لبابه بوّاب

واستأذن سعد بن مالك على معاوية فحجبه فهتف بالبكاء فأتى اليه الناس وفيهم كعب فقال وما يبكيك يا سعد فقال ومالى لا أبكى وقد ذهب الأعلام من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعاوية يلعب بهذه الأمة فقال كعب لا تبك فان فى الجنة قصرا من ذهب يقال له عدن أهله الصديقون والشهداء وأنا أرجو أن تكون من أهله * واستأذن بعضهم على خليفة كريم وحاجبه لئيم فحجبه فقال

فى كل يوم لى ببابك وقفة * أطوى اليه سائر الأبواب

واذا حضرت وغبت عنك فانه * ذنب عقوبته على البوّاب

(وأما ذكر الولايات وما فيها من الخطر العظيم) فقد قال الله تعالى لداود عليه السلام يا داود انا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب جاء فى التفسيران من اتباع الهوى أن يحضر الخصمان بين يديك فتود أن يكون الحق للذى فى قلبك حبه خاصة وبهذا سلب سليمان بن داود ملكه قال ابن عباس رضى الله عنهما كان الذى أصاب سليمان بن داود عليهما السلام أن ناسا من أهل جرادة امرأته وكانت من أكرم نسائه عليه تحاكموا اليه مع غيرهم فأحب أن يكون الحق لأهل جرادة فيقضى لهم فعوقب بسبب ذلك حيث لم يكن هواه فيهم واحدا وروى عن عبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنه قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عبد الرحمن لا تسأل الامارة فانك ان أعطيتها من غير مسئلة أعنت عليها وان أعطيتها عن مسئلة وكلت اليها وقال معقل بن يسار رضى الله عنه سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصيحته الا لم يجد رائحة الجنة وفى الحديث من ولى من أمور المسلمين شيأ ثم لم يحطهم بنصيحة كما يحوط أهل بيته فليتبوأ مقعده من النار وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعث الى عاصم يستعمله على الصدقة فأبى وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا كان يوم القيامة يؤتى بالوالى فيقف على جسر جهنم فيأمر الله تعالى الجسر فينتفض انتفاضة فيزول كل عضو منه عن مكانه ثم يأمر الله تعالى بالعظام فترجع الى أماكنها فان كان لله مطيعا أخذ بيده وأعطاه كفلين من رحمته وان كان لله عاصيا انخرق به الجسر فهوى به فى نار جهنم مقدار سبعين خريفا فقال عمر رضى الله عنه سمعت من النبى صلى الله عليه وسلم ما لم أسمع قال نعم وكان سلمان وأبو ذر حاضرين فقال سلمان أى والله يا عمر ومع السبعين سبعون خريفا فى واد يلتهب التهابا فضرب عمر رضى الله عنه بيده على جبهته وقال انا لله وانا اليه راجعون من يأخذها بما فيها فقال سلمان من أرغم الله أنفه وألصق خده بالأرض وروى أبو داود فى السنن قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ان أبى عريف على الماء وانى أسألك أن تجعل لى العرافة من بعده فقال النبى عليه الصلاة والسلام العرفاء فى النار وروى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أشد الناس عذابا يوم القيامة الامام الجائر وقالت عائشة رضى الله عنها

سمعت

(ومثل هذا) قول المهذب عمر بن الشحنة

وانى امرؤ أحببتكم لمحاسن * سمعت بها والاذن كالعين تعشق

وتقدمه بشار بقوله

يا قوم أذنى لبعض القوم عاشقة * والاذن تعشق قبل العين أحيانا

(ونقل الشيخ جمال الدين بن نباتة) فى كتابه المسمى بسرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون عن على ابن أبى طالب انه قال سبحان الله ما أزهد كثيرا من الناس فى الخير عجبا لرجل يجيئه أخوه المسلم فى حاجة فلا يرى نفسه أهلا للخير ولا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا وكان ينبغى له أن يسارع الى مكارم الاخلاق فانها تدل على سبل النجاح فقام اليه رجل فقال يا أمير المؤمنين أسمعته من النبى صلى الله عليه وسلم قال نعم لما أتى بسبايا طيئ وقعت جارية بها جميلة فلما رأيتها أعجبت بها فلما تكلمت نسيت جمالها بفصاحتها فقالت يا محمد ان رأيت أن تخلى سبيلى ولا تشمت بى أحياء العرب فانى ابنة سيد قومى وان أبى كان يفك العانى ويشبع الجائع ويكسو العارى ويفشى السلام ولا يرد طالب حاجة قط أنا بنت حاتم الطائى فقال النبى صلى الله عليه وسلم هذه صفات المؤمنين خلوا عنها فان أباها كان يحب مكارم الاخلاق والمنقول عن حاتم فى زيادة الكرم كثير (من ذلك) ما حكاه المدائنى قال أقبل ركب من بنى أسد وبنى قيس يريدون النعمان فلقوا حاتما فقالوا تركنا قومنا يثنون عليك وقد أرسلوا اليك رسالة قال وما هى فأنشده الاسديون شعر النابغة فيه فلما أنشدوه قالوا انا نستحى أن نسألك شيأ وان لنا حاجة قال وما هى قالوا صاحب لنا قد أرجل يعنى فقدت راحلته فقال حاتم خذوا فرسى هذه فاحملوه عليها فأخذوها وربطت الجارية فلوها

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يؤتى بالقاضي العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يود أنه لم يقض بين اثنين في تمرة وقال الحسن البصري ان النبي صلى الله عليه وسلم دعا عبد الرحمن بن سمرة يستعمله فقال يا رسول الله خر لي فقال اقعد في بيتك وقال أبو هريرة رضي الله عنه ما من أمير يؤمر على عشرة الا جيء به يوم القيامة مغلولا أنجاه عمله أو أهلكه قال طاوس وسليمان بن عبد الملك هل تدري يا أمير المؤمنين من أشد الناس عذابا يوم القيامة قال سليمان قل فقال طاوس أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله في ملكه فجار في حكمه فاستلقى سليمان على سريره وهو يبكي فما زال يبكي حتى قام عنه جلساؤه وقال ابن سيرين جاء صبيان الى أبي عبيدة السلماني يتخيرون اليه في ألواحهم فلم ينظر اليها وقال هذا حكم لا أتولى حكما أبدا وقال أبو بكر بن أبي مريم حج قوم فمات صاحب لهم بأرض فلاة فلم يجدوا ماء فأتاهم رجل فقالوا له دلنا على الماء فقال احلفوا الى ثلاثا وثلاثين يمينا انه لم يكن صرافا ولا مكاسا ولا عريفا ويروى ولا عرافا ولا بريدا وأنا أدلكم على الماء فحلفوا له ثلاثا وثلاثين يمينا كما قال فدلهم على الماء فقالوا له أعنا على غسله فقال لا حتى تحلفوا الى ثلاثا وثلاثين يمينا كما تقدم فحلفوا له فأعانهم على غسله ثم قالوا له تقدم فصل عليه فقال لا حتى تحلفوا الى ثلاثا وثلاثين يمينا كما تقدم فحلفوا له فصلى عليه ثم التفتوا فلم يجدوا أحدا فكانوا يرون أنه الخضر عليه السلام وقال أبو ذر رضي الله عنه قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا ذر اني أحب لك ما أحب لنفسي واني أراك ضعيفا فلا تتأمرن على اثنين ولا تلين مال يتيم ﴿ومن غريب ما اتفق وعجيب ما سبق﴾ ما حكى أن ملكا من ملوك الفرس يقال له أردشير وكان ذا مملكة متسعة وجند كثير وكان ذا بأس شديد وقد وصف له بنت ملك بحر الاردن بالجمال البارع وأن هذه البنت بكر ذات خدر فسير أردشير من يخطبها من أبيها فامتنع من اجابته ولم يرض بذلك فعظم ذلك على أردشير وأقسم بالايمان المغلظة ليغزون الملك أبا البنت وليقتلنه هو وابنته شر قتلة وليمثلن بهما أخبث مثلة فسار اليه أردشير في جيوشه فقاتله فقتله أردشير وقتل سائر خواصه ثم سأل عن ابنته المخطوبة فبرزت اليه جارية من القصر من أجمل النساء وأكمل البنات حسنا وجمالا وقدا واعتدالا فبهت أردشير من رؤيته اياها فقالت له أيها الملك انني ابنة الملك الفلاني ملك المدينة الفلانية وان الملك الذي قتلته أنت قد غزا بلدنا وقتل أبي وقتل سائر أصحابه قبل أن تقتله أنت وانه أسرني في جملة الأسارى وأتى بي في هذا القصر فلما رأتني ابنته التي أرسلت تخطبها أحبتني وسألت أباها أن يتركني عندها لتأنس بي فتركني لها فكنت أنا وهي كأننا روحان في جسد واحد فلما أرسلت تخطبها خاف أبوها عليها منك فأرسلها الى بعض الجزائر في البحر المالح عند بعض أقارب به من الملوك فقال أردشير وددت لو أني ظفرت بها فكنت أقتلها شر قتلة ثم انه تأمل الجارية فرآها فائقة في الجمال فمالت نفسه اليها فأخذها للتسري وقال هذه أجنبية من الملك ولا أحنث في يميني بأخذها ثم انه واقعها وأزال بكارتها فحملت منه فلما ظهر عليها الحمل اتفق أنها تحدثت معه يوما وقد رأته منشرح الصدر فقالت له أنت غلبت أبي وأنا غلبتك فقال لها ومن أبوك فقالت له هو ملك بحر الأردن وأنا ابنته التي خطبتها منه وانني سمعت أنك أقسمت لتقتلني فتحيلت عليك بما سمعت والآن هذا ولدك في بطني فلا يتهيأ لك قتلي فعظم ذلك على أردشير اذ قهرته امرأة وتحيلت عليه حتى تخلصت من يديه فانتهرها وخرج من عندها مغضبا وعول على قتلها ثم ذكر لوزيره ما اتفق له معها فلما رأى الوزير عزمه قويا على قتلها خشي أن تتحدث الملوك عنه بمثل هذا وأنه لا يقبل فيها شفاعة شافع فقال أيها الملك ان الرأي هو الذي خطر لك والمصلحة هي التي رأيتها أنت وقتل هذه الجارية في هذا الوقت أولى وهو عين الصواب لأنه أحق من أن يقال ان امرأة قهرت رأي الملك وحنثته في يمينه لأجل شهوة النفس ثم قال أيها الملك ان صورتها مرحومة وحمل الملك معها وهي أولى بالستر ولا أرى في قتلها أستر ولا أهون عليها من الغرق فقال له الملك نعم ما رأيت خذها غرقها فأخذها الوزير ثم خرج بها ليلا الى بحر الأردن ومعه عبيد ورجال وأعوان فتحيل الى أن طرح شيئا في البحر أوهم من كان معه أنها الجارية ثم انه أخفاها عنده فلما أصبح جاء الى الملك فأخبره أنه غرقها فشكره على ما فعل ثم ان الوزير ناول الملك حقا مختوما وقال أيها الملك اني نظرت مولدي فرأيت أجلي قد دنا على ما يقتضيه حساب حكماء الفرس في النجوم وان لي أولادا وعندي مال قد ادخرته من نعمتك فخذه اذا أنا مت ان رأيت وهذا الحق فيه جوهر أسأل الملك أن يقسمه بين أولادي بالسوية فانه ارثي الذي قد ورثته من أبي وليس عندي شيء

بثوبها فافلت يتبع أمه فتبعته الجارية لترده فصاح حاتم ما تبعكم فهو لكم فذهبوا بالفرس والفلو والجارية (وقيل) أجود العرب في الجاهلية ثلاثة حاتم الطائي وهرم بن سنان وكعب بن مامة وحاتم كان أشهرهم بالكرم ذكر انه أدرك مولد النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وحكى الهيثم بن عدي﴾ قال تمارى ثلاثة في أجواد الاسلام فقال رجل أسخى الناس في عصرنا هذا عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب وقال آخر أسخى الناس عرابة الأوسي وقال آخر بل قيس بن سعد بن عبادة وأكثروا الجدال في ذلك وكثر ضجيجهم وهم بفناء الكعبة فقال لهم رجل قد أكثرتم الجدال في ذلك فما عليكم أن يمضي كل واحد منكم الى صاحبه يسأله حتى ننظر ما يعطيه ونحكم على العيان فقام صاحب عبد الله اليه فصادفه قد وضع رجله في غرز ناقته يريد ضيعة له فقال يا ابن عم رسول الله قال قل ما تشاء قال ابن سبيل ومنقطع به قال فأخرج رجله من غرز الناقة وقال له ضع رجلك واستو على الراحلة وخذ ما في الحقيبة واحتفظ بسيفك فانه من سيوف علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال فجاء بالناقة والحقيبة فيها مطارف خز وأربعة آلاف دينار وأعظمها وأجلها السيف ومضى صاحب قيس بن سعد بن عبادة فصادفه نائما فقالت الجارية هو نائم فما حاجتك اليه قال ابن سبيل ومنقطع به قالت حاجتك أهون من ايقاظه هذا كيس فيه سبعمائة دينار والله يعلم ان ما في دار قيس غيره خذه وامض الى معاطن الابل الى أموال لنا بعلامتنا فخذ راحلة من رواحله وما يصلحها وعبدا وامض لشأنك فقيل ان قيسا لما انتبه من رقدته أخبرته بما صنعت فأعتقها ومضى صاحب

اكتسبته منه الا هذا الجوهر فقال له الملك يطول الرب في عمرك وما لك ولا ولد سواء كنت حيا أو ميتا فألح عليه الوزير أن يجعل الحق عنده وديعة فأخذه الملك وأودعه عنده في صندوق ثم مضت أشهر الجارية فوضعت ولدا ذكرا جميلا حسن الخلقة مثل فلقة القمر فلاحظ الوزير جانب الأدب في تسميته فرأى أنه ان اخترع له اسما وسماه به وظهر لوالده بعد ذلك فيكون قد أساء الأدب وان هو تركه بلا اسم لم يتهيأ له ذلك فسماه شاهبور ومعنى شاهبور بالفارسية ابن ملك فان شاه ملك وبور ابن ولغتهم مبنية على تأخير المتقدم وتقديم المتأخر وهذه تسمية ليس فيها مؤاخذة ولم يزل الوزير يلاطف الجارية والولد الى أن بلغ الولد حد التعليم فعلمه كل ما يصلح لاولاد الملوك من الخط والحكمة والفروسية وهو يوهم أنه مملوك له اسمه شاهبور الى أن راهق البلوغ هذا كله وأردشير ليس له ولد وقد طعن في السن وأقعده الهرم فمرض وأشرف على الموت فقال للوزير أيها الوزير قد هرم جسمي وضعفت قوتي واني أرى اني ميت لا محالة وهذا الملك يأخذه من بعدي من قضي له به فقال الوزير لو شاء الله أن يكون للملك ولد كان قد ولي بعده الملك ثم ذكره بأمر بنت ملك بحر الاردن وبحملها فقال الملك لقد ندمت على تغريبها ولو كنت أبقيتها حتى تضع فلعل حملها يكون ذكرا فلما شاهد الوزير من الملك الرضا قال أيها الملك انها عندي حية ولقد وضعت ولدا ذكرا من أحسن الغلمان خلقا وخلقا فقال الملك أحق ما تقول فأقسم الوزير أن نعم ثم قال أيها الملك ان في الولد روحانية تشهد بأبوة الأب وفي الوالد روحانية تشهد ببنوة الابن لا يكاد ذلك ينخرم أبدا واني آتي بهذا الغلام بين عشرين غلاما في سنه وهيئته ولباسه وكلهم ذوو آباء معروفين خلا هو واني أعطي كل واحد منهم صولجانا وكرة وآمرهم أن يلعبوا بين يديك في مجلسك هذا وتتأمل الملك صورهم وخلقتهم وشمائلهم فمن كل من مالت اليه نفسه وروحانيته فهو هو فقال الملك نعم التدبير الذي قلت فأحضرهم الوزير على هذه الصورة ولعبوا بين يدي الملك فكان الصبي منهم اذا ضرب الكرة وقربت من مجلس الملك تمنعه الهيبة أن يتقدم ليأخذها الا شاهبور فانه كان اذا ضربها وجاءت عند مرتبة أبيه تقدم فأخذها ولا تأخذه الهيبة منه فلاحظ أردشير ذلك منه مرارا فقال له أيها الغلام ما اسمك قال شاهبور فقال له صدقت أنت ابني حقا ثم ضمه اليه وقبله بين عينيه فقال له الوزير هذا هو ابنك أيها الملك ثم أحضر بقية الصبيان ومعهم عدول فأثبت لكل صبي منهم والده بحضرة الملك تحقق الصدق في ذلك ثم جاءت الجارية وقد تضاعف حسنها وجمالها فقبلت يد الملك فرضي عنها فقال الوزير أيها الملك قد دعت الضرورة في هذا الوقت الى احضار الحق المختوم فأمر الملك باحضاره ثم أخذه الوزير وفك ختمه وفتحه فاذا فيه ذكر الوزير وأنثياه مقطوعة مصانة فيه من قبل أن يتسلم الجارية من الملك وأحضر عدولا من الحكماء وهم الذين كانوا فعلوا به ذلك فشهدوا عند الملك بأن هذا الفعل فعلناه به من قبل أن يتسلم الجارية بليلة واحدة قال فدهش الملك أردشير وبهت لما أبداه هذا الوزير من قوة النفس في الخدمة وشدة مناصحته فزاد سروره وتضاعف فرحه لصيانة الجارية واثبات نسب الولد ولحوقه به ثم ان الملك عوفي من مرضه الذي كان به وصح جسمه ولم يزل يتقلب في نعمه وهو مسرور بابنه الى أن حضرته الوفاة ورجع الملك الى ابنه شاهبور بعد موت أبيه وصار ذلك الوزير يخدم ابن الملك أردشير شاهبور يحفظ مقامه ويرعى منزلته حتى توفاه الله تعالى والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين

﴿الباب الثامن عشر فيما جاء في القضاء وذكر القضاة وقبول الرشوة والهدية على الحكم وما يتعلق بالديون وذكر القصاص والمتصوفة وفيه فصول﴾

﴿الفصل الأول فيما جاء في القضاء وذكر القضاة وأحوالهم وما يجب عليهم﴾ قال الله تعالى يا داود انا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب وقال تعالى فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط وقال تعالى ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حكم بين اثنين تحاكما اليه وارتضياه فلم يقض بينهما بالحق فعليه لعنة الله وعن أبي حازم قال دخل عمر على أبي بكر رضوان الله عليهما فسلم عليه فلم يرد عليه فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف أخاف أن يكون وجد على خليفة رسول الله صلى

الله

لعرابة الأوسي اليه فألفاه قد خرج من منزله يريد الصلاة وهو يمشي على عبدين وقد كف بصره فقال يا عرابة ابن سبيل ومنقطع به قال فخلى العبدين وصفق بيمناه على يسراه وقال أواه أواه ما تركت الحقوق لعرابة مالا ولكن خذهما يعني العبدين قال ما كنت بالذي أقص جناحك قال ان لم تأخذهما فهما حران فان شئت تأخذ وان شئت تعتق وأقبل يلتمس الحائط بيده راجعا الى منزله قال فأخذهما وجاء بهما فثبت انهم أجود عصرهم الا أنهم حكموا لعرابة لانه أعطى جهده ﴿نادرة غريبة﴾ حضر يعقوب بن اسحق الكندي المسمى بوقته فيلسوف الاسلام مجلس أحمد بن المعتصم وقد دخل عليه أبو تمام فأنشد قصيدته السينية المشهورة فلما بلغ الى قوله

اقدام عمرو في سماحة حاتم
في حلم أحنف في ذكاء اياس

قال له الكندي ما صنعت شيئا فقال كيف قال ما زدت على أن شبهت ابن أمير المؤمنين بصعاليك العرب وأيضا فان شعراء دهرنا تجاوزوا بالممدوح من كان قبله ألا ترى الى قول العكوك في أبي دلف

رجل أبر على شجاعة عامر
بأسا وغبر في محيا حاتم

فأطرق أبو تمام ثم أنشأ يقول

لا تنكروا ضربي له من دونه
مثلا شرودا في الندى والباس
فالله قد ضرب الاقل لنوره
مثلا من المشكاة والنبراس

ولم يكن هذا في القصيدة فتزايد العجب منه ثم طلب أن تكون الجائزة ولاية عمل فاستصغر عن ذلك فقال الكندي ولوه لانه قصير العمر لأن ذهنه ينحت من قلبه فكان كما قال وقد تكون ظهرت له دلائل من شخصه في ذلك الوقت على قرب أجله انتهى وسمع

الله عليه وسلم فكلم عبد الرحمن أبا بكر فقال أتانى وبين يدى خصمان قد فرغت لهما قلبى وسمعى وبصرى وعلمت أن الله سائلى عنهما وعما قالا وقلت وادعى رجل على على عند عمر رضى الله عنهما وعلى جالس فالتفت عمر اليه وقال يا أبا الحسن قم فاجلس مع خصمك فقام فجلس مع خصمه فتناظرا وانصرف الرجل ورجع على الى مجلسه فتبين لعمر التغير فى وجه على فقال يا أبا الحسن مالى أراك متغيرا أكرهت ما كان قال نعم قال وماذاك قال كنيتنى بحضرة خصمى هلا قلت يا على قم فاجلس مع خصمك فأخذ عمر برأس على رضى الله عنهما فقبله بين عينيه ثم قال بأبى أنتم بكم هدانا الله وبكم أخرجنا من الظلمات الى النور * وعن أبى حنيفة رضى الله عنه القاضى كالغريق فى البحر الاخضر الى متى يسبح وان كان سابحا * وأراد عمر بن هبيرة أن يولى أبا حنيفة القضاء فأبى فحلف ليضربنه بالسياط وليسجننه فضربه حتى انتفخ وجه أبى حنيفة ورأسه من الضرب فقال الضرب بالسياط فى الدنيا أهون على من الضرب بمقامع الحديد فى الآخرة * وعن عبد الملك ابن عمير عن رجل من أهل اليمن قال أقبل سيل باليمن فى خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه فكشف عن باب مغلق فظنناه كنزا فكتبنا الى أبى بكر رضى الله تعالى عنه فكتب الينا لا تحركوه حتى يقدم اليكم كتابى ثم فتح فاذا برجل على سرير عليه سبعون حلة منسوجة بالذهب وفى يده اليمنى لوح مكتوب فيه هذان البيتان

اذا خان الامير وكاتباه * وقاضى الارض داهن فى القضاء
فويل ثم ويل ثم ويل * لقاضى الأرض من قاضى السماء

واذا عند رأسه سيف أشد خضرة من البقلة مكتوب عليه هذا سيف عاد بن ارم وعن ابن أبى أوفى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله مع القاضى مالم يجر فاذا جار برئ الله منه ولزمه الشيطان وقال محمد بن حريث بلغنى أن نصر بن على راودوه على القضاء بالبصرة واجتمع الناس اليه فكان لا يجيبهم فلما ألحوا عليه دخل بيته ونام على ظهره وألقى ملاءة على وجهه وقال اللهم ان كنت تعلم أنى لهذا الامر كاره فاقبضنى اليك فقبض * وعن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم القضاة جسور للناس يمرون على ظهورهم يوم القيامة وقال حفص بن غياث لرجل كان يسأل عن مسائل القضاء لعلك تريد أن تكون قاضيا لأن يدخل الرجل أصبعه فى عينيه فيقلعهما ويرمى بهما خير له من أن يكون قاضيا وقيل أول من أظهر الجور من القضاة بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الاشعرى كان أمير البصرة وقاضيا فيها وكان يقول ان الرجلين يتقدمان الى فأجد أحدهما أخف على قلبى من الآخر فاقضى له * وتقدم المأمون بين يدى القاضى يحيى بن أكثم مع رجل ادعى عليه بثلاثين ألف دينار فطرح للمأمون مصلى يجلس عليه فقال له يحيى لا تأخذ على خصمك شرف المجلس ولم يكن للرجل بينة فأراد أن يحلف المأمون فدفع اليه المأمون ثلاثين ألف دينار وقال والله ما دفعت لك هذا المال الا خشية أن تقول العامة انى تناولتك من جهة القدرة ثم أمر ليحيى بمال وأجزل عطاءه * وقدم خادم من وجوه خدم المعتضد بالله الى أبى يوسف بن يعقوب فى حكم فارتفع الخادم على خصمه فى المجلس فزجره الحاجب عن ذلك فلم يقبل فقال أبو يوسف قم أتؤمر أن تقف بمساواة خصمك فى المجلس فتمتنع يا غلام ائتنى بعمرو بن أبى عمرو النخاس فانه ان قدم على الساعة أمرته ببيع هذا العبد وحمل ثمنه الى أمير المؤمنين ثم ان الحاجب أخذ بيده حتى أوقفه بمساواة خصمه فلما انقضى الحكم رجع الخادم الى المعتضد وبكى بين يديه وأخبره بالقصة فقال له لو باعك لاجزت بيعه ولم أردك الى ملكى فليست منزلتك عندى تزن رتبة المساواة بين الخصمين فى الحكم فان ذلك عمود السلطان وقوام الاديان والله تعالى أعلم

(وقال) الابرش العكلى يمدح بعض القضاة

رفضت وعطلت الحكومة قبله * فى آخرين وملهم رواضها
حتى اذا ماقام ألف بينها * بالحق حتى جمعت أوفاضها

(وفى ضد ذلك قول بعضهم)

أبكى وأندب ملة الاسلام * اذ صرت تقعد مقعد الحكام
ان الحوادث ما علمت كثيرة * وأراك بعض حوادث الأيام

وتقدمت امرأة الى قاض فقال لها جامعك شهودك فسكتت فقال كاتبه ان القاضى يقول لك أجاء شهودك معك قالت نعم هلا قلت مثل ما قال كاتبك كبر سنك وقل عقلك وعظمت لحيتك حتى غطت على لبك ما رأيت

الكندى انسانا ينشد

وفى أربع منى حلت منك أربع
فما أنا أدرى أيها هاج لى كربى
خيالك فى عينى أم الذكر فى فمى
أم النطق فى سمعى أم الحب فى قلبى

فقال لقد قسمتها تقسيما فلسفيا انتهى ونقل الشيخ جمال الدين بن نباتة فى كتابه المسمى بسرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون ان واضع العود بعض حكماء الفرس ولما فرغ منه سماه البربط وتفسيره باب النجاة ومعناه انه مأخوذ من صرير باب الجنة وجعلت أوتاره أربعة بازاء الطبائع الأربع فالزير بازاء السوداء والبم بازاء الصفراء والمثنى بازاء الدم والمثلث بازاء البلغم فاذا اعتدلت أوتاره المرتبة على ما يجب جانست الطبائع وأنتجت الطرب وهو رجوع النفس الى الحالة الطبيعية دفعة واحدة وبدى هذا العلم ببطليموس وختم باسحق بن ابراهيم الموصلى (وحكى ابن حمدون فى تذكرته) ان الحسن بن حماد قال كنت بالمدينة فخلا لى الطريق نصف النهار فجعلت أتغنى بشعر ذى يزن وهو

ما بال قومك يا رباب
خزرا كأنهم غضاب

فاذا كوة قد فتحت واذا وجه قد بدا منها تتبعه لحية حمراء فقال يا فاسق أسأت التأدية ومنعت القائلة وأذعت الفاحشة ثم اندفع يغنى فغنى الصوت غناء لم أسمع بمثله فقلت أصلحك الله من أين لك هذا الغناء قال نشأت وأنا غلام يعجبنى الأخذ عن المغنين فقالت أمى يا بنى ان المغنى اذا كان قبيح الوجه لم يلتفت الى غنائه فدع الغناء واطلب الفقه فتركته وتبعت الفقهاء فبلغ بى الى ما ترى فقلت أعد لى الصوت جعلت فداك فقال لا ولا كرامة أتريد أن تقول أخذته عن مالك بن أنس

فائدة غريبة روى عن سعد ابن أبى وقاص رضى الله عنه قال

ميتا يقضي بين الاحياء غيرك * وقيل المضروب بهم المثل في الجهل وتحريف الاحكام قاضي منى وقاضي كسكر وقاضي أيدج وهو الذي قال فيه أبو اسحق الصابي

يارب علج اعلج * مثل البعير الاهوج * رأيته مطلعا * من خلف باب مرتج
وخلفه عذيبة * تذهب طورا وتجي * فقلت من هذا ترى * فقيل قاضي أيدج

وقاضي شلبة وهو الذي قال فيه أبو الحسن الجوهري

رأيت رأسا كدبه * ولحية كالمذبه فقلت من أنت قل لي * فقال قاضي شلبه

(وتقدمت) امرأة جميلة الى الشعبي فادعت عنده فقضى لها فقال هذيل الأشجعي

فتن الشعبي لما * رفع الطرف اليها * فتنته ببنان * كيف لو رأى معصميها
ومشت مشيا رويدا * ثم هزت منكبيها * فقضى جورا على الخصم ولم يقض عليها

فتناشدها الناس وتداولوها حتى بلغت الشعبي فضرب الأشجعي ثلاثين سوطا (وحكى) ابن أبي ليلى قال انصرف الشعبي يوما من مجالس القضاء ونحن معه فمررنا بخادمة تغسل الثياب وهي تقول فتن الشعبي لما فتن الشعبي لما ولم تعرف بقية البيت فلقنها الشعبي وقال رفع الطرف اليها ثم قال أبعده الله أما أنا فما قضيت الا بالحق * وأنشد بعضهم في أمين الحكم تماوتن اذا مشيت تخشعا * حتى تصيب وديعة ليتيم

﴿الفصل الثاني في الرشوة والهدية على الحكم وما جاء في الديون﴾ أما الرشوة فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعن الله الراشي والمرتشي وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا تولوا اليهود ولا النصارى فانهم يقبلون الرشا ولا يحل في دين الله الرشا قال الشهيدي وأصحابنا اليوم أقبل للرشا منهم وفي نوابغ الحكم ان البراطيل تنصر الاباطيل وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال من شفع شفاعة ليرد بها حقا أو يدفع بها ظلما فاهدى له فقبل فذلك السحت فقيل له ما كنا نرى السحت الا الاخذ على الحكم قال الأخذ على الحكم كفر وأنشد المبرد رحمه الله تعالى وكنت اذا خاصمت خصما كببته * على الوجه حتى خاصمتني الدراهم
فلما تنازعنا الحكومة غلبت * علي وقالت قم فانك ظالم

﴿وأما الدين وما جاء فيه نعوذ بالله من غلبة الدين وقهر الرجال﴾

فقد روى عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من تداين بدين وفي نفسه وفاؤه ثم مات تجاوز الله عنه وأرضى غريمه بما شاء ومن تداين بدين وليس في نفسه وفاؤه ثم مات اقتص الله لغريمه منه يوم القيامة رواه الحاكم وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أتى له بجنازة لم يسأل عن شيء من عمل الرجل ويسأل عن دينه فان قيل عليه دين كف عن الصلاة عليه وان قيل ليس عليه دين صلى عليه فأتى بجنازة فلما قام ليكبر سأل صلى الله عليه وسلم هل على صاحبكم من دين فقالوا ديناران يارسول الله فعدل النبي صلى الله عليه وسلم عنه وقال صلوا على صاحبكم فقال علي كرم الله وجهه هما علي يارسول الله وهو بريء منهما فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى عليه ثم قال لعلي رضي الله عنه جزاك الله عنه خيرا فك الله رهانك كما فككت رهان أخيك انه ليس من ميت يموت وعليه دين الا وهو مرتهن بدينه ومن فك رهان ميت فك الله رهانه يوم القيامة وقال بعض الحكماء الدين هم بالليل وذل بالنهار وهو غل جعله الله في أرضه فاذا أراد الله أن يذل عبدا جعله طوقا في عنقه وجاء سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يتقاضى دينا له على رجل فقالوا خرج الى الغزو فقال أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو أن رجلا قتل في سبيل الله ثم أحيي ثم قتل لم يدخل الجنة حتى يقضي دينه وعن الزهري قال لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي على أحد عليه دين ثم قال بعد أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم من مات وعليه دين فعلي قضاؤه ثم صلى عليهم وعن جابر لا هم الا هم الدين ولا وجع الا وجع العين وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من تزوج امرأة بصداق ينوي أن لا يؤديه اليها فهو زان ومن استدان دينا ينوي أن لا يقضيه فهو سارق وقال حبيب بن ثابت ما احتجت الى شيء استقرضته الا استقرضته من نفسي أراد أنه يصبر الى أن تمكن الميسرة ونظيره قول القائل

واذا غلا شيء علي تركته * فيكون أرخص ما يكون اذا غلا

وقال

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان هذا القرآن نزل بحزن فاذا قرأتموه فابكوا فان لم تبكوا فتباكوا وتغنوا به فمن لم يتغن بالقرآن فليس منا رواه ابن ماجه ﴿نادرة لطيفة﴾ قال عبد الله بن أبي يزيد مر بنا أبو لبابة فاتبعناه حتى دخل بيته فاذا رجل رث الهيئة يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليس منا من لم يتغن بالقرآن قال فقلت لابن أبي مليكة يا أبا محمد أرأيت ان لم يكن حسن الصوت قال يحسنه ما استطاع رواه أبو داود ﴿نادرة لطيفة﴾ تتضمن المثل السائر في قولهم عن الخائب رجع بخفي حنين المنقول عن حنين انه كان اسكافا من أهل الحيرة ساومه اعرابي بخفين ولم يشتر منه شيأ وغاظه ذلك فخرج الى الطريق التي لا بد للاعرابي من المرور منها فعلق الفردة الواحدة منهما في شجرة على طريقه وتقدم قليلا فطرح الفردة الثانية واختفى فجاء الاعرابي فرأى أحد الخفين فوق الشجرة فقال ما أشبه بخف حنين لو كان معه آخر لتكلفت أخذه وتقدم فرأى الخف الآخر مطروحا فنزل وعقل بعيره وأخذه ورجع ليأخذ الأول فخرج حنين من الكمين فأخذ بعيره وذهب ورجع الاعرابي الى ناحية بعيره فلم يجده فرجع بخفي حنين فصارت مثلا ﴿نادرة لطيفة﴾ قيل ان بعض وفود العرب قدموا على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وكان فيهم شاب فقام وتقدم وقال يا أمير المؤمنين أصابتنا سنون سنة أذابت الشحم وسنة أكلت اللحم وسنة أذابت العظم وفي أيديكم فضول أموال فان كانت لنا فعلام تمنعونها عنا وان كانت لله ففرقوها على عباد الله وان كانت لكم فتصدقوا بها علينا ان الله

وقال بعضهم أيضا لقد كان القريض سمير قلبي * فالهتني القروض عن القريض

وقال غيلان بن مرة التميمي واني لأقضي الدين بالدين بعدما * يرى طالبي بالدين أن لست قاضيا

فاجابه ثعلبة بن عمير اذا ما قضيت الدين بالدين لم يكن * قضاء ولكن ذاك غرم على غرم

واستقرض من الأصمعي خليل له فقال حبا وكرامة ولكن سكن قلبي برهن يساوي ضعف ما تطلبه فقال يا أبا سعيد أما تثق بي قال بلى وان خليل الله كان واثقا به وقد قال له ولكن ليطمئن قلبي اللهم أوف عنا دين الدنيا بالميسرة ودين الآخرة بالمغفرة برحمتك يا أرحم الراحمين

﴿الفصل الثالث في ذكر القصاص والمتصوفة وما جاء في الرياء ونحو ذلك﴾

﴿أما ما جاء في ذكر القصاص والمتصوفة﴾ فقد روي عن خباب بن الأرت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان بني اسرائيل لما قصوا هلكوا وروي ان كعبا كان يقص فلما سمع الحديث ترك القصص وقال ابن عمر رضي الله عنهما لم يقص أحد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وانما كان القصص حين كانت الفتنة وقال ابن المبارك سألت الثوري من الناس قال العلماء قلت فمن الاشراف قال المتقون قلت فمن الملوك قال الزهاد قلت فمن الغوغاء قال القصاص الذين يستأكلون أموال الناس بالكلام قلت فمن السفهاء قال الظلمة قيل وهب رجل لقاص خاتما بلا فص فقال وهب الله لك في الجنة غرفة بلا سقف وقال قيس بن جبير النهشلي الصعقة التي عند القصاص من الشيطان وقيل لعائشة رضي الله عنها ان أقواما اذا سمعوا القرآن صعقوا فقالت القرآن أكرم وأعظم من أن تذهب منه عقول الرجال وسئل ابن سيرين عن أقوام يصعقون عند سماع القرآن فقال ميعاد ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائط فيقرأ عليهم القرآن من أوله الى آخره فان صعقوا فهو كما قالوا * وكان بعض القصاص يبكي بمواعظه فاذا طال مجلسه بالبكاء أخرج من كمه طنبورا صغيرا فيحركه ويقول مع هذا الغم الطويل يحتاج الى فرح ساعة وقال بعضهم قلت لصوفي بعني جبتك فقال اذا باع الصياد شبكته فبأي شيء يصيد * وسئل بعض العلماء عن المتصوفة فقال أكلة رقصة * وعظ عيسى عليه السلام بني اسرائيل فأقبلوا يمزقون الثياب فقال ما ذنب الثياب أقبلوا على القلوب فعاتبوها

﴿وأما ما جاء في الرياء﴾ فقد قال الله تعالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله الا قليلا وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معاذ احذر أن يرى عليك آثار المحسنين وأنت تخلو من ذلك فتحشر مع المرائين وقيل لو أن رجلا عمل عملا من البر وكتمه ثم أحب أن يعلم الناس انه كتمه فهو من أقبح الرياء وقيل كل ورع يحب صاحبه أن يعلمه غير الله فليس من الله في شيء وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر قالوا وما الشرك الاصغر يا رسول الله قال الرياء وقيل بينما عابد يمشي ومعه غمامة على رأسه تظله فجاء رجل يريد أن يستظل معه فنحاه وقال ان أقت معي لم يعلم الناس أن الغمامة تظلني فقال الرجل قد علم الناس أني لست عن تظله الغمامة فحولها الله تعالى الى ذلك الرجل وقال عبد الاعلى السلمي يوما الناس يزعمون أني مراء وكنت أمس والله صائما ولا أخبرت بذلك أحدا اللهم أصلح فساد قلوبنا واسترفضا بجناب رحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿الباب التاسع عشر في العدل والاحسان والانصاف وغير ذلك﴾

(اعلم) أرشدك الله ان الله تعالى أمر بالعدل ثم علم سبحانه وتعالى أنه ليس كل النفوس تصلح على العدل بل تطلب الاحسان وهو فوق العدل فقال تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى الآية فلو وسع الخلائق العدل ما قرن الله به الاحسان والعدل ميزان الله تعالى في الأرض الذي يؤخذ به للضعيف من القوي والمحق من المبطل * واعلم أن عدل الملك يوجب محبته وجوره يوجب الافتراق عنه وأفضل الازمنة ثوابا أيام العدل ورويناه من طريق أبي نعيم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال العمل الامام العادل في رعيته يوما واحدا أفضل من عمل العابد في أهله مائة عام أو خمسين عاما وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة وروينا في سنن أبي داود من حديث أبي

يجزي المتصدقين فقال عمر بن عبد العزيز ما ترك الاعرابي لنا عذرا في واحدة ﴿ووقف اعرابي على حلقة الحسن البصري﴾ فقال رحم الله من تصدق من فضل أو واسى من كفاف أو آثر من قوت فقال الحسن البصري ما ترك الاعرابي أحدا منكم حتى عمه بالسؤال قلت هذا النوع سماه البديعيون بالتقسيم ﴿نادرة أدبية بديعة﴾ حكى ضياء الدين ابن الاثير في المثل السائر بعدما أورد لغزا في الخلخال

ومضروب بلا جرم
مليح اللون معشوق
له شكل الهلال على
رشيق القد ممشوق
وأكثر ما يرى أبدا
على الامشاط في السوق

قال بلغني أن بعض الناس سمع هذه الأبيات فقال دخلت السوق فلم أر على الامشاط شيأ ﴿ومن نوادر الأدب أيضا﴾ اشارة الحجاج الى قول ابن نباتة السعدي في فرس أغر محجل

غضبت صباح وقد رأتني قادما
أبري فقلت لها مقالة فاجر
بالله الا ما لطمت جبينه
حتى يحقق فيك قول الشاعر

يريد بذلك قوله

وكأنما لطم الصباح جبينه * فاقتص منه فخاض في أحشائه

(ومن المنقول المشهور) أن الأدب وأهله كان عند أصحاب حماة في الذروة العالية ولكن قصة زكي الدين بن عبد الرحمن العوفي مع الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور محمد ابن الملك تقي الدين عمر بن شهنشاه كانت على غير المعهود منه ومن سلفه الطاهر وما ذاك الا أن زكي الدين المذكور أنشد الملك المظفر محمودا قبل أن يملك حماة

متى أراك ومن تهوى وأنت كما

هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ثلاثة لا ترد دعوتهم الامام العادل والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم تحمل على الغمام وتفتح لها أبواب السماء وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لكعب الاحبار أخبرني عن جنة عدن قال يا أمير المومنين لا يسكنها الا نبي أو صديق أو شهيد أو امام عادل فقال عمر والله ما أنا نبي وقد صدقت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما الامام العادل فاني أرجو أن لا أجور وأما الشهادة فاني لي بها قال الحسن فجعله الله صديقا شهيدا حكما عدلا وسأل الاسكندر حكماء أهل بابل أيما أبلغ عندكم الشجاعة أو العدل قالوا اذا استعملنا العدل استغنينا به عن الشجاعة ويقال عدل السلطان أنفع من خصب الزمان وقيل اذا رغب السلطان عن العدل رغبت الرعية عن طاعته وكتب بعض عمال عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه يشكو اليه من خراب مدينته ويسأله مالا يرمها به فكتب اليه عمر قد فهمت كتابك فاذا قرأت كتابي فحصن مدينتك بالعدل ونق طرقها من الظلم فانه مرمتها والسلام * ويقال ان الحاصل من خراج سواد العراق في زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان مائة ألف ألف وسبعة وثلاثين ألف ألف فلم يزل يتناقص حتى صار في زمن الحجاج ثمانية عشر ألف ألف فلما ولي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ارتفع في السنة الاولى الى ثلاثين ألف ألف وفي الثانية الى ستين ألف ألف وقيل أكثر وقال ان عشت لابلغنه الى ما كان في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فمات في تلك السنة * ومن كلام كسرى لا ملك الا بالجند ولا جند الا بالمال ولا مال الا بالبلاد ولا بلاد الا بالرعايا ولا رعايا الا بالعدل (ولما) مات سلمة بن سعيد كان عليه ديون للناس ولامير المومنين المنصور فكتب المنصور لعامله استوف لامير المومنين حقه وفرق ما بقي بين الغرماء فلم يلتفت الى كتابه وضرب للمنصور بسهم من المال كما ضرب لاحد الغرماء ثم كتب للمنصور اني رأيت أمير المومنين كاحد الغرماء فكتب اليه المنصور ملئت الأرض بك عدلا وكان أحمد بن طولون والي مصر متحليا بالعدل مع تجبره وسفكه للدماء وكان يجلس للمظالم وينصف المظلوم من الظالم (حكي) أن ولده العباس استدعى بمغنية وهو يصطبح يوما فلقيها بعض صالحي مصر ومعها غلام يحمل عودها فكسره فدخل العباس اليه وأخبره بذلك فأمر باحضار ذلك الرجل الصالح فلما أحضر اليه قال أنت الذي كسرت العود قال نعم قال أفعلمت لمن هو قال نعم هو لابنك العباس قال أفما أكرمته لي فقال أكرمه لك بمعصية الله عز وجل والله تعالى يقول والمومنون والمومنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق فاطرق أحمد بن طولون عند ذلك ثم قال كل منكر رأيته فغيره وأنا من ورائك * ووقف يهودي لعبد الملك بن مروان فقال يا أمير المومنين ان بعض خاصتك ظلمني فانصفني منه وأذقني حلاوة العدل فأعرض عنه فوقف له ثانيا فلم يلتفت اليه فوقف له مرة ثالثة وقال يا أمير المومنين انا نجد في التوراة المنزلة على كليم الله موسى صلوات الله وسلامه عليه ان الامام لا يكون شريكا في ظلم أحد حتى يرفع اليه فاذا رفع اليه ذلك ولم يزله فقد شاركه في الظلم والجور فلما سمع عبد الملك كلامه فزع وبعث في الحال الى من ظلمه فعزله وأخذ لليهودي حقه منه (وروي) أن رجلا من العقلاء غصبه بعض الولاة ضيعة له فاتى الى المنصور فقال له أصلحك الله يا أمير المومنين أأذكر لك حاجتي أم أضرب لك قبلها مثلا فقال بل اضرب المثل فقال ان الطفل الصغير اذا نابه أمر يكرهه فانما يفزع الى أمه إذ لا يعرف غيرها وظنا منه أن لا ناصر له غيرها فاذا ترعرع واشتد كان فراره الى أبيه فاذا بلغ وصار رجلا وحدث به أمر شكاه الى الوالي لعلمه انه أقوى من أبيه فاذا زاد عقله شكا الى السلطان لعلمه أنه أقوى من سواه فان لم ينصفه السلطان شكاه الى الله تعالى لعلمه انه أقوى من السلطان وقد نزلت بي نازلة وليس أحد فوقك أقوى منك الا الله تعالى فان أنصفتني وإلا رفعت أمري الى الله تعالى في الموسم فاني متوجه الى بيته وحرمه فقال المنصور بل ننصفك وأمر أن يكتب الى واليه برد ضيعته اليه وكان الاسكندر يقول يا عباد الله انما الهكم الله الذي في السماء الذي نصر نوحا بعد حين الذي يسقيكم الغيث عند الحاجة واليه مفزعكم عند الكرب والله لا يبلغني ان الله تعالى أحب شيأ إلا أحببته واستعملته إلى يوم أجلي ولا أبغض شيأ إلا أبغضته وهجرته إلى يوم أجلي وقد أنبئت أن الله تعالى يحب العدل في عباده ويبغض الجور من بعضهم على بعض فويل للظالم من سيفي وسوطي ومن ظهر منه العدل من عمالي فليتكىء في مجلسي كيف شاء وليتمن على ماشاء فلن تخطئه

تهوى هلي وقلبهم روحين في بدن
هنالك أنشد والآمال حاضرة
هنئت بالملك والاحباب والوطن
فوعده ان تملك حماة أن يعطيه ألف دينار فلما ملكها أنشد
مولاي هذا الملك قد نلته
برغم مخلوق من الخالق
والدهر منقاد لما شئته
فذا أوان الموعد الصادق
فدفع له ألف دينار وأقام معه مدة ولزمته أسفار أنفق فيها المال الذي أعطاه ولم يحصل بيده زيادة عليه فقال
ان الذي أعطوه لي جملة
قد استردوه قليلا قليل
فليت لم يعطوا ولم يأخذوا
وحسبنا الله ونعم الوكيل
فبلغ ذلك الملك المظفر فأخرجه من دار كان قد أنزله بها فقال
أتخرجني من كسر بيت مهدم
ولي فيك من حسن الثناء بيوت
فان عشت لم أعدم مكانا يضمني
وأنت فتدري ذكر من سيموت
فحبسه المظفر فقال ما ذنبي اليك
فقال حسبنا الله ونعم الوكيل
وأمر بخنقه فلما أحس بذلك قال
أعطيتني الألف تعظيما وتكرمة
ياليت شعري أم أعطيتني ديني
(قلت) كان والد الملك المظفر أليق بهذا المقام الذي لم يقصد به زكي الدين العوفي غير ترويج الأدب في اختلاف المعاني والمداعبة به والتوصل بذلك الى بسط الملك المظفر ولكن حال الزكي كقول الشاعر
وكنت كالمتمني أن يرى فلقا
من الصباح فلما أن رآه عمي
(قلت) وكان والد السلطان الملك المظفر المنصور من كبار أهل الأدب وكان أحب الناس لأهله وله كتاب طبقات الشعراء عشر مجلدات وسمع الحديث من الحافظ السلفي بالاسكندرية وكان مغرما بحب الأدباء والعلماء وجمع تاريخا على

أمنيته والله تعالى المجازى كلا بعمله ويقال اذا لم يعمر الملك ملكه بالانصاف خرب ملكه بالعصيان (وقيل) مات بعض الاكاسرة فوجدوا له سفطا ففتح فوجد فيه حبة رمان كاكبر ما يكون من النوى معها رقعة مكتوب فيها هذه من حب رمان عمل فى خراجه بالعدل (وقيل) تظلم اهل الكوفة من واليهم فشكوه الى المأمون فقال ما علمت فى عمالى أعدل ولا اقوم بأمر الرعية وأعود بالرفق عليهم منه فقال رجل منهم يا امير المؤمنين ما أحد أولى بالعدل والانصاف منك فان كان بهذه الصفة فعلى امير المؤمنين أن يوليه بلدا بلدا حتى يلحق كل بلد من عدله مثل الذى لحقنا ويأخذ بقسطه منه كما أخذنا واذا فعل ذلك لم يصبنا منه أكثر من ثلاث سنين فضحك المأمون من قوله وعزله عنهم وقدم المنصور البصرة قبل الخلافة فنزل بواصل بن عطاء وقال بلغنى أبيات عن سليم بن يزيد العدوى فى العدل فقم بنا اليه فأشرف عليهم من غرفة فقال لواصل من هذا الذى معك قال عبد الله ابن محمد بن على بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهم فقال رحب على رحب وقرب على قرب فقال انه يحب أن يسمع أبياتك فى العدل فقال سمعا وطاعة وأنشد يقول

حتى متى لا نرى عدلا نسربه * ولا نرى لولاة الحق اعوانا * مستمسكين بحق قائمين به
اذا تلون أهل الجور ألوانا * يا للرجال لداء لادواء له * وقائد ذى عمى يقتاد عميانا

فقال المنصور وددت لو أنى رأيت يوم عدل ثم مت وقيل لما ولى عمر بن عبد العزيز اخذ فى رد المظالم فابتدأ بأهل بيته فاجتمعوا الى عمة له كان يكرمها وسألوها ان تكلمه فقال لها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سلك طريقا فلما قبض سلك اصحابه الطريق الذى سلكه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما افضى الأمر الى معاوية جره يمينا وشمالا وايم الله لئن مد فى عمرى لاردنه الى ذلك الطريق الذى سلكه رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه فقالت له يا ابن اخى انى اخاف عليك منهم يوما عصيبا فقال كل يوم أخافه دون القيامة فلا أمننيه الله وقال وهب بن منبه اذا هم الوالى بالجور أو عمل به أدخل الله النقص فى أهل مملكته فى الاسواق والزروع والضروع وكل شئ واذا هم بالخير والعدل أو عمل به أدخل الله البركة فى أهل مملكته كذلك وقال الوليد بن هشام ان الرعية لتصلح بصلاح الوالى وتفسد بفساده وقال ابن عباس رضى الله عنهما ان ملكا من الملوك خرج يسير فى مملكته متنكرا فنزل على رجل له بقرة تحلب قدر ثلاث بقرات فتعجب الملك من ذلك وحدثته نفسه بأخذها فلما كان من الغد حلبت له النصف مما حلبت بالامس فقال له الملك ما بال حلبها نقص أرعت فى غير مرعاها بالامس فقال لا ولكن أظن ان ملكنا رآها أو وصف له خبرها فهم بأخذها فنقص لبنها فان الملك اذا ظلم أو هم بالظلم ذهبت البركة فتاب الملك وعاهد به فى نفسه ان لا يأخذها ولا يحسد أحدا من الرعية فلما كان من الغد حلبت عادتها ومن المشهور بأرض المغرب أن السلطان بلغه ان امرأة لها حديقة فيها القصب الحلو وان كل قصبة منها تعصر قدحا فعزم الملك على أخذها منها ثم أتاها وسألها عن ذلك فقالت نعم ثم انها عصرت قصبة فلم يخرج منها نصف قدح فقال لها أين الذى كان يقال فقالت هو الذى بلغك الا ان يكون السلطان قد عزم على أخذها منى فارتفعت البركة منها فتاب الملك وأخلص لله النية وعاهد الله أن لا يأخذها منها أبدا ثم أمرها فعصرت قصبة منها فجاءت مل ء قدح (وحكى) سيدى أبو بكر الطرطوشى رحمه الله فى كتابه سراج الملوك قال حدثنى بعض الشيوخ ممن كان يروى الاخبار بمصر قال كان بصعيد مصر نخلة تحمل عشرة أرادب ولم يكن فى ذلك الزمان نخلة تحمل نصف ذلك فغصبها السلطان فلم تحمل شيأ فى ذلك العام ولا ثمرة واحدة وقال لى شيخ من أشياخ الصعيد أعرف هذه النخلة وقد شاهدتها وهى تحمل عشرة أرادب ستين ويبة وكان صاحبها يبيعها فى سنى الغلاء كل ويبة بدينار (وحكى) أيضا رحمه الله تعالى قال شهدت فى الاسكندرية والصيد مطلق للرعية السمك يطفو على الماء لكثرته وكانت الاطفال تصيده بالخرق من جانب البحر ثم حجره الوالى ومنع الناس من صيده فذهب السمك حتى لا يكاد يوجد الى يومنا هذا وهكذا تتعدى سرائر الملوك وعزائمهم ومكنون ضمائرهم الى الرعية ان خيرا فخير وان شرا فشر وروى أصحاب التواريخ فى كتبهم قالوا كان الناس اذا أصبحوا فى زمان الحجاج يتساءلون اذا تلاقوا من قتل البارحة ومن صلب ومن جلد ومن قطع وما أشبه ذلك وكان الوليد بن هشام صاحب ضياع واتخاذ مصانع فكان الناس يتساءلون فى زمانه عن البنيان والمصانع والضياع وشق الانهار وغرس الاشجار ولما ولى سليمان بن عبد الملك وكان صاحب طعام ونكاح كان الناس يتحدثون

السنين فى عشر مجلدات ومن مصنفاته كتابه المسمى بمظاهر الحقائق وسر الخلائق وهو كبير نفيس يدل على فضله وجمع عنده من الكتب ما لا مزيد عليه وكان فى خدمته ما يناهز مائتى متعمم من الفقهاء والأدباء والنحاة والمشتغلين بالحكمة والمنجمين والكتاب وأقامت دولته ثلاثين سنة وتوفى سنة عشر وستمائة ومن شعره

أربى راح وريحا
ن ومحبوب وشادى
والذى ساق لى الملـ
ـك له دفع الاعادى

(قلت) وقد تقدم القول وقد تقرر ان جميع ملوك حماة المحروسة من بنى أيوب وكان لهم المام بالادب وأهله وقد تعين ان نذكر هنا ترجمة مؤيدهم فانه كان بدر كمالهم ومسك ختامهم وهو الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء اسمعيل بن الملك الافضل ابن الملك المظفر ابن الملك المنصور ابن الملك المظفر صاحب حماة المحروسة كان أميرا بدمشق المحروسة فخدم الملك الناصر لما كان بالكرك وبالغ فى خدمته فوعده بحماة ووفى له بذلك وجعله بها سلطانا يفعل فيها ما يشاء من اقطاع وغيره ليس لاحد من الدولة المصرية معه حديث واركبه فى القاهرة بشعار المملكة وابهة السلطنة ومشى الامراء فى خدمته حتى الامير سيف الدين بن أرغون النائب وقام له القاضى كريم الدين بكل ما يحتاج اليه فى ذلك اليوم من التشاريف والانعامات على وجوه الدولة ولقبوه بالملك الصالح ثم بعد ذلك بقليل لقب بالمؤيد وتقدم أمر السلطان الملك الناصر الى نوابه ان يكتبوا اليه يقبل الارض والمقام الشريف العالى المولوى السلطانى الملكى المؤيدى العمادى وفى العنوان

ويتساءلون في الأطعمة الرفيعة ويتغالون في المناكح والسراري ويعمرون مجالسهم بذكر ذلك ولما ولي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان الناس يتساءلون كم تحفظ من القرآن وكم وردك كل ليلة وكم يحفظ فلان وكم يختم وكم يصوم من الشهر وما أشبه ذلك فينبغي للامام أن يكون على طريقة الصحابة والسلف رضي الله عنهم ويقتدي بهم في الأقوال والأفعال فمن خالف ذلك فهو لا محالة هالك وليس فوق السلطان العادل منزلة الا نبي مرسل أو ملك مقرب وقد قيل ان مثله كمثل الرياح التي يرسلها الله تعالى بشرى بين يدي رحمته فيسوق بها السحاب ويجعلها لقاحا للثمرات وروحا للعباد ولو تتبعت ما جاء في العدل والانصاف وفضل الامام العادل لالفت في ذلك مجموعا جامعا لهذا المعنى ولكن اقتصرت على ما ذكرته مخافة أن يمله الناظر ويسأمه السامع وبالله التوفيق الى أقوم طريق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿الباب العشرون في الظلم وشؤمه وسوء عواقبه وذكر الظلمة وأحوالهم وغير ذلك﴾

قال الله تعالى ألا لعنة الله على الظالمين وقال تعالى ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون قيل هذا تسلية للمظلوم ووعيد للظالم وقال تعالى انا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وقال تعالى وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم انه ظالم خرج من الاسلام وقال أيضا صلى الله عليه وسلم رحم الله عبدا كان لأخيه قبله مظلمة في عرض أو مال فأتاه فتحلله منها قبل أن يأتي يوم القيامة وليس معه دينار ولا درهم وقال أيضا صلى الله عليه وسلم من اقتطع حق امرئ مسلم أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة فقال له رجل يا رسول الله ولو كان شيأ يسيرا قال ولو كان قضيبا من أراك وعن حذيفة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوحى الله تعالى الي يا أخا المرسلين يا أخا المنذرين أنذر قومك فلا يدخلوا بيتا من بيوتي ولأحد من عبادي عند أحد منهم مظلمة فاني ألعنه ما دام قائما يصلي بين يدي حتى يرد تلك الظلامة الى أهلها فأكون سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويكون من أوليائي وأصفيائي ويكون جاري مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في الجنة وعن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم اياك ودعوة المظلوم فانما يسأل الله تعالى حقه وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من عبد ظلم فشخص ببصره الى السماء الا قال الله عز وجل لبيك عبدي حقا لأنصرنك ولو بعد حين وعنه أيضا انه قال الا ان الظلم ثلاثة فظلم لا يغفر وظلم لا يترك وظلم مغفور لا يطلب فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله والعياذ بالله تعالى قال الله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضا وأما الظلم المغفور الذي لا يطلب فظلم العبد نفسه ومر رجل برجل قد صلبه الحجاج فقال يا رب ان حلمك على الظالمين قد أضر بالمظلومين فنام تلك الليلة فرأى في منامه ان القيامة قد قامت وكأنه قد دخل الجنة فرأى ذلك المصلوب في أعلى عليين واذا مناد ينادي حلمي على الظالمين أحل المظلومين في أعلى عليين وقيل من سلب نعمة غيره سلب نعمته غيره وسمع مسلم بن بشار رجلا يدعو على من ظلمه فقال له كل الظالم الى ظلمه فهو أسرع فيه من دعائك ويقال من طال عدوانه زال سلطانه وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم ورئي لوح في أفق السماء مكتوب فيه لا اله الا الله محمد رسول الله وتحته هذا البيت

> فلم أر مثل العدل للمرء رافعا * ولم أر مثل الجور للمرء واضعا

وقال الشاعر

> كنت الصحيح وكنا منك في سقم * فان سقمت فانا السالمون غدا
> دعت عليك أكف طالما ظلمت * ولن تردها مظلومة أبدا

وكان معاوية يقول اني لأستحيي أن أظلم من لا يجد علي ناصرا الا الله وقال أبو العيناء كان لي خصوم ظلمة فشكوتهم الى أحمد بن أبي داود وقلت قد تظافروا علي وصاروا يدا واحدة فقال يد الله فوق أيديهم فقلت له ان لهم مكرا فقال ولا يحيق المكر السيء الا بأهله قلت هم فئة كثيرة فقال كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله وقال يوسف بن اسباط من دعا للظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم من أشار الى أخيه بحديدة فان الملائكة تلعنه وان كان أخاه لأبيه وأمه وقال مجاهد يسلط الله على أهل النار الجرب فيحكون أجسادهم حتى تبدو العظام فيقال لهم هل يؤذيكم هذا فيقولون أي والله فيقال لهم هذا بما كنتم تؤذون المؤمنين وقال ابن مسعود رضي الله عنه لما كشف الله

صاحب حماة وكان الملك الناصر يكتب اليه أخوه محمد بن قلاوون أعز الله المقام الشريف العالي السلطاني الملكي المؤيدي العمادي المراوي * وكان الملك المؤيد من علماء الفقه والادب والطب والحكمة والهيئة ونظم الحاوي وله تاريخ بديع وكتاب الكناش وكتاب تقويم البلدان هذبه وجدوله وأجاد فيه ما شاء وله كتاب الموازين * وكان قد رتب للشيخ جمال الدين بن نباتة في كل شهر ألف درهم غير ما يتحفه وهو مقيم بدمشق وتوجه الملك المؤيد في بعض السنين الى الديار المصرية ومعه ابنه الملك الأفضل محمد فمرض ولده فجهز اليه السلطان الحكيم جمال الدين بن المغربي رئيس الأطباء فكان يجيء اليه بكرة وعشيا فيراه ويبحث معه في مرضه ويقدر له الأدوية ويطبخ له الشراب بيده في دست فضة فقال له ابن المغربي يا مولانا السلطان أنت والله ما تحتاج الى المملوك وما أجيء الا امتثالا للاوامر الشريفة ولما عوفي أعطاه بغلة بسرج ذهب ولجام وكنبوش مزركش وعشرة آلاف درهم والدست الفضة وقال يا رئيس اعذرني فاني لما خرجت من حماة ما حسبت مرض هذا الولد ومدحه شعراء زمانه وأجازهم وبنى بظاهر حماة المحروسة جامعا حسنا وسماه جامع الدهيشة وأوقف عليه كتبا قيل انها ما اجتمعت لغيره من سائر الفنون فانه اجتهد في جمعها من سائر البلاد شرقا وغربا وتوفي رحمه الله سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة ومن شعره

> كم من دم حلت وما ندمت
> تفعل ما تشتهي فلا عدمت
> لو أمكن الشمس عند رؤيتها
> لثم مواطي أقدامها لثمت

(والمنقول عن القاسم المكنى بأبي دلف) انه جمع بين طرفي الكرم

العذاب عن قوم يونس عليه السلام ترادوا المظالم بينهم حتى كان الرجل ليقلع الحجر من أساسه فيرده الى صاحبه وقال أبو ثور بن يزيد الحجر في البنيان من غير حله عربون على خرابه وقال غيره لو أن الجنة وهي دار البقاء اسست على حجر من الظلم لاوشك أن تخرب وقال بعض العلماء اذكر عند الظلم عدل الله فيك وعند القدرة قدرة الله عليك لا يعجبك رحب الزراعين سفاك الدماء فان له قاتلا لا يموت وقال سحنون بن سعيد كان يزيد بن حاتم يقول ماهبت شيأ قط هيبتي من رجل ظلمته وأنا أعلم أن لا ناصر له الا الله فيقول حسبك الله الله بيني و بينك وقال بلال بن مسعود اتق الله فيمن لا ناصر له الا الله * و بكى على بن الفضل يوما فقيل له ما يبكيك قال أبكي على من ظلمني اذا وقف غدا بين يدى الله تعالى ولم تكن له حجة وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد له ناصرا غيرى * ونادى رجل سليمان بن عبد الملك وهو على المنبر يا سليمان اذكر يوم الأذان فنزل سليمان من على المنبر ودعا بالرجل فقال له ما يوم الأذان فقال قال الله تعالى فأذن موذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين قال فما ظلامتك قال أرض لي بمكان كذا وكذا أخذها وكيلك فكتب الى وكيله ادفع اليه أرضه وأرضا مع أرضه وروى أن كسرى أنوشروان كان له معلم حسن التأديب يعلمه حتى فاق في العلوم فضربه المعلم يوما من غير ذنب فاوجعه فحقد أنوشروان عليه فلما ولى الملك قال للمعلم ما حملك على ضربي يوم كذا وكذا ظلما فقال له لما رأيتك ترغب في العلم رجوت لك الملك بعد أبيك فأحببت أن أذيقك طعم الظلم لئلا تظلم فقال أنوشروان زه زه * وقال محمد بن سويد وزير المأمون

فلا تأمن الدهر حرا ظلمته * فما ليل حر ان ظلمت بنائم

وروى أن بعض الملوك رقم على بساطه

لا تظلمن اذا ما كنت مقتدرا * فالظلم مصدره يفضى الى الندم

تنام عيناك والمظلوم منتبه * يدعو عليك وعين الله لم تنم

وما أحسن ما قال الآخر

أتهزأ بالدعاء وتزدريه * وما تدرى بما صنع الدعاء

سهام الليل نافذة ولكن * لها أمد وللامد انقضاء

فيمسكها اذا ما شاء ربي * و يرسلها اذا نفذ القضاء

وقال أبو الدرداء اياك ودمعة اليتيم ودعوة المظلوم فانها تسرى بالليل والناس نيام وقال الهيثم بن فراس السامى من بنى سامة بن لؤى في الفضل بن مروان

تجبرت يا فضل بن مروان فاعتبر * فقبلك كان الفضل والفضل والفضل

ثلاثة املاك مضوا لسبيلهم * اباد هم الموت المشتت والقتل

يريد الفضل بن الربيع والفضل بن يحيى والفضل بن سهل * ووجد تحت فراش يحيى بن خالد البرمكى رقعة مكتوب فيها

وحق الله ان الظلم لوم * وان الظلم مرتعه وخيم

الى ديان يوم الدين نمضى * وعند الله تجتمع الخصوم

ووجد القاسم بن عبيد الله وزير المكتفى في مصلاه رقعة مكتوبا فيها

بغى وللبغى سهام تنتظر * تنفذ في الاحشاء من وخز الابر

سهام أيدى القانتين في السحر

وقال المنصور بن المعتمر لابن هبيرة حين أراد أن يوليه القضاء ما كنت لألى هذا بعد ما حدثني ابراهيم قال وما حدثك ابراهيم قال حدثني عن علقمة عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الظلمة وأعوان الظلمة وأشياع الظلمة حتى من برى لهم قلما أولاق لهم دواة فيجمعون في تابوت من حديد ثم يرمى بهم في نار جهنم وروى هرون بن محمد بن عبد الملك الزيات قال جلس أبي للمظالم يوما فلما انقضى المجلس رأى رجلا جالسا فقال له ألك حاجة قال نعم أدنني اليك فاني مظلوم وقد أعوزني العدل والانصاف قال ومن ظلمك قال أنت ولست أصل اليك فاذكر حاجتي قال وما يحجبك وقد ترى مجلسي مبذولا قال يحجبني عنك هيبتك وطول لسانك وفصاحتك قال ففيم ظلمتك قال في ضيعتي الفلانية أخذها وكيلك غصبا مني بغير ثمن فاذا وجب عليها خراج أديته باسمي لئلا يثبت لك اسم في ملكها فيبطل ملكي فوكيلك يأخذ غلتها وأنا أؤدى خراجها وهذا لم يسمع مثله في المظالم فقال له محمد هذا قول تحتاج معه الى بينة وشهود

والشجاعة ولى دمشق في خلافة المعتصم فأما شجاعته فانه لحق قوما من الأكراد قطعوا الطريق فطعن فارسا طعنة فنفذت الطعنة الى فارس آخر رديفه فقتلتهما فقال بكر ابن النطاح

قالوا وينظم فارسين بطعنة * يوم الهياج ولا تراه كليلا

لا تعجبوا لو أن طول قناته * ميل اذا نظم الفوارس ميلا

وفيه يقول ابن عنين

تمشى المنايا الى غيرى فأكرهها * فكيف أمشى اليها بارز الكتف

ظننت أن نزال القرن من خلقى * وان قلبي من جنبي أبى دلف

وأما شهرته في الكرم فهو الذى قال فيه أبو تمام

يا طالبا للكيمياء وعلمها * مدح ابن عيسى الكيمياء الاعظم

لو لم يكن في الارض الا درهم * ومدحته لاتاك ذاك الدرهم

ودخل عليه بعض الشعراء فانشد

أبو دلف ان المكارم لم تزل * مغلغلة تشكو الى الله حالها

فبشرها منه بميلاد قاسم * فارسل جبريلا اليها فخالها

فامر له بمال فقال الخازن لم يكن هذا القدر ببيت المال فامر له بضعفه فقال هذا غير ممكن فامر له بضعفه فلما حمل اليه المال قال أبو دلف

أتعجب ان رأيت على دينا * وان ذهب الطريف مع التلاد

وما وجبت على زكاة مال * وهل تجب الزكاة على جواد

وقال آخر

ان سار سار المجد أو حل وقف * أنظر بعينيك الى أسنى الشرف

هل ناله بقدرة أو بكلف * خلق من الناس سوى أبى دلف

فاعطاه خمسين ألف درهم وفيه يقول العكوك على بن أبي جبلة

انما الدنيا أبو دلف

وأشياء فقال له الرجل أيؤمنني الوزير من غضبه حتى أجيب قال نعم قد أمنتك قال البينة هم الشهود واذا شهدوا فليس يحتاج معهم الى شيء آخر فما معنى قولك بينة وشهود وأشياء وأي شيء هذه الأشياء ان هي الا الجور وعدولك عن العدل فضحك محمد وقال صدقت والبلاء موكل بالمنطق واني لأرى فيك مصطنعا ثم وقع له برد ضيعته وأن يطلق مائة دينار يستعين بها على عمارة ضيعته وصيره من أصحابه فكان قبل أن يتوصل الى الانصاف واعادة ضيعته له يقال له يا فلان كيف الناس فيقول بشر بين مظلوم لا ينصر وظالم لا ينتصر فلما صار من أصحاب محمد بن عبد الملك ورد عليه ضيعته رأى انصافه قال له ليلة كيف الناس الآن قال بخير قد اعتمدت معهم الانصاف ورفعت عنهم الاجحاف ورددت عليهم الغصوب وكشفت عنهم الكروب وأنا أرجو لهم ببقائك نيل كل مرغوب والفوز بكل مطلوب ﴿ومما نقل﴾ في الآثار الاسرائيلية في زمان موسى صلوات الله وسلامه عليه أن رجلا من ضعفاء بني اسرائيل كان له عائلة وكان صيادا يصطاد السمك ويقوت منه أطفاله وزوجته فخرج يوما للصيد فوقع في شبكته سمكة كبيرة ففرح بها ثم أخذها ومضى الى السوق ليبيعها ويصرف ثمنها في مصالح عياله فلقيه بعض العوانية فرأى السمكة معه فأراد أخذها منه فمنعه الصياد فرفع العواني خشبة كانت بيده فضرب بها رأس الصياد ضربة موجعة وأخذ السمكة منه غصبا بلا ثمن فدعا الصياد عليه وقال الهي جعلتني ضعيفا وجعلته قويا عنيفا فخذ لي بحقي منه عاجلا فقد ظلمني ولا صبر لي الى الآخرة ثم ان ذلك الغاصب الظالم انطلق بالسمكة الى منزله وسلمها الى زوجته وأمرها أن تشويها فلما شوتها قدمتها له ووضعتها بين يديه على المائدة ليأكل منها ففتحت السمكة فاها ونكزته في اصبع يده نكزة طار بها عقله وصار لا يقر بها قراره فقام وشكا الى الطبيب ألم يده وما حل به فلما رآها قال له دواؤها أن تقطع الأصبع لئلا يسري الألم الى بقية الكف فقطع اصبعه فانتقل الألم والوجع الى الكف واليد وازداد التألم وارتعدت من خوفه فرائصه فقال له الطبيب ينبغي أن تقطع اليد الى المعصم لئلا يسري الألم الى الساعد فقطعها فانتقل الألم الى الساعد فما زال هكذا كلما قطع عضوا انتقل الألم الى العضو الآخر الذي يليه فخرج هائما على وجهه مستغيثا الى ربه ليكشف عنه ما نزل به فرأى شجرة فقصدها فأخذه النوم عندها فنام فرأى في منامه قائلا يقول له يا مسكين الى كم تقطع أعضاءك امض الى خصمك الذي ظلمته فأرضه فانتبه من النوم وفكر في أمره فعلم أن الذي أصابه من جهة الصياد فدخل المدينة وسأل عن الصياد وأتى اليه فوقع بين يديه يتمرغ على رجليه وطلب منه الاقالة مما جناه ودفع اليه شيأ من ماله وتاب من فعله فرضي عنه خصمه الصياد فسكن في الحال ألمه وبات تلك الليلة فرد الله تعالى عليه يده كما كانت ونزل الوحي على موسى عليه السلام يا موسى وعزتي وجلالي لولا أن ذلك الرجل أرضى خصمه لعذبته مهما امتدت به حياته ﴿ومما تضمنته أخبار الأخيار﴾ ما رواه أنس رضي الله عنه قال بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قاعد اذ جاءه رجل من أهل مصر فقال يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك فقال عمر رضي الله عنه لقد عذت بمجير فما شأنك فقال سابقت بفرسي ابنا لعمرو بن العاص وهو يومئذ أمير على مصر فجعل يقنعني بسوطه ويقول أنا ابن الأكرمين فبلغ ذلك عمرا أباه فخشي أن آتيك فحبسني في السجن فانفلت منه فهذا الحين أتيتك فكتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص اذا أتاك كتابي هذا فاشهد الموسم أنت وولدك فلان وقال للمصري أقم حتى يأتيك فأقام حتى قدم عمرو وشهد موسم الحج فلما قضى عمر الحج وهو قاعد مع الناس وعمرو بن العاص وابنه الى جانبه قام المصري فرمى اليه عمر رضي الله عنه بالدرة قال أنس رضي الله عنه فلقد ضربه ونحن نشتهي أن يضربه فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه وعمر يقول اضرب ابن الأكرمين قال يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت قال ضعها على صلع عمرو فقال يا أمير المؤمنين لقد ضربت الذي ضربني قال أما والله لو فعلت ما منعك أحد حتى تكون أنت الذي تنزع ثم أقبل على عمرو بن العاص وقال يا عمرو متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا فجعل عمرو يعتذر اليه ويقول اني لم أشعر بهذا * وقيل لما ظلم أحمد بن طولون قبل أن يعدل استغاث الناس من ظلمه وتوجهوا الى السيدة نفيسة يشكونه اليها فقالت لهم متى يركب قالوا في غد فكتبت رقعة ووقفت بها في طريقه وقالت يا أحمد يا ابن طولون فلما رآها عرفها فترجل عن فرسه وأخذ منها الرقعة وقرأها فاذا فيها ملكتم فأسرتم وقدرتم فقهرتم وخولتم ففسقتم ورددت اليكم الأرزاق فقطعتم هذا وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة غير مخطئة لا سيما من قلوب

أوجعتموها

بين باديه ومحتضره
فاذا ولى أبو دلف
ولت الدنيا على أثره
كل من في الأرض من عرب
بين باديه الى حضره
مستعير منك مكرمة
يكتسيها يوم مفتخره
فأعطاه أبو دلف مائة ألف درهم ولما بلغت المأمون غضب غضبا شديدا على العكوك فطلب فهرب فاجتهدوا الى أن جاؤا به مقيدا فلما صار بين يديه قال له يا ابن اللخناء أنت القائل في مدحك لأبي دلف
كل من في الأرض من عرب البيتين
جعلتنا ممن يستعير المكارم منه ويفتخر بها فقال يا أمير المؤمنين أنتم أهل بيت لا يقاس بكم لان الله تعالى اختصكم لنفسه على عباده وآتاكم الكتاب والحكم وانما ذهبت في شعري لاقران وأشكال أبي دلف فقال والله ما أبقيت من أحد واقد أدخلتنا في الكل وما أستحل دمك بهذا ولكن بكفرك حيث قلت في عبد ذليل مهين
أنت الذي تنزل الآيات منزلها
وتنقل الدهر من حال الى حال
وما نظرت مدى طرف الى أحد
الا قضيت بأرزاق وآجال
ذاك هو الله يا كافر اخرجوا لسانه من قفاه ففعلوا به ذلك فمات * ومن صنفاته كتاب البزاة والصيد وكتاب السلاح وكتاب النزه وكتاب سياسة الملوك وكانت له اليد الطولى في الغناء وهو مترجم بذلك في كتاب الاغاني وذكر أبو عبيدة في كتاب مثالب أهل البصرة أن النضر بن شميل النحوي البصري كان عالما بفنون من العلم صاحب غريب وفقه وشعر ومعرفة بأيام العرب ورواية الحديث وهو من أصحاب الخليل بن أحمد فاتفق ان ضاقت به المعيشة ورق حاله فخرج يريد خراسان فشيعه من أهل البصرة ثلاثة

أوجعتموها وأكبادجوعتموها وأجسادعريتموها فمحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم اعملوا ما شئتم فانا صابرون وجوروا فانا بالله مستجيرون واظلموا فانا الى الله متظلمون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون قال فعدل لوقته ❊وحكى❊ أن الحجاج حبس رجلا فى حبسه ظلما فكتب اليه رقعة فيها قدمضى من بؤسنا أيام ومن نعيمك أيام والموعد يوم القيامة والسجن جهنم والحاكم لا يحتاج الى بينة وكتب فى آخرها

ستعلم يانؤم اذا التقينا * غدا عند الاله من الظلوم
أما والله ان الظلم لؤم * ومازال الظلوم هو الملوم
سينقطع التلذذ عن أناس * أداموه وينقطع النعيم
الى ديان يوم الدين نمضى * وعند الله تجتمع الخصوم

❊وحكى❊ أبو محمد الحسين بن محمد الصالحى قال كنا حول سرير المعتضد بالله ذات يوم نصف النهار فنام بعد ان أكل فانتبه منزعجا وقال ياخدم فأسرعنا الجواب فقال ويلكم أعينونى والحقوا بالشط فأول ملاح ترونه منحدرا فى سفينة فارغة فاقبضوا عليه وائتونى به ووكلوا بالسفينة من يحفظها فاسرعنا فوجدنا ملاحا فى سفينة منحدرة وهى فارغة فقبضنا عليه ووكلنا بها من يحفظها وصعدنا به الى المعتضد فلما رآه الملاح كاد يتلف فصاح عليه المعتضد صيحة عظيمة كادت روحه تذهب منها وقال أصدقنى ياملعون عن قضيتك مع المرأة التى قتلتها اليوم والاضربت عنقك فتلعثم وقال نعم كنت سحرا فى المشرعة الفلانية فنزلت امرأة لم أر مثلها عليها ثياب فاخرة وحلى كثير وجواهر فطمعت فيها واحتلت عليها حتى سددت فاها وغرقتها وأخذت جميع ما كان عليها ثم طرحتها فى الماء ولم أجسر على حمل سلبها الى دارى لئلا يفشو الخبر على فعولت على الهروب والانحدار الى واسط فصبرت الى أن خلا الشط فى هذه الساعة من الملاحين وأخذت فى الانحدار فتعلق بى هؤلاء القوم فحملونى اليك فقال وأين الحلى والسلب قال فى صدر السفينة تحت البوارى قال المعتضد على به الساعة فحضروا به فأمر بتغريق الملاح ثم أمر أن ينادى ببغداد من خرجت له امرأة الى المشرعة الفلانية سحرا وعليها ثياب فاخرة وحلى فليحضر فحضر فى اليوم الثانى أهلها وأعطوا صفتها وصفة ما كان عليها فسلم ذلك اليهم قال فقلت يامولاى من أعلمك أو من أوحى اليك بهذه الحالة وأمر هذه الصبية فقال بل رأيت فى منامى رجلا شيخا أبيض الرأس واللحية والثياب وهو ينادى يا أحمد أول ملاح ينحدر الساعة فاقبض عليه وقرره على المرأة التى قتلها اليوم ظلما وسلبها ثيابها وأقم عليه الحد ولا يفتك فكان ما شاهدتم * فيتعين على كل ولى أمر أن يعدل فى الأحكام وأن يتبصر فى رعيته وعلى كل عاقل أن يكف يده عن الظلم ويسلك سنن العدل ويعامل بالنصفة ويراقب الله فى السر والعلانية ويعلم أن الله يجازى على الخير والشر ويعاقب الظالم على ظلمه وينتصر للمظلوم ويأخذ له حقه ممن ظلمه واذا أخذ الظالم لم يفلته والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين والحمد لله رب العالمين

❊الباب الحادى والعشرون فى بيان الشروط التى تؤخذ على العمال وسيرة السلطان فى استجباء الخراج وأحكام أهل الذمة وفيه فصلان❊

❊الفصل الأول فى سيرة السلطان فى استجباء الخراج والانفاق من بيت المال وسيرة العمال❊ قال جعفر ابن يحيى الخراج عماد الملوك وما استعزوا بمثل العدل وما استنذروا بمثل الظلم وأسرع الأمور فى خراب البلاد تعطيل الأرضين وهلاك الرعية وانكسار الخراج من الجور ومثل السلطان اذا أجحف بأهل الخراج حتى يضعفوا عن عمارة الأرضين مثل من يقطع لحمه ويأكله من الجوع فهو ان شبع من ناحية فقد ضعف من ناحية أخرى وما أدخل على نفسه من الضعف والوجع أعظم مما دفع عن نفسه من ألم الجوع ومثل من كلف الرعية فوق طاقتهم كالذى يطين سطحه بتراب أساس بيته واذا ضعف المزارعون عجزوا عن عمارة الأرضين فيتركونها فتخرب الأرض ويهرب المزارعون فتضعف العمارة ويضعف الخراج وينتج من ذلك ضعف الأجناد واذا ضعف الجند طمع الأعداء فى السلطان (وروى) ان المأمون أرق ذات ليلة فاستدعى سميرا يحدثه فقال يا أمير المؤمنين كان بالموصل بومة وبالبصرة بومة فخطبت بومة الموصل بنت بومة البصرة لابنها فقالت بومة البصرة لا أجيب خطبة ابنك حتى تجعل لى فى صداق بنتى مائة ضيعة خربة فقالت بومة الموصل لا أقدر عليها

آلاف رجل ما فيهم الا محدث أو نحوى أو عروضى أو لغوى أو اخبارى أو فقيه فلما بعدوا عن المدينة جلس فقال يا أهل البصرة يعز على فراقكم والله لو وجدت كل يوم أكلة باقلاء ما فارقتكم قال فلم يكن أحد فيهم يتكلف له ذلك القدر اليسير وسار حتى وصل الى خراسان فاستفاد بها مالا عظيما فمن ذلك انه أخذ على حرف ثمانين ألف درهم وهذه القصة نقلها الحريرى صاحب المقامات فى كتابه المسمى بدر الغواص فى أوهام الخواص قال حكى عن محمد بن ناصح الاهوازى قال حدثنى النضر بن شميل المازنى قال كنت أدخل على المأمون فى سمره فدخلت ذات ليلة وعلى قميص مرقوع فقال يانضر ما هذا التقشف حتى تدخل على أمير المؤمنين فى هذه الخلقان قلت يا أمير المؤمنين أنا رجل كبير وضعيف وحر مرو شديد فاتبرد بهذه الخلقان قال لا ولكنك قشف ثم أجرينا الحديث فاجرى ذكر النساء فقال حدثنى هشام عن مجاهد عن الشعبى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا تزوج الرجل المرأة لجمالها ودينها كانت سدادا من عوز بفتح السين من سداد فقلت صدق يا أمير المؤمنين هشام حدثنا عوف عن ابن أبى جميلة عن الحسن عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كانت سدادا من عوز بكسر السين قال وكان أمير المؤمنين متكئا فاستوى جالسا وقال يانضر كيف قلت سدادا قلت نعم يا أمير المؤمنين لان سدادا بالفتح هنا لحن قال أو تلحننى قلت انما لحن هشام وكان لحانة فتتبع أمير المؤمنين لفظه قال فما الفرق بينهما قلت

ولكن ان دام والينا سلمه الله علينا سنة واحدة فعلت ذلك قال فاستيقظ لها المأمون وجلس للمظالم وأنصف الناس بعضهم من بعض وتفقد أمور الولاة والعمال والرعية * وقال أبو الحسن بن على الأسدى أخبرنى أبى قال وجدت فى كتاب قبطى باللغة الصعيدية مما نقل بالعربية أن مبلغ ما كان يستخرج لفرعون فى زمن يوسف الصديق صلوات الله وسلامه عليه من أموال مصر لخراج سنة واحدة من الذهب العين أربعة وعشرون ألف ألف وأربعمائة ألف دينار من ذلك ماينصرف فى عمارة البلاد كحفر الخلجان والانفاق على الجسور وسد الترع وتقوية من يحتاج الى التقوية من غير رجوع عليه به لاقامة العوامل والتوسعة فى البلدان وغير ذلك من الآلات وأجرة من يستعان به لحمل البذر وسائر نفقات تطبيق الأرض ثمانمائة ألف دينار ولما ينصرف للارامل والايتام وان كانوا غير محتاجين حتى لا يخلو أمثالهم من بر فرعون أربعمائة ألف دينار ولما ينصرف لكهنتهم وبيوت صلاتهم مائتا ألف دينار ولما ينصرف فى الصدقات مما يصب صبا وينادى عليه برئت الذمة من رجل كشف وجهه لفاقة ولم يحضر فيحضر لذلك جمع كثير مائتا ألف دينار فاذا فرقت الأموال على أربابها دخل أمناء فرعون اليه وهنؤه بتفرقة الأموال ودعوا له بطول البقاء ودوام العز والنعماء والسلامة وأنهوا اليه حال الفقراء فيأمر باحضارهم وتغيير شعثهم ويمد لهم السماط فيأكلون بين يديه ويشربون ويستفهم من كل واحد منهم عن سبب فاقته فان كان ذلك من آفة الزمان زاد عليه مثل الذى كان له ولما ينصرف فى نفقات فرعون الراتبة فى كل سنة مائتا ألف دينار ويفضل بعد ذلك مما يسلمه يوسف الصديق عليه السلام للملك و يجعله فى بيت المال لنوائب الزمان أربعة عشر ألف ألف وستمائة ألف دينار *وقال أبو رهم كانت أرض مصر أرضا مدبرة حتى ان الماء ليجرى تحت منازلها وأفنيتها فيحبسونه حيث شاؤا ويرسلونه حيث شاؤا وذلك قول فرعون أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى الآية وكان ملك مصر عظيما لم يكن فى الأرض أعظم منه ملكا وكانت الجنان بحافتى النيل متصلة لا ينقطع منها شئ عن شئ والزروع كذلك من أسوان الى رشيد وكانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعا لما دبروا من جسورها وحافاتها والزروع ما بين الجبلين من أولها الى آخرها وذلك قوله تعالى كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم (وقال) عبد الله بن عمر رضى الله عنهما استعمل فرعون هامان على حفر خليج سردوس فأخذ فى حفره وتدبيره فجعل أهل القرى يسألونه أن يجرى لهم الخليج تحت قراهم ويعطوه مالا فكان يذهب به من قرية الى قرية من المشرق الى المغرب ومن الشمال الى القبلة ويسوقه كيف أرادوا الى حيث قصد فليس خليج بمصر أكثر عطوفا منه فاجتمع له من ذلك أموال عظيمة جزيلة فحملها الى فرعون وأخبره بالخبر فقال له فرعون انه ينبغى للسيد أن يعطف على عبيده و يفيض عليهم من خزائنه وذخائره ولا يرغب فيما بايديهم رد على أهل القرى أموالهم فرد عليهم ما أخذه منهم * فاذا كانت هذه سيرة من لا يعرف الله ولا يرجو لقاءه ولا يخاف عذابه ولا يؤمن بيوم الحساب فكيف تكون سيرة من يقول لا اله الا الله محمد رسول الله و يوقن بالحساب والثواب والعقاب وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى اجعلنى على خزائن الأرض قال هى خزائن مصر ولما استوثق أمر مصر ليوسف عليه السلام وكمل وصارت الأشياء اليه وأراد الله تعالى أن يعوضه على صبره لما لم يرتكب محارمه وكانت مصر أربعين فرسخا فى مثلها وما أطاع يوسف فرعون وهو الريان بن مصعب وناب عنه الا بعد ان دعاه الى الاسلام فأسلم وكانت السنون التى حصل فيها الغلاء والجوع مات العزيز زوج زليخا وعمى بصرها وافتقرت زليخا فجعلت تتكفف الناس فقيل لها لو تعرضت للملك لعله يرحمك ويعينك ويغنيك فطالما كنت تحفظينه وتكرمينه ثم قيل لها لا تفعلى لانه ربما يتذكر ما كان منك اليه من المراودة والحبس فيسىء اليك ويكافئك على ما سبق منك اليه فقالت أنا أعلم بحلمه وكرمه فجلست له على رابية فى طريقه يوم خروجه وكان يركب فى زهاء مائة ألف من عظماء قومه وأهل مملكته فلما أحست به قامت ونادت سبحان من جعل الملوك عبيدا بمعصيتهم والعبيد ملوكا بطاعتهم فقال يوسف عليه السلام من انت فقالت انا التى كنت اخدمك بنفسى وارجل شعرك بيدى وأكرم مثواك بجهدى وكان منى ما كان وقد ذقت وبال أمرى وذهبت قوتى وتلف مالى وعمى بصرى وصرت أسأل الناس فمنهم من يرحمنى ومنهم من لا يرحمنى وبعد ما كنت مغبوطة أهل مصر كلها صرت مرحومتهم بل محرومتهم وهذا جزاء المفسدين فبكى يوسف عليه السلام بكاء شديدا وقال لها هل بقى فى قلبك

السداد بالفتح القصد فى الدين والسبيل والسداد بالكسر البلغة وكل ما سددت به شيأ فهو سداد قال أوتعرف العرب ذلك قلت نعم هذا العرجى يقول

أضاعونى وأى فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر

فقال المأمون قبح الله من لا أدب له وأطرق مليا ثم قال ما مالك يا نضر قلت أريضة لى بمرو قال أفلا نفيدك معها مالا قلت انى الى ذلك لمحتاج قال فاخذ القرطاس وأنا لا أدرى ما يكتب ثم قال كيف تقول اذا أمرت أن يترب قلت أتربه قال فهو ماذا قلت مترب قال فمن الطين قلت أطنه قال فهو ماذا قلت مطين قال هذه أحسن من الاولى ثم قال يا غلام اتربه ثم صلى بنا العشاء ثم قال لغلامه تبلغ النضر الى الفضل ابن سهل قال فلما قرأ الفضل الكتاب قال يا نضر ان أمير المؤمنين قد أمر لك بخمسين ألف درهم فما كان السبب فأخبرته ولم أكذبه شيأ فقال ألحنت أمير المؤمنين قلت كلا انما لحن هشام وكان لحانة فتتبع أمير المؤمنين لفظه وقد تتبع ألفاظ الفقهاء ورواة الآثار ثم أمر لى الفضل بثلاثين ألف درهم فاخذت ثمانين ألف درهم بحرف واحد انتهى *وحكى ان النضر بن شميل مرض فدخل عليه قوم يعودونه فقال له رجل منهم يكنى أبا صالح مسح الله ما بك فقال لا تقل مسح بالسين ولكن قل مصح الله بالصاد أى أذهبه وفرقه أوما سمعت قول الاعشى

واذا ما الخمر فيها أزبدت
أفل الازباد فيها ومصح

فقال له الرجل ان السين قد تبدل بالصاد كما يقال الصراط والسراط وصقر وسقر فقال له النضر فانت اذا أبو سالح (قلت) ويشبه هذه النادرة ما حكى أن بعض الادباء

من حبك ايای شیء قالت نعم والذی اتخذ ابراهيم خليلا لنظرة اليك أحب الی من ملء الأرض ذهبا وفضة فمضى يوسف وأرسل اليها يقول ان كنت أيما تزوجناك وان كنت ذات بعل أغنيناك فقالت لرسول الملك أنا أعرف أنه يستهزئ بی هو لم يردنی فی أيام شبابی وجمالی فكيف يقبلنی وأنا عجوز عمياء فقير فأمر بها يوسف عليه السلام فجهزت وتزوج بها وأدخلت عليه فصف يوسف عليه السلام قدميه وقام يصلی ودعا الله تعالى باسمه العظيم الأعظم فرد الله عليها حسنها وجمالها وشبابها وبصرها كهيئتها يوم راودته فواقعها فاذا هی بكر فولدت له افرائيم بن يوسف ومنشا ابن يوسف وطاب فی الاسلام عيشهما حتى فرق الموت بينهما فينبغی للقوی أن لا ينسى الضعيف وللغنی أن لا ينسى الفقير فرب مطلوب يصير طالبا ومرغوب فيه يصير راغبا ومسؤل يصير سائلا وراحم يصير مرحوما فنسأل الله تعالى أن يرحمنا برحمته ويغنينا بفضله * ولما ملك يوسف عليه السلام خزائن الأرض كان يجوع ويأكل من خبز الشعير فقيل له أتجوع وبيدك خزائن الأرض فقال أخاف أن أشبع فأنسى الجائع

﴿ومن حسن سيرة العمال﴾ ما روی أن عمر رضی الله عنه استعمل علی حمص رجلا يقال له عمير بن سعد فلما مضت السنة كتب اليه عمر رضی الله عنه أن اقدم علينا فلم يشعر عمر الا وقد قدم عليه ماشيا حافيا عكازته بيده واداوته ومزوده وقصعته على ظهره فلما نظر اليه عمر قال له يا عمير أجئتنا أم البلاد بلاد سوء فقال يا أمير المؤمنين أما نهاك الله أن تجهر بالسوء وعن سوء الظن وقد جئت اليك بالدنيا أجرها بقرابها فقال له وما معك من الدنيا قال عكازة أتوكأ عليها وأدفع بها عدوا ان لقيته ومزود أحمل فيه طعامی واداوة أحمل فيها ماء لشربی ولطهوری وقصعة أتوضأ فيها وأغسل فيها رأسی وآكل فيها طعامی فوالله يا أمير المؤمنين ما الدنيا بعد الا تبع لما معی قال فقام عمر رضی الله عنه من مجلسه الی قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبی بكر رضی الله عنه فبكى بكاء شديدا ثم قال اللهم ألحقنی بصاحبی غير مفتضح ولا مبدل ثم عاد الی مجلسه فقال ما صنعت فی عملك يا عمير فقال أخذت الابل من أهل الابل والجزية من أهل الذمة عن يد وهم صاغرون ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل فوالله يا أمير المؤمنين لو بقی عندی منها شیء لأتيتك به فقال عمر عد الى عملك يا عمير قال أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تردنی الی أهلی فأذن له فأتى أهله فبعث عمر رجلا يقال له حبيب بمائة دينار وقال له اختبر لی عميرا وانزل عليه ثلاثة أيام حتى ترى حاله هل هو فی سعة أم ضيق فان كان فی ضيق فادفع اليه المائة دينار فأتاه حبيب فنزل به ثلاثا فلم ير له عيشا الا الشعير والزيت فلما مضت ثلاثة أيام قال يا حبيب ان رأيت أن تتحول الی جيرانا فافعل فلعلهم أن يكونوا أوسع عيشا منا فاننا والله وتالله لو كان عندنا غير هذا لآثرناك به قال فدفع اليه المائة دينار وقال قد بعث بها أمير المؤمنين اليك فدعا بفرو خلق لامرأته فجعل يصر منها الخمسة دنانير والستة والسبعة ويبعث بها الی اخوانه من الفقراء الی أن أنفدها فقدم حبيب على عمر وقال جئتك يا أمير المؤمنين من عند أزهد الناس وما عنده من الدنيا قليل ولا كثير فأمر له عمر بوسقين من طعام وثوبين فقال يا أمير المؤمنين أما الثوبان فأقبلهما وأما الوسقان فلا حاجة لی بهما عند أهلی صاع من بر هو كافيهم حتى أرجع اليهم (وروی) أن عمر رضی الله عنه صر أربعمائة دينار وقال للغلام اذهب بها الى أبی عبيدة بن الجراح ثم تربص عنده فی البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع بها فذهب بها الغلام اليه وقال له يقول لك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اجعل هذه فی بعض حوائجك قال وصله الله ورحمه ثم دعا بجاريته وقال لها اذهبی بهذه السبعة الى فلان وبهذه الخمسة الی فلان حتى أنفدها فرجع الغلام الی عمر وأخبره فوجده قد عد مثلها لمعاذ بن جبل فقال له انطلق بها الی معاذ بن جبل وانظر ما يكون من أمره فمضى اليه وقال له كما قال لأبی عبيدة بن الجراح ففعل معاذ كما فعل أبو عبيدة فرجع الغلام فأخبر عمر فقال انهم اخوة بعضهم من بعض رضی الله تعالى عنهم أجمعين

﴿الفصل الثانی فی أحكام أهل الذمة﴾ روی عن عبد الرحمن بن غنم قال كتبنا لعمر بن الخطاب رضی الله عنه حين صالح نصارى أهل الشام بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من نصارى مدينة كذا الی أمير المؤمنين عمر بن الخطاب انكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث فی مدائننا ولا فيما حولها كنيسة ولا ديرا ولا قلية ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان مختطا منها فی خطط المسلمين فی ليل ولا نهار وان نوسع أبوابها للمار وابن السبيل وان ننزل من

جوز بحضرة الوزير أبی الحسن بن الفرات أن تقام السين مقام الصاد فی كل موضع فقال الوزير أتقول جنات عدن يدخلونها ومن سلح من آبائهم أم سلح فخجل الرجل وانقطع والذی ذكره أرباب اللغة فی جواز ابدال الصاد من السين أنه فی كل كلمة كان فيها سين وجاء بعدها أحد الحروف الاربعة وهی الطاء والخاء والغين والقاف فتقول الصراط والسراط وفی سخر لكم صخر لكم وفی مسغبة مصغبة وفی سيقل صيقل وقس على هذا (ونقل قاضی القضاة شمس الدين بن خلكان فی تاريخه) أن أبا جعفر أحمد بن عيسى البلادری المؤرخ قال كنت من جلساء المستعين فقصده الشعراء فقال لست أقبل الا من يقول مثل قول البحتری فی المتوكل

فلو ان مشتاقا تكلف فوق ما
فی وسعه لسعى اليك المنبر

قال البلادری فرجعت الی داری وأتيته وقلت قد قلت فيك أحسن مما قاله البحتری قال هاته فأنشدته

ولو أن برد المصطفى اذ لبسته
يظن لظن البرد أنك صاحبه

وقال وقد أعطيته ولبسته
نعم هذه أعطافه ومناكبه

فقال ارجع الی منزلك وافعل ما أمرتك به فرجعت فبعث الی سبعة آلاف دينار وقال ادخر هذه للحوادث من بعدی ولك الجراية والكفاية ما دمت حيا (ويعجبنی من المدائح الرائقة فی حلل الحشمة) قول عبد الله الاسطرلابی

أهدى لمجلسه الكريم وانما
أهدى له ما حزت من نعمائه

كالبحر يمطره السحاب وماله
فضل عليه لانه من مائه

(ومثله) قول القاضی الفاضل وقد كتبت به الی وزير بغداد

يا أيها المولى الوزير ومن له
منن حللن من الزمان وثاقی

مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ولا نؤوى فى كنائسنا ولا فى منازلنا جاسوسا ولا نكتمه عن المسلمين ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شرعنا ولا ندعو اليه أحدا ولا نمنع أحدا من ذوى قراباتنا الدخول فى دين الاسلام ان أراده وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا اذا أرادوا الجلوس وأن لا نتشبه بالمسلمين فى شئ من ملابسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا نتكلم بكلامهم ولا نتكنى بكناهم ولا نركب فى السروج ولا نتقلد بالسيوف ولا نتخذ شيأ من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ولا نبيع الخمر وأن نجز مقادم رؤسنا ونلزم زينا حيثما كنا وأن نشد الزنانير على أوساطنا ولا نظهر صلبانا ولا كتبنا فى شئ من أسواق المسلمين وطرقهم ولا نضرب بالنواقيس فى كنائسنا الا ضربا خفيفا ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران فى شئ من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ولا نتطلع على منازلهم وقد شرطنا ذلك على أنفسنا وعلى أهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان فان نحن خالفنا فى شئ مما شرطناه لكم وضمناه على أنفسنا فلا ذمة لنا وقد حل بنا ما يحل بأهل المعاندة والشقاق فكتب اليه عمر رضى الله عنه أن امض ما سألوه وألحق فيه حرفين واشترطهما عليهم مع ما شرطوا على أنفسهم أن لا يشتروا شيأ من سبايا المسلمين ومن ضرب مسلما عمدا فقد خلع عهده * وروى أن بنى ثعلبة دخلوا على عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فقالوا يا أمير المؤمنين انا قوم من العرب افرض لنا قال نصارى قالوا نصارى قال ادعوا الى حجام ففعلوا فجز نواصيهم وشق من أرديتهم حزما يحتزمون بها وأمرهم أن لا يركبوا بالسروج وأن يركبوا على الأكف من شق واحد * وروى أن أمير المؤمنين الخليفة جعفر المتوكل أقصى اليهود والنصارى ولم يستعملهم وأذلهم وأبعدهم وخالف بين زيهم وزى المسلمين وقرب منه أهل الحق وأبعد عنه أهل الباطل فأحيا الله به الحق وأمات به الباطل فهو يذكر بذلك ويترحم عليه ما دامت الدنيا وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول لا تستعملوا اليهود والنصارى فانهم أهل رشا فى دينهم ولا يحل فى دين الله الرشا ولما استقدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبا موسى الأشعرى رضى الله عنه من البصرة وكان عاملا عليها للحساب دخل على عمر وهو فى المسجد فاستأذن لكاتبه وكان نصرانيا فقال له عمر قاتلك الله وضرب بيده على فخذه وليت ذميا على المسلمين أما سمعت الله تعالى يقول يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض الآية هلا اتخذت حنيفيا فقال يا أمير المؤمنين لى كتابته وله دينه فقال لا أكرمهم اذ أهانهم الله ولا أعزهم اذ أذلهم الله ولا أدنيهم اذ أقصاهم الله وكتب بعض العمال الى عمر رضى الله عنه ان العدو قد كثر وان الجزية قد كثرت أفنستعين بالأعاجم فكتب اليه انهم أعداء الله وانهم لنا غششة فأنزلوهم حيث أنزلهم الله * ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بدر لحقه رجل من المشركين عند الحرة فقال انى أريد أن أتبعك وأصيب معك قال أتؤمن بالله ورسوله قال لا قال ارجع فلن نستعين بمشرك ثم لحقه عند الشجرة فقال جئتك لاتبعك وأصيب معك قال أتؤمن بالله ورسوله قال لا قال فارجع فلن أستعين بمشرك ثم لحقه عند ظهر البيداء فقال له مثل ذلك فأجابه بمثل الأول فقال نعم فخرج به وفرح به المسلمون وكان له قوة وجلد وهذا أصل عظيم فى أن لا يستعان بكافر هذا وقد خرج ليقاتل بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم ويراق دمه فكيف استعمالهم على رقاب المسلمين * وكتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه الى عماله أن لا تولوا على أعمالنا الا أهل القرآن فكتبوا اليه انا قد وجدنا فيهم خيانة فكتب اليهم ان لم يكن فى أهل القرآن خير فاجدر أن لا يكون فى غيرهم قال أصحاب الشافعى ويلزمهم أن يتميزوا فى اللباس عن المسلمين وأن يلبسوا قلانس يميزونها عن قلانس المسلمين بالحمرة ويشدوا الزنانير على أوساطهم ويكون فى رقابهم خاتم من نحاس أو رصاص أو جرس يدخلون به الحمام وليس لهم أن يلبسوا العمائم ولا الطيلسان وأما المرأة فانها تشد الزنار تحت الازار وقيل فوق الازار وهو الاولى ويكون فى عنقها خاتم تدخل به الحمام ويكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض ولا يركبون الخيل ولا البغال ولا الحمير الا بالأكف عرضا ولا يركبون بالسروج ولا يتصدرون فى المجالس ولا يبدؤن بالسلام ويلجؤن الى أضيق الطرق ويمنعون أن يتطاولوا على المسلمين فى البناء وتجوز المساواة وقيل لا تجوز وان تملكوا دارا عالية أقروا عليها ويمنعون من اظهار المنكر كالخمر والخنزير والناقوس والجهر بالتوراة والانجيل ويمنعون من المقام فى أرض الحجاز وهى مكة والمدينة واليمامة وان امتنعوا من أداء الجزية والتزام أحكام أهل الملة

من شاكره فى نداك فاننى
من عظم ما أوليت ضاق نطاقى
منن تخف على يديك وانما
ثقلت ونتها على الاعناق
(قلت) كان نظم القاضى الفاضل رحمه الله ونثره كفرسى رهان ولكن نثرأ كثر مما نظم واجمع الناس انه اتى مع الاكثار بالعجائب (وذكر قاضى القضاة شمس الدين ابن خلكان فى تاريخه) أن مسودات رسائله اذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد وهو مجيد فى أكثرها ولعمرى أن الانشاء الذى صدر فى الأيام الأموية والايام العباسية نسى وألغى بانشاء الفاضل وما اخترعه من النكت الأدبية والمعانى المخترعة والأنواع البديعة والذى يؤيده قول العماد الكاتب فى الخريدة انه فى صناعة الانشاء كالشريعة المحمدية نسخت الشرائع (ومن غرر نثره) هذه الرسالة التى أنشأها فى حمائم الرسائل وسحب فيها ذيل البلاغة والفصاحة على سحبان وائل (وهى) سرحة لا تحمل تحمل من البطائق أجنحة وتجهز جيوش المقاصد والأقلام أسلحة وتحمل من الأخبار ما تحمله الضمائر وتطوى الأرض اذا نشرت الجناح الطائر وتزوى لها الأرض حتى ترى ما سيبلغه ملك هذه الأمة وتقرب منها السماء حتى ترى مالا يبلغه وهم ولا همة وتكون مراكب الاغراض والأجنحة قلوعا وتركب الجو بحرا يصفق فيه هبوب الرياح موجا من فوقها وتعلق الحاجات على أعجازها ولا تعوق الارادات عن انجازها ومن بلاغات البطائق استفادت ما هى مشهورة به من السجع ومن رياض كتبها ألفت الرياض فهى اليها دائمة الرجع وقد سكنت النجوم فهى أنجم وأعدت فى كنانتها فهى

انتقض عهدهم وان زنى أحد منهم بمسلمة أو أصابها بنكاح أو آوى عينا للكفار أو دل على عورة المسلمين أو فتن مسلما عن دينه أو قتله أو قطع عليه الطريق تنتقض ذمته وفى تقدير الجزية اختلاف بين العلماء فمنهم من قال انها مقدرة الاقل والاكثر على ما كتب به عمر رضى الله عنه الى عثمان بن حنيف بالكوفة فوضع على الغنى ثمانية وأربعين درهما وعلى من دونه أربعة وعشرين درهما وعلى من دونه اثنى عشر درهما وذلك بمحضر من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين ولم يخالفه أحد وكان الصرف اثنا عشر بدينار وهذا مذهب أبى حنيفة وأحمد بن حنبل وأحد قولى الشافعى ويجوز للامام أن يزيد على ما قدره عمر ولا يجوز أن ينقص عنه ولا جزية على النساء والمماليك والصبيان والمجانين * وأما الكنائس فأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن تهدم كل كنيسة بعد الاسلام ومنع أن تجدد كنيسة وأمر أن لا تظهر عليه خارجة من كنيسة ولا يظهر صليب خارج من كنيسة الا كسر على رأس صاحبه وكان عروة بن محمد يهدمها بصنعاء وهذا مذهب علماء المسلمين أجمعين وشدد فى ذلك عمر بن عبد العزيز وأمر أن لا يترك فى دار الاسلام بيعة ولا كنيسة بحال قديمة ولا حديثة والله تعالى أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

* الباب الثانى والعشرون فى اصطناع المعروف واغاثة الملهوف وقضاء حوائج المسلمين وادخال السرور عليهم *

قال الله تعالى ولا تنسوا الفضل بينكم وقال تعالى وتعاونوا على البر والتقوى وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مشى فى عون أخيه ومنفعته فله ثواب المجاهدين فى سبيل الله وعن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال الخلق كلهم عيال الله فأحب خلقه اليه أنفعهم لعياله رواه البزار والطبرانى فى معجمه ومعنى عيال الله فقراء الله تعالى والخلق كلهم فقراء الله تعالى وهو يعولهم وروينا فى مسند الشهاب عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال خير الناس أنفعهم للناس وعن كثير بن عبيد بن عمرو بن عوف المزنى عن أبيه عن جده رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله خلقا خلقهم لقضاء حوائج الناس آلى على نفسه أن لا يعذبهم بالنار فاذا كان يوم القيامة وضعت لهم منابر من نور يحدثون الله تعالى والناس فى الحساب وعن ابن عباس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سعى لاخيه المسلم فى حاجة فقضيت له أو لم تقض غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وكتب له براءتان براءة من النار وبراءة من النفاق وعن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قضى لاخيه المسلم حاجة كنت واقفا عند ميزانه فان رجح والا شفعت له رواه أبو نعيم فى الحلية روينا فى مكارم الاخلاق لابى بكر الخرائطى عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مشى فى حاجة أخيه المسلم كتب الله له بكل خطوة سبعين حسنة وكفر عنه سبعين سيئة فان قضيت حاجته على يديه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه فان مات فى خلال ذلك دخل الجنة بغير حساب وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مشى مع أخيه فى حاجة فناصحه فيها جعل الله بينه وبين النار سبع خنادق ما بين الخندق والخندق كما بين السماء والأرض رواه أبو نعيم وابن أبى الدنيا وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله عند أقوام نعما يقرها عندهم ما داموا فى حوائج الناس ما لم يملوا فاذا ملوا نقلها الله الى غيرهم رواه الطبرانى وروينا من طريق الطبرانى باسناد جيد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من عبد أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه ثم جعل حوائج الناس اليه فتبرم فقد عرض تلك النعمة للزوال وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أغاث ملهوفا كتب الله له ثلاثا وسبعين حسنة واحدة منها يصلح بها آخرته ودنياه والباقى فى الدرجات وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتدرون ما يقول الأسد فى زئيره قالوا الله ورسوله أعلم قال يقول اللهم لا تسلطنى على أحد من أهل المعروف رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال قيل يا رسول الله أى الناس أحب اليك قال أنفع الناس للناس قيل يا رسول الله فأى الاعمال أفضل قال ادخال السرور على

المساجات أسهم وثلاث تكون ملائكة لانها رسل واذا أنيطت بالرقاع صارت أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع وقد باعد الله بين أسفارها وقربها وجعلها طيف خيال اليقظة الذى صدق العين وما كذبها وقد أخذت عهود أداء الأمانة فى رقابها أطواقا وأذنت من أذنابها أوراقا وصارت خوافى من وراء الخوافى وأعطت سرها المودع بكتمان سحبت عليه ذيول ريشها الصوافى ترغم أنف النوى بتقريب العهود وتكاد العيون بملاحظتها تلاحظ نجم السعود وهى أنبياء الطيور لكثرة ما تأتى به من الانباء وخطباؤها لانها تقوم على منابر الأغصان مقام الخطباء * ومن غريب المنقول انى حضرت فى بعض الليالى على جانب النيل المبارك فى خدمة مولانا المقر الأشرف المرحومى القاضوى الناصرى محمد بن البارزى الجهنى الشافعى صاحب دواوين الانشاء الشريف بالممالك الاسلامية المحروسة كان تغمده الله تعالى بالرحمة والرضوان وبيده الكريمة جزء من تذكرة الشيخ صلاح الدين الصفدى بخطه وهذه الرسالة أول الجزء فشرع فى قراءتها وكررها مرارا وهو يترنم فى بديعها وغريبها ورسم فى أثناء ذلك لى بمعارضتها فلم أجد بدا من الشروع لالتزام الواجب وأوترت قوس العزم مطمئنا بهذا الرأى الصائب وقد أوصلت هنا شمل القطعتين ليتأمل المتأمل فى جنى الجنتين ويتنزه نظره فى حدائق الروضتين ويطرب لسجع حمائم الدوحتين (قلت) شرح فاسرح العيون الا دون رسالته المقبولة وطلب السبق فلم يرض معترق البرق سرجا ولا استطلى صفحته المصقولة وهمز جواد التسليم فقصر وأمست أذياله

المؤمن قيل وما سرور المومن قال اشباع جوعته وتنفيس كربته وقضاء دينه ومن مشى مع أخيه فى حاجة كان كصيام شهر واعتكافه ومن مشى مع مظلوم يعينه ثبت الله قدمه يوم تزل الاقدام ومن كف غضبه ستر الله عورته وان الخلق السيئ يفسد العمل كما يفسد الخل العسل وعن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اتى أخاه المسلم بما يحب ليسره بذلك سره الله يوم القيامة رواه الطبرانى فى الصغير باسناد حسن وروى عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أدخل على أهل بيت من المسلمين سرورا لم يرض الله له سرورا دون الجنة رواه الطبرانى وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أدخل رجل على مومن سرورا الا خلق الله من ذلك السرور ملكا يعبد الله تعالى ويوحده فاذا صار العبد فى قبره أتاه ذلك السرور فيقول له أما تعرفنى فيقول له من أنت فيقول أنا السرور الذى أدخلتنى على فلان أنا اليوم أؤانس وحشتك وألقنك حجتك وأثبتك بالقول الثابت وأشهد مشاهدك يوم القيامة وأشفع لك الى ربك وأريك منزلك فى الجنة رواه ابن أبى الدنيا وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه يرفعه اذا أراد أحدكم الحاجة فليبكر لها يوم الخميس وليقرأ اذا خرج من منزله آخر سورة آل عمران وآية الكرسى وانا انزلناه فى ليلة القدر وأم الكتاب فان فيها حوائج الدنيا والآخرة وهو حديث مرفوع *ومن كلام الحكماء اذا سألت كريما حاجة فدعه يفكر فانه لا يفكر الا فى خير واذا سألت لئيما حاجة فعاجله لئلا يشير عليه طبعه أن لا يفعل وسأل رجل رجلا حاجة ثم توانى عن طلبها فقال له المسؤل أغث عن حاجتك فقال ما نام عن حاجته من أسهرك لها ولا عدل بها عن محجة النجح من قصدك بها فعجب من فصاحته وقضى حاجته وأمر له بمال جزيل *وقال مسلمة لنصيب سلنى فقال كفك بالعطية أبسط من لسانى بالمسئلة فأمر له بألف دينار وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه فوت الحاجة أهون من طلبها الى غير أهلها وعنه أيضا قال لا تكثر على أخيك الحوائج فان العجل اذا أفرط فى مص ثدى أمه نطحته وقال ذو الرياستين لثمامة بن أشرس ما أدرى ما أصنع بكثرة الطلاب فقال زل عن موضعك وعلى أن لا يلقاك منهم أحد فقال له صدقت وجلس لهم فى قضاء حوائجهم وحدث أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخى قال عرضت على أبى الحسن على بن محمد بن الفرات رقعة فى حاجة لى فقرأها ووضعها من يده ولم يوقع فيها بشئ فأخذتها وقت وأنا أقول متمثلا من حيث يسمع هذين البيتين

واذا خطبت الى كريم حاجة * وأبى فلا تقعد عليه بحاجب

فلربما منع الكريم وما به * بخل ولكن سوء حظ الطالب

فقال وقد سمع ما قلت ارجع يا أبا جعفر بغير سوء حظ الطالب ولكن اذا سألتمونا الحاجة فعاودونا فان القلوب بيد الله تعالى فأخذ الرقعة ووقع فيها بما أردت *وسأل اسحق بن ربعى اسحق بن ابراهيم المصعبى أن يوصل له رقعة الى المأمون فقال لكاتبه ضمها الى رقعة فلان فقال

تأن لحاجتى واشدد عراها * فقد أضحت بمنزلة الضياع

اذا شاركتها بلبان أخرى * أضر بها مشاركة الرضاع

(وقال أبو دقاقة البصرى)

أضحت حوائجنا اليك مناخة * معقولة برحالك الوصال

أطلق فديتك بالنجاح عقالها * حتى تثور معا بغير عقال

(وقال سلم الخاسر)

اذا أذن الله فى حاجة * أتاك النجاح على رسله

فلا تسأل الناس من فضلهم * ولكن سل الله من فضله

(ولله در القائل حيث قال)

أيها المادح العباد ليعطى * ان لله ما بايدى العباد

فاسأل الله ما طلبت اليهم * وارج فرض المقسم الجواد

وعن عبيد الله بن الحسن بن الحسين رضى الله تعالى عنهم قال أتيت باب عمر بن عبد العزيز فى حاجة فقال اذا كانت لك حاجة الى فأرسل الى رسولا أو اكتب لى كتابا فانى لاستحيى من الله أن يراك ببابى وعن على ابن أبى طالب رضى الله عنه انه قال والذى وسع سمعه الاصوات ما من أحد أودع قلبا سرورا الا خلق الله تعالى من ذلك السرور لطفا فاذا نزلت به نائبة جرى اليها كالماء فى انحداره حتى يطردها عنه كما تطرد غريبة الابل

وقال

بعرق السحب مبلولة وأرسل فأقر الناس برسالته وكتابه المصدق وانقطع كوكب الصبح خلفه فقال عند التقصير كنت نجابا وعلى يدى تخلق يؤدى ما جاء على يده من الترسل فيهيج الأشواق وما برحت الحمائم تحسن الأداء فى الأوراق وصحبناه على الهدى فقال ما ضل صاحبكم وما غوى ومن روى عنه حديث الفضل المسند فعن عكرمة قد روى يطير مع الهواء لفرط صلاحه ولم يبق على السر المصون جناح اذا دخل تحت جناحه ان برز من مقفصه لم يبق للبرقية بل تنعزل بتدبيج أوراقه وتعلق عليه من العين التميمة ما بحبن الاصبر على السجن وضيق الاطواق ولهذا حمدت عواقبه على الاطلاق ولا غنى على عود الأسال دموع الندى من حدائق الرياض ولا أطلق من كبد الجو الا كان سهما بريشا تبلغ به الاغراض كم علا فصار بريش القوادم كالاهداب لعين الشمس وأمسى عند الهبوط لعين الهلال كالطمس فهو الطائر الميمون والغاية السباقه والامير الذى اذا أودع أسرار الملوك حملها بطاقه فهو من الطيور التى خلا لها الجو فنقرت ما شاءت من حبات النجوم والعجماء التى من أخذ عنها شرح المعلقات فقد أعرب عن دقائق الفهوم والمقدمة والنتيجة الكتاب الجلى فى منطق الطير وهى من جملة الكتاب الذى اذا وصل القارى منه الى الفتح تهلل بفاتحة الخير وان تصدر البارزى بغير علم فكم جمعت بين طرفى كتاب وان سألت العقبان عن بديع السجع أحجمت عن رد الجواب شعر

رعت النسور بقوة جيف الفلا
ورعى الذباب الشهد وهو ضعيف

ما قدمت الا وأورثتنا من شمائلها اللطيفة نعم القادمه وأظهرت لنا من خوافيها ما كانت له خير كاتمه كم

وقال لجابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما يا جابر من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس اليه فان قام بما يجب لله فيها عرضها للدوام والبقاء وان لم يقم فيها بما يجب لله عرضها للزوال نعوذ بالله من زوال النعمة ونسأله التوفيق والعصمة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا دائما أبدا الى يوم الدين والحمد لله رب العالمين

﴿الباب الثالث والعشرون في محاسن الاخلاق ومساويها﴾

قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وانك لعلى خلق عظيم فخص الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم من كريم الطباع ومحاسن الاخلاق من الحياء والكرم والصفح وحسن العهد بما لم يؤته غيره ثم ما أثنى الله تعالى عليه بشيء من فضائله بمثل ما أثنى عليه بحسن الخلق فقال تعالى وانك لعلى خلق عظيم قالت عائشة رضي الله عنها كان خلقه القرآن يغضب لغضبه ويرضى لرضاه وكان الحسن رضي الله عنه اذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أكرم ولد آدم على الله عز وجل أعظم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منزلة عند الله أتى بمفاتيح الدنيا فاختار ما عند الله تعالى وكان يأكل على الارض ويجلس على الأرض ويقول انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد ولا يأكل متكئا ولا على خوان وكان يأكل خبز الشعير غير منخول وكان يأكل القثاء بالرطب ويقول برد هذا يطفئ حر هذا وكان أحب الطعام اليه اللحم ويقول هذا يزيد في السمع ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل وكان يحب الدباء ويقول يا عائشة اذا طبختم قدرا فأكثروا فيه من الدباء فانها تشد قلب الحزين وكان يقول اذا طبختم الدباء فأكثروا من مرقها وكان يكتحل بالاثمد ولا يفارق في سفره قارورة الدهن والمكحل والمرآة والمشط والابرة يخيط ثوبه بيده وكان يضحك من غير قهقهة ويرى اللعب المباح ولا ينكره وكان يسابق أهله قالت عائشة رضي الله عنها سابقته فسبقته فلما كثر لحمي سابقته فسبقني فضرب بكتفي وقال هذه بتلك وكان له عبيد واماء لا يرتفع على أحد منهم في مأكل ولا مشرب ولا ملبس وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب نشأ في بلاد الجهل والصحاري يتيما لا أب له ولا أم فعلمه الله تعالى جميع محاسن الاخلاق وكان أفصح الناس منطقا وأحلاهم كلاما وكان يقول أنا أفصح العرب وقال أنس رضي الله عنه والذي بعثه بالحق نبيا ما قال لي في شيء قط كرهه لم فعلته ولا في شيء لم أفعله لم لا فعلته ولا لامني أحد من أهله الا قال دعوه انما كان هذا بقضاء وقدر وقال بعض مشايخنا رحمهم الله تعالى لا مانع من أن النبي صلى الله عليه وسلم اذا هضم نفسه وتواضع لا يمنع من الرتبة التي هي أعلى مرتبة من العبودية فالنبي صلى الله عليه وسلم أعطاه الله تعالى مرتبة الملك مع كونه عبد الله متواضعا فحاز المرتبتين مرتبة العبودية ومرتبة الملكية ومع ذلك كان يلبس المرقع والصوف ويرقع ثوبه ويخصف نعله ويركب الحمار بلا اكاف ويردف خلفه ويأكل الخشن من الطعام وما شبع قط من خبز بر ثلاثة أيام متوالية حتى لقي الله تعالى من دعاه لباه ومن صافحه لم يرفع يده حتى يكون هو الذي يرفعها يعود المريض ويتبع الجنائز ويجالس الفقراء أعظم الناس من الله مخافة وأتعبهم لله عز وجل بدنا وأجدهم في أمر الله لا تأخذه في الله لومة لائم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر أما والله ما كان تغلق من دونه الأبواب ولا كان دونه حجاب صلى الله عليه وسلم وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة قط ولا خادما له ولا ضرب بيده شيئا الا أن يجاهد في سبيل الله ولا خير بين أمرين الا اختار أيسرهما الا أن يكون اثما أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس منه وقال ابراهيم بن عباس لو وزنت كلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم بمحاسن الناس لرجحت وهي قوله عليه الصلاة والسلام انكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم وفي رواية أخرى فسعوهم ببسط الوجه والخلق الحسن وعنه صلى الله عليه وسلم حسن الخلق زمام من رحمة الله تعالى في أنف صاحبه والزمام بيد الملك والملك يجره الى الخير والخير يجره الى الجنة وسوء الخلق زمام من عذاب الله تعالى في أنف صاحبه والزمام بيد الشيطان والشيطان يجره الى الشر والشر يجره الى النار وقال بعض السلف الحسن الخلق ذو قرابة عند الأجانب والسيء الخلق أجنبي عند أهله وقال الفضيل فان يصحبني فاجر حسن الخلق أحب الي من أن يصحبني عابد سيء الخلق لأن الفاجر اذا حسن خلقه خف على الناس وأحبوه والعابد اذا ساء خلقه مقتوه (بيت مفرد)

اذا رام التخلق جاذبته * خلائقه الى الطبع القديم

أهدت من خلقها وهي غادية رائحة وكم حنت اليها الجوارح وهي أدام الله اطلاقها غير جارحة وكم أدارت من كؤس السجع ما هو أرق من قهوة الانشا وأبهج على زهر المنثور من صبيح الاعشا وكم عامت بحور الفضا ولم تحفل بموج الجبال وكم جاءت ببشارة وخضبت الكف ورمت من تلك الاغلة قلامة الهلال وكم زاحمت النجوم بالمناكب حتى ظفرت بكف الخصيب وانحدرت كأنها دمعة سقطت على خد الشفق لامر مريب وكم لمع في أصيل الشمس خضاب كفها الوضاح فصارت بسموها وفرط البهجة كمشكاة فيها مصباح والله تعالى يديم بأفنان أبوابه العالية ألحان السواجع ولا برح تغريدها مطربا بين البادي والراجع انتهى (وذكر ضياء الدين أبو الفتح نصر الله المعروف بابن الاثير الجزري في كتابه المسمى بالوشي المرقوم في حل المنظوم) قال حدثني الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني بمدينة دمشق سنة (٥٨٨) ثمان وثمانين وخمسمائة وكان اذ ذاك كاتب الدولة الصلاحية ان فن الانشاء لا تخلو منه رأس مكانا أو بيانا وكل من أنشأ أقام لسلطانه بانشائه سلطانا وكان من العادة أن كلا من أرباب البيوت اذا نشأ له ولد أحضره الى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويسمع فارسلني والدي وكان اذ ذاك قاضيا بثغر عسقلان الى الديار المصرية في ايام الحافظ العبيدي وهو واحد خلفائها فدخلت ديوان المكاتبات وكان الذي يرأس به في تلك الايام وهو صاحب الانشاء عصره موفق الدين أبا الحجاج يوسف المعروف بابن الخلال فلما مثلت بين يديه وعرفته من أنا وما طلبي رحب بي ثم قال ما الذي اعددت لفن الانشاء وكتابته فقلت ليس عندي سوى اني احفظ القرآن الكريم

قيل أبى الله لسيئ الخلق التوبة لأنه لا يخرج من ذنب الا دخل فى ذنب آخر لسوء خلقه وعن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا بلغه عن الرجل شئ لم يقل ما بال فلان ولكن يقول ما بال أقوام يقولون حتى لا يفضح أحدا وعنه صلى الله عليه وسلم ما شئ فى الميزان أثقل من حسن الخلق وعنه أيضا صلى الله عليه وسلم قال ثلاث من كن فيه كن له من صدق لسانه زكا عمله ومن حسنت نيته زيد فى رزقه ومن حسن بره لأهل بيته زيد له فى عمره ثم قال وحسن الخلق وكف الأذى يزيدان فى الرزق وقيل سوء الخلق يعدى لأنه يدعو الى أن يقابل بمثله * وكتب الحسن بن على الى أخيه الحسين رضى الله عنهم فى اعطائه الشعراء فكتب اليه الحسين أنت أعلم منى بأن خير المال ما وقى به العرض فانظر الى شرف أدبه وحسن خلقه كيف ابتدأ كتابه بأنت أعلم منى وكان بينه وبين أخيه كلام فقيل له ادخل على أخيك فهو أكبر منك فقال انى سمعت جدى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أيما اثنين جرى بينهما كلام فطلب أحدهما رضا الآخر كان سابقه الى الجنة وأنا أكره أن أسبق أخى الأكبر الى الجنة فبلغ ذلك الحسن فجاءه عاجلا رضى الله عنهما وأنشد فى المعنى

وانى لألقى المرء أعلم أنه * عدو وفى أحشائه الضغن كامن

فأمنحه بشرا فيرجع قلبه * سليما وقد ماتت لديه الضغائن

(وسرق) بعض حاشية جعفر بن سليمان جوهرة نفيسة وباعها بمال جزيل فانفذ الى الجوهريين بصفتها فقالوا باعها فلان من مدة ثم ان ذلك الرجل الذى سرقها قبض عليه وأحضر بين يدى جعفر فلما رأى ما ظهر عليه قال له أراك قد تغير لونك ألست يوم كذا طلبت منى هذه الجوهرة فوهبتها لك وأقسم بالله لقد أنسيت هذا ثم أمر للجوهرى بثمنها وقال للرجل خذها الآن حلالا طيبا وبعها بالثمن الذى يطيب خاطرك به لا تبع بيع خائف * ودخل محمد بن عباد على المأمون فجعل يجمعه بيده وجارية على رأسه تتبسم فقال لها المأمون مم تضحكين فقال ابن عباد أنا أخبرك يا أمير المؤمنين تتعجب من قبحى واكرامك اياى فقال لا تعجبى فان تحت هذه العمامة كرما ومجدا قال الشاعر

وهل ينفع الفتيان حسن وجوههم * اذا كانت الاعراض غير حسان

فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى * فما كل مصقول الحديد يمانى

(وحكى) أن بهرام الملك خرج يوما الصيد فانفرد عن أصحابه فرأى صيدا فتبعه طامعا فى لحاقه حتى بعد عن عسكره فنظر الى راع تحت شجرة فنزل عن فرسه ليبول وقال للراعى احفظ على فرسى حتى أبول فعمد الراعى الى العنان وكان ملبسا ذهبا كثيرا فاستغفل بهرام وأخرج سكينا فقطع أطراف اللجام وأخذ الذهب الذى عليه فرفع بهرام نظره اليه فرآه فغض بصره وأطرق برأسه الى الأرض وأطال الجلوس حتى أخذ الرجل حاجته ثم قام بهرام فوضع يده على عينيه وقال للراعى قدم الى فرسى فانه قد دخل فى عينى من سافى الريح فلا أقدر على فتحهما فقدمه اليه فركب وسار الى أن وصل الى عسكره فقال لصاحب مراكبه ان أطراف اللجام قد وهبتها فلا تتهمن بها أحدا * وذكر * أن أنوشروان وضع الموائد للناس فى يوم نوروز وجلس ودخل وجوه أهل مملكته فى الايوان فلما فرغوا من الطعام جاؤا بالشراب وأحضرت الفواكه والمشموم فى آنية الذهب والفضة فلما رفعت آنية المجلس أخذ بعض من حضر جام ذهب وزنه ألف مثقال وخبأه تحت ثيابه وأنوشروان يراه فلما فقده الشرابى صاح بصوت عال لا يخرجن أحد حتى يفتش فقال كسرى ولم فأخبره بالقضية فقال قد أخذه من لا يرده ورآه من لا ينم عليه فلا تفتش أحدا فاخذ الرجل الجام ومضى فكسره وصاغ منه منطقة وحلية لسيفه وجدد له كسوة جميلة فلما كان فى مثل ذلك اليوم جلس الملك ودخل ذلك الرجل بتلك الحلية فدعاه كسرى وقال له هذا من ذاك فقبل الارض وقال نعم أصلحك الله * وقال عبد الله ابن طاهر كنت عند المأمون يوما فنادى بالخادم يا غلام فلم يجبه أحد ثم نادى ثانيا وصاح يا غلام فدخل غلام تركى وهو يقول ما ينبغى للغلام أن يأكل ولا يشرب كلما خرجنا من عندك تصيح يا غلام يا غلام الى كم يا غلام فنكس المأمون رأسه طويلا فما شككت أن يأمرنى بضرب عنقه ثم نظر الى فقال يا عبد الله ان الرجل اذا حسنت أخلاقه ساءت أخلاق خدمه واذا ساءت أخلاقه حسنت أخلاق خدمه وانا لا نستطيع أن نسىء أخلاقنا لتحسن أخلاق خدمنا * وقال ابن عباس رضى الله عنهما ورد علينا الوليد بن عتبة بن أبى سفيان المدينة واليا وكان وجهه ورقة من ورق المصحف فوالله ما ترك فينا فقيرا الا أغناه ولا مديونا الا أدى عنه دينه وكان ينظر الينا بعين أرق من الماء ويكلمنا بكلام أحلى

بوكتاب الحماسة فقال فى هذا بلاغ ثم أمرنى بملازمته فلما ترددت اليه وتدربت عليه وطال تدربى بين يديه أمرنى ان أحل عليه ديوان الحماسة حللته من أوله الى آخره ثم أمرنى أن أحله مرة أخرى فحللته انتهى ما ذكره ابن الأثير (قلت) وقال عماد الدين الكاتب فى كتاب الخريدة فى حق موفق الدين بن الخلال كان فن الترسل والانشاء آل اليه وكان فى ذلك ناظر مصره وانسان ناظره وقبلة جامع مفاخره * قلت * الذى ثبت عند المؤرخين وعلماء هذا الفن ان القاضى الفاضل رحمه الله تعالى أخذ علم الانشاء وحكمه عن موفق الدين بن الخلال منشئ الخليفة الحافظ العلوى ورتبته فى الانشاء معلومة ولكن جنحت الى الوقوف على شئ من نظمه لانظر فى الرتبتين كما قررت ذلك فى نظم القاضى الفاضل ونثره فوجدت قاضى القضاة شمس الدين بن خلكان رحمه الله قد أورد له فى تاريخه نظما ونثرا دل على ان نظمه ونثره رضيعا لبان وفرسا رهان * فمن ذلك قوله فى الشمعة ولله دره حيث أجاد *

وصحيحة بيضاء تطلع فى الدجا
صبحا وتشفى الناظرين بدائها
شابت ذوائبها أوان شبابها
واسود مفرقها أوان فنائها
كالعين فى طبقاتها ودموعها
وسوادها وبياضها وضيائها

(وله)

واغن سيف لحاظه
يغرى الحسام بحده
عجب الورى لما جننـ
ـت وقد فنيت ببعده
وبقاء جسمى ناحلا
يصلى بوقدة صده

(نادرة) كتب عمر بن عبد العزيز الى عدى بن ارطاة أن اجمع بين اياس

من الجنى ولقد شهدت منه مشهد الوكان من معاوية لذكرته تغدينا يوما عنده فأقبل الفراش بصحفة فعثر فى وسادة فوقعت الصحفة من يده فوالله ماردها الاذقن الوليد وانكب جميع مافيها فى حجره فبقى الغلام ممتثلا واقفا ما معه من روحه الا ما يقيم رجليه فقام الوليد فدخل فغير ثيابه واقبل علينا تبرق اسارير جبهته فأقبل على الفراش وقال يا بائس ما أرانا الا روعناك اذهب فأنت وأولادك أحرار لوجه الله تعالى * ومرض أحمد بن أبى داود فعاده المعتصم وقال نذرت ان عافاك الله تعالى أن أتصدق بعشرة آلاف دينار فقال له أحمد يا أمير المؤمنين فاجعلها فى أهل الحرمين فقد لقوا من غلاء الاسعار شدة فقال نويت أن أتصدق بها على من ههنا وأطلق لأهل الحرمين مثلها فقال أحمد متع الله الاسلام وأهله بك يا أمير المؤمنين فانك كما قال النميرى لابيك الرشيد رحمة الله تعالى عليه

ان المكارم والمعروف أودية * أحلك الله منها حيث تجتمع
من لم يكن بأمين الله معتصما * فليس بالصلوات الخمس ينتفع

(وقيل) للاحنف بن قيس ممن تعلمت حسن الخلق فقال من قيس بن عاصم بينما هو ذات يوم جالس فى داره اذ جاءته خادم له بسفود عليه شواء حار فنزعت السفود من اللحم وألقته خلف ظهرها فوقع على ابن له فقتله لوقته فدهشت الجارية فقال لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى * وكان ابن عمر رضى الله عنه اذا رأى أحدا من عبيده يحسن صلاته يعتقه فعرفوا ذلك من خلقه فكانوا يحسنون الصلاة مراآة له فكان يعتقهم فقيل له فى ذلك فقال من خدعنا فى الله انخدعنا له وروى ان أبا عثمان الزاهد اجتاز ببعض الشوارع فى وقت الهاجرة فألقى عليه من فوق سطح طست رماد فتغير أصحابه و بسطوا ألسنتهم فى الملقى للرماد فقال أبو عثمان لا تقولوا شيأ فان من استحق أن يصب عليه النار فصولح بالرماد لم يجز له أن يغضب وقيل لابراهيم بن أدهم تغمده الله تعالى برحمته هل فرحت فى الدنيا قط قال نعم مرتين احداهما أنى كنت قاعدا ذات يوم فجاء انسان فبال على والثانية كنت جالسا فجاء انسان فصفعنى وروى أن على بن أبى طالب كرم الله وجهه دعا غلاما له فلم يجبه فدعاه ثانيا وثالثا فرآه مضطجعا فقال أما تسمع يا غلام قال نعم قال فما حملك على ترك جوابى قال أمنت عقوبتك فتكاسلت فقال اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى *(وحكى)* ان أبا عثمان الحيرى دعاه انسان الى ضيافة فلما وافى منزله عاد الرجل اليه وقال يا أستاذ ليس لى وجه فى دخولك فانصرف رحمك الله فانصرف أبو عثمان فلما وافى منزله عاد الرجل اليه وقال يا أستاذ ندمت وأخذ يعتذر له وقال احضر الساعة فقام معه فلما وافى داره قال له مثل ما قال فى الاولى ثم فعل به ذلك أربع مرات وأبو عثمان ينصرف ويحضر ثم قال له يا أستاذ انما أردت بذلك اختبارك والوقوف على أخلاقك ثم جعل يعتذر له ويمدحه فقال أبو عثمان لا تمدحنى على خلق تجده فى الكلاب فان الكلب اذا دعى حضر واذا زجر انزجر * وقال الحرث بن قصى يعجبنى من القراء كل فصيح مضحاك فأما الذى تلقاه ببشر ويلقاك بوجه عبوس فلا كثر الله فى المسلمين مثله

(ومن محاسن الاخلاق) ما حكى عن القاضى يحيى بن أكثم قال كنت نائما ذات ليلة عند المأمون فعطش فامتنع أن يصيح بغلام يسقيه وأنا نائم فينغص على نومى فرأيته وقد قام يمشى على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء وبينه وبين المكان الذى فيه الكيزان نحو من ثلثمائة خطوة فأخذ منها كوزا فشرب ثم رجع يمشى على أطراف أصابعه حتى قرب من الفراش الذى أنا عليه فخطا خطوات خائف لئلا ينبهنى حتى صار الى فراشه ثم رأيته آخر الليل قام يبول وكان يقوم فى أول الليل وآخره فقعد طويلا يحاول أن أتحرك فيصيح بالغلام فلما تحركت وثب قائما وصاح يا غلام وتأهب للصلاة ثم جاءنى فقال لى كيف أصبحت يا أبا محمد وكيف كان مبيتك قلت خير مبيت جعلنى الله فداك يا أمير المؤمنين قال لقد استيقظت للصلاة فكرهت ان أصيح بالغلام فازعجك فقلت يا أمير المؤمنين قد خصك الله تعالى بأخلاق الانبياء وأحب لك سيرتهم فهناك الله تعالى بهذه النعمة وأتمها عليك فأمر لى بألف دينار فأخذتها وانصرفت قال وبت عنده ذات ليلة فانتبه وقد عرض له السعال فجعلت أرمقه وهو يحشو فمه بكم قميصه يدفع به السعال حتى غلبه فسعل وأكب على الارض لئلا يعلو صوته فانتبه قال يحيى وكنت معه يوما فى بستان ندور فيه فجعلنا نمر بالريحان فيأخذ منه الطاقة والطاقتين ويقول لقيم البستان أصلح هذا الحوض ولا تغرس فى هذا الحوض شيأ من البقول قال يحيى ومشينا فى البستان من أوله الى آخره وكنت أنا مما يلى الشمس والمأمون مما يلى الظل فكان يجذبنى ان أتحول أنا فى الظل ويكون هو فى الشمس

ابن معاوية والقاسم بن ربيعة فولى القضاء أفقههما فجمع بينهما فقال له اياس أيها الرجل سل عنى وعنه فقيهى المصر الحسن وابن سيرين وكان القاسم يأتيهما واياس لا يأتيهما ففهم القاسم ان سألهما عنه أشار به فقال له لا تسل عنى ولا عنه فوالله الذى لا اله الا هو ان اياس ابن معاوية أفقه منى واعلم منى بالقضاء فان كنت كاذبا فما عليك أن تولنى وأنا كاذب وان كنت صادقا فينبغى أن تقبل قولى فقال له اياس انك جئت برجل وقفت به على شفير جهنم فنجى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله تعالى منها وينجو مما يخاف فقال له عدى أما اذ فهمتها فأنت لها أهل فاستقضاه (نادرة لطيفة) نقل ابن عبد ربه فى العقدات أبا سفيان زار معاوية فى الشام فلما رجع من عنده دخل على الامام عمر رضى الله عنه فقال له الامام أجدنا قال ما أصبنا شيأ فنحذيك فأخذ الامام عمر خاتمه فبعث به الى هند وقال للرسول قل لها يقول لك أبو سفيان انظرى الخرجين اللذين جئت بهما من عند معاويه فاحضريهما فلم يلبث عمران أتى بالخرجين فيهما عشرة آلاف درهم فالقاهما عمر فى بيت المال فلما ولى عثمان بن عفان رضى الله عنه أراد ردها اليه قال ما كنت لآخذ مالا عابه عمر على والله ان لنا اليه حاجة ولكن لا ترد على من قبلك فيرد عليك من بعدك

(استنجاز المواعيد)

(قلت) وماظنك بشئ قد جعله الله فى كتابه العزيز مدحة وفخرا لأنبيائه فقال واذكر فى الكتاب اسمعيل انه كان صادق الوعد ولو لم يكن فى خلف الوعد الا قول الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون لكفى قال عمر

فامتنع من ذلك حتى بلغنا آخر البستان فلما رجعنا قال يا يحيى والله لتكونن في مكاني ولا كونن في مكانك حتى آخذ نصيبي من الشمس كما أخذت نصيبك وتأخذ نصيبك من الظل كما أخذت نصيبي فقلت والله يا أمير المومنين لو قدرت أن أقيك يوم الهول بنفسي لفعلت فلم يزل بي حتى تحولت الى الظل وتحول هو الى الشمس ووضع يده على عاتقي وقال بحياتي عليك لا وضعت يدك على عاتقي مثل ما فعلت أنا فانه لا خير في صحبة من لا ينصف فانظر الى أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم ما أحسنها والى أفعالهم ما أزينها نسأل الله تعالى أن يحسن أخلاقنا وأن يبارك لنا في أرزاقنا انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿الباب الرابع والعشرون في حسن المعاشرة والمودة والاخوة والزيارة وما أشبه ذلك﴾

﴿اعلم﴾ ان المودة والاخوة والزيارة سبب التألف والتألف سبب القوة والقوة سبب التقوى والتقوى حصن منيع وركن شديد بها يمنع الضيم وتنال الرغائب وتنجح المقاصد وقد من الله تعالى على قوم وذكرهم نعمته عليهم بأن جمع قلوبهم على الصفاء وردها بعد الفرقة الى الالفة والاخاء فقال تعالى واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا ووصف نعيم الجنة وما أعد فيها لاوليائه من الكرامة اذ جعلهم اخوانا على سرر متقابلين وقد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم الاخاء وندب اليه وآخى بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين وقد ذكر الله تعالى أهل جهنم وما يلقون فيها من الالم اذ يقولون فما لنا من شافعين ولا صديق حميم وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه الرجل بلا أخ كشمال بلا يمين وأنشدوا في ذلك

وما المرء الا باخوانه * كما يقبض الكف بالمعصم
ولا خير في الكف مقطوعة * ولا خير في الساعد الاجذم

وقال زياد خير ما اكتسب المرء الاخوان فانهم معونة على حوادث الزمان ونوائب الحدثان وعون في السراء والضراء *ومن كلام علي رضي الله عنه وكرم وجهه

عليك باخوان الصفاء فانهم * عماد اذا استنجدتهم وظهور
وان قليلا ألف خل وصاحب * وان عدوا واحدا لكثير

وقال الاوزاعي الصاحب للصاحب كالرقعة في الثوب ان لم تكن مثله شانته وقال عبد الله بن طاهر المال غاد ورائح والسلطان ظل زائل والاخوان كنوز وافرة وقال المأمون للحسن بن سهل نظرت في اللذات فوجدتها كلها مملولة سوى سبعة قال وما السبعة يا أمير المؤمنين قال خبز الحنطة ولحم الغنم والماء البارد والثوب الناعم والرائحة الطيبة والفراش الوطيء والنظر الى الحسن من كل شيء قال فأين أنت يا أمير المومنين من محادثة الرجال قال صدقت وهي أولاهن وقال سليمان بن عبد الملك أكلت الطيب ولبست اللين وركبت الفارهة وافتضضت العذراء فلم يبق من لذاتي الا صديق أطرح معه مؤونة التحفظ وكذلك قال معاوية رضي الله عنه نكحت النساء حتى ما أفرق بين امرأة وحائط وأكلت الطعام حتى لا أجد ما أستمرئه وشربت الاشربة حتى رجعت الى الماء وركبت المطايا حتى اخترت نعلي ولبست الثياب حتى اخترت البياض فما بقي من اللذات ما تتوق اليه نفسي الا محادثة أخ كريم وأنشدوا في معنى ذلك

وما بقيت من اللذات الا * محادثة الرجال ذوي العقول
وقد كنا نعدهم قليلا * فقد صاروا أقل من القليل

(وقال لبيد) ما عاتب المرء اللبيب كنفسه * والمرء يصلحه الجليس الصالح

(وقال آخر) اذا ما أتت من صاحب لك زلة * فكن أنت محتالا لزلته عذرا

وقيل لابن السماك أي الاخوان أحق ببقاء المودة قال الوافر دينه الوافي عقله الذي لا يملك على القرب ولا ينساك على البعد ان دنوت منه داناك وان بعدت عنه راعاك وان استعنت به عضدك وان احتجت اليه رفدك وتكون مودة فعله أكثر من مودة قوله وأنشدوا في المعنى

ان أخاك الصدق من يسعى معك * ومن يضر نفسه لينفعك
ومن اذا ريب الزمان صدعك * شتت فيك شمله ليجمعك

وقال

ابن الحرث كانوا يقولون ويفعلون فصاروا يقولون ولا يفعلون ثم صاروا لا يقولون ولا يفعلون فهم ضنوا بالكذب فضلا عن الصدق (ويعجبني قول العباس بن الاحنف)

ما ضر من شغل الفؤاد بحبه
لو كان علاني بوعد كاذب
صبرا عليك فما أرى لي حيلة
الا التمسك بالرجاء الخائب
سأموت من مطل وتبقى حاجتي
فيما لديك وما لنا من طالب

(وذكر حيان بن سليمان عامر بن الطفيل فقال) والله كان اذا وعد الخير وفى واذا وعد الشر أخلف وهو القائل

ولا يرهب ابن العم ما عشت صولتي
ويأمن مني صولة المتهدد
واني وان أوعدته أو وعدته
لمخلف ايعادي ومنجز موعدي

(وقال ابن حازم)

اذا قلت عن شيء نعم فأتمه
فان نعم دين على الحر واجب
والا فقل لا تسترح وترح بها
لئلا يظن الناس انك كاذب

(ويعجبني قول عبد الصمد الرقاشي في خالد بن ديسم عامل الري وقد أبطأ عليه بوعد)

أخالد ان الري قد أجحفت بنا
وضاق علينا رحبها ومعاشها
وقد أطمعتنا منك يوما سحابة
أضاءت لنا برقا وأبطا رشاشها
فلا غيمها يصحو فييأس طامع
ولا ودقها يهمي فتروى عطاشها

(قلت) ومن البلاغة المرقصة في هذا الباب خطاب كوثر بن زفر وقد وعده يزيد بن المهلب وأبطأ بوعده وهو *أصلح الله الأمير أنت أعظم من أن يستعان بك أو يستعان عليك ولست تفعل من الخير شيأ الا وهو يصغر عنك وأنت تكبر عنه وليس العجب أن تفعل ولكن العجب أن لا تفعل *فقيل ان يزيد بن المهلب

(وقال غيره) وليس أخي من ودني بلسانه * ولكن أخي من ودني وهو غائب
ومن ماله مالي اذا كنت معدما * ومالي له ان أعوزته النوائب

(وقال أبو تمام) من لي بانسان اذا أغضبته * وجهلت كان الحلم رد جوابه
واذا صبوت الى المدام شربت من * أخلاقه وسكرت من آدابه
وتراه يصغي للحديث بطرفه * و بقلبه ولعله أدرى به

وقيل لخالد بن صفوان أي اخوانك أحب اليك قال الذي يسد خلتي ويغفر زلتي ويقيل عثرتي وقيل من لا يؤاخي الا من لا عيب فيه قل صديقه ومن لم يرض من صديقه الا بايثاره على نفسه دام سخطه ومن عاتب على كل ذنب ضاع عتبه وكثر تعبه قال الشاعر

ومن لم يغمض عينه عن صديقه * وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب

(وقال آخر) اذا كنت في كل الامور معاتبا * صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
وان أنت لم تشرب مرارا على الاذى * ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

وقالوا اذا رأيت من أخيك أمرا تكرهه أو خلة لا تحبها فلا تقطع حبله ولا تصرم وده ولكن داو كلمته واستر عورته وابقه وابرأ من عمله قال الله تعالى فان عصوك فقل اني برئ مما تعملون فلم يأمره بقطعهم وانما أمره بالبراءة من عملهم السيئ وقال صلى الله عليه وسلم الارواح أجناد مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف وقال عليه الصلاة والسلام ان روحي المومنين ليلتقيان من مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه وفي ذلك قال بعضهم

هويتكم بالسمع قبل لقائكم * وسمع الفتى يهوى لعمري كطرفه
وخبرت عنكم كل جود ورفعة * فلما التقينا كنتم فوق وصفه

(وقال آخر) تبسم الثغر عن أوصافكم فغدا * من طيب ذكركم نشرا فأحيانا
فمن هناك عشقناكم ولم نركم * والاذن تعشق قبل العين أحيانا

ما تحاب اثنان في الله الا كان أفضلهما عند الله أشدهما حبا لصاحبه ما زار أخ أخاه في الله شوقا اليه ورغبة في لقائه الا نادته ملائكة من ورائه طبت وطابت لك الجنة وقالوا ليس سرور يعدل لقاء الاخوان ولا غم يعدل فراقهم وقالوا شر الاخوان الواصل في الرخاء الخاذل عند الشدة وقالوا ان من الوفاء أن تكون لصديق صديقك صديقا ولعدو صديقك عدوا وقالوا أعجب الاشياء ود من يهودي وحفظ من نصراني ورياضة من دهري وكرم من أعجمي والحذر من الكريم اذا أهنته واللئيم اذا أكرمته والعاقل اذا أحرجته والاحمق اذا مازحته والفاجر اذا عاشرته وقالوا أصحب من الاخوان من أولاك جمائل كثيرة فكافأته بجميلة واحدة فنسي جمائله وبقي شاكرا ناشرا ذكرا لجميلتك يوليك عليها الاحسان الجميل الكثير الجزيل ويجعل أنه ما بلغ من مكافأتك القليل وقال ابن عائشة لقاء الخليل شفاء الغليل وقال بعض الحكماء اذا وقع بصرك على شخص فكرهته فاحذره جهدك قال عبد الله بن طاهر

خليلي للبغضاء حال مبينة * وللحب آثار ترى ومعارف
فما تنكر العينان فالقلب منكر * وما تعرف العينان فالقلب عارف

(وقال آخر) وكنت اذا الصديق أراد غيظي * وشرقني على ظما بريقي
غفرت ذنوبه وكظمت غيظي * مخافة ان أعيش بلا صديق

(وقال آخر) وليس فتى الفتيان من جل همه * صبوح وان أمسى ففضل غبوق
ولكن فتى الفتيان من راح أو غدا * لضر عدو أو لنفع صديق

(وأما آداب المعاشرة) فالبشاشة والبشر وحسن الخلق والادب فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من أخلاق النبيين والصديقين البشاشة اذا تراءوا والمصافحة اذا تلاقوا وكان القعقاع ابن شور الهذلي اذا جالسه رجل يجعل له نصيبا من ماله ويعينه على حوائجه ودخل يوما على معاوية فأمر له بألف دينار وكان هناك رجل قد فسح له في المجلس فدفعها الذي فسح له فقال

وكنت جليس قعقاع بن شور * وما يشقى بقعقاع جليس

السمع هذا الخطاب البليغ مال سكرا وطربا وقال له سل حاجتك قال حملت من عشير عشر ديات قال قد أمرت لك بها وشفعتها بمثلها (ويعجبني قول بعضهم) أما بعد فان شجرة وعدك قد أورقت فليكن وعدها سالما من جوائح المطل والسلام

﴿لطيف الاستمناح﴾ قال الحكماء لطيف الاستمناح سبب النجاح والنفس ربما انطلقت وانشرحت للطيف السؤال وامتنعت وانقبضت بجفاء السائل (ولله در القائل)

ان الكريم أخو المودة والنهى
من ليس في حاجاته بمثقل

﴿دخل عبد الملك بن صالح﴾ على الرشيد فقال له أسال بالقرابة والخاصة أم بالخلافة والعامة فقال بالخلافة والعامة فقال يا أمير المومنين يداك بالعطية أطلق من لساني فأجزل عطيته ﴿وقفت امرأة على قيس بن سعد بن عبادة﴾ فقالت أشكو اليك قلة الجرذان فقال ما أحسن هذه الكناية املؤا لها بيتها لحما وخبزا وسمنا ﴿نادرة لطيفة﴾ كان أبو جعفر المنصور أيام بني أمية اذا دخل البصرة دخل متنكرا وكان يجلس في حلقة أزهر السمان المحدث فلما أفضت اليه الخلافة قدم أزهر عليه فرحب به وقربه وقال ما حاجتك يا أزهر فقال يا أمير المومنين داري متهدمة وعلي أربعة آلاف درهم وأريد أزوج ابني محمدا فوصله باثني عشر ألف درهم وقال قد قضينا حاجتك يا أزهر فلا تأتنا بعد هذا طالبا فأخذها وارتحل فلما كان بعد سنة أتاه فقال له أبو جعفر ما حاجتك يا أزهر قال جئت مسلما فقال لا والله بل جئت طالبا وقد أمرنا لك باثني عشر ألفا فلا تأتنا طالبا ولا مسلما فأخذها ومضى فلما كان بعد سنة أتاه فقال

ضحوك السن ان نطقوا بخير * وعند الشر مطراق عبوس

وقال ابن عباس رضي الله عنهما الجليسي على ثلاث ان أرمقه بطرفي اذا أقبل وأوسع له اذا جلس وأصغي له اذا حدث ويقال لكل شئ محل ومحل العقل مجالسة الناس ومثل الجليس الحسن كالعطار ان لم يصبك من عطره أصابك من رائحته ومثل الجليس السوء مثل الكير ان لم يحرق ثوبك بناره آذاك بدخانه وكانت تحية العرب صبحتك الانعمة وطيب الاطعمة وتقول أيضا صبحتك الافالح وكل طير صالح ووصف المأمون ثمامة بحسن المعاشرة فقال انه يتصرف مع القلوب تصرف السحاب مع الجنوب وقيل أول ما يتعين على الجليس الانصاف في المجالسة بأن يلحظ بعين الادب مكانه من مكان جليسه فيكون كل منهما في محله وقال صلى الله عليه وسلم ذو العلم والسلطان أحق بشرف المنزل وقال جعفر الصادق رضي الله عنه اذا دخلت منزل أخيك فاقبل كرامته كلها ما عدا الجلوس في الصدر وينبغي للانسان أن لا يقبل بحديثه على من لا يقبل عليه فقد قيل ان نشاط المتكلم بقدر اقبال السامع ويتعين عليه أن يحدث المستمع على قدر عقله ولا يبتدع كلاما لا يليق بالمجلس فقد قيل لكل مقام مقال وخير القول ما وافق الحال وأوجبوا على المستمع أنه اذا ورد عليه من المتكلم ما كان من سمعه أولا أن لا يقطع عليه ما يقوله بل يسكت الا أن يستوعب منه القول وعدوا ذلك من باب الادب ولعله اذا صبر وسكت استفاد من ذلك زيادة فائدة لم تكن في حفظه وقيل ثمانية ان أهينوا فلا يلوموا الا أنفسهم الجالس في مجلس ليس له بأهل والمقبل بحديثه على من لا يسمعه والداخل بين اثنين في حديثهما ولم يدخلاه فيه والمتعرض لما لا يعنيه والمتأمر على رب البيت في بيته والآتي الى مائدة بلا دعوة وطالب الخير من أعدائه والمستخف بقدر السلطان ويتعين على الجليس أن يراعي ألفاظه ويكون على حذر أن يعثر لسانه خصوصا اذا كان جليسه ذا هيبة فقد قيل رب كلمة سلبت نعمة وقال أبو العباس السفاح ما رأيت أغزر من فكر أبي بكر الهذلي لم يعد على حديث ساقط وقيل ان أبا العباس كان يحدثه يوما اذ عصفت الريح فارمت طستا من سطح الى المجلس فارتاع من حضر ولم يتحرك الهذلي ولم تزل عينه مطابقة لعين السفاح فقال ما أعجب شأنك يا هذلي فقال ان الله يقول ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وانما لي قلب واحد فلما غمره النور بمحادثة أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال فلو انقلبت الخضراء على الغبراء ما أحسست بها ولا وجمت لها فقال السفاح لئن بقيت لك لارفعن مكانك ثم أمر له بمال جزيل وصلة كبيرة وكان ابن خارجة يقول ما غلبني أحد قط غلبة رجل يصغي الى حديثي * وفي نوابغ الحكم اكرم حديث أخيك بانصاتك وصنه من وصمة التفاتك وقيل من حق الملك اذا تثاءب أو ألقى المروحة من يده او مد رجليه او تمطى أو اتكأ او فعل ما يدل على كسله ان يقوم من بحضرته وكان أردشير اذا تمطى قام سماره ومن حق الملك ان لا يعاد عليه حديث وان طال الدهر قال روح بن زنباع أقمت مع عبد الملك سبع عشرة سنة فما اعدت عليه حديثا الا مرة واحدة فقال لي قد سمعته منك وعن الشعبي قال ما حدثت بحديث مرتين رجلا بعينه وقال عطاء بن أبي رباح ان الرجل ليحدثني بالحديث فانصت له كأني لم أسمعه قط وقد سمعت به من قبل ان يولد وقيل المودة طلاقة الوجه والتودد الى الناس وقال معاذ ابن جبل رضي الله عنه ان المسلمين اذا التقيا فضحك كل واحد منهما في وجه صاحبه ثم أخذ بيده تحاتت ذنوبهما كتحات ورق الشجر وقيل البشر يدل على السخاء كما يدل النور على الثمر وقيل من السنة اذا حدثت القوم أن لا تقبل على واحد منهم ولكن اجعل لكل واحد منهم نصيبا وقالوا اذا أردت حسن المعاشرة فالق عدوك وصديقك بالطلاقة ووجه الرضا والبشاشة ولا تنظر في عطفيك ولا تكثر الالتفات ولا تقف على الجماعات واذا جلست فلا تتكبر على أحد وتحفظ من تشبيك أصابعك ومن العبث بلحيتك ومن اللعب بخاتمك وتخليل أسنانك وادخال أصبعك في أنفك وكثرة بصاقك وكثرة التمطي والتثاؤب في وجوه الناس وفي الصلاة وليكن مجلسك هادئا وحديثك منظوما مرتبا واصغ الى كلام مجالسك وأسكت عن المضاحك ولا تتصنع تصنع المرأة في التزين ولا تلح في الحاجات ولا تشجع أحدا على الظلم ولا تمازح أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك عندهما واذا خاصمت فانصف وتحفظ من جهلك وتجنب عجلتك وتفكر في حجتك ولا تكثر الاشارة بيدك ولا الالتفات الى من وراءك واهدئ غضبك وتكلم واذا قربك سلطان فكن منه على حذر واحذر انقلابه عليك وكلمه بما يشتهي ولا يحملنك لطفه بك على أن تدخل بينه وبين أهله وحشمه وان كنت لذلك مستحقا عنده واياك

ما حاجتك يا أزهر قال أتيت عائدا فقال لا والله بل جئت طالبا وقد أمرنا لك باثني عشر ألفا فاذهب ولا تأتنا بعد طالبا ولا مسلما ولا عائدا فأخذها وانصرف فلما مضت السنة أقبل فقال له ما حاجتك يا أزهر قال يا أمير المؤمنين دعاء كنت أسمعك تدعو به جئت لاكتبه فضحك أبو جعفر وقال الدعاء الذي تطلبه غير مستجاب فاني دعوت الله به أن لا أراك فلم يستجب لي وقد أمرنا لك باثني عشر ألفا وتعال اذا شئت فقد أعيتنا الحيلة فيك

(* ودخل رجل من الشعراء) على يحيى ابن خالد بن برمك وأنشده

سألت الندى هل أنت حر فقال لا
ولكنني عبد ليحيى بن خالد
فقلت شراء قال لا بل وراثة
توارثني من والد بعد والد

فأمر له بعشرة آلاف درهم

(* أجواد الجاهلية الذين انتهى اليهم الجود ثلاثة نفر *) حاتم بن عدي الطائي وهرم بن سنان المزني وكعب بن مامة الايادي ولكن المضروب به المثل حاتم وحده وكان اذا اشتد البرد وكلب الشتاء أوقد نارا في بقاع الارض لينظر اليها المار ليلا فيبادر اليها وهو القائل لغلامه يسار

أوقد فان الليل ليل قر
والريح يا موقد ريح صر
حتى يرى نارك من يمر
ان جلبت ضيفا فأنت حر

(* وأما) هرم بن سنان فهو صاحب زهير الذي يقول فيه

تراه اذا ما جئته متهللا
كأنك تعطيه الذي أنت سائله

(وأما) كعب بن مامة الايادي فلم يأت له الا ما ذكر عنه من ايثاره رفيقه السعدي بالماء حتى مات عطشا ونجا السعدي وناهيك بهذا الكرم الذي ما سبق اليه (وأما أجواد الحجاز) فثلاثة في عصر واحد

وصديق العافية فانه أعدى الاعداء ولا تجعل مالك أكرم من عرضك ولا تجالس الملوك فان فعلت فالتزم ترك الغيبة ومجانبة الكذب وصيانة السر وقلة الحوايج وتهذيب الالفاظ والمذاكرة باخلاق الملوك والحذر منهم وان ظهرت المودة ولا تتجشأ بحضرتهم ولا تخلل أسنانك بعد الاكل عندهم ولا تجالس العامة فان فعلت فآداب ذلك ترك الخوض فى حديثهم وقلة الاصغاء الى أراجيفهم والتغافل عما يجرى من سوء ألفاظهم واياك أن تمازح لبيبا أو سفيها فان اللبيب يحقد عليك والسفيه يتجرأ عليك ولان المزح يخرق الهيبة ويذهب بماء الوجه ويعقب الحقد ويذهب بحلاوة الايمان والود ويشين فقه الفقيه ويجرى السفيه ويميت القلب ويباعد عن الرب تعالى ويكسب الغفلة والذلة ومن بلى فى مجلس بمزاح أو لغط فليذكر الله عند قيامه فقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا اله الا أنت أستغفرك وأتوب اليك غفر له ما كان فى مجلسه ذلك

﴿وأما آداب المسايرة﴾ فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تعقب هو وعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ورجل آخر من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فى سفر على بعير فكان اذا جاءت نوبته فى المشى مشى فيعزمان عليه أن لا يمشى فيأبى ويقول ما أنتم بأقدر منى على مشى وما أنا بأغنى منكم عن أجر وقال صلى الله عليه وسلم لا تتخذوا ظهور الدواب كراسى وقيل لا تتقدم الأصاغر على الأكابر الا فى ثلاث اذا ساروا ليلا أو خاضوا سيلا أو واجهوا خيلا وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه لا يكون الصديق صديقا حتى يحفظ أخاه فى ثلاث فى نكبته وغيبته ووفاته

﴿وأما ما جاء فى الاخوان القليلى الموافاة العديمى المكافاة الذين ليس عندهم لصديق مصافاة﴾

فقال وهب بن منبه صحبت الناس خمسين سنة فما وجدت رجلا غفر لى زلة ولا أقالنى عثرة ولا ستر لى عورة وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه اذا كان الغدر طبعا فالثقة بكل أحد عجز وقيل لبعضهم ما الصديق قال اسم وضع على غير مسمى وحيوان غير موجود (قال الشاعر)

سمعنا بالصديق ولا نراه * على التحقيق يوجد فى الأنام
وأحسبه محالا نمقوه * على وجه المجاز من الكلام

وقال أبو الدرداء كان الناس ورقا لا شوك فيه فصاروا شوكا لا ورق فيه وقال جعفر الصادق لبعض اخوانه أقلل من معرفة الناس وأنكر من عرفت منهم وان كان لك مائة صديق فاطرح تسعة وتسعين وكن من الواحد على حذر وقيل لبعض الولاة كم لك صديق فقال أما فى حال الولاية فكثير وأنشد

الناس اخوان من دامت له نعم * والويل للمرء ان زلت به القدم

(ولما) نكب على بن عيسى الوزير لم ينظر ببابه أحدا من أصحابه الذين كانوا يألفونه فى ولايته فلما ردت اليه الوزارة وقف أصحابه ببابه ثانيا فقال

ما الناس الا مع الدنيا وصاحبها * فكلما انقلبت يوما به انقلبوا
يعظمون أخا الدنيا فان وثبت * يوما عليه بما لا يشتهى وثبوا

(وقال آخر)
فما أكثر الأصحاب حين نعدهم * ولكنهم فى النائبات قليل

(وقال البحترى)
اياك تغتر أو تخدعك بارقة * من ذى خداع يرى بشرا وألطافا
فلو قلبت جميع الأرض قاطبة * وسرت فى الأرض أوساطا وأطرافا
لم تلق فيها صديقا صادقا أبدا * ولا أخا يبذل الانصاف ان صافى

(وقال بعضهم فى المعنى أيضا) خليلى جربت الزمان وأهله * فما نالنى منهم سوى الهم والعنا
وعاشرت أبناء الزمان فلم أجد * خليلا يوفى بالعهود ولا أنا

(وقال آخر)
لما رأيت بنى الزمان وما بهم * خل وفى للشدائد أصطفى
فعلمت أن المستحيل ثلاثة * الغول والعنقاء والخل الوفى

(بيت مفرد)
وكل خليل ليس فى الله وده * فانى به فى وده غير واثق

(وقال آخر)
اذا ما كنت متخذا خليلا * فلا تأمن خليلك أن يخونا

وهم عبيد الله بن العباس وعبد الله ابن جعفر وسعيد بن العاص (وأجواد أهل البصرة خمسة فى عصر واحد) وهم عبد الله بن عامر وعبد الله بن أبى بكر مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسالم بن زياد وعبد الله بن معمر القرشى التيمى وطلحة الطلحات وهو طلحة بن خالد الخزاعى (وأجواد أهل الكوفة ثلاثة فى عصر واحد) وهم عتاب ابن ورقاء الرياحى وأسماء بن خارجة وعكرمة الفياض * فمن جود عبيد الله انه أول من فطر جيرانه وأول من وضع الموائد على الطريق (ومن جوده) أن أتاه رجل وهو بفناء داره فقام بين يديه وقال يا ابن عباس ان لى عندك يدا وقد احتجت اليها فصعد فيه بصره وصوبه فلم يعرفه فقال له ما يدك عندنا قال له رأيتك واقفا بزمزم وغلامك يملأ من مائها والشمس قد صهرتك فظللتك بطرف كسائى حتى شربت فقال أجل انى لأذكر لك ذلك ثم قال لغلامه ما عندك قال مائتا دينار وعشرة آلاف درهم قال ادفعها اليه وما أراها تفى بحق يده عندنا فقال له الرجل والله لو لم يكن لاسمعيل ولد غيرك لكان فيك كفاية فكيف وقد ولد سيد المرسلين ثم شفع بك وبأبيك (ومن جوده أيضا) ان معاوية حبس عن الحسين ابن على رضى الله عنه صلاته حتى ضاقت عليه الحال فقيل له لو وجهت الى عمك عبيد الله بن العباس لكفاك وقد قدم بألف ألف قال الحسين فما مقدارها عنده والله انه لأجود من الريح اذا عصفت وأسخى من البحر اذا زخر ثم وجه اليه رسوله بكتاب يذكر فيه حبس معاوية عنه صلاته وضيق حاله وانه يحتاج الى مائة ألف فلما قرأ عبيد الله كتابه وكان أرق الناس قلبا وألينهم عطفا انهملت عيناه ثم قال ويلك

فانك لم يخنك أخ أمين * ولكن قلما تلقى أمينا

(وقال آخر) تحب عدوى ثم تزعم أننى * أودك ان الرأى عنك لعازب

وليس أخى من ودنى بلسانه * ولكن أخى من ودنى وهو غائب

ومن ماله مالى اذا كنت معدما * ومالى له ان أعوزته النوائب

ولما غضب السلطان على الوزير ابن مقلة وأمر بقطع يده لما بلغه انه زور عنه كتابا الى أعدائه وعزله لم يأت اليه أحد ممن كان يصحبه ولا توجع له ثم ان السلطان ظهر له فى بقية يومه انه برىء مما نسب اليه فخلع عليه ورد اليه وظائفه فانشد يقول هذه الابيات

تحالف الناس والزمان * فحيث كان الزمان كانوا * عادانى الدهر نصف يوم

فانكشف الناس لى وبانوا * يا ايها المعرضون عنا * عودوا فقد عاد لى الزمان

(ومثله فى المعنى) أخوك اخوك من يدنو وترجوا * مودته وان دعى استجابا

اذا حاربت حارب من تعادى * وزاد سلاحه منك اقترابا

(وقال أبو بكر الخالدى) وأخ رخصت عليه حتى ملنى * والشىء مملول اذا مايرخص

ما فى زمانك من يعز وجوده * ان رمته الا صديق مخلص

فيجب على الانسان أن لا يصحب الا من له دين وتقوى فان المحبة فى الله تنفع فى الدنيا والآخرة وما أحسن ما قال بعضهم

وكل محبة فى الله تبقى * على الحالين من فرج وضيق

وكل محبة فيما سواه * فكالحلفاء فى لهب الحريق

فينبغى للانسان أن يجتنب معاشرة الاشرار ويترك مصاحبة الفجار ويهجر من ساءت خلته وقبحت بين الناس سيرته قال الله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وقال تعالى وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم فاثبت الله المماثلة بيننا وبين البهائم وذلك انما هو فى الاخلاق خاصة فليس أحد من الخلق الا وفيه خلق من أخلاق البهائم ولهذا تجد أخلاق الخلائق مختلفة فاذا رأيت الرجل جاهلا فى خلائقه غليظا فى طباعه قويا فى بدنه لا تؤمن ضغائنه فألحقه بعالم الثورة والعرب تقول أجهل من ثور واذا رأيت الرجل هجاما على أعراض الناس فقد ماثل عالم الكلاب فان دأب الكلب أن يجفو من لا يجفوه ويؤذى من لا يؤذيه فعامله بما كنت تعامل به الكلب اذا نبح ألست تذهب وتتركه واذا رأيت انسانا قد جبل على الخلاف ان قلت نعم قال لا وان قلت لا قال نعم فألحقه بعالم الحمير فان دأب الحمار ان أدنيته بعد وان أبعدته قرب فلا تنتفع به ولا يمكنك مفارقته وان رأيت انسانا يهجم على الأموال والأرواح فألحقه بعالم الأسود وخذ حذرك منه كما تأخذ حذرك من الأسد واذا بليت بانسان خبيث كثير الروغان فألحقه بعالم الثعالب واذا رأيت من يمشى بين الناس بالنميمة ويفرق بين الأحبة فألحقه بعالم الظربان وهى دابة صغيرة تقول العرب عند تفرق الجماعة فسا بينهم ظربان فتفرقوا واذا رأيت انسانا لا يسمع الحكمة والعلم وينفر من مجالسة العلماء ويألف أخبار أهل الدنيا فالحقه بعالم الخنافس فانه يعجبها أكل العذرات وملامسة النجاسات وتنفر من ريح المسك والورد واذا شمت الرائحة الطيبة ماتت لوقتها واذا رأيت الرجل يصنع بنفسه كما تصنع المرأة لبعلها يبيض ثيابه ويعدل عمامته وينظر فى عطفيه فألحقه بعالم الطواويس واذا بليت بانسان حقود لا ينسى الهفوات ويجازى بعد المدة الطويلة على السقطات فالحقه بعالم الجمال والعرب تقول أحقد من جمل فتجنب قرب الرجل الحقود وعلى هذا النمط فليحترز العاقل من صحبة الأشرار وأهل الغدر ومن لا وفاء لهم فانه اذا فعل ذلك سلم من مكائد الخلق وأراح قلبه وبدنه والله أعلم

❊وأما الزيارة والاستدعاء اليها❊ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى وجبت محبتى للمتحابين فى والمتباذلين فى والمتزاورين فى اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل الا ظلى وقال صلى الله عليه وسلم من عاد مريضا أو زار أخا نادى مناد أن طبت وطاب ممشاك تبوأت من الجنة منزلا وقيل المحبة شجرة أصلها الزيارة قال الشاعر

زر من تحب وان شطت بك الدار * وحال من دونه حجب وأستار

لا يمنعنك بعد من زيارته * ان المحب لمن يهواه زوار

يا معاوية تكون لسين المهاد رفيع العماد والحسين يشكو ضعف الحال وكثرة العيال ثم قال لقهرمانه احمل الى الحسين نصف ما نملكه من ذهب وفضة ودابة وأخبره انى شاطرته فان أقنعه ذلك والا فارجع واحمل اليه النصف الآخر قال فلما وصل الرسول الى الحسين قال انا لله ثقلت والله على عمى وما ظننت انه يتسع بهذا كله فأخذ الشطر من ماله وهو أول من فعل هذا فى الاسلام (ومن جوده أيضا) ان معاوية أهدى اليه وهو عنده فى شهر من هدايا النوروز حللا كثيرة ومسكا وآنية من ذهب وفضة ووجهها اليه مع حاجبه فلما وضعها بين يديه نظر الى الحاجب وهو يطيل النظر فيها فقال هل فى نفسك منها شىء قال نعم والله ان فى نفسى منها ما كان فى نفس يعقوب من يوسف فضحك عبيد الله فقال فشأنك بها فهى لك قال جعلت فداءك أنا أخاف أن يبلغ ذلك معاوية فيغضب لذلك قال فاختمها بخاتمك وادفعها الى الخازن وهو يحملها اليك ليلا فقال الحاجب والله ان هذه الحيلة فى الكرم أكثر من الكرم ولوددت أنى لا أموت حتى أراك مكانه يعنى معاوية فظن عبيد الله انها مكيدة منه فقال دع هذا الكلام انا من قوم نفى بما عقدنا ولا ننقض ما أكدنا وقال له رجل من الأنصار جعلت فداءك والله لو سبقت حاتما بيوم ما ذكرته العرب وأنا أشهد أن عفو جودك أكثر من مجهوده وطل صوبك أكثر من وابله (ومن جود عبد الله بن جعفر) أن عبد الله بن أبى عمار دخل على نخاس يعرض قيانا للبيع فشغفه حب واحدة منهن ولم يكن له جدة يتوصل بها الى المشترى فشبب بذكرها حتى مشى اليه عطاء وطاوس ومجاهد يعذلونه فى ذلك

ولتكن الزيارة غبا لقوله صلى الله عليه وسلم زرغبا تزدد حبا قال الشاعر في معنى ذلك

عليك باغباب الزيارة انها * اذا كثرت صارت الى الهجر مسلكا
ألم تر أن الغيث يسأم دائما * ويسئل بالايدى اذا هو أمسكا

ويقال الاكثار من الزيارة ممل والاقلال منها مخل وكتب صديق الى صديقه هذا البيت

اذا ما تقاطعنا ونحن ببلدة * فما فضل قرب الدار منا على البعد

(وقال آخر) وان مروري بالديار التي بها * سليمى ولم ألمم بها لجفاء
(وقال آخر) قد أتانا من آل سعدى رسول * حبذا ما يقول لي وأقول
(وقال آخر) أزور بيوتا لاصقات ببيتها * وقلبي في البيت الذي لا أزوره

وزار محمد بن يزيد المهلبي المستعين ووهب له مائتي ألف درهم وأقطعه أرضا فقال

وخصصتني بزيارة أضحى لنا * مجد بها طول الزمان مؤثل
وقضيت ديني وهو دين وافر * لم يقضه مع جوده المتوكل

وكتب المأمون الى جاريته الخيزران يستدعيها للزيارة

نحن في أفضل السرور ولكن * ليس الا بكم يتم السرور
عيب ما نحن فيه يا أهل ودى * انكم غبتم ونحن حضور
فأجدوا المسير بل ان قدرتم * أن تطيروا مع الرياح فطيروا

وقيل لفيلسوف أى الرسل إنجع قال الذى له جمال وعقل وقيل اذا أرسلتم رسولا في حاجة فاتخذوه حسن الوجه حسن الاسم وقال لقمان لابنه يا بني لا تبعث رسولا جاهلا فان لم تجد حكيما عارفا فكن رسول نفسك وقال بعضهم

اذا أبطا الرسول فقل نجاح * ولا تفرح اذا عجل الرسول

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿الباب الخامس والعشرون في الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم وفضل الشفاعة واصلاح ذات البين وفيه فصلان﴾

﴿الفصل الاول في الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم﴾ قال الله تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم ووصف الله سبحانه وتعالى نفسه لعباده فقال عز وجل ان الله بالناس لرؤف رحيم وقال تعالى الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم قال المفسرون الرحمن اسم رقيق يدل على العطف والرقة واللطف والكرم والمنة والحلم على الخلق والرحيم مثله وقيل يقال رحمن الدنيا ورحيم الآخرة وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لا يضع الله الرحمة الا على رحيم قلنا يا رسول الله كلنا رحيم قال ليس الرحيم الذى يرحم نفسه وأهله خاصة ولكن الرحيم الذى يرحم المسلمين رواه أبو يعلى والطبرانى وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من لا يرحم لا يرحم ومن لا يغفر لا يغفر له وعنه صلى الله عليه وسلم قال ارحموا ترحموا واغفروا يغفر لكم وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل ان كنتم تريدون رحمتي فارحموا خلقي رواه أبو محمد بن عدى في كتاب الكامل وروينا من طريق الطبرانى عن الشعبي عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتواصلهم كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر قال الطبرانى انى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فسألته عن هذا الحديث فقال النبي صلى الله عليه وسلم وأشار بيده صحيح صحيح صحيح ثلاثا وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمر عليها يده نور يوم القيامة ودخل عامل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فوجده مستلقيا على ظهره وصبيانه يلعبون على بطنه فأنكر ذلك عليه فقال له عمر كيف أنت مع أهلك قال اذا دخلت سكت الناطق فقال له اعتزل فانك لا ترفق بأهلك وولدك فكيف ترفق بأمة محمد صلى الله عليه وسلم وروى عن أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان أبدال أمتى لن يدخلوا الجنة بالاعمال ولكن يدخلونها برحمة الله وسخاوة النفس وسلامة الصدر والرحمة لجميع المسلمين

فكان جوابه أن قال

يلومني فيك أقوام أجالسهم * فما أبالى أطار اللوم أم وقعا

فانتهى خبره الى عبد الله بن جعفر فلم يكن له هم غيره فحج وبعث الى مولى الجارية فاشتراها منه بأربعين ألف درهم وأمر قيمة جواريه أن تزينها وتحليها ففعلت وبلغ الناس قدومه فدخلوا عليه فقال مالى لا أرى ابن عمارة زائرا فأخبر بذلك فأتى مسلما فلما أراد أن ينهض استجلسه ثم قال ما فعل بك حب فلانة قال حبها في اللحم والدم والمخ والعصب قال أتعرفها ان رأيتها قال لو أدخلت الجنة لم أنكرها فأمرها عبد الله أن تخرج اليه وقال له انما اشتريتها لك والله ما دنوت منها فشأنك بها بارك الله لك فيها فلما ولى قال يا غلام احمل اليه مائة ألف درهم قال فبكى عبد الله وقال يا أهل البيت لقد خصكم الله بشرف ما خص به أحدا من صلب آدم فهنأكم الله بهذه النعمة وبارك لكم فيها (ولقد) تقرر ان أجواد الاسلام أحد عشر جوادا ذكرت من جود بعضهم ما تيسر وقال صاحب العقد انه جاء بعدهم طبقة أخرى وهى الطبقة الثانية (فمنهم) الحكم بن أحطب قيل سأله اعرابى فأعطاه خمسمائة دينار فبكى الاعرابى فقال له لعلك استقللت ما أعطيناك فقال لا والله ولكني أبكي لما تأكل الارض منك ثم أنشد

فكان آدم حين حان وفاته * أوصاك وهو يجود بالحوباء
ببنيه أن ترعاهم فرعيتهم * وكفيت آدم عيلة الابناء

(وحكى) عن العتبي أنه قال حدثني رجل قال قدم علينا الحكم بن أحطب وهو مملق فأغنانا فقلت وكيف أغنا كم وهو مملق فقال علمنا المكارم فعاد غنينا على فقيرنا (ومنهم معن بن زائدة) يقال فيه

﴿الفصل الثانى فى الشفاعة واصلاح ذات البين﴾ قال الله تعالى من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شئ مقيتا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يسأل العبد عن جاهه كما يسأله عن عمره فيقول له جعلت لك جاها فهل نصرت به مظلوما أو قمعت به ظالما أو أغثت به مكروبا وقال صلى الله عليه وسلم أفضل الصدقة أن تعين بجاهك من لا جاه له وعن أبى بردة عن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا جاءنى طالب حاجة فاشفعوا اليه لكى تؤجروا و يقضى الله تعالى على لسان نبيه ما شاء وعن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل الصدقة صدقة اللسان قيل يارسول الله وما صدقة اللسان قال الشفاعة تفك بها الاسير وتحقن بها الدماء وتجر بها المعروف الى أخيك وتدفع عنه بها كريهة رواه الطبرانى فى المكارم وقال على رضى الله عنه الشفيع جناح الطالب وقال رجل لبعض الولاة ان الناس يتوسلون اليك بغيرك فينالون معروفك و يشكرون غيرك وأنا أتوسل اليك بك ليكون شكرى لك لا لغيرك * وقيل كان المنصور معجبا بمحادثة محمد بن جعفر بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهم وكان الناس لعظم قدره يفزعون اليه فى الشفاعات فثقل ذلك على المنصور فحجبه مدة ثم لم يصبر عنه فأمر الربيع أن يكلمه فى ذلك فكلمه وقال اعف يا أمير المؤمنين لا تثقل عليه فى الشفاعات فقبل ذلك منه فلما توجه الى الباب اعترضه قوم من قريش معهم رقاع فسألوه ايصالها الى المنصور فقص عليهم القصة فأبوا الا أن يأخذها فقال اقذفوها فى كمى ثم دخل عليه وهو فى الخضراء مشرف على مدينة السلام وما حولها من البساتين فقال له أما ترى الى حسنها يا أبا عبد الله فقال له يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيما آتاك وهنأك باتمام نعمته عليك فيما أعطاك فما بنت العرب فى دولة الاسلام ولا العجم فى سالف الايام أحصن ولا أحسن من مدينتك ولكن سمجتها فى عينى خصلة قال وما هى قال ليس لى فيها ضيعة فتبسم وقال قد حسنتها فى عينك بثلاث ضياع قد أقطعتكها فقال أنت والله يا أمير المؤمنين شريف الموارد كريم المصادر فجعل الله تعالى باقى عمرك أكثر من ماضيه ثم أقام معه يومه ذلك فلما نهض ليقوم بدت الرقاع من كمه فجعل يردهن و يقول ارجعن خائبات خاسرات فضحك المنصور وقال بحقى عليك الا أخبرتنى وأعلمتنى بخبر هذه الرقاع فأعلمه وقال ما أتيت يا ابن معلم الخير الا كريما وتمثل بقول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر

لسنا وان احسابنا كرمت * يوما على الاحساب نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا * تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

ثم تصفح الرقاع وقضى حوائجهم عن آخرها قال محمد فخرجت من عنده وقد بحت وأربحت * وقال المبرد أتانى رجل لا شفع له فى حاجة فأنشدنى لنفسه

انى قصدتك لا أدلى بمعرفة * ولا بقرب ولكن قد فشت نعمك
فبت حيران مكروبا يؤرقنى * ذل الغريب و يغشينى الكرى كرمك
ما زلت أنكب حتى زلزلت قدمى * فاحتل لتثبيتها ان زلزلت قدمك
فلو هممت بغير العرف ما علقت * به يداك ولا انقادت له شيمك

قال فشفعت له وأنلته من الاحسان ما قدرت عليه وكتب رجل الى يحيى بن خالد رقعة فيها هذا البيت

شفيعى اليك الله لا شئ غيره * وليس الى رد الشفيع سبيل

فأمره بلزوم الدهليز فكان يعطيه كل يوم عند الصباح ألف درهم فلما استوفى ثلاثين ألفا ذهب الرجل فقال يحيى والله لو أقام الى آخر عمره ما قطعتها عنه شعر

وقد جئتكم بالمصطفى متشفعا * وما خاب من بالمصطفى يتشفع
الى باب مولانا رفعت ظلامتى * عسى الهم عنى والمصائب ترفع

وقال آخر

تشفع بالنبى فكل عبد * يجار اذا تشفع بالنبى
ولا تجزع اذا ضاقت أمور * فكم لله من لطف خفى

وروى أن جبريل عليه السلام قال يا محمد لو كانت عبادتنا لله تعالى على وجه الأرض لعملنا ثلاث خصال سقى الماء للمسلمين واعانة أصحاب العيال وستر الذنوب على المسلمين اذا أذنبوا اللهم استر ذنوبنا واقض عنا تبعاتنا

وصلى

حدث عن البحر ولا حرج وحدث عن معن ولا حرج وأتاه رجل يستحمله فقال يا غلام أعطه فرسا وبرذونا وبغلا وعيرا وبعيرا وجارية ولو عرفت مركوبا غير هذا لاعطيتك (ومنهم يزيد بن المهلب) قيل كان هشام بن حسان اذا ذكره قال كانت السفن تجرى فى بحر جوده ﴿حكى﴾ الأصمعى انه قدم على يزيد قوم من قضاعة فقال رجل منهم والله ما ندرى اذا ما فاتنا

طلب اليك من الذى نتطلب
ولقد ضربنا فى البلاد فلم نجد
أحدا سواك الى المكارم ينسب
فاصبر لعادتك التى عودتنا
أولا فارشدنا الى من نذهب

فأمر له بألف دينار (ومنهم يزيد بن حاتم) قيل ان ربيعة الرأى قدم مصر فاتى يزيد السلمى فلم يعطه شيأ ثم عطف على يزيد بن حاتم فشغل عنه لامر ضرورى فخرج وهو يقول

أرانى ولا كفران لله راجعا
بخفى حنين من نوال ابن حاتم

فلما فرغ يزيد من ضرورته سأل عنه فأخبر عنه انه خرج وهو يقول كذا وأنشد البيت فأرسل من يجد فى طلبه فأتى به فقال كيف قلت فأنشد البيت فقال شغلنا عنك وعجلت علينا ثم أمر بخفيه فخلعا من رجليه وملئاما لا وقال ارجع بهما بدلا من خفى حنين (ومنهم أبو دلف) واسمه القاسم وفيه يقول ابن أبى جبلة

انما الدنيا أبو دلف
بين باديه ومحتضره
فاذا ولى أبو دلف
ولت الدنيا على أثره

وقال

ان سار سار المجد أو حل وقف
انظر بعينك الى أعلى الشرف
هل ناله بقدرة أو بكلف
خلق من الناس سوى أبى دلف

فأعطاه خمسين ألف درهم (ومنهم خالد بن عبد الله القسرى)

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿الباب السادس والعشرون فى الحياء والتواضع ولين الجانب وخفض الجناح وفيه فصلان﴾

﴿الفصل الاول فى الحياء﴾ قالت عائشة رضى الله تعالى عنها مكارم الاخلاق عشرة صدق الحديث وصدق اللسان وأداء الامانة وصلة الرحم والمكافأة بالصنيع وبذل المعروف وحفظ الذمام للجار وحفظ الذمام للصاحب وقرى الضيف ورأسهن الحياء وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحياء شعبة من الايمان وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى اذا لم تستح فاصنع ما شئت وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه وعن زيد بن على عن آبائه يرفعونه من لم يستح فهو كافر وقال أبو موسى الاشعرى رضى الله عنه انى لادخل البيت المظلم أغتسل فيه من الجنابة فاحنى فيه صلبى حياء من ربى وقال بعضهم الوجه المصون بالحياء كالجوهر المكنون فى الوعاء وقال الخواص ان العباد عملوا على أربع منازل على الخوف والرجاء والتعظيم والحياء فارفعها منزلة الحياء لما أيقنوا ان الله يراهم على كل حال قالوا سواء علينا رأيناه أو رآنا وكان الحاجز لهم عن معاصيه الحياء منه ويقال القناعة دليل الامانة والامانة دليل الشكر والشكر دليل الزيادة والزيادة دليل بقاء النعمة والحياء دليل الخير كله

﴿الفصل الثانى فى التواضع ولين الجانب وخفض الجناح﴾ قال الله تعالى واخفض جناحك للمؤمنين وقال تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل العبادة التواضع وقال صلى الله عليه وسلم لا تعرفونى فوق قدرى فتقولوا فى ما قالت النصارى فى المسيح فان الله عز وجل اتخذنى عبدا قبل أن يتخذنى رسولا وأتاه صلى الله عليه وسلم رجل فكلمه فاخذته رعدة فقال صلى الله عليه وسلم له هون عليك فانى لست بملك انما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد وكان صلى الله عليه وسلم يرقع ثوبه ويخصف نعله ويخدم فى مهنة أهله ولم يكن متكبرا ولا متجبرا أشد الناس حياء وأكثرهم تواضعا وكان اذا حدث بشىء مما آتاه الله تعالى قال ولا فخر وقال صلى الله عليه وسلم ان العفو لا يزيد العبد الا عزا فاعفوا يعزكم الله وان التواضع لا يزيد العبد الا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله وان الصدقة لا تزيد المال الا نماء فتصدقوا يزدكم الله وقال عدى بن ارطاة لاياس بن معاوية انك لسريع المشية قال ذلك أبعد من الكبر وأسرع فى الحاجة وخرج معاوية على ابن الزبير وابن عامر فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير فقال معاوية لابن عامر اجلس فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من أحب أن يتمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار وقيل التواضع سلم الشرف ولبس مطرف بن عبد الله الصوف وجلس مع المساكين فقيل له فى ذلك فقال ان أبى كان جبارا فاحببت أن أتواضع لربى لعله أن يخفف عن أبى تجبره وقال مجاهد ان الله تعالى لما أغرق قوم نوح شمخت الجبال وتواضع الجودى فرفعه فوق الجبال وجعل قرار السفينة عليه وقال الله تعالى لموسى عليه السلام هل تعرف لم كلمتك من بين الناس قال لا يارب قال لانى رأيتك تمرغ بين يدى فى التراب تواضعا لى وقيل من رفع نفسه فوق قدره استجلب مقت الناس وقال أبو مسلم صاحب الذخيرة ما تاه الا وضيع ولا فاخر الا لقيط وكل من تواضع لله رفعه فسبحان من تواضع كل شىء لعز جبروت عظمته وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿الباب السابع والعشرون فى العجب والكبر والخيلاء وما أشبه ذلك﴾

(اعلم) أن الكبر والاعجاب يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل وحسبك من رذيلة تمنع من سماع النصح وقبول التأديب والكبر يكسب المقت ويمنع من التآلف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من كبر وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله اليه وقال الاحنف بن قيس ما تكبر أحد الا من زلة يجدها فى نفسه ولم تزل الحكماء تتحامى الكبر وتأنف منه ونظر أفلاطون الى رجل جاهل معجب بنفسه فقال وددت أنى مثلك فى ظنك وأن أعدائى مثلك فى الحقيقة ورأى رجل رجلا يختال فى مشيه فقال جعلنى الله مثلك فى نفسك ولا جعلنى مثلك فى نفسى وقال الاحنف عجبت لمن جرى فى مجرى البول مرتين كيف يتكبر * ومر بعض أولاد المهلب بمالك بن دينار وهو يتبختر فى مشيه فقال له مالك يا بنى لو تركت هذه الخيلاء لكان أجمل بك فقال أوما تعرفنى قال أعرفك معرفة جيدة أولك

قيل انه كان جالسا فى مظلة اذ نظر الى اعرابى يخب على بعيره مقبلا نحوه فقال لحاجبه اذا قدم لا تحجبه فلما قدم أدخله فسلم فقال

أصلحك الله قل ما بيدى
فما أطيق العيال اذ كثروا
أناخ دهر رمى بكلكله
فأرسلونى اليك وانتظروا

* فقال خالد اذا أرسلوك الى وانتظروا والله لتعودن اليهم بما يسرهم فأمر له بجائزة عظيمة وكسوة شريفة

(ومنهم عدى بن حاتم) حكى صاحب العقد قال دخل أبو دارة على عدى ابن حاتم فقال انى مدحتك قال امسك حتى آتيك بمال فانى أكره أن أعطيك ثمن ما تقول هذه ألف شاة وألف درهم وثلاثة أعبد وثلاث اماء وفرسى هذا حبس فى سبيل الله فامدحنى على حسب ما أجزتك

﴿قيل﴾ ان أروى بنت الحرث ابن عبد المطلب كانت أغلظ الوافدات على معاوية خطابا وكان حلم معاوية أعظم من خطابها دخلت عليه وهى عجوز كبيرة فلما رآها معاوية قال مرحبا بك يا خالة كيف كنت بعدنا قالت بخير يا أمير المؤمنين لقد كفرت النعمة وأسأت بابن عمك الصحبة وتسميت بغير اسمك وأخذت غير حقك من غير دين كان منك ولا من آبائك ولا سابقة فى الاسلام بعد ان كفرتم برسول الله فأتعس الله منكم الجدود وأضرع منكم الخدود ورد الحق الى أهله ولو كره المشركون وكانت كلمتنا هى العليا ونبينا هو المنصور فوليتم علينا بعده فأصبحتم تحتجون على سائر العرب بقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن أقرب اليه منكم وأولى بهذا منكم فكنا فيكم بمنزلة بنى اسرائيل فى آل فرعون وكان على رضى الله عنه عند نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بمنزلة هرون من موسى فغايتنا الجنة وغايتكم النار فقال

نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت بين ذلك تحمل العذرة فارخى الفتى رأسه وكف عما كان عليه وقالوا لا يدوم الملك مع الكبر وحسبك من رذيلة تسلب الرياسة والسيادة وأعظم من ذلك أن الله تعالى حرم الجنة على المتكبرين فقال تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا فقرن الكبر بالفساد وقال تعالى سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق قال بعض الحكماء ما رأيت متكبرا الا تحول ما به بي يعني أتكبر عليه * واعلم ان التكبر يوجب المقت ومن مقته رجاله لم يستقم حاله والعرب تجعل جزيئة الابرش غاية في الكبر يقال انه كان لا ينادم أحدا تكبرا ويقول انما ينادمني الفرقدان وكان ابن عوانة من أقبح الناس كبرا روى أنه قال لغلامه اسقني ماء فقال نعم فقال انما يقول نعم من يقدر أن يقول لا اصفعوه فصفع ودعا أكارا فكلمه فلما فرغ دعا بماء فتمضمض به استقذارا لمخاطبته ويقال فلان وضع نفسه في درجة لو سقط منها لتكسر * قال الجاحظ المشهورون بالتكبر من قريش بنو مخزوم وبنو أمية ومن العرب بنو جعفر بن كلاب وبنو زرارة بن عدي وأما الاكاسرة فكانوا لا يعدون الناس الا عبيدا وأنفسهم الا أربابا وقيل لرجل من بني عبد الدار الا تأتي الخليفة فقال أخاف أن لا يحمل الجسر شرفي وقيل للحجاج بن ارطاة مالك لا تحضر الجماعة قال أخشى أن يزاحمني البقالون وقيل أتى وائل بن حجر الى النبي صلى الله عليه وسلم فاقطعه أرضا وقال لمعاوية أعرض هذه الارض عليه واكتبها له فخرج معه معاوية في هاجرة شديدة ومشى خلف ناقته فاحرقه حر الشمس فقال له أردفني خلفك على ناقتك قال لست من أرداف الملوك قال فاعطني نعليك قال ما بخل يمنعني يا ابن أبي سفيان ولكن أكره أن يبلغ أقيال اليمن أنك لبست نعلي ولكن امش في ظل ناقتي فحسبك بها شرفا وقيل انه لحق زمان معاوية ودخل عليه فأقعده معه على السرير وحدثه * وقال المسرور بن هند لرجل أتعرفني قال لا قال أنا المسرور بن هند قال ما أعرفك قال فتعسا ونكسا لمن لم يعرف القمر قال الشاعر

قولا لأحمق يلوي التيه أخدعه * لو كنت تعلم ما في التيه لم تته
التيه مفسدة للدين منقصة * للعقل مهلكة للعرض فانتبه

وقيل لا يتكبر الا كل وضيع ولا يتواضع الا كل رفيع والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

* الباب الثامن والعشرون في الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت *

فمن شواهد المفاخرة قوله تعالى أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون نزلت في علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وعقبة بن أبي معيط وكانا تفاخرا وقوله تعالى أفمن يلقى في النار خير أمن يأتي آمنا يوم القيامة نزلت في أبي جهل وعمار بن ياسر والنسب الى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أشرف الأنساب وقد قال صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم ولا فخر وقد نفى الله تعالى الفخر بالانساب بقوله تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم فالفخر في الاسلام بالتقوى وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان نبيكم واحد وان أباكم واحد وانه لا فضل لعربي على عجمي ولا لأحمر على أسود الا بالتقوى ألا هل بلغت (وقال الأصمعي) بينما أنا أطوف بالبيت ذات ليلة اذ رأيت شابا متعلقا بأستار الكعبة وهو يقول

يا من يجيب دعا المضطر في الظلم * يا كاشف الضر والبلوى مع السقم
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا * وأنت يا حي يا قيوم لم تنم
أدعوك ربي حزينا هائما قلقا * فارحم بكائي بحق البيت والحرم
ان كان جودك لا يرجوه ذو سفه * فمن يجود على العاصين بالكرم

ثم بكى بكاء شديدا وأنشد يقول

ألا أيها المقصود في كل حاجة * شكوت اليك الضر فارحم شكايتي
ألا يا رجائي أنت تكشف كربتي * فهب لي ذنوبي كلها واقض حاجتي
أتيت بأعمال قباح رديئة * وما في الورى عبد جنى كجنايتي
أتحرقني بالنار يا غاية المنى * فأين رجائي ثم أين مخافتي

ثم سقط على الأرض مغشيا عليه فدنوت منه فاذا هو زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله

عنهم

لها عمرو بن العاص كفي أيتها العجوز الضالة واقصري عن قولك مع ذهاب عقلك اذ لا تجوز شهادتك وحدك فقالت له وأنت يا ابن الباغية تتكلم وأمك كانت أشهر بغي بمكة وأرخصهن أجرة وادعاك خمسة نفر كلهم يزعم انك ابنه فسئلت أمك عن ذلك فقالت كلهم أتاني فانظروا أشبههم به فألحقوه به فغلب عليك شبه العاص بن وائل فلحقت به فقال مروان كفي أيتها العجوز واقصدي ما جئت له فقالت وأنت أيضا يا ابن الزرقاء تتكلم ثم التفتت الى معاوية فقالت والله ما جرأ هؤلاء غيرك وأمك القائلة في قتل حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم

نحن جزيناكم بيوم بدر
والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان لي عن عتبة من صبر
ولا أخي وعمه وبكر
سكنت وحشيا غليل صدري
فشكر وحشي على دهري
حتى ترم أعظمي في قبري

(فأجابتها ابنة عمي بقولها)

خزيت في بدر وغير بدر
يا بنت جبار عظيم الكفر

فقال معاوية عفا الله عما سلف يا خالة هات حاجتك فقالت ما لي اليك حاجة وخرجت عنه وهذه العبارة بنصها منقولة من العقد لابن عبد ربه رحمه الله تعالى * وحكى صاحب العقد أيضا * قال قدم عقيل ابن أبي طالب على معاوية فأكرمه وقربه وقضى عنه دينه ثم قال له في بعض الايام يا عقيل أنا خير لك من أخيك علي قال صدقت أخي آثر دينه على دنياه وأنت آثرت دنياك على دينك فأنت خير لي من أخي وأخي خير لنفسه منك لنفسك (ودخل) عقيل أيضا على معاوية وقد كف بصره فأقعده على سريره معه ثم قال له أنتم معاشر بني هاشم تصابون في أبصاركم فقال عقيل وأنتم معاشر

عنهم أجمعين فرفعت رأسه فى حجرى و بكيت فقطرت دمعة من دموعى على خده ففتح عينيه وقال من هـذا الذى يهجم علينا قلت عبيدك الأصمعى سيدى ماهذا البكاء والجزع وأنت من أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة أليس الله تعالى يقول انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهـل البيت ويطهركم تطهـيرا فقال هيهات هيهات يا أصمعى ان الله خلق الجنة لمن أطاعه ولو كان عبدا حبشيا وخلق النار لمن عصاه ولو كان حرا قرشيا أليس الله تعالى يقول فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون والفخر وان نهت عنه الأخبار النبوية ومجته العقول الذكية الا أن العرب كانت تفتخر بما فيها من البيان طبعا لا تكلفا وجبلة لا تعلما ولم يكن لهـم من ينطق بفضلهم الاهم ولا ينبه على مناقبهـم سواهم وكان كعب بن زهير اذا أنشد شعرا قال لنفسـه أحسنت وجاوزت والله الاحسان فيقال له أتحلف على شعرك فيقول نعم لأنى أبصر به منكم وكان الـكميت اذا قال قصيدة صنع لها خطبـة فى الثناء عليها و يقول عنـد انشادها أى علم بين جنبى وأى لسان بين فكى وقال الجاحظ لولم يصف الطبيب مصالح دوائه للعالجين ما وجد له طالب ولما أبدع ابن المقفع فى رسالتـه التى سماها باليتيمة تنزيهها عن المثل سكنت من النفوس موضع ارادته من تعظيمها ولو لم ينحلها عن هـذا الاسم لكانت كسائر رسائله وسنذكر فى هذا الباب ان شاء الله تعالى شيأ من نظم البلغاء ونثرهم فى الافتخار ومن تفاخر منهم بعون الله وفضله وتيسيره * قال أبو بكر الهذلى سايرت المنصور فعرض لنا رجل على ناقة حمراء تطوى الفلاة وعليه جبة خز وعمامة عدنية وفى يده سوط يكاد يمس الأرض فلما رآه المنصور أمرنى باحضاره فدعوته وسألته عن نسبه و بلاده وعن قومه وعشيرته وعن ولاة الصدقة فأحسن الجواب فأعجبه ما رأى منه فقال أنشدنى شعرا فانشده شعر الأوس بن حجر وغيره من الشعراء من بنى عمرو بن تميم وحدثه حتى أتى على بيت شعر لطريف بن تميم وهو قوله

ان الامور اذا أوردتها صدرت * ان الأمور لها ورد واصدار

فقال و يحك ما كان طريف فيكم حيث قال هذا البيت قال كان أثقل العرب على عدوه وطأة وأقراهـم لضيفه وأحوطهم من وراء جاره اجتمعت العرب بعكاظ فكلهم أقروا له بهـذه الخـلال فقال له والله يا أخا بنى تميم لقد أحسنت اذ وصفت صاحبك ولـكنى أحق ببيته منه ومن شعر أبى الطمحان

وانى من القـوم الذين هم هـــم * اذا مات منهم سيد قام صاحبه
نجوم سماء كلما غاب كوكب * بدا كوكب تأوى اليه كواكبه
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم * دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه
ومازال فيهـم حيث كان مسودا * تسـير المنايا حيث سارت ركائبه

ولما قدم معاوية المدينة صـعد المنبر فخطب وقال من ابن على رضى الله تعالى عنه فقام الحسن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ان الله عز وجل لم يبعث بعثا الا جعل له عدوّا من المجرمين فانا ابن على وأنت ابن صخر وأمك هنـد وأمى فاطمة وجدتك قيلة وجدتى خديجة فلعن الله ألأمنا حسـبا وأخملنا ذكرا وأعظمنا كفرا وأشدنا نفاقا فصاح أهل المسجد آمين آمين فقطع معاوية خطبته ودخل منزله * وروى أن معاوية خرج حاجا فمر بالمدينة ففرق على أهلها أموالا ولم يحضر الحسـن بن على رضى الله عنهـما فلما خرج من المدينة اعترضه الحسـن بن على فقال له معاوية مرحبا برجل تركنا حتى نفد ما عندنا وتعرض لنا ليبخلنا فقال له الحسن ولم ينفد ما عندك وخراج الدنيا يجبى اليك فقال معاوية انى قد أمرت لك بمثل ما أمرت به لأهـل المدينة وأنا ابن هنـد فقال الحسن قد رددته عليك وأنا ابن فاطمة * ودخل الحسـين يوما على يزيد بن معاوية فجعل يزيد يفتخر و يقول نحن ونحن ولنا من الفخر والشرف كذا وكذا والحسين ساكت فأذن المؤذن فلما قال أشهد أن محمدا رسول الله قال الحسين يا يزيد جدمن هذا فخجل يزيد ولم يرد جوابا وفى ذلك يقول على بن محمد بن جعفر

لقد فاخرتنا من قريش عصابة * بمط خدود وامتداد أصابع
فلما تنازعنا الفخار قضى لنا * عليهم بما نهوى نداء الصوامع
ترانا سكوتا والشهيد بفضلنا * عليهم جهير الصوت من كل جامع

(وله أيضا)

انى وقومى من أنساب قومهـم * كمسجد الخيف من بحبوحة الخيف
ما علق السيف منا بابن عاشرة * الا وهمته أمضى من السـيف

بنى أميـــة تصابون فى بصائركم (ودخـل) عليه يوما فقال معاوية لاصحابه هذا عقيل عمه أبو لهب فقال عقيل وهذا معاوية عمته حمالة الحطب ثم قال يا معاوية اذا دخلت النار فاعـدل ذات اليسار فانك ستجـد عمى أبا لهب مفترشا عمتك حمالة الحطب فانظر أيهما خير الفاعل أم المفـعول به (وقال له يوما) ما أبـين الشـبق فى رجالـكم يا بنى هاشم قال لـكنه فى نسائـكم أبين يا بنى أميـة (وقال الجاحظ) اجتمـعت يوما بنـو هاشم عنـد معاوية فاقبل عليهـم فقال يا بنى هاشم والله ان خيرى لـكم لممنوح وان بابى لـكم لمفتوح وقد نظرت فى أمرى وأمركم فرأيت أمرا مختلفا انكم ترون انكم أحق منى بما فى يدى فاذا أعطيتكم عطيـة فيها قضاء حقوقكم قلتم أعطانا دون حقنا وقصر بنا عن قدرنا هـذا مع انصاف قائلكم واسعاف سائلكم فاقبل عليـه ابن عباس رضى الله عنهما وكان جريئا عليـه فقال والله ما منحتنا شيأ حتى سألناه ولا فتحت لنا بابا حتى قرعناه وأما هذا المال فمالك منـه الا ما لرجل واحـد من المسلمين ولولا حقنا فى هذا المال لم يأتك منا أثر تحمله خف ولا حافر وأما حربنا اياك بصفين فعلى تركك الحق وادعائك الباطل أكفاك أم أزيدك قال كفانى (وقال الشعبى) قال ابن الزبير يوما لابن عباس قاتلت أم المؤمنين وحوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أما أم المؤمنين فأنت أخرجتها أنت وأبوك وخالك وبنا سميت أم المؤمنين وكنا لها خير بنين وقاتلت أنت وأبوك عليا فان كان مؤمنا ضللتم بقتال المؤمنين وان كان على كافر افقد بؤتم بسخط من الله بفراركم من الزحف (وذكر صاحب العقد) ان عبد الله ابن الزبير تزوج امرأة من فزارة يقال

وتفاخر العباس بن عبد المطلب وطلحة بن شيبة وعلى بن أبى طالب فقال العباس أنا صاحب السقاية والقائم عليها وقال طلحة أنا خادم البيت ومعى مفتاحه فقال على ما أدرى ما تقولان أنا صليت الى هذه القبلة قبلكما بستة أشهر فنزلت أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر الآية * وتفاخر رجلان على عهد موسى عليه السلام فقال أحدهما أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة آباء مشركين فقال الآخر أنا ابن فلان ولولا أنه مسلم ماذكرته فأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام أما الذى عد تسعة آباء مشركين فحق على الله أن يجعل عاشرهم فى النار والذى انتسب الى أب مسلم فحق على الله أن يجعله مع أبيه المسلم فى الجنة قال سلمان الفارسى

أبى الاسلام لا أب لى سواه * اذا افتخروا بقيس أو تميم

وتفاخر جرير والفرزدق عند سليمان بن عبد الملك فقال الفرزدق أنا ابن محيي الموتى فأنكر سليمان قوله فقال يا أمير المؤمنين قال الله تعالى ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا وجدى فدى الموؤدات فاستحياهن فقال سليمان انك مع شعرك لفقيه وكان صعصعة جد الفرزدق أول من فدى الموؤدات وللعباس ابن عبد المطلب

ان القبائل من قريش كلها * ليرون أنا هام أهل الأبطح
وترى لنا فضلا على ساداتها * فضل المنار على الطريق الأوضح

وكتب الحكم بن عبد الرحمن المروانى من الاندلس الى صاحب مصر يفتخر

ألسنا بنى مروان كيف تبدلت * بنا الحال أو دارت علينا الدوائر
اذا ولد المولود منا تهللت * له الأرض واهتزت اليه المنابر

وكتب اليه كتابا يهجوه فيه ويسبه فكتب اليه صاحب مصر أما بعد فانك عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لاجبناك والسلام * وكان أبو العباس السفاح يعجبه السمر ومنازعة الرجال بعضهم بعضا فحضر عنده ذات ليلة ابراهيم بن مخرمة الكندى وخالد بن صفوان بن الأهتم فخاضوا فى الحديث وتذاكروا مضر واليمن فقال ابراهيم ابن مخرمة يا أمير المؤمنين ان أهل اليمن هم العرب الذين دانت لهم الدنيا ولم يزالوا ملوكا ورثوا الملك كابرا عن كابر وآخرا عن أول منهم النعمان والمنذر ومنهم عياض صاحب البحرين ومنهم من كان يأخذ كل سفينة غصبا وليس من شئ له خطر الا اليهم ينسب ان سئلوا أعطوا وان نزل بهم ضيف قروه فهم العرب العاربة وغيرهم المتعربة فقال أبو العباس ما أظن التميمى رضى بقولك ثم قال ما تقول أنت يا خالد قال ان أذن لى أمير المؤمنين فى الكلام تكلمت قال تكلم ولا تهب أحدا قال أخطأ المقتحم بغير علم ونطق بغير صواب وكيف يكون ذلك لقوم ليس لهم ألسن فصيحة ولا لغة صحيحة نزل بها كتاب ولا جاءت بها سنة يفتخرون علينا بالنعمان والمنذر ونفتخر عليهم بخير الأنام وأكرم الكرام سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام فلله المنة به علينا وعليهم فمنا النبى المصطفى والخليفة المرتضى ولنا البيت المعمور وزمزم والحطيم والمقام والحجابة والبطحاء وما لا يحصى من المآثر ومنا الصديق والفاروق وذو النورين والرضا والولى وأسد الله وسيد الشهداء وبنا عرفوا الدين وأتاهم اليقين فمن زاحمنا زاحمناه ومن عادانا اصطلمناه ثم أقبل خالد على ابراهيم فقال ألك علم بلغة قومك قال نعم قال فما اسم العين عندكم قال الجحمة قال فما اسم السن قال الميدن قال فما اسم الأذن قال الصنارة قال فما اسم الأصابع قال الشناتر قال فما اسم الذئب قال الكنع قال أفعالم أنت بكتاب الله عز وجل قال نعم قال فان الله تعالى يقول انا أنزلناه قرآنا عربيا وقال تعالى بلسان عربى مبين وقال تعالى وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه فنحن العرب والقرآن بلساننا أنزل ألم تر أن الله تعالى قال والعين بالعين ولم يقل والجحمة بالجحمة وقال تعالى والسن بالسن ولم يقل والميدن بالميدن وقال تعالى والاذن بالاذن ولم يقل والصنارة بالصنارة وقال تعالى يجعلون أصابعهم فى آذانهم ولم يقل شناترهم فى صناراتهم وقال تعالى فأكله الذئب ولم يقل فأكله الكنع ثم قال لابراهيم انى أسألك عن أربع ان أقررت بهن قهرت وان جحدتهن كفرت قال وما هن قال الرسول منا أو منكم قال منكم قال فالقرآن أنزل علينا أو عليكم قال عليكم قال فالمنبر فينا أو فيكم قال فيكم قال فالبيت لنا أو لكم قال لكم قال فاذهب فما كان بعد هؤلاء فهو لكم بل ما أنتم الا سائس قرد أو دابغ

لها أم عمرو فلما دخل بها قال هل تدرين من معك قالت نعم عبد الله ابن الزبير بن العوام بن خويلد قال ليس هذا قالت فأى شئ تريد قال معك من أصبح فى قريش بمنزلة الرأس من الجسد لا بل العينين من الرأس قالت أما والله لو أن بعض الهاشميين حضرك قال خلافا لقولك قال فالطعام والشراب على حرام حتى أحضر الهاشميين وغيرهم ولا يستطيعون لذلك انكارا قالت ان أطعتنى لم تفعل فأنت أعلم بشأنك فخرج من المجلس فاذا بحلقة فيها جماعة من قريش وفيها من بنى هاشم عبد الله بن عباس رضى الله عنه وعبد الله بن الحرث بن عبد المطلب فقال لهم ابن الزبير انى أحب ان تنطلقوا معى الى منزلى فقام القوم بأجمعهم حتى وقفوا على باب بيته فقال ابن الزبير يا هذه اطرحى عليك سترك ثم أذن للقوم فلما أخذوا مجالسهم دعا ابن الزبير بالمائدة فتغدى القوم فلما فرغوا قال ابن الزبير انما جمعتكم لحديث ردته على صاحبة هذا الستر وزعمت ان لو كان بعض بنى هاشم حاضرا ما أقر لى بما قلت وقد حضرتم جميعا والحديث الذى ردته على قلت لها ليلة الدخول بها وأنا معها فى خدرها ان معك من أصبح فى قريش بمنزلة الرأس من الجسد لا بل العينين من الرأس فردت على مقالى فقال ابن عباس ان شئت أقول وان شئت أكف قال لا بل قل وما عسيت ان تقول ألست تعلم أن الزبير حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وان أمى أسماء بنت أبى بكر الصديق ذات النطاقين وان خديجة سيدة نساء أهل الجنة عمتى وان صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم جدتى وان عائشة أم المؤمنين خالتى فهل تستطيع لهذا انكارا يا ابن عباس قال ابن عباس

جلد أو ناسج برد قال فضحك أبو العباس وأقر لها الدوحيا هما جميعا *وقال بشار بن برد يفتخر

اذا نحن صلنا صولة مضرية * هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
اذا ما أعرنا سيدا من قبيلة * ذرا منبر صلى علينا وسلما

(وقال السموأل بن عادياء)

اذا المرء لم يدنس باللؤم عرضه * فكل رداء يرتديه جميل
وان هو لم يحمل على النفس ضيمها * فليس الى حسن الثناء سبيل
تعيرنا انا قليل عديدنا * فقلت لها ان الكرام قليل
وما قل من كانت بقاياه مثلنا * شباب تسامى للعلا وكهول
وما ضرنا أنا قليل وجارنا * عزيز وجار الاكثرين ذليل
لنا جبل يحتله من نجيره * منيع يرد الطرف وهو كليل
رسا أصله تحت الثرى وسما به * الى النجم فرع لا يزال طويل
وانا أناس لا نرى القتل سبة * اذا ما رأته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا * وتكرهه آجالهم فتطول
وما مات منا سيد حتف أنفه * ولا ضل منا حيث كان قتيل
تسيل على حد الظبات نفوسنا * وليست على غير الظبات تسيل
ونحن كماء المزن ما في نصابنا * كهام ولا فينا يعد بخيل
وننكر ان شئنا على الناس قولهم * ولا ينكرون القول حين نقول
اذا سيد منا خلا قام سيد * قوول بما قال الكرام فعول
وما خمدت نار لنا دون طارق * ولا ذمنا في النازلين نزيل
وأيامنا مشهورة في عدونا * لها غرر مشهورة وحجول
وأسيافنا في كل شرق ومغرب * بها من قراع الدارعين فلول
معودة أن لا تسل نصالها * فتغمد حتى يستباح قتيل
سلي ان جهلت الناس عنا وعنهم * فليس سواء عالم وجهول
فان بني الريان قطب لقومهم * تدور رحاهم حولهم وتجول

(ولما) قدم وفد تميم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعهم خطيبهم وشاعرهم خطب خطيبهم فافتخر فلما سكت أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس أن يخطب بمعنى ما خطب به خطيبهم فخطب ثابت بن قيس فأحسن ثم قام شاعرهم وهو الزبرقان بن بدر فقال

نحن الملوك فلا حي يفاخرنا * فينا العلاء وفينا تنصب البيع
ونحن نطعمهم في القحط ما أكلوا * من العبيط اذا لم يؤنس القزع
وننحر الكوم عبطا في أرومتنا * للنازلين اذا ما أنزلوا شبعوا
تلك المكارم حزناها مقارعة * اذا الكرام على أمثالها اقترعوا

ثم جلس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت قم فقام فقال

ان الذوائب من فهر واخوتهم * قد بينوا سننا للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته * تقوى الاله وبالأمر الذي شرعوا
قوم اذا حاربوا ضروا عدوهم * أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة * ان الخلائق فاعلم شرها البدع
لو كان في الناس سباقون بعدهم * فكل سبق لادنى سبقهم تبع
لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم * عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا
ولا يضنون عن جار بفضلهم * ولا يمسهم في مطمع طمع
خذ منهم ما أتوا عفوا اذا عطفوا * ولا يكن همك الأمر الذي منعوا
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم * اذا تفرقت الأهواء والشيع

فقال التميميون عند ذلك وربكم ان خطيب القوم أخطب من خطيبنا وان شاعرهم أشعر من شاعرنا وما انتصفنا ولا قاربنا وقال شاعر من بني تميم

أيبغي آل شداد علينا * وما يرعى لشداد فصيل
فان تغمد مناصلنا نجدها * غلاظا في أنامل من يصول

(وقال سالم بن أبي وابصة)

عليك بالقصد فيما أنت فاعله * ان التخلق يأتي دونه الخلق
وموقف مثل حد السيف قمت به * أحمي الذمار وترميني به الحدق
فما زلقت ولا أبديت فاحشة * اذا الرجال على أمثالها زلقوا

(وأما التفاضل والتفاوت)

لا ولكن ذكرت شرفا شريفا وفخرا عظيما غير أنك نلت ذلك كله وأنت تفاخر من بفخره فخرت وتسامي من بفضله سموت قال ابن الزبير وكيف ذلك قال لم تذكر مفخرا الا برسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن أهل بيته وأقرب اليه وأولى بالفخر به قال ابن الزبير فانا أفاخرك بما كان قبل النبي صلى الله عليه وسلم فقال ابن عباس لقد أنصفت أسائلكم أيها الحضور أعبد المطلب كان أشرف في قريش أم خويلد قالوا عبد المطلب قال أسائلكم أهاشم كان أشرف في قريش أم أمية قالوا بل هاشم قال فاسألكم بالله أعبد مناف كان أشرف أم عبد العزى قالوا اللهم عبد مناف فأنشد ابن عباس يقول

تفاخرني يا ابن الزبير وقد مضى
عليك رسول الله لا قول هازل
فلو غيرنا يا ابن الزبير فخرته
ولكن بنا ساميت شمس الأصائل

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ما افترقت فرقتان الا وكنت في خيرهما فقد فارقك من لدن قصي بن كلاب فنحن في فرقة الخير أولا ونحن في فرقة الخير آخرا فان قلت نعم خصمت وان قلت لا كفرت قال فضحك بعض القوم وقالت امرأة من خلف الستر أما والله لقد نهيته عن هذا المجلس فأبى الا ماترى فقال ابن عباس مه أيتها المرأة اقنعي ببعلك وأخذ القوم بيد ابن عباس فقالوا انهض أيها الرجل فقد أفحمته في منزله غير مرة فنهض ابن عباس وهو يقول

ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا
فلو ترك القطا ليلا لناما

(وحكى) صاحب العقد قال بينما معاوية جالس وعنده وجوه الناس اذ دخل رجل من أهل الشام فقام خطيبا وقال لعن الله

فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا نظر لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل قال يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي لانهما كانا من خيار الصحابة وأبواهما أعدى عدو لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ومن كلام علي رضي الله عنه لمعاوية رضي الله عنه أما قولك انا بنو عبد مناف فكذلك نحن ولكن ليس أمية كهاشم ولا حرب كعبد المطلب ولا أبو سفيان كأبي طالب وقال أحمد بن سهل الرجال ثلاثة سابق ولاحق وماحق فالسابق الذي سبق بفضله واللاحق الذي لحق بأبيه في شرفه والماحق الذي محق شرف آبائه * وقيل ان عائشة بنت عثمان كفلت أبا الزناد صاحب الحديث وأشعب الطماع وربتهما قال أشعب فكنت أسفل وكان يعلو حتى بلغت أنا وهو هاتين الغايتين وقال أبو العواذل زكريا بن هرون

علي وعبد الله بينهما أب * وشتان ما بين الطبائع والفعل
ألم تر عبد الله يلحى على الندى * عليا ويلحاه علي على البخل

وبج أبو الأسود الدؤلي بامرأته وكانت شابة جميلة فعرض لها عمر بن أبي ربيعة فغازلها فأخبرت أبا الأسود فأتاه فقال

واني ليهاني عن الجهل والخنى * وعن شتم أقوام خلائق أربع
حياء واسلام وتقوى وانني * كريم ومثلي من يضر وينفع
فشتان ما بيني وبينك انني * على كل حال أستقيم وتضلع

(وقال ربيعة الرقي)

لشتان ما بين اليزيدين في الندى * يزيد سليم والاعز بن حاتم
يزيد سليم سالم المال والفتى * فتى الأزد للاموال غير مسالم
فهم الفتى الأزدي اتلاف ماله * وهم الفتى القيسي جمع الدراهم
فلا يحسب القيسي اني هجوته * ولكنني فضلت أهل المكارم

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر في أخيه الحسين

يقول أنا الكبير فعظموني * الا ثكلتك أمك من كبير
اذا كان الصغير أعم نفعا * وأجلد عند نائبة الامور
ولم يأت الكبير بيوم خير * فما فضل الكبير على الصغير

والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباب التاسع والعشرون في الشرف والسودد وعلو الهمة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من رزقه الله مالا فبذل معروفه وكف أذاه فذلك السيد وقيل لقيس بن عاصم بم سدت قومك قال لم أخاصم أحدا الا تركت للصلح موضعا وقال سعيد بن العاص ما شاتمت رجلا مذ كنت رجلا لاني لم أشاتم الا أحد رجلين اما كريم فانا أحق أن أجله واما لئيم فانا أولى أن أرفع نفسي عنه وقالوا من نعت السيد أن يكون يملأ العين جمالا والسمع مقالا وقيل قدم وفد من العرب على معاوية وفيهم الأحنف بن قيس فقال الحاجب ان أمير المؤمنين يعزم عليكم أن لا يتكلم منكم أحد الا لنفسه فلما وصلوا اليه قال الأحنف لولا عزم أمير المؤمنين لأخبرته أن رادفة ردفت ونازلة نزلت ونائبة نابت والكل بهم حاجة الى المعروف من أمير المؤمنين فقال له معاوية حسبك يا أبا بحر فقد كفيت الشاهد والغائب * وقال رجل للأحنف بم سدت قومك وما أنت بأشرفهم بيتا ولا أصبحهم وجها ولا أحسنهم خلقا فقال بخلاف ما فيك قال وما ذاك قال تركي من أمرك ما لا يعنيني كما عناك من أمري ما لا يعنيك وقيل السيد من يكون للاولياء كالغيث الغادي وعلى الاعداء كالليث العادي * وكان سبب ارتفاع عرابة الاوسي وسودده أنه قدم من سفر فجمعه والشماخ ابن ضرار المزني الطريق فتحادثا فقال له عرابة ما الذي أقدمك المدينة يا شماخ قال قدمتها لامتار منها فملأ له عرابة رواحله برا وتمرا وأتحفه بتحف غير ذلك فأنشد يقول

رأيت عرابة الاوسي يسمو * الى الخيرات منقطع القرين
اذا ما راية رفعت لمجد * تلقاها عرابة باليمين

وأما علو الهمة فهو أصل الرياسة

فمن علت همته وشرفت نفسه عمارة بن حمزة قيل انه دخل يوما على المنصور وقعد في مجلسه فقام رجل وقال مظلوم يا أمير المؤمنين قال من ظلمك قال عمارة بن حمزة غصبني ضيعتي فقال المنصور يا عمارة قم فاقعد مع

عليا فأطرق الناس وفيهم الأحنف فقال الأحنف يا أمير المؤمنين ان هذا القائل ان علم ان رضاك في لعن المرسلين لعنهم فاتق الله ودع عنك عليا فقد لقي ربه وأفرد بقبره وخلا بعمله وكان والله مبرورا في سبقه طاهرا الثوب ميمون النقيبة عظيم المصيبة فقال له معاوية يا أحنف لقد أغضيت العين على القذى أما والله لتصعدن المنبر وتلعن عليا طوعا أو كرها فقال ان تعفني خير لك وان تجبرني على ذلك فوالله لا تجدني شفتاي به أبدا قال وما أنت قائل يا أحنف قال أحمد الله وأصلي على نبيه ثم أقول ان أمير المؤمنين أمرني أن ألعن عليا ومعاوية وعلي اقتتلا واختلفا وادعى كل واحد منهما أنه مبغي عليه فاذا دعوت فأمنوا رحمكم الله اللهم العن أنت وملائكتك وأنبياؤك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه والعن الفئة الباغية أمنوا رحمكم الله يا معاوية لا أزيد على ذلك ولا أنقص ولو كان فيه ذهاب نفسي فقال معاوية اذا أعفيتك انتهى (وقال معاوية) لعقيل ان عليا قطعك ووصلتك ولا يرضيني منك الا أن تلعنه على المنبر قال افعل فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال ان أمير المؤمنين أمرني أن ألعن عليا فالعنوه عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ثم نزل فقال له معاوية يا عقيل انك لم تبين من المراد منا قال والله لا زدت حرفا والكلام راجع الى نية المتكلم (ومن غريب المنقول) ما نقل عن المنصور أنه وعد الهذلي بجائزة ونسي فحجا معا ومرا في المدينة النبوية ببيت عاتكة فقال الهذلي يا أمير المؤمنين هذا بيت عاتكة الذي يقول فيه الأحوص

خصمك فقال ما هو لي بخصم ان كانت الضيعة له فلست أنازعه فيها وان كانت لي فقد وهبتها له ولا أقوم من مقام شرفني به أمير المؤمنين ورفعني وأقعد في أدنى منه لاجل ضيعة * وتحدث السفاح هو وأم سلمة يوما في نزاهة نفس عمارة وكبره فقالت له ادع به وأنا أهب له سبحتي هذه فان ثمنها خمسون ألف دينار فان هو قبلها علمنا أنه غير نزه النفس فوجه اليه فحضر فحادثته ساعة ثم رمت اليه بالسبحة وقالت هي من الطرف وهي لك فجعلها عمارة بين يديه ثم قام وتركها فقالت لعله نسيها فبعثت بها اليه مع خادم فقال للخادم هي لك فرجع الخادم فقال قد وهبها لي فأعطت أم سلمة للخادم ألف دينار واستعادتها منه * وأهدى عبيد الله بن السري الى عبد الله بن طاهر لما ولي مصر مائة وصيف مع كل وصيف ألف دينار ووجه اليه بذلك ليلا فرده وكتب اليه لو قبلت هديتك ليلا لقبلتها نهارا فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون (وكان) سبب فتح المعتصم عمورية ان امرأة من الثغر سبيت فنادت وامحمداه وامعتصماه فبلغه الخبر فركب لوقته وتبعه الجيش فلما فتحها قال لبيك أيتها المنادية * وكان سعيد بن عمرو بن العاص ذا نخوة وهمة قيل له في مرضه ان المريض يستريح الى الأنين والى شرح ما به الى الطبيب فقال أما الأنين فهو جزع وعار والله لا يسمع الله مني أنينا فأكون عنده جزوعا وأما وصف ما بي الى الطبيب فوالله لا يحكم غير الله في نفسي ان شاء أمسكها وان شاء قبضها * ومن كبر النفس ما روي عن قيس بن زهير أنه أصابته الفاقة واحتاج فكان يأكل الحنظل حتى قتله ولم يخبر أحدا بحاجته * ومن الشرف والرياسة حفظ الجوار وحمى الذمار وكانت العرب ترى ذلك دينا تدعو اليه وحقا واجبا تحافظ عليه وكان أبو سفيان بن حرب اذا نزل به جار قال يا هذا انك اخترتني جارا واخترت داري دارا فجناية يدك على دونك وان جنت عليك يد فاحتكم حكم الصبي على أهله * وكان الفرزدق يجير من عاذ بقبر أبيه غالب بن صعصعة فمن استجار بقبر أبيه فأجاره امرأة من بني جعفر بن كلاب خافت لما هجا الفرزدق بني جعفر أن يسميها وينسبها فعاذت بقبر أبيه فلم يذكر لها اسما ولا نسبا ولكن قال

عجوز تصلي الخمس عاذت بغالب * فلا والذي عاذت به لا أضيرها

وقال مروان بن أبي حفصة

هم يمنعون الجار حتى كأنما * لجارهم بين السماكين منزل

(وقال ابن نباتة)

ولو يكون سواد الشعر في ذمم * ما كان للشيب سلطان على القمم

(وقيل) ان الحجاج أخذ يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وعذبه واستأصل موجوده وسجنه فتوصل يزيد بحسن تلطفه وأرغب السجان واستماله وهرب هو والسجان وقصدا الشام الى سليمان بن عبد الملك بن مروان وكان الخليفة في ذلك الوقت الوليد بن عبد الملك فلما وصل يزيد بن المهلب الى سليمان بن عبد الملك أكرمه وأحسن اليه وأقامه عنده فكتب الحجاج الى الوليد يعلمه ان يزيد هرب من السجن وانه عند سليمان بن عبد الملك أخي أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين وان أمير المؤمنين أعلى رأيا فكتب الوليد الى أخيه سليمان بذلك فكتب سليمان الى أخيه يقول يا أمير المؤمنين اني ما أجرت يزيد بن المهلب الا لأنه هو وأبوه واخوته من صنائعنا قديما وحديثا ولم أجر عدوا لأمير المؤمنين وقد كان الحجاج قصده وعذبه وأغرمه أربعة آلاف ألف درهم ظلما ثم طالبه بعدها بثلاثة آلاف ألف درهم وقد صار الي واستجار بي فأجرته وأنا أغرم عنه هذه الثلاثة آلاف ألف درهم فان رأى أمير المؤمنين أن لا يخزيني في ضيفي فليفعل فانه أهل الفضل والكرم فكتب اليه الوليد انه لا بد أن ترسل الي يزيد مغلولا مقيدا فلما ورد ذلك على سليمان أحضر ولده أيوب فقيده ودعا يزيد بن المهلب فقيده ثم شد قيد هذا الى قيد هذا بسلسلة وغلهما جميعا بغلين وأرسلهما الى أخيه الوليد وكتب اليه أما بعد يا أمير المؤمنين فقد وجهت اليك يزيد وابن أخيك أيوب بن سليمان ولقد هممت أن أكون ثالثهما فان هممت يا أمير المؤمنين بقتل يزيد فبالله عليك ابدأ بأيوب من قبله ثم اجعل يزيد ثانيا واجعلني اذا شئت ثالثا والسلام فلما دخل يزيد بن المهلب وأيوب بن سليمان في سلسلة واحدة أطرق الوليد استحياء وقال لقد أسأنا الى أبي أيوب اذ بلغنا به هذا المبلغ فأخذ يزيد ليتكلم ويحتج لنفسه فقال له الوليد ما يحتاج الى كلام فقد قبلنا عذرك وعلمنا ظلم الحجاج ثم انه أحضر حدادا وأزال عنهما الحديد وأحسن اليهما ووصل أيوب بن أخيه بثلاثين ألف درهم ووصل يزيد بن المهلب بعشرين ألف درهم وردهما الى سليمان وكتب كتابا الى الحجاج يقول له لا سبيل لك على يزيد بن المهلب فاياك أن تعاودني فيه بعد اليوم فسار يزيد الى سليمان بن عبد الملك وأقام عنده في أعلى

* يا دار عاتكة التي أتغزل *

فانكر عليه أمير المؤمنين المنصور ذلك لانه تكلم من غير أن يسئل فلما رجع الخليفة نظر في القصيدة الى آخرها ليعلم ما أراد الهذلي بانشاد ذلك البيت من غير استدعاء فاذا فيها

* وأراك تفعل ما تقول وبعضهم *
* مذق اللسان يقول ما لا يفعل *

فعلم المنصور انه أشار الى هذا البيت فتذكر ما وعده به وأنجزه له واعتذر اليه من النسيان (ومثله) ما حكي ان أبا العلاء المعري كان يتعصب لأبي الطيب المتنبي فحضر يوما مجلس المرتضى فجرى ذكر أبي الطيب فهضم من جانبه المرتضى فقال أبو العلاء لو لم يكن لابي الطيب من الشعر الا قوله

لك يا منازل في القلوب منازل

لكفاه فغضب المرتضى وأمر به فسحب وأخرج وبعد اخراجه قال المرتضى هل تعلمون ما أراد بذكر البيت قالوا لا قال عنى به قول أبي الطيب في القصيدة

واذا أتتك مذمتي من ناقص
فهي الشهادة لي باني كامل

(ومثله قصة السري الرفاء مع سيف الدولة بسبب المتنبي أيضا) فان السري الرفاء كان من مداح سيف الدولة وجرى في مجلسه يوما ذكر أبي الطيب فبالغ سيف الدولة في الثناء عليه فقال له السري أشتهي أن الامير ينتخب لي قصيدة من غرر قصائده لاعارضها ويتحقق الامير بذلك انه أركب المتنبي في غير مركبه فقال له سيف الدولة على الفور عارض لنا قصيدته التي مطلعها

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي
وللحب ما لم يبق مني وما بقي

قال السري فكتبت القصيدة واعتبرتها في تلك الليلة فلم أجدها من مختارات أبي الطيب لكن رأيته يقول في آخرها عن ممدوحه

اذا شاء أن يلهو بلحية أحمق

المراتب وأرفع المنازل (وحكى) ان رجلا من الشيعة كان يسعى فى فساد الدولة فجعل المهدى لمن دل عليه أو أتى به مائة ألف درهم فأخذه رجل من بغداد فأيس من نفسه فمر به معن بن زائدة فقال له يا أبا الوليد أجرنى اجارك الله فقال معن للرجل مالك وماله فقال ان أمير المؤمنين طالبه قال خل سبيله قال لا أفعل فأمر معن غلمانه فأخذوه غصبا وأردفه بعضهم خلفه ومضى الرجل فأخبر أمير المؤمنين المهدى بالقصة فأرسل خلف معن فأحضره فلما دخل عليه قال له يا معن اتجير على قال نعم يا أمير المؤمنين قتلت فى يوم واحد فى طاعتكم خمسة آلاف رجل هذا مع أيام كثيرة تقدمت فيها طاعتى أفما ترونى أهلا أن تجيروا الى رجلا واحدا استجار بى فاستحيا المهدى وأطرق طويلا ثم رفع رأسه وقال قد أجرنا من أجرت يا أبا الوليد قال ان رأى أمير المؤمنين أن يصل من استجار بى فيكون قد أجاره وحباه قال قد أمرت له بخمسين ألف درهم فقال معن يا أمير المؤمنين ينبغى أن تكون صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية وان ذنب الرجل عظيم فان رأى أمير المؤمنين أن يجزل صلته فليفعل قال قد أمرت له بمائة ألف درهم فرجع معن الى منزله ودعا بالرجل ودفع له المال ووعظه وقال له لا تتعرض لمساخط الخلفاء وكان جعفر بن أبى طالب يقول لأبيه يا أبت انى لأستحى أن أطعم طعاما وجيرانى لا يقدرون على مثله فكان أبوه يقول انى لأرجو أن يكون فيك خلف من عبد المطلب * وسقط الجراد قريبا من بيت بعض العرب فجاء أهل الحى فقالوا نريد جارك فقال أما اذ جعلتموه جارى فوالله لا تصلون اليه وأجاره حتى طار فسمى مجير الجراد وقيل هو أبو حنبل والحكايات فى معنى ذلك كثيرة والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

* الباب الثلاثون فى الخير والصلاح وذكر السادة الصحابة وذكر الأولياء والصالحين رضى الله تعالى عنهم أجمعين *

(اعلم) ان أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على رضى الله عنهم أجمعين وفضائلهم أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر وانى والله أحبهم وأحب من يحبهم وأسأل الله أن يحيينى على محبة النبى محمد صلى الله عليه وسلم ومحبتهم وان يحشرنا فى زمرتهم وتحت ألويتهم انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير (شعر)

انى أحب أبا حفص وشيعته * كما أحب عتيقا صاحب الغار
وقد رضيت عليا قدوة علما * وما رضيت بقتل الشيخ فى الدار
كل الصحابة ساداتى ومعتقدى * فهل على بهذا القول من عار

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصبح منكم اليوم صائما فقال أبو بكر أنا يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن أطعم اليوم منكم مسكينا فقال أبو بكر أنا قال فمن عاد منكم اليوم مريضا قال أبو بكر أنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اجتمعن فى أحد الا دخل الجنة وقال صلى الله عليه وسلم لو كان بعدى نبى لكان عمر وقال له النبى صلى الله عليه وسلم والذى بعثنى بالحق بشيرا ما سلكت واديا الا سلك الشيطان واديا غيره ولما أسلم رضى الله عنه قال يا رسول الله ألسنا على الحق قال بلى قال والذى بعثك بالحق نبيا لا نعبد الله سرا بعد هذا اليوم ولما قدم عمر رضى الله عنه الشام وقف على طور سيناء فأرسل البطريق عظيمهم وقال انظر الى ملك العرب فرآه على فرس وعليه جبة صوف مرقعة مستقبل الشمس بوجهه ومخلاته فى قربوس السرج وعمر يدخل يده فيها ويخرج فلق خبز يابس يمسحها من التبن ويلوكها فوصفه للبطريق فقال لا نرى بحاربة هذا طاقة أعطوه ما شاء وأما أمير المؤمنين عثمان رضى الله تعالى عنه ففضائله كثيرة ومناقبه شهيرة فهو جامع القرآن ومن استحيت منه ملائكة الرحمن رضى الله عنه وقال جميع بن عمير دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت لها أخبرينى من كان أحب الناس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت فاطمة قلت انما أسألك عن الرجال قالت زوجها فوالله لقد كان صواما قواما ولقد سالت نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يده فردها الى فيه قلت فما حملك على ما كان فأرسلت خمارها على وجهها وبكت وقالت أمر قضى على وقال معاوية لضرار بن حمزة الكنانى صف لى عليا فاستعفى فألح عليه فقال أما اذ لا بد فانه والله كان بعيد المدى شديد القوى يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل وظلمته كان والله غزير العبرة طويل الفكرة يقلب

كفه

أراه غبارى ثم قال له الحق

فقلت والله ما أشار سيف الدولة الا الى هذا البيت (ومثله) ما حكاه ابن الجوزى فى كتاب الأذكياء وهو من الغرائب فى هذا الباب ان رجلا من طلبة العلم قعد على جسر بغداد يتنزه فأقبلت امرأة بارعة فى الجمال من جهة الرصافة الى الجانب الغربى فاستقبلها شاب فقال لها رحم الله على بن الجهم فقالت المرأة رحم الله أبا العلاء المعرى وما وقفا بل سارا مشرقا ومغربا قال الرجل فتبعت المرأة وقلت والله ان لم تقولى لى ما أراد بابن الجهم فضحتك قالت أراد به قوله

عيون المها بين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

* وعنيت أنا بأبى العلاء قوله

فيا دارها بالخيف ان مزارها
قريب ولكن دون ذلك أهوال

(ومثله) ما هو منقول عن الامام الحافظ فتح الدين أبى الفتح محمد بن محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمرى أن الشيخ بهاء الدين بن النحاس رحمه الله دخل الى الجامع الأزهر فوجد أبا الحسين بن الجزار جالسا والى جانبه مليح ففرق بينهما وصلى ركعتين ولما فرغ قال لأبى الحسين ما أردت الا قول ابن سناء الملك فقال أبو الحسين الجزار وأنا تفاءلت بقول صاحبنا السراج الوراق أما مراد الشيخ بهاء الدين فهو اشارة الى قول ابن سناء الملك

أنا فى مقعد صدق
بين قواد وعاق

وأما مراد أبى الحسين من قول السراج الوراق فهو

ومهفهف راض الابى
فقاده سلس القياد
لما توسط بيننا
جرت الأمور على السداد

فبلغ كل منهما ما أراد من صاحبه ولم يشعر أحد بمراد الاثنين غيرهما (قلت) وبالنسبة الى هذا الذكاء المفرط

كفه و يعاتب نفسه يعجبه من اللباس ماقصر ومن الطعام ماخشن وكان والله يجيبنا اذا سألناه و يأتينا اذا دعوناه ونحن والله مع تقريبه لناوقربه منا لا نكلمه هيبة له يعظم أهل الدين و يحب المساكين لا يطمع القوى فى باطله ولا ييأس الضعيف من عدله فاشهد الله لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه وقد مثل فى محرابه قابضا لحيته يتململ تململ الخائف و يبكى بكاء الحزين فكأنى الآن أسمعه يقول يادنيا الى تعرضت أم الى تشوقت هيهات هيهات غرى غيرى لقد أبنتك ثلاثا لارجعة لى فيك فعمرك قصير وعيشك حقير وخطرك كبير آه من قلة الزاد ووحشة الطريق قال فوكفت دموع معاوية حتى ماعلكها على لحيته وهو يمسحها وقد اختنق القوم بالبكاء وقال رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك فكيف حزنك عليه ياضرار قال حزنى عليه والله حزن من ذبح ولدها فى حجرها فلا ترقأ عبرتها ولا تسكن حيرتها ثم قام فخرج * وقيل أول من سل سيفا فى سبيل الله تعالى الزبير بن العوام رضى الله عنه وذلك أنه صاح على أهل مكة ليلا صائح فقال قتل محمد فخرج متجردا وسيفه معه صلتا فتلقاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال مالك يازبير قال سمعت أنك قتلت قال فماذا أردت أن تصنع قال أردت والله أن أستعرض على أهل مكة وروى أخبط بسيفى من قدرت عليه فضمه رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه وأعطاه ازاره فاستتر به وقال له أنت حوارى ودعا له * قال الأوزاعى كان للزبير ألف مملوك يؤدون الضريبة لا يدخل بيت ماله منها درهم بل كان يتصدق بها وباع داره بستمائة ألف درهم فقيل له يا أبا عبد الله غبنت قال كلا والله انى لم أغبن أشهدكم أنها فى سبيل الله تعالى وهبط جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد فقال من حملك على ظهره وكان حمله على ظهره طلحة حتى استقل على الصخرة قال طلحة قال أقرئه السلام وأعلمه انى لا أراه يوم القيامة فى هول من أهوالها الا استنقذته منه ومن هذا الذى عن يمينك قال المقداد بن الأسود قال ان الله يحبه و يأمرك أن تحبه ومن هذا الذى بين يديك يتقى عنك قال عمار بن ياسر قال بشره بالجنة حرمت النار على عمار * ومر أبو ذر على النبى صلى الله عليه وسلم ومعه جبريل عليه السلام فى صورة دحية الكلبى فلم يسلم فقال جبريل هذا أبو ذر لو سلم لرددنا عليه فقال أتعرفه يا جبريل قال والذى بعثك بالحق نبيا لهو فى ملكوت السموات السبع أشهر منه فى الأرض قال بم نال هذه المنزلة قال بزهده فى هذه الحطام الفانية وقال ابن عمر رضى الله عنهما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله ليدفع بالمسلم الصالح عن ألف بيت من جيرانه البلاء ثم قرأ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض الآية وقال أبو بكر السفاح لأبى بكر الهذلى بم بلغ الحسن ما بلغ قال جمع كتاب الله تعالى وهو ابن اثنتى عشرة سنة لم يجاوز سورة الى غيرها حتى يعرف تأويلها ولم يقلب درهما قط فى تجارة ولم يل عملا لسلطان ولم يأمر بشئ حتى يفعله ولم ينه عن شئ حتى يدعه قال السفاح بهذا بلغ وقال الجاحظ كان الحسن يستثنى من كل غاية فيقال فلان أزهد الناس الا الحسن وأفقه الناس الا الحسن وأفصح الناس الا الحسن وأخطب الناس الا الحسن وقال بعضهم كان عمر بن عبد العزيز أزهد من أويس لأن عمر ملك الدنيا فزهد فيها وأويس لم يملكها فقيل لو ملكها لفعل كما فعل عمر فقال ليس من لم يجرب كمن جرب وقال أنس فى ثابت البنانى ان للخير مفاتيح وان ثابتا من مفاتيح الخير وكان حبيب الفارسى من أخيار الناس وهو الذى اشترى نفسه من ربه أربع مرات بأربعين ألفا كان يخرج البدرة فيقول يارب اشتريت نفسى منك بهذه ثم يتصدق بها وكان أيوب السختيانى من أزهد الناس وأورعهم ذكر عند أبى حنيفة رحمه الله تعالى فقال رحم الله أيوب لقد شهدت منه مقاما عند منبر النبى صلى الله عليه وسلم لا أذكر ذلك المقام الا اقشعر جلدى وقال سفيان الثورى جهدت جهدى على أن أكون فى السنة ثلاثة أيام على ما عليه ابن المبارك فلم أقدر وكان الخليل بن أحمد النحوى من أزهد الناس وأعلاهم نفسا وكان الملوك يقصدونه و يبذلون له الاموال فلا يقبل منها شيأ وكان يحج سنة و يغزو سنة حتى مات رحمه الله وقال ابن خارجة جالست ابن عوف عشرين سنة فما أظن الملكين كتبا عليه شيأ وروى أنه غسل كرز بن وبرة فلم يوجد على جسده مثقال لحم وعن محمد بن الحسن قال كان أبو حنيفة واحد زمانه لو انشقت عنه الارض لانشقت عن جبل من الجبال فى العلم والكرم والزهد والورع وحج وكيع بن الجراح أربعين حجة ورابط فى عبادان أربعين ليلة وختم بها القرآن أربعين ختمة وتصدق بأربعين ألفا وروى أربعة آلاف حديث وما روى واضعا جنبه قط ووقف

الصادر من هؤلاء القوم يتعين أن نورد هنا نبذة من كتاب الاذكياء لابن الجوزى (فمن ذلك) ماروى عن منصور بن العباس وهو انه جلس يوما فى احدى قباب المدينة فرأى رجلا ملهوفا يجول فى الطرقات فأرسل اليه من أتاه به فسأله عن حاله فأخبره انه خرج فى تجارة فأفاد فيها مالا كثيرا وانه رجع بها الى زوجته ودفع المال اليها فذكرت المرأة أن المال سرق من المنزل ولم ير نقبا ولا سلما فقال له المنصور منذ كم تزوجتها قال منذ سنة قال تزوجتها بكرا أم ثيبا قال ثيبا قال شابة أم مسنة قال شابة فدعا المنصور بقارورة طيب وقال تطيب بهذا فانه يذهب همك فأخذها وانقلب الى أهله فقال المنصور لجماعة من نقبائه اقعدوا على أبواب المدينة فمن مر بكم وشممتم فيه روائح الطيب فأتونى به ومضى الرجل بالطيب الى بيته فدفعه الى المرأة وقال هذا من طيب أمير المؤمنين فلما شمته أعجبها الى الغاية فبعثت به الى رجل كانت تحبه وهو الذى دفعت المال اليه فقالت له تطيب بهذا الطيب فتطيب به ومر مجتازا ببعض الأبواب ففاحت منه روائح الطيب فأخذوا وأتى به الى المنصور فقال له من أين استفدت هذا الطيب فتلجلج فى كلامه فسلمه الى صاحب شرطته وقال له ان أحضر كذا وكذا من الدنانير فخذ منه والا فاضربه ألف سوط فما هو الا أن جرد وهدد حتى أذعن برد الدنانير وأحضرها كهيئتها ثم أعلم المنصور بذلك فدعا صاحب الدنانير وقال له أرأيتك أن رددت اليك الدنانير أتحكمنى فى امرأتك قال نعم يا أمير المؤمنين قال هاهى دنانيرك وقد طلقت امرأتك وقص عليه الخبر (ومن ذلك) ماروى عن المهدى وهو أن شريك بن عبد الله القاضى

عمر بن عبد العزيز على عطاء بن أبي رباح وهو أسود مفلفل الشعر يفتي الناس في الحلال والحرام فتمثل
يقول * ثلاث المكارم لا قعبان في لبن * (ومن) مشايخ الرسالة رضوان الله عليهم أجمعين سيدي أبو عبد الله
محمد بن اسمعيل المغربي أستاذ ابراهيم بن شيبان كان عجيب الشأن لم يأكل مما وصلت اليه أيدي بني آدم سنين
كثيرة وكان أكله من أصول العشب شيأ تعوده أكله (ومنهم) سيدي فتح بن شخرف بن داود يكنى أبا نصر
من الزاهدين الورعين لم يأكل الخبز ثلاثين سنة قال أحمد بن عبد الجبار سمعت أبي يقول صحبت فتح بن شخرف
ثلاثين سنة فلم اره رفع رأسه الى السماء ثم رفعها يوما فقال طال شوقي اليك فعجل قدومي عليك وقال محمد
ابن جعفر سمعت انسانا يقول غسلنا فتح بن شخرف فرأينا مكتوبا على فخذه لا اله الا الله فتوهمناه مكتوبا
واذا هو عرق داخل الجلد ومات ببغداد فصلى عليه ثلاثا وثلاثين مرة أقل قوم كانوا يصلون عليه كانوا نحوا
من خمسة وعشرين ألفا الى ثلاثين ألفا (ومنهم) سيدي فتح بن سعيد الموصلي يكنى أبا نصر من أقران بشر
الحافي وسري السقطي كبير الشان في باب الورع والمجاهدات قال ابراهيم بن نوح الموصلي رجع فتح
الموصلي الى اهله بعد صلاة العتمة وكان صائما فقال عشوني فقالوا ما عندنا شئ نعشيك به فقال ما بالكم
جلوس في الظلمة فقالوا ما عندنا شئ نسرج به فجعل يبكي من الفرح ويقول الهي مثلي يترك بلا عشاء ولا
سراج بأي يد كانت مني فما زال يبكي الى الصباح وقال فتح رأيت بالبادية غلاما لم يبلغ الحلم وهو يمشي وحده
ويحرك شفتيه فسلمت عليه فرد علي السلام فقلت الى اين فقال الى بيت ربي عز وجل فقلت عماذا تحرك
شفتيك قال أتلو كلام ربي فقلت انه لم يجر عليك قلم التكليف قال رأيت الموت يأخذ من هو اصغر سنا مني
فقلت خطاك قصيرة وطريقك بعيدة فقال انما علي نقل الخطا وعليه البلاغ فقلت اين الزاد والراحلة قال
زادي يقيني وراحلتي رجلاي فقلت أسألك عن الخبز والماء قال يا عماه أرأيت لو دعاك مخلوق الى منزله أكان
يجمل بك ان تحمل زادك الى منزله قلت لا فقال ان سيدي دعا عباده الى بيته وأذن لهم في زيارته فحملهم
ضعف يقينهم على حمل أزوادهم وان استقبحت ذلك فحفظت الأدب معه أفتراه يضيعني فقلت حاشا وكلا
ثم غاب عن بصري فلم أره الا بمكة فلما رآني قال أنت أيها الشيخ بعد ذلك الضعف من اليقين (ومنهم) سيدي
أبو عثمان سعيد بن اسمعيل الحيري صحب شاه الكرماني ويحيى بن معاذ الرازي وكان يقول في الدنيا ثلاثة
لا رابع لهم أبو عثمان الحيري بنيسابور والجنيد ببغداد وأبو عبد الله الحلاج بالشام ومن كلامه لا يكمل الرجل
حتى يستوي في قلبه أربعة أشياء المنع والعطاء والعز والذل وقال منذ أربعين سنة ما أقامني الله تعالى في حال
فكرهته ولا نقلني الى شئ فسخطته (ومنهم) سيدي سليمان الخواص يكنى أبا تراب كان أحد الزهاد
المعروفين والعباد الموصوفين سكن الشام ودخل بيروت وكان أكثر مقامه ببيت المقدس قيل اجتمع حذيفة
المرعشي وابراهيم بن أدهم ويوسف بن اسباط فتذاكروا الفقر والغنى وسليمان ساكت فقال بعضهم الغنى
من كان له بيت يسكنه وثوب يستره وسداد من عيش يكفه عن فضول الدنيا وقال بعضهم الغنى من لم يحتج
الى الناس فقيل لسليمان ما تقول أنت في ذلك فبكى وقال رأيت جوامع الغنى في التوكل ورأيت
جوامع الفقر في القنوط والغنى حق الغنى من أسكن الله في قلبه من غناه يقينا ومن معرفته توكلا ومن قسمته
رضا فذلك الغني حق الغنى وان أمسى طاويا وأصبح معوزا فبكى القوم من كلامه (ومنهم) سيدي أبو سليمان
ابن عبد الرحمن بن احمد بن عطية الداراني احد رجال الطريقة قدس الله سره كان من أجل السادات وأرباب الجد
في المجاهدات ومن كلامه من أحسن في نهاره كفي في ليله ومن أحسن في ليله كفي في نهاره ومن صدق
في ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه والله تعالى أكرم من أن يعذب قلبا بشهوة تركت له وقال لكل شئ علامة
وعلامة الخذلان ترك البكاء وقال لكل شئ صدأ وصدأ نور القلب شبع البطن وقال أحمد بن أبي الحواري
شكوت الى أبي سليمان الوسواس فقال اذا أردت أن ينقطع عنك فأي وقت أحسست به فافرح فانك اذا
فرحت به انقطع عنك لانه لا شئ أبغض الى الشيطان من سرور المؤمن واذا اغتممت به زادك وقال ذو النون
المصري رحمه الله تعالى اجتمعوا الملا على أبي سليمان الداراني فسمعوه يقول يا رب ان طالبتني بسريرتي طالبتك
بتوحيدك وان طالبتني بذنوبي طالبتك بكرمك وان جعلتني من أهل النار أخبرت أهل النار بحبي اياك
وقال علي بن الحسين الحداد سألت أبا سليمان بأي شئ تعرف الأبرار قال بكتمان المصائب وصيانة الكرامات

دخل عليه يوما فأراد المهدي أن
يخبره فقال للخادم أحضر للقاضي
عودا فذهب الخادم فجاء بالعود
الذي يلهى به فوضعه في حجر شريك
القاضي فطرب شريك من ذلك وقال
ماهذا يا أمير المؤمنين قال عود
أخذه صاحب العسس البارحة
فأحببنا أن يكون كسره على يد
القاضي فقال شريك جزاك الله خيرا
يا أمير المؤمنين ثم أفاضوا في الحديث
حتى نسي الأمر فقال المهدي
لشريك ما تقول في رجل أمر وكيلا
له أن يأتي بشئ بعينه فجاء بغيره
فتلف ذلك الشئ فقال يضمن يا أمير
المؤمنين فقال للخادم اضمن ما تلفت
(ومن ذلك) أنه حكي انه قدم رجل
الى بغداد ومعه عقد يساوي ألف
دينار فأراد بيعه فلم يتفق فجاء الى
عطار موصوف بالخير والديانة
فأودع العقد عنده وحج وأتى بهدية
للعطار وسلم عليه فقال من أنت
ومن يعرفك فقال أنا صاحب العقد
فلما كلمه رفسه وألقاه عن دكانه
فاجتمع الناس وقالوا ويلك هذا
رجل صالح فما وجدت من تكذب
عليه الا هذا فتحير الحاج وتردد
اليه فما زاده الا شتما وضربا فقيل
له لو ذهبت الى عضد الدولة لحصل
لك من فراسته خير فكتب قصته
وجعلها على قصبة وعرضها عليه
فقال ما شأنك فقص عليه القصة
فقال اذهب غدا واجلس في دكان
العطار ثلاثة أيام حتى أمر عليك
في اليوم الرابع فأقف وأسلم عليك
فلا ترد علي الا السلام فاذا انصرفت
أعد عليه ذكر العقد ثم اعلمني بما
يقول لك ففعل الحاج ذلك فلما كان
في اليوم الرابع جاء عضد الدولة
في موكبه العظيم فلما رأى الحاج
وقف وقال سلام عليكم فقال الحاج
وعليكم السلام ولم يتحرك فقال
يا أخي تقدم من العراق ولا تأتينا
ولا تعرض علينا حوائجك فقال له

وروى

وروى عنه أنه قال غت ليلة عن وردى فاذا حوراء تقول لى أتنام وأنا أربى لك فى الخدور منذ خمسمائة عام (ومنهم) سيدى أبو محمد عبد الله بن حنيف من زهاد المتصوفة كوفى الاصل ولكنه سكن انطاكية * ومن كلامه لا تغتم الا من شئ يضرك غدا ولا تفرح الا بشئ يسرك غدا وله كرامات ظاهرة وبركات متواترة (ومنهم) سيدى أبو عبد الله محمد بن يوسف البناء أصبهانى الاصل كتب عن ستمائة شيخ ثم غلب عليه الانفراد والخلوة الى أن خرج الى مكة بشرط التصوف وقطع البادية على التجريد وكان فى ابتداء أمره يكسب فى كل يوم ثلاثة دراهم وثلثا فيأخذ من ذلك لنفسه دانقا ويتصدق بالباقى ويختم مع العمل كل يوم ختمة فاذا صلى العتمة فى مسجده خرج الى الجبل الى قريب الصبح ثم يرجع الى العمل وكان يقول فى الجبل يارب اما أن تهب لى معرفتك أو تأمر الجبل أن ينطبق على فانى لا أريد الحياة بلا معرفتك (ومنهم) سيدى يحيى ابن معاذ الرازى قدس الله سره يكنى أبا زكريا أحد رجال الطريق كان أوحد وقته ومن كلامه لا تكن ممن يفضحه يوم موته ميراثه ويوم حشره ميزانه وقال ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال ان لم تنفعه فلا تضره وان لم تسره فلا تغمه وان لم تمدحه فلا تذمه وقال الصبر على الخلوة من علامات الاخلاص وقال بئس الصديق صديقا يحتاج الى أن يقال له اذكرنى فى دعائك وقال على قدر حبك الله يحبك الخلق وعلى قدر خوفك من الله تهابك الخلق وعلى قدر شغلك بالله تشتغل فى أمرك الخلق وقال من كان غناه فى كيسه لم يزل فقيرا ومن كان غناه فى قلبه لم يزل غنيا ومن قصد بحوائجه المخلوقين لم يزل محروما وروى أنه قدم شيراز فجعل يتكلم على الناس فى علم الاسرار فأتته امرأة من نسائها فقالت كم تريد أن تأخذ من هذه البلدة قال ثلاثون ألفا أصرفها فى دين على بخراسان فقالت لك على ذلك على أن تأخذها وتخرج من ساعتك فرضى بذلك فحملت اليه المال فخرج من الغد فعوتبت تلك المرأة فيما فعلت فقالت انه كان يظهر أسرار أولياء الله تعالى للسوقة والعامة فغرت على ذلك (ومنهم) سيدى يوسف بن الحسين الرازى يكنى أبا يعقوب كان وحيد وقته فى اسقاط التصنع عالما أديبا صحب ذا النون المصرى وأبا تراب النخشبى من كلامه اذا أردت أن تعلم العاقل من الأحمق فحدثه بالمحال فان قبل فاعلم انه أحمق وقال اذا رأيت المريد يشتغل بالرخص فاعلم أنه لا يجئ منه شئ وقال لان ألقى الله تعالى بجميع المعاصى أحب الى من أن ألقاه بذرة من التصنع وقال أبو الحسن الدراج قصدت زيارة ابن الحسين الرازى من بغداد فلما دخلت بلده سألت عن منزله فكل من سألته يقول أى شئ تريد من هذا الزنديق فضيق واصدرى حتى عزمت على الانصراف فبت تلك الليلة فى مسجد ثم قلت فى نفسى جئت هذه البلدة فلا أقل من زيارته فلم أزل أسأل عنه حتى وصلت الى مسجده فوجدته جالسا فى المحراب وبين يديه مصحف يقرأ فيه فدنوت منه وسلمت عليه فرد على السلام وقال من أين قلت من بغداد فقال أتحسن من قولهم شيأ قلت نعم وأنشدته

رأيتك تبنى دائما فى قطيعتى * ولو كنت ذا حزم لهدمت ما تبنى

فأطبق المصحف ولم يزل يبكى حتى ابتلت لحيته وثوبه ورحمته من كثرة بكائه ثم التفت الى وقال يا بنى أتلوم أهل البلد على قولهم يوسف بن الحسين زنديق وها أنا ذا من وقت صلاة الصبح أقرأ القرآن ولم تقطر من عينى قطرة وقد قامت على القيامة بهذا البيت ومنهم سيدى حاتم بن علوان الأصم قدس الله سره يكنى أبا عبد الرحمن من أكابر مشايخ خراسان صحب شقيقا البلخى ومن كلامه الزم خدمة مولاك تأتك الدنيا راغمة والآخرة راغبة وقال من ادعى ثلاثا بغير ثلاث فهو كذاب من ادعى حب الله تعالى من غير ورع عن محارمه فهو كذاب ومن ادعى محبة النبى صلى الله عليه وسلم من غير محبة الفقر فهو كذاب ومن ادعى حب الجنة من غير انفاق ماله فهو كذاب وسأله رجل علام بنيت أمرك فى التوكل على الله عز وجل قال على أربع خصال علمت أن رزقى لا يأكله غيرى فاطمأنت به نفسى وعلمت أن عملى لا يعمله غيرى فأنا مشغول به وعلمت أن الموت يأتينى بغتة فأنا أبادره وعلمت أنى لا أخلو من عين الله عز وجل حيث كنت فأنا أستحى منه وسبب تسميته بالاصم ما حكاه أبو على الدقاق ان امرأة جاءت تسأله عن مسألة فاتفق أنه خرج منها صوت ريح فخجلت المرأة فقال حاتم ارفعى صوتك وأراها أنه أصم فسرت المرأة بذلك وقالت انه لم يسمع الصوت فغلب عليه هذا الاسم رحمة الله تعالى عليه (ومنهم) الحسن بن أحمد الكاتب من كبار مشايخ المصريين صحب أبا بكر المصرى وأبا على

ما اتفق هذا ولم يزده على ذلك شيأ هذا والعسكر واقف بحاله فاندهل العطار وايقن بالموت فلما انصرف عضد الدولة التفت العطار الى الحاج وقال له يا اخى متى أودعتنى هذا العقد وفى اى شئ هو ملفوف فذكرنى لعلى اتذكر فقال من صفته كذا وكذا فقام وفتش ثم فتح جرابا واخرج منه العقد وقال الله أعلم اننى كنت ناسيا ولو لم تذكرنى ماتذكرت فاخذ الحاج العقد ومضى الى عضد الدولة فاعلمه فعلقه فى عنق العطار وصلبه على باب دكانه ونودى عليه هذا جزاء من استودع ثم جحد ثم اخذ الحاج العقد ومضى الى بلاده (ومثله ما نقل عن ذكاء اياس الذى سارت به الركبان) قيل ان رجلا استودع امين اياس مالا وخرج المودع الى الحجاز فلما رجع طلبه فجحده فاتى اياسا فاخبره فقال له اياس أعلمته انك اتيتنى قال لا قال افنازعته عند غيرى قال لا قال فانصرف واكتم سرك ثم عد الى بعد يومين فمضى الرجل ودعا اياس أمينه فقال قد حضر عندنا مال كثير أريد أن اسلمه اليك أفحصين منزلك قال نعم قال فاعد موضعا للمال وقوما يحملونه وعاد الرجل الى اياس فقال انطلق الى صاحبك فان اعطاك المال فذاك وان جحد فقل له انى أخبر القاضى بالقصة فاتى الرجل صاحبه فقال تعطينى الوديعة او اشكوك الى القاضى وأخبره بالحال فدفع اليه المال فرجع الرجل وأخبر اياسا وقال اعطانى الوديعة وجاء الأمين الى اياس ليأخذ المال الموعود به فزجره وقال له لا تقربنى بعد هذا ياخائن * ومثله * انه ولى القضاء بواسط رجل مشهور بالدين والذكاء المفرط فجاءه رجل استودع بعض الشهود كيسا مختوما ذكر أن فيه ألف دينار فلما حصل

الروذباري وكان أوحد مشايخ وقته من كلامه روائح نسيم المحبة تفوح من المحبين وان كتموها وتظهر عليهم دلائلها وان أخفوها وتدل عليهم وان ستروها وأنشدوا في هذا المعنى

اذا ما أسرت أنفس الناس ذكره * تبينه فيهم ولم يتكلموا
تطيب به أنفاسهم فتذيعها * وهل سر مسك أودع الريح يكتم

ومن كلامه أيضا اذا انقطع العبد الى الله تعالى بالكلية فأول ما يفيده الاستغناء به عن الناس وقال صحبة الفساق داء ودواؤها مفارقتهم وقال اذا سكن الخوف في القلب لا ينطق اللسان بما لا يعنيه (ومنهم) سيدي جعفر بن نصر الخلدي يكنى بأبي محمد بغدادي المنشأ والمولد صحب الجنيد وانتمى اليه وحج قريبا من ستين حجة روى أنه مر بمقبرة الشونيزية وامرأة على قبر تندب وتبكي بكاء بحرقة فقال لها مالك تبكين فقالت ثكلى بولدي فأنشأ يقول

يقولون ثكلى ومن لم يذق * فراق الأحبة لم يثكل
لقد جرعتني ليالي الفراق * شرابا أمر من الحنظل

وروى أنه كان له فص فوقع منه يوما في الدجلة وكان عنده دعاء مجرب لرد الضالة اذا دعا به عادت فدعا به فوجد الفص في وسط أوراق كان يتصفحها وصورة الدعاء أن تقول يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع علي ضالتي وقد روي أنه يقرأ قبله سورة الضحى ثلاثا وروى الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخه قال ودعت في بعض حجاتي المزين الكبير الصوفي فقلت زودني شيئا فقال ان فقدت شيئا أو أردت أن يجمع الله بيني وبينك أو بينك وبين انسان فقل يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بيني وبين كذا فان الله يجمع بينك وبين ذلك الشيء أو الانسان (ومنهم) سيدي معروف بن فيروز الكرخي قدس الله سره يكنى أبا محفوظ من كبار المشايخ مجاب الدعوة وهو أستاذ السري وكان أبواه نصرانيين فأسلماه الى مؤدبهم وهو صبي فكان المؤدب يقول له قل هو ثالث ثلاثة فيقول بل هو الواحد الصمد فضربه المؤدب على ذلك ضربا وجيعا فهرب منه فكان أبواه يقولان ليته يرجع الينا على أي دين شاء فنوافقه عليه فرجع الى أبويه فدق الباب فقيل من بالباب فقال معروف فقيل على أي دين فقال على دين الاسلام فأسلم أبواه وكان مشهورا باجابة الدعوة ومن كلامه رضي الله عنه اذا أراد الله بعبد خيرا فتح له باب العمل وأغلق عليه باب الفترة والكسل وكان يعاتب نفسه ويقول يا مسكين كم تبكي وتندب أخلص تخلص وقال سري سألت معروفا عن الطائعين لله بأي شيء قدروا على الطاعات لله عز وجل قال بخروج حب الدنيا من قلوبهم ولو كانت في قلوبهم لما صحت لهم سجدة ومن انشاداته

الماء يغسل ما بالثوب من درن * وليس يغسل قلب المذنب الماء

وقال ابراهيم الأطروش كان معروف قاعدا يوما على الدجلة ببغداد فمر بنا صبيان في زورق يضربون بالملاهي ويشربون فقال له أصحابه أما ترى هؤلاء يعصون الله تعالى على هذا الماء فادع عليهم فرفع يديه الى السماء وقال الهي وسيدي كما فرحتهم في الدنيا أسألك أن تفرحهم في الآخرة فقال له أصحابه انما سألناك أن تدعو عليهم ولم نقل لك ادع لهم فقال اذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم في الدنيا ولم يضركم ذلك وقال سري رأيت معروفا في المنام كأنه تحت العرش والله تعالى يقول للملائكة من هذا فقالوا أنت أعلم يا رب قال هذا معروف الكرخي سكر بحبي لا يفيق الا بلقائي وقيل له في مرضه أوص فقال اذا مت فتصدقوا بقميصي هذا فاني أحب أن أخرج من الدنيا عريانا كما دخلتها عريانا وقال أبو بكر الخياط رأيت في المنام كأني دخلت المقابر فاذا أهل القبور جلوس على قبورهم وبين أيديهم الريحان واذا أنا بمعروف الكرخي بينهم يذهب ويجيء فقلت يا أبا محفوظ ما فعل الله بك أوليس قد مت قال بلى ثم أنشد يقول

موت التقي حياة لا نفاد لها * قد مات قوم وهم في الناس أحياء

(ومنهم قاسم بن عثمان الكرخي) يكنى أبا عبد الملك من أجلاء المشايخ صحب أبا سليمان الداراني وغيره وكان من أقران السري والحرث المحاسبي وكان أبو تراب النخشبي يصحبه ومن كلامه من أصلح فيما بقي من عمره غفر له ما مضى وما بقي ومن أفسد فيما بقي من عمره أخذ بما مضى وما بقي وقال السلامة كلها في اعتزال الناس والفرح كله في الخلوة بالله عز وجل وسئل عن التوبة فقال التوبة رد المظالم وترك المعاصي وطلب الحلال وأداء الفرائض وقال لأصحابه أوصيكم بخمس ان ظلمتم فلا تظلموا وان مدحتم فلا تفرحوا وان ذممتم فلا تحزنوا وان

الكيس عند الشاهد وطالت غيبة المودع ظن أنه قد مات فهم بانفاق المال وخشي من مجيء صاحبه ففتق الكيس من أسفله وأخذ الدنانير وجعل مكانها دراهم وأعاد الخياطة كما كانت فقدر أن الرجل حضر الى واسط وطلب الشاهد بوديعته فأعطاه الكيس بختمه فلما حصل في منزله فض ختمه فاذا في الكيس دراهم فرجع الى الشاهد وقال له اردد علي مالي فاني أودعتك دنانير والذي وجدت دراهم فأنكر فاستعدى عليه الى القاضي المتقدم ذكره فلما حضرا بين يديه قال الحاكم للمستودع منذ كم أودعك الكيس قال منذ خمس عشرة سنة فقال القاضي لصاحب الكيس احضر لي الدراهم فأحضرها فقال القاضي للشهود اعتبروا تواريخ الدراهم فقرؤا سككها فاذا منها ما له سنتان وثلاث سنين ونحو ذلك فأمره أن يدفع له الدنانير فدفعها وعزله القاضي وأطاف به البلد وأسقطه ﴿ومثله بل أغرب منه﴾ ان رجلا استودع رجلا مالا ثم طلبه فجحده فخاصمه الى اياس وقال المدعي اني أطالبه بمال أودعته اياه وقدره كذا وكذا فقال له اياس ومن حضرك قال كان رب العزة حاضرا قال دفعته اليه في أي مكان قال في موضع كذا قال فأي شيء تعهده من ذلك الموضع قال شجرة عظيمة قال فانطلق الى الموضع وانظر الى الشجرة لعل الله يظهر لك علامة يتبين بها حقك أو لعلك دفنت مالك تحت الشجرة فنسيت فتذكره اذا رأيت الشجرة فمضى الرجل مسرعا فقال اياس للرجل المدعى عليه اقعد حتى يرجع خصمك فجلس واياس يقضي بين الناس ونظر اليه بعد ذلك ثم قال له يا هذا أترى صاحبك بلغ موضع الشجرة التي ذكرها قال لا فقال له

كذبتم فلا تغضبوا وان خانوكم فلا تخونوا وقال محمد بن الفرج سمعت قاسم بن عثمان يقول ان لله عبادا قصدوا الله بهممهم فافردوه بطاعتهم واكتفوا به فى توكلهم ورضوا به عوضا عن كل ما خطر على قلوبهم من أمر الدنيا فليس لهم حبيب غيره ولا قرة عين الا فيما اقرب اليه وكان يقول قليل العمل مع المعرفة خير من كثير العمل بلا معرفة ثم قال اعرف وضع رأسك ونم فما عبد الله الخلق بشئ أفضل من المعرفة وروى عنه أنه قال رأيت فى الطواف حول البيت رجلا فتقربت منه فاذا هو لا يزيد على قوله اللهم قضيت حاجة المحتاجين وحاجتى لم تقض فقلت له مالك لا تزيد على هذا الكلام فقال أحدثك كنا سبعة رفقاء من بلاد شتى غزونا أرض العدو فاستأسرونا كلنا فاعتزل بنا لتضرب أعناقنا فنظرت الى السماء فاذا سبعة أبواب مفتحة عليها سبع جوار من الحور العين فى كل باب جارية فقدم رجل منا فضربت عنقه فرأيت جارية فى يدها منديل قد هبطت الى الأرض فضربت أعناق الستة وبقيت أنا وبقى باب وجارية فلما قدمت لتضرب عنقى استوهبنى بعض خواص الملك فوهبنى له فسمعتها تقول باى شئ فاتك هذا يا محروم وأغلقت الباب فانا يا أخى متحسر على ما فاتنى قال قاسم بن عثمان أراه أفضلهم لانه رأى ما لم يروا وترك يعمل على الشوق (ومنهم) سيدى أبو بكر دلف بن جحدر الشبلى كان جليل القدر مالكى المذهب عظيم الشان صحب الجنيد ومن فى عصره وكان يبالغ فى تعظيم الشرع المطهر وكان اذا دخل شهر رمضان المعظم جد فى الطاعات ويقول هذا شهر عظمه ربى فانا أولى بتعظيمه وسئل عن قول النبى صلى الله عليه وسلم خير عمل المرء كسب يمينه فقال اذا كان الليل فخذ ماء وتهيأ للصلاة وصل ما شئت ومد يديك وسل الله عز وجل فذلك كسب يمينك ولما حج ورأى مكة المشرفة شرفها الله تعالى وقع مغشيا عليه فلما أفاق أنشد يقول

هذه دارهم وأنت محب * ما بقاء الدموع فى الآماق

وروى أنه قال كنت يوما جالسا فجرى فى خاطرى أنى بخيل فقلت مهما فتح الله على به اليوم أدفعه الى أول فقير يلقانى قال فبينما أنا متفكر اذ دخل على شخص ومعه خمسون دينارا فقال اجعل هذه فى مصالحك فأخذتها وخرجت واذا أنا بفقير مكفوف بين يدى مزين يحلق رأسه فتقدمت اليه وناولته الصرة فقال لى ادفعها للمزين فقلت له انها دنانير فقال انك لبخيل قال فناولتها للمزين فقال المزين ان من عادتنا أن الفقير اذا جلس بين أيدينا لا نأخذ منه أجرا قال فرميتها فى الدجلة وقلت ما أعزك أحدا لا أذله الله تعالى (ومنهم) سيدى زرقان ابن محمد أخو ذى النون المصرى صاحب سياحة كان بجبل لبنان (حكى) عن يوسف بن الحسين الرازى قال بينما أنا بجبل لبنان أدور اذ أبصرت زرقان أخا ذى النون المصرى جالسا على عين ماء وقت صلاة العصر فسلمت عليه وجلست من ورائه فالتفت الى وقال ما حاجتك فقلت بيتا شعر سمعتهما من أخيك ذى النون المصرى أعرضهما عليك فقال قل فقلت سمعته يقول

قد بقينا مذبذبين حيارى * نطلب الوصل ما اليه سبيل
فدواعى الهوى تخف علينا * وخلاف الهوى علينا ثقيل

فقال زرقان ولكنى أقول

قد بقينا مذهلين حيارى * حسبنا ربنا ونعم الوكيل
حيثما الفوز كان ذا ثمنا نا * واليه فى كل أمر نميل

فعرضت أقوالهما على طاهر المقدسى فقال رحم الله ذا النون المصرى رجع الى نفسه فقال ما قال ورجع زرقان الى ربه فقال ما قال وقال أبو عبد الرحمن السلمى زرقان بن محمد أخو ذى النون المصرى وأظن انه أخوه مؤاخاة لا أخوة نسب وكان من أقرانه ورفقائه (ومنهم) سيدى أبو عبد الله النباجى سعيد بن بريد كان من أقران ذى النون المصرى ومن أقران استاذى أحمد بن أبى الحوارى له كلام حسن فى المعرفة وغيرها روى عنه أنه قال أصابنى ضيق وشدة فبت وأنا مفكر فى المسير الى بعض اخوانى فسمعت قائلا يقول لى فى النوم أيجمل بالحر المريد اذا وجد عند الله ما يريد أن يميل بقلبه الى العبيد فانتبهت وأنا من أغنى الناس (ومنهم) سيدى بشر بن الحرث الحافى قدس الله روحه يكنى أبا نصر أحد رجال الطريقة أصله من مرو وسكن بغداد وكان من كبار الصالحين وأعيان الأتقياء المتورعين صحب الفضيل بن عياض وروى عن سرى السقطى وغيره ومن كلامه لا تكون كاملا حتى يأمنك عدوك وكيف يكون فيك خير وأنت لا يأمنك صديقك وقال أول عقوبة يعاقبها ابن آدم فى الدنيا مفارقة الأحباب وقال غنيمة المؤمن غفلة الناس عنه

والله يا عدو الله انك لخائن فقال أقلنى أقالك الله يا أمير المؤمنين فأمر من يحتفظ به حتى جاء الرجل فقال اياس قد أقر بحقك فخذه

(ومن لطائف المنقول من كتاب الأذكياء) ان يحيى بن أكثم القاضى ولى القضاء بالبصرة وسنه عشرون سنة فاستصغره أهل البصرة فقال أحدهم كم سن القاضى فعلم يحيى أنه استصغره فقال أنا أكبر من عتاب بن أسيد حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضيا على أهل مكة يوم الفتح وأنا أكبر من معاذ بن جبل حين وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضيا على أهل اليمن وأنا أكبر من كعب بن سور حين ولاه عمر بن الخطاب قاضيا على أهل البصرة قال فعظم فى أعين أهل البصرة وهابوه *(ومن المنقول من كتاب الأذكياء)* ان بعض اللصوص دخل بيتا ومعه جماعة تحت أمره ونهيه فى القتل والسرقة فظفروا بصاحب البيت وأوقفوه للقتل فتدخل عليهم فى ابقاء مهجته وأخذ ما فى البيت بكماله فقال كبيرهم حلفوه بالطلاق الثلاث وعلى المصحف انه لا يعلم بهم أحدا فأصبح الرجل يرى اللصوص يبيعون متاعه ولا يقدر أن يتكلم لأجل اليمين فجاء الى أبى حنيفة وأعلمه بحاله فقال له احضر أكابر حيك وأدين جيرانك وامام جماعتك فلما حضروا قال لهم أبو حنيفة هل تحبون ان يرد الله على هذا الرجل متاعه قالوا نعم فقال اجمعوا داعريكم فادخلوهم الجامع ثم اخرجوهم واحدا واحدا وكلما اخرج منهم واحد قولوا هذا لصك فان كان ليس بلصه قال لا وان كان لصه فليسكت فاذا سكت فاقبضوا عليه ففعلوا ذلك فرد الله عليه ما سرق له (ومنه) ان الربيع صاحب المنصور كان يعادى أبا

وخفاء مكانه عنهم وقال التكبر على المتكبر من التواضع وسئل عن الصبر الجميل فقال الصبر الجميل هو الذى لا شكوى فيه الى الناس وقيل انه اتى رجلا سكران فجعل الرجل يقبل يد بشر و يقول يا سيدى يا أبا نصر و بشر لا يدفعه عن نفسه فلما ولى الرجل تغرغرت عينا بشر وجعل يقول رجل أحب رجلا على خير توهمه لعل المحب قد نجا والمحبوب لا يدرى ما حاله * وروى أن امرأة جاءت الى أحمد بن حنبل تسأله فقالت انى امرأة اغزل بالليل والنهار وأبيعه ولا أبين غزل الليل من غزل النهار فهل على فى ذلك شئ فقال يجب أن تبينى فلما انصرفت قال أحمد لابنه اذهب فانظر أين تدخل فرجع فقال دخلت دار بشر فقال قد عجبت أن تكون هذه السائلة من غير بيت بشر ولما مرض مرضه الذى مات فيه قال له أهله نرفع ماءك الى الطبيب قال أنا بعين الطبيب يفعل بى ما يريد فالحوا عليه فقال لاخته ادفعى اليهم الماء فدفعته اليهم فى قارورة وكان بالقرب منهم طبيب نصرانى فدفعوا اليه القارورة فقال حركوا الماء فحركوه فقال ضعوه فوضعوه فقالوا له ما بهذا وصفت لنا قال وعاذا وصفت لكم قالوا وصفت بانك أحذق أهل زمانك فى الطب قال هو كما وصفت لكم ان هذا الماء ان كان ماء نصرانى فهو ماء راهب قد فتت الخوف كبده وان كان ماء مسلم فماء بشر الحافى لان ما فى زمانه أخوف منه قالوا هو ماء بشر فقال أنا أشهد ان لا اله الا الله وأشهد ان محمدا رسول الله فلما رجعوا الى بشر قال لهم أسلم الطبيب قالوا له ومن أعلمك بهذا قال لما خرجتم من عندى نوديت يا بشر ببركة مائك أسلم الطبيب توفى سنة سبع وعشرين ومائتين (ومنهم) سيدى أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامى من أجل المشايخ كبير الشان ومن كلامه مازلت أسوق الى الله تعالى نفسى وهى تبكى الى أن سقتها وهى تضحك وسئل باى شئ وجدت هذه المعرفة فقال ببطن جائع و بدن عار وقيل له ما أشد ما لقيت فى سبيل الله تعالى فقال لا يمكن وصفه فقيل له ما اهون ما لقيته نفسك منك فقال أما هذا فنعم دعوتها الى شئ من الطاعات فلم تجبنى فمنعتها الماء سنة وقال الناس كلهم يهربون من الحساب و يتجافون عنه وأنا أسأل الله تعالى أن يحاسبنى فقيل له لم فقال لعله يقول فيما بين ذلك يا عبدى فاقول لبيك فقوله لى يا عبدى أحب الى من الدنيا وما فيها ثم بعد ذلك يفعل بى ما يشاء وقال له رجل دلنى على عمل أتقرب به الى ربى فقال أحب أولياء الله ليحبوك فان الله تعالى ينظر الى قلوب أوليائه فلعله ينظر الى اسمك فى قلب ولى فيغفر لك وسئل عن المحبة فقال استقلال الكثير من نفسك واستكثار القليل من حبيبك توفى سنة احدى وستين ومائتين رحمه الله تعالى (ومنهم) شيخ الطائفة سيدى أبو القاسم الجنيد بن محمد القواريرى شيخ وقته وفريد عصره أصله من نهاوند ومولده ومنشؤه ببغداد صحب جماعة من المشايخ وصحب خاله السرى والحرث المحاسبى ودرس الفقه على أبى ثور وكان يفتى فى مجلسه بحضرته وهو ابن عشرين سنة * ومن كلامه رضى الله عنه علامة اعراض الله تعالى عن العبد أن يشغله بما لا يعنيه وقال الادب أدبان أدب السر وأدب العلانية فادب السر طهارة القلوب وأدب العلانية حفظ الجوارح من الذنوب ورؤى فى يده يوما سبحة فقيل له أنت مع تمكنك وشرفك تأخذ بيدك سبحة فقال نعم سبب وصلنا به الى ما وصلنا الا نتركه أبدا وقال حسن بن محمد السراج سمعت الجنيد يقول رأيت ابليس فى منامى وكأنه عريان فقلت له ألا تستحى من الناس فقال بالله هؤلاء عندك من الناس لو كانوا من الناس ما تلاعبت بهم كما تتلاعب الصبيان بالكرة ولكن الناس عندى ثلاثة نفر فقلت ومن هم قال هم فى مسجد الشونيزى قد أضنوا قلبى وانحلوا جسمى كلما هممت بهم أشاروا الى الله عز وجل فاكاد أن أحرق قال الجنيد فانتبهت من نومى ولبست ثيابى وجئت الى مسجد الشونيزى بليل فلما دخلت المسجد اذا أنا بثلاثة أنفس جلوس ورؤسهم فى مرقعاتهم فلما أحسوا بى قد دخلت أخرج أحدهم رأسه وقال يا أبا القاسم أنت كلما قيل لك شئ تقبل قيل ان الثلاثة الذين كانوا فى مسجد الشونيزى أبو حمزة وأبو الحسين النورى وأبو بكر الدقاق رضى الله عنهم وقال محمد بن قاسم الفارسى بات الجنيد ليلة العيد فى الموضع الذى كان يعتاده فى البرية فاذا هو وقت السحر بشاب ملتف فى عباءة وهو يبكى ويقول

بحرمة غربتى كم ذا الصدود * ألا تحنو على ألا تجود * سرور العيد قد عم النواحى
وحزنى فى ازدياد لا يبيد * فان كنت اقترفت خلال سوء * فعذرى فى الهوى أن لا أعود

توفى الجنيد رحمه الله تعالى سنة سبع وتسعين ومائتين ببغداد وصلى عليه نحو ستين ألفا رضوان الله عليهم أجمعين * وممن صحبته وانتفعت بصحبته وفاضت الخيرات على ببركته سيدى الشيخ الامام العالم العامل أبو المعالى

حنيفة فحضر يوما عند أمير المؤمنين فقال الربيع يا أمير المؤمنين ان أبا حنيفة يخالف جدك ابن عباس وكان جدك يقول اذا حلف الرجل على شئ ثم استثنى بعد ذلك بيوم أو بيومين كان ذلك جائزا وأبو حنيفة لا يجوز ذلك الا متصلا باليمين فقال أبو حنيفة يا أمير المؤمنين ان الربيع يزعم أن ليس لك فى رقاب جندك عهد قال كيف ذلك قال يحلفون لك ثم يرجعون الى منازلهم فيستثنون فتبطل أيمانهم فضحك المنصور وقال يا ربيع لا تتعرض لأبى حنيفة (ومنه) ان الامام أبا حنيفة رضى الله عنه قال دخلت البادية فاحتجت الى الماء فجاءنى اعرابى ومعه قربة ملآنة فأبى أن يبيعها الا بخمسة دراهم فدفعتها له ثم أخذت القربة فقلت ما رأيك يا اعرابى فى السويق فقال هات فأعطيته سويقا ملتوتا بزيت فجعل يأكل حتى امتلا ثم عطش فقال على بشربة فقلت بخمسة دراهم على قدح من ماء فاستردت الخمسة وبقى الماء (ومنه) انه استودع رجل بالكوفة رجلا مالا وحج ورجع فطلبه فجحده وجعل يحلف له فانطلق الرجل الى أبى حنيفة فخلا به وأخبره بذلك فقال له الامام لا تكلم أحدا بجحوده وكان الرجل يجالس أبا حنيفة فقال له وقد خلا لهم المكان ان هؤلاء بعثوا يستشيروننى فى رجل يصلح للقضاء وقد اخترتك فانصرف من عند الامام فجاء صاحب الوديعة فقال له الامام ارجع الى صاحبك وذكره لاحتمال أن يكون ناسيا فذهب اليه وسأله فلم يحتج معه الى علامة بل دفع اليه متاعه وتوجه بعد ذلك الى أبى حنيفة فقال له أبو حنيفة انى نظرت فى أمرك فأردت أن أرفع قدرك ولا أسميك حتى يحضر ما هو أنفس من هذا (ومنه) انه كان بجوار أبى حنيفة شاب يغشى مجلسه فقال له

وأبو الصدق أبو بكر بن عمر الطريني المالكي قدس الله سره وروحه ونور ضريحه كان أوحد زمانه في الزهد والورع قامعا لاهل الضلال والبدع وله أسرار ظاهرة وبركات متواترة قد أطاع أمره الخلائق عجما وعربا وانتشر ذكره في البلاد شرقا وغربا وأتت الملوك الى بابه واختاروا أن يكونوا من جملة أصحابه ما أتاه مكروب الا فرج كربته ولا طالب حاجة الا قضى الله حاجته كان محافظا على النوافل ملازما للفرض وكان أكثر أكله من المباح من نبات الارض لم يمتع نفسه في الدنيا بالمآكل والمشارب اللذيذة بل قيل انه غضب على نفسه مرة فمنعها شرب الماء شهورا عديدة وكان رضي الله عنه كثير الشفقة والحنو على أصحابه نصوحا لجميع خلق الله من أعدائه وأحبابه يدخل عليه أعدى عدوه فيقبل ببشره وبره عليه فيخرج من عنده وهو أحب الناس اليه كما قال بعضهم

وانى لالقى المرء أعلم انه * عدوى وفى أحشائه الضغن كامن
فأمنحه بشرى فيرجع قلبه * سليما وقد ماتت لديه الضغائن

وكانت جملة أهل زمانه عليه وأحوالهم في كل أمر راجعة اليه وكنت كثيرا ما أسمعه يتمثل بهذا البيت

وما حملونى الضيم الا حملته * لانى محب والمحب حمول

وكان رضي الله عنه كثير المصافاة عظيم الموافاة شأنه الحلم والستر لم يهتك حرمة مسلم ولا فضحه وما استشاره أحد في أمر الا أرشده الى الخير ونصحه صحبته رضي الله عنه نحو خمس عشرة سنة فكأنها من طيبها كانت سنة ما قطع بره يوما واحدا عني حتى كنت أظن ان ليس عنده أخص مني وكان ذلك فعله مع جميع أصحابه فاطبة بيض الله وجهه في القيامة وبلغه من فضل ربه ما آربه وكان رضي الله عنه فقيها في مذهب الامام مالك اماما كبيرا لم ير له في زمانه من شبيه ولا نظير وله في علم الحقيقة أقوال وكم رأينا له من مكاشفات وأحوال ولو تتبعت مناقبه لا تسع الكلام ولكني أقول كان أوحد عصره والسلام عاش رضي الله عنه نيفا وستين سنة وكان الناس في زمانه في عيشة راضية وأحوال حسنة وكان رضي الله عنه كثير الامراض والاسقام حصل له في آخر عمره ضعف شديد أقام به نحو سنة ثم تزايد مرضه في العشر الاول من ذي الحجة الحرام فلما كانت ليلة الحادي عشر اشتد به الامر واحتضر ولم يزل في النزع الى ثلث الليل الاول من الليلة المذكورة ثم توفي رحمه الله تعالى سعيدا حميدا في ليلة الجمعة حادي عشر ذي الحجة الحرام سنة سبع وعشرين وثمانمائة ولما أخبر الناس بوفاته عظم مصابه على المسلمين ووقع النوح والبكاء والاسف في أقطار البلدان حتى طوائف المخالفين للملة من النصارى وغيرهم وصاروا يبكون ويتوجعون ويتأسفون على فراقه كيف لا وهو امام العصر علامة الدهر حق فيه قول القائل

حلف الزمان ليأتين بمثله * حنثت يمينك يا زمان فكفر

رضي الله عنه ورضي عنا به ونفعنا ببركته في الدين والدنيا والآخرة فشرعوا في تجهيزه وغسله فكنت ممن حضر غسله ولكن لم يكن ذهني معي في تلك الساعة لما جرى علينا من المصيبة بفقده كيف لا وقد كان لي والدا شفوقا وبارا محسنا عشوقا فلما انتهى غسله رضي الله عنه جاء القضاة والنواب والكشاف والولاة وحملوه على أعناقهم ومضوا به الى جامع الخطبة بالمحلة فضاق بهم الجامع على سعته وضاقت الشوارع والسكك والطرقات من كثرة الناس فلم ير أكثر جمعا ولا أغزر دمعا من ذلك اليوم وهذا دليل على أنه كان قطب أهل زمانه * قال الامام أحمد بن حنبل رضي الله عنه بيننا وبينهم الجنائز يريد بذلك اجتماع الناس والله أعلم فارتفع نعشه على أعناقهم وتقدم للصلاة شيخه العارف بالله تعالى سيدي سليمان الدواخلي نفعنا الله ببركته ودفن يوم الجمعة بزاويته التي أنشأها بسنفد فامع والده الشيخ الامام العالم العلامة مفتي المسلمين سراج الدين أبي حفص عمر الطريني المالكي في قبر واحد نفعنا الله ببركته وجعل الجنة متقلبه ومثواه وحشرنا واياه في زمرة سيد الاولين والآخرين محمد خاتم النبيين وأفضل المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ونسأله التوفيق والاعانة وأن يمتع المسلمين بطول بقاء أخيه سيدنا ومولانا الشيخ شمس الدين محمد الطريني أدام الله أيامه للمسلمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

﴿الباب الحادي والثلاثون في مناقب الصالحين وكرامات الاولياء رضي الله عنهم﴾

﴿اعلم﴾ أن كرامات الاولياء لا تنكر ومناقبهم أكثر من أن تحصر نسأل الله تعالى أن يحشرنا معهم في زمرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يوم المحشر انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير وهو حسبنا ونعم الوكيل

يوما من الأيام يا امام أريد التزويج الى فلانة من أهل الكوفة وقد خطبتها من وليها فطلب مني من المهر فوق وسعي وطاقتي فقال أبو حنيفة فاستخر الله تعالى وأعطهم ما طلبوه فلما عقدوا النكاح جاء الى أبي حنيفة فقال اني سألتهم أن يأخذوا مني البعض ويدعوا البعض عند الدخول فأبوا فما ترى قال احتل واقترض حتى تدخل بأهلك فان الامر يكون أسهل عليك من تعقيدهم ففعل ذلك فلما زفت اليه ودخل بها قال له أبو حنيفة ما عليك أن تظهر الخروج بأهلك عن هذا البلد الى موضع بعيد فاكترى الرجل جملين وأحضر آلة السفر وما يحتاج اليه وأظهر أنه يريد الخروج من البلد في طلب المعاش وأن يصحب أهله معه فاشتد ذلك على أهل المرأة وجاؤا الى أبي حنيفة يستشيرونه فقال لهم أبو حنيفة له أن يخرجها الى حيث شاء فقالوا لم نصبر على ذلك فقال أرضوه بأن تردوا عليه ما أخذتم منه فأجابوه الى ذلك فقال أبو حنيفة للفتى ان القوم قد سمحوا وأجابوا الى أن يردوا عليك ما أخذوا منك من المهر ويبروك فقال الفتى لا بد من زيادة آخذها منهم فقال أبو حنيفة أيما أحب اليك أن ترضى بما بذلوا لك والا أقرت المرأة لرجل بدين عليها ولا يمكنك حملها ولا السفر بها حتى يقضى ما عليها من الدين قال فقال الفتى الله الله يا امام لا يسمع أحد منهم بذلك ثم أجاب وأخذ ما بذلوه من المهر (ومنه) أن رجلا جاء الى أبي حنيفة وقال يا امام دفنت مالا من مدة طويلة ونسيت الموضع الذي دفنته فيه فقال الامام ليس في هذا فقه فأحتال لك ولكن اذهب فصل الليلة الى الغداة فانك ستذكره ان شاء الله تعالى ففعل فلم يمض الا أقل من ربع الليل حتى ذكر الموضع

(حكاية) قال مالك بن دينار رحمه الله تعالى احتبس عنا المطر بالبصرة فخرجنا نستسقي مرارا فلم نر للاجابة أثرا فخرجت أنا وعطاء السلمي وثابت البناني ويحيى البكاء ومحمد بن واسع وأبو محمد السختياني وحبيب الفارسي وحسان بن ثابت بن أبي سنان وعتبة الغلام وصالح المزني حتى اذا صرنا الى المصلى بالبصرة خرج الصبيان من المكاتب ثم استسقينا فلم نر للاجابة أثرا حتى انتصف النهار وانصرف الناس وبقيت أنا وثابت البناني بالمصلى فلما أظلم الليل اذا أنا بعبد أسود مليح دقيق الساقين عليه جبة صوف قومت ما عليه بدرهمين فجاء بماء فتوضأ ثم جاء الى المحراب فصلى ركعتين خفيفتين ثم رفع طرفه الى السماء وقال الهي وسيدي ومولاي الى كم ترد عبادك فيما لا ينقصك أنفد ما عندك أم نقص ما في خزائنك أقسمت عليك بحبك لي الا ما أسقيتنا غيثك الساعة قال فما تم كلامه حتى تغيمت السماء وجاءت بمطر كأفواه القرب قال مالك فتعرضت له وقلت له يا أسود أما تستحي مما قلت قال وما قلت قلت قولك بحبك لي وما يدريك أنه يحبك قال تنح عني يا من اشتغل عنه بنفسه أفتراه بدأني بذلك الا لمحبته اياي ثم قال محبته لي على قدره ومحبتي له على قدري فقلت له يرحمك الله ارفق قليلا فقال اني مملوك وعلي فرض من طاعة مالكي الصغير قال فانصرف وجعلنا نقفو أثره على البعد حتى دخل دار نخاس فلما أصبحنا أتينا النخاس فقلت يرحمك الله عندك غلام تبيعه منا للخدمة قال نعم عندي مائة غلام للبيع فجعل يعرض علينا غلاما بعد غلام حتى عرض علينا سبعين غلاما فلم ألق حبيبي فيهم فقال عودوا الي في غير هذا الوقت فلما أردنا الخروج من عنده دخلنا حجرة خربة خلف داره واذا بالاسود قائم يصلي فقلت حبيبي ورب الكعبة فجئت الى النخاس فقلت له بعني هذا الغلام فقال يا أبا يحيى هذا الغلام ليست له همة في الليل الا البكاء وفي النهار الا الخلوة والوحدة فقلت له لا بد من أخذه منك ولك الثمن وما عليك منه فدعاه فجاء وهو يتناعس فقال خذه بما شئت بعد أن تبرئني من عيوبه كلها فاشتريته منه بعشرين دينارا وقلت له ما اسمك قال ميمون وأخذت بيده أريد المنزل فالتفت الي وقال يا مولاي الصغير لماذا اشتريتني وأنا لا أصلح لخدمة المخلوقين فقلت له والله يا سيدي انما اشتريتك لاخدمك بنفسي قال ولم ذلك فقلت ألست صاحبنا البارحة بالمصلى قال بلى وقد اطلعت على ذلك قلت نعم وأنا الذي عارضتك البارحة في الكلام بالمصلى قال فجعل يمشي حتى أتى الى مسجد فاستأذنني ودخل المسجد فصلى فيه ركعتين خفيفتين ثم رفع طرفه الى السماء وقال الهي وسيدي ومولاي سر كان بيني وبينك أطلعت عليه غيرك فكيف يطيب الآن عيشي أقسمت عليك بك الا ما قبضتني اليك الساعة ثم سجد فانتظرته ساعة فلم يرفع رأسه فجئت اليه وحركته فاذا هو قد مات رحمة الله تعالى عليه قال فمددت يديه ورجليه فاذا هو ضاحك مستبشر وقد غلب البياض على السواد ووجهه كالقمر ليلة البدر واذا شاب قد دخل من الباب وقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أعظم الله اجورنا وأجوركم في أخينا ميمون ها كم الكفن فناولني ثوبين ما رأيت مثلهما قط فغسلناه وكفناه فيهما ودفناه قال مالك بن دينار فقبره نستسقي به الى الآن ونطلب الحوائج من الله تعالى رحمة الله عليه (وحكي) عن حذيفة المرعشي رضي الله عنه وكان قد خدم ابراهيم الخواص رضي الله عنه وصحبه مدة فقيل له ما أعجب ما رأيت منه فقال بقينا في طريق مكة أياما لم نأكل طعاما فدخلنا الكوفة فأوينا الى مسجد خرب فنظر الي ابراهيم وقال يا حذيفة أرى بك أثر الجوع فقلت هو كما ترى فقال علي بدواة وقرطاس فأحضرتهما اليه فكتب بسم الله الرحمن الرحيم أنت المقصود بكل حال والمشار اليه بكل معنى ثم قال

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر * أنا جائع أنا ضائع أنا عاري
هي ستة وأنا الضمين لنصفها * فكن الضمين لنصفها يا باري
مدحي لغيرك لهب نار خضتها * فأجر عبيدك من لهيب النار

قال حذيفة ثم دفع الي الرقعة وقال اخرج بها ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى وادفعها الى أول من يلقاك قال فخرجت فأول من لقيني رجل على بغلة فناولته الرقعة فأخذها فقرأها وبكى وقال ما فعل بصاحب هذه الرقعة قلت هو في المسجد الفلاني فدفع الي صرة فيها ستمائة درهم فأخذتها ومضيت فوجدت رجلا فسألته من هذا الراكب على البغلة فقال هو رجل نصراني قال فجئت ابراهيم وأخبرته بالقصة فقال لا تمس الدراهم فان صاحبها يأتي الساعة فلما كان بعد الساعة أقبل النصراني راكبا على بغلته فترجل على باب المسجد ودخل فأكب على ابراهيم يقبل رأسه ويديه ويقول أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله قال

الذي دفن فيه فجاء الى أبي حنيفة فأخبره فقال قد علمت أن الشيطان لا يدعك تصلي الليل كله فهلا أتممت ليلتك كلها شكرا لله تعالى (ومنه) أن بعضهم كانت له زوجة جميلة وكان يحبها حبا شديدا وتبغضه بغضا شديدا ولم تزل المنافرة بينهما ألبتة فأضجره ذلك وطالت مدة تجرئها عليه في الكلام فقال لها يوما أنت طالق ثلاثا بتاتا ان خاطبتيني بشئ ولم أخاطبك بشئ مثله فقالت له في الحال أنت طالق ثلاثا بتاتا فأبلس الرجل ولم يدر ما يجيب وخاف في جوابها من وقوع الطلاق وأرشد الى أبي جعفر الطبري فأخبره بما جرى فقال له اذا طالبتك بالجواب فقل لها أنت طالق ثلاثا بتاتا ان أنا طلقتك فتكون قد خاطبتها ووفيت بيمينك (ومنه) ما قيل ان ذا النون المصري كان يعرف الاسم الاعظم قال يوسف بن الحسين لما تحققت منه ذلك قصدت مصر وخدمته سنة ثم قلت له يرحمك الله اني قد خدمتك ووجب حقي عليك وأشتهي أن تعلمني اسم الله الاعظم فلا تجد له موضعا مثلي قال فسكت ولم يجبني ستة أشهر وأومأ الى أنه يعلمني ثم أخرج من بيته طبقا ومكبة وقد شد عليه منديل وكان ذو النون يسكن الجيزة فقال تعرف فلانا صديقنا من الفسطاط قلت نعم قال فأحب أن تؤدي هذا اليه قال فأخذت الطبق وهو مشدود وجعلت أمشي طول الطريق وأقول مثل ذي النون يوجه الى فلان بهدية ترى أي شئ هي فلم أصبر أن بلغت الجسر فحللت المنديل ورفعت المكبة فاذا فأرة نفرت من الطبق وفرت فاغتظت غيظا شديدا وقلت ذو النون المصري يسخر بي ويوجه مع مثلي فأرة فرجعت على ذلك الغيظ فلما رآني عرف ما في وجهي فقال يا أحمق

فبكى ابراهيم الخواص فرحا به وسرورا وقال الحمد لله الذى هدانا للاسلام وشريعة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ❊(وحكى)❊ أن بعضهم كان ملاحا ببحر النيل المبارك بمصر قال كنت أعدى من الجانب الغربى الى الجانب الشرقى ومن الجانب الشرقى الى الجانب الغربى فبينما أنا ذات يوم فى الزورق اذا بشيخ مشرق الوجه عليه مهابة فقال السلام عليكم فرددت عليه السلام فقال أتحملنى الى الجانب الغربى لله تعالى فقلت نعم فطلع الى الزورق وعديت به الى الجانب الغربى وكان على ذلك الفقير مرقعة وبيده ركوة وعصا فلما أراد الخروج من الزورق قال انى اريد أن أحملك أمانة قلت وما هى قال اذا كان غدا وقت الظهر تجدنى عند تلك الشجرة ميتا وستنسى فاذا ألهمت فائتنى وغسلنى وكفنى فى الكفن الذى تجده عند رأسى وصل على وادفنى تحت الشجرة وهذه المرقعة والعصا والركوة يأتيك من يطلبها منك فادفعها اليه ولا تحتقره قال الملاح ثم ذهب وتركنى فتعجبت من قوله وبت تلك الليلة فلما أصبحت انتظرت الوقت الذى قال لى فلما جاء وقت الظهر نسيت فما تذكرت الا قريب العصر فسرت بسرعة فوجدته تحت الشجرة ميتا ووجدت كفنا جديدا عند رأسه تفوح منه رائحة المسك فغسلته وكفنته فلما فرغت من غسله حضر عندى جماعة عظيمة لم أعرف منهم أحدا فصلينا عليه ودفنته تحت الشجرة كما عهد الى ثم عدت الى الجانب الشرقى وقد دخل الليل فنمت فلما طلع الفجر وبانت الوجوه اذا أنا بشاب قد أقبل على فحققت النظر فى وجهه فاذا هو من صبيان الملاهى كان يخدمهم فأقبل وعليه ثياب رقاق وهو مخضوب الكفين وطاره تحت ابطه فسلم على فرددت عليه السلام فقال يا ملاح أنت فلان ابن فلان قلت نعم قال هات الوديعة التى عندك قلت ومن أين لك هذا قال لا تسأل فقلت لا بد أن تخبرنى فقال لا أدرى الا أنى البارحة كنت فى عرس فلان التاجر فسهرنا نرقص ونغنى الى أن ذكر الله الذاكرون على المآذن فنمت لاستريح واذا برجل قد أيقظنى وقال ان الله تعالى قد قبض فلانا الولى وأقامك مقامه فسر الى فلان بن فلان صاحب الزورق فان الشيخ أودع لك عنده كيت وكيت قال فدفعتها له فخلع أثوابه الرقاق ورمى بها فى الزورق وقال تصدق بها على من شئت وأخذ الركوة والعصا ولبس المرقعة وسار وتركنى أحترق وأبكى لما حرمت من ذلك وأقمت يومى ذلك أبكى الى الليل ثم نمت فرأيت رب العزة جل جلاله فى النوم فقال يا عبدى أثقل عليك ان مننت على عبد عاص بالرجوع الى انما ذلك فضلى أوتيه من أشاء من عبادى وأنا ذو الفضل العظيم (وحكى) أبو اسحق الصعلوكى قال خرجت سنة الى الحج فبينما أنا فى البادية تائه وقد جن الليل وكانت ليلة مقمرة اذ سمعت صوت شخص ضعيف يقول يا أبا اسحق قد انتظرتك من الغداة فدنوت منه فاذا هو شاب نحيف الجسم قد أشرف على الموت وحوله رياحين كثيرة منها ما أعرف ومنها ما لا اعرف فقلت له من أنت ومن أين أنت قال من مدينة شمشاط كنت فى عزة ورفعة فطالبتنى نفسى بالغربة والعزلة فخرجت وقد أشرفت الآن على الموت فدعوت الله تعالى أن يقيض لى وليا من اوليائه وارجو أن تكون أنت هو فقلت ألك حاجة قال نعم لى والدة واخوة واخوات فقلت هل اشتقت اليهم قط قال لا الا اليوم اشتقت أن اشم ريحهم فهممت أن أردهم فاحتوشتنى السباع والهوام وبكين معى وحملوا الى هذه الرياحين التى تراها قال أبو اسحق فبينما أنا معه يرق له قلبى واذا بحية عظيمة فى فمها باقة نرجس كبيرة فقالت دع ولى الله تعالى فان الله يغار على اوليائه قال فغشى عليه وغشى على فما أفقت الا وهو قد خرجت روحه رحمه الله قال فدخلت مدينة شمشاط بعد ما حججت فاستقبلتنى امرأة بيدها ركوة ما رأيت أشبه بالشاب منها فلما رأتنى نادت يا أبا اسحق ما شأن الشاب الغريب الذى مات غريبا فى منتظرتك منذ كذا فذكرت لها القصة الى أن قلت لها اشم ريحهم فصاحت أواه أواه قد بلغ والله الشم ثم شهقت شهقة خرجت روحها فخرج اليها بنات اتراب عليهن مرقعات ومروط فكفلن امرها وتولين دفنها وهن مستترات رضوان الله على الجميع شعر

يا نسيما هب من وادى قبا ❊ خبرنى كيف حال الغربا
كم سألت الدهر أن يجمعنا ❊ مثل ما كنا عليه فأبى

(وحكى) أن رجلا كان يعرف بدينار العيار وكان له والدة صالحة تعظه وهو لا يتعظ فمر فى بعض الأيام بمقبرة فأخذ منها عظما فتفتت فى يده ففكر فى نفسه وقال ويحك يا دينار كأنى بك وقد صار عظمك هكذا رفاتا والجسم ترابا فندم على تفريطه وعزم على التوبة ورفع رأسه الى السماء وقال الهى وسيدى ألقيت مقاليد أمرى

ائتمنتك على فأرة فخنتنى فكيف أأتمنك على اسم الله الاعظم فسر عنى فلا أراك بعدها (ومن ذلك ما هو منقول عن الافراط فى ذكاء العرب) قيل سار مضر وربيعة واياد وانمار أولاد نزار بن معد الى أرض نجران فبينما هم يسيرون اذ رأى مضر كلأ قد رعى فقال البعير الذى رعى هذا أعور فقال ربيعة وهو أزور وقال اياد وهو أبتر وقال انمار وهو شرود فلم يسيروا الا قليلا حتى لقيهم رجل على راحلة فسألهم عن البعير فقال مضر أهو أعور قال نعم قال ربيعة أهو أزور قال نعم قال اياد أهو أبتر قال نعم قال انمار أهو شرود قال نعم والله هذه صفات بعيرى دلونى عليه فحلفوا انهم ما رأوه فلزمهم وقال فكيف أصدقكم وأنتم تصفون بعيرى بصفته فساروا حتى قربوا نجران فنزلوا بالأفعى الجرهمى فنادى صاحب البعير هؤلاء القوم وصفوا لى بعيرى بصفته ثم أنكروه فقال الجرهمى كيف وصفتموه ولم تروه فقال مضر رأيته يرعى جانبا ويترك جانبا فعلمت أنه أعور وقال ربيعة رأيت احدى يديه ثابتة الاثر والأخرى فاسدة الأثر فعلمت أنه أفسدها بشدة وطئه لازوراره وقال اياد عرفت بتره باجتماع بعره ولو كان ذيالا لتفرق وقال أنمار انما عرفت انه شرود لانه كان يرعى فى المكان الملتف نبته ثم يجوزه الى مكان أرق منه وأخبث فقال الافعى ليسوا باصحاب بعيرك فاطلبه ثم سألهم من هم فاخبروه فرحب بهم وأضافهم وبالغ فى اكرامهم (ومنه) أن عقبة الأزدى كان مشهورا بمعالجة الجن وصدق العزائم فأتوه بجارية قد جنت فى ليلة عرسها ليعزم عليها فاذا هى قد سقطت فقال لأهلها اخلونى بها

فاقبلني وارحمني ثم اقبل نحو امه متغير اللون منكسر القلب فقال ياأماه ما يصنع بالعبد الآبق اذا أخذه سيده
قالت يخشن ملبسه ومطعمه ويغل يديه وقدميه فقال اريد جبة من صوف واقراصا من شعير وغلين وافعلي بي
كما يفعل بالعبد الآبق لعل مولاي يرى ذلي فيرحمني ففعلت به ما أراد فكان اذا جن عليه الليل اخذ في البكاء
والعويل ويقول لنفسه ويحك يا دينار الك قوة على النار كيف تعرضت لغضب الجبار ولا يزال كذلك الى
الصباح فقالت له امه يابني ارفق بنفسك فقال دعيني اتعب قليلا لعلي استريح طويلا ياأماه ان لي غدا موقفا
طويلا بين يدي رب جليل ولا ادري أيؤمر بي الى ظل ظليل اوالى شر مقيل قالت يابني خذ لنفسك راحة
قال لست للراحة اطلب كانك ياأماه غدا بالخلائق يساقون الى الجنة وأنا اساق الى النار مع اهلها فتركته وما هو
عليه فاخذ في البكاء والعبادة وقراءة القرآن فقرأ في بعض الليالي فوربك لنسألنهم اجمعين عما كانوا يعملون
ففكر فيها وجعل يبكي حتى غشي عليه فجاءت امه اليه فنادته فلم يجبها فقالت له ياحبيبي وقرة عيني أين الملتقى
فقال بصوت ضعيف ياأماه ان لم تجديني في عرصات القيامة فاسألي مالكا خازن النار عني ثم شهق شهقة فمات
رحمه الله تعالى فغسلته امه وجهزته وخرجت تنادي ايها الناس هلموا الى الصلاة على قتيل النار فجاء الناس
من كل جانب فلم يرا كثر جمعا ولا اغزر دمعا من ذلك اليوم فلما دفنوه نام بعض اصدقائه تلك الليلة فرآه يتبختر
في الجنة وعليه حلة خضراء وهو يقرأ الآية فوربك لنسألنهم اجمعين عما كانوا يعملون ويقول وعزته وجلاله
سألني ورحمني وغفر لي وتجاوز عني ألا اخبروا عني والدتي بذلك (وحكى) عن الحسن البصري قال نزل
سائل بمسجد فسأل الناس أن يطعموه كسرة فلم يطعموه فقال الله تعالى لملك الموت اقبض روحه فانه جائع
فقبض روحه فلما جاء المؤذن رآه ميتا فاخبر الناس بذلك فتعاونوا على دفنه فلما دخل المؤذن المسجد وجد
الكفن في المحراب مكتوبا عليه هذا الكفن مردود عليكم بئس القوم انتم استطعمكم فقير فلم تطعموه حتى مات
جوعا من كان من احبابنا لا نكله الى غيرنا (وحكى) أبو علي المصري قال كان لي جار شيخ يغسل الموتى فقلت له
يوما حدثني بأعجب ما رأيت من الموتى فقال جاءني شاب في بعض الأيام مليح الوجه حسن الثياب فقال لي أتغسل
لنا هذا الميت قلت نعم فتبعته حتى أوقفني على باب فدخل هنيهة فاذا بجارية هي اشبه الناس بالشاب قد
خرجت وهي تمسح عينيها فقالت أنت الغاسل قلت نعم قالت بسم الله ادخل ولا حول ولا قوة الا بالله العلي
العظيم فدخلت الدار واذا أنا بالشاب الذي جاءني يعالج سكرات الموت وروحه في لبته وقد شخص بصره وقد
وضع كفنه وحنوطه عند رأسه فلم اجلس اليه حتى قبض فقلت سبحان الله هذا ولي من أولياء الله تعالى حيث
عرف وقت وفاته فأخذت في غسله وأنا أرتعد فلما ادرجته أتت الجارية وهي اخته فقبلته وقالت أما اني سألحق
بك عن قريب فلما اردت الانصراف شكرت لي وقالت أرسل الى زوجتك ان كانت تحسن ما تحسنه أنت
فارتعدت من كلامها وعلمت أنها لاحقة به فلما فرغت من دفنه جئت أهلي فقصصت عليها القصة وأتيت بها الى
تلك الجارية فوقفت بالباب واستأذنت فقالت بسم الله تدخل زوجتك فدخلت زوجتي واذا بالجارية مستقبلة
القبلة وقد ماتت فغسلتها زوجتي وأنزلتها على اخيها رحمة الله عليهما (شعر)

أأحبابنا بنتم عن الدار فاشتكت * لبعدكم آصالها وضحاها * وفارقتم الدار الأنيسة فاستوت
رسوم مبانيها وفاح كلاها * كأنكم يوم الفراق رحلتم * بنومي فعيني لا تصيب كراها
وكنت شحيحا من دموعي بقطرة * فقد صرت سمحا بعدكم بدماها * ترى اني بسا ما خليلي يظن بي
سرورا وأحشاي السقام ملاها * وكم ضحكة في القلب منها حرارة * يشب لظاها لو كشفت غطاها
رعى الله اياما بطيب حديثكم * تقضت وحياها الحيا وسقاها
فما قلت ايها بعدها لمسامر * من الناس الا قال قلبي آها

(وحكى) سري السقطي رحمه الله تعالى قال ارقت ليلة ولم أقدر على النوم فلما طلع الفجر صليت فلما اصبحت
دخلت المارستان فاذا أنا بجارية مقيدة مغلولة وهي تقول

تغل يدي الى عنقي * وما خانت وما سرقت * وبين جوانحي كبد * أحس بها قد احترقت

قال فقلت للقيم ماهذه الجارية قال هذه جارية اختل عقلها فحبست لعلها تصلح فلما سمعت كلامه تبسمت وقالت

معشر الناس ما جننت ولكن * أنا سكرانة وقلبي صاحي * لم غللتم يدي ولم آت ذنبا

فأجابوه فلما خلا بها قال لها اصدقيني
عن نفسك وعلي خلاصك فقالت
انه كان لي صديق وأنا في بيت أهلي
وانهم ارادوا ان يدخلوني على زوجي
ولست ببكر فخفت الفضيحة فهل
عندك حيلة في امري فقال نعم ثم
خرج الى اهلها فقال ان الجني قد
اجابني الى الخروج منها فاختاروا
من اي عضو اعلمه وان
العضو الذي يخرج منه الجني لا بد
ان يهلك ويفسد فان خرج من عينها
عميت وان خرج من اذنها صمت وان
خرج من يدها شلت وان خرج من
رجلها ازمنت وان خرج من فرجها
ذهبت بكارتها فقال أهلها انا لم
نجد شيأ اهون من ذهاب عذرتها
فاخرج الشيطان منه فاوهمهم أنه
فعل ذلك وادخلت المرأة على زوجها
(ومن ذلك) ان الامام عمر بن الخطاب
رضي الله عنه استعمل رجلا على
عمل فبلغه عنه انه قال

اسقني شربة ألذ عليها
واسق بالله مثلها ابن هشام

قال فاشخصه وعلم الرجل
بالحال فضم اليه بيتا آخر فلما قدم
على الامام قال ألست القائل

اسقني شربة ألذ عليها
واسق بالله مثلها ابن هشام

قال نعم يا أمير المؤمنين ان لهذا البيت
ثانيا وهو

عسلا باردا بماء سحاب
انني لا أحب شرب المدام

فقال الامام الله الله ارجع الى
عملك (ومن لطائف هزليات
الأذكياء) ان الرشيد خرج متنزها
فانفرد عن العسكر ومعه الفضل بن
الربيع فاذا هو بشيخ قد ركب حمارا
ضعيفا وهو رطب العينين فغمز
الفضل عليه فقال له الفضل أين
تريد ياشيخ فقال حائطا لي قال هل
أدلك على شيء تداوي به عينيك
فتذهب هذه الرطوبة فقال
ما أحوجني الى ذلك قال خذ عيدان

غير هتكي في حبه وافتضاحي * أنا مفتونة بحب حبيب * لست ابغي عن بابه من براح
ما على من احب مولى الموالي * وارتضاه لنفسه من جناح

قال فلما سمعت كلامها بكيت بكاء شديدا فقالت يا سري هذا بكاؤك من الصفة فكيف لو عرفته حق المعرفة قال فبينما هي تكلمني اذ جاء سيدها فلما رآني عظمني فقلت والله هي احق مني بالتعظيم فلم فعلت بها هذا قال لتقصيرها في الخدمة وكثرة بكائها وشدة حنينها وأنينها كأنها ثكلى لا تنام ولا تدعنا ننام وقد اشتريتها بعشرين ألف درهم لصناعتها فانها مطربة قلت فما كان بدء امرها قال كان العود في حجرها وهي ما جعلت تقول

وحقك لا نقضت الدهر عهدا * ولا كدرت بعد الصفو ودّا * ملأت جوانحي والقلب وجدا
فكيف أقر يا سكني واهدا * فيا من ليس لي مولى سواه * تراك رضيتني بالباب عبدا

فقلت لسيدها اطلقها وعلي ثمنها فصاح وافقراه من أين لك عشرون الفا يا سري فقلت لا تعجل علي فقال تكون في المارستان حتى توفيني ثمنها فقلت نعم قال سري فانصرفت وعيني تدمع وقلبي يخشع وأنا والله ما عندي درهم من ثمنها فبت طول ليلتي اتضرع الى الله تعالى فاذا بطارق يطرق الباب ففتحت فدخل على رجل ومعه ستة من الخدم ومعهم خمس بدر فقال أتعرفني يا سري قلت لا قال أنا أحمد بن المثنى كنت نائما فهتف بي هاتف وقال لي يا أحمد هل لك في معاملتنا فقلت ومن أولى مني بذلك فقال احمل الى سري السقطي خمس بدر من أجل الجارية الفلانية فان لنا بها عناية قال سري فسجدت لله شكرا وجلست أتوقع طلوع الفجر فلما طلع صلينا وذكرنا وانصرفنا نحوها فسمعناها تقول

قد تصبرت الى أن * عيل من حبك صبري ضاق من غلي وقيدي * وامتهاني منك صدري
ليس يخفى عنك أمري * يا مني قلبي وذخري أنت قد تعتق رقي * وتفك اليوم أسري

قال سري فبينما أنا أسمعها واذا بمولاها قد جاء وهو يبكي فقلت لا بأس عليك قد جئناك برأس مالك وربح عشرة آلاف درهم فقال والله لا فعلت ذلك قلت نزيدك قال والله لو أعطيتني ما بين الخافقين ما فعلت وهي حرة لوجه الله تعالى قال فتعجبت من ذلك وقلت ما كان هذا كلامك بالامس فقال حبيبي لا توبخني فالذي وقع لي من التوبيخ كفاني وأشهدك اني قد خرجت من جميع مالي صدقة في سبيل الله تعالى واني هارب الى الله تعالى فبالله لا تردني عن صحبتك فقلت نعم ثم التفت فرأيت صاحب المال يبكي فقلت ما يبكيك قال يا أستاذي ما قبلني مولاي لما ندبني اليه ورد على ما بذلت أشهدك أني قد خرجت من جميع ما أملكه لله تعالى في سبيل الله وكل عبد أملكه وجارية أحرار لوجه الله تعالى قال سري فقلت ما أعظم بركتك يا جارية قال فنزعنا الغل من عنقها والقيد من رجلها وأخرجناها من المارستان فنزعت ما كان عليها من ناعم الثياب ولبست خمارا من صوف ومدرعة من شعر وولت قال سري فتوجهت أنا ومولاها وصاحب المال الى مكة فبينما نحن نطوف اذ سمعنا صوتا فتبعناه فاذا هي امرأة كالخيال فلما رأتني قالت السلام عليك يا سري فقلت لها وعليك السلام ورحمة الله وبركاته من أنت فقالت لا اله الا الله وقع الشك بعد المعرفة فتأملتها فاذا هي الجارية فقلت لها ما الذي أفادك الحق بعد انفرادك عن الخلق فقالت انسني به ووحشتي من غيره ثم توجهت الى البيت وقالت الهي كم تخلفني في دار لا أرى فيها أنيسا قد طال شوقي اليك فعجل قدومي عليك ثم شهقت شهقة وخرت ميتة رحمة الله تعالى عليها فلما نظر اليها مولاها بكى وجعل يدعو ويضعف كلامه الى أن خر الى جانبها ميتا رحمة الله عليه فدفناهما في قبر واحد (شعر)

بحرمة ما قد كان بيني وبينكم * من الود الا ما رجعتم الى وصلي * ولا تحرموني نظرة من جمالكم
فلن تجدوا عبدا ذليلا لكم مثلي * فوالله ما يهوى فؤادي سواكم * ولو رشقوه بالأسنة والنبل

(وحكي) انه كان في زمن بني اسرائيل رجل من العباد الموصوفين بالزهد وكان قد سخر الله له سحابة تسير معه حيث يسير فاعتراه فتور في بعض الأيام فأزال الله عنه سحابته وحجب اجابته فكثر لذلك حزنه وشجونه وطال كمده وأنينه ومازال يشتاق الى زمن الكرامة ويبكي ويتأسف ويتحسر ويتلهف فقام ليلة من الليالي فصلى ما شاء الله وبكى وتضرع ودعا الله تعالى ونام فقيل له في المنام اذا أردت أن يرد الله تعالى عليك سحابتك فائت الملك الفلاني في بلد كذا واسأله أن يدعو الله لك أن يرد عليك سحابتك قال فسار الرجل يقطع الأرض

الهواء وغبار الماء وورق الكمأة فصير الجميع في قشر جوزة واكتحل من القشر فانه يذهب رطوبة عينيك فاتكأ الشيخ على ظهر حماره وضرط ضرطة طويلة ثم قال خذ هذه الضرطة اجرة وصفك فان نفعتنا زدناك فضحك الرشيد حتى كاد يسقط عن ظهر دابته (ومن الجد المفحم) ان رجلا من اليهود قال للامام علي رضي الله عنه ما دفنتم نبيكم حتى قال الأنصار منا أمير ومنكم أمير فقال له الامام أنتم ما جفت أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة (ومنه) أن المتوكل قال يوما لجلسائه نقم المسلمون على عثمان أشياء منها ان الامام أبا بكر رضي الله عنه لما تسنم المنبر هبط عن مقام النبي صلى الله عليه وسلم مرقاة ثم قام عمر دون مقام أبي بكر وصعد عثمان ذروة المنبر فقال عبادة ما أحد أعظم منة عليك من عثمان يا أمير المؤمنين قال وكيف ويلك قال لأنه صعد ذروة المنبر ولو انه كلما قام خليفة نزل مرقاة ونزل عثمان لكن تقدمه كنت أنت تخطبنا من بئر فضحك المتوكل ومن حوله (ومن المنقول عن أذكياء الأطباء) ان جارية من جواري الرشيد تمطت فلما أرادت أن تمد يدها لم تطق وحصل فيها الورم فصاحت وآلمها فشق على الرشيد وعجز الأطباء عن علاجها فقال له طبيب حاذق يا أمير المؤمنين لا دواء لها الا أن يدخل اليها رجل أجنبي غريب فيخلو بها ويمرخها بدهن نعرفه فأجابه الخليفة الى ذلك رغبة في عافيتها فأحضر الطبيب الرجل والدهن وقال أريد أن أمير المؤمنين يأمر بتعريتها حتى يمرخ جميع أعضائها بهذا الدهن فشق ذلك على الخليفة وأمره أن يفعل وأضمر في نفسه قتل الرجل وقال للخادم

حتى وصل الى تلك البلد التي ذكرت له في المنام فدخلها وسأل من يرشده الى قصر الملك فجاء الى القصر واذا عند بابه غلام جالس على كرسي عظيم من الذهب الأحمر مرصع بالدر والجوهر والناس بين يديه يسألونه حوائجهم وهو يصرف الناس فوقف الرجل الصالح بين يديه وسلم عليه فقال له الغلام من أين أنت وما حاجتك فقال من بلاد بعيدة وقصدي الاجتماع بالملك فقال له الغلام لا سبيل لك اليه اليوم فسل حاجتك أقضها لك ان استطعت فقال ان حاجتي لا يقضيها الا الملك فقال الغلام ان الملك ليس له الا يوم واحد في الجمعة يجتمع اليه الناس فيه فاذهب حتى يأتي ذلك اليوم فانصرف الرجل الى مسجد داثر وأقام يعبد الله تعالى فيه وأنكر على الملك لاحتجابه عن الناس فلما كان ذلك اليوم الذي يجلس فيه الملك جاء الى القصر فوجد خلقا كثيرا عند الباب ينتظرون الاذن فوقف مع جملة الناس فلما خرج الوزير أذن للناس في الدخول فدخل أرباب الحوايج ودخل صاحب السحابة معهم واذا بالملك جالس وبين يديه أرباب دولته على قدر مراتبهم فجعل رأس النوبة يقدم الناس واحدا بعد واحد حتى وصلت النوبة لصاحب السحابة فلما نظر اليه الملك قال مرحبا بصاحب السحابة اجلس حتى أفرغ من حوايج الناس وأنظر في أمرك قال فتحير صاحب السحابة في أمره فلما فرغ الملك من حوائج الناس قام من مجلسه فأخذ بيد صاحب السحابة وأدخله معه الى قصره ثم مشى به في دهليز القصر فلم يجد في طريقه الا مملوكا واحدا فسار به حتى انتهى الى باب من جريد واذا به بناء مهدوم وحيطان مائلة وبيت خرب فيه برش وليس هناك ما يساوي عشرة دراهم الا سجادة خلقة وقدح للوضوء وحصير رثة وشيء من الخوص فانخلع الملك من ثياب الملك ولبس مرقعة من صوف وجعل على رأسه قلنسوة من شعر ثم جلس وأجلس صاحب السحابة ونادى يا فلانة قالت لبيك قال أتدرين من هو الليلة ضيفنا قالت نعم هو صاحب السحابة فدعا بها الحاجة فخرجت فاذا هي امرأة كالشن البالي عليها مسح من شعر خشن وهي شابة صغيرة قال الرجل فالتفت الى الملك وقال يا أخي نطلعك على حالنا أو نقضي حاجتك وتنصرف فقلت والله لقد شغلني حالكما عما جئت بسببه فقال الملك الله يعلم انه كان لي في هذا الأمر آباء كرام صالحون يتوارثون المملكة كابرا عن كابر فلما توفوا الى رحمة الله تعالى ووصل الأمر الى بغض الله الى الدنيا وأهلها فأردت أن أسيح في الأرض وأترك الناس ينظرون لهم من يسوس أمرهم فيملكونه عليهم فخفت عليهم دخول الفتنة وتضييع الدين والشرائع وتبديد شمل الدين فبايعوني وأنا والله كاره فتركت أمورهم على ما كانت عليه وجعلت السماط على عادته والحراس على حالها والمماليك على دأبها ولم أغير شيئا وأقعدت المماليك على الأبواب بالسلاح ارهابا لأهل الشرور وردعا عن أهل الخير وتركت القصر مبنيا على حاله وفتحت له بابا وهو الذي رأيته يوصلني الى هذه الخربة فادخل فيها وأنزع ثياب الملك وألبس هذا وأضفر الخوص وأبيعه وأتقوت من ثمنه أنا وزوجتي هذه التي رأيتها وهي ابنة عمي زهدت في الدنيا كزهدي واجتهدت حتى صارت كالشن البالي والناس لا يعلمون ما نحن فيه ثم اني أقمت لي نائبا ينوب عني طول الجمعة وعلمت أني مسؤل فجعلت لي يوما في الجمعة أبرز للناس فيه وأكشف عن مظالمهم كما رأيت وأنا على هذه الحالة مدة فاقم عندنا يرحمك الله حتى نبيع خويصاتنا ونبتاع من ثمنها طعاما وتفطر معنا وتبيت عندنا الليلة ثم تنصرف بحاجتك ان شاء الله تعالى فلما كان آخر النهار دخل علينا غلام خماسي العمر فأخذ ما عملاه من خوص وسار به الى السوق فباعه واشترى من ثمنه خبزا وفولا واشترى بباقي ثمنه خوصا فلما كان عند الغروب أفطرا وأفطرت معهما وبت عندهما قال فقاما في نصف الليل يصليان ويبكيان فلما كان عند السحر قال الملك اللهم ان عبدك هذا يطلب منك رد سحابته وانك قد دللته علينا اللهم ارددها عليه انك على كل شيء قدير والمرأة تؤمن على دعائه واذا بالسحابة قد طلعت من قبل السماء فقال لي لك البشارة بقضاء حاجتك وتعجيل اجابتك قال فودعتهما وانصرفت والسحابة معي كما كانت فانا بعد ذلك لا أسأل الله تعالى بسرهما شيئا الا أعطاني اياه رحمة الله تعالى عليهما (شعر)

استعمل الصبر تجني بعده العسلا * ولازم الباب حتى تبلغ الأملا * ومرغ الخد في أعتابه سحرا
واحمل ارضائه في الحب كل بلا * فما يفوز بوصل يا أخي سوى * صلب لثقل الهوى والوجد قد حملا
هذا الحبيب ينادي في الدجى سحرا * فانهض وكن رجلا بالسعي قد وصلا

(وحكى) عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى قال خرجت الى مكة حاجا فبينما أنا سائر اذ رأيت شابا ساكتا لا يذكر

فخذه وأدخله عليها بعد أن تعريها فعريت الجارية وأقيمت فلما دخل عليها وقرب منها وسعى اليها وأومأ بيده الى فرجها ليمسه غطت الجارية فرجها بيدها التي قد كانت عطلت حركتها واشتدة ما داخلها من الحياء والجزع حمي جسمها بانتشار الحرارة الغريزية فأعانها على ما أرادت من تغطية فرجها واستعمال يدها في فرجها فلما غطت فرجها قال لها الرجل الحمد لله على العافية فأخذه الخادم وجاء به الى الرشيد وأعلمه بالحال وما اتفق فقال الرشيد للرجل فكيف تعمل في رجل نظر الى حرمنا فمد الطبيب يده الى لحية الرجل فانتزعها فاذا هي ملصقة واذا الشخص جارية وقال يا أمير المؤمنين ما كنت لابذل حرمك للرجل ولكن خشيت ان اكشف لك الخبر فيتصل بالجارية فتبطل الحيلة ولا يفيد العلاج لاني أردت أن أدخل على قلبها فزعا شديدا يحمي طبعها ويقودها الى تحريك يدها وتمشي الحرارة الغريزية في سائر أعضائها بهذه الواسطة فسري عن الرشيد ما كان وقر في صدره من الرجل وأجزل عطيته (ومن المنقول عن أذكياء المتطفلين) قال أبو عمرو الجهضمي كان لي جار طفيلي وكان من أحسن الناس منظرا وأعذبهم منطقا وأطيبهم رائحة فكان من شأنه اذا دعيت الى وليمة يتبعني فيكرمه الناس من أجلي ويظنون صحبتي له فاتفق ان جعفر بن القاسم الهاشمي أمير البصرة أراد أن يختن أولاده فقلت في نفسي كأني برسول الامير قد جاءني وكأني بالطفيلي قد تبعني والله لئن فعل لافضحنه فانا على ذلك اذ جاءني رسول الامير يدعوني فما زدت على أن لبست ثيابي وخرجت فاذا أنا بالطفيلي واقف على باب داره وقد سبقني بالتأهب فتقدمت وتبعني

الله تعالى فلما جن الليل رفع وجهه نحو السماء وقال يا من لا تسره الطاعات ولا تضره المعاصي هب لي ما لا يسرك
واغفر لي ما لا يضرك ثم رأيته بذي الحليفة وقد لبس احرامه والناس يلبون وهو لا يلبي فقلت هذا جاهل فدنوت
منه فقلت له يا فتى قال لبيك قلت لم لا تلبي فقال يا شيخ وما تغني التلبية وقد بارزته بذنوب سالفات وجرائم
مكتوبات والله اني لأخشى أن أقول لبيك فيقول لا لبيك ولا سعديك لا أسمع كلامك ولا أنظر اليك فقلت له
لا تقل فانه حليم اذا غضب رضي واذا رضي لم يغضب واذا وعد وفى ومتى توعد عفا فقال يا شيخ أتشير علي بالتلبية
قلت نعم فبادر الى الأرض واضطجع ووضع خده على التراب وأخذ حجرا فوضعه على خده الآخر وأسبل دموعه
وقال لبيك اللهم لبيك قد خضعت لك وهذا مصرعي بين يديك فأقام كذلك ساعة ثم مضى فما رأيته الا بمنى
وهو يقول اللهم ان الناس قد ذبحوا ونحروا وتقربوا اليك وليس لي شيء أتقرب به اليك سوى نفسي فتقبلها
مني ثم شهق شهقة وخر ميتا رحمة الله تعالى عليه (وحكي) أنه كان بمدينة بغداد رجل يعرف بأبي
عبد الله الأندلسي وكان شيخا لكل من بالعراق وكان يحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم وكان يقرأ القرآن بجميع الروايات فخرج في بعض السنين الى السياحة ومعه جماعة من أصحابه مثل
الجنيد والشبلي وغيرهما من مشايخ العراق قال الشبلي فلم نزل في خدمته ونحن مكرمون بعناية الله تعالى الى
ان وصلنا الى قرية من قرى الكفار فطلبنا ماء نتوضأ به فلم نجد فجعلنا ندور بتلك القرية واذا نحن بكنائس
وبها شمامسة وقساقسة ورهبان وهم يعبدون الأصنام والصلبان فتعجبنا منهم ومن قلة عقلهم ثم انصرفنا الى بئر في
آخر القرية واذا نحن بجوار يستقين الماء على البئر وبينهن جارية حسنة الوجه ما فيهن احسن ولا أجمل منها
وفي عنقها قلائد الذهب فلما رآها الشيخ تغير وجهه وقال هذه ابنة من فقيل له هذه ابنة ملك هذه القرية فقال
الشيخ فلم لا يدللها أبوها ويكرمها ولا يدعها تستقي الماء فقيل له ابوها يفعل ذلك بها حتى اذا تزوجها رجل
أكرمته وخدمته ولا تعجبها نفسها فجلس الشيخ ونكس رأسه ثم اقام ثلاثة ايام لا يأكل ولا يشرب ولا يكلم
احدا غير انه يؤدي الفريضة والمشايخ واقفون بين يديه ولا يدرون ما يصنعون قال الشبلي فتقدمت اليه وقلت له
يا سيدي ان أصحابك ومريديك يتعجبون من سكوتك ثلاثة أيام وأنت ساكت لم تكلم أحدا قال فأقبل
علينا وقال يا قوم اعلموا أن الجارية التي رأيتها بالأمس قد شغفت بها حبا واشتغل قلبي بها وما بقيت أقدر
أفارق هذه الأرض قال الشبلي فقلت له يا سيدي أنت شيخ أهل العراق ومعروف بالزهد في سائر الآفاق
وعدد مريديك اثنا عشر ألفا فلا تفضحنا واياهم بحرمة الكتاب العزيز فقال يا قوم جرى القلم بما حكم
ووقعت في بحار العدم وقد انحلت عني عرى الولاية وطويت عني أعلام الهداية ثم انه بكى بكاء شديدا
وقال يا قوم انصرفوا فقد نفذ القضاء والقدر فتعجبنا من أمره وسألنا الله تعالى أن يجيرنا من مكره ثم بكينا
وبكى حتى أروى التراب ثم انصرفنا عنه راجعين الى بغداد فخرج الناس الى لقائه ومريدوه في جملة الناس
فلم يروه فسألوا عنه فعرفناهم بما جرى فمات من مريديه جماعة كثيرة حزنا عليه وأسفا وجعل الناس يبكون
ويتضرعون الى الله تعالى أن يرده عليهم وغلقت الرباطات والزوايا والخوانق ولحق الناس حزن عظيم فأقمنا
سنة كاملة وخرجت مع بعض أصحابي نكشف خبره فأتينا القرية فسألنا عن الشيخ فقيل لنا انه في البرية يرعى
الخنازير قلنا وما السبب في ذلك قالوا انه خطب الجارية من أبيها فأبى أن يزوجها الا ممن هو على دينها ويلبس
العباءة ويشد الزنار ويخدم الكنائس ويرعى الخنازير ففعل ذلك كله وها هو في البرية يرعى الخنازير قال الشبلي
فانصدعت قلوبنا وانهملت بالبكاء عيوننا وسرنا اليه واذا به قائم قدام الخنازير فلما رآنا نكس رأسه واذا
عليه قلنسوة النصارى وفي وسطه زنار وهو متوكئ على العصا التي كان يتوكأ عليها اذا قام الى المحراب فسلمنا
عليه فرد علينا السلام فقلنا يا شيخ ماذا وماذا وما هذه الكروب والهموم بعد تلك الاحاديث والعلوم فقال
يا اخواني وأحبابي ليس لي من الأمر شيء سيدي تصرف في كيف شاء وحيث أراد أبعدني عن بابه بعد ان
كنت من جملة أحبابه فالحذر الحذر يا أهل وداده من صده وابعاده والحذر الحذر يا أهل المودة والصفاء
من القطيعة والجفاء ثم رفع طرفه الى السماء وقال يا مولاي ما كان ظني فيك هذا ثم جعل يستغيث ويبكي
ونادى يا شبلي اتعظ بغيرك فنادى الشبلي بأعلى صوته بك المستعان وأنت المستغاث وعليك التكلان
اكشف عنا هذه الغمة بحلمك فقد دهمنا أمر لا كاشف له غيرك قال فلما سمعت الخنازير بكاءهم وضجيجهم

فلما حضرت الموائد كان معي على المائدة
فلما مد يده ليأكل قلت حدثني
درستة بن زياد عن ابان بن طارق
عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم من دخل
دار قوم بغير اذنهم فأكل طعامهم
دخل سارقا وخرج مغيرا فلما سمع
الطفيلي ذلك قال أنفت لك والله يا أبا
عمرو من هذا الكلام على مائدة سيد
من أطعم الطعام فانه ما من أحد من
الجماعة الا وهو يظن أنك تعرض
به دون صاحبه وقد بخلت
بطعام غيرك على من سواك ثم
ما استحييت حتى حدثت عن درستة
ابن زياد وهو ضعيف وعن أبان بن
طارق وهو متروك الحديث والمسلمون
على خلاف ما ذكرت فان حكم
السارق القطع وحكم المغير أن يعزر
على ما يراه الامام وأين أنت من
حديث حدثناه أبو عاصم عن ابن
جريج عن الزبير عن جابر قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم طعام
الواحد يكفي الاثنين وطعام الاثنين
يكفي الاربعة وطعام الاربعة يكفي
الثمانية وهو اسناد صحيح ومتن
صحيح متفق عليه قال أبو عمرو والله
لقد أفحمني ولم يحضرني جواب
فلما خرجنا فارقني من جانب
الطريق الى الجانب الآخر بعد ان
كان يمشي ورائي وسمعته يقول

ومن ظن ممن يلاقي الحروب
بأن لا يصاب فقد ظن عجزا

(ومن المنقول عن أذكياء المتلصصين)
أن بعض التجار قال احتال على
رجل بحوالة فكان يأتيني كل يوم
ويأخذ قدر نفقته الى أن نفدت وصار
بيننا معرفة وألف الجلوس عندي
وكان يراني أخرج من صندوق لي
فأعطيه فقال لي يوما ان قفل الرجل
صاحبه في سفره وأمينه في حضره
وخليفته على حفظ ماله وان لم يكن
وثيقا تطرقت الحيل اليه وأرى قفلك
هذا وثيقا فقل لي عمن ابتعته لابتاع

أقبلت اليهم وجعلت تمرغ وجوهها بين أيديهم وزعقت زعقة واحدة دويت منها الجبال قال الشبلى فظننت أن القيامة قد قامت ثم ان الشيخ بكى بكاء شديدا قال الشبلى فقلنا له هل لك أن ترجع معنا الى بغداد فقال كيف لى بذلك وقد استرعيت الخنازير بعد ان كنت راعى القلوب فقلت ياشيخ كنت تحفظ القرآن وتقرؤه بالسبع فهل بقيت تحفظ منه شيأ فقال نسيته كله الا آيتين فقلت وماهما قال قوله تعالى ومن يهن الله فماله من مكرم ان الله يفعل مايشاء والثانية قوله تعالى ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل فقلت ياشيخ كنت تحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهل تحفظ منها شيأ قال حديثا واحدا وهو قوله صلى الله عليه وسلم من بدل دينه فاقتلوه وقال الشبلى فتركناه وانصرفنا ونحن متعجبون من أمره فسرنا ثلاثة أيام واذا نحن به أمامنا قد تطهر من نهر وطلع وهو يشهد شهادة الحق ويجدد اسلامه فلما رأيناه لم نملك أنفسنا من الفرح والسرور فنظر الينا وقال ياقوم أعطونى ثوبا طاهرا فأعطيناه ثوبا فلبسه ثم صلى وجلس فقلنا له الحمد لله الذى ردك علينا وجمع شملنا بك فصف لنا ماجرى لك وكيف كان أمرك فقال ياقوم لما وليتم من عندى سألته بالوداد القديم وقلت له يامولاى أنا المذنب الجانى فعفاعنى بجوده وبستره غطانى فقلنا له بالله نسألك هل كان لمحنتك من سبب قال نعم لما وردنا القرية وجعلتم تدورون حول الكنائس قلت فى نفسى ماقدر هؤلاء عندى وأنا مؤمن موحد فنوديت فى سرى ليس هذا منك ولوشئت عرفناك ثم أحسست بطائر قد خرج من قلبى فكان ذلك الطائر هو الايمان قال الشبلى ففرحنا به فرحا شديدا وكان يوم دخولنا يوما عظيما مشهودا وفتحت الزوايا والرباطات والخوانق ونزل الخليفة للقاء الشيخ وأرسل اليه الهدايا وصار يجتمع عنده اسماع علمه أربعون ألفا وأقام على ذلك زمانا طويلا ورد الله عليه ماكان نسيه من القرآن والحديث وزاده على ذلك فبينما نحن جلوس عنده فى بعض الأيام بعد صلاة الصبح واذا نحن بطارق يطرق باب الزاوية فنظرت من الباب فاذا شخص ملتف بكساء أسود فقلت ما الذى تريد فقال قل لشيخكم ان الجارية الرومية التى تركتها بالقرية الفلانية قد جاءت لخدمتك قال فدخلت فعرفت الشيخ فاصفر لونه وارتعد ثم أمر بدخولها فلما دخلت عليه بكت بكاء شديدا فقال لها الشيخ كيف كان مجيئك ومن أوصلك الى ههنا قالت ياسيدى لما وليت من قريتنا جاءنى من أخبرنى بك فبت ولم يأخذنى قرار فرأيت فى منامى شخصا وهو يقول ان أحببت أن تكونى من المؤمنات فاتركى ما أنت عليه من عبادة الأصنام واتبعى ذلك الشيخ وادخلى فى دينه فقلت وما دينه قال دين الاسلام قلت وماهو قال شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فقلت كيف لى بالوصول اليه قال أغمضى عينيك وأعطينى يدك ففعلت فمشى قليلا ثم قال افتحى عينيك ففتحتهما فاذا أنا بشاطئ الدجلة فقال امضى الى تلك الزاوية واقرئى الشيخ منى السلام وقولى له ان أخاك الخضر يسلم عليك قال فأدخلها الشيخ الى جواره وقال تعبدى ههنا فكانت أعبد أهل زمانها تصوم النهار وتقوم الليل حتى نحل جسمها وتغير لونها فمرضت مرض الموت وأشرفت على الوفاة ومع ذلك لم يرها الشيخ فقالت قولوا للشيخ يدخل على قبل الموت فلما بلغ الشيخ ذلك دخل عليها فلما رأته بكت فقال لها لاتبكى فان اجتماعنا غدا فى القيامة فى دار الكرامة ثم انتقلت الى رحمة الله تعالى فلم يلبث الشيخ بعدها الا أياما قلائل حتى مات رحمة الله تعالى عليه قال الشبلى فرأيته فى المنام وقد تزوج بسبعين حوراء وأول ماتزوج بالجارية وهما مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿الباب الثانى والثلاثون فى ذكر الأشرار والفجار ومايرتكبون من الفواحش والوقاحة والسفاهة﴾

عن النوّاس بن سمعان رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال قبل قيام الساعة يرسل الله ريحا باردة طيبة فتقبض روح كل مؤمن ويبقى شرار الخلق يتهارجون تهارج الحمير وعليهم تقوم الساعة وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى كفى بالمرء شرا أن لا يكون صالحا ويقع فى الصالحين وقال لقمان لابنه يابنى كذب من قال الشر يطفئ الشر فان كان صادقا فليوقد نارين ثم ينظر هل تطفئ احداهما الأخرى وانما يطفئ الشر الخير كما يطفئ الماء النار ووصف بعضهم رجلا من أهل الشر فقال فلان عرى من حلة التقوى ومحى عنه طابع الهدى لاتثنيه يد المراقبة ولا تكفه خيفة المحاسبة وهو لدعائم دينه مضيع ولدواعى شيطانه مطيع

مثله لنفسى فقلت من فلان الاقفالى قال فما شعرت يوما وقد جئت الى دكانى وتقدمت الى الصندوق لاخرج منه شيأ من الدراهم ففتحته فاذا ليس فيه شئ فقلت لغلامى وهو عندى أمين غير متهم هل أنكرت شيأ من أحوال الدكان قال لا قلت ففتش هل ترى نقبا أم فى السقف حيلة قال لا قلت فاعلم أن الذى كان فى الصندوق قد ذهب فقلق الغلام فأمسكته وقت مفكرا وتأخر الرجل عنى فتيقظت له وذكرت سؤاله عن القفل وقلت للغلام أخبرنى كيف تفتح دكانى وتقفله فقال احمل الدراريب دفعتين وثلاثة حتى أضعها فى محلها وهكذا أصنع فى غلقها قلت فمن تدع عند الدكان اذا نقلت الدراريب قال اتركه خاليا قلت فمن ههنا ذهبت فمضيت الى الصانع الذى ابتعت منه القفل فقلت جاءك انسان منذ أيام اشترى منك مثل هذا القفل فقال نعم رجل من صفته كذا وكذا واعطانى صفة صاحبى فعلمت انه احتال على الغلام وقت المساء ودخل الدكان واختبأ فيها ومعه مفتاح القفل وأخذ المال ومكث طول الليل الى الصباح فلما فتح الغلام وحمل الدراريب ليضعها فى محلها خرج وانه مافعل ذلك الا وقد خرج من المدينة فخرجت من البصرة ومعى قفلى ومفتاحى فقلت أبتدئ بواسط فلما صعدت طلبت خانا نزله فلما دخلت الخان وجدت قفلا مثل قفلى على باب بيت فقلت لقيم الخان هذا البيت من ينزله قال رجل قدم أمس من البصرة فقلت ماصفته فوصف لى صاحبى فما شككت انه هو وان الدراهم فى بيته فاكتريت بيتا الى جانبه ورصدته حتى انصرف قيم الخان ففتحت القفل ودخلت البيت فوجدت كيسى بعينه فأخذته وخرجت ووضعت قفله على بابه

(شعر) كأنه التيس قد أدى به هرم * فليس لحم ولا صوف ولا ثمر

وقيل من فعل ماشاء لقي ماساء وقيل زنى رجل بجارية فأحبلها فقالوا له يا عدو الله هلا اذ ابتليت بفاحشة عزلت قال قد بلغني أن العزل مكروه قال فما بلغك أن الزنا حرام وقيل لاعرابي كان يتعشق قينة ما يضرك لو اشتريتها ببعض ما تنفق عليها قال فمن لي اذ ذاك بلذة الخلسة ولقاء المسارقة وانتظار الموعد وقال أبو العيناء رأيت جارية مع النخاس وهي تحلف أن لا ترجع لمولاها فسألتها عن ذلك فقالت يا سيدي انه يواقعني من قيام ويصلي من قعود ويشتمني باعراب ويلحن في القرآن ويصوم الخميس والاثنين ويفطر رمضان ويصلي الضحى ويترك الفرض فقلت لا أكثر الله في المسلمين مثله * وكانت ظلمة القوادة وهي صغيرة في المكتب تسرق دويات الصبيان وأقلامهم فلما شبت زنت فلما كبرت قادت وقال صاحب المسالك والممالك ان عامة ملوك الهند يرون الزنا مباحا خلا ملك قمار قال الزمخشري رحمه الله أقمت بقمار سنين فلم أر ملكا أغير منه وكان يعاقب على الزنا وشرب الخمر بالقتل وقمار ينسب اليها العود القماري كما ينسب الى مندل قال مسكين الدارمي

ولا ذنب للعود القماري انه * يحرق ان غنت عليه روائحه

وقال ابن عباس رضي الله عنهما عهدت الناس وهواهم تبع لاديانهم وان الناس اليوم أديانهم تبع لأهوائهم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم

(ما جاء في الوقاحة والسفاهة وذكر الغوغاء) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى اذا لم تستح فاصنع ما شئت * وفي ذلك قيل

اذا لم تصن عرضا ولم تخش خالقا * وتستح مخلوقا فما شئت فاصنع

وقال ابن سلام العاقل شجاع القلب والأحمق شجاع الوجه وذم رجل قوما فقال وجوههم وأيديهم حديد أي وقاح بخلاء ووصف رجل وقحا فقال لو دق الحجارة بوجهه لرضها ولو خلا باستار الكعبة لسرقها قال الشاعر

لو أن لي من جلد وجهك رقعة * لجعلت منها حافرا للاشهب

وقال آخر اذا رزق الفتى وجها وقاحا * تقلب في الامور كما يشاء

قال أنوشروان أربعة قبائح وهي في أربعة أقبح البخل في الملوك والكذب في القضاء والحسد في العلماء والوقاحة في النساء ويقال من جسر أيسر ومن هاب خاب قال الشاعر

لا تكونن في الامور هيوبا * فالى خيبة يصير الهيوب

وقال علي رضي الله عنه اذا هبت أمرا فقع فيه فان شر توقيه أعظم مما تخاف منه وقال رضي الله عنه الغوغاء اذا اجتمعوا ضروا واذا افترقوا نفعوا فقيل قد علمنا مضرة اجتماعهم فما منفعة افتراقهم قال يرجع أهل المهن الى مهنهم فينتفع الناس بهم كرجوع البناء الى بنائه والنساج الى منسجه والخباز الى مخبزه وقال بعض السلف لا تسبوا الغوغاء فانهم يطفئون الحريق ويخرجون الغريق وقال الاحنف ما قل سفهاء قوم الا ذلوا وقال حكيم لا يخرجن أحد من بيته الا وقد أخذ في حجره قيراطين من جهل فان الجاهل لا يدفعه الا الجهل أراد السفه قال الشاعر

ألا لا يجهلن أحد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقيل الجاهل من لا جاهل له أي من لا سفيه له يدفع عنه * وقيل بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالس اذ جاء اعرابي فلطمه فقام اليه واقد بن عمر فجلد به الارض فقال عمر ليس بعزيز من ليس في قومه سفيه وقال الشاعر

ولا يلبث الجهال أن يتهضموا * أخا الحلم ما لم يستعن بجهول

وقال صالح بن جناح

اذا كنت بين الجهل والحلم قاعدا * وخيرت أنى شئت فالحلم أفضل

ولكن اذا أنصفت من ليس منصفا * ولم يرض منك الحلم فالجهل أمثل

وقال الأحنف بن قيس

وذي ضغن أبت القول عنه * بحلم فاستمر على المقال

ومن يحلم وليس له سفيه * يلاق المعضلات من الرجال

(وقال آخر)

فان كنت محتاجا الى الحلم انني * الى الجهل في بعض الأحايين أحوج

ولي فرس للخير بالخير ملجم * ولي فرس للشر بالشر مسرج

فمن رام تقويمي فاني مقوم * ومن رام تعويجي فاني معوج

ونزلت على الفور في السفينة وانحدرت الى البصرة ولم أقم بواسط غير ساعة من نهار فرجعت الى منزلي وعيالي كله (ومن المنقول عن أذكياء الصبيان) انه وقف اياس ابن معاوية وهو صبي على قاضي دمشق ومعه شيخ فقال أصلح الله القاضي هذا الشيخ ظلمني وأكل مالي فقال القاضي ارفق بالشيخ ولا تستقبله بمثل هذا الكلام فقال اياس ان الحق أكبر مني ومنه ومنك قال اسكت قال وان سكت فمن يقوم بحجتي قال فتكلم فوالله لا تتكلم بخير فقال لا اله الا الله وحده لا شريك له فبلغ ذلك الخليفة فعزل القاضي وولى اياسا مكانه (ومن المنقول عن أذكياء النساء) حكى المدائني قال خرج ابن زياد في فوارس فلقوا رجلا ومعه جارية لم ير مثلها في الحسن فصاحوا به خل عنها وكان معه قوس فرمى أحدهم فهابوا الاقدام عليه فعاد ليرمي فانقطع الوتر فهجموا عليه وأخذوا الجارية فهرب واشتغلوا عنه بالجارية ومد بعضهم يده الى أذنها وفيها قرط وفي القرط درة يتيمة لها قيمة عظيمة فقالت وما قدر هذه الدرة انكم لو رأيتم ما في قلنسوته من الدر لاستحقرتم هذه فتركوها واتبعوه وقالوا له ألق ما في قلنسوتك وكان فيها وتر قد أعده فنسيه من الدهش فلما ذكره ركبه في القوس ورجع الى القوم فولى القوم هاربين وخلوا الجارية (وحكى ابن الجوزي في كتاب الاذكياء) نبذة عن الحيوان الذي كان ذكاؤه يشبه ذكاء الآدميين * فمن ذلك أن بعض الكتاب مر بمقبرة فاذا قبر عليه قبة مكتوب عليها هذا قبر الكلب فمن أحب أن يعلم خبره فليمض الى قرية كذا وكذا فان فيها من يخبره فسأل الرجل عن القرية فدلوه عليها فقصدها فقيل له ما يعلم ذلك الا شيخ هنا قد جاوز المائة فسأله فقال كان

(وقال آخر) فان قيل حلم قلت للحلم موضع * وحلم الفتى فى غير موضعه جهل

اللهم انا نعوذ بك أن نجهل أو يجهل علينا برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿الباب الثالث والثلاثون فى الجود والسخاء والكرم ومكارم الأخلاق واصطناع المعروف وذكر الأمجاد وأحاديث الأجواد﴾

(اعلم) أن الجود بذل المال وأنفعه ما صرف فى وجه استحقاقه وقد ندب الله تعالى اليه فى قوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون قيل ان الجود والسخاء والايثار بمعنى واحد وقيل من أعطى البعض وأمسك البعض فهو صاحب سخاء ومن بذل الاكثر فهو صاحب جود ومن آثر غيره بالحاضر وبقى هو فى مقاساة الضرر فهو صاحب ايثار وأصل السخاء هو السماحة وقد يكون المعطى بخيلا اذا صعب عليه البذل والممسك سخيا اذا كان لا يستصعب العطاء (فمن الايثار ما حكى) عن حذيفة العدوى أنه قال انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى فى القتلى ومعى شئ من الماء وأنا أقول ان كان به رمق سقيته فاذا أنا به بين القتلى فقلت له أسقيك فاشار الى أن نعم فاذا برجل يقول آه فاشار الى ابن عمى أن انطلق اليه واسقه فاذا هو هشام بن العاص فقلت أسقيك فأشار الى أن نعم فسمع آخر يقول آه فأشار الى أن انطلق اليه فجئته فاذا هو قد مات فرجعت الى هشام فاذا هو قد مات فرجعت الى ابن عمى فاذا هو قد مات (ومن عجائب ما ذكر فى الايثار) ما حكاه أبو محمد الأزدى قال لما احترق المسجد بمرو ظن المسلمون أن النصارى أحرقوه فاحرقوا خاناتهم فقبض السلطان على جماعة من الذين أحرقوا الخانات وكتب رقاعا فيها القطع والجلد والقتل ونثرها عليهم فمن وقع عليه رقعة فعل به ما فيها فوقعت رقعة فيها القتل بيد رجل فقال والله ما كنت أبالى لولا أم لى وكان بجنبه بعض الفتيان فقال له فى رقعتى الجلد وليس لى أم فخذ أنت رقعتى وأعطنى رقعتك ففعل فقتل ذلك الفتى وتخلص هذا الرجل * وقيل لقيس بن سعد هل رأيت قط أسخى منك قال نعم نزلنا بالبادية على امرأة فجاء زوجها فقالت له انه نزل بنا ضيفان فجاء زوجها بناقة فنحرها وقال شأنكم فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها وقال شأنكم فقلنا ما أكلنا من التى نحرت البارحة الا القليل فقال انى لا أطعم ضيفانى البائت فبقينا عنده أياما والسماء تمطر وهو يفعل كذلك فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار فى بيته وقلنا للمرأة تعتذرى لنا اليه ومضينا فلما ارتفع النهار اذا برجل يصيح خلفنا قفوا أيها الركب اللئام أعطيتمونى ثمن قراى ثم انه لحقنا وقال خذوها والا طعنتكم برمحى هذا فأخذناها وانصرفنا * وقال بعض الحكماء أصل المحاسن كلها الكرم وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام وسخاؤها بما تملك على الخاص والعام وجميع خصال الخير من فروعه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تجاوزوا عن ذنب السخى فان الله آخذ بيده كلما عثر وفاتح له كلما افتقر وعن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه قال ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيأ قط فقال لا وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال السخى قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار ولجاهل سخى أحب الى الله من عابد بخيل وقال بعض السلف منع الموجود سوء ظن بالمعبود وتلا قوله تعالى وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه وهو خير الرازقين وقال الفضيل ما كانوا يعدون القرض معروفا وقال أكثم بن صيفى صاحب المعروف لا يقع وان وقع وجد له متكأ وقيل للحسن بن سهل لا خير فى السرف فقال لا سرف فى الخير فقلب اللفظ واستوفى المعنى ووجد مكتوبا على حجر انتهز الفرص عند امكانها ولا تحمل نفسك هم ما لم يأتك واعلم أن تقتيرك على نفسك توفير لخزانة غيرك فكم من جامع لبعل حليلته وقال على رضى الله تعالى عنه ما جمعت من المال فوق قوتك فانما أنت فيه خازن لغيرك وقال النعمان بن المنذر يوما لجلسائه من أفضل الناس عيشا وأنعمهم بالا وأكرمهم طباعا وأجلهم فى النفوس قدرا فسكت القوم فقام فتى فقال أبيت اللعن أفضل الناس من عاش الناس فى فضله فقال صدقت وكان أسماء بن خارجة يقول ما أحب أن أرد أحدا عن حاجة لانه ان كان كريما أصون عرضه أو لئيما أصون عنه عرضى وكان مورق العجلى يتلطف فى ادخال السرور والرفق على اخوانه فيضع عند أحدهم البدرة ويقول له أمسكها حتى أعود اليك ثم يرسل يقول له أنت منها فى حل وقال الحسن رضى الله عنه باع طلحة بن عثمان رضى الله تعالى عنه أرضا بسبعمائة ألف درهم فلما جاءه المال قال ان

هذا ملك عظيم الشأن وكان يحب التنزه والصيد وكان له كلب قد رباه لا يفارقه فخرج يوما الى بعض منتزهاته وقال لبعض غلمانه قل للطباخ يصلح لنا ثريدة بلبن فجاؤا باللبن الى الطباخ ونسى أن يغطيه بشئ واشتغل بالطبخ فخرجت من بعض الشقوق أفعى فكرعت فى ذلك اللبن ومجته فى الثريدة والكلب رابض يرى ذلك ولم يجد له حيلة يصل بها الى الافعى وكان هناك جارية زمنة خرساء قد رأت ما صنعت الافعى ووافى الملك من الصيد فى آخر النهار فقال يا غلمان ادركونى بالثريدة فلما وضعت بين يديه أومأت الخرساء فلم يفهم ما تقول ونبح الكلب وصاح فلم يلتفت اليه ولج فى الصياح فلم يعلم مراده فقال للغلمان نحوه عنى ومد يده الى اللبن بعد ما رمى الى الكلب ما كان يرمى اليه فلم يلتفت الكلب الى شئ من ذلك ولم يلتفت الى غير الملك فلما رآه يريد أن يضع اللقمة من اللبن فى فيه وثب الى وسط المائدة وأدخل فمه وكرع فى اللبن فسقط ميتا وتناثر لحمه وبقى الملك متعجبا من الكلب وفعله فأومأت الخرساء اليهم فعرفوا مرادها وما صنع الكلب فقال الملك لحاشيته هذا الكلب قد فدانى بنفسه وقد وجب أن أكافئه وما يحمله ويدفنه غيرى فدفنه وبنى عليه القبة التى رأيتها (قلت) قد أوردنا نبذة لطيفة من كتاب الأذكياء لابن الجوزى مختلفة الأنواع وقد تعين أن نورد له هنا نبذة لطيفة من كتاب الحمقى والمغفلين لانه قال فى كتاب الحمقى ما وضعت ذلك الا لان النفس قد تمل من ملازمة الجد وترتاح الى بعض المباح من اللهو وكما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لحنظلة ساعة وساعة * وعن على رضى الله عنه أنه قال روحوا القلوب بطرائف الحكم فانها تمل كما

رجلا يبيت هذا عنده لا يدرى ما يطرقه لغرير بالله تعالى ثم قسمه فى المسلمين * ولما دخل المنكدر على عائشة رضى الله تعالى عنها قال لها يا أم المؤمنين أصابتنى فاقة فقالت ما عندى شئ فلو كان عندى عشرة آلاف درهم لبعثت بها اليك فلما خرج من عندها جاءتها عشرة آلاف درهم من عند خالد بن أسيد فارسلت بها اليه فى أثره فاخذها ودخل بها السوق فاشترى جارية بألف درهم فولدت له ثلاثة أولاد فكانوا عباد المدينة وهم محمد وأبو بكر وعمر بنو المنكدر وأكرم العرب فى الاسلام طلحة بن عبيد الله رضى الله تعالى عنه جاءه اليه رجل فسأله برحم بينه وبينه فقال هذا حائطى بمكان كذا وكذا وقد أعطيت فيه مائة ألف درهم يراح الى بالمال العشية فان شئت فالمال وان شئت فالحائط وقال زياد بن جرير رأيت طلحة بن عبيد الله فرق مائة ألف فى مجلس وانه ليخيط ازاره بيده (وذكر) الامام أبو على القالى فى كتاب الامالى أن رجلا جاء الى معاوية رضى الله تعالى عنه فقال له سألتك بالرحم التى بينى وبينك الا ما قضيت حاجتى فقال معاوية أمن قريش أنت قال لا قال فاى رحم بينى وبينك قال رحم آدم عليه الصلاة والسلام قال رحم مجفوة والله لاكونن أول من وصلها ثم قضى حاجته (وروى) أن الاشعث بن قيس أرسل الى عدى بن حاتم يستعير منه قدورا كانت لابيه حاتم فملأها مالا وبعث بها اليه وقال انا لا نعيرها فارغة وكان الاستاذ أبو سهل الصعلوكى من الاجواد ولم يناول أحدا شيأ وانما كان يطرحه فى الأرض فيتناوله الآخذ من الأرض وكان يقول الدنيا أقل خطرا من أن ترى من أجلها يد فوق يد أخرى وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم اليد العليا خير من اليد السفلى وسأل معاوية الحسن ابن على رضى الله تعالى عنهم عن الكرم فقال هو التبرع بالمعروف قبل السؤال والرأفة بالسائل مع البذل وقدم رجل من قريش من سفر فمر على رجل من الاعراب على قارعة الطريق قد أقعده الدهر وأضر به المرض فقال يا هذا أعنا على الدهر فقال لغلامه ما بقى معك من النفقة فادفعه اليه فصب فى حجره أربعة آلاف درهم فهم ليقوم فلم يقدر من الضعف فبكى فقال له الرجل ما يبكيك لعلك استقللت ما دفعناه اليك فقال لا والله ولكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فابكانى * وقال بعضهم قصد رجل الى صديق له فدق عليه الباب فخرج اليه وسأله عن حاجته فقال على دين كذا وكذا فدخل الدار وأخرج اليه ما كان عليه ثم دخل الدار باكيا فقالت له زوجته هلا تعللت حيث شقت عليك الاجابة فقال انما أبكى لانى لم أتفقد حاله حتى احتاج الى أن سألنى * ويروى أن عبد الله بن أبى بكر وكان من أجود الاجواد عطش يوما فى طريقه فاستسقى من منزل امرأة فأخرجت له كوزا وقامت خلف الباب وقالت تنحوا عن الباب وليأخذه بعض غلمانكم فانى امرأة عزب مات زوجى منذ أيام فشرب عبد الله الماء وقال يا غلام احمل اليها عشرة آلاف درهم فقالت سبحان الله أتسخر بى فقال يا غلام احمل اليها عشرين ألفا فقالت أسأل الله العافية فقال يا غلام احمل اليها ثلاثين ألفا فما أمست حتى كثر خطابها وكان رضى الله تعالى عنه ينفق على أربعين دارا من جيرانه عن يمينه وأربعين عن يساره وأربعين أمامه وأربعين خلفه ويبعث اليهم بالاضاحى والكسوة فى الاعياد ويعتق فى كل عيد مائة مملوك رضى الله تعالى عنه * ولما مرض قيس بن سعد بن عبادة استبطأ اخوانه فى العيادة فسأل عنهم فقيل له انهم يستحيون مما لك عليهم من الدين فقال أخزى الله مالا يمنع عنى الاخوان من الزيارة ثم أمر مناديا ينادى من كان لقيس عنده مال فهو منه فى حل فكسرت عتبة بابه بالعشى لكثرة العواد * وكان عبد الله بن جعفر من الجود بالمكان المشهود وله فيه أخبار يكاد سامعها ينكرها لبعدها عن المعهود وكان معاوية يعطيه ألف ألف درهم فى كل سنة فيفرقها فى الناس ولا يرى الا وعليه دين * ومر رجل ببهيمة ثم خرج بها ليبيعها فمر بعبد الله بن جعفر رضى الله تعالى عنه فقال يا صاحب البهيمة أتبيعها قال لا ولكنها هى لك هبة ثم تركها له وانصرف الى بيته فلم يلبث الا يسيرا واذا بالحمالين على بابه عشرين نفرا عشرة منهم يحملون حنطة وخمسة لحما وكسوة وأربعة يحملون فاكهة ونقلا وواحد يحمل مالا فاعطاه جميع ذلك واعتذر اليه رضى الله تعالى عنه * ولما مات معاوية رضى الله تعالى عنه وفد عبد الله بن جعفر على يزيد ابنه فقال كم كان أمير المؤمنين معاوية يعطيك فقال كان رحمه الله يعطينى ألف ألف فقال يزيد قد زدناك لترحمك عليه ألف ألف فقال بأبى وأمى أنت فقال ولهذه ألف ألف فقال أما انى لا أقولها لاحد بعدك فقيل ليزيد أعطيت هذا المال كله من مال المسلمين لرجل واحد فقال والله

مثل الأبدان (وكان) رجل يجالس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحدثهم فاذا أكثروا وثقل عليه الحديث قال ان الأذن مجاجة وان القلوب حمضة هاتوا من أشعاركم وحديثكم (وقال) أبو الدرداء رضى الله عنه انى لاستجم نفسى بشئ من الباطل كراهة أن أحملها من الحق ما يملها (وعن) ابن عباس رضى الله عنهما انه كان يحدث أصحابه ساعة ثم يقول حمضونا فيأخذ فى أحاديث العرب وأشعارهم ومثله عن الزهرى ومالك ابن دينار (وكان) شعبة يحدث فاذا رأى أبا زيد قال له ايه أبا زيد

استعجمت دار نعم ما تكلمنا
والدار لو كلمتنا ذات أخبار

(ووصف) رجل عند ابن عائشة فقيل هو جد كله فقال ابن عائشة لقد أعان على نفسه وقصر لها طول المدى ولو فكهها بالانتقال من حال الى حال نفس عنها ضيق العقد ورجع الى الجد بنشاط (وقال) الرشيد النوادر تشحذ الأذهان وتفتق الآذان (وقال آخر) لا يحب الملح الا ذكران الرجال ولا يكرهها الا مؤنثوهم وقال الشاعر

أروح القلب ببعض الهزل
تجاهلا منى بغير جهل
أمزح فيه مزح أهل الفضل
والمزح أحيانا جلاء العقل

(قال ابن الجوزى فى كتاب الحمقى) ان الأحنف بن قيس قال اذا رأيتم الرجل طويل القامة عظيم اللحية فاحكموا عليه بالحمق * وقال معاوية لرجل كفى أن نشهد عليك بالحمق ما نراه من طول لحيتك * وقال آخر وتلطف ما شاء من طالت لحيته تكوسج عقله * وقال أصحاب الفراسة من طالت قامته وطالت لحيته وجبت تعزيته فى عقله * وقالوا اذا كان الرجل طويلا طويل اللحية وأضيف الى ذلك أن يكون

ما أعطيته الا لجميع أهل المدينة ثم وكل به يزيد من صحبه وهو لا يعلم لينظر ما يفعل فلما وصل المدينة فرق جميع المال حتى احتاج بعد شهر الى الدين* وخرج رضى الله تعالى عنه هو والحسنان وأبو دحية الانصارى رضى الله تعالى عنهم من مكة الى المدينة فاصابتهم السماء بمطر فلجؤا الى خباء اعرابى فأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى سكنت السماء فذبح لهم الاعرابى شاة فلما ارتحلوا قال عبد الله للاعرابى ان قدمت المدينة فسل عنا فاحتاج الاعرابى بعد سنين فقالت له امرأته لو أتيت المدينة فلقيت أولئك الفتيان فقال نسيت أسماءهم فقالت سل عن ابن الطيار فأتى المدينة فلقى سيدنا الحسن رضى الله تعالى عنه فأمر له بمائة ناقة بفحولها ورعاتها ثم أتى الحسين رضى الله تعالى عنه فقال كفانا أبو محمد مؤنة الابل فأمر له بألف شاة ثم أتى عبد الله بن جعفر رضى الله تعالى عنه فقال كفانى اخوانى الابل والشياه فأمر له بمائة ألف درهم ثم أتى أبا دحية رضى الله تعالى عنه فقال والله ماعندى مثل ما أعطوك ولكن ائتنى بابلك فاوقرها لك تمرا فلم يزل اليسار فى عقب الاعرابى من ذلك اليوم* وقال الحسن والحسين يوما لعبد الله بن جعفر رضى الله عنهم انك قد أسرفت فى بذل المال فقال بابى انتما ان الله عز وجل عودنى أن يتفضل على وعودته أن أتفضل على عباده فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عنى المادة وامتدحه نصيب فأمر له بخيل وأساس ودنانير ودراهم فقال له رجل مثل هذا الأسود تعطى له هذا المال فقال ان كان أسود فان ثناءه أبيض ولقد استحق بما قال أكثر مما نال وهل أعطيناه الا ثيابا تبلى ومالا يفنى وأعطانا مدحا يروى وثناء يبقى وخرج عبد الله رضى الله تعالى عنه يوما الى ضيعة له فنزل على حائط به نخيل لقوم وفيه غلام أسود يقوم عليه فأتى بقوته ثلاثة أقراص فدخل كلب فدنا من الغلام فرمى اليه بقرص فأكله ثم رمى اليه بالثانى والثالث فأكلهما وعبد الله ينظر اليه فقال يا غلام كم قوتك كل يوم قال ما رأيت قال فلم آثرت هذا الكلب قال أرضنا ما هى بأرض كلاب وانه جاء من مسافة بعيدة جائعا فكرهت أن أرده قال فما أنت صانع اليوم قال أطوى يومى هذا فقال عبد الله بن جعفر ألام على السخاء وان هذا الأسخى منى فاشترى الحائط وما فيه من النخيل والآلات واشترى الغلام ثم أعتقه ووهبه الحائط بما فيه من النخيل والآلات فقال الغلام ان كان ذلك لى فهو فى سبيل الله تعالى فاستعظم عبد الله ذلك منه فقال يجود هذا وأبخل أنا لا كان ذلك أبدا وكان عبيد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما من الأجواد أتاه رجل وهو بفناء داره فقام بين يديه وقال يا ابن عباس ان لى عندك يدا وقد احتجت اليها فصعد فيه بصره فلم يعرفه فقال ما يدك قال رأيتك واقفا بفناء زمزم وغلامك يمتح لك من مائها والشمس قد صهرتك فظللتك بفضل كسائى حتى شربت فقال أجل انى لأذكر ذلك ثم قال لغلامه ما عندك قال مائتا دينار وعشرة آلاف درهم فقال ادفعها اليه وما أراها تفى بحق يده* وقدم عبيد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما على معاوية مرة فاهدى اليه من هدايا النوروز حللا كثيرة ومسكا وآنية من ذهب وفضة ووجهها اليه مع حاجبه فلما وضع بين يديه نظر الى الحاجب وهو ينظر اليها فقال له هل فى نفسك منها شئ قال نعم والله ان فى نفسى منها ما كان فى نفس يعقوب من يوسف عليهما الصلاة والسلام فضحك عبد الله وقال خذها فهى لك قال جعلت فداءك أخاف أن يبلغ ذلك معاوية فيحقد على قال فاختمها بخاتمك وسلمها الى الخازن فاذا كان وقت خروجنا حملناها اليك ليلا فقال الحاجب والله لهذه الحيلة فى الكرم أكثر من الكرم * وحبس معاوية عن الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما صلاته فقيل لو وجهت الى ابن عمك عبد الله بن عباس فانه قدم بنحو ألف ألف فقال الحسين وأنى تقع ألف ألف من عبد الله فوالله لهو أجود من الريح اذا عصفت وأسخى من البحر اذا زخر ثم وجه اليه مع رسوله بكتاب يذكر فيه حبس معاوية صلاته عنه وضيق حاله وانه يحتاج الى مائة ألف درهم فلما قرأ عبد الله كتابه انهملت عيناه وقال ويلك يا معاوية أصبحت لين المهاد رفيع العماد والحسين يشكو ضيق الحال وكثرة العيال ثم قال لوكيله احمل الى الحسين نصف ما أملكه من ذهب وفضة ودواب وأخبره انى شاطرته فان كفاه والا أحمل اليه النصف الثانى فلما أتاه الرسول قال انا لله وانا اليه راجعون ثقلت والله على ابن عمى وما حسبت أنه يسمح لنا بهذا كله رضوان الله عليهم أجمعين وجاء رجل من الانصار الى عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما فقال له يا ابن عم محمد صلى الله عليه وسلم انه ولد لى فى هذه الليلة مولود وانى سميته باسمك تبركا بك وان أمه ماتت فقال له بارك الله لك فى الهبة وآجرك على المصيبة ثم دعا بوكيله وقال له انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضنه وادفع لابيه مائتى دينار لينفقها

صغير الرأس فاحكم عليه بالحمق (وقال زياد) ما زادت لحية الرجل على قبضة الا كان ذلك نقصانا من عقله وقال الشاعر

اذا عرضت للفتى لحية
وطالت وصارت الى سرته
فنقصان عقل الفتى عندنا
بمقدار ما زاد من لحيته

(وقال ابن الرومى)

ان تطل لحية عليك وتعرض
فالمخالى مخلوقة للحمير
علق الله فى عذاريك مخلا
ة ولكنها بغير شعير

(وقال بعضهم) صارم الأحمق فليس له خير من الهجران *وقيل مكتوب فى التوراة من اصطنع الى أحمق معروفا فهى خطيئة مكتوبة عليه* وقال سفيان الثورى هجران الأحمق قربة الى الله تعالى (فمن ضرب المثل بحمقه وتغفله) هبنقة واسمه يزيد وكان قد جعل فى عنقه قلادة من عظام وودع وقال أخشى أن أضيع من نفسى ففعلت ذلك لأعرفها فحولت أمه القلادة الى عنق أخيه فلما أصبح ورآها قال يا أخى أنا أنت وأنت أنا وضل له بعير فجعل يقول من وجده فهو له فقيل له فلم تنشده قال لحلاوة الظفر (واختصمت) بنو طفاوة وبنو راسب فى رجل ادعى كل من الفريقين انه منهم فقال هبنقة حكمه أن يلقى فى الماء فان طفا فهو من طفاوة وان رسب فهو من راسب فقال الرجل ان كان الحكم هكذا فقد زهدت فى الطائفتين (ومنهم أبو غبشان) رجل من خزاعة كان يلى سدانة البيت فاجتمع مع قصى بن كلاب بالطائف على الشراب فلما سكر اشترى منه قصى ولاية سدانة البيت بزق من خمر وأخذ منه مفاتيحه وسار بها الى مكة وقال يا قريش هذه مفاتيح أبيكم ابراهيم ردها الله عليكم من غير غدر ولا ظلم

على تربيته ثم قال للانصارى عد الينا بعد أيام فانك جئتنا وفى العيش يبس وفى المال قلة فقال الانصارى جعلت فداءك لوسبقت حاتما بيوم ماذكرته العرب وقال جهم بن حذيفة يوما لمعاوية أنت عندنا يا أمير المؤمنين كما قال ابن عبد كلال

يقينا ما نخاف وان ظننا * به خيرا أراناه يقينا * غيل على جوانبه كأنا
اذا ملنا غيل على أبينا * نقلبه لنخبر حالتيه * فنخبر منهما كرما ولينا

فأمر له بمائة ألف درهم وأنشده عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنهما

بلوت الناس قرنا بعد قرن * فلم أر غير ختال وقال * ولم أر فى الخطوب أشد وقعا
وأمضى من معادات الرجال * وذقت مرارة الاشياء طرا * فما شىء أمر من السؤال

فأعطاه مائة ألف درهم ودخل عليه الحسن يوما وهو مضطجع على سريره فسلم عليه وأقعده عند رجليه وقال له ألا تعجب من قول أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها تزعم انى لست للخلافة أهلا ولا لها موضعا فقال الحسن أوعجبا مما قالت قال كل العجب قال الحسن وأعجب من هذا كله جلوسى عند رجليك فاستحيا معاوية واستوى جالسا ثم قال أقسمت عليك يا أبا محمد الا ما أخبرتنى كم عليك دينا قال مائة ألف درهم فقال يا غلام أعط أبا محمد ثلثمائة ألف درهم مائة ألف يقضى بها دينه ومائة ألف يفرقها على مواليه ومائة ألف يستعين بها على نوائبه وسوقها اليه الساعة وكان معن بن زائدة من الاجواد وكان عاملا على العراق بالبصرة قيل انه أتى اليه بعض الشعراء فأقام ببابه مدة يريد الدخول عليه فلم يتهيأ له ذلك فقال يوما لبعض الخدم اذا دخل الامير البستان فعرفنى فلما دخل أعلمه بذلك فكتب الشاعر بيتا ونقشه على خشبة وألقاها فى الماء الذى يدخل البستان وكان معن جالسا على القناة فلما رأى الخشبة أخذها وقرأها فاذا فيها بيت مفرد

أيا جود معن ناج معنا بحاجتى * فليس الى معن سواك شفيع

فقال من الرجل صاحب هذه فاتى به اليه فقال كيف قلت فأنشده البيت فأمر له بعشر بدر فأخذها وانصرف ووضع معن الخشبة تحت بساطه فلما كان فى اليوم الثانى أخرجها من تحت البساط ونظر فيها وقال على بالرجل صاحب هذه فاتى به فقال له كيف قلت فأنشده البيت فأمر له بعشر بدر فأخذها وانصرف ووضع معن الخشبة تحت بساطه فلما كان فى اليوم الثالث أخرجها ونظر فيها وقال على بالرجل صاحب هذه فأتى به اليه فقال له كيف قلت فانشده البيت فأمر له بعشر بدر فأخذها وتفكر فى نفسه وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه فخرج من البلد بما معه فلما كان فى اليوم الرابع طلب الرجل فلم يجده فقال معن لقد ساء والله ظنه ولقد هممت أن أعطيه حتى لا يبقى فى بيت مالى درهم ولا دينار وفيه يقول القائل

يقولون معن لازكاة لماله * وكيف يزكى المال من هو باذله * اذا حال حول لم يكن فى دياره
من المال الا ذكره وجمائله * تراه اذا ما جئته متهـللا * كأنك تعطيه الذى أنت سائله

تعود بسط الكف حتى لوانه * أراد انقباضا لم تطعه أنامله
فلو لم يكن فى كفه غير نفسه * لجاد بها فليتق الله سائله

(ومن قول معن) دعينى أنهب الاموال حتى * أعف الاكرمين عن اللئام

وكان يزيد بن المهلب من الاجواد الاسخياء وله أخبار فى الجود عجيبة * من ذلك ما حكاه عقيل بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه قال لما أراد يزيد بن المهلب الخروج الى واسط أتيته فقلت أيها الامير ان رأيت أن تأذن لى فاصحبك قال اذا قدمت واسط فائتنا ان شاء الله تعالى فسافر وأقمت فقال لى بعض اخوانى اذهب اليه فقلت كان جوابه فيه ضعف قالوا أتريد من يزيد جوابا أكثر مما قال قال فسرت حتى قدمت عليه فلما كان فى الليل دعيت الى السمر فتحدث القوم حتى ذكروا الجوارى فالتفت الى يزيد وقال ايه يا عقيل فقلت

أفاض القوم فى ذكر الجوارى * فاما الاعزبون فلن يقولوا

قال انك لم تبق عزبا فلما رجعت الى منزلى اذا أنا بخادم قد أتانى ومعه جارية وفرش بيت وبدرة عشرة آلاف درهم وفى الليلة الثانية كذلك فمكثت عشر ليال وأنا على هذه الحالة فلما رأيت ذلك دخلت عليه فى اليوم العاشر فقلت أيها الأمير قد والله أغنيت وأقنيت فان رأيت أن تأذن لى فى الرجوع فأكبت عدوى وأسر

وأفاق أبو غبشان فندم غاية الندم فقيل أحمق من أبى غبشان وقال شاعرهم

باعت خزاعة بيت الله اذ سكرت
بزق خمر فبئست صفقة البادى
باعت سدانتها بالخمر وانقرضت
عن المقام وظل البيت والنادى

(ومنهم ربيعة البكاء) سمى البكاء لانه دخل على أمه وهى تحت زوجها فبكى وصاح أتقتل أمى فقالوا أهون مقتول أم تحت زوج فذهبت مثلا (ومنهم حمزة بن بيض) قال يوما لغلامه أى يوم صلينا الجمعة بالرصافة فافتكر الغلام ساعة ثم قال يوم الثلاثاء (ومنهم جحى) قال بعضهم كان من أذكياء الناس وانما كان بينه وبين قوم عداوة فوضعوا عليه حكايات سارت بها الركبان وقيل كان من كبار الحمقى والمغفلين (قيل) انه دخل الحمام وخرج منه فضربته ريح باردة فمس خصيتيه فاذا احداهما قد تقلصت فرجع الى الحمام وجعل يفتش الناس فقالوا له مالك فقال سرقت احدى بيضتى ثم انه دخل فى الحمام وحمى فرجعت البيضة فلما وجدها سجد شكرا لله وقال كل شىء لا تسرقه اليد لا يفقد (واشترى) يوما دقيقا وحمله على حمال فلما دخل الحمال فى الزحام هرب فرآه جحى بعد أيام فاستتر منه لئلا يطالبه بالاجرة (وكان) لهم جارية تسمى عميرة فضربتها ذات يوم أمه فصاحت الجارية فاجتمع الناس على الباب فخرج اليهم فقال مالكم عافاكم الله انما هى أمى تجلد عميرة (ومنهم ابن الجصاص) قيل انه كان يقصد التباله خيفة من الوزير ابن الفرات * فمن المنقول من حمقه * انه كان يوما مع الوزير فى مركب ومعه بطيخة فاراد أن يعطيها الوزير ويبصق فى البحر فبصق فى وجه الوزير ورمى البطيخة فى البحر هذا

صديقي فقال انما أخيرك بين خلتين اما أن تقيم فنوليك أو ترحل فنغنيك فقلت أولم تغنني أيها الأمير قال انما هذا أثاث المنزل ومصلحة القدوم فنالني من فضله مالا أقدر على وصفه ﴿وحدث﴾ أبو اليقظان عن أبيه قال حج يزيد بن المهلب فطلب حلاقا يحلق رأسه فجيء بحلاق فحلق رأسه فامر له بخمسة آلاف درهم فتحير الحلاق ودهش وقال آخذ هذه الخمسة الآلاف وأمضي الى أم فلان أخبرها اني قد استغنيت فقال اعطوه خمسة آلاف أخرى فقال امرأته طالق ان حلقت رأس أحد بعدك وقيل ان الحجاج حبسه على خراج وجب عليه ومقداره مائة ألف درهم فجمعت له وهو في السجن فجاءه الفرزدق يزوره فقال للحاجب استأذن لي عليه فقال انه في مكان لا يمكن الدخول عليه فيه فقال الفرزدق انما أتيت متوجعا لما هو فيه ولم آت ممتدحا فاذن له فلما أبصره قال

أبا خالد ضاقت خراسان بعدكم * وقال ذوو الحاجات أين يزيد
فما قطرت بالشرق بعدك قطرة * ولا اخضر بالمروين بعدك عود
وما لسرور بعد عزك بهجة * وما لجواد بعد جودك جود

فقال يزيد للحاجب ادفع اليه المائة ألف درهم التي جمعت لنا ودع الحجاج ولحمي يفعل فيه ما يشاء فقال الحاجب للفرزدق هذا الذي خفت منه لما منعتك من دخولك عليه ثم دفعها اليه فأخذها وانصرف ومر يزيد ابن المهلب عند خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه بعجوز أعرابية فذبحت له عنزا فقال لابنه ما معك من النفقة قال مائة دينار قال ادفعها اليها فقال هذه يرضيها اليسير وهي لا تعرفك قال ان كان يرضيها اليسير فانا لا أرضى الا بالكثير وان كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي وقال مروان بن أبي الجنوب الشاعر أمر لي المتوكل بمائة وعشرين ألفا وخمسين ثوبا ورواحل كثيرة فقلت أبياتا في شكره فلما بلغت قولي

فامسك ندى كفيك عني ولا تزد * فقد خفت أن أطغى وأن أتجبرا

فقال والله لا أمسك حتى أغرقك بجودي وأمر له بضياع تقوم بألف ألف وقال أبو العيناء تذاكروا السخاء فاتفقوا على آل المهلب في الدولة المروانية وعلى البرامكة في الدولة العباسية ثم اتفقوا على ان أحمد بن أبي داود أسخى منهم جميعا وأفضل وسئل اسحق الموصلي عن سخاء أولاد يحيى بن خالد فقال أما الفضل فيرضيك فعله وأما جعفر فيرضيك قوله وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد وفي يحيى يقول القائل

سألت الندى هل أنت حر فقال لا * ولكنني عبد ليحيى بن خالد
فقلت شراء قال لا بل وراثة * توارثني من والد بعد والد

﴿وفي الفضل يقول القائل﴾

اذا نزل الفضل بن يحيى ببلدة * رأيت بها غيث السماحة ينبت
فليس بسعال اذا سئل حاجة * ولا عكب في ثرى الأرض ينكت

وفي محمد يقول القائل سألت الندى والجود مالي أراكما * تبدلتما عزا بذل مؤبد

وما بال ركن المجد أمسى مهدما * فقال أصبنا بابن يحيى محمد
فقلت فهلا متما بعد موته * وقد كنتما عبديه في كل مشهد
فقالا أقمنا كي نعزى بفقده * مسافة يوم ثم نتلوه في غد

وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكرم الله وجهه من كانت له الي حاجة فليرفعها الي في كتاب لأصون وجهه عن المسئلة وجاءه رضي الله تعالى عنه أعرابي فقال يا أمير المؤمنين ان لي اليك حاجة الحياء يمنعني أن أذكرها فقال خطها في الارض فكتب اني فقير فقال يا قنبر اكسه حلتي فقال الاعرابي

كسوتني حلة تبلى محاسنها * فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
ان نلت حسن الثنا قد نلت مكرمة * وليس تبغي بما قدمته بدلا
ان الثناء ليحيي ذكر صاحبه * كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر في عرف بدأت به * كل امرئ سوف يجزى بالذي فعلا

فقال يا قنبر زده مائة دينار فقال يا أمير المؤمنين لو فرقتها في المسلمين لأصلحت بها من شأنهم فقال رضي الله تعالى عنه صه يا قنبر فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اشكروا لمن أثنى عليكم واذا أتاكم كريم قوم فأكرموه ولعبد الله بن جدعان

اني وان لم ينل مالي مداخلتي * وهاب ما ملكت كفي من المال

لا أحبس

من المنقول عما ظهر عنه من النبالة والافقد روي عنه أنه قال لما ولي ابن الفرات الوزارة قصدني قصدا قبيحا وأنفذ العمال الى ضياعي وبسط لسانه بثلبي وتنقصني في مجلسه فدخلت يوما داره فسمعت حاجبه وقد وليت يقول هذا بيت مال يمشي على وجه الأرض ليس له من يأخذه فقلت هذا من كلام صاحبه وقد كان عندي في ذلك الوقت سبعة آلاف ألف دينار عينا سوى الجواهر والذخائر وغير ذلك فسهرت في ليلتي أفكر في أمري معه فوقع في نفسي الثلث الاخير من الليل أن ركبت الى داره على الفور فوجدت الأبواب مغلقة فطرقتها فقال البواب من هذا قلت ابن الجصاص فقال ليس هذا وقت وصول والوزير نائم فقلت عرف الحجاب أني حضرت في مهم فعرفهم فخرج الى أحدهم وقال انه في هذا الوقت لا ينتبه فقلت الامر أهم من ذلك فايقظه وعرفه عني ما قلت لك فدخل وأبطأ ساعة ثم خرج وأدخلني فارتاع لدخولي وظن أني جئته برسالة من الخليفة أو حدثت حادثة وهو متوقع لما أورده عليه فنظر الي وقال ما الذي جاء بك في هذا الوقت قلت خير ما حدثت حادثة ولا معي رسالة ولا جئته الا في أمر يخصني ويخص الوزير ولم تصلح مفاوضته الا على خلوة فسكن روعه وقال لمن حوله انصرفوا فمضوا فقال هات فقلت أيها الوزير انك قصدتني باقبح قصد وشرعت في هلاكي وازالة نعمتي وفي ازالتها خروج نفسي وليس عن النفس عوض وقد جعلت هذا الكلام عذرا بيني وبينك فان نزلت تحت حكمي في الصلح والا قصدت الخليفة في هذه الساعة وحولت اليه ألف ألف دينار وأنت تعلم قدرتي عليها وأقول له خذ هذا المال وسلم الى ابن الفرات وأسلمك ان

لا أحبس المال الا حيث أنفقه * ولا يغيرني حال الى حال

وقال بعض العرب لولده يا بني لا تزهدن في معروف فان الدهر ذو صروف فكم راغب كان مرغوبا اليه وطالب كان مطلوبا ما لديه وكن كما قال القائل

وعد من الرحمن فضلا ونعمة * عليك اذا ما جاء للخير طالب

ولا تمنعن ذا حاجة جاء راغبا * فانك لا تدري متى أنت راغب

(وقال بعضهم) أبيت خميص البطن عريان طاويا * وأوثر بالزاد الرفيق على نفسي

وأمنحه فرشي وأفترش الثرى * وأجعل ستر الليل من دونه لبسي

حذار أحاديث المحافل في غد * اذا ضمني يوما الى صدره رمسي

وقال يحيى البرمكي أعط من الدنيا وهي مقبلة فان ذلك لا ينقصك منها شيأ وأعط منها وهي مدبرة فان منعك لا يبقي عليك منها شيأ فكان الحسن بن سهل يتعجب من ذلك ويقول لله دره ما أطبعه على الكرم وأعلمه بالدنيا وقد أمر يحيى من نظمه فقال

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة * فليس ينقصها التبذير والسرف

فان تولت فاحرى أن تجود بها * فليس تبقى ولكن شكرها خلف

وقال يحيى لولده جعفر يا بني ما دام قلمك يرعد فأمطره معروفا وقال بعضهم

لا تكثري في الجود لائمتي * واذا بخلت فأكثري لومي

كفي فلست بحامل أبدا * ما عشت هم غد الى يومي

وقال علي رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه لا تستحي من عطاء القليل فالحرمان أقل منه * وسئل اسحق الموصلي عن المخلوع فقال كان أمره كله عجبا كان لا يبالي أين يقعد مع جلسائه وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر كان عنده سليمان بن أبي جعفر يوما فأراد الرجوع الى أهله فقال له سفر البر أحب اليك أم سفر البحر قال البحر ألين علي فقال أوقروا له زورقه ذهبا وأمر له بألف ألف درهم * وشكا سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان موسى شهوان الى سليمان بن عبد الملك وقال قد هجاني يا أمير المؤمنين فاستحضره سليمان وقال لأم لك أتهجو سعيدا قال يا أمير المؤمنين أخبرك الخبر عشقت جارية مدنية وأتيت سعيدا فقلت اني أحب هذه الجارية وان مولاتها أعطيت فيها مائتي دينار وقد أتيتك فقال لي بورك فيك فقال سليمان ليس هذا موضع بورك فيك قال فأتيت يا أمير المؤمنين سعيد بن خالد فذكرت له حالي فقال يا جارية هاتي مطرفا فأتته بطرف خز فصر لي في كل زاوية مائتي دينار فخرجت وأنا أقول

أبا خالد أعني سعيد بن خالد * أخا العرف لا أعني ابن بنت سعيد * ولكنني أعني ابن عائشة الذي

أبو أبويه خالد بن أسيد * عقيد الندى ما عاش يرضى به الندى * فان مات لم يرض الندى بعقيد

ذروه ذروه انكم قد رقدتمو * وما هو عن احسانكم برقود

فقال سليمان قل ما شئت * وكتب كلثوم بن عمر الى بعض الكرماء رقعة فيها

اذا تكرهت أن تعطي القليل ولم * تقدر على سعة لم يظهر الجود

بث النوال ولا تمنعك قلته * فكل ما سد فقرا فهو محمود

فشاطره ماله حتى بعث اليه بنصف خاتمه وفردة نعله * وباع عبد الله بن عتبة بن مسعود أرضا بثمانين ألفا فقيل له لو اتخذت لولدك من هذا المال ذخرا فقال بل أجعله ذخرا لي وأجعل الله ذخرا لولدي وقسمه بين ذوي الحاجات وكان ابن مالك القشيري من الاجواد قيل انه انهب الناس ماله بعكاظ ثلاث مرات فعاتبه خاله فقال

يا خال ذرني ومالي ما فعلت به * وخذ نصيبك منه انني مودي * فلن أطيعك الا أن تخلدني

فانظر بكيدك هل تستطيع تخليدي * الحمد لا يشترى الا بمكرمة * ولن أعيش بمال غير محمود

وقال المهلب عجبت لمن يشتري المماليك بماله كيف لا يشتري الاحرار بفعاله * ونزل بأبي البختري وهب بن وهب القرشي ضيفا فسارع عبيده الى انزاله وخدموه أحسن خدمة وفعلوا به كل جميل فلما هم بالرحيل لم يقربه أحد منهم وتجنبوه فأنكر ذلك عليهم فقالوا نحن انما نعين النازل على الاقامة ولا نعينه على الرحيل * ووفدت ليلى

اختاره للوزارة ويقع في نفسي أنه يجيب الى تقليده ممن له وجه مقبول ولسان عذب وخط حسن ولا أعتمد الا على بعض كتابك فانه لا يفرق بينك وبينه اذا رأى المال حاضرا فيسلمك في الحال اليه ويفرغ عليك العذاب بحضوري ويأخذ منك المال المعين وأنت تعلم أن حالك تفي بها ولكنك تفتقر بعدها ويرجع المال الي وأكون أهلكت عدوي وشفيت غيظي وزاد محلي بتقليدي وزيرا فلما سمع هذا الكلام سقط في يده وقال يا عدو الله أو تستحل ذلك فقلت بل عدو الله من استحل مني هذا فقال وما تريد فقلت تحلف الساعة بما أستحلفك من الايمان المغلظة أن تكون معي لا علي في صغير أمري وكبيره ولا تنقص لي رسما ولا تضع مني بل تبالغ في رفعتي ولا تبطن علي فقال وتحلف أنت أيضا لي بمثل هذا اليمين على جميل النية وحسن الطاعة فقلت أفعل فقال لعنك الله والله لقد سحرتني واستدعى بدواة فعملنا نسخة يمين وحلف كل منا عليها فلما أردت القيام قال لي يا أبا عبد الله لقد عظمت في نفسي والله ما كان المقتدر يفرق بيني وبين أحسن كتابي اذا رأى المال فليكن ما جرى بيننا مطويا فقلت سبحان الله فقال اذا كان غدا فسر الى المجلس فترى ما أعاملك به فقمت فأمر الغلمان أن يسيروا في خدمتي بأجمعهم الى داري ولما أصبحت جئته فبالغ في الاكرام والتعظيم وأمر بانشاء الكتب الى النواحي باعزازي وكلائي وحماية أملاكي فشكرته وقمت فأمر الغلمان أيضا بالمشي بين يدي والحجاب والناس يتعجبون من ذلك ولم يعلم أحد ما السبب وما حدثت بهذا الحديث الا بعد القبض عليه (وذكر ابن الجوزي في الباب السابع من كتاب الحمقى والمغفلين) أن جماعة

الاخيلية على الحجاج فقالت فيه

اذا ورد الحجاج أرضا مريضة * تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها * غلام اذا هز القناة سقاها

فقال لا تقولي غلام ولكن قولي همام يا غلام أعطها خمسمائة فقالت أيها الأمير اجعلها نعما فجعلها ابلا اناثا وقال أبو الغياض الطبري

والعرضيف لا يراه بربعه * من لا يرى بذل التلاد تلادا
والجود أعلى كعب كعب قبلنا * فقضى جواد يوم مات جوادا

(وقال آخر)

أيقنت ان من السماح شجاعة * وعلمت ان من السماحة جودا

وقال أحمد بن حمدون النديم عملت أم المستعين بساطا على صورة كل حيوان من جميع الاجناس وصورة كل طائر من ذهب وأعينها يواقيت وجواهر انفقت عليه مائة ألف ألف دينار وثلاثين ألف دينار وسألته أن يقف عليه و ينظر اليه فكسل ذلك اليوم عن رؤيته قال أحمد بن حمدون فقال لي ولاترجة الهاشمي اذهبا فانظرا اليه وكان معنا الحاجب فضينا ورأيناه فوالله ما رأينا في الدنيا شيأ أحسن منه ولا شيأ حسنا الا وقد عمل فيه فمدت أنا يدي الى غزال من ذهب عيناه ياقوتتان فوضعته في كمي ثم جئنا فوصفنا له حسن ما رأيناه فقال أترجة يا أمير المؤمنين انه قد سرق منه شيأ وغمزه على كمي فارتيته الغزال فقال بحياتي عليكما ارجعا فخذا ما أحببتما فمضينا ثلاثا كما مثا وأقبلنا نغشي كالحبالى فلما رآنا ضحك فقال بقية الجلساء ونحن فما ذنبنا يا أمير المؤمنين فقال قوموا فخذوا ما شئتم ثم قام فوقف على الطريق ينظر كيف يحملون و يضحك ونظر يزيد المهلبي سطلا من ذهب مملوأ مسكا فاخذه بيده وخرج فقال له المستعين الى أين فقال الى الحمام يا أمير المؤمنين فضحك من قوله وأمر الفراشين والخدم أن ينتهبوا الباقي فانتهبوه فوجهت اليه أمه تقول سر الله أمير المؤمنين لقد كنت أحب أن يراه قبل ان يفرقه فانني انفقت عليه مائة ألف ألف وثلاثين ألف دينار فقال يحمل اليها مثل ذلك حتى تعيد مثله ففعلت ومضى حتى رآه وفعل به كفعله الاول ودخل طلحة بن عبد الله بن عوف السوق يوما فوافق فيه الفرزدق فقال يا أبا فراس اختر عشرا من الابل ففعل فقال ضم اليها مثلها فلم يزل يقول مثل ذلك حتى بلغت مائة فقال هي لك فقال

ياطلح أنت أخو الندى وعقيده * ان الندى ما مات طلحة ماتا
ان الندى ألقى اليك رحاله * فبحيث بت من المنازل باتا

وقدم زياد الأعجم على عبد الله بن الحشرج بنيسابور فاكرمه وأنعم عليه و بعث اليه بالف دينار فقال

ان السماحة والمروأة والندى * في قبة ضربت على ابن الحشرج

فقال زدني فقال كل شئ وثمنه * ووفد أبو عطاء السدي على نصر بن سيار بخراسان مع رفيقين له فانزله وأحسن اليه وقال ما عندك يا أبا عطاء فقال وما عسى أن أقول وأنت أشعر العرب غير أني قلت بيتين قال هات ما قلت فقال

يا طالب الجود اما أنت تطلبه * فاطلب على بابه نصر بن سيار
الواهب الخيل تغدو في أعنتها * مع القيان وفيها ألف دينار

فاعطاه ألف دينار ووصائف وكساه كسوة جميلة فقسم ذلك بين رفيقيه ولم يأخذ منه شيأ فبلغ ذلك نصرا فقال ياله قاتله الله من سيد ما أضخم قدره ثم أمر له بمثله * وقال العتبي أشرف عمرو بن هبيرة يوما من قصره فاذا هو باعرابي يرقل قلوصه فقال عمرو لحاجبه ان أرادني هذا الاعرابي فاوصله الي فلما وصل الاعرابي سأله الحاجب فقال أردت الأمير فدخل به اليه فلما مثل بين يديه قال له ما حاجتك فأنشد الاعرابي يقول

أصلحك الله قل ما بيدي * ولا أطيق العيال اذا كثروا
أناخ دهري على كلكله * فارسلوني اليك وانتظروا

فاخذت عمرا الاريحية فجعل يهتز في مجلسه ثم قال أرسلوك الي وانتظروا اذن والله لا تجلس حتى ترجع اليهم ثم أمر له بالف دينار * وقيل أراد ابن عامر أن يكتب لرجل بخمسين ألف درهم فجرى القلم بخمسمائة ألف فراجعه الخازن في ذلك فقال انفذه فما بقي الا انفاذه وأن خروج المال أحب الي من الاعتذار فاستشرفه الخازن فقال اذا أراد الله بعبد خيرا صرف القلم عن مجرى ارادة كاتبه الى ارادته وأنا أردت شيأ وأراد الجواد الكريم أن

يعطي

من العقلاء صدر عنهم أفعال الحمق وأصروا على ذلك مستصوبين لها فصاروا بذلك الاصرار حمقى ومغفلين (فأول القوم ابليس لعنه الله تعالى) فانه صوب نفسه وخطأ حكمة الله تعالى ورمى عن قوس الاعتراض في عدم السجود لآدم عليه السلام ثم قال أنظرني الى يوم يبعثون فصارت لذته في ايقاع العاصي في الذنب كأنه يغبط ونسي عقابه الدائم فلا حمق كحمقه ولا غفلة كغفلته ولله در القائل في ابليس

عجبت من ابليس في غفلته
وخبث ما أظهر من نيته
تاه على آدم في سجدة
وصار قواد الذريته

(الثاني فرعون) في دعواه الربوبية وافتخاره بقوله أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي فافتخر بساقية لا هو أجراها ولا يعرف مبداها ولا منتهاها ونسي أمثالها مما ليس تحت قدرته وليس في الحمق أعظم من ادعائه الالهية وقد ضربت الحكماء بذلك مثلا فقالوا دخل ابليس على فرعون فقال له من أنت قال ابليس قال ما جاء بك قال جئت متعجبا من جنونك قال كيف قال أنا عاديت مخلوقا مثلي فامتنعت من السجود له فطردت ولعنت وأنت تدعي أنك اله هذا والله هو الحمق والجنون البارد (ومن عجيب الحمق والتغفل) اتخاذ الأصنام باليد والاقبال على عبادتها والاله ينبغي أن يفعل ولا يفعل (وكذلك) نمروذ في بنائه الصرح ثم رميه بنشابة يريد أن يقتل اله السموات والأرض (وكذلك) بنو اسرائيل حين جاوزوا البحر وقد أنجاهم الله تعالى من تلك الأهوال واستنقذهم من فرعون قالوا اجعل لنا الها كما لهم آلهة (وكذلك) قول النصارى ان عيسى اله وابن اله ثم يقرون ان اليهود صلبوه وهذا غاية البله

يعطى عبده عشرة أضعافه فكانت ارادة الله الغالبة وأمره النافذ * ووقف اعرابي على ابن عامر فقال يا قمر البصرة وشمس الحجاز ويا ابن ذروة العرب وابن بطحاء مكة برحت بي الحاجة وأكدت بي الآمال الا بفنائك فامنحني بقدر الطاقة لا بقدر المجد والشرف والوسمة فأمر له بمائتي ألف درهم * وسمع المأمون قول عمارة بن عقيل

أأترك ان قلت دراهم خالد * زيارته انى اذا اللئيم

فقال أو قلت دراهم خالد احملوا اليه مائة ألف درهم فبعثها خالد بن يحيى الى عمارة بن عقيل وقال هذه قطرة من سحابك * ولما عزل عبد الرحمن بن الضحاك عن المدينة بكى ثم قال والله ما بكائي جزعا من العزل ولا أسفا على الولاية ولكن أخاف على هذه الوجوه أن يلي أمرها من لا يعرف لها حقا * وأراد الرشيد أن يخرج الى بعض المتفرجات فقال يحيى بن خالد لرجاء بن عبد العزيز وكان على نفقاته ما عندوكلائنا من الأموال قال سبعمائة ألف درهم قال فاقبضها اليك يا رجاء فلما كان من الغد دخل عليه رجاء فقبل يده وعنده منصور بن زياد فلما خرج رجاء قال يحيى لمنصور قد ظننت ان رجاء توهم انا قد وهبنا المال له وانما أمرناه بقبضه من الوكلاء ليحفظه علينا لما احتجنا اليه في وجهنا هذا فقال منصور أنا أستخبرلك هذا فقال يحيى اذن يقول لك قل له يقبل يدي كما قبلت يده فلا تقل له شيأ فقد تركتها له * وقيل ان الرشيد وصل في يوم واحد بألف ألف وثلثمائة ألف وخمسين ألفا ووصل المنصور في يوم واحد لبني هاشم ووجوه قواده بعشرة آلاف ألف دينار على ما ذكره * وعن الاخفش الصغير قال كان أسيد بن عنقاء الفزاري من أكبر أهل زمانه قدرا وأكثرهم أدبا وأفصحهم لسانا وأثبتهم جنانا فطال عمره ونكبه دهره فخرج عشية ينتقل لاهله فمر به عميلة الفزاري فسلم عليه وقال ما أصارك يا عم الى ما أرى فقال بخل مثلك بماله وصون وجهي عن مسئلة الناس فقال والله لئن بقيت الى غد لاغيرن ما أرى من حالك فرجع ابن عنقاء الى أهله فأخبرها بما قال له عميلة فقالت له لقد غرك كلام غلام في جنح ليل قال فكأنما ألقمت فاه حجرا وبات متململا بين رجاء ويأس فلما كان وقت السحر سمع رغاء الابل وصهيل الخيل تحت الاموال فقال ما هذا قالوا عميلة قد قسم ماله شطرين وبعث اليك بشطره فأنشد يقول

رآني على ما بي عميلة فاشتكى * الى ماله حالي فواسى وما هجر
ولما رأى المجد استعيرت ثيابه * تردى رداء سابغ الذيل واتزر
غلام حباه الله بالحسن يافعا * له سيميا لا تشق على البصر
كأن الثريا علقت في جبينه * وفي أنفه الشعرى وفي جيده القمر

وكان عمر بن عبد الله بن معمر التميمي من الاجواد قيل انه كان لرجل جارية يهواها فاحتاج الى بيعها فابتاعها منه ابن معمر بمال جزيل فلما قبض ثمنها أنشأت تقول

هنيأ لك المال الذي قد قبضته * ولم يبق في كفي غير التحسر
أبوء بحزن من فراقك موجع * أناجي به صدرا طويل التفكر

فأجابها يقول

ولولا قعود الدهر بي عنك لم يكن * يفرقنا شيء سوى الموت فاعذري
عليك سلام لا زيارة بيننا * ولا وصل الا أن يشاء ابن معمر

فقال ابن معمر قد شئت وقد وهبتك الجارية وثمنها فأخذها وانصرف * ووفد أبو الشمقمق الى مدينة سابور يريد محمد بن عبد السلام فلما دخلها توجه الى منزله فوجده في دار الخراج يطالب فدخل عليه يتوجع له فلما رآه محمد قال

ولقد قدمت على رجال طالما * قدم الرجال عليهم فتمولوا
أخنى الزمان عليهم فكأنما * كانوا بأرض أقفرت فتحولوا

فقال أبو الشمقمق

الجود أفلسهم وأذهب مالهم * فاليوم ان راموا السماحة بخلوا

قال فخلع محمد ثوبه وخاتمه ودفعها اليه فكتب بذلك مستوفي الخراج الى الخليفة فوقع الى عامله باسقاط الخراج عن محمد بن عبد السلام في تلك السنة واسقاط ما عليه من البقايا وأمر له بمائة ألف درهم معونة له على مروأته * وقال أبو العيناء حصلت لي ضيقة شديدة فكتمتها عن أصدقائي فدخلت يوما على يحيى بن أكثم القاضي فقال ان أمير المؤمنين المأمون جلس للمظالم وأخذ القصص فهل لك في الحضور قلت نعم فمضيت معه الى دار أمير المؤمنين فلما دخلنا عليه أجلسه وأجلسني ثم قال يا أبا العيناء بالالفة والمحبة ما الذي جاء بك في هذه الساعة فأنشدته

لقد رجوتك دون الناس كلهم * وللرجاء حقوق كلها تجب

والغفلة (وكذلك) الرافضة يعلمون اقرار علي ببيعة أبي بكر وعمر واستيلاده الحنفية من سبي أبي بكر وتزويجه أم كلثوم ابنته من عمر وكل ذلك دليل على رضاه ببيعتهما ثم في الرافضة من يسبهما وفيهم من يكفرهما وكل ذلك يطلبون به حب علي بزعمهم وقد تركوا احبهم وراء ظهورهم (وقد روى) عن الامام أحمد بن حنبل أنه قال لو جاءني رجل فقال اني حلفت بالطلاق أن لا أكلم في هذا اليوم من هو أحمق وكلم رافضيا أو نصرانيا لقلت له حنثت فقال له ابن الديناري أعزك الله ولم صارا أحمقين قال لانهما خالفا الصادقين (أما الصادق الاول) فعيسى عليه السلام قال للنصارى اني عبد الله وقال أن اعبدوا الله فقالوا لا وعبدوه جهلا وحمقا (والصادق الثاني) الامام علي رضي الله عنه فانه قال عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال عن أبي بكر وعمر هذان سيدا كهول أهل الجنة والرافضة يسبونهما (ومن المنقول عن حمق النساء) أن الأمين المحصور قال لجاريته غني فغنت

أبكي فراقهم عيني فأرقها
ان التفرق للاحباب بكاء

فقال لعنك الله أما تعرفين غير هذا فغنت

ما اختلف الليل والنهار ولا
دارت نجوم السماء في فلك
الا لينتقل السلطان من ملك
غبت تحت الثرى الى ملك

فقال لها قومي فقامت فعثرت بقدح بلور فكسرته فقال قاتل قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ولما قتله المأمون دخل على زبيدة ليعزيها به فقالت ان أردت أن تسليني في غدائك عندي فتغدى عندها فأخرجت له من جواري الأمين من تغنيه فغنت

ان لم يكن لى أسباب أعيش بها * ففى العلا لك أخلاق هى السبب

فقال ياسلامة انظر أى شئ فى بيت المال الذى دون مال المسلمين فقال بقية من مال قال فادفع له منها مائة ألف درهم وابعث له بمثلها فى كل شهر فلما كان بعد أحد عشر شهرا مات المأمون فبكى عليه أبو العيناء حتى تقرحت أجفانه فدخل عليه بعض أولاده فقال يا أبتاه بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء فأنشأ أبو العيناء وهو يقول

شيآن لو بكت الدماء عليهما * عيناى حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما * فقد الشباب وفرقة الأحباب

وكان أحمد بن طولون كثير الصدقة وكان راتبه منها فى الشهر ألف دينار سوى ما يطرأ عليه من نذر أو صلة وسوى ما يطبخ فى دار الصدقة وكان الموكل بصدقته سليم الخادم فقال له سليم يوما أيها الأمير انى أطوف القبائل وأدق الأبواب لصدقاتك وان اليد تمتد الى وفيها الحناء وربما كان فيها الخاتم الذهب والسوار الذهب أفأعطى أم أرد قال فأطرق طويلا ثم قال كل يد امتدت اليك فلا تردها * وقال سلمة بن عياش فى جعفر بن سليمان

وماشم أنفى ريح كف شممتها * من الناس الا ريح كفك أطيب

فأمر له بألف دينار ومائة مثقال مسك ومائة مثقال عنبر * وكان عبد العزيز بن عبد الله جوادا مضيافا فتغدى عنده اعرابى يوما فلما كان من الغد مر على بابه فرأى الناس فى الدخول على هيئتهم بالأمس فقال أو كل يوم يطعم الأمير الناس قالوا نعم فأنشأ يقول

كل يوم كأنه عيد أضحى * عند عبد العزيز أو عيد فطر
وله ألف جفنة مترعات * كل قدر عندها ألف قدر

وتعشى الناس ليلة عند سعيد بن العاص فلما خرجوا بقى فتى من الشام قاعدا فقال له سعيد ألك حاجة وأطفأ الشمعة كراهة أن يخجل الفتى فذكر ان أباه مات وخلف دينا وعيالا وسأله ان يكتب له كتابا الى اهل دمشق ليقوموا ببعض اصلاح حاله فدفع له عشرة آلاف دينار وقال له لا أدعك تقاسى الذل على ابوابهم * ودخل رجل على على بن سليمان الوزير فقال له سألتك بالله العظيم ونبيه الكريم الا ما اجرتنى من خصمى فقال ومن خصمك حتى أجيرك منه فقال الفقر فاطرق الوزير ساعة وقال قد امرت لك بمائة ألف درهم فاخذها وانصرف فبينما هو فى الطريق اذ أمر الوزير برده اليه فلما رجع قال له سألتك بالله العظيم ونبيه الكريم متى أتاك خصمك معنفا فارجع الينا متظلما * وقال الاعمش كانت عندى شاة فمرضت وفقدت الصبيان لبنها فكان خيثمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشى ويسألنى هل استوفت علفها وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها وكان تحتى لبد أجلس عليه فكان اذا خرج يقول خذ ما تحت اللبد حتى وصل الى من علة الشاة اكثر من ثلثمائة دينار من بره حتى تمنيت ان الشاة لم تبرأ (وحكى) أبو قدامة القشيرى قال كنا مع يزيد بن مزيد يوما فسمع صائحا يقول يا يزيد بن مزيد فطلبه فاتى به اليه فقال ما حملك على هذا الصياح قال فقدت دابتى ونفدت نفقتى وسمعت قول الشاعر

اذا قيل من للجود والمجد والندى * فنادى بصوت يا يزيد بن مزيد

فأمر له بفرس أبلق كان معجبا به وبمائة دينار وخلعة سنية فأخذها وانصرف (وحكى) ان قوما من العرب جاؤا الى قبر بعض أسخيائهم يزورونه فباتوا عند قبره فرأى رجل منهم صاحب القبر فى المنام وهو يقول له هل لك أن تبيعنى بعيرك بنجيبى وكان الميت قد خلف نجيبا وكان للرائى بعير سمين فقال نعم وباعه فى النوم بعيره بنجيبه فلما وقع بينهما عقد البيع عمد صاحب القبر الى البعير فنحره فى النوم فانتبه الرائى من نومه فوجد الدم يسيح من نحر بعيره فقام وأتم نحره وقطع لحمه وطبخوه وأكلوا ثم رحلوا وساروا فلما كان اليوم الثانى وهم فى الطريق سائرون استقبلهم ركب فتقدم منهم شاب فنادى هل فيكم فلان بن فلان فقال صاحب البعير نعم ها أنا فلان بن فلان فقال هل بعت من فلان الميت شيأ قال نعم بعته بعيرى بنجيبه فى النوم فقال هذا نجيبه خذه وأنا ولده وقد رأيته فى النوم وهو يقول ان كنت ولدى فادفع نجيبى الى فلان فانظر الى هذا الرجل الكريم كيف أكرم أضيافه بعد موته (وروى) عن الهيثم بن عدى أنه قال تمارى ثلاثة نفر فى الأجواد فقال رجل أسخى الناس فى عصرنا هذا عبد الله بن جعفر فقال الآخر أسخى الناس قيس بن سعد بن عبادة فقال

الآخر

هم قتلوه كى يكونوا مكانه
كما غدرت يوما بكسرى مرازبه

فوثب المأمون مغضبا فقالت له زبيدة أحرمنى الله أجره ان كنت دسسته اليهما أو لقنتها فصدقها وانصرف (ومن ذلك) ان المعتصم لما فرغ من بناء قصره أدخل الناس عليه فاستأذن اسحق بن ابراهيم فى الانشاد فأذن له فأنشد

يادار غيرك البلى ومحاك
ياليت شعرى ما الذى أبلاك

فتطير المعتصم وجميع من حضر المجلس وتعجبوا كيف يصدر من مثل اسحق هذا التغفل المفرط ولم يجتمع بعد ذلك بالدار اثنان (ومن لطائف المنقول عن الحمقى والمغفلين) أن عيسى بن صالح تولى قنسرين والعواصم للرشيد وكان من الحمق على جانب عظيم قال بعضهم أتانى رسوله بالليل فأمرنى بالحضور فتوهمت ان كتابا جاءه من أمير المؤمنين فى مهم احتاج فيه الى حضورى عنده فركبت الى داره فلما دخلت سألت الحجاب هل ورد كتاب من الخليفة أو حدث أمر فقالوا لا فمضيت الى الخدم فسألتهم فقالوا مثل مقالة الحجاب فصرت الى الموضع الذى هو فيه فقال لى ادخل ليس عندى أحد فدخلت فوجدته على فراشه فقال اعلم انى سهرت الليلة مفكرا فى أمر الى ساعتى هذه فقلت وما هو الأمر أصلح الله الأمير قال اشتهيت أن يصيرنى الله حورية فى الجنة ويجعل زوجى يوسف الصديق فطال لذلك فكرى فقلت له هلا اشتهيت محمدا صلى الله عليه وسلم أن يكون زوجك فانه سيد الأنبياء عليهم السلام فقال لا تظن انى لم أفكر فى هذا قد فكرت فيه ولكنى كرهت أن أغيظ عائشة رضى الله عنها (ومن لطائف المنقول عن المغفلين من الاعراب) قيل صلى اعرابى خلف

الآخر بل أسخى الناس اليوم عرابة الأوسى فتنازعوا بفناء الكعبة فقال لهم رجل لقد أفرطتم فى الكلام فليمض كل واحد منكم الى صاحبه يسأله حتى ننظر بما يعطوه ونحكم على العيان فقام صاحب ابن جعفر فوافاه وقد وضع رجله فى ركاب راحلته يريد ضيعة له فقال الرجل يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن سبيل ومنقطع به قال فأخرج رجله وقال ضع رجلك واستو على الناقة وخذ ما فى الحقيبة وكان فيها مطارف خز وأربعة آلاف دينار ومضى صاحب قيس فوجده نائما فقالت له جارية لقيس ما حاجتك فقال ابن سبيل ومنقطع به فقالت له الجارية حاجتك أهون من ايقاظه هذا كيس فيه سبعمائة دينار ما فى دار قيس اليوم غيرها وامض الى معاطن الابل فخذ راحلة من رواحله وما يصلحها وعبدا وامض لشأنك قيل ان قيسا لما انتبه أخبرته الجارية بما صنعت فأعتقها وقال لو لم تعلم أن ذلك يرضيه ما جسرت تفعله فخلاق خدم الرجل مقتبس من خلقه قال بعض الشعراء

واذا ما اختبرت ود صديق * فاختبر وده من الغلمان

ومضى صاحب عرابة فوجده قد خرج من منزله يريد الصلاة فقال يا عرابة ابن سبيل ومنقطع به وكان معه عبدان فصفق بيده اليمنى على اليسرى وقال أواه أواه والله ما أصبح ولا أمسى الليلة عند عرابة شئ ولا تركت له الحقوق مالا ولكن خذ هذين العبدين فقال الرجل والله ما كنت بالذى يسلبك عبديك فقال ان أخذتهما والا فهما حران لوجه الله تعالى فان شئت تأخذ وان شئت فاعتق فأخذ الرجل العبدين ومضى ثم اجتمعوا وذكروا قصة كل واحد فحكموا لعرابة لأنه أعطى على جهد * قيل ان شاعرا قصد خالد بن يزيد فأنشده شعرا يقول فيه

سألت الندى والجود حران أنتما * فقالا يقينا اننا لعبيد

فقلت ومن مولاكما فتطاولا * الى وقالا خالد و يزيد

فقال يا غلام اعطه مائة ألف درهم وقل له ان زدتنا زدناك فأنشد يقول

كريم كريم الأمهات مهذب * تدفق يمناه الندى وشمائله

هو البحر من أى الجهات أتيته * فلجته المعروف والجود ساحله

جواد بسيط الكف حتى لو انه * دعاها لقبض لم تجبه أنامله

فقال يا غلام اعطه مائة ألف درهم وقل له ان زدتنا زدناك فأنشد يقول

تبرعت لى بالجود حتى نعشتنى * وأعطيتنى حتى حسبتك تلعب

وأنبت ريشا فى الجناح بعدما * تساقط منى الريش أو كاد يذهب

فأنت الندى وابن الندى وأخو الندى * حليف الندى ما للندى عنك مذهب

فقال يا غلام اعطه مائة ألف درهم وقل له ان زدتنا زدناك فقال حسب الأمير ما سمع وحسبى ما أخذت وانصرف (وأما الذين انتهى اليهم الجود فى الجاهلية) فهم حاتم بن عبد الله الطائى وهرم بن سنان وخالد بن عبيد الله وكعب بن مامة الايادى وضرب المثل بحاتم وكعب وحاتم أشهرهما * فأما كعب فجاد بنفسه وآثر رفيقه بالماء فى المفازة ومات عطشا وليس له خبر مشهور * وأما خالد بن عبيد الله فانه جاء اليه بعض الشعراء ورجله فى الركاب يريد الغزو فقال له انى قلت فيك بيتين من الشعر فقال فى مثل هذا الحال قال نعم فقال هاتهما فأنشد يقول

يا واحد العرب الذى * ما فى الأنام له نظير

لو كان مثلك آخر * ما كان فى الدنيا فقير

فقال يا غلام اعطه عشرين ألف دينار فأخذها وانصرف * وأما حاتم فأخباره كثيرة وآثاره فى الجود شهيرة ويكنى أبا سفانة وأبا عدى وكان يسير فى قومه بالمرباع والمرباع ربع الغنيمة وكان ولده عدى يعادى النبى صلى الله عليه وسلم فبعث النبى صلى الله عليه وسلم عليا الى طيئ فهرب عدى بأهله وولده ولحق بالشام وخلف أخته سفانة فأسرتها خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أتى بها الى النبى صلى الله عليه وسلم قالت هلك الوالد وغاب الرافد فان رأيت أن تخلى عنى ولا تشمت بى أحياء العرب فان أبى كان سيد قومه يفك العانى ويقتل الجانى ويحفظ الجار ويحمى الذمار ويفرج عن المكروب ويطعم الطعام ويفشى السلام ويحمل الكل ويعين على نوائب الدهر وما أتاه أحد فى حاجة فرده خائبا أنا بنت حاتم الطائى فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم يا جارية هذه صفات المؤمنين حقا لو كان أبوك مسلما لترحمنا

بعض الأئمة فى الصف الأول وكان امام الاعرابى محرما فقرأ الامام والمرسلات عرفا فلما بلغ الى قوله تعالى ألم نهلك الأولين تأخر الاعرابى الى الصف الاخير فقال ثم نتبعهم الآخرين فرجع الى الصف الأوسط فقال كذلك نفعل بالمجرمين فولى هاربا وهو يقول والله ما المطلوب غيرى (ومثله) صلى اعرابى خلف امام صلاة الصبح فقرأ الامام سورة البقرة وكان الاعرابى مستعجلا ففاته مقصوده فلما كان من الغد بكر الى المسجد فابتدأ فقرأ سورة الفيل فقطع الاعرابى الصلاة وولى هاربا وهو يقول أمس قرأت سورة البقرة فلم تفرغ منها الى نصف النهار واليوم تقرأ سورة الفيل ما أظنك تفرغ منها الى الليل (ومنه) كان اعرابى قائما يصلى فأخذ قوم يصفونه بالصلاح وهو يسمع فقطع الصلاة وقال وأنا مع هذا صائم (ومنه) دخل خالد بن صفوان الحمام وفى الحمام رجل ومعه ابنه فأراد الرجل أن يعرف خالدا ما عنده من البيان والنحو فقال يا بنى ابدأ بيداك ورجلاك ثم التفت الى خالد فقال له يا أبا صفوان هذا كلام قد ذهب أهله فقال خالد هذا كلام ما خلق الله له أهلا (ومن لطائف المنقول عن المغفلين من الشعراء) ان بعضهم دخل مسجد الكوفة يوم الجمعة وقد غاب خبر المهدى أنه مات وهم يتوقعون قراءة الكتاب عليهم بذلك فقال رافعا صوته

* مات الخليفة أيها الثقلان *

فقالوا هذا أشعر الناس فانه نعى الخليفة الى الانس والجن فى نصف بيت ومدت الناس أبصارهم وأسماعهم اليه فقال * فكأننى أفطرت فى رمضان * قال فضحك الناس وصار شهرة فى الحمق (ومثله) ان سيف الدولة بن حمدان انصرف من حرب وقد نصر على عدوه فدخل

عليه خلوا عنها فان أباها كان يحب مكارم الأخلاق وقال فيها ارحموا عزيزا ذل وغنيا افتقر وعالما ضاع بين جهال فأطلقها ومن عليها فاستأذنته فى الدعاء له فأذن لها وقال لأصحابه اسمعوا وعوا فقالت أصاب الله ببرك مواقعه ولا جعل لك الى لئيم حاجة ولا سلب نعمة عن كريم قوم الا وجعلك سببا فى ردها عليه فلما أطلقها صلى الله عليه وسلم رجعت الى قومها فأتت أخاها عديا وهو بدومة الجندل فقالت له يا أخى ائت هذا الرجل قبل أن تعلقك حبائله فانى قد رأيت هديا ورأيا سيغلب أهل الغلبة رأيت خصالا تعجبنى رأيته يحب الفقير ويفك الاسير ويرحم الصغير ويعرف قدر الكبير وما رأيت أجود ولا أكرم منه صلى الله عليه وسلم وانى أرى أن تلحق به فان يك نبيا فللسابق فضله وان يك ملكا فلن تذل فى عز اليمن فقدم عدى الى النبى صلى الله عليه وسلم فالقى له وسادة محشوة ليفا وجلس النبى صلى الله عليه وسلم على الارض فاسلم عدى بن حاتم وأسلمت أخته سفانة بنت حاتم المتقدم ذكرها وكانت من أجود نساء العرب وكان أبوها يعطيها الضريبة من ابله فتهبها وتعطيها الناس فقال لها أبوها يا بنية ان الكريمين اذا اجتمعا فى المال أتلفاه فاما أن أعطى وتمسكى واما أن أمسك وتعطى فانه لا يبقى على هذا شئ فقالت له منك تعلمت مكارم الاخلاق قال ابن الاعرابى كان حاتم الطائى من شعراء الجاهلية وكان جوادا يشبه جوده شعره ويصدق قوله فعله وكان حيثما نزل عرف منزله وكان مظفرا اذا قاتل غلب واذا سئل وهب واذا سابق سبق واذا أسر أطلق وكان اذا أهل رجب الذى كانت تعظمه مضر فى الجاهلية نحر كل يوم عشرا من الابل وأطعم الناس واجتمعوا اليه وكان قد تزوج ماوية بنت عفير وكانت تلومه على اتلاف المال فلا يلتفت لقولها وكان لها ابن عم يقال له مالك فقال لها يوما ما تصنعين بحاتم فوالله لئن وجد مالا ليتلفنه وان لم يجد ليتكلفن ولئن مات ليتركن أولاده عالة على قومك فقالت ماوية صدقت انه كذلك وكانت النساء يطلقن الرجال فى الجاهلية وكان طلاقهن ان يكن فى بيوت من شعر فان كان باب البيت من قبل المشرق حولته الى المغرب وان كان من قبل المغرب حولته الى المشرق وان كان من قبل اليمن حولته الى الشام وان كان من قبل الشام حولته الى اليمن فاذا رأى الرجل ذلك علم انها طلقته فلم يأتها ثم قال لها ابن عمها طلقى حاتما وأنا أتزوجك وأنا خير لك منه وأكثر مالا وأنا أمسك عليك وعلى ولدك فلم يزل بها حتى طلقته فأتاها حاتم وقد حولت باب الخباء فقال حاتم لولده يا عدى ما ترى ما فعلت أمك فقال قد رأيت ذلك قال فأخذا بنيه وهبط بطن واد فنزل فيه فجاء قوم فنزلوا على باب الخباء كما كانوا ينزلون وكانت عدتهم خمسين فارسا فضاقت بهم ماوية ذرعا وقالت لجاريتها اذهبى الى ابن عمى مالك وقولى له ان أضيافا لحاتم قد نزلوا بنا وهم خمسون رجلا فارسل الينا بشئ نقريهم ولبن نسقيهم وقالت لها انظرى الى جبينه وفمه فان شافهك بالمعروف فاقبلى منه وان ضرب بلحيته على زوره وأدخل يده فى رأسه فاقبلى ودعيه فلما أتته وجدته متوسدا وطبا من لبن فايقظته وأبلغته الرسالة وقالت له انما هى الليلة حتى يعلم الناس مكان حاتم فلطم رأسه بيده وضرب بلحيته وقال اقرئيها السلام وقولى لها هذا الذى أمرتك أن تطلقى حاتما لاجله وما عندى لبن يكفى أضياف حاتم فرجعت الجارية فاخبرتها بما رأت وبما قال لها فقالت لها اذهبى الى حاتم وقولى له ان أضيافك قد نزلوا بنا الليلة ولم يعلموا مكانك فارسل الينا بناقة نقريهم ولبن نسقيهم فأتت الجارية حاتما فصاحت به فقال لبيك قريبا دعوت فأخبرته بما جاءت بسببه فقال لها حبا وكرامة ثم قام الى الابل فاطلق اثنتين من عقالهما وصاح بهما حتى أتيا الخباء ثم ضرب عراقيبهما فطفقت ماوية تصيح هذا الذى طلقتك بسببه تترك أولادنا وليس لهم شئ فقال لها ويحك يا ماوية الذى خلقهم وخلق الخلق متكفل بأرزاقهم وكان اذا اشتد البرد وغلب الشتاء أمر غلمانه بنار فيوقدونها فى يفاع الارض لينظر اليها من ضل عن الطريق ليلا فيقصدها ولم يكن حاتم يمسك شيأ ما عدا فرسه وسلاحه فانه كان لا يجود بهما ثم جاد بفرسه فى سنة مجدبة ﴿وحكى﴾ ان ملكان ابن أخى ماوية قال قلت لها يوما يا عمة حدثينى ببعض عجائب حاتم وبعض مكارم أخلاقه فقالت يا ابن أخى أعجب ما رأيت منه أصابت الناس سنة أذهبت الخف والظلف وقد أخذنى واياه الجوع وأسهرنا فأخذت سفانة وأخذ عديا وجعلنا نعللهما حتى ناما فاقبل على يحدثنى ويعللنى بالحديث حتى أنام فرفقت به لما به من الجوع فامسكت عن كلامه لينام فقال لى أنمت فلم أجبه فسكت ونظر فى فناء الخباء فاذا شئ قد أقبل فرفع رأسه فاذا امرأة فقال ما هذا فقالت يا أبا عدى أتيتك من عند صبية يتعاوون كالكلاب أو كالذئاب جوعا فقال لها احضرى صبيانك فوالله لاشبعنهم فقامت

عليه الشعراء فأنشدوه فدخل معهم رجل شامى فأنشده

وكانوا كفأر وسوسوا خلف حائط
وكنت كسنور عليهم تسقفا

فامر باخراجه فقام على الباب يبكى فاخبر سيف الدولة ببكائه فرق له وأمر برده وقال له مالك تبكى قال قصدت مولانا بكل ما أقدر عليه أطلب منه بعض ما يقدر عليه فلما خاب أملى بكيت فقال سيف الدولة ويلك فمن يكون له مثل هذا النسل يكون له ذلك النظم وكم كنت أملت قال خمسمائة درهم فامر له بألف درهم فاخذها وانصرف ﴿ومن المنقول عن المغفلين على الاطلاق﴾ قال بعضهم دخلت مسجد دمشق فاذا أنا بجماعة عليهم سمة العلم فجلست اليهم وهم ينقصون من على بن ابى طالب رضى الله عنه فقمت من عندهم مغضبا فرأيت شيخا جميلا يصلى فظننت به الخير فجلست اليه فقلت له يا عبد الله أما ترى هؤلاء القوم يشتمون على بن أبى طالب وينقصونه وهو زوج فاطمة الزهراء وابن عم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقال لى يا عبد الله لو نجا أحد من الناس لنجا منهم أبو محمد رحمه الله تعالى قال فقلت ومن أبو محمد قال الحجاج بن يوسف وجعل يبكى فقمت من عنده وحلفت لا أقيم بها (ومن ذلك) أن رجلا سأل بعضهم وكان من الحمق على جانب عظيم فقال أيما أفضل عندك معاوية أو عيسى ابن مريم فقال ما رأيت سائلا أجهل منك ولا سمعت بن قاس كاتب الوحى الى نبى النصارى (ومن ذلك) ان لصا تسور روزنة بيت وكان اللص مغفلا فنظر من خلال الروزنة فوجد رجلا وزوجته وهى تقول له يا رجل من أين اكتسبت هذا المال العظيم فقال لها كنت لصا وكنت اذا تسورت روزنة بيت صبرت الى أن

من ريعة لاولادها فرفعت رأسى وقلت له يا حاتم عماذا تشبع أطفالها فوالله ما نام صبيانك من الجوع الا بالتعليل فقال والله لاشبعنك وأشبعن صبيانك وصبيانها فلما جاءت المرأة نهض قائما وأخذ المدية بيده وعمد الى فرسه فذبحه ثم أجج نارا ودفع اليها شفرة وقال قطعي واشوى وكلى واطعمى صبيانك فأكلت المرأة وأشبعت صبيانها فايقظت أولادى وأكلت وأطعمتهم فقال والله ان هذا هو اللؤم تأكلون وأهل الحى حالهم مثل حالكم ثم أتى الحى بيتا بيتا يقول لهم انهضوا عليكم بالنار فاجتمعوا حول الفرس وتقنع حاتم بكسائه وجلس ناحية فوالله ما أصبحوا وعلى وجه الارض منها قليل ولا كثير الا العظم والحافر ولا والله ما ذاقها حاتم وانه لاشدهم جوعا وأخباره كثيرة مشهورة ومن شعره

أماوى ان المال غاد ورائح * ويبقى من المال الاحاديث والذكر
وقد علم الاقوام لو ان حاتما * أراد ثراء المال كان له وفر

وأغار قوم على طيىء فركب حاتم فرسه وأخذ رمحه ونادى فى جيشه وأهل عشيرته ولقى القوم فهزمهم وتبعهم فقال له كبيرهم يا حاتم هب لى رمحك فرمى به اليه فقيل لحاتم عرضت نفسك للهلاك ولو عطف عليك لقتلك فقال قد علمت ذلك ولكن ما جواب من يقول هب لى ولما مات عظم على طيىء موته فادعى أخوه انه يخلفه فقالت له أمه هيهات شتان والله ما بين خلقتيكما وضعته فبقى والله سبعة أيام لا يرضع حتى ألقمت احدى ثديى طفلا من الجيران وكنت أنت ترضع ثديا وبيدك على الآخر فانى لك ذلك قال الشاعر

يعيش الندى ما عاش حاتم طيىء * وان مات قامت للسخاء مآتم

وكانت العرب تسمى الكلب داعى الضمير ومتمم النعم ومشيد الذكر لما يجلب من الاضياف بنباحه والضمير الغريب وكانوا اذا اشتد البرد وهبت الرياح ولم تشب النيران فرقوا الكلاب حوالى الحى وربطوها الى العمد لتستوحش فتنبح فتهتدى الضلال وتأتى الاضياف على نباحها والحكايات فى ذكر الاجواد والكرماء والاسخياء وأهل المعروف وما كانوا عليه من السخاء والكرم أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر ففى مثل هذه المناقب فليتنافس المتنافسون ولمثلها فليعمل العاملون فان فيها عز الدنيا وشرف الآخرة وحسن الصيت وخلود جميل الذكر فانا لم نجد شيأ يبقى على عمر الدهر الا الذكر حسنا كان أو قبيحا وقد قال الشاعر

ولا شئ يدوم فكن حديثا * جميل الذكر فالدنيا حديث

فانتهز فرصة العمر ومساعدة الدنيا ونفوذ الامر وقدم لنفسك كما قدموا وتذكر بالصالحات كما ذكروا وادخر نفسك فى القيامة كما ادخروا واعلم ان المأكول للبدن والموهوب للمعاد والمتروك للعدو فاختر أى الثلاث شئت وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿الباب الرابع والثلاثون فى البخل والشح وذكر البخلاء وأخبارهم وما جاء عنهم﴾

قال الله تعالى الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله الآية وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياكم والشح فان الشح أهلك من كان قبلكم وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال البخل جامع المساوى القلوب وهو زمام يقاد به الى كل سوء وقالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنهما ان البخل لو كان قميصا ما لبسته أو كان طريقا ما سلكته * وقيل بخلاء العرب أربعة الحطيئة وحميد الارقط وأبو الاسود الدؤلى وخالد بن صفوان * فأما الحطيئة فمر به انسان وهو على باب داره وبيده عصا فقال أنا ضيف فأشار الى العصا وقال لكعاب الضيفان أعددتها * وأما حميد الارقط فكان هجاء للضيفان فحاشا عليهم نزل به مرة أضياف فأطعمهم تمرا وهجاهم وذكر أنهم أكلوه بنواه * وأما أبو الاسود فتصدق على سائل بتمرة فقال له جعل الله نصيبك من الجنة مثلها وكان يقول لو أطعنا المساكين فى أموالنا كنا أسوأ حالا منهم * وأما خالد بن صفوان فكان يقول للدرهم اذا دخل عليه يا عيار كم تعير وكم تطوف وتطير لاطيلن حبسك ثم يطرحه فى الصندوق ويقفل عليه قيل له لم لا تنفق ومالك عريض فقال الدهر أعرض منه وأنشد بعضهم

وهبنى جمعت المال ثم خزنته * وحانت وفاتى هل أزاد به عمرا
اذا خزن المال البخيل فانه * سيورثه غما ويعقبه وزرا

واستأذن حنظلة على صديق له بخيل فقيل هو محموم فقال كلوا بين يديه حتى يعرق وكتب سهل بن هرون كتابا

يطلع القمر فاذا طلع اعتنقت الضوء الذى فى الروزنة وتدليت بلا حبل وقلت شولم شولم وتزلت فآخذ جميع ما فى البيت ولا تبقى ذخيرة من ذخائر البيت الا ظهرت لى ثم أقول شولم شولم وأصعد فى الضوء ولا ينتبه أحد من أهل البيت وأذهب بلا تعب ولا كلفة فسمع اللص ذلك فصبر الى أن طلع القمر ونام أهل البيت فتعلق فى ضوء الروزنة فوقع وتكسرت أضلاعه فقام اليه صاحب البيت وقبض عليه وأسلمه الى صاحب الشرطة (ومنهم) من كان يسوق عشرة حمير فركب واحدا منها وعدها فاذا هى تسعة حمير فنزل وعدها فاذا هى عشرة فقال أمشى وأربح حمارا خير من ان أركب وأخسر حمارا فمشى حتى كاد يتلف الى أن بلغ قريته (ومنهم) من مات بعض أقاربه فقيل له لم لا تبعت جنازته فقال هذا الكلام ما يقول عاقل أكون منسيا فاذكر بنفسى (ومن ذلك) أن بعض المغفلين سمع رجلا ينشد

وكان بنو عمى يقولون مرحبا
فلما رأونى معدما مات مرحب

فقال كذب الشاعر مرحب قتله على بن أبى طالب ولم يمت الا قتيلا (ومنهم) من باع دارا وكان يؤذن بباب مسجد بالقرب منها فنسى أنه باعها فصلى ورجع اليها ودخل من الباب فصاحت النسوة وقلن له يا رجل اتق الله فينا فقال اعذرونى فانى ولدت فى هذا الدار ولم أذكر البيع (ومنهم) من رأى جاريته تحت رجل يجامعها فقال لها يا جارية ما حملك على هذا فقالت له يا مولاى حلفنى بحياة رأسك وأنت تعلم صدق محبتى لك فسكت (ومنهم) من سمع أن صوم يوم عرفة يعدل صوم سنة فصام الى الظهر وقال يكفينى ستة أشهر (ومنهم) من جاء الى الجب

فى مدح البخل وأهداه الى الحسن بن سهل فوقع على ظهره قد جعلنا ثوابك عليه ما أمرت به فيه وقال ابن أبى فنن

ذريني واتلافى المال فانني * أحب من الاخلاق ما هو أجمل
وان أحق الناس باللوم شاعر * يلوم على البخل الرجال ويبخل

وكان عمر بن يزيد الاسدى بخيلا جدا أصابه القولنج فى بطنه فحقنه الطبيب بدهن كثير فانحل ما فى بطنه فى الطست فقال لغلامه اجمع الدهن الذى نزل من الحقنة وأسرج به وكان المنصور شديد البخل جدا مر به مسلم الحادى فى طريقه الى الحج فحداله يوما بقول الشاعر

أغر بين الحاجبين نوره * يزينه حياؤه وخيره * ومسكه يشوبه كافوره * اذا تغدى رفعت ستوره

فطرب حتى ضرب برجله المحمل ثم قال يا ربيع اعطه نصف درهم فقال مسلم نصف درهم يا أمير المؤمنين والله لقد حدوت لهشام فأمر لى بثلاثين ألف درهم فقال تأخذ من بيت مال المسلمين ثلاثين ألف درهم يا ربيع وكل به من يستخلص منه هذا المال قال الربيع فما زلت أمشى بينهما وأروضه حتى شرط مسلم على نفسه أن يحدوله فى ذهابه وايابه بغير مؤنة وكان أبو العتاهية ومروان بن أبى حفصة بخيلين يضرب ببخلهما المثل قال مروان ما فرحت بشئ أشد مما فرحت بمائة ألف درهم وهبها الى المهدى فوزنتها فرجحت درهما فاشتريت به لحما واشترى يوما لحما بدرهم فلما وضعه فى القدر دعاه صديقه فرد اللحم على القصاب بنقصان دانقين فجعل القصاب ينادى على اللحم ويقول هذا لحم مروان واجتاز يوما باعرابية فأضافته فقال ان وهب لى أمير المؤمنين مائة ألف درهم وهبت لك درهما فوهبه سبعين ألف درهم فوهبها أربعة دوانق * ومن الموصوفين بالبخل أهل مرو يقال ان من عادتهم اذا ترافقوا فى سفر أن يشترى كل واحد منهم قطعة لحم ويشكها فى خيط ويجمعون اللحم كله فى قدر ويمسك كل واحد منهم طرف خيطه فاذا استوى جر كل منهم خيطه وأكل لحمه وتقاسموا المرق وقيل لبخيل من أشجع الناس قال من سمع وقع أضراس الناس على طعامه ولم تنشق مرارته وقيل لبعضهم أما يكسوك محمد بن يحيى فقال والله لو كان له بيت مملوء ابرا وجاء يعقوب ومعه الأنبياء شفعاء والملائكة ضمناء فيستعير منه ابرة ليخيط بها قميص يوسف الذى قد من دبر ما أعاره اياها فكيف يكسونى وقد نظم ذلك من قال

لو أن دارك أنبتت لك واحتشت * ابرا يضيق بها فناء المنزل
وأتاك يوسف يستعيرك ابرة * ليخيط قد قميصه لم تفعل

وكان المتنبى بخيلا جدا امدحه انسان بقصيدة فقال كم أملت منا على مدحك قال عشرة دنانير قال له والله لو ندفت قطن الأرض بقوس السماء على جباه الملائكة ما دفعت لك دانقا وقال دعبل كنا عند سهل بن هرون فلن نبرح حتى كاد يموت من الجوع فقال ويلك يا غلام آتنا غداءنا فأتى بقصعة فيها ديك مطبوخ تحته ثريد قليل فتأمل من الديك فرآه بغير رأس فقال لغلامه وأين الرأس فقال رميته فقال والله انى لأكره من يرمى برجله فكيف برأسه ويحك أما علمت أن الرأس رئيس الأعضاء ومنه صيح الديك ولولا صوته ما أريد وفيه فرقه الذى يتبرك به وعينه التى يضرب بها المثل فيقال شراب كعين الديك ودماغه عجيب لوجع الكلية ولم نر عظما أهش تحت الأسنان من عظم رأسه وهبك ظننت أنى لا آكله أما قلت عنده من يأكله انظر فى أى مكان رميته فأتنى به فقال والله لا أدرى أين رميته فقال لكنى أنا أعرف أين رميته رميته فى بطنك الله حسيبك وقيل من الناس من يبخل بالطعام ويجود بالمال وبالعكس قال بعضهم فى أبى دلف

أبودلف يضيع ألف ألف * ويضرب بالحسام على الرغيف
أبودلف لطبخه قتار * ولكن دونه سل السيوف

واشتكى رجل مروزى صدره من سعال فوصفوا له سويق اللوز فاستثقل النفقة ورأى الصبر على الوجع أخف عليه من الدواء فبينما هو يماطل الأيام ويدفع الآلام اذ أتاه بعض أصدقائه فوصف له ماء النخالة وقال انه يجلو الصدر فأمر بالنخالة فطبخت له وشرب من مائها فانجلا صدره ووجده يعصم فلما حضر غداؤه أمر به فرفع الى العشاء وقال لامرأته اطبخى لأهل بيتنا النخالة فانى وجدت ماءها يعصم ويجلو الصدر فقالت لقد جمع الله لك بهذه النخالة بين دواء وغذاء فالحمد لله على هذه النعمة * وعن خاقان بن صبح قال دخلت على رجل من أهل خراسان ليلا فأتانا بمسرجة فيها فتيلة فى غاية الرقة وقد علق فيها عود ابخيط فقلت له ما بال هذا العود

وتنظر فيه فرأى خيال وجهه فذهب الى أمه وقال يا أمى فى الجب لص فجاءت الأم فتطلعت فيه فرأت خيال وجهها فقالت صدقت ومعه قحبة (ومنهم) من دعا فقال اللهم اغفر لى ولأمى ولأختى ولامرأتى فقيل له لم تركت ذكر أبيك قال لأنه مات وأنا صبى لم أدركه (وقال) رجل لرجل كم فى هذا الشهر يوم فنظر وقال والله لست من أهل هذه المدينة (ومن ذلك) ان هشام بن عبد الملك عرض الجند فتقدم رجل حمصى بفرس كلما اقدمه يتأخر فقال له هشام ما هذا قال يا سيدى فاره ولكنه شبهك ببيطار كان يعالجه فنفر (ومنهم) من قيل له عندك مال جزيل وليس لك الا والدة عجوز وان مت ورثتك فافسدت مالك فقال انها لا ترثنى قيل وكيف قال لأن أبى طلقها قبل أن يموت (ومنهم) من جاء اليه جماعة يسألونه فى كفن لجار له مات فقال ما عندى الآن شئ ولكن عاودونى فى وقت آخر قالوا أفنملحه الى أن يتيسر عندك شئ (ومنهم) من تقدم يصلى المغرب بجماعة فأطال القيام فلما فرغ من الصلاة سجد سجدتى السهو ولم يكن سها فقيل نحن أنكرنا عليك طول القراءة فما الجواب عن سجدتى السهو ولم تكن سهوت فقال ذكرت انى صليت بكم على غير وضوء فسجدت للسهو (ومن ذلك) ان عبدا كان بين اثنين فى الشركة فجعل أحدهما يضربه فلامه شريكه فقال انما ضربت حصتى (ومنهم) من قيل له كيف صنعتم فى رمضان فقال اجتمعنا ثلاثين فانفذناه فى يوم واحد واسترحنا منه (قال الاصمعى) خرج جماعة من بنى غفار ومعهم رجل مغفل فاصابتهم ريح فى البحر أيسوا معها من الحياة فاعتق كل واحد منهم مملوكا أو مملوكة فقال ذلك الرجل اللهم انك تعلم انى ليس

مربوطا قال قد شرب الدهن واذا ضاع ولم نحفظه احتجنا الى غيره فلا نجد الاعود اعطشانا ونخشى أن يشرب الدهن قال فبينما أنا أتعجب وأسأل الله العافية اذ دخل علينا شيخ من أهل مرو فنظر الى العود فقال للرجل يا فلان لقد فررت من شئ ووقعت فيما هو شر منه أما علمت أن الريح والشمس يأخذان من سائر الأشياء وينشفان هذا العود لم لا تخذت مكان هذا العود ابرة من حديد فان الحديد أملس وهو مع ذلك غير نشاف والعود أيضا ربما يتعلق به شعرة من قطن الفتيلة فينقصها فقال له الرجل الخراسانى أرشدك الله ونفع بك فلقد كنت فى ذلك من المسرفين * وقال الهيثم بن عدى نزل على أبى حفصة الشاعر رجل من اليمامة فأخلى له المنزل ثم هرب مخافة أن يلزمه قراه فى هذه الليلة فخرج الضيف واشترى ما احتاج اليه ثم رجع وكتب اليه

يا أيها الخارج من بيته * وهاربا من شدة الخوف

ضيفك قد جاء بزاد له * فارجع وكن ضيفا على الضيف

واشترى رجل من البخلاء دارا وانتقل اليها فوقف ببابه سائل فقال له فتح الله عليك ثم وقف ثانيا فقال له مثل ذلك ثم وقف ثالثا فقال له مثل ذلك ثم التفت الى ابنته فقال لها ما أكثر السؤال فى هذا المكان قالت يا أبت مادمت مستمسكا لهم بهذه الكلمة فما تبالى أكثروا أم قلوا * والأم اللئام وأبخلهم حميد الأرقط الذى يقال له هجاء الأضياف وهو القائل فى ضيف له يصف أكله بهذا البيت من قصيدة له

ما بين لقمته الأولى اذا انحدرت * وبين أخرى تليها قيد أظفور

(وقال فيه أيضا) تجهز كفاه ويحدر حلقه * الى الزور ما ضمت عليه الأنامل

وأكل اعرابى مع أبى الأسود رطبا فأكثر ومد أبو الأسود يده الى رطبة ليأخذها فسبقه الاعرابى اليها فسقطت منه فى التراب فأخذها أبو الاسود وقال لا أدعها للشيطان يأكلها فقال الاعرابى والله ولا لجبريل وميكائيل لو نزلا من السماء ما تركتها وقال اعرابى لنزيل نزل به نزلت بواد غير ممطور ورجل بك غير مسرور فأقم بعدم أو ارحل بندم وللحمدونى

رأيت أبا زرارة قال يوما * لحاجبه وفى يده الحسام

لئن وضع الخوان ولاح شخص * لاختطفن رأسك والسلام

فقال سوى أبيك فذاك شيخ * بغيض ليس يردعه الكلام

فقام وقال من حنق اليه * ببيت لم يرد فيه القيام

أبى وابنا أبى والكلب عندى * بمنزلة اذا حضر الطعام

وقال له أبن لى يا ابن كلب * على خبزى أصادر أو أضام

اذا حضر الطعام فلا حقوق * على لوالدى ولا ذمام

فما فى الأرض أقبح من خوان * عليه الخبز يحضره الزحام

فاين هذا من القائل بخيل يرى فى الجود عارا وانما * يرى المرء عارا أن يضن ويبخلا

اذا المرء أثرى ثم لم يرج نفعه * صديق فلاقته المنية أولا

(وقال آخر) وآمرة بالبخل قلت لها اقصرى * فليس اليه ما حييت سبيل

أرى الناس اخوان الكريم وما أرى * بخيلا له فى العالمين خليل

وقالوا اذا سألت لئيما شيئا فعاجله ولا تدعه يفكر فانه كلما فكر ازداد بعدا وقال ربعى الهمدانى

جمعت صنوف المال من كل وجهة * وما نلتها الا بكف كريم

وانى لأرجو أن أموت وتنقضى * حياتى وما عندى يد للئيم

(وأنشد الجاحظ لأبى الشمقمق)

ممن تعلمت هذا * أن لا تجود بشى أما مررت بعبد * لعبد حاتم طى

(ومما قالته الشعراء فى البخلاء وطعامهم) فمن أهجى ما قيل فيهم بيت جرير فى بنى تغلب

والتغلبى اذا تنحنح للقرى * حك استه وتمثل الامثالا

(وله أيضا فيهم) قوم اذا أكلوا أخفوا كلامهم * واستوثقوا من رتاج الباب والدار

قوم اذا استنبح الضيفان كلبهم * قالوا لامهم بولى على النار

فتمنع البول شحا أن تجود به * وما تبول لهم الا بمقدار

والخبز كالعنبر الهندى عندهم * والقمح خمسون أردبا بدينار

لى مملوك ولا مملوكة ولكن امرأتى طالق طلقة واحدة لوجهك الكريم (قال ابن الجوزى) فى آخر كتاب الحمقى والمغفلين ان المعلمين للصبيان صناعتهم تكاد أن تكون اكسيرا لقلة العقل وابريز الحماقة (وقال) عدل عقل امرأة سبعين حائكا وعدل عقل حائك سبعين معلما وسبب قلة عقل المعلم انه مع الصبيان بالنهار ومع النساء بالليل (وكان) يحيى بن أكثم لا يقبل شهادة المعلم (وقيل) لصبى مالنا نراك كثير الحمق فقال لو لم أكن كذلك لكنت ولد زنا (وقيل) لمعلم مالك تضرب هذا الصبى ولم يذنب قال انما ضربته قبل أن يذنب لئلا يذنب (وقال) الجاحظ مررت بمعلم وهو يقرئ صبيا واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا وأكيد كيدا فقلت له ويحك قد أدخلت سورة فى سورة فقال نعم عافاك الله اذا كان أبوه يدخل شهرا فى شهر فانا أيضا أدخل سورة فى سورة ولا آخذ شيأ ولا ابنه يتعلم شيأ انتهى ما تخيرته من كتاب الاذكياء والحمقى والمغفلين (ومما تخيرته من سلوان المطاع لابن ظفر) أن الوليد بن يزيد لما بلغه أن ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك قد شرد عنه القلوب واستجاش عليه أهل اليمن ونازعه فى ملكه احتجب عن سماره ودعا فى بعض الليالى خادما فقال له انطلق متنكرا حتى تقف ببعض الطرق وتأمل من يمر بك من الناس فاذا رأيت كهلا رث الهيئة يمشى مشيا هوينا وهو مطرق فسلم عليه وقل له فى أذنه أمير المؤمنين يدعوك فان أسرع فى الاجابة فائتنى به وان استراب فدعه واطلب غيره حتى تجد رجلا على الشرط الذى ذكرت لك فانطلق الخادم فأتاه برجل على الشرط فلما دخل الرجل على

(فأين هؤلاء من الذى قال فيه الشاعر

أبلج بين حاجبيه نوره * اذا تغدى رفعت ستوره

(وقال بعضهم فى بخيل) أتانا بخيل بخبزله * كمثل الدراهم فى رقته

اذا ماتنفس حول الخوان * تطاير فى البيت من خفته

(وقال آخر) تراهم خشية الأضياف خرسا * يقيمون الصلاة بلا أذان

(وقال آخر وقد بات عند بخيل) فبتنا كأنا بينهم أهل مأتم * على ميت مستودع بطن ملحد

يحدث بعضا بعضنا بمصابه * ويأمر بعضا بعضنا بالتجلد

(وقال آخر) وجيرة لاترى فى الناس مثلهم * اذا يكون لهم عيد وافطار

ان يوقدوا يوسعونا من دخانهم * وليس يبلغنا ماتطبخ النار

(وقال آخر وأجاد) فصدق ايمانه ان قال مجتهدا * لا والرغيف فذاك البر من قسمه

فان هممت به فاعبث بخبزته * فان موقعها من لحمه ودمه

قد كان يعجبنى لو أن غيرته * على جرادقه كانت على حرمه

(وقال آخر) ذهب الكرام فلا كرام * وبقى العضاريط اللئام

من لا يقبل ولا ينيل * ولا يشم له طعام

(وقال آخر) خليلى من كعب أعينا أخا كما * على دهره ان الكريم معين

ولا تبخلا بخل ابن قزعة انه * مخافة أن يرجى نداه حزين

اذا جئته فى حاجة سد بابه * فلم تلقه الا وأنت كمين

(وقال آخر) له يومان يوم ندى ويوم * يسل السيف فيه من القراب

فاما جوده فعلى الذباب * وأما سيفه فعلى الكلاب

(وقال آخر) زففت الى نبهان من صفوف كرتى * عروسا غدا بطن الكتاب لها صدرا

فقبلها عشرا وهام بحبها * فلما ذكرت المهر طلقها عشرا

(وقال آخر) لو عبر البحر بأمواجه * فى ليلة مظلمة بارده

وكفه مملوءة خردلا * ما سقطت من كفه واحده

(وقال آخر) يا قائما فى داره قاعدا * من غير معنى لا ولا فائده

قد مات أضيافك من جوعهم * فاقرأ عليهم سورة المائده

(وقال آخر) نوالك دونه شوك القتاد * وخبزك كالثريا فى البعاد

فلو أبصرت ضيفا فى منام * لحرمت الرقاد الى المعاد

(وقال آخر) لا تعجبن لخبز زل من يده * فالكوكب النحس يسقى الأرض أحيانا

(وقال ابن أبى حازم) وقالوا قد مدحت فتى كريما * فقلت وكيف لى بفتى كريم

بلوت ومر بى خمسون حولا * وحسبك بالمجرب من عليم

فلا أحد يعد ليوم خير * ولا أحد يجود على عديم

(ومن) رؤساء أهل البخل محمد بن الجهم وهو الذى قال وددت لو أن عشرة من الفقهاء وعشرة من الخطباء وعشرة من الشعراء وعشرة من الادباء تواطؤا على ذمى واستبهلوا اشتمى حتى ينتشر ذلك فى الآفاق فلا يمتد الى أمل آمل ولا يبسط نحوى رجاء راج وقال له أصحابه يوما انا نخشى أن نقعد عندك فوق مقدار شهوتك فلو جعلت لنا علامة نعرف بها وقت استثقالك لمجالستنا فقال علامة ذلك أن أقول يا غلام هات الغداء * وقال عمر بن ميمون مررت ببعض طرق الكوفة فاذا أنا برجل يخاصم جاراله فقلت ما بالكما فقال أحدهما ان صديقا لى زارنى فاشتهى رأسا فاشتريته وتغدينا وأخذت عظامه فوضعتها على باب دارى أتجمل بها فجاء هذا فأخذها ووضعها على باب داره يوهم الناس انه هو الذى اشترى الرأس * وقال رجل من البخلاء لأولاده اشتروا الى لحما فاشتروه فأمر بطبخه فلما استوى أكله جميعه حتى لم يبق فى يده الا عظمة وعيون أولاده ترمقه

فقال

الوليد حياه بتحية الخلافة فأمره الوليد بالجلوس والدنو منه وصبر الى أن ذهب روعه وسكن جاشه ثم أقبل عليه فقال له أتحسن المسامرة للخلفاء فقال نعم يا أمير المؤمنين فقال الوليد ان كنت تحسنها فاخبرنا ماهى فقال يا أمير المؤمنين المسامرة اخبار لمنصت وانصات لمخبر ومفاوضة فيما يجب ويليق فقال له الوليد أحسنت لا أزيدك امتحانا فقل أسمع لقولك فقال الكهل نعم يا أمير المؤمنين ولكن المسامرة صنفان لا ثالث لهما أحدهما الاخبار عما يوافق خبرا مسموعا والثانى الاخبار عما يوافق غرضا من أغراض صاحب المجلس وانى لم أسمع بحضرة أمير المؤمنين طريقة فانحو نحوها وألزم أسلوبها فقال الوليد صدقت وها نحن نقترح لك ما نقتضيه قد بلغنا أن رجلا من رعيتنا سعى فى ضرر ملكنا فاثر سعيه وشق ذلك علينا فهل سمعت بذلك فقال الكهل نعم يا أمير المؤمنين فقال له الوليد قل الآن على حسب ما سمعت وعلى ما ترى من التدبير فقال يا أمير المؤمنين بلغنى عن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أنه لما ندب الناس لقتال ابن الزبير وخرج بهم متوجها الى مكة حرسها الله تعالى استصحب عمرو بن سعيد بن العاص وكان عمرو قد انطوى على فساد نية وخبث طوية وطماعية فى نيل الخلافة وكان أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان قد فطن لذلك الا أنه كان يحترمه ولما أبعد أمير المؤمنين عن دمشق عارض عمرو ابن سعيد فاستأذن أمير المؤمنين فى العود الى دمشق فأذن له فلما دخل عمرو دمشق صعد المنبر فخطب الناس خطبة نال فيها من الخليفة واستولى على دمشق ودعا الناس الى خلع عبد الملك فأجابوه الى ذلك

فقال ما أعطى أحدا منكم هذه العظمة حتى يحسن وصف أكلها فقال ولده الأكبر أشمشها يا أبت وأمصها حتى لا أدع للذر فيها مقيلا قال لست بصاحبها فقال الأوسط ألوكها يا أبت وألحسها حتى لا يدرى أحد لعام هى أم لعامين قال لست بصاحبها فقال الأصغر يا أبت أمصها ثم أدقها وأسفها سفا قال أنت صاحبها وهى لك زادك الله معرفة وحزما * ووقف اعرابى على أبى الأسود وهو يتغدى فسلم فرد عليه ثم أقبل على الأكل ولم يعزم عليه فقال له الاعرابى أما انى قد مررت بأهلك قال كذلك كان طريقك قال وامرأتك حبلى قال كذلك كان عهدى بها قال قد ولدت قال كان لا بد لها أن تلد قال ولدت غلامين قال كذلك كانت أمها قال مات أحدهما قال ما كانت تقوى على ارضاع اثنين قال ثم مات الآخر قال ما كان ليبقى بعد موت أخيه قال وماتت الأم قال حزنا على ولديها قال ما أطيب طعامك قال لأجل ذلك أكلته وحدى ووالله لا ذقته يا اعرابى * وقيل خرج اعرابى قد ولاه الحجاج بعض النواحى فأقام بها مدة طويلة فلما كان فى بعض الأيام ورد عليه اعرابى من حيه فقدم اليه الطعام وكان اذ ذاك جائعا فسأله عن أهله وقال ما حال ابنى عمير قال ما تحب قد ملأ الارض والحى رجالا ونساء قال فما فعلت أم عمير قال صالحة أيضا قال فما حال الدار قال عامرة بأهلها قال وكلبنا ايقاع قال قد ملأ الحى نبحا قال فما حال جملى زريق قال على ما يسرك قال فالتفت الى خادمه وقال ارفع الطعام فرفعه ولم يشبع الاعرابى ثم أقبل عليه يسأله وقال يا مبارك الناصية أعد على ما ذكرت قال سل عما بدا لك قال فما حال كلبى ايقاع قال مات قال وما الذى أماته قال اختنق بعظمة من عظام جملك زريق فمات قال أومات جملى زريق قال نعم قال وما الذى أماته قال كثرة نقل الماء الى قبر أم عمير قال أوماتت أم عمير قال نعم قال وما الذى أماتها قال كثرة بكائها على عمير قال أومات عمير قال نعم قال وما الذى أماته قال سقطت عليه الدار قال أوسقطت الدار قال نعم قال فقام له بالعصا فضاربا فولى من بين يديه هاربا (وحكى) بعضهم قال كنت فى سفر فضللت عن الطريق فرأيت بيتا فى الفلاة فأتيته فاذا به اعرابية فلما رأتنى قالت من تكون قلت ضيف قالت أهلا ومرحبا بالضيف انزل على الرحب والسعة قال فنزلت فقدمت لى طعاما فأكلت وماء فشربت فبينما أنا على ذلك اذ أقبل صاحب البيت فقال من هذا فقالت ضيف فقال لا أهلا ولا مرحبا ما لنا وللضيف فلما سمعت كلامه ركبت من ساعتى وسرت فلما كان من الغد رأيت بيتا فى الفلاة فقصدته فاذا فيه اعرابية فلما رأتنى قالت من تكون قلت ضيف قالت لا أهلا ولا مرحبا بالضيف ما لنا وللضيف فبينما هى تكلمنى اذ أقبل صاحب البيت فلما رآنى قال من هذا قالت ضيف قال مرحبا وأهلا بالضيف ثم أتى بطعام حسن فأكلت وماء فشربت فتذكرت ما مر بالأمس فتبسمت فقال مم تبسمك فقصصت عليه ما اتفق لى مع تلك الاعرابية وبعلها وما سمعت منه ومن زوجته فقال لا تعجب ان تلك الاعرابية التى رأيتها هى أختى وأن بعلها أخو امرأتى هذه فغلب على كل طبع أهله وحكايات هؤلاء وأمثالهم كثيرة وأخبارهم ونوادرهم شهيرة وفيما ذكرته كفاية وأسأل الله تعالى التوفيق والهداية انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباب الخامس والثلاثون فى الطعام وآدابه والضيافة وآداب المضيف والضيف وأخبار الأكلة وما جاء عنهم وغير ذلك

(أما اباحة الطيب من المطاعم) فقد قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله ان كنتم اياه تعبدون وقال تعالى يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين وقال تعالى قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم محرم الحلال كمحل الحرام وقال عليه الصلاة والسلام ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده فى مأكله ومشربه وكان الحسن رضى الله تعالى عنه يقول ليس فى اتخاذ الطعام سرف وسئل الفضل عمن يترك الطيبات اللحم والخبيص للزهد فقال ما للزهد وأكل الخبيص ليتك تأكل وتتقى الله ان الله لا يكره أن تأكل الحلال اذا اتقيت الحرام انظر كيف برك بولديك وصلتك للرحم وكيف عطفك على الجار وكيف رحمتك للمسلمين وكيف كظمك للغيظ وكيف عفوك عمن ظلمك وكيف احسانك الى من أساء اليك وكيف صبرك واحتمالك للأذى أنت الى احكام هذا أحوج من

وبايعوه وتحصن بعد ذلك سور دمشق وحمى حوزتها فبلغ ذلك عبد الملك وهو متوجه الى ابن الزبير وبلغه مع ذلك أن والى حمص قد نزع يده من الطاعة وأن أهل الثغور قد تشوقوا للخلاف فأحضر وزراءه فأطلعهم على ما بلغه وقال لهم دمشق ملكنا قد استولى عليها عمرو بن سعيد وهذا عبد الله بن الزبير قد استولى على الحجاز والعراق واليمن ومصر وخراسان وهذا النعمان بن بشير أمير حمص وزفر بن الحرث أمير فلسطين قد خرجا عن الطاعة وبايعا الناس لابن الزبير وهذه المضرية بسيوفها تطالبنا بقتلى المرج فلما سمع وزراؤه مقالته ذهلت عقولهم فقال لهم عبد الملك ما لكم لا تنطقون هذا وقت الحاجة اليكم فقال أفضلهم وددت أن أكون طيرا على عود من أعواد تهامة حتى تنقضى هذه الفتن فلما سمع عبد الملك مقالة صاحبه قام وأمرهم بلزوم موضعهم وركب منفردا وأمر جماعة من شجعانه أن يتبعوه متباعدين ففعلوا وسار عبد الملك حتى انتهى الى شيخ ضعيف البدن سيئ الحال وهو يجمع سماقا فسلم عليه عبد الملك وآنسه بحديثه ثم قال له أيها الشيخ ألك علم بنزول هذا العسكر فقال الشيخ وما سؤالك عنه فقال عبد الملك انى أردت الانتظام فى سلكه فقال له انى أرى عليك سمة الرياسة فينبغى لك أن تصرف نفسك عن هذا الرأى فان الامير الذى أنت قاصده قد انحلت عرا ملكه والسلطان فى اضطراب أموره كالبحر اذا هاج فقال عبد الملك أيها الشيخ قد قوى على جذب نفسى الى صحبة هذا الامير فهل لك أن ترشدنى الى رأى اتفق به عنده فلعله يكون سبب قربى منه فقال الشيخ ان هذه النازلة التى نزلت بهذا الامير من النوازل التى لا تنفقد

ترك الخبيص (وأما نعوت الاطعمة وما جاء فيها) فقد نقل عن الرشيد انه سأل أبا الحرث عن الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب فقال يا أمير المؤمنين لا أقضي على غائب فاحضرهما اليه فجعل يأكل من هذا القمة ومن هذا القمة ثم قال يا أمير المؤمنين كلما أردت ان أقضي لاحدهما أتى الآخر بحجته * واختلف الرشيد وأم جعفر في الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب فحضر أبو يوسف القاضي فسأله الرشيد عن ذلك فقال يا أمير المؤمنين لا يقضى على غائب فاحضرهما فاكل حتى اكتفى فقال له الرشيد احكم قال قد اصطلح الخصمان يا أمير المؤمنين فضحك الرشيد وأمر له بالف دينار فبلغ ذلك زبيدة فامرت له بالف دينار الا دينارا وسمع الحسن البصري رجلا يعيب الفالوذج فقال لباب البر بلعاب النحل بخالص السمن ما أظن عاقلا يعيبه. وقال الاصمعي أول من صنع الفالوذج عبد الله بن جدعان وأتى اعرابي بفالوذج فاكل منه لقمة فقيل له هل تعرف هذا فقال هذا وحياتك الصراط المستقيم وكان أحب الطعام الى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللحم وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم وكان صلى الله عليه وسلم يقول هو سيد الطعام في الدنيا والآخرة وهو يزيد في السمع ولو سألت ربي ان يطعمنيه كل يوم لفعل وكان صلى الله عليه وسلم يحب الدباء ويقول يا عائشة اذا طبختم قدرا فاكثروا فيها من الدباء فانها تشد القلب الحزين وهي شجرة أخي يونس وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال عليكم بالقرع فانه يشد الفؤاد ويزيد في الدماغ وعليكم بالعدس فانه يرق القلب ويغزر الدمعة وعن أبي رافع قال كان أبو هريرة رضي الله تعالى عنه يقول أكل التمر أمان من القولنج وشرب العسل على الريق أمان من الفالج وأكل السفرجل يحسن الولد وأكل الرمان يصلح الكبد والزبيب يشد العصب ويذهب بالنصب والوصب والكرفس يقوي المعدة ويطيب النكهة وأطيب اللحم الكتف وكان يديم أكل الهريسة وكان يأكل على سماط معاوية ويصلي خلف علي ويجلس وحده فسئل عن ذلك فقال طعام معاوية أدسم والصلاة خلف علي أفضل وهو أعلم والجلوس وحدي لي أسلم وسميت المتوكلية بالمتوكل والمأمونية بالمأمون وقال الحسن بن سهل يوما على مائدة المأمون الارز يزيد في العمر فسأله المأمون عن ذلك فقال يا أمير المؤمنين ان طب الهند صحيح وهم يقولون ان الارز يرى منامات حسنة ومن رأى مناما حسنا كان في نهارين فاستحسن قوله ووصله وقال أبو صفوان الارز الابيض بالسمن والسكر ليس من طعام أهل الدنيا وقيل لابي الحرث ما تقول في الفالوذجة قال وددت لو أنها وملك الموت اعتلجا في صدري والله لو أن موسى لقي فرعون بالفالوذجة لآمن ولكنه لقيه بعصا وكانت العرب لا تعرف الالوان انما كان طعامهم اللحم يطبخ بالماء والملح حتى كان زمن معاوية رضي الله تعالى عنه فاتخذ الالوان ويقال للمرقة المسخنة بنت نارين وكان بعض المترفهين يقول جنبوا مائدتي بنت نارين وقالوا كل طعام أعيد عليه التسخين مرتين فهو فاسد وقيل اذا ألقي اللحم في العسل ثم أخرج بعد شهر طريا فانه لا يتغير ويقال السكباج سيد المرق وشيخ الاطعمة وزين الموائد ويقال اذا طبخت اللحم بالخل فقد ألقيت عن معدتك ثلث المؤنة ويقال للخبز ابن حبة قال بعضهم

في حبة القلب مني * زرعت حب ابن حبه

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما رفعه أكرموا الخبز قالوا وما كرامته يا رسول الله قال لا ينتظر به الادام اذا وجد تم الخبز فكلوه حتى تؤتوا بغيره وفي حديث من داوم على اللحم أربعين يوما قسا قلبه ومن تركه أربعين يوما ساء خلقه وقيل المائدة التي أنزلت على بني اسرائيل كان عليها كل البقول الا الكراث وسمكة عند رأسها خل وعند ذنبها ملح وسبعة أرغفة على كل واحد زيتون وحب رمان ودخل ابن قزعة يوما على عز الدولة وبين يديه طبق فيه موز فتأخر عن استدعائه فقال ما بال مولانا ليس يدعوني الى الفوز بأكل الموز فقال صفه حتى أطعمك منه فقال ما الذي أصف من حسن لونه فيه سبائك ذهبية كأنها حشيت زبدا وعسلا أطيب الثمر كأنه مخ الشحم سهل المقشر لين المكسر عذب المطعم بين الطعوم سلس في الحلقوم ثم مد يده وأكل وسمع رجلا يذم الزبد فقال له ما الذي ذممت منه سواد لونه أم بشاعة طعمه أم صعوبة مدخله أو خشونة ملمسه وقيل له ما تقول في الباذنجان قال أذناب المحاجم وبطون العقارب وبزور الزقوم قيل له انه يحشى باللحم فيكون طيبا فقال لو حشي بالتقوى والمغفرة ما أفلح وصنع الحجاج وليمة واحتفل فيها ثم قال لزاذان هل عمل كسرى مثلها فاستعفاه فاقسم عليه فقال أولم عبد عند كسرى فاقام على رؤس الناس ألف وصيفة في يد كل واحدة ابريق

فيها العقول واني لا كره أن أرد مسئلتك بالخيبة فقال له عبد الله قل جزاك الله خيرا فقال الشيخ ان هذا الخليفة خرج الى قتال عدوه والارادة غير قابلة ارادة والدليل على ذلك أن الله تعالى لم يرد ما قصده من محاربة ابن الزبير ووثوب عمرو ابن سعيد على منبره واستيلائه على بيوت أمواله وسرير خلافته فاذا قصدت هذا الامير وانتظمت في سلكه انظر في أمره فان رأيته قد أصر على قصده ابن الزبير فاعلم انه مخذول فاجتنبه وان رأيته قد رجع من حيث جاء وترك قصده الاول فارج له النصر والسلامة فقال عبد الملك يا شيخ وهل رجوعه الى دمشق الا كسيره الى ابن الزبير فقال الشيخ ان الذي أشكل عليك لواضح وها أنا أزيل عنك اللبس وهو أن عبد الملك اذا قصد ابن الزبير كان في صورة ظالم لان ابن الزبير لم يطعه طاعة قط ولا وثب له على مملكة فاذا قصد ابن سعيد كان في صورة مظلوم لانه نكث بيعته وخان أمانته ووثب على دار ملك لم تكن له ولا لأبيه من قبله بل كانت لعبد الملك ولأبيه من قبله وعمرو عليها متعد * ومن الامثال سمين الغصب مهزول وولي الغدر معزول وسأضرب لك مثلا يشفي النفس ويزيل اللبس * زعموا أن ثعلبا كان يسمى ظالما وكان له جحر يأوي اليه وكان مغتبطا به فخرج يوما يبتغي ما يأكل ثم رجع فوجد فيه حية فانتظر خروجها فلم تخرج فعلم انها استوطنته وذلك ان الحية لا تتخذ جحرا بل اذا أعجبها جحر اغتصبته وطردت من به من الحيوان ولهذا قيل فلان أظلم من حية فهذا ظلمها ولما رأى ظالم أن الحية قد استوطنت جحره ولم يمكنه السكنى معها ذهب يطلب لنفسه مأوى فانتهى به السير الى جحر حسن الظاهر حصين

من ذهب فقال الحجاج أف والله ماتركت فارس لمن بعدها من الملوك شرفا وأهدى رجل الى آخر فالوذجة زنخة وكتب اليه انى اخترت لعملها السكر السوسى والعسل الماردانى والزعفران الاصبهانى فأجابه والله العظيم ماعملت الاقبل أن توجد أصبهان وقيل أن تفتح السوس وقبل أن يوحى ربك الى النحل وقيل ان أباجهم بن عطية كان عينا لابى مسلم الخولانى على المنصور فاحس المنصور بذلك فطاوله الحديث يوما حتى عطش فاستسقى فدعا له بقدح من سويق اللوز فيه السم فناوله اياه فشرب منه فما بلغ داره حتى مات فقيل فى ذلك

تجنب سويق اللوز لاتقربنه * فشرب سويق اللوز أردى أباجهم

﴿وقال أبوطالب المأمونى﴾

فما حملت كف امرئ متطعما * ألذ وأشهى من أصابع زينب

وأصابع زينب ضرب فى الحلوى يعمل ببغداد يشبه أصابع النساء المنقوشة ودخل السائب على على رضى الله تعالى عنه فى يوم شات فناوله قدحا فيه عسل وسمن ولبن فأباه فقال أما انك لوشربته لم تزل دفئا شبعان سائر يومك وعن نافع بن أبى نعيم قال كان أبوطالب يعطى عليا قدحا من اللبن يصبه على اللات فكان على يشرب اللبن و يبول على اللات ﴿وأما الزهد فى المأكل﴾ فقد زهد فيه كثير من الاخيار مع القدرة عليه ومنهم من لا يقدر عليه قالت عائشة رضى الله تعالى عنها والذى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق ما كان لنا منخل ولا أكل رسول الله خبزا منخولا منذ بعثه الله تعالى الى أن قبض قيل فكيف كنتم تأكلون الشعير قالت كنا نقول أف أف وعن جابر رضى الله تعالى عنه رفعه نعم الأدب الخل وكفى بالمرء سرفا أن يتسخط ماقرب اليه وقال عمر رضى الله تعالى عنه ما اجتمع عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ادمان الا أكل أحدهما وتصدق بالآخر وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها ما كان يجتمع لونان فى لقمة فى فم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان كان لحما لم يكن خبزا وان كان خبزا لم يكن لحما وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ياعلى ابدأ بالملح واختم به فان فيه شفاء من سبعين داء وروى أن نبيا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام شكا الى الله الضعف فأمر أن يطبخ اللحم باللبن فان القوة فيهما وسنذكر فضل الزهد فى المآكل والمشارب فى باب مدح الفقراء ان شاء الله تعالى ﴿وأما ماجاء فى آداب الأكل﴾ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال عند مطعمه ومشربه بسم الله خير الأسماء بسم الله رب الأرض والسماء لم يضره ما أكل وماشرب وكان صلى الله عليه وسلم اذا وضع بين يديه الطعام قال بسم الله اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وعليك خلفه وقال صلى الله عليه وسلم من أكل طعاما فقال الحمد لله الذى أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولاقوة غفر له ماتقدم من ذنبه ومن لبس ثوبا فقال الحمد لله الذى كسانى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولاقوة غفر له ماتقدم من ذنبه وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله فان نسى فى أوله فليقل بسم الله أوله وآخره وفى حديث ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه واذا شرب فليشرب بيمينه فان الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله وقال صلى الله عليه وسلم الأكل فى السوق دناءة وعن أنس رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم زجر عن الشرب قائما قال فسألناه عن الأكل قائما فقال هو شر من الشرب وأوصى رجل من خدم الملوك ابنه فقال اذا أكلت فضم شفتيك ولا تلتفتن يمينا ولا شمالا ولا تلقمن بسكين ولا تجلس فوق من هو أشرف منك وأرفع منزلة ولا تبصق فى الاماكن النظيفة ومن هذا مارواه الزهرى أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن النفخ فى الطعام والشراب وقال على رضى الله تعالى عنه نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤكل الطعام حارا وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال ماعاب النبى صلى الله عليه وسلم طعاما قط ان اشتهاه أكله والاتركه وقال عمر بن هبيرة عليكم بمباكرة الغداء فان مباكرته تطيب النكهة وتعين على المروءة قيل وما اعانته على المروءة قال أن لاتتوق نفسك الى طعام غيرك وعن النبى صلى الله عليه وسلم قال من أكل من سقط المائدة عاش فى سعة وعوفى فى ولده وولد ولده من الحمق وعنه صلى الله عليه وسلم قال من لقط شيأ من الطعام فأكله حرم الله جلده على النار وكان الحرث بن كلدة يقول اذا تغدى أحدكم فلينم على غدائه واذا تعشى فليخط أربعين خطوة وقيل خير الغداء بواكره وخير العشاء سوافره وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما

في أرض منيعة ذات أشجار ملتفة وماء معين فأعجبه وسأل عنه فقالوا هذا الجحر علكه ثعلب اسمه مفوض وانه ورثه عن أبيه فناداه ظالم فخرج اليه ورحب به وأدخله الى جحره وسأله عن حاله فقص عليه خبره مع الحية فرق له مفوض وقال له الموت فى طلب الثأر خير من الحياة فى العار والرأى عندى أن تنطلق معى الى مأواك الذى أخذ منك غصبا حتى أنظر اليه فلعلى أهتدى الى مكيدة تخلص بها مأواك فانطلقا معا الى ذلك الجحر فتأمله مفوض وقال لظالم اذهب معى فبت الليلة عندى لانظر ليلتى هذه فيما يسنح من الرأى والمكيدة ففعلا ذلك وبات مفوض مفكرا وجعل ظالم يتأمل مسكن مفوض فرأى من سعته وطيب هوائه وحصانته مااشتد به حرصه عليه وطفق يدبر الحيلة فى اغتصابه ونفى مفوض عنه فلما أصبحا قال مفوض لظالم انى رأيت ذلك الجحر بعيدا من الشجر والماء فاصرف نفسك عنه وهلم أعينك على احتفار جحر فى هذا المكان المشتهى فقال ظالم هذا غير ممكن لان لى نفسا تهلك لبعد الوطن حنينا فلما سمع مفوض مقالة ظالم وما تظاهر به من الرغبة فى وطنه قال له انى أرى أن نذهب يومنا هذا فنحتطب حطبا ونربط منه حزمتين فاذا جاء الليل انطلقنا الى بعض هذه الخيام فاخذنا قبس نار واحتملنا الحطب والقبس الى مسكنك فنجعل الحزمتين فى بابه ونضرم النار فان خرجت الحية احترقت وان لزمت الجحر قتلها الدخان فقال له ظالم هذا نعم الرأى فذهبا واحتطبا حزمتين ولما جاء الليل انطلق مفوض الى ظاهر تلك الخيام فاخذ قبسا فعمد ظالم الى احدى الحزمتين فازالها الى موضع غيبها فيه ثم جر الحزمة الأخرى الى باب مسكن مفوض

قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتبع الرجل بصره لقمة أخيه وقال الحجاج لاعرابي يوما على سماطه ارفق بنفسك فقال وأنت يا حجاج اغضض من بصرك وقال معاوية لرجل على مائدته خذ الشعرة من لقمتك فقال وانك تراعيني مراعاة من يرى الشعرة في لقمتي لا أكلت لك طعاما أبدا ووضع معاوية بين يدي الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما دجاجة ففككها فقال معاوية هل بينك وبين أمها عداوة فقال الحسن فهل بينك وبين أمها قرابة أراد معاوية أن الحسن يوقر مجلسه كما توقر مجالس الملوك والحسن أعلم منه بالآداب والرسوم المستحسنة رضي الله تعالى عنهما وحضر اعرابي على مائدة بعض الخلفاء فقدم جدي مشوي فجعل الاعرابي يسرع في أكله منه فقال له الخليفة أراك تأكله بحرد كان أمه نطحتك فقال أراك تشفق عليه كان أمه أرضعتك

﴿وأما ما جاء في كثرة الاكل﴾ فقد روي عن حذيفة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم من قل طعامه صح بطنه وصفا قلبه ومن كثر طعامه سقم بطنه وقسا قلبه وعنه صلى الله عليه وسلم لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فان القلب كالزرع اذا كثر عليه الماء مات وقال صلى الله عليه وسلم ما زين الله رجلا بزينة أفضل من عفاف بطنه وقال عمرو بن عبيد ما رأيت الحسن ضاحكا الا مرة واحدة قال رجل من جلسائه ما آذاني طعام قط فقال له آخر أنت لو كانت في معدتك الحجارة لطحنتها وقال علي كرم الله وجهه البطنة تذهب الفطنة وقال ابن المقفع كانت ملوك الاعاجم اذا رأت الرجل نهما شرها أخرجوه من طبقة الجد الى باب الهزل ومن باب التعظيم الى باب الاحتقار وتقول العرب أقلل طعاما تحمد مناما وكانت العرب تعير بعضها بكثرة الاكل وأنشدوا

لست بأكال كأكل العبد * ولا بنوام كنوم الفهد

وأنشد الأصمعي لرجل من بني فهد

اذا لم أزر الا لآكل أكلة * فلا رفعت كفي الي طعامي
فما أكلة ان نلتها بغنيمة * ولا جوعة ان جعتها بغرام

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشتري غلاما فألقى بين يديه تمرا فأكل فأكثر فقال صلى الله عليه وسلم ان كثرة الأكل شؤم وقالوا الوحدة خير من الجليس السوء والجليس السوء خير من الأكيل السوء وشكا أبو العيناء الى صديق له سوء الحال فقال اشكر فان الله قد رزقك الاسلام والعافية قال أجل ولكن بينهما جوع يقلقل الكبد ودعت أبا الحرث حبيبة له فحدثته ساعة فجاع فطلب الأكل فقالت له أما في وجهي ما يشغلك عن الأكل قال جعلت فداك لو أن جميلا وبثينة قعدا ساعة لا يأكلان لبصق كل منهما في وجه صاحبه وافترقا

﴿وأما أخبار الأكلة﴾ فقد قيل ان وهب بن جرير سأل ميسرة البراش عن أعجب ما أكل فقال أكلت مائة رغيف بمكوك ملح * ومر ميسرة المذكور يوما بقوم وهو راكب حمارا فدعوه للضيافة فذبحوا له حماره وطبخوه وقدموه له فأكله كله فلما أصبح طلب حماره ليركبه فقيل له هو في بطنك * وقال المعتمر بن سليمان قلت لهلال المازني ما أكلة بلغتني عنك قال جعت مرة ومعي بعير فنحرته وشويته وأكلته ولم أبق منه الا شيئا يسيرا حملته على ظهري فلما كان الليل أردت أن أجامع امرأتي فلم أقدر أصل اليها فقالت كيف تصل الي وبيننا جمل فقلت له كم تكفيك هذه الأكلة فقال أربعة أيام وقال الأصمعي ان سليمان بن عبد الملك كان شرها نهما وكان من شرهه أنه اذا أتي بالسفود وعليه الدجاج السمين المشوي لا يصبر الى أن يبرد ولا أن يؤتى بمنديل فيأخذ بكمه فيأكل واحدة واحدة حتى يأتي عليها فقال الرشيد ويحك يا أصمعي ما أعلمك بأخبار الناس اني عرضت علي جباب سليمان فرأيت فيها آثار الدهن فظننته طيبا حتى حدثني ثم أمر لي بجبة منها فكنت اذا لبستها أقول هذه جبة سليمان بن عبد الملك * وقال الشمردل وكيل عمرو بن العاص قدم سليمان بن عبد الملك الطائف فدخل هو وعمر بن عبد العزيز الي وقال يا شمردل ما عندك ما تطعمني قلت عندي جدي كأعظم ما يكون سمنا قال عجل به فأتيت به كأنه عكة سمن فجعل يأكل منه ولا يدعو عمر حتى اذا لم يبق منه الا فخذ قال هلم يا أبا جعفر فقال اني صائم فأكله ثم قال يا شمردل ويلك أما عندك شئ قلت ست دجاجات كأنهن أفخاذ نعام فأتيته بهن فأتى عليهن ثم قال يا شمردل أما عندك شئ قلت سويق كأنه قراضة الذهب فأتيته به

فبعثه

فسده بها سدا محكما وقدر في نفسه ان مفوضا اذا أتى الجحر لم يمكنه الدخول اليه لحصانته فاذا يئس منه ذهب فنظر لنفسه مأوى وكان ظالم قد رأى في منزل مفوض طعاما ادخره لنفسه فعول ظالم على أنه يقتات به ان حاصره مفوض وهو من داخل وأذهله الشره والحرص عن فساد هذا الرأي ثم ان مفوضا جاء بالقبس فلم يجد ظالما ولا وجد الحطب فظن ان ظالما قد حمل الحزمتين تخفيفا عنه وانه سبقه الى مسكنه الذي فيه الحية اشفاقا على مفوض فشق ذلك عليه وظهر له من الرأي أن يبادر اليه ويلحقه ليحمل معه الحطب فوضع القبس بالقرب من الحطب ولم يشعر أن الباب مسدود به لشدة الظلمة فما بعد عن الباب الا وضوء النار وشدة الدخان قد لحقاه فعاد وتأمل الباب فرأى الحطب قد صار نارا فعلم مكيدة ظالم ورآه قد احترق من داخل الجحر وحاق به مكره فقال هذا الباحث على حتفه بظلفه ثم ان مفوضا صبر حتى انطفأت النار فدخل جحره فأخرج جثة ظالم فألقاها واستوطن جحره آمنا فهذا المثل ضربته لك لانه ملائم لفعل عمرو ابن سعيد في بغيه ومخادعته عبد الملك وحيلته في أخذ دار ملكه وتحصينها منه وهذا كفعل ظالم مع مفوض والله أعلم فلما سمع عبد الملك حكمة الشيخ في ضرب أمثاله سر بذلك سرورا عظيما ثم أقبل عليه فقال جزيت عني خيرا واني أريد أن تجعل بيني وبينك موعدا وتعرفني مكانك لالقاك له بعد يومي هذا فقال الشيخ وما تريد بذلك فقال له عبد الملك اني أريد مكافأتك على ما كان منك فقال له الشيخ اني أعطيت الله عهدا أن لا أقبل منة لبخيل فقال عبد الملك ومن أين علمت اني بخيل فقال لانك أخرت صلتي مع القدرة فما عليك لو وصلتني ببعض ما عليك فقال

فعمه حتى أتى عليه ثم قال يا غلام أفرغت من غدائنا قال نعم قال ما هو قال نيف وثلاثون قدرا قال ائتني بقدر قدر فأتاه بها ومعه الرقاق فأكل من كل قدر ثلثه ثم مسح يده واستلقى على فراشه وأذن للناس فدخلوا ووضع الخوان فقعد وأكل مع الناس وكان هلال بن الاسعر يضع القمع على فيه و يصب اللبن أو النبيذ وكان غليظا عتلا * وقال أعرابي لرجل رآه سمينا أرى عليك قطيفة من نسج أضراسك * وقال أبو المحسر الاعرابي كانت لي بنت تجلس معي على المائدة فتبرز كفا كأنها صلفة في ذراع كأنه جمارة فلا تقع عينها على لقمة نفيسة الا خصتني بها فكبرت وزوجتها وصرت أجلس على المائدة مع ابن لي فيبرز كفا كأنها كرنافة فوالله ان تسبق عيني الى لقمة طيبة الا سبقت يده اليها * وقال مسلم بن قتيبة عددت للحجاج أربعة وثمانين رغيفا مع كل رغيف سمكة * ويقال فلان يحاكي حوت يونس في جودة الالتقام وعصا موسى في سرعة الالتهام * وقيل لابي مرة أي الطعام أحب اليك قال لحم سمين وخبز سميذ أضرب فيه ضرب ولي السوء في مال اليتيم * وقال صدقة بن عبيد المازني أولم لي أبي لما تزوجت فعمل عشرة جفان ثريدا من جزور فكان أول من جاءنا هلال المازني فقدمنا اليه جفنة مترعة فأكلها ثم أخرى فأكلها حتى أتى على الجميع ثم أتى بقربة مملوأة من النبيذ فوضع طرفها في شدقه وفرغها في جوفه ثم قام فخرج واستأنفنا عمل الطعام * وكان عبيد الله بن زياد يأكل في كل يوم خمس أكلات فخرج يوما يريد الكوفة فقال له رجل من بني شيبان الغداء أصلح الله الامير فنزل فذبح له عشرين طائرا من الاوز فأكلها ثم قدم الطعام فأكل ثم أتى بزنبيلين في أحدهما تين وفي الآخر بيض فجعل يأكل من هذا تينة ومن هذا بيضة حتى أتى على ذلك جميعه ثم رجع وهو جائع وكان ميسرة البراش يأكل الكبش العظيم ومائة رغيف فذكر ذلك للمهدي فقال دعوت يوما بالفيل وأمرت فألقى اليه رغيف رغيف فأكل تسعة وتسعين وألقى اليه تمام المائة فلم يأكله * وحدث الشيخ نبيه الدين الجوهري انه سمع الشيخ الامام عز الدين بن عبد السلام يقول ان معاوية بن أبي سفيان كان يأكل في كل يوم مائة رطل بالدمشقي ولا يشبع * ونزل رجل بصومعة راهب فقدم اليه الراهب أربعة أرغفة وذهب ليحضر اليه العدس فحمله وجاء فوجده قد أكل الخبز فذهب فأتى بخبز فوجده قد أكل العدس ففعل معه ذلك عشر مرات فسأله الراهب أين مقصدك قال الى الاردن قال لماذا قال بلغني ان بها طبيبا حاذقا أسأله عما يصلح معدتي فاني قليل الشهوة للطعام فقال له الراهب ان لي اليك حاجة قال وما هي قال اذا ذهبت وأصلحت معدتك فلا تجعل رجوعك علي

﴿وأما المهازلة على الطعام﴾ فقد روي عن يحيى بن عبد الرحمن رضي الله تعالى عنه قال قالت عائشة رضي الله تعالى عنها كان عندي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسودة فصنعت حريرة فجئت به فقلت لسودة كلي فقالت لا أحبه فقلت والله لتأكلين أو لألطخن وجهك فقالت ما أنا بذائقته فأخذت من الصحفة شيأ فلطخت به وجهها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس بيني وبينها فتناولت من الصحفة شيأ فلطخت به وجهي وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك * واشترى غندر يوما سمكا وقال لاهله اصلحوه ونام فأكل عياله السمك ولطخوا يده فلما انتبه قال قدموا الى السمك قالوا قد أكلت قال لا قالوا شم يدك ففعل فقال صدقتم ولكن ما شبعت * ودخل الحمدوني على رجل وعنده أقوام بين أيديهم أطباق الحلوى ولا يمدون أيديهم فقال لقد ذكرتموني ضيف ابراهيم وقول الله تعالى فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ثم قال كلوا رحمكم الله فضحكوا وأكلوا والحكايات في ذلك كثيرة

﴿وأما الضيافة واطعام الطعام﴾ فقد قال الله تعالى هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ولا يؤذ جاره وقال صلى الله عليه وسلم من أكل وذو عينين ينظر اليه ولم يواسه ابتلي بداء لا دواء له وقال الحسن كنا نسمع ان احدى موجبات الرحمة اطعام الاخ المسلم الجائع وقيل لابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام بم اتخذك الله خليلا قال بثلاث ما خيرت بين شيئين الا اخترت الذي لله على غيره ولا اهتممت بما تكفل لي به ولا تغديت ولا تعشيت الا مع ضيف و يقولون ما خلا ضيف الخليل عليه الصلاة والسلام الى يومنا هذا ليلة واحدة من ضيف وكان الزهري اذا لم يأكل أحد من أصحابه من طعامه حلف لا يحدثه عشرة أيام وقالوا المائدة مرزوقة أي من كان مضيافا فأوسع الله عليه وقالوا أول من سن القرى ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وأول من ثرد الثريد هشم هاشم وأول من أفطر

عبد الملك أقسم بالله لقد ذهلت ثم نزع سيفه وقال له اقبل مني هذا واحرص عليه فقيمته عشرون ألف درهم فقال الشيخ اني لا أقبل صلة ذاهل فدعني وربي الذي لا يذهل ولا يبخل فهو حسبي فلما سمع عبد الملك كلام الشيخ عظم في عينه وعلم فضله في دينه فقال له أنا عبد الملك فارفع حوائجك الى فقال الشيخ وأنا أيضا عبد الملك فهلم نرفع حوائجنا الى من أنا وأنت له عبدان فانطلق عبد الملك وعمل برأي الشيخ فانجح الله قصده وانتصر على أعدائه فلما سمع الوليد ما أخبره به الكهل استرجح عقله واستظرف أدبه واستحسن محاضرته وسأله عن نفسه فتسمى له وانتسب فلم يعرفه الوليد فاستحى منه وقال له من جهل مثلك في رعيته ضاع فقال له الكهل يا أمير المؤمنين ان الملوك لا تعرف الا من تعرف اليها ولزم أبوابها فقال له الوليد صدقت ثم أمر له بصدقة معجلة وعهد اليه في ملازمته فكان يتمتع بأدبه وحكمته الى أن كان من أمر الوليد ما هو مشهور والله أعلم (ومما تخيرته من عجائب سلوان المطاع) قيل لما عزم سابور ابن هرمز على الدخول الى بلاد الروم متنكرا نهاه نصحاؤه وعقلاء وزرائه وحذروه من ذلك فعصاهم وكان يقال أوزر الناس وزراء الاحداث من الملوك وعشاق الفتيان من المشايخ فان سابور توجه نحو بلاد الروم واستصحب وزيرا كان له ولابيه من قبله وكان من أدهى الناس في الحزم وسداد الرأي واختلاف الأديان ولغاتها وكان من المتبحرين في العلوم والمبرزين بالمكايد فسلم اليه سابور جميع ما يحتاج اليه في سفره وأمر أن لا يجاوز في السير ولا يبعد عنه بحيث يراعي جميع أحواله في ليله ونهاره فتوجها نحو الشام ولبس ذلك الوزير زي الرهبان وتكلم بلسانهم

جيرانه على طعامه فى الاسلام عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما وهو أول من وضع موائده على الطريق وكان اذا خرج من بيته طعام لا يعود منه شئ فان لم يجد من يأكله تركه على الطريق وقيل لبعض الكرماء كيف اكتسبت مكارم الأخلاق والتأدب مع الاضياف فقال كانت الاسفار تحوجنى الى أن أفد على الناس فما استحسنته من اخلاقهم اتبعته وما استقبحته اجتنبته

﴿وأما آداب المضيف﴾ فهو أن يخدم أضيافه ويظهر لهم الغنى وبسط الوجه فقد قيل البشاشة فى الوجه خير من القرى قالوا فكيف بمن يأتى بها وهو ضاحك وقد ضمن الشيخ شمس الدين البديوى رحمه الله هذا الكلام بأبيات فقال

اذا المرء وافى منزلا منك قاصدا * قراك وأرمته لديك المسالك
فكن باسما فى وجهه متهللا * وقل مرحبا أهلا ويوم مبارك
وقدم له ما تستطيع من القرى * عجولا ولا تبخل بما هو هالك
فقد قيل بيت سالف متقدم * تداوله زيد وعمرو ومالك
بشاشة وجه المرء خير من القرى * فكيف بمن يأتى به وهو ضاحك

وقالت العرب تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة واطالة الحديث عند المؤاكلة وقال حاتم الطائى

سلى الطارق المعتر يا أم مالك * اذا ما أتانى بين نارى ومجزرى
أأبسط وجهى انه أول القرى * وأبذل معروفى له دون منكرى

(وقال آخر فى عبد الله بن جعفر) انك يا ابن جعفر خير فتى * وخيرهم لطارق اذا أتى

(ولله در القائل) الله يعلم أنه ما سرنى * شئ كطارقة الضيوف النزل
مازلت بالترحيب حتى خلتنى * ضيفا له والضيف رب المنزل

(أخذه من قول الشاعر) يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا * نحن الضيوف وأنت رب المنزل

(وما أحسن ما قال سيف الدولة بن حمدان)

منزلنا رحب لمن زاره * نحن سواء فيه والطارق
وكل ما فيه حلال له * الا الذى حرمه الخالق

(وقال الأصمعى) سألت عيينة بن وهب الدارمى عن مكارم الأخلاق فقال أوما سمعت قول عاصم بن وائل

وانا لنقرى الضيف قبل نزوله * ونشبعه بالبشر من وجه ضاحك

(وقال بعض الكرام) أضاحك ضيفى قبل أنزل رحله * ويخصب عندى والمحل جديب
وما الخصب للاضياف أن تكثر القرى * ولكنما وجه الكريم خصيب

(وقال آخر) عودت نفسى اذا ما الضيف نبهنى * عقر العشار على عسر وايسار

(ومن آداب المضيف) أن يتفقد دابة ضيفه ويكرمها قبل اكرام الضيف قال الشاعر

مطية الضيف عندى تلو صاحبها * لن يأمن الضيف حتى تكرم الفرسا

وقال على بن الحسين رضى الله تعالى عنهما من تمام المروأة خدمة الرجل ضيفه كما خدمهم أبونا ابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه بنفسه وأهله أما سمعت قول الله عز وجل وامرأته قائمة ❊ ومن آداب المضيف أن يحدث أضيافه بما تميل اليه نفوسهم ولا ينام قبلهم ولا يشكو الزمان بحضورهم ويبش عند قدومهم ويتألم عند وداعهم وأن لا يحدث بما يروعهم به كما حكى بعضهم قال استدعانى اسحق بن ابراهيم الظاهرى الى أكل هريسة فى بكرة نهار فدخلت فاحضرت لنا الهريسة فأكلنا فاذا شعرة قد جاءت على لقمة غفل عنها طباخه فاستدعى خادمه فأمر اليه شيأ لم نعلمه فعاد الخادم ومعه صينية مغطاة فكشف عن الصينية فاذا يد الطباخ مقطوعة تختلج فتكدر علينا عيشنا وقمنا من عنده ونحن لا نعقل فيجب على المضيف أن يراعى خواطر أضيافه كيفما أمكن ولا يغضب على أحد بحضورهم ولا ينغص عيشهم بما يكرهونه ولا يعبس بوجهه ولا يظهر نكدا ولا ينهر أحدا ولا يشتمه بحضرتهم بل يدخل على قلوبهم السرور بكل ما أمكن كما حكى عن بعض الكرام أنه دعا جماعة من أصحابه الى بستانه وعمل لهم سماطا وكان له ولد جميل الطلعة فكان الولد فى أول النهار يخدم القوم ويأنسون به ففى آخر النهار صعد الى السطح فسقط فمات لوقته فحلف أبوه على أمه بالطلاق الثلاث أن لا تصرخ ولا تبكى الى أن تصبح فلما كان الليل سأله أضيافه عن ولده فقال هو نائم فلما أصبحوا وأرادوا الخروج قال لهم ان رأيتم ان تصلوا على ولدى فانه بالامس سقط من على

وتحرف بصناعة الطب الجرائحى وكان معه الدهن الصينى الذى اذا دهنت به الجراحات ختمت بسرعة واندملت فكان ذلك الوزير فى مسيره نحو بلاد الروم يداوى الجراحات بأدوية يضيف اليها يسيرا من ذلك الدهن فتبرأ بسرعة واذا عنى بأحد من ذوى الاقدار داواه بذلك الدهن صرفا فيبرأ على الفور ولا يأخذ على ذلك أجرة فانتشر ذكره فى بلاد الروم وعقدت عليه الخناصر وأقبل عليه الناس وكان مع انفراده مع سابور يراعى جميع أحواله فلم يزل كذلك حتى طافا جميع الشام وقصدا القسطنطينية فقدماها فذهب الوزير الى البطرك وتفسير هذا الاسم أبو الآباء فاستأذن عليه فأذن له وسأله عن قصده فأخبره أنه هاجر اليه ليتشرف بخدمته ويدخل فى أتباعه ثم أهدى اليه هدية نفيسة حسن موقعها من البطرك فقربه وأكرمه وأحسن نزله وألحقه ببطانته واختبره فوجده عالما بدينهم بل مبرزا فأعجب به غاية الاعجاب وجعل الوزير يتأمل أحوال البطرك ليصحبه بما يلائمه وينفق عنده فوجده مائلا الى الفكاهات معجبا بنوادر الاخبار وكان الوزير فى ذلك غاية فأخذ يتحفه بكل نادرة غريبة وملحة عجيبة فصار البطرك لم يطق عن الوزير صبرا لأنه حلا لعينه وحل بقلبه وجعل الوزير مع ذلك يعالج الجراحات ولا يأخذ على ذلك عوضا فعظم قدره فى الناس هذا وهو يتعاهد أحوال سابور فى كل وقت الى أن صنع قيصر وليمة وحضر الناس اليها على طبقاتهم فأراد سابور حضورها ليطلع على أحوال قيصر وعلى رتبته فى قصره وعظم وليمته فنهاه وزيره عن ذلك فعصاه وتزيا بزى ظن انه يستتر به ودخل دار قيصر مع من حضر الوليمة

السطح فمات لساعته فقالوا له لم لا أخبرتنا حين سألناك فقال ما ينبغي لعاقل أن ينغص على أضيافه في التذاذهم ولا يكدر عليهم في عيشهم فتعجبوا من صبره وتجلده ومكارم أخلاقه ثم صلوا على الغلام وحضروا دفنه وبكوا عليه وانصرفوا وعلى المضيف أن يأمر غلمانه بحفظ نعال أضيافه وتفقد غلمانهم بما يكفيهم ويسهل حجابه وقت الطعام ولا يمنع واردا وقيل لبعض الأمراء الكرام لا بأس بالحجاب لئلا يدخل من لا يعرفه الأمير ويحترز عن العدو فقال ان عدوا يأكل طعامنا ولا يخدع لا يمكنه الله منا والاليق بالكريم الرئيس أن يمنع حاجبه من الوقوف ببابه عند حضور الطعام فان ذلك أول الشناعة عليه وعليه أن يسهر مع أضيافه ويؤانسهم بلذيذ المحادثة وغريب الحكايات وأن يستميل قلوبهم بالبذل لهم من غرائب الظرف ان كان من أهل ذلك وان يرى أضيافه مكان الخلاء فقد قيل عن ملك الهند أنه قال اذا ضافك أحد فأره الكنيف فاني ابتليت به مرة فوضعته في قلنسوتي وقالوا لا بأس أن يدخل الرجل دار أخيه يستطعم للصداقة الوكيدة وقد قصد النبي صلى الله عليه وسلم والشيخان منزل الهيثم بن التيهان وأبي أيوب الأنصاري وكذلك كانت عادة السلف رضي الله تعالى عنهم وكان لعون بن عبد الله المسعودي ثلثمائة وستون صديقا فكان يدور عليهم في السنة ولا بأس أن يدخل الرجل بيت صديقه فيأكل وهو غائب فقد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار بريرة رضي الله عنها فأكل طعامها وهي غائبة وكان الحسن رضي الله عنه يوما عند بقال فجعل يأخذ من هذه الجونة تينة ومن هذه فستقة فيأكلها فقال له هشام ما بدا لك يا أبا سعيد في الورع فقال له يا لكع اتل علي آية الأكل فتلا ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم الى قوله أو صديقكم فقال الصديق من استروحت اليه النفس واطمأن اليه القلب وعلى المضيف الكريم أن لا يتأخر عن أضيافه ولا يمنعه عن ذلك قلة ما في يده بل يحضر اليهم ما وجد فقد جاء عن أنس وغيره من الصحابة رضي الله عنهم انهم كانوا يقدمون الكسرة اليابسة وحشف التمر ويقولون ما ندري أيهما أعظم وزرا الذي يحتقر ما قدم اليه أو الذي يحتقر ما عنده أن يقدمه وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من ألقم أخاه لقمة حلوة صرف الله عنه مرارة الموقف (وحكى) عن الامام الشافعي رضي الله عنه انه كان نازلا عند الزعفراني ببغداد فكان الزعفراني يكتب في كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويدفعها الى الجارية فأخذها الشافعي منها يوما وألحق فيها لونا آخر فعرف الزعفراني ذلك فأعتق الجارية سرورا بذلك وكانت سنة السلف رضي الله عنهم أن يقدموا جملة الألوان دفعة ليأكل كل شخص ما يشتهي ومن السنة ان يشيع المضيف الى باب الدار وعلى المضيف اذا قدم الطعام الى أضيافه أن لا ينتظر من يحضر من عشيرته فقد قيل ثلاثة تضني سراج لا يضي ورسول بطي ومائدة ينتظر لها من يجي ونزل الامام الشافعي رضي الله عنه بالامام مالك رضي الله عنه فصب بنفسه الماء على يديه وقال له لا يرعك ما رأيت مني فخدمة المضيف فرض

اعرض طعامك وابذل لمن أكلا * واحلف على من أبى واشكر لمن فعلا
ولا تكن سابري العرض محتشما * من القليل فلست الدهر محتفلا

ومن البخلاء من يعزم على الضيف فيعتذر له فيمسك عنه بمجرد الاعتذار كأنه تخلص من ورطة وقيل لبعض البخلاء ما الفرج بعد الشدة قال أن يعتذر الضيف بالصوم ومن البخلاء من يعجبه طعامه ويصف زباديه ويشتهي أن تبقى على حالها ومنهم من يحضر طعامه فاذا رآه ضيوفه أمر بأن يرفع منها أطيبها وأشهاها الى النفوس ويعتذران في أصحابه من يحضر بالغداة عنده (وحكى) عن بعض البخلاء انه استأذن عليه ضيف وبين يديه خبز وزبدية فيها عسل نحل فرفع الخبز وأراد أن يرفع العسل فدخل الضيف من قبل أن يرفعه فظن البخيل أن ضيفه لا يأكل العسل بلا خبز فقال له ترى أن تأكل عسلا بلا خبز قال نعم وجعل يلعق العسل لعقة بعد لعقة فقال له البخيل مهلا يا أخي والله انه يحرق القلب قال نعم صدقت ولكنه قلبك (وحكى) عن بعضهم انه قال غلب علي الجوع مرة فقلت أمضي الى دار فلان لا تغدى عنده فجئت الى باب بيته فوجدت غلامه فقلت له أين سيدك فقال والله لا قلت لك عليه الا ان أعطيتني كسرة قال فرجعت هاربا * ومن البخل تقديم الشيء اليسير وتفخيمه * حكى عن بعض البخلاء انه حلف يوما على صديقه وأحضر له خبزا وجبنا وقال له لا تستقل الجبن فان الرطل منه بثلاثة دراهم فقال له ضيفه أنا أجعله بدرهم ونصف قال وكيف ذلك قال آكل لقمة بجبن ولقمة بلا جبن فأين هؤلاء من الذي يقول

وكان قيصر من شدة احتراسه من سابور وخيفته من أن يطرق بلاده وتحسن له همته العالية وحدة الشبيبة ذلك صور سابور في مجلسه وعلى ستوربيته وعلى فرشه وفي آلات أكله وشربه ولما دخل سابور يوم الوليمة واستقر في مجلسه وأكل مع من حضر أتوا بالشراب في كؤس البلور والذهب والفضة والزجاج المحكم وكان في المجلس رجل من حكماء الروم ودهاتهم فلما وقعت عينه على سابور أنكره وجعل يتأمل شخصه فرأى عليه مخايل الرياسة ولما زاد في تأمله وصل اليه دور الكأس فتأمل الصورة التي على الكاس وراجع النظر في سابور فما شك ان الصورة التي على الكأس وضعت على مثاله وغلب على ظنه أنه سابور فأمسك الكأس في يده امسا كاطويلا ثم قال رافعا صوته ان هذه الصورة التي على هذا الكاس تخبرني اخبارا عجيبا فقيل له وما الذي تخبرك فقال تخبرني ان الذي هي مثال له معنا في مجلسنا هذا ثم نظر الى سابور وقد تغير لونه حين سمع مقالته فحقق ظنه فبلغ ذلك قيصر فأدناه وقربه وسأله فأخبره ان سابور معه في مجلسه وأشار اليه فأمر قيصر بالقبض عليه وقرب من قيصر فسأله عن نفسه فتعلل بضروب من العلل لم تقبل فقال ذلك المتفرس أيها الملك لا تقبل قوله فانه سابور لا محالة فهدده قيصر بالقتل فاعترف أنه سابور فحبسه قيصر مكرما وأمر أن يعمل له من جلود البقر صورة بقرة وتطبق عليها الجلود سبع طبقات ويتخذ لها باب ويجعل لها كوة لأجل المبال ويستقر سابور بها ويجمع يداه الى عنقه بجامعة من الذهب ذات سلسلة يمكنه معها تناول ما يعمل له من طعام وشراب وغير ذلك فلما دخل سابور جوف تلك الصورة جمع قيصر جنوده واستعد

قالت أما ترحل تبغي الغنى * قلت فمن للطارق المعتم * قالت فهل عندك شئ له
قلت نعم جهد الفتى المعدم * فكم وحق الله من ليلة * قد أطعم الضيف ولم أطعم
ان الغنى بالنفس يا هذه * ليس الغنى بالمال والدرهم

﴿وقال بعض البخلاء﴾

سرى نحونا يبغي القرى طاوي الحشى * لقد عملت فيه الظنون الكواذب
فبات له منا الى الصبح شاتم * يعدد تطفيل الضيوف وضارب *

﴿وأما آداب الضيف﴾ فهو أن يبادر الى موافقة المضيف في أمور منها أكل الطعام ولا يعتذر بشبع بل يأكل كيف أمكن * فقد حكي انه ورد على بعض الاعراب ضيف فدخل به الى بيته وقدم له الطعام فقال الضيف لست بجائع وانما احتاج الى مكان أبيت فيه فقال الاعرابي اذا كان هذا عزمك فكن ضيف غيري فاني لا أرى ان تمدحني في البلاد وتهجوني فيما بيني وبينك (وحكي) عن بعض التجار قال استدعاني أبو حفص محمد بن القاسم الكرخي لاعرض عليه قماشا من تجارتي فبينما أنا بين يديه واذا باطباق الفاكهة قد حضرت فقمت من مجلسه فقال يا فلان ما هذا الخلق العامي اجلس فجلست وتحققت كرمه وجعلت آكل الكمثراة في لقمة والتفاحة في لقمة ثم قدم الطعام وكنت جائعا فاكلت أكلا جيدا ثم انصرفت فلم أشعر في اليوم الثاني الا وقد جاءني غلامه ببغلته فاستدعاني اليه فقال لي يا فلان اني قليل الاكل بطيء الهضم ولقد طابت لي مؤاكلتك بالامس فاريد أن لا تنقطع بعدها عني قال فكنت متى انقطعت حضر غلامه في طلبي فحصل لي بقربي منه مال كثير وجاه عريض ومن آداب الضيف أيضا أن لا يسأل صاحب المنزل عن شئ من داره سوى القبلة وموضع قضاء الحاجة وان لا يتطلع الى ناحية الحريم وان لا يخالفه اذا أجلسه في مكان وأكرمه به وأن لا يمتنع من غسل يديه واذا رأى صاحب المنزل قد تحرك بحركة فلا يمنعه منها فقد نقل في بعض المجاميع ان بعض الكرماء كان عربيدا على أضيافه سيء الخلق بهم فبلغ ذلك بعض الاذكياء فقال الذي يظهر لي من هذا الرجل انه كريم الاخلاق وما أظن سوء أخلاقه الا لسوء أدب الاضياف ولا بد أن أتطفل عليه لارى حقيقة أمره قال فقصدته وسلمت عليه فقال هل لك أن تكون ضيفي قلت نعم فسار بين يدي الى أن جاء الى باب داره فاذن لي فدخلت فأجلسني في صدر مجلسه فجلست حيث أجلسني وأعطاني مسندا فاستندت اليه فاخرج لي شطرنجا وقال أتتقن شيأ قلت نعم فلعبت معه فلما حضر الطعام جعل يقدم لي ما استطابه وأنا آكل فلما فرغنا قدم طستا وابريقا وأراد أن يسكب الماء على يدي فلم أمنعه من ذلك وأراد الخروج بين يدي بعد أن قدم نعلي فلم أزده عن ذلك فلما أراد الرجوع قلت يا سيدي أنشدك الله الا فرجت عني كربة قال وما هي فاخبرته الخبر فقال والله ما يحوجني لذلك الا سوء أدب من يصل الضيف الى داري فأجلسه في الصدر فيأبى ذلك ثم أقدم اليه الطعام فلا أتحفه بشئ مستظرف الا رده علي ثم أريد أن أصب الماء على يديه عند الغسل فيحلف بالطلاق الثلاث ما تفعل ثم أريد أن أشيعه فلا يمكنني من ذلك فأقول في نفسي لا يحكم الانسان على نفسه حتى في بيته فعند ذلك أشتمه وألعنه بل وأضربه وفي معنى ذلك يقول بعضهم

لا ينبغي للضيف أن يعترض * ان كان ذا حزم وطبع لطيف
فالأمر للانسان في بيته * ان شاء أن ينصف أو أن يحيف

(ومما) يعاب على الضيف أمور منها كثرة الأكل المفرط الا أن يكون بدويا فانها عادته ومنها أن يتتبع طريق الشرهين كمن يتخذ معه خريطة مشمعة يقلب فيها الزبادي والامراق والحلوى وغير ذلك ومنها أن يأخذ معه ولده الصغير ويعلمه أن يبكي وقت الانصراف من الطعام ليعطى على اسم ولده الصغير * ومنها قبح المؤاكلة وقد عد فيها عيوب كثيرة فمنها المتشاوف والعداد والجراف والرشاف والنفاض والقراض والبهات واللقمان والعوام والقسام والمخلل والمزبد والمرنخ والمرشش والمفتش والمنشف والملبب والصباب والنفاخ والحامي والجنح والشطرنجي والمهندس والمتمني والفضولي * فأما المتشاوف فهو الذي يستحكم جوعه قبل فراغ الطعام فلا تراه الا متطلعا الناحية الباب يظن ان كل ما دخل هو الطعام وأما العداد فهو الذي يستغرق في عد الزبادي ويعد على أصابعه ويشير اليها وينسى نفسه

الغزو بلاد فارس ووكل بسابور وهو داخل البقرة مائة رجل من ذوي البأس والشدة يحملونها وصرف أمره الى المطران وهو خليفة البطرك فكانت تلك الصورة تحمل بين يديه فاذا نزل العسكر نزلت الصورة التي فيها سابور وسط العسكر وضربت عليها قبة وتضرب للمطران قبة مجاورة لقبة سابور وسار قيصر محتفلا بجنوده وعساكره وقد عزم على خراب بلاد فارس ولما وجد السير قال وزير سابور للبطرك أيها الاب انما استعبدت بخدمتك الرغبة في مصالح الأعمال ولا عمل أصلح من تنفيس كربة عن مجهود وجر منفعة الى مضطر وقد علمت اجتهادي في مداواة الجرحى وان نفسي تنازعني الى صحبة الملك قيصر في سفره هذا الا غير فلعل الله تعالى يستنقذني نفسا صالحة أو يسوقني الى مداواة جريح من العسكر ليتقدس قلبي بهذه المثوبات فكره البطرك ذلك وقال له قد علمت أنني لا أستطيع فراقك فكيف تطالبني بالسفر البعيد قال فلم يزل وزير سابور يتضرع الى البطرك الى ان استحى منه وسمح له بذلك وزوده وكتب معه الى المطران يخبره برتبته عنده وانه يحله في أعلى المراتب ويستفتي برأيه اذا أشكل عليه أمر فقدم وزير سابور على المطران فعرف له حقه وأنزله في قبته وجعل زمام أمره ونهيه بيده وصار الوزير يستميله بما يميل اليه ويطرفه في كل ليلة بطرف الأخبار وأعاجيب الحكايات وقته ليسمع سابور حديثه فيتسلى بذلك ويدس في أحاديثه ما يريد أن يعلمه به ويبطنه من الأسرار فكان سابور يجد بذلك راحة عظيمة وكان الوزير قد أعد لخلاص سابور أنواعا من المكايد رتبها عند ما قدم على المطران منها انه امتنع عن مؤاكلة المطران وأخبره أنه لا يخالط

والجراف هو الذى يجعل اللقمة فى جانب الزبدية ويجرف بها الى الجانب الآخر والرشاف هو الذى يجعل اللقمة فى فيه ويرتشفها فيسمع لمصاحين الملع حس لا يخفى على جلسائه وهو يلتذ بذلك والنفاض هو الذى يجعل اللقمة فى فيه وينفض أصابعه فى الزبدية والقراض هو الذى يقرض اللقمة بأطراف أسنانه حتى يهذبها ويضعها فى الطعام بعد ذلك والبهات هو الذى يبهت فى وجوه الآكلين حتى يبهتهم ويأخذ اللحم من بين أيديهم واللتات هو الذى يلت اللقمة بأطراف أصابعه قبل وضعها فى الطعام والعوام هو الذى يميل ذراعيه يمنة ويسرة لأخذ الزبادى والقسام هو الذى يأكل نصف اللقمة ويعيد باقيها فى الطعام من فيه والمخلل هو الذى يخلل أسنانه بأظفاره والمزبد هو الذى يحمل معه الطعام والمرتخ هو الذى يرتخ اللقمة فى الامراق فلا يبلع الاولى حتى تلين الثانية والمرشش هو الذى يفسخ الدجاج بغير خبرة فيرش على مؤاكليه والمفتش هو الذى يفتش على اللحم بأصابعه والمنشف هو الذى ينشف يديه من الدهن باللقم ثم يأكلها والملبب هو الذى يملأ الطعام لبابا والصباب هو الذى ينقل الطعام من زبدية الى زبدية ليبرده والنفاخ هو الذى ينفخ فى الطعام والحامى هو الذى يجعل اللحم بين يديه ويحميه عن مؤاكليه والمجنح هو الذى يزاحم مؤاكليه بجناحيه حتى يفسح له فى المجلس فلا يشق عليه الاكل والشطرنجى هو الذى يرفع زبدية ويضع زبدية أخرى مكانها والمهندس هو الذى يقول ان يضع الزبادى ضع هذه هنا وهذه هنا حتى يأتى قدامه ما يحب والمتمنى هو الذى يقول ليتنى لم يكن معى من يأكل والفضولى هو الذى يقول لصاحب المنزل عند فراغ الطعام ان كان قد بقى عندك فى القدور شئ فأطعم الناس فان فيهم من لم يأكل *ومن الاضياف من لا يلذ له حديث الا وقت غسل يديه فيبقى الغلام واقفا والابريق فى يده والناس ينتظرونه ومنهم من يغسل يديه بالاشنان مرة واحدة فاذا اجتمع الوسخ والذفر تسولك بهما ومنهم من يدخل الدار فيبتدى بالهندسة اولا فيقول كان ينبغى ان يكون باب المجلس من ههنا والايوان كان ينبغى ان يكون ههنا ويتنقل من الهندسة الى ترتيب المجلس فينقل الفاكهة من موضعها الى موضع آخر وان كان قد استحكم جوعه استعفى من الطعام وذهل عن بقية الاضياف وشدة جوعهم *ومنهم من يخرج فيطوف على أصدقاء صاحب الدعوة فيتألم من انقطاعهم ويستوحش من غيبتهم ويسلطهم على عرض صاحبهم *ولقد حكى عن مغن غير مجيد أنه لم يبطل ولا ليلة واحدة وما ذاك الا انه كان اذا سئل أين كنت قال كنت عند الناس واذا قيل له أين أكلت قال أكلت فى بطنى واذا قيل له أين شربت قال شربت فى فمى ومنهم من يفهم عن صاحب الدعوة أنه يقول لغلامه اشتر كذا فيقول والله العظيم أو الطلاق الثلاث يلزمه ما يشترى شيأ فاذوقه فيعجز صاحب المنزل ويخجله اذا لم يكن فى بيته شئ موجود وليت شعرى اذا كان لا يأكل فلاى شئ حضر ومنهم من يرى صاحب البيت قد أمر الى صديقه شيأ فيقول ما الذى قال المولى لصاحبنا وهو لا يريد أن يعلمه ومنهم من يستعجل صاحب المنزل بالأكل ويشكو الجوع ويظن أن ذلك بسط ومكارم أخلاق وانما ذلك يكون فى بيته لا فى بيوت الناس ومنهم من يقول لصاحب الدعوة من يغنى لنا فيقول فلان فيقول له غلطت لم لا دعوت فلانا ومنهم من يسأل صاحب البيت كيف قوته فى النكاح فيقول له أنا رجل كبير قد ضعفت قوتى وشهوتى أو يقول مالى قوة طائلة فى ذلك فيقول أنا والله كأسامر على عام تزايدت شهوتى وكثر لهذا الفن تشوقى ويعلن بذلك حتى تسمعه صاحبة البيت ومنهم من يشكو حاله مع أهل بيته ويذكر نفقته عليهن وكسوته لهن وكثرة انعامه واحسانه اليهن وما عليه زوجته من سوء الاخلاق وكبر النفس لتستقل زوجة صاحب البيت ما هى فيه مع زوجها وربما كان ذلك سببا لفراقها منه ومنهم من تعجبه نفسه ويستحسن لباسه ويستطيب رائحته واذا سمع الغناء تواجد وأظهر الطرب وحرك رأسه ويقوم قائما يتمايل حتى يرى أهل الرجل أنه لطيف الشكل بديع الحركات ويظن فى نفسه أنه يعشق وان رسول صاحبة البيت لا يبطئ عنه ومنهم من يقال له العب الشطرنج فيأباه ويشتغل بالدندنة فيقع فى الفضول ومنهم من يتأمر على غلمان صاحب البيت ويرى أولاده ويظن أنه يدل عليهم ومنهم من يقول له صاحب البيت كل فيقول ما آكل الا أنا ورفيقى ومنهم من يسمع السائل على الباب فيتصدق عليه من مال صاحب البيت بغير اذنه أو يقول للسائل فتح الله عليك ومنهم من يدعو الناس لصاحب الوليمة بغير اذنه ويقلده ذلك المن وأكثر الناس واقع فى ذلك نسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا وأن يعيذنا من شرور أنفسنا بمنه وكرمه انه جواد كريم رؤف رحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

بطعام البطرك غيره لأجل بركته فكان اذا حضر طعام المطران أخرج هو ذلك الزاد الذى معه وانفرد بالأكل وحده فلم يزل قيصر سائرا بجنوده حتى بلغ أرض فارس فأكثر فيها القتل والسبى وتغوير المياه وقطع الأشجار وخراب القرى والحصون وهو مع ذلك يواصل السير ليستولى على دار ملك سابور قبل أن يشعروا فيملكوا عليهم رجالا منهم ولم يكن للفرس همّ الا الفرار من بين يديه والاعتصام بالمعاقل والحصون فلم يزل قيصر على تلك الحال حتى بلغ مدينة سابور وقرار ملكه فأحاط بها ونصب عليها آلات الحصار ولم يكن عندها قوة ولا منعة فى دفعه أكثر من ضبط الأسوار والقتال عليها وكل ذلك فهمه سابور من كنايات الوزير فى محاضراته للمطران ولكن لم يسمع له كلمة من حين سجنه قيصر فى تلك الصورة فلما علم سابور ان قيصر قد ثقلت وطأته وأشرف على فتح البلد عيل صبره وساء ظنه ويئس من الحياة فلما جاءه الموكل بطعامه قال له ان هذه الجامعة قد نالت منى منالا أضعفت قوتى عن احتماله فان كنتم تريدون بقاء نفسى فنفسوا عنى منها واجعلوا بينها وبين يدى وعنقى خرقا من الحرير فجاء الموكل بالطعام الى المطران وأعلمه بالذى قاله سابور فسمعه الوزير وعلم ان سابور قد جزع وساء ظنه وفطن لما أراد سابور فلما جن الليل وجلس لمسامرة المطران قال له قد ذكرت الليلة حديثا عجيبا ما ذكرته منذ كذا وكذا وددت انى كنت حدثت به البطرك قبل سفرى فقال له المطران انى أرغب اليك أن تحدثنى الليلة أيها الراهب الحكيم فقال الوزير رحبا وكرامة ثم اندفع يحدثه رافعا صوته ليسمع سابور ويفهم الغرض ويستأنس فقال

الباب السادس والثلاثون فى العفو والحلم والصفح وكظم الغيظ والاعتذار وقبول المعذرة والعتاب وما أشبه ذلك

قد ندب الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم الى الصفح والعفو بقوله تعالى فاصفح الصفح الجميل قيل هو الرضا بلا عتب وقال تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وقال تعالى والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين وقال تعالى ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور وعن أنس ابن مالك رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت قصورا مشرفة على الجنة فقلت يا جبريل لمن هذه قال للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه لما بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليمن قال ما زال جبريل عليه السلام يوصينى بالعفو فلولا علمى بالله لظننت انه يوصينى بترك الحدود وقال الحسن بن أبى الحسن اذا كان يوم القيامة نادى مناد من كان له على الله أجر فليقم فلا يقوم الا العافون عن الناس وتلا قوله تعالى فمن عفا وأصلح فأجره على الله وقال على كرم الله وجهه أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة وكان المأمون رحمه الله تعالى يحب العفو ويؤثره ويقول لقد حبب الى العفو حتى انى أخاف أن لا أثاب عليه وكان يقول لو علم أهل الجرائم لذتى فى العفو لارتكبوها وقال لو علم الناس حبى للعفو لما تقربوا الى الا بالجنايات وقال على كرم الله وجهه اذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه وقال على رضى الله تعالى عنه أقيلوا ذوى المروآت عثراتهم فما يعثر منهم عاثر الا ويده بيد الله يرفعه وقال رضى الله عنه ان أول عوض الحليم عن حلمه أن الناس أنصار له على الجاهل وقال المنتصر لذة العفو يلحقها حمد العاقبة ولذة التشفى يلحقها ذم الندم وقال ابن المعتز لا تشن وجه العفو بالتقريع وقيل ما عفا عن الذنب من قرع به وقال رجل لرجل سبه اياك أعنى فقال له وعنك أعرض وكان الأحنف رحمه الله تعالى كثير العفو والحلم وكان يقول ما آذانى أحد الا أخذت فى أمره باحدى ثلاث ان كان فوقى عرفت له فضله وان كان مثلى تفضلت عليه وان كان دونى أكرمت نفسى عنه وكان مشهورا بين الناس بالحلم وبذلك ساد عشيرته وكان يقول وجدت الاحتمال أنصر لى من الرجال وقيل له ممن تعلمت الحلم فقال من قيس ابن عاصم كنا نختلف اليه فى الحلم كما نختلف الى الفقهاء فى الفقه ولقد حضرت عنده يوما وقد أتوه بأخ له قد قتل ابنه فجاؤا به مكتوفا فقال ذعرتم أخى أطلقوه واحملوا الى أم ولدى ديته فانها ليست من قومنا ثم أنشأ يقول

أقول للنفس تصبيرا وتعزية * احدى يدى أصابتنى ولم ترد
كلاهما خلف من فقد صاحبه * هذا أخى حين أدعوه وذا ولدى

وقيل من عادة الكريم اذا قدر غفر واذا رأى ذلة ستر وقالوا ليس من عادة الكرام سرعة الغضب والانتقام وقيل من انتقم فقد شفى غيظه وأخذ حقه فلم يجب شكره ولم يحمد فى العالمين ذكره والعرب تقول لا سودد مع الانتقام والذى يجب على العاقل اذا أمكنه الله تعالى أن لا يجعل العقوبة شيمته وان كان ولا بد من الانتقام فليرفق فى انتقامه الا ان يكون حدا من حدود الله تعالى وقال المنصور لجان عجز عن العذر ما هذا الوجوم وعهدى بك خطيبا لسنا فقال يا أمير المؤمنين ليس هذا موقف مباهاة ولكنه موقف توبة والتوبة بالاستكانة والخضوع فرق له وعفا عنه وسعى الى المنصور برجل من ولد الاشتر النخعى ذكر له عنه أنه يميل الى بنى على والتعصب لهم فأمر باحضاره فلما مثل بين يديه قال يا أمير المؤمنين ذنبى أعظم من نقمتك وعفوك أعظم من ذنبى ثم قال

فهبنى مسيأ كالذى قلت ظالما * فعفوا جميلا كى يكون لك الفضل
فان لم أكن للعفو منك لسوء ما * أتيت به أهلا فانت له أهل

فعفا عنه وأمر له بصلة وأحضر الى المأمون رجل قد أذنب ذنبا فقال له أنت الذى فعلت كذا وكذا قال نعم يا أمير المؤمنين أنا ذاك الذى أسرف على نفسه واتكل على عفوك فعفا عنه وخلى سبيله * واحضر الى الهادى رجل من أصحاب عبد الله بن مالك فوبخه على ذنب فقال يا أمير المؤمنين ان اقرارى يلزمنى ذنبا لم أفعله ويلحق بى جرما لم أقف عليه وانكارى رد عليك ومعارضة لك ولكنى أقول

فان كنت تبغى بالعقاب تشفيا * فلا تزهدن عند التجاوز فى الأجر

اعلم أيها المطران انه كان ببلاد نافتى وفتاة ليس فى زمانهما أحسن منهما اسم الفتى عين أهله واسم الفتاة سيدة الناس وكانا زوجين مؤتلفين لا يبتغى أحدهما بالآخر بدلا ثم ان عين أهله جلس يوما مع أصحابه فتذاكروا النساء الى أن ذكر أحدهم امرأة أطنب فى وصفها وبالغ وذكر أن اسمها سيدة الذهب فوقع فى قلب عين أهله حبها فسأل الواصف عن منزلها فذكر انها ببلد بالقرب من بلده ففكر عين أهله فى أمرها وخامره حبها فانطلق الى البلد التى هى ساكنة بها وسأل عن منزلها فعرفه ولم يزل يتردد الى بابها حتى رآها فرأى منظرا حسنا ولكن لم تكن بأحسن من امرأته بل ضرورات النفس حب التنقل فى الأحوال ولازم عين أهله المعاودة الى منزل سيدة الذهب حتى فطن له بعلها وكان جافيا غليظ الطبع شديد البطش يسمى الذئب فرصد عين أهله حتى مر به فلما رآه وثب عليه وقتل فرسه ومزق ثيابه واستعان بجماعته عليه فحملوه الى داخل دار الذئب وربطوه الى سارية فى الدار ووكل به عجوزا مقطوعة اليد جدعاء عوراء شوهاء فلما جن عليه الليل أوقدت تلك العجوز النار بالقرب منه وجعلت تصطلى فذكر عين أهله ما كان فيه من السلامة والعافية والرفاهية والعز فبكى بكاء شديدا فاقبلت عليه العجوز وقالت له ما ذنبك الذى أوجب هذا فقال عين أهله ما علمت لى ذنبا فقالت العجوز هكذا قال الفرس للخنزير وكذب فقال عين أهله للعجوز وما الذى كذب فيه الفرس عند الخنزير فقالت له العجوز ذكروا ان فرسا كان لاحد الشجعان فكان يبالغ فى اكرامه ويحسن اليه ويعده لمهماته ولا يصبر عنه ساعة وكان يخرج به فى

فقال لله درك من معتذر بحق أو باطل ما أمضى لسانك وأثبت جنانك وعفا عنه وخلى سبيله وركب يوما عمرو بن العاص رضي الله عنه بغلة له شهباء ومر على قوم فقال بعضهم من يقوم للامير فيسأله عن أمه وله عشرة آلاف فقال واحد منهم أنا فقام وأخذ بعنان بغلته وقال أصلح الله الامير أنت أكرم الناس خيلا فلم ركبت دابة اشهاب وجهها فقال انى لا أمل دابتى حتى تملنى ولا أمل رفيقى حتى يملنى فقال أصلح الله الأمير أما العاص فقد عرفناه وعلمنا شرفه فمن الام قال على الخبير سقطت أمى النابغة بنت حرملة ابن عزة سبتها رماح العرب فأتى بها سوق عكاظ فبيعت فاشتراها عبدالله بن جدعان ووهبها للعاص بن وائل فولدت وأنجبت فان كان قد جعل لك جعل فارجع وخذه وأرسل عنان الدابة وقيل ان أمه كانت بغيا عند عبدالله بن جدعان فوطئها فى طهر واحد أبولهب وأمية بن خلف وأبوسفيان بن حرب والعاص بن وائل فولدت عمرا فادعاه كلهم فحكمت فيه أمه فقالت هو للعاص لان العاص هو الذى كان ينفق عليها وقالوا كان أشبه بأبى سفيان * وكان الواثق يتشبه بالمأمون فى أخلاقه وحلمه وكان يقال له المأمون الصغير نقل عنه انه دخلت عليه ابنة مروان بن محمد فقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين فقال لست به فقالت السلام عليك أيها الأمير فقال لها وعليك السلام ورحمة الله وبركاته فقالت ليسعنا عدلكم فقال اذا لا يبقى على وجه الأرض منكم أحد لانكم حاربتم على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه ومنعتم حقه وسممتم الحسن رضى الله عنه ونقضتم شرطه وقتلتم الحسين رضى الله عنه وسبيتم أهله ولعنتم على بن أبى طالب رضى الله عنه على منابركم وضربتم على بن عبدالله ظلما بسياطكم فعدلنا لا يبقى منكم أحدا فقالت فليسعنا عفوكم قال أما هذا فنعم وأمر برد أموالها عليها وبالغ فى الاحسان اليها * وكان معاوية رضى الله عنه يعرف بالحلم وله فيه أخبار مشهورة وآثار مذكورة وكان يقول انى لآنف أن يكون فى الأرض جهل لا يسعه حلمى وذنب لا يسعه عفوى وحاجة لا يسعها جودى وهذه مرؤة عالية الرتبة وقال له رجل يوما ما أشبه استك باست أمك فقال ذاك الذى أعجب أبا سفيان منها وكتب معاوية الى عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه يعتذر اليه من شئ جرى بينهما يقول من معاوية بن أبى سفيان الى عقيل بن أبى طالب أما بعد يا بنى عبد المطلب فانتم والله فروع قصى ولباب عبد مناف وصفوة هاشم فأين أخلاقكم الراسية وعقولكم الكاسية وقد والله أساء أمير المؤمنين ما كان جرى ولن يعود لمثله الى أن يغيب فى الثرى فكتب اليه عقيل يقول

صدقت وقلت حقا غير أنى * أرى أن لا أراك ولا ترانى
ولست أقول سوأ فى صديقى * ولكنى أصد اذا جفانى

فركب اليه معاوية رضى الله عنه وناشده فى الصفح عنه واستعطفه حتى رجع ﴿وحكى﴾ عنه رضى الله عنه انه لما ولى الخلافة وانتظمت اليه الامور وامتلأت منه الصدور وأذعن لأمره الجمهور وساعده فى مراده القدر المقدور استحضر ليلة خواص أصحابه وذاكرهم وقائع أيام صفين ومن كان يتولى كبر الكريهة من المعروفين فانهمكوا فى القول الصحيح والمريض وآل حديثهم الى من كان يجتهد فى ايقاد نار الحرب عليهم بزيادة التحريض فقالوا امرأة من أهل الكوفة تسمى الزرقاء بنت عدى كانت تتعمد الوقوف بين الصفوف وترفع صوتها صارخة يا أصحاب على تسمعهم كلاما كالصوارم مستحثة لهم بقول لو سمعه الجبان لقاتل والمدبر لأقبل والمسالم لحارب والفار لكر والمتزلزل لاستقر فقال لهم معاوية رضى الله عنه أيكم يحفظ كلامها فقالوا كلنا نحفظه قال فما تشيرون على فيها قالوا نشير بقتلها فانها أهل لذلك فقال لهم معاوية رضى الله عنه بئسما أشرتم به وقبحا ما قلتم أيحسن أن يشتهر عنى أننى بعد ما ظفرت وقدرت قتلت امرأة قد وفت لصاحبها انى اذا للئيم لا والله لا فعلت ذلك أبدا ثم دعا بكاتبه فكتب كتابا الى واليه بالكوفة أن أنفذ الى الزرقاء بنت عدى مع نفر من عشيرتها وفرسان من قومها ومهد لها وطاء لينا ومركبا ذلولا فلما ورد عليه الكتاب ركب اليها وقرأه عليها فقالت بعد قراءة الكتاب ما أنا بزائغة عن الطاعة فحملها فى هودج وجعل غشاءه خزا مبطنا ثم أحسن صحبتها فلما قدمت على معاوية قال لها مرحبا وأهلا خير مقدم قدمه وافد كيف حالك يا خالة وكيف رأيت سيرك قالت خير مسير فقال هل تعلمين لم بعثت اليك قالت لا يعلم الغيب الا الله سبحانه وتعالى قال ألست راكبة الجمل الأحمر يوم صفين وأنت بين الصفوف توقدين نار الحرب وتحرضين على القتال قالت نعم قال فما حملك على

صحبته كل يوم فيزيل لجامه وسرجه ويطيل رسنه فيتمرغ ويرعى فى كل مرج مخصب حتى يرتفع النهار فيرده وهو على يده ثم انه خرج يوما الى المرج راكبا ونزل عنه فلما استقرت قدماه على الارض نفر الفرس وجمح ومر يعدو بسرجه ولجامه فطلبه الفارس يومه كله فأعجزه وغاب عينه عند غروب الشمس فرجع الفارس الى أهله وقد يئس من الفرس ولما انقطع الطلب عن الفرس وأظلم عليه الليل جاع وطلب أن يرعى فمنعه اللجام ورام ان يتمرغ فمنعه السرج ورام أن يضطجع فمنعه الركاب فبات بشر فلما أصبح ذهب يبتغى فرجا مما هو فيه فاعترضه نهر فدخله ليقطعه الى جهته الأخرى فاذا هو بعيد القعر فسبح فيه وكان حزامه ولببه من جلد ما أتقن فى دبغه فلما خرج أصابت الشمس الحزام واللبب فيبسا واشتدا عليه فورم موضع اللبب والمحزم واشتد به الضرر وقوى به الجوع ومضت عليه أيام فتزايد ضعفه وعجز عن المشى فمر به خنزير فهم بقتله فرآه ضعيفا جدا فسأله عن حاله فاخبره بما هو فيه من اضرار اللجام واللبب والحزام وسأله أن يصنع معه معروفا ويخلصه مما هو فيه فسأله الخنزير عن الذنب الذى أوقعه فى تلك العقوبة فزعم الفرس أن لا ذنب له فقال له الخنزير كذبت ولو صدقت خلصتك مما أنت فيه ومن جهل ذنوبه وأصر عليها لم يرج فلاحه فحدثنى يا فرس عن ابتداء أمرك فيما نزل بك وعن حالك قبل ذلك فصدقه الفرس وأخبره بجميع أمره وكيف كان عند فارسه مكرما وكيف فارقه وما لقى فى طريقه الى حين اجتماعه بالخنزير فقال الخنزير قاتلك الله لقد كفرت النعم وأكثرت الذنوب منها خلافك لفارسك الذى بالغ فى الاحسان اليك وأعدك لمهماته ومنها كفرك احسانه ومنها

ذلك قالت يا أمير المؤمنين انه قدمات الرأس و بتر الذنب والدهر ذوغير ومن تفكر أبصر والأمر يحدث بعده الأمر فقال صدقت فهل تعرفين كلامك وتحفظين ماقلت قالت لا والله قال لله أبوك فلقد سمعتك تقولين أيها الناس ان المصباح لا يضىء فى الشمس وان الكواكب لا تضىء مع القمر وان البغل لا يسبق الفرس ولا يقطع الحديد الا بالحديد ألا من استرشد نا أرشدناه ومن سألنا أخبرناه ان الحق كان يطلب ضالة فاصابها فصبرا يامعشر المهاجرين والأنصار فكأنكم وقد التأم شمل الشتات وظهرت كلمة العدل وغلب الحق باطله فانه لا يستوى المحق والمبطل أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون فالنزال النزال والصبر الصبر ألا وان خضاب النساء الحناء وخضاب الرجال الدماء والصبر خير الأمور عاقبة ائتوا الحرب غير ناكصين فهذا يوم له مابعده يازرقاء أليس هذا قولك وتحريضك قالت لقد كان ذلك قال لقد شاركت عليا فى كل دم سفكه فقالت أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين وأدام سلامتك مثلك من يبشر بخير و يسر جليسه فقال معاوية أوقد سرك ذلك قالت نعم والله لقد سرنى قولك وأنى لى بتصديقه فقال لها معاوية والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب الى من حبكم له فى حياته فاذكرى حوائجك تقض فقالت يا أمير المؤمنين انى آليت على نفسى أن لا أسأل أحدا بعد على حاجة فقال قد أشار على بعض من عرفك بقتلك فقالت لؤم من المشير ولو أطعته لشاركته قال كلا بل نعفو عنك ونحسن اليك ونرعاك فقالت يا أمير المؤمنين كرم منك ومثلك من قدر فعفا وتجاوز عمن أساء وأعطى من غير مسئلة قال فأعطاها كسوة ودراهم وأقطعها ضيعة تغل لها فى كل سنة عشرة آلاف درهم وأعادها الى وطنها سالمة وكتب الى والى الكوفة بالوصية بها و بعشيرتها وقيل كان لعبد الله بن الزبير رضى الله عنهما أرض وكان له فيها عبيد يعملون فيها والى جانبها أرض لمعاوية وفيها أيضا عبيد يعملون فيها فدخل عبيد معاوية فى أرض عبد الله بن الزبير فكتب عبد الله كتابا الى معاوية يقول له فيه أما بعد يامعاوية ان عبيدك قد دخلوا فى أرضى فانههم عن ذلك والا كان لى ولك شان والسلام فلما وقف معاوية على كتابه وقرأه دفعه الى ولده يزيد فلما قرأه قال له معاوية يابنى ماترى قال أرى أن تبعث اليه جيشا يكون أوله عنده وآخره عندك يأتونك برأسه فقال بل غير ذلك خير منه يابنى ثم أخذ ورقة وكتب فيها جواب كتاب عبد الله بن الزبير يقول فيه أما بعد فقد وقفت على كتاب ولد حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وساءنى ماساءه والدنيا بأسرها هينة عندى فى جنب رضاه نزلت عن أرضى لك فاضفها الى أرضك بما فيها من العبيد والأموال والسلام فلما وقف عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما على كتاب معاوية رضى الله عنه كتب اليه قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ولا أعدمه الرأى الذى أحله من قريش هذا المحل والسلام فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله بن الزبير وقرأه رمى به الى ابنه يزيد فلما قرأه تهلل وجهه وأسفر فقال أبوه يابنى من عفا ساد ومن حلم عظم ومن تجاوز استمال اليه القلوب فاذا ابتليت بشىء من هذه الأدواء فداوه بمثل هذا الدواء * ولما دخل الفيل دمشق واجتمع الناس لرؤيته صعد معاوية فى مكان مرتفع ينظر اليه فبينما هو كذلك اذ نظر فى بعض الحجر من قصره رجلا مع بعض حرمه فاتى الحجرة ودق الباب فلم يكن من فتحه بد فوقعت عينه على الرجل فقال له ياهذا فى قصرى وتحت جناحى تهتك حرمتى وأنت فى قبضتى ما حملك على هذا قال فبهت الرجل وقال حلمك أوقعنى فقال له معاوية فان عفوت عنك تسترها على قال نعم فعفا عنه وخلى سبيله وهذا من الحلم الواسع أن يطلب الستر من الجانى وهو عروض قول الشاعر

اذا مرضتم أتينا كم نعودكم * وتذنبون فنأتيكم ونعتذر

﴿وحكى﴾ عن الربيع مولى الخليفة المنصور قال مارأيت رجلا أربط جاشا وأثبت جنانا من رجل سعى به الى المنصور أن عنده ودائع وأموالا لبنى أمية فامرنى باحضاره فاحضرته اليه فقال له المنصور قد رفع الينا خبر الودائع والأموال التى عندك لبنى أمية فاخرج لنا منها وأحضرها ولا تكتم منها شيأ فقال يا أمير المؤمنين أنت وارث بنى أمية قال لا قال فوصى لهم فى أموالهم ورباعهم قال لا قال فلم تسئلنى عما فى يدى من ذلك قال فاطرق المنصور وتفكر ساعة ثم رفع رأسه وقال ان بنى أمية ظلموا المسلمين فيها وأنا وكيل المسلمين فى حقوقهم وأريد أن آخذ ما ظلموا المسلمين فيه فاجعله فى بيت أموالهم فقال يا أمير المؤمنين فتحتاج الى اقامة بينة عادلة أن مافى يدى لبنى أمية مما خانوه وظلموه فان بنى أمية قد كانت لهم أموال غير أموال المسلمين قال فاطرق

بعد يلك على ما ليس لك وهو السرج واللجام ومنها اساءتك لنفسك بتعاطيك التوحش الذى لست من أهله ولا لك عليه مقدرة ومنها اصرارك على ذنبك وكنت قادرا على العود الى فارسك قبل أن يوهنك اللجام والجوع والحزام واللبب بالالم فقال الفرس للخنزير قد عرفت ذنبى فانطلق عنى ودعنى فانى أستحق أضعاف ما أنا فيه فقال الخنزير بعد ان عرفت وعدت على نفسك باللوم واخترت لها العقوبة على جهلها تعين الشروع فى خلاصك ثم ان الخنزير قطع عذار اللجام فسقط وقطع الحزام فتنفس عن الفرس قال فلما سمع عين أهله ماخاطبته به العجوز قال لها صدقت فيما نطقت قد أدبتينى فتأدبت ثم أعلمها بخبره ثم رغبها فى أن تمن عليه بالخلاص كما فعل الخنزير بالفرس فقالت العجوز الذى سألتنى لا يمكننى فعله الآن ولعلى أجد لك فرجا ومخرجا عن قريب فعليك بالصبر وأمسكت العجوز عن مخاطبته قال فلما انتهى الوزير فى حديثه الى هذه الغاية أقبل على المطران وقال انى أحس فى أعضائى فتورا وفى رأسى صداعا ولم أقدر الليلة على اتمام الحديث ولعلى أكون الليلة القابلة نشيطا الى ذلك فنهض الى مضجعه فجعل سابور يتأمل حديث الوزير و يتأمل الامثال التى ضربها له ودسها فى المسامرة ففهم أن الوزير كنى عن سابور بعين أهله وكنى عن مملكته بسيدة الناس وكنى عن بلاد الروم بسيدة الذهب وكنى عن قيصر بالذئب الذى ذكر أنه بعل سيدة الذهب وكنى عن طموح نفس سابور الى مملكة الروم بطموح نفس عين أهله الى رؤية سيدة الذهب وكنى عن أخذ قيصر له بقبض الذئب على عين أهله وكنى عن نفسه وجانه وعجزه بالعجوز القطعاء وعرفه أنه

المنصور ساعة ثم رفع رأسه وقال يا ربيع ما أرى الشيخ الا قد صدق وما يجب عليه شئ وما يسعنا الا أن نعفو عما قيل عنه ثم قال هل لك من حاجة قال نعم حاجتي يا أمير المؤمنين أن تجمع بيني و بين من سعى في اليك فوالله الذى لا اله الا هو ما في يدى لبنى أمية مال ولا وديعة ولكننى لما مثلت بين يديك وسألتنى عما سألتنى عنه قابلت بين هذا القول الذى ذكرته الآن و بين ذلك القول الذى ذكرته أولا فرأيت ذلك أقرب الى الخلاص والنجاة فقال يا ربيع اجمع بينه و بين من سعى به فجمعت بينهما فلما رآه قال هذا غلامى اختلس لى ثلاثة آلاف دينار من مالى وأبق منى وخاف من طلبي له فسعى بى عند أمير المؤمنين قال فشدد المنصور على الغلام وخوفه فأقر بانه غلامه وانه أخذ المال الذى ذكره وسعى به كذبا عليه وخوفا من أن يقع فى يده فقال له المنصور سألتك أيها الشيخ أن تعفو عنه فقال قد عفوت عنه وأعتقته ووهبته الثلاثة آلاف التى أخذها وثلاثة آلاف أخرى ادفعها اليه فقال له المنصور ما على ما فعلت من مزيد قال بلى يا أمير المؤمنين ان هذا كله لقليل فى مقابلة كلامك وعفوك عنى ثم انصرف قال الربيع فكان المنصور يتعجب منه وكلما ذكره يقول ما رأيت مثل هذا الشيخ يا ربيع * وغضب الرشيد على حميد الطوسى فدعا له بالنطع والسيف فبكى فقال له ما يبكيك فقال والله يا أمير المؤمنين ما أفزع من الموت لانه لا بد منه وانما بكيت أسفا على خروجى من الدنيا وأمير المؤمنين ساخط على فضحك وعفا عنه وقال ان الكريم اذا خادعته انخدع * وأمر زياد بضرب عنق رجل فقال أيها الأمير ان لى بك حرمة قال وما هى قال ان أبى جارك بالبصرة قال ومن أبوك قال يا مولاى انى نسيت اسم نفسى فكيف لا أنسى اسم أبى فرد زياد كمه على فمه وضحك وعفا عنه * وأمر الحجاج بقتل رجل فقال أسألك بالذى أنت غدا بين يديه أذل موقفا منى بين يديك الا عفوت عنى فعفا عنه ولما ضرب الحجاج رقاب أصحاب ابن الاشعث أتى برجل من بنى تميم فقال والله يا حجاج لئن كنا أسأنا فى الذنب ما أحسنت فى العفو فقال الحجاج أف لهذه الجيف أما كان فيهم من يحسن الكلام مثل هذا وعفا عنه وخلى سبيله * وكان ابراهيم بن المهدى يقول والله ما عفا عنى المأمون تقربا الى الله تعالى ولا صلة للرحم ولكن له سوق فى العفو يكره أن تكسد بقتلى * وسئل الفضل عن الفتوة فقال الصفح عن عثرات الاخوان وفى بعض الكتب المنزلة ان كثرة العفو زيادة فى العمر وأصله قوله تعالى وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض وقال يزيد بن مزيد أرسل الى الرشيد ليلا يدعونى فأوجست منه خيفة فقال له أنت القائل أنا ركن الدولة والثائر لها والضارب أعناق بغاتها الا أم لك أى ركن وأى ثائر أنت قلت يا أمير المؤمنين ما قلت هذا انما قلت أنا عبد الدولة والثائر لها فاطرق وجعل ينحل غضبه عن وجهه ثم ضحك فقلت أحسن من هذا قولى

خلافة الله فى هرون ثابتة * وفى بنيه الى أن ينفخ الصور

فقال يا فضل اعطه مائتى ألف درهم قبل أن يصبح * وأمر مصعب بن الزبير بقتل رجل فقال ما أقبح بى أن أقوم يوم القيامة الى صورتك هذه الحسنة و وجهك هذا الذى يستضاء به فاتعلق بأطوافك وأقول أى رب سل مصعبا لم قتلنى فقال اطلقوه فلما أطلقوه قال أيها الأمير اجعل ما وهبت لى من حياتى فى خفض عيش قال قد أمرت لك بمائة ألف درهم فقال

أنا المذنب الخطاء والعفو واسع * ولو لم يكن ذنب لما عرف العفو

وتغيظ عبد الملك بن مروان على رجل فقال والله لئن أمكننى الله منه لأفعلن به كذا وكذا فلما صار بين يديه قال له رجاء بن حيوة يا أمير المؤمنين قد صنع الله ما أحببت فاصنع ما أحب الله فعفا عنه وأمر له بصلة وقال الحسن ان أفضل رداء تردى به الانسان الحلم وهو والله عليك أحسن من برد الحبر وفيه قال أبو تمام

رقيق حواشى الحلم لو أن حلمه * بكفيك ما ماريت فى أنه برد

ويقال الحليم سليم والسفيه كليم وقال محمد بن عجلان ما شئ أشد على الشيطان من عالم معه حلم ان تكلم تكلم بعلم وان سكت سكت بحلم يقول الشيطان سكوته أشد على من كلامه (شعر)

اذا كنت تبغى شيمة غير شيمة * طبعت عليها لم تطعك الضرائب

وعن على بن الحسين رضى الله تعالى عنهما أقرب ما يكون العبد من غضب الله اذا غضب * وفى التوراة اذكرنى اذا غضبت أذكرك اذا غضبت فلا أمحقك فيما أمحق واذا ظلمت فاصبر وارض بنصرتى فان نصرتى لك خير من نصرتك لنفسك * وكان ابن عون اذا غضب على انسان قال له بارك الله فيك وكانت له ناقة كريمة فضربها

لا يمكنه تخليصه فى هذا الوقت كما قررت العجوز لعين أهله وأنه شارع فى خلاصه فاستروح سابور بريح الفرج فسكنت نفسه ووثق بوزيره فلما كانت الليلة القابلة وتعشى المطران وأخذ مقعده للمسامرة قال الوزير أيها الحكيم الراهب أخبرنى عن ما كان من أمر عين أهله وهل خلصته العجوز من وثاق الذئب أم لا فقال الوزير سمعا وطاعة فشرع فى حديثه وقال ان عين أهله أقام على حالته عدة أيام وكل يوم يدخل عليه الذئب ويهدده بالقتل ويزيده قيدا ثم ان العجوز جاءته فى بعض الليالى وأضرمت لها بالقرب منه نارا وجلست تصطلى ثم أقبلت على عين أهله وقالت له ساعدنى على خلاصك بالصبر فقال لها عين أهله هان على الطليق ما لقى الاسير فقالت العجوز حداثة سنك قصرت فهمك عن ادراك الحقائق أفتسمع حديثا لك فيه سلوة قال نعم فقالت العجوز ذكروا أن بعض التجار كان له ولد وكان مشغوفا به فاتحفه بعض معارفه بخشف غزال فعلق قلب الصبى بذلك الخشف الصغير فكان لا يفارقه وجعلوا فى جيده حليا نفيسا وربطوا له شاة ترضعه حتى اشتد ونجم قرناه فاعجبه بريقهما وسوادهما وقال لاهله ما هذا الذى ظهر فى رأس الخشف قالوا قرناه وقالوا له انهما سيكبران ويطولان فقال الغلام لابيه انى أحب أن أرى غزالا كبيرا له قرنان كاملان فامر أبوه بعض الصيادين أن يصيد له غزالا كبيرا فاحضر له غزالا قد استكمل قوة ونموا فاعجب الغلام وحلى جيده أيضا فتأنس الغزال الكبير بالخشف الصغير للمجانسة الطبيعية فقال الخشف للغزال ما كنت أظن لى فى الأرض شكلا قبل أن أراك فقال له الغزال ان أشكالك كثيرة

الغلام فاندر عينها فقالوا ان غضب ابن عون فانه يغضب اليوم فقال للغلام غفر الله لك وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أى شئ أشد قال غضب الله قال فما يباعدنى من غضب الله قال أن لا تغضب ويقال من أطاع الغضب أضاع الأرب قال أبو العتاهية

ولم أر فى الاعداء حين اختبرتهم * عدوا لعقل المرء أعدى من الغضب

وقال أبو هريرة رضى الله عنه ليس الشديد بالصرعة انما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب وقال ابن مسعود رضى الله عنه كفى بالمرء اثما أن يقال له اتق الله فيغضب ويقول عليك نفسك * وكتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه الى عامل من عماله أن لا تعاقب عند غضبك واذا غضبت على رجل فاحبسه فاذا سكن غضبك فاخرجه فعاقبه على قدر ذنبه ولا تجاوز به خمسة عشر سوطا* وقيل لابن المبارك رحمه الله تعالى اجمع لنا حسن الخلق فى كلمة واحدة قال ترك الغضب * وقال المعتمر بن سليمان كان رجل ممن كان قبلكم يغضب ويشتد غضبه فكتب ثلاث صحائف فاعطى كل صحيفة رجلا وقال للاول اذا اشتد غضبى فقم الى بهذه الصحيفة وناولنيها وقال للثانى اذا سكن بعض غضبى فناولنيها وقال للثالث اذا ذهب غضبى فناولنيها وكان فى الاولى اقصر فما أنت وهذا الغضب انك لست باله انما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضا وفى الثانية ارحم من فى الارض يرحمك من فى السماء وفى الثالثة احمل عباد الله على كتاب الله فانه لا يصلحهم الا ذلك روى انه أنوشروان وكان الشعبى أولع شئ بهذا البيت

ليست الاحلام فى حال الرضا * انما الاحلام فى حال الغضب

وعن معاذ بن جبل عن أنس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم من كظم غيظه وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره فى أى الحور شاء وروى ملأه الله أمنا وايمانا * وقال ابن السماك أذنب غلام لامرأة من قريش فاخذت السوط ومضت خلفه حتى اذا قاربته رمت بالسوط وقالت ما تركت التقوى أحدا يشفى غيظه * وقال أبو ذر لغلامه لم أرسلت الشاة على علف الفرس قال أردت أن أغيظك قال لاجمعن مع الغيظ أجرا انت حر لوجه الله تعالى واستأذن رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذن لهم فقالوا السام عليك يا محمد فقالت عائشة رضى الله تعالى عنها بل السام عليكم واللعنة فقال يا عائشة ان الله يحب الرفق فى الأمر كله فقالت ألم تسمع ما قالوا قال قد قلت وعليكم * ورفع الى عبد الملك بن مروان اعرابى يقال له حمزة سرق وقامت عليه البينة فهم عبد الملك بقطع يده فكتب اليه حمزة من السجن يقول (شعر)

يدى يا أمير المؤمنين أعيذها * بعفوك ان تلقى مقاما يشينها

فلا خير فى الدنيا وكانت خبيثة * اذا ما شمال فارقتها يمينها

قال فابى عبد الملك الا قطعه فدخلت عليه أم حمزة وقالت يا أمير المؤمنين بنى وكاسبى وواجدى فقال لها عبد الملك بئس الكاسب لك هذا حد من حدود الله تعالى فقالت يا أمير المؤمنين فاجعله أحد ذنوبك التى تستغفر الله منها فقال عبد الملك ادفعوه اليها وخلى سبيله* (شعر)

اذا ما طاش حلمك عن عدو * وهان عليك هجران الصديق

فلست اذا أخا عفو وصفح * ولا لاخ على عهد وثيق

اذا زل الرفيق وأنت ممن * بلا رفق بقيت بلا رفيق

اذا أنت اتخذت أخا جديدا * لما أنكرت من خلق عتيق

فما تدرى لعلك مستجير * من الرمضاء فر الى الحريق

فكم من سالك لطريق أمن * أتاه ما يحاذر فى الطريق

وشتم رجل رجلا فقال له يا هذا لا تغرق فى شتمنا ودع للصلح موضعا فانى أبيت مشاتمة الرجال صغيرا فلن أحييها كبيرا وانى لا أكافئ من عصى الله فى بأكثر من أن أطيع الله فيه (وحكى) عن جعفر الصادق رضى الله عنه أن غلاما له وقف يصب الماء على يديه فوقع الابريق من يد الغلام فى الطست فطار الرشاش فى وجهه فنظر جعفر اليه نظر مغضب فقال يا مولاى والكاظمين الغيظ قال قد كظمت غيظى قال والعافين عن الناس قال قد عفوت عنك قال والله يحب المحسنين قال اذهب فانت حر لوجه الله تعالى وقيل لما قدم نصر بن منيع بين يدى الخليفة وكان قد أمر بضرب عنقه قال يا أمير المؤمنين اسمع منى كلمات أقولها قال قل فانشأ يقول

زعموا بأن الصقر صادف مرة * عصفور بر ساقه التقدير

فتكلم العصفور تحت جناحه

فقال الخشف وأين هى فاخبره الغزال بتوحشها وانفرادها فى فلوات الأرض وتناسلها فارتاح الخشف لذلك وتمنى أن يراها فقال له الغزال هذه أمنية لا خير لك فيها لانك نشأت فى رفاهية من العيش ولو تحصلت على ما تمنيت لندمت فقال الخشف للغزال لا بد من اللحاق باشكالى فلما رأى الغزال أن الخشف غير راجع لم يجد بدا من قضاء اربه لحرمة الألفة فرصدا وقتا فابلا وخرجا معا حتى لحقا بالصحراء فلما عاينها الخشف فرح ومرح ومر يعدو ولا يلتفت الى ما وراءه فسقط فى اخدود ضيق قد قطعه السيل فانتظر أن يأتيه الغزال فيخلصه فلم يأته وأما ولد التاجر فانه تنكد لفقد الخشف والغزال وأشفق أبوه عليه فاستدعى كل من يعانى الصيد فعرفهم القصة وكلفهم طلب الخشف والغزال ووعدهم بالمكافأة على ذلك وركب التاجر معهم وفرق أتباعه على أبواب المدينة ينتظرون من يأتى من الصيادين وانطلق هو وعبيده حتى دخلوا الصحراء فرأوا على بعد رجلا منكبا على شئ بين يديه فاسرعوا نحوه فرأوا صيادا قد أوثق غزالا كبيرا وقد عزم على ذبحه فتأمله التاجر فاذا هو الغزال الكبير الذى لولده فخلصه من الصياد وأمر عبيده ففتشوه فوجدوا معه الحلى الذى كان على الغزال فسأله كيف ظفر به وأين وجده فقال انى بت فى هذه الصحراء ونصبت شركا ومكثت قريبا منه فلما أصبحت مر على الغزال ومعه خشف يعدو ويمرح فى جهة غير جهة الشرك وجاء هذا الغزال يمشى حتى حصل فيه فقنصته وقصدت به المدينة فلما بلغت هذا الموضع ظهر لى انى مخطئ فى ادخال هذا الظبى الى المدينة حيا لعلى أنه اذا روى حيا طولبت بما كان عليه من الحلى فرأيت ان اذبحه وادخل به لحما فهذا

والصقر منقض عليه يطير * انى لمثلك لا أتم لقمة * ولئن شويت فانى لحقير
فتهاون الصقر المدل بصيده * كرما وأفلت ذلك العصفور

قال فعفا عنه وخلى سبيله (قال الشاعر)

أقرر بذنبك ثم اطلب تجاوزهم * عنه فان جحود الذنب ذنبان

(قال بعضهم) يستوجب العفو الفتى اذا اعترف * وتاب عما قد جناه واقترف
لقوله قل للذين كفروا * ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

(وقال آخر) اذا ذكرت أياديك التى سلفت * مع قبح فعلى وزلاتى ومجترمى
أكاد أقتل نفسى ثم يدركنى * علمى بانك مجبول على الكرم

وروى ان عمر رضى الله عنه رأى سكران فاراد أن يأخذه ليعزره فشتمه السكران فرجع عنه فقيل له يا أمير المؤمنين لما شتمك تركته قال انما تركته لانه أغضبنى فلو عزرته لكنت قد انتصرت لنفسى فلا أحب أن أضرب مسلما لحمية نفسى * وغضب المنصور على رجل من الكتاب فامر بضرب عنقه فانشأ يقول

وانا الكاتبون وان أسأنا * فهبنا الكرام الكاتبينا

فعفا عنه وخلى سبيله وأكرمه * وقال الرشيد لاعرابى بم بلغ فيكم هشام بن عروة هذه المنزلة قال بحلمه عن سفيهنا وعفوه عن مسيئنا وحمله عن ضعيفنا لا منان اذا وهب ولا حقود اذا غضب رحب الجنان سمح البنان ماضى اللسان قال فاومأ الرشيد الى كاب صيد كان بين يديه وقال والله لو كانت هذه فى هذا الكلب لاستحق بها السودد * وقيل لمعن بن زائدة المؤاخذة بالذنب من السودد قال لا ولكن أحسن ما يكون الصفح عمن عظم جرمه وقل شفعاؤه ولم يجد ناصرا * وقال محمود الوراق

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب * وان عظمت منه على الجرائم
فما الناس الا واحد من ثلاثة * شريف ومشروف ومثل مقاوم
فاما الذى فوقى فاعرف قدره * وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذى دونى فان قال صنت عن * اجابته نفسى وان لام لائم
وأما الذى مثلى فان ازل أوهفا * تفضلت ان الحر بالفضل حاكم

وقال الاحنف بن قيس لابنه يا بنى اذا أردت أن تؤاخى رجلا فاغضبه فان أنصفك والا فاحذره (قال الشاعر)

اذا كنت مختصا لنفسك صاحبا * فمن قبل أن تلقاه بالود اغضبه
فان كان فى حال القطيعة منصفا * والا فقد جربته فتجنبه

ومن أمثال العرب احلم تسد (قال الشاعر)

لن يبلغ المجد أقوام وان شرفوا * حتى يذلوا وان عزوا لاقوام
ويشتموا فترى الالوان مسفرة * لا صفح ذل ولكن صفح اكرام

(وقال آخر) وجهل رددناه بفضل حلومنا * ولو اننا شئنا رددناه بالجهل

وقال الأحنف اياكم ورأى الاوغاد قالوا وما رأى الاوغاد قال الذين يرون الصفح والعفو عارا * وقال رجل لابى بكر الصديق رضى الله عنه لاسبنك سبا يدخل معك قبرك فقال معك والله يدخل لا معى وقيل ان الاحنف سبه رجل وهو يماشيه فى الطريق فلما قرب من المنزل وقف الاحنف وقال له يا هذا ان كان قد بقى معك شئ فهات وقله ههنا فانى أخاف أن يسمعك فتيان الحى فيؤذوك ونحن لا نحب الانتصار لانفسنا وقال لقمان لابنه يا بنى ثلاثة لا يعرفون الا عند ثلاثة لا يعرف الحليم الا عند الغضب ولا الشجاع الا عند الحرب ولا أخوك الا عند الحاجة اليه ومن أشعر بيت قيل فى الحلم قول كعب بن زهير

اذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنا * أصبت حليما أو أصابك جاهل

(وقال آخر) واذا بغى باغ عليك بجهله * فاقتله بالمعروف لا بالمنكر
(وقال آخر) قل ما بدا لك من صدق ومن كذب * حلمى أصم وأذنى غير صماء

و يروى فى بعض الاخبار أن ملكا من الملوك أمر أن يصنع له طعام وأحضر قوما من خاصته فلما مد السماط

خبرى فقال له التاجر لقد جنى عليك طمعك الخيبة فاذا عليك لو اطلقته وخلصت ما كان عليه من الحلى ثم ان التاجر ارسل الغزال الى ولده مع احد عبيده وقال للصياد ارجع معى فأرنى الجهة التى رأيت الخشف سعى نحوها فرجع به الى تلك الجهة فسمع من قريب صوته فصاح به التاجر فعرف الخشف صوته فصوت فسمع التاجر الصوت فأدركه فاذا هو فى ذلك الاخدود ملقى فأخذوه ووهب التاجر للصياد ما رضى به وصرفه ورجع التاجر بالخشف الى ولده فكملت مسرة الغلام وجعل الخشف يتجنب الغزال الكبير اذا رآه ولا يألفه فتنغصت مسرة الغلام لذلك وجهد اهله بكل حيلة ان يجمعوا بين الخشف والغزال فلم يقدروا على ذلك فبينما الخشف نائم فى كناسة اذ دخل عليه الغزال فأيقظه وعاتبه على نفاره منه فقال الخشف اما انت الذى غدرت وقد علمت احتياجى فى غربتى الى معاونتك فقال له والله ما اخرنى عن ذلك الا وقوعى فى شرك الصياد وقص عليه القصة فقبل عذره وعاد الى الالفة كما كانا فلما سمع عين اهله خطاب العجوز فهم كنايتها عن عجزها فى تخليصه امسك عن خطابها قيل فلما انتهى وزير سابور من حديثه الى هذا الحديث سكت فقال له المطران ايها الحكيم الراهب ما هذا السكوت فقال الوزير قد عاودنى ذلك الفتور الذى أجده فى اعطائى فقال المطران لا تفعل فان ذلك يشق على فقال الوزير نعم أفعل ذلك طلبا لمرضاتك ثم اندفع بحديثه قال وبات عين أهله تلك الليلة فى أضيق الأحوال ولما أصبح دخل عليه الذئب فنال منه وهدده بالقتل وخرج من عنده فجعل يعلل نفسه بقية نهاره ويمنيها بالفرج فلما أقبل عليه الليل استوحش وانتظر أن تجلس اليه العجوز

أقبل الخادم وعلى كفه صحن فيه طعام فلما قرب من الملك أدركته الهيبة فعثر فوقع من مرق الصحن شئ يسير على طرف ثوب الملك فأمر بضرب عنقه فلما رأى الخادم العزيمة على ذلك عمد بالصحن فصب جميع ما كان فيه على رأس الملك فقال له ويحك ماهذا فقال أيها الملك انما صنعت هذا شحا على عرضك وغيرة عليك لئلا يقول الناس اذا سمعوا ذنبي الذى تقتلني به قتله فى ذنب خفيف لم يضره وأخطأ فيه العبد ولم يقصده فتنسب الى الظلم والجور فصنعت هذا الذنب العظيم لتعذر فى قتلى وترفع عنك الملامة قال فأطرق الملك مليا ثم رفع رأسه اليه وقال ياقبيح الفعل ياحسن الاعتذار قد وهبنا قبيح فعلك وعظيم ذنبك لحسن اعتذارك اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى ﴿وحكى﴾ عن أمير المؤمنين المأمون وهو المشهود له بالاتفاق على علمه والمشهور فى الآفاق بعفوه وحلمه انه لما خرج عمه ابراهيم بن المهدى عليه وبايعه العباسيون بالخلافة ببغداد وخلعوا المأمون وكان المأمون اذ ذاك بخراسان فلما بلغه الخبر قصد العراق فلما بلغ بغداد اختفى ابراهيم بن المهدى وعاد العباسيون وغيرهم الى طاعة المأمون ولم يزل المأمون متطلبا لابراهيم حتى أخذه وهو متنقب مع نسوة فحبس ثم أحضر حتى وقف بين يدى المأمون فقال السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته فقال المأمون لا سلم الله عليك ولا قرب دارك استغواك الشيطان حتى حدثتك نفسك بما تنقطع دونه الأوهام فقال له ابراهيم مهلا ياأمير المؤمنين فان ولى الثار محكم فى القصاص والعفو أقرب للتقوى ولك من رسول الله صلى الله عليه وسلم شرف القرابة وعدل السياسة وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب كما جعل كل ذى ذنب دونك فان أخذت فبحقك وان عفوت فبفضلك والفضل أولى بك ياأمير المؤمنين ثم قال هذه الابيات

ذنبي اليك عظيم * وأنت أعظم منه * فخذ بحقك أولا
فاصفح بعفوك عنه * ان لم أكن فى فعالى * من الكرام فكنه

فلما سمع المأمون كلامه وشعره ظهرت الدموع فى عينيه وقال ياابراهيم الندم توبة وعفو الله تعالى أعظم مما تحاول وأكثر مما تأمل ولقد حبب الى العفو حتى خفت أن لا أوجر عليه لاتثريب عليك اليوم ثم أمر بفك قيوده وادخاله الحمام وازالة شعثه وخلع عليه ورد أمواله جميعها اليه فقال فيه مخاطبا

رددت مالى ولم تبخل على به * وقبل ردك مالى قد حقنت دمى
فان جحدتك ما أوليت من كرم * انى لبالؤم أولى منك بالكرم

وكتب عبد الملك بن مروان الى الحجاج يأمره أن يبعث اليه برأس عباد بن أسلم البكرى فقال له عباد أيها الامير أنشدك الله لاتقتلني فوالله انى لاعول أربعا وعشرين امرأة مالهن كاسب غيرى فرق لهن واستحضرهن واذا واحدة منهن كالبدر فقال لها الحجاج ما أنت منه قالت أنا بنته فاسمع ياحجاج منى ما أقول ثم قالت

أحجاج اما أن تمن بتركه * علينا واما أن تقتلنا معا
أحجاج لا تفجع به ان قتلته * ثمانا وعشرا واثنتين وأربعا
أحجاج لا تترك عليه بناته * وخالاته يندبنه الدهر أجمعا

فبكى الحجاج ورق له واستوهبه من أمير المؤمنين عبد الملك وأمر له بصلة * ولما قدم عيينة بن حصن على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من النفر الذين يدنيهم عمر رضى الله عنه وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولا كانوا أو شبانا فقال عيينة لابن أخيه ياابن أخى لك وجه عند هذا الامير فاستأذن لى عليه فاستأذن فاذن له عمر فلما دخل قال هيه ياابن الخطاب فوالله ماتعطينا الجزل ولا تحكم فينا بالعدل فغضب عمر حتى هم أن يوقع به فقال له الحر ياأمير المؤمنين ان الله سبحانه وتعالى قال لنبيه عليه الصلاة والسلام خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وان هذا من الجاهلين فوالله ماجاوزها عمر رضى الله عنه حين تلاها عليه وكان وقافا عند كتاب الله تعالى ﴿وحكى﴾ أن رجلا زور ورقة عن خط الفضل بن الربيع تتضمن أنه أطلق له ألف دينار ثم جاء بها الى وكيل الفضل فلما وقف الوكيل عليها لم يشك أنها خط الفضل فشرع فى أن يزن له الالف دينار واذا بالفضل قد حضر ليتحدث مع وكيله فى تلك الساعة فى أمر مهم فلما جلس أخبره الوكيل بامر الرجل وأوقفه على الورقة فنظر الفضل فيها ثم نظر فى وجه الرجل فرآه كاد يموت من الوجل والخجل فاطرق الفضل بوجهه ثم قال للوكيل أتدرى لم أتيتك فى هذا الوقت قال لا قال جئت لاستنهضك حتى تعجل لهذا الرجل

وتمادت نه فلم تفعل فايقن بقتله فى تلك الليلة فأقبل على البكاء حتى مضى جانب من الليل ثم قال للعجوز لم أحظ فى هذه الليلة بمؤانستك فقالت له قد جرحت قلبى لقولك لى هان على الطليق مالقى الاسير ولو اعتبرت باطن حالى لعلمت أن أسرى أشد من أسرك فاستمع لى أحدثك * اعلم أيها الفتى أنى كنت زوجة لبعض الفرسان وكان لى محبا فكنت معه فى أرغد عيش وولدت له أولادا كثيرة فغضب الملك على زوجى لامر كان منه فقتله وقتل أولادى الذكور وباعنى أنا وبناتى فاشترانى هذا الفارس الذى عدا عليك واحتملنى الى هذه البلدة وأساء الى وكلفنى من العمل مالا أطيق ولى معه على هذه الحالة سبع سنين ثم فررت منه فظفر بى فقطع يدى وعاود عسفى وضربى وقد عزمت على تخليصك الليلة وما أشك أنه يقتلنى وجل قصدى ذلك لاجل الراحة مما أنا فيه ولاجل ذلك أنا أكثر الدخول والخروج اليك وأنا فى غاية الحيرة من الفزع والجزع ثم انها فكت قيود عين أهله وقطعت وثاقه وتناولت سكينا لتقتل نفسها فقال لها عين أهله ان تركتك تقتلين نفسك فقد شاركتك فى دمك وانتزع السكين من يدها وقال لها قومى اذهبى معى لكى ننجو معا أو نعطب معا فقالت ان كبرسنى وضعف بصرى يمنعانى من اتباعك فقال لها عين أهله ان الليل متسع والموضع الذى أنا فيه قريب ولى قوة على حملك فقالت له العجوز اذا عزمت على هذا فانى لاأحوجك الى حملى وخرجا معا فلم ينقض الليل حتى بلغا حيث أمنا فجزاها عين أهله خيرا على ماصنعت واتخذها أما فهذا ما بلغنى من ذلك فقال المطران ما أعجب أحاديثك أيها الحكيم ولقد وددت انى لاأفارقك أبدا

اعطاء المبلغ الذى فى هذه الورقة فاسرع عند ذلك الوكيل فى وزن المال وناوله الرجل فقبضه وصار متحيرا فى أمره فالتفت اليه الفضل وقال له طب نفسا وامض الى سبيلك آمنا على نفسك فقبل الرجل يده وقال له سترتنى سترك الله فى الدنيا والآخرة ثم أخذ المال ومضى فيجب على الانسان أن يتأسى بهذه الاخلاق الجميلة والافعال الجليلة ويقتفى سنة نبيه عليه الصلاة والسلام فقد كان أكثر الناس حلما وأحسنهم خلقا وأكرمهم خلقا وأكثرهم تجاوزا وصفحا وأبرهم للمقترعليه نجحا صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين

﴿وأما ما جاء فى العتاب﴾ فقد قيل العتاب خير من الحقد ولا يكون العتاب الا على زلة وقد مدحه قوم فقالوا العتاب حدائق المتحابين ودليل على بقاء المودة وقد قال أبو الحسن بن منقذ (شعرا)

أسطو عليه وقلبى لو تمكن من ✽ يدىّ غلهما غيظا الى عنقى
وأستعيراه من سطوتى حنقا ✽ وأين ذل الهوى من عزة الحنق

وذمه بعضهم قال اياس بن معاوية خرجت فى سفر ومعى رجل من الاعراب فلما كان فى بعض المناهل لقيه ابن عم له فتعانقا وتعاتبا والى جانبهما شيخ من الحى فقال لهما انعما عيشا ان المعاتبة تبعث التجنى والتجنى يبعث المخاصمة والمخاصمة تبعث العداوة ولا خير فى شئ ثمرته العداوة وقال الشاعر

فدع ذكر العتاب فرب شر ✽ طويل هاج أوله العتاب

وقيل العتاب من حركات الشوق وانما يكون هذا بين المتحابين قال الشاعر

علامة ما بين المحبين فى الهوى ✽ عتابهم فى كل حق وباطل

وكتب بعضهم يعاتب صديقه على تغير حاله معه يقول

عرضنا أنفسا عزت علينا ✽ عليكم فاستخف بها الهوان
ولو أنا رفعناها لعزت ✽ ولكن كل معروض مهان

(وقال آخر يعاتب صديقه)

وكنت اذا ما جئت أدنيت مجلسى ✽ ووجهك من ماء البشاشة يقطر
فمن لى بالعين التى كنت مرة ✽ الىّ بها فى سالف الدهر تنظر

(وقال أبو الحسن بن منقذ)

اخلاقك الغر السجايا مالها ✽ حملت قذى الواشين وهى سلاف
ومرآة رأيك فى عبيدك مالها ✽ صدئت وأنت الجوهر الشفاف

وقال آخر يعاتب صديقه على كتاب أرسله اليه وفيه حط عليه

اقرأ كتابك واعتبر وقريبا ✽ فكفى بنفسك لى عليك حسيبا
أكذا يكون خطاب اخوان الصفا ✽ ان أرسلوا جعلوا الخطاب خطوبا
ما كان عذرى ان أجبت بمثله ✽ أوكنت بالعتب العنيف مجيبا
لكننى خفت انتقاص مودتى ✽ فيعد احسانى اليك ذنوبا

(وقال آخر)

أراك اذا ما قلت قولا قبلته ✽ وليس لاقوالى لديك قبول
وماذاك الا أن ظنك سيئ ✽ بأهل الوفا والظن فيك جميل ✽ فكن قائلا قول الحماسى تائها
بنفسك عجبا وهو منك قليل ✽ ونستكران شئنا على الناس قولهم ✽ ولا ينكرون القول حين نقول

وكان لمحمد بن الحسن بن سهل صديق فنالته اضاقة ثم ولى عملا فاثرى فقصده محمد مسلما فرأى منه تغيرا فكتب اليه

لئن كانت الدنيا أنالتك ثروة ✽ فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
فقد كشف الاثراء منك خلائقا ✽ من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

(وقال آخر فى المعنى) دعوت الله أن تسمو وتعلو ✽ علو النجم فى أفق السماء
فلما أن سموت بعدت عنى ✽ فكان اذا على نفسى دعائى

وكان ابن عرادة السعدى مع سلم بن زياد بخراسان وكان له مكرما وان عرادة تجنى عليه ففارقه وصاحب غيره

ونهض كل واحد منهما الى مضجعه وبات سابور يتصفح حديث وزيره و يتأمل أمثاله ففهم أن الخشف مثل لسابور وأن الغزال الكبير مثل للوزير وأن خروج الخشف مع الغزال الى الصحراء وحصول الخشف فى الاخدود مثل لصحبة سابور وزيره حتى حصل سابور فى حبس قيصر وأن نفار الخشف عن الغزال لسوء ظن سابور بوزيره لتأخره عن استنقاذه وتحقق أن الوزير قد عزم على خلاصه والخروج به الى المدينة ليلا وأن المدينة قريبة منهما وأنه يحمله ان عجز عن المشى فأيقن سابور بالفرج ولما كانت الليلة القابلة تلطف وزير سابور حتى دخل الخيمة التى يطبخ بها الطعام للمطران وبها الموكلون بقصة سابور نائمون ينتظرون الطعام فتحيل الى أن ألقى فى الطعام مرقدا قوى الفعل ولما حضر طعام المطران انفرد الوزير بأكل زاده على ما جرت به العادة فلم تكن الا ساعة حتى صرع القوم فبادر الوزير الى فتح باب البقرة واستخراج سيده وأزال الجامعة من عنقه ويديه وتلطف حتى أخرجه من عسكر قيصر وقصد به المدينة فانتهيا معا الى سورها فصرخ بهم الموكلون فتقدم الوزير اليهم وأمرهم بخفض أصواتهم وأعلمهم بسلامة الملك ثم عرفهم نفسه فابتدروا اليهما وأدخلوهما المدينة فقويت نفوس أهلها وأمرهم سابور بالاجتماع وفرق فيهم السلاح وأمرهم أن يأخذوا أهبتهم فاذا ضربت نواقيس النصارى الضرب الاول يخرجون من المدينة و يفترقون على عسكر الروم فاذا ضربت النواقيس الضرب الثانى يحملون بأجمعهم فامتثلوا أمره ثم ان سابور انتخب كتيبة عظيمة فيها شجعان أساورته ووقف معهم مما يلى الجهة التى فيها أخبية قيصر فلما

ثم ندم ورجع اليه وقال

عتبت على سلم فلما فقدته * وصاحبت أقواما بكيت على سلم
رجعت اليه بعد تجريب غيره * فكان كبره بعد طول من السقم

وقال مسلم بن الوليد

ويرجعني اليك اذا أتت بي * دياري عنك تجربة الرجال

(وقال أبو الحسن القابسي)

اذا أنا عاتبت الملول فانما * أخط بأقلامي على الماء أحرفا
وهبه ارعوى بعد العتاب ألم تكن * مودته طبعا فصارت تكلفا

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه معاتبة الصديق أهون من فقده وما أحسن ما قيل في العتاب

وفي العتاب حياة بين أقوام * وهو المحك لذي لبس وايهام

فما ثم شيء أحسن من معاتبة الاحباب ولا ألذ من مخاطبة ذوي الالباب والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم

الباب السابع والثلاثون في الوفاء بالوعد وحفظ العهد ورعاية الذمم

أرجح دليل يتمسك به الانسان كتاب الله تعالى الذي من تمسك به هداه ومن استدل به أرشده هداه قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود وقال جل ذكره وتقدس اسمه الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق وقال جل وعلا وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقال تعالى وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤلا والآيات في ذلك كثيرة ومن أشدها قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون *وروى في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان فالوفاء من شيم النفوس الشريفة والاخلاق الكريمة والخلال الحميدة يعظم صاحبه في العيون وتصدق فيه خطرات الظنون ويقال الوعد وجه والانجاز محاسنة والوعد سحابة والانجاز مطرها وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكل شيء رأس ورأس المعروف تعجيله وأنشدوا

اذا قلت في شيء نعم فأتمه * فان نعم دين على الحر واجب
والا فقل لا تسترح وترح بها * لئلا يقول الناس انك كاذب

(وقال آخر)

لا كلف الله نفسا فوق طاقتها * ولا تجود يد الا بما تجد
فلا تعد عدة الا وفيت بها * واحذر خلاف مقال للذي تعد

وقال اعرابي وعد الكريم نقد وتعجيل ووعد اللئيم مطل وتعليل وقال اعرابي أيضا العذر الجميل خير من المطل الطويل *ومدح بشار خالد بن برمك فأمر له بعشرين ألفا فابطأت عليه فقال لقائده أقمني حيث يمر فأقامه فمر فأخذ بلجام بغلته وأنشأ يقول

أظلت علينا منك يوما سحابة * أضاءت لنا برق وأبطا رشاشها
فلا غيمها يجلى فييأس طامع * ولا غيثها يأتي فتروى عطاشها

فقال لا تبرح حتى تؤتى بها وقال صالح اللخمي

لئن جمع الآفات فالبخل شرها * وشر من البخل المواعيد والمطل
ولا خير في وعد اذا كان كاذبا * ولا خير في قول اذا لم يكن فعل

وقيل ماتت للهذلي أم ولد فأمر المنصور الربيع أن يعزيه ويقول له ان أمير المؤمنين موجه اليك جارية نفيسة لها أدب وظرف يسليك بها وأمر لك معها بفرس وكسوة وصلة فلم يزل الهذلي يتوقع وعد أمير المؤمنين ونسيه المنصور فحج المنصور ومعه الهذلي فقال المنصور وهو بالمدينة اني أحب أن أطوف الليلة المدينة فاطلب لي من يطوف بي فقال الهذلي أنا لها يا أمير المؤمنين فطاف به حتى وصل بيت عاتكة فقال يا أمير المؤمنين وهذا بيت عاتكة الذي يقول فيه الأحوص

يا بيت عاتكة الذي أتغزل * حذر العدا وبه الفؤاد موكل

حملوا من كل جهة وقصد سابور أخية قيصر ولم يكن الروم متأهبين لعلمهم بضعف الفرس عن مقاومتهم وسد أبوابهم فما شعروا حتى دهموهم وأخذ سابور قيصر أسيرا وغنم جميع ما في عسكره واحتوى على جميع خزائنه ولم ينج من جنوده الا اليسير ثم عاد سابور الى مدينته ودار مملكته فقسم ثلث الغنائم بين أهل عسكره وأحسن الى حفظة ملكه وفوض جميع أموره الى الوزير ثم انه أحضر قيصر فلاطفه وأكرمه وقال له اني مبق عليك كما أبقيت علي وغير مجازك على التضييق ولكن آخذك باصلاح ما أفسدت من جميع ملكي فتبني ما هدمت وتغرس جميع ما قلعت وتطلق كل ما عندك من أسارى الفرس فضمن له جميع ذلك ووفى به فلما أتم سابور ما أراد من ذلك كله أحسن الى قيصر وأطرفه وجهزه الى دار ملكه واستمر قيصر على مهادنته والانقياد الى طاعته انتهى (ومن لطائف المنقول قصة أرينب بنت اسحق زوج عبد الله بن سلام) كان عبد الله بن سلام واليا بالعراق من قبل معاوية وكانت أرينب بنت اسحق زوجا له وهي من أجمل نساء عصرها وأحسنهن أدبا وأكثرهن مالا وكان يزيد بن معاوية قد هام بجمالها وأدبها على السماع وعما بلغه عنها من حسن الخلق والخلق وفتن بها فلما عيل صبره خص بسره خصيصا بمعاوية اسمه رفيف فذكر ذلك رفيف لمعاوية وذكر شدة شغف يزيد بها فبعث معاوية الى يزيد فاستفسره عن أمره فبث له شأنه فقال معاوية مهلا يا يزيد فقال علام تأمرني بالمهل وقد انقطع منها الامل فقال معاوية وأين حجاك ومروءتك فقال له يزيد قد عيل الحجى ونفد الصبر قال له يا بني

الى

انى لامنحك الصدود وانني * قسما اليك مع الصدود لأميل

فذكر المنصور ذكر بيت عاتكة من غير أن يسأله عنه فلما رجع المنصور أمر القصيدة على قلبه فاذا فيها

وأراك تفعل ماتقول وبعضهم * مذق اللسان يقول مالا يفعل

فذكر المنصور الوعد الذى كان وعد به الهذلى فانجزه له واعتذر اليه وقال الشاعر

تعجيل وعد المرء اكرومة * تنشر عنه أطيب الذكر
والحر لا يمطل معروفه * ولا يليق المطل بالحر

(وقال آخر) ولقد وعدت وأنت أكرم واعد * لاخير فى وعد بغير تمام
أنعم على بما وعدت تكرما * فالمطل يذهب بهجة الانعام

(وقال آخر) لعبدك وعد قد تقدم ذكره * فأوله حمد وآخره شكر
وقد جمعت فيك المكارم كلها * فمالك عن تأخير مكرمة عذر

(وقال آخر) وميعاد الكريم عليه دين * فلا تزد الكريم على السلام
يذكره سلامك ماعليه * ويغنيك السلام عن الكلام

(وقال آخر) شكالك لسانى ثم أمسكت نصفه * فنصف لسانى بامتداحك ينطق
فان لم تنجز ماوعدت تركتنى * وباقى لسانى بالمذمة مطلق

(وقال آخر) باتت لوعدك عينى غير راقدة * والليل حى الدياجى منبت السحر
هذا وقد بت من وعد على ثقة * فكيف لوبت من هجر على حذر

(وقال آخر) نذكر بالرقاع اذا نسينا * ويأبى الله أن تنسى الكرام

(وأما الوفاء بالعهد ورعاية الذمم) فقد نقل فيه من عجائب الوقائع وغرائب البدائع ما يطرب السامع ويشنف المسامع كقضية الطائى وشريك نديم النعمان بن المنذر وتلخيص معناها أن النعمان كان قد جعل له يومين يوم من صادفه فيه قتله وأرداه ويوم نعيم من لقيه فيه أحسن اليه وأغناه وكان هذا الطائى قد رماه حادث دهره بسهام فاقته وفقره فأخرجته الفاقة من محل استقراره ليرتاد شيأ لصبيته وصغاره فبينما هو كذلك اذ صادفه النعمان فى يوم بؤسه فلما رآه الطائى علم أنه مقتول وان دمه مطلول فقال حيا الله الملك ان لى صبية صغارا وأهلا جياعا وقد أرقت ماء وجهى فى حصول شئ من البلغة لهم وقد أقدمنى سوء الحظ على الملك فى هذا اليوم العبوس وقد قربت من مقر الصبية والأهل وهم على شفا تلف من الطوى ولن يتفاوت الحال فى قتلى بين أول النهار وآخره فان رأى الملك أن يأذن لى فى أن أوصل اليهم هذا القوت وأوصى بهم أهل المروأة من الحى لئلا يهلكوا ضياعا ثم أعود الى الملك وأسلم نفسى لنفاذ أمره فلما سمع النعمان صورة مقاله وفهم حقيقة حاله ورأى تلهفه على ضياع أطفاله رق له ورثى لحاله غير أنه قال له لا آذن لك حتى يضمنك رجل معنا فان لم ترجع قتلناه وكان شريك بن عدى بن شرحبيل نديم النعمان معه فالتفت الطائى الى شريك وقال له

ياشريك بن عدى * مامن الموت انهزام * من لاطفال ضعاف * عدموا طعم الطعام
بين جوع وانتظار * وافتقار وسقام * ياأخا كل كريم * أنت من قوم كرام
ياأخا النعمان جدلى * بضمان والتزام * ولك الله بأنى * راجع قبل الظلام

فقال شريك بن عدى أصلح الله الملك على ضمانه فمر الطائى مسرعا وصار النعمان يقول لشريك ان صدر النهار قد ولى ولم يرجع وشريك يقول ليس للملك على سبيل حتى يأتى المساء فلما قرب المساء قال النعمان لشريك قد جاء وقتك قم فتأهب للقتل فقال شريك هذا شخص قد لاح مقبلا وأرجو أن يكون الطائى فان لم يكن فأمر الملك ممتثل قال فبينما هم كذلك واذا بالطائى قد اشتد عدوه فى سيره مسرعا حتى وصل فقال خشيت أن ينقضى النهار قبل وصولى ثم وقف قائما وقال أيها الملك مر بأمرك فاطرق النعمان ثم رفع رأسه وقال والله مارأيت أعجب منكما أما أنت ياطائى فما تركت لأحد فى الوفاء مقاما يقوم فيه ولاذكرا يفتخر به وأما أنت ياشريك فما تركت لكريم سماحة يذكر بها فى الكرماء فلا أكون أنا ألأم الثلاثة الا وانى قد رفعت يوم بؤسى عن الناس ونقضت عادتى كرامة لوفاء الطائى وكرم شريك فقال الطائى

ساعدنى على أمرك بالكتمان والله بالغ أمره وكانت أرينب بنت اسحق قد سارت بذكر جمالها الركبان وضربت بها الامثال فاخذ معاوية فى الحيلة حتى يبلغ يزيد رضاه وينال غرضه ومناه فكتب الى عبد الله بن سلام يستحثه على الحضور لمصلحة عينها له وكان عند معاوية يومئذ بالشام أبو هريرة وأبو الدرداء صاحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قدم عليه عبد الله بن سلام الشام أعدله معاوية منزلا حسنا ونقله اليه وبالغ فى اكرامه ثم قال لابى هريرة وأبى الدرداء ان ابنتى قد بلغت وأريد انكاحها وقد رضيت عبد الله بن سلام لدينه وشرفه وفضله وأدبه وقد كنت جعلت لها فى نفسها شورى ولكن أرجو ان لاتخرج عن رأيى ان شاء الله تعالى فخرجا من عنده متوجهين الى منزل عبد الله بن سلام بالذى قال لهما معاوية ثم دخل معاوية على ابنته فقال لها اذا دخل عليك أبو الدرداء وأبو هريرة فعرضا عليك عبد الله بن سلام وانكاحى اياك منه وحضاك على المسارعة الى رضائى فقولى لهما عبد الله بن سلام كفء كريم غير أن تحته أرينب بنت اسحق وأنا خائفة أن يعرض لى من الغيرة ما يعرض للنساء ولست بفاعلة حتى يفارقها وأما أبو الدرداء وأبو هريرة فانهما لما وصلا الى عبد الله بن سلام أعلماه بما قال لهما معاوية فردهما خاطبين عنه فلما مثلا بين يدى معاوية قال انى كنت أعلمتكما انى جعلت لها فى نفسها شورى فادخلا عليها وأعلماها بما رأيت لها فدخلا عليها وأعلماها بذلك فابدت ما قرره أبوها عندها من قبل فعادا الى عبد الله ابن سلام فاعلماه بذلك فتوهم المراد وأشهدهما عليه بطلاق أرينب وبعثهما اليها خاطبين فلما دخلا

واقد دعتني للخلاف عشيرتي * فعددت قولهمو من الاضلال
اني امرؤ مني الوفاء سجية * وفعال كل مهذب مفضال

فقال له النعمان ما حملك على الوفاء وفيه اتلاف نفسك فقال ديني فمن لا وفاء فيه لا دين له فأحسن اليه النعمان ووصله بما أغناه وأعاده مكرما الى أهله وأناله ما تمناه (ومن ذلك) ما حكى أن الخليفة المأمون لما ولى عبد الله ابن طاهر بن الحسين مصر والشام وأطلق حكمه دخل على المأمون بعض اخوانه يوما فقال يا أمير المؤمنين ان عبد الله بن طاهر يميل الى ولد أبي طالب وهوا مع العلويين وكذلك كان أبوه قبله فحصل عند المأمون شئ من كلام أخيه من جهة عبد الله بن طاهر فتشوش فكره وضاق صدره فاستحضر شخصا وجعله في زي الزهاد والنساك الغزاة ودسه الى عبد الله بن طاهر وقال له امض الى مصر وخالط أهلها وداخل كبراءها واستملهم الى القاسم بن محمد العلوى واذكر مناقبه ثم بعد ذلك اجتمع ببعض بطانة عبد الله بن طاهر ثم اجتمع بعبد الله بن طاهر بعد ذلك وادعه الى القاسم بن محمد العلوى واكشف لي باطنه وابحث عن دفين نيته وائتني بما تسمع ففعل ذلك الرجل ما أمره به المأمون وتوجه الى مصر ودعا جماعة من أهلها ثم كتب ورقة لطيفة ودفعها الى عبد الله بن طاهر وقت ركوبه فلما نزل من الركوب وجلس في مجلسه خرج الحاجب اليه وأدخله على عبد الله بن طاهر وهو جالس وحده فقال له لقد فهمت ما قصدته فهات ما عندك فقال ولي الأمان قال نعم فأظهر له ما أراده ودعاه الى القاسم بن محمد فقال له عبد الله أو تنصفني فيما أقوله لك قال نعم قال فهل يجب شكر الناس بعضهم لبعض عند الاحسان والمنة قال نعم قال فيجب على وأنا في هذه الحالة التي تراها من الحكم والنعمة والولاية ولي خاتم في المشرق وخاتم في المغرب وأمري فيما بينهما مطاع وقولي مقبول ثم اني ألتفت يمينا وشمالا فارى نعمة هذا الرجل غامرة واحسانه فائضا على أفتدعوني الى الكفر بهذه النعمة وتقول اغدر وجانب الوفاء والله لو دعوتني الى الجنة عيانا لما غدرت ولما نكثت بيعته وتركت الوفاء له فسكت الرجل فقال له عبد الله والله ما أخاف الا على نفسك فارحل من هذا البلد فلما يئس الرجل منه وكشف باطنه وسمع كلامه رجع الى المأمون فاخبره بصورة الحال فسره ذلك وزاد في احسانه اليه وضاعف انعامه عليه (ومما) يعد من محاسن الشيم ومكارم أخلاق أهل الكرم ويحث على الوفاء بالعهود ورعاية الذمم ما رواه حمزة بن الحسين الفقيه في تاريخه قال قال لي أبو الفتح المنطيقي كنا جلوسا عند كافور الاخشيدي وهو يومئذ صاحب مصر والشام وله من البسطة والمكنة ونفوذ الأمر وعلو القدر وشهرة الذكر ما يتجاوز الوصف والحصر فحضرت المائدة والطعام فلما أكلنا نام وانصرفنا فلما انتبه من نومه طلب جماعة منا وقال امضوا الساعة الى عقبة البخارين وسلوا عن شيخ منجم أعور كان يقعد هناك فان كان حيا فاحضروه وان كان قد توفي فسلوا عن أولاده وا كشفوا أمرهم قال فمضينا الى هناك وسألنا عنه فوجدناه قد مات وترك بنتين احداهما متزوجة والأخرى عاتق فرجعنا الى كافور وأخبرناه بذلك فسير في الحال واشترى لكل واحدة منهما دارا وأعطاهما مالا جزيلا وكسوة فاخرة وزوج العاتق وأجرى على كل واحدة منهما رزقا وأظهر أنهما من المتعلقين به لرعاية أمورهما فلما فعل ذلك وبالغ فيه ضحك وقال أتعلمون سبب هذا قلنا لا فقال اعلموا أني مررت يوما بالدهما المنجم وأنا في ملك ابن عباس الكاتب وأنا بحالة رثة فوقفت عليه فنظر الي واستجلبني وقال أنت تصير الى رجل جليل القدر وتبلغ منه مبلغا كبيرا وتنال خيرا كثيرا ثم طلب مني شيأ فأعطيته درهمين كانا معي ولم يكن معي غيرهما فرمى بهما الي وقال أبشرك بهذه البشارة وتعطيني درهمين ثم قال وأزيدك أنت والله تملك هذا البلد وأكثر منه فاذكرني اذا صرت الى الذي وعدتك به ولا تنس فقلت له نعم فقال عاهدني أنك تفي لي ولا يشغلك ذلك عن افتقادي فعاهدته ولم يأخذ مني الدرهمين ثم اني شغلت عنه بما تجدد لي من الأمور والأحوال وصرت الى هذه المنزلة ونسيت ذلك فلما أكلنا اليوم ونمت رأيته في المنام قد دخل علي وقال لي أين الوفاء بالعهد الذي بيني وبينك واتمام وعدك لا تغدر فيغدر بك فاستيقظت وفعلت ما رأيتم ثم زاد في احسانه الى بنات المنجم وفاء لوالدهما بوعده والله أعلم (ومما) أسفرت عنه وجوه الأوراق وأخبرت به الثقات في الآفاق وظهرت روايته بالشام والعراق وضرب به الأمثال في الوفاء بالاتفاق حديث السموأل بن عاديا وتلخيص معناه أن امرئ القيس الكندي لما أراد المضي الى قيصر ملك الروم أودع عند السموأل دروعا وسلاحا وأمتعة تساوي من المال

جملة

على معاوية أعلما بطلاق أرينب فاظهر معاوية كراهية ذلك وقال ما استحسنت طلاق زوجته ولا أحببته فانصرفا في عافية وعودا الينا وكتب الى ابنه يزيد يعلمه بما كان من طلاق عبد الله بن سلام لارينب بنت اسحق وعاد بعد ذلك أبو الدرداء وأبو هريرة الى معاوية فأمرهما بالدخول على ابنته وسؤالها عن رضاها وهو يقول لم يكن لي أن أكرهها وقد جعلت الشورى في نفسها فدخلا عليها وأعلماها بطلاق عبد الله بن سلام امرأته ليسرها بذلك وذكرا فضله وشرفه وكرمه ومروأته فقالت جف القلم بما هو كائن ولا أنكر شرفه وفضله واني سائلة عنه حتى أعرف دخيلة خبره ولا قوة الا بالله فان يك صدر هذا اليوم ولي فان غدا لناظره قريب ثم تزايد حديث الناس بطلاق أرينب وخطبة ابنة معاوية واستحث عبد الله أبا الدرداء وأبا هريرة فأتياها فقالا لها اصنعي ما أنت صانعة واستخيري الله فقالت أرجو والحمد لله أن يكون الله قد اختار لي فانه لا يكل الى غيره وقد سبرت أمره وسألت عنه فوجدته غير ملائم ولا موافق لما أريد لنفسي مع اختلاف من استشرته فيه فمنهم الناهي عنه والآمر به فلما بلغه كلامها علم انها حيلة وانه مخدوع وقال متعزيا ليس لأمر الله راد ولعل ما سروا به لا يدوم لهم سروره قال وذاع أمره وفشا في الناس وقالوا اخدعه معاوية حتى طلق امرأته لغرض ابنه بئس ما صنع ثم ان معاوية بعد انقضاء أيامها المعلومة وجه أبا الدرداء الى العراق خاطبا لها على ابنه يزيد فخرج حتى قدمها وبها يومئذ الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما فقال أبو الدرداء اذا قدم العراق ما ينبغي لذي عقل أن يبدأ

جملة كثيرة فلما مات امرؤ القيس أرسل ملك كندة يطلب الدروع والأسلحة المودعة عند السموأل فقال السموأل لا أدفعها الا لمستحقها وأبى أن يدفع اليه منها شيئا فعاوده فأبى وقال لا أغدر بذمتي ولا أخون أمانتي ولا أترك الوفاء الواجب على فقصده ذلك الملك من كندة بعسكره فدخل السموأل في حصنه وامتنع به فحاصره ذلك الملك وكان ولد السموأل خارج الحصن فظفر به ذلك الملك فأخذه أسيرا ثم طاف حول الحصن وصاح بالسموأل فأشرف عليه من أعلى الحصن فلما رآه قال له ان ولدك قد أسرته وها هو معي فان سلمت الى الدروع والسلاح التي لامرئ القيس عندك رحلت عنك وسلمت اليك ولدك وان امتنعت من ذلك ذبحت ولدك وأنت تنظر فاختر أيهما شئت فقال له السموأل ما كنت لأخفر ذمامي وأبطل وفائي فاصنع ما شئت فذبح ولده وهو ينظر ثم لما عجز عن الحصن رجع خائبا واحتسب السموأل ذبح ولده وصبر محافظة على وفائه فلما جاء الموسم وحضر ورثة امرئ القيس سلم اليهم الدروع والسلاح ورأى حفظ ذمامه ورعاية وفائه أحب اليه من حياة ولده وبقائه فصارت الأمثال في الوفاء تضرب بالسموأل واذا مدحوا أهل الوفاء في الأنام ذكروا السموأل في الأول وكم أعلى الوفاء رتبة من اعتاقه بيديه وأغلى قيمة من جعله نصب عينيه واستنطق الأفواه لفاعله بالثناء عليه واستطلق الأيدي المقبوضة عنه بالاحسان اليه (ومما) وضع في بطون الدفاتر واستحسنته عيون البصائر ونقلته الأصاغر عن الأكابر وتداولته الألسنة من الأوائل والأواخر ما رواه خادم أمير المؤمنين المأمون قال طلبني أمير المؤمنين ليلة وقد مضى من الليل ثلثه فقال لي خذ معك فلانا وفلانا وسماهما أحدهما علي بن محمد والآخر دينار الخادم واذهب مسرعا لما أقوله لك فانه قد بلغني أن شيخا يحضر ليلا الى دور البرامكة وينشد شعرا ويذكرهم ذكرا كثيرا وينديهم ويبكي عليهم ثم ينصرف فامض الآن أنت وعلي ودينار حتى تردوا هذه الخرابات فاستتروا خلف بعض الجدران فاذا رأيتم الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد شيئا فائتوني به قال فأخذتهما ومضينا حتى أتينا الخرابات واذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساط وكرسي حديد واذا شيخ وسيم له جمال وعليه مهابة ووقار قد أقبل فجلس على الكرسي وجعل يبكي وينتحب ويقول

ولما رأيت السيف جندل جعفرا * ونادى مناد للخليفة في يحيى
بكيت على الدنيا وزاد تأسفي * عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

مع أبيات أطالها وردها فلما فرغ قبضنا عليه وقلنا له أجب أمير المؤمنين ففزع فزعا شديدا وقال دعوني حتى أوصي وصية فاني لا أوقن بعدها بحياة ثم تقدم الى بعض الدكاكين فاستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصية ودفعها الى غلامه ثم سرنا به فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين زجره وقال له من أنت وبماذا استوجبت البرامكة منك ما تفعله في خرائب دورهم وما تقوله فيها قال الخادم ونحن وقوف نسمع فقال يا أمير المؤمنين ان للبرامكة عندي أيادي خطيرة أفتأذن لي أن أحدثك حديثي معهم قال قل قال يا أمير المؤمنين أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك وقد زالت عني نعمتي كما تزول عن الرجال فلما ركبني الدين واحتجت الى بيع مسقط رأسي ورؤس أهلي أشاروا علي بالخروج الى البرامكة فخرجت من دمشق ومعي نيف وثلاثون امرأة وصبيا وصبية وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب حتى دخلنا بغداد ونزلنا في بعض المساجد فدعوت بثويبات لي كنت قد أعددتها لأستتر بها من الناس فلبستها وخرجت وتركتهم جياعا لا شيء عندهم ودخلت شوارع بغداد أسائل عن دور البرامكة فاذا أنا بمسجد مزخرف وفيه مائة شيخ بأحسن زي وزينة وعلى الباب خادمان فطمعت في القوم وولجت المسجد وجلست بين أيديهم وأنا أقدم وأؤخر والعرق يسيل مني لأنها لم تكن صناعتي واذا بخادم قد أقبل فدعا القوم فقاموا وأنا معهم فدخلوا دار يحيى بن خالد ودخلت معهم واذا بيحيى جالس على دكة له في وسط بستان فسلمنا وهو يعدنا مائة وواحدا وبين يديه عشرة من ولده واذا غلام أمرد عذره خداه قد أقبل من بعض المقاصير بين يديه مائة خادم ممنطقون في وسط كل خادم منطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال ومع كل خادم مجمرة من ذهب في كل مجمرة قطعة من عود كهيئة الفهر قد قرن بها مثلها من العنبر السلطاني فوضعوه بين يدي الغلام وجلس الغلام الى جنب يحيى ثم قال يحيى للقاضي تكلم وزوج بنتي عائشة من ابن عمي هذا فخطب القاضي وزوجه وشهد أولئك الجماعة وأقبلوا علينا بالنثار ببنادق المسك والعنبر فالتقطت والله يا أمير المؤمنين مل‌ء كمي ونظرت فاذا نحن في المكان ما بين يحيى والمشايخ وولده والغلام

بشيء قبل زيارة الحسين سيد شباب أهل الجنة اذا دخل موضعا هو فيه فقصد الحسين رضي الله عنه فلما رآه قام اليه وصافحه اجلالا لصحبته لجده صلى الله عليه وسلم وقال ما أتى بك يا أبا الدرداء قال وجهني معاوية خاطبا على ابنه يزيد أرينب بنت اسحق فرأيت على حقا أن لا أبدأ بشيء قبل السلام عليك فشكره الحسين على ذلك وأثنى عليه وقال لقد ذكرت نكاحها وأردت الارسال اليها اذا انقضت عدتها وقد أتى الله بك فاخطب على بركة الله علي وعليه وهي أمانة في عنقك واعطها من المهر مثل ما بذل لها معاوية عن ابنه فقال أفعل ان شاء الله فلما دخل قال أيتها المرأة ان الله خلق الأمور بقدرته وكونها بعزته وجعل لكل أمر قدرا ولكل قدر سببا فليس لأحد عن قدر الله مخلص فكان ما سبق لك وقدر عليك من فراق عبد الله بن سلام على غير قياس ولعل ذلك لا يضيرك وجعل الله فيه خيرا كثيرا وقد خطبك أمير هذه الأمة وابن ملكها وولي عهده والخليفة من بعده يزيد بن معاوية والحسين بن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن أول من آمن به من أمته وسيد شباب أهل الجنة فاختاري أيهما شئت فسكتت طويلا ثم قالت يا أبا الدرداء لو جاءني هذا الأمر وأنت غائب لأشخصت فيه الرسل اليك وأتبعت فيه رأيك فأما اذا كنت أنت المرسل فيه فقد فوضت أمري فيه بعد الله اليك وجعلته في يديك فاختر لي أرضاهما لديك والله شاهد عليك فاقض ولا يصدنك عن ذلك اتباع الهوى فليس أمرهما عليك خفيا فقال أبو الدرداء أيتها المرأة انما علي اعلامك ولك الاختيار لنفسك فقالت عفا

مائة واثنا عشر رجلا فخرج الينا مائة واثنا عشر خادما مع كل خادم صينية من فضة عليها ألف دينار فوضعوا
بين يدى كل رجل منا صينية فرأيت القاضى والمشايخ يصبون الدنانير فى أكمامهم ويجعلون الصوانى تحت
آباطهم ويقوم الأول فالأول حتى بقيت وحدى بين يدى يحيى لا أجسر على أخذ الصينية فغمزنى
الخادم فجسرت وأخذتها وجعلت الذهب فى كمى وأخذت الصينية فى يدى وقمت وجعلت ألتفت الى ورائى
مخافة أن أمنع من الذهاب بها فبينما أنا كذلك فى صحن الدار ويحيى يلحظنى اذ قال للخادم ائتنى بذلك الرجل
فرددت اليه فأمر بصب الدنانير والصينية وما كان فى كمى ثم أمرنى بالجلوس فجلست فقال لى ممن الرجل
فقصصت عليه قصتى فقال للخادم ائتنى بولدى موسى فأتى به فقال له يا بنى هذا رجل غريب فخذه اليك
واحفظه بنفسك وبنعمتك فقبض موسى على يدى وأدخلنى الى دار من دوره فأكرمنى غاية الاكرام
وأقمت عنده يومى وليلتى فى ألذ عيش وأتم سرور فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال ان الوزير قد أمرنى
بالعطف على هذا الرجل وقد علمت اشتغالى فى دار أمير المؤمنين فاقبضه اليك وأكرمه ففعل ذلك وأكرمنى
غاية الاكرام فلما كان الغد تسلمنى أخوه أحمد ثم لم أزل فى أيدى القوم يتداولوننى عشرة أيام لا أعرف خبر
عيالى وصبيانى أفى الأموات هم أم فى الأحياء فلما كان اليوم الحادى عشر جاءنى خادم ومعه جماعة من
الخدم فقالوا لى قم فاخرج الى عيالك بسلام فقلت واويلاه سلبت الدنانير والصينية وأخرج الى عيالى على
هذه الحالة انا لله وانا اليه راجعون فرفع الستر الأول ثم الثانى ثم الثالث ثم الرابع فلما رفع الخادم الستر الأخير
قال لى مهما كان لك من الحوائج فارفعها الى فانى مأمور بقضاء جميع ما تأمرنى به فلما رفع الستر رأيت حجرة
كالشمس حسنا ونورا واستقبلنى منها رائحة الند والعود ونفحات المسك واذا بصبيانى وعيالى يتقلبون فى
الحرير والديباج وحمل الى ألف ألف درهم وعشرة آلاف دينار ومنشورين بضيعتين وتلك الصينية
التى كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة فى دورهم ثلاث عشرة سنة
لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غريب اصطنعونى فلما جاءتهم البلية ونزل بهم من أمير المؤمنين الرشيد
ما نزل أجحفنى عمرو بن مسعدة وألزمنى فى هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفى دخلهما به فلما تحامل على
الدهر كنت فى أواخر الليل أقصد خرابات القوم فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم الى وأشكرهم على احسانهم
فقال المأمون على بعمرو بن مسعدة فلما أتى به قال يا عمرو أتعرف هذا الرجل قال نعم يا أمير المؤمنين هو
بعض صنائع البرامكة قال كم ألزمته فى ضيعته قال كذا وكذا قال رد له كل ما استأديته منه فى مدته وقع له
بهما ليكونا له ولعقبه من بعده قال فعلا نحيب الرجل وبكاؤه فلما رأى المأمون كثرة بكائه قال له يا هذا قد
أحسنا اليك فلم تبكى قال يا أمير المؤمنين وهذا أيضا من صنائع البرامكة اذ لو لم آت خراباتهم فأبكيهم وأندبهم
حتى اتصل خبرى بأمير المؤمنين ففعل بى ما فعل فمن أين كنت أصل الى أمير المؤمنين قال ابراهيم بن ميمون فلقد
رأيت المأمون وقد دمعت عيناه وظهر عليه حزنه وقال لعمرى هذا من صنائع البرامكة فعليهم فابك واياهم
فاشكر ولهم فأوف ولاحسانهم فاذكر *وقيل اذا أردت أن تعرف وفاء الرجل ودوام عهده فانظر الى حنينه
الى أوطانه وتشوقه الى اخوانه وكثرة بكائه على ما مضى من زمانه قال الشاعر

سقى الله أطلال الوفاء بكفه * فقد درست أعلامه ومنازله

وقال آخر

أشدد يديك بمن بلوت وفاءه * ان الوفاء من الرجال عزيز

وقال مالك بن عمارة اللخمى كنت جالسا فى ظل الكعبة أيام الموسم عند عبد الملك بن مروان وقبيصة بن
ذؤيب وعروة بن الزبير وكنا نخوض فى الفقه مرة وفى المذاكرة مرة وفى أشعار العرب وأمثال الناس مرة
فكنت لا أجد عند أحد ما أجده عند عبد الملك بن مروان من الاتساع فى المعرفة والتصرف فى فنون العلم
وحسن استماعه اذا حدث وحلاوة لفظه اذا حدث فخلوت معه ليلة فقلت له والله انى لمسرور بك لما شاهدته
من كثرة تصرفك وحسن حديثك واقبالك على جليسك فقال ان تعش قليلا فسترى العيون طامحة الى
والاعناق نحوى متطاولة فاذا صار الامر الى فلعلك أن تنقل الى ركابك فلأملأن يديك فلما أفضت اليه
الخلافة توجهت اليه فوافيته يوم الجمعة وهو يخطب على المنبر فلما رآنى أعرض عنى فقلت لعله لم يعرفنى أو عرفنى
وأظهر لى نكرة فلما قضيت الصلاة ودخل بيته لم ألبث أن خرج الحاجب فقال أين مالك بن عمارة فقمت فأخذ

بيدى

الله عندك انما أنا بنت أخيك
ولا يمنعك أحد من قول الحق فيما
طوقتك به فقد وجب عليك أداء
الامانة فلم يجد بدا من القول فقال
يا بنية ابن بنت رسول الله صلى الله
عليه وسلم أحب الى فى ذلك وأرضى
عندى والله أعلم وقد رأيت رسول
الله صلى الله عليه وسلم واضعا شفتيه
على شفتى الحسين فضعى شفتيك
حيث وضع رسول الله صلى الله عليه
وسلم شفتيه قالت قد اخترته
ورضيته فتزوجها الحسين بن على
عليهما السلام فساق لها مهرا
عظيما وبلغ معاوية ما فعله أبو
الدرداء فعظم عليه وقال من يرسل
ذا لبه وعمى ركب خلاف ما يهوى
وكان عبد الله بن سلام قد
استودعها قبل فراقه اياها ذهبا
وكان معاوية قد اطرحه وقطع عنه
جميع روادفه لقوله انه خدعه حتى
طلق امرأته فلم يزل يجفوه حتى قل
ما بيده فرجع الى العراق فلما قدمها
لقى الحسين فسلم عليه ثم قال لقد
علمت ما كان من خبرى وخبر زينب
وكنت قبل فراقى اياها استودعتها
مالا وكان الذى كان ولم اقبضه ووالله
ان ظنى بها جميل فذاكرها فى امرى
فان الله يجزيك به اجرك فسكت
عنه فلما انصرف الى اهله قال لها
قدم عبد الله بن سلام وهو كثير الثناء
عليك فى دينك وحسن صحبتك
فسرنى ذلك واعجبنى وذكر انه
استودعك مالا فقالت صدق
استودعنى مالا لا أدرى لمن هو وانه
لمطبوع عليه بخاتمه وها هو ذا
فادفعه اليه بطابعه فأثنى عليه
الحسين خيرا وقال ألا أدخله عليك
حتى تبرئى منه ثم لقى عبد الله فقال
ما أنكرت مالك وزعمت أنه كما دفعته
اليها بطابعك فادخل يا هذا اليها
واستوف مالك منها بحيث تحصل
البراءة من الطرفين فلما دخل
عليها قال لها الحسين هذا عبد الله

يدى وأدخلنى عليه فمد الى يده وقال انك تراءيت لى فى موضع لا يجوز فيه الاما رأيت فاما الآن فرحبا وأهلا كيف كنت بعدى فاخبرته فقال لى أتذكر ما كنت قلت لك قلت نعم فقال والله ماهو بميراث رعيناه ولا أثر رويناه ولكنى أخبرك بخصال منى سمت بها نفسى الى الموضع الذى ترى ماخنت ذا ودقط ولا شمت بمصيبة عدوقط ولا أعرضت عن محدث حتى ينتهى حديثه ولا قصدت كبيرة من محارم الله تعالى متلذذا بها فكنت أؤمل بهذه أن يرفع الله تعالى منزلتى وقد فعل ثم دعا بغلام فقال له ياغلام بوئه منزلا فى الدار فاخذ الغلام بيدى وأفرد لى منزلا حسنا فكنت فى ألذ حال وأنعم بال وكان يسمع كلامى وأسمع كلامه ثم أدخل عليه فى وقت عشائه وغدائه فيرفع منزلتى ويقبل على ويحادثنى ويسألنى مرة عن العراق ومرة عن الحجاز حتى مضت لى عشرون ليلة فتغديت يوما عنده فلما تفرق الناس نهضت قائما فقال على رسلك فقعدت فقال أى الامرين أحب اليك المقام عندنا مع النصفة لك فى المعاشرة أو الرجوع الى أهلك ولك الكرامة فقلت يا أمير المؤمنين فارقت أهلى وولدى على أنى أزور أمير المؤمنين وأعود اليهم فان أمير المؤمنين اخترت رؤيته على الأهل والولد فقال لا بل أرى لك الرجوع اليهم والخيار لك بعد فى زيارتنا وقد أمرنا لك بعشرين ألف دينار وكسوناك وحملناك أترانى قد ملأت يديك فلا خير فيمن ينسى اذا وعد وعدا اذا شئت صحبتك السلامة (ومن ذلك) ماروى عن أبى بكار الأعمى وكان قد انقطع الى آل برمك قال مسرور الكبير لما أمرنى الرشيد بقتل جعفر بن يحيى دخلت عليه فوجدت عنده أبا بكار الأعمى يغنيه ويقول

فلا تحزن فكل فتى سيأتى * عليه الموت يطرق أو يغادى

فقلت فى هذا والله قد أتيتك ثم أمسكت بيد جعفر وأقمته وضربت عنقه فقال أبو بكار ناشدتك الله الا ما ألحقتنى به فقلت له ما الذى حملك على هذا فقال أغنانى عن الناس فقلت حتى أستأمر الرشيد ثم أحضرت الرأس الى الرشيد وأخبرته بخبر أبى بكار فقال هذا رجل فيه مصطنع اضممه اليك وانظر ما كان يجرى عليه جعفر فادفعه اليه وكان يحيى بن خالد اذا أكد فى يمينه قال لا والذى جعل الوفاء أعز ما يرى قال أبو فراس بن حمدان الشاعر

بمن يثق الانسان فيما ينوبه * ومن أين للحر الكريم صحاب
وقد صار هذا الناس الا أقلهم * ذئابا على أجسادهن ثياب

وسأل المنصور بعض بطانة هشام عن تدبيره فى الحروب فقال كان رحمه الله تعالى يفعل كذا وكذا فقال المنصور عليك لعنة الله تطأ بساطى وتترحم على عدوى فقال ان نعمة عدوك لقلادة فى عنقى لا ينزعها الا غاسلى فقال له المنصور ارجع ياشيخ فانى أشهد أنك لوفى حافظ للخير ثم أمر له بمال فأخذه ثم قال والله لولا جلالة أمير المؤمنين وامضاء طاعته ما لبست لأحد بعد هشام نعمة فقال له المنصور لله درك فلو لم يكن فى قومك غيرك لكنت قد أبقيت لهم مجدا مخلدا * وخرج سليمان بن عبد الملك ومعه يزيد بن المهلب فى بعض جبابين الشام فاذا امرأة جالسة على قبر تبكى قال سليمان فرفعت البرقع عن وجهها فحكت شمسا عن متون غمامة فوقفنا متحيرين ننظر اليها فقال لها يزيد بن المهلب ياأمة الله هل لك فى أمير المؤمنين بعلا فنظرت الينا ثم انشأت تقول

فان تسألانى عن هواى فانه * يحول بهذا القبر يافتيان
وانى لأستحييه والترب بيننا * كما كنت استحييه وهو يرانى

(ومن ذلك) ماروى عن نائلة بنت الفرافصة بن الأحوص الكلبى زوج عثمان رضى الله عنهما ان عثمان لما قتل اصابتها ضربة على يدها وخطبها معاوية فردته وقالت ما يعجب الرجل منى قالوا ثناياك فكسرت ثناياها وبعثت بها الى معاوية فكان ذلك مما رغب قريشا فى نكاح نساء بنى كلب * ولما احس مصعب بن الزبير بالقتل دفع الى مولاه زياد فص ياقوت قيمته ألف ألف وقال له انج بهذا فاخذه زياد ودقه بين حجرين وقال والله لا ينتفع به أحد بعدك * ولما قدم هدبة بن الخشرم للقتل بحضرة مروان بن الحكم قالت زوجته ان لهدبة عندى وديعة فامهله حتى آتيك بها فقال أسرعى فان الناس قد كثروا وكان مروان قد جلس لهم بارزا عن داره فمضت الى السوق وأتت الى قصاب فقالت اعطنى شفرتك وخذ هذين الدرهمين وأنا أردها عليك فاخذتها وقربت من حائط وأرسلت ملحفتها على وجهها ثم جدعت أنفها من أصله وقطعت شفتيها وردت الشفرة الى القصاب ثم أقبلت حتى دخلت بين الناس فقالت أترانى ياهدبة متزوجة بعد ماترى فقال الآن طابت نفسى

ابن سلام قد جاء يطلب وديعته فأخرجت اليه البدر فوضعتها بين يديه وقالت له هذا مالك فشكر وأثنى فخرج الحسين عنهما وفض عبد الله خواتم بدره وحثى لها من ذلك جانبا كبيرا وقال لها والله هذا قليل منى فاستعبرا حتى علت أصواتهما بالبكاء على ما ابتليا به فدخل الحسين عليهما وقد رق لهما ثم قال أشهد الله انها طالق ثلاثا اللهم أنت تعلم أننى لم استنكحها رغبة فى مالها ولا فى جمالها ولكنى أردت احلالها لزوجها فطلقها ولم يأخذ شيأ مما ساق لها فى مهرها بعد ما عرضته عليه وقال الذى أرجوه من الثواب خير لى فلما انقضت عدتها تزوجها عبد الله بن سلام وعادا على ما كانا عليه من حسن الصحبة الى أن فرق الموت بينهما هكذا نقله ابن بدرون فى تاريخه والله أعلم (ومن غرائب المنقول وعجائبه) عن الأمير بدر الدين أبى المحاسن يوسف المهمندار المعروف بمهمندار العرب انه قال حكى الأمير شجاع الدين محمد الشيرازى متولى القاهرة فى الأيام الكاملية سنة ثلاث وستمائة قال بتنا عند رجل ببعض بلاد الصعيد فأكرمنا وكان الرجل شديد السمرة وهو شيخ كبير فحضر له أولاد بيض الوجوه حسان الأشكال فقلنا له هؤلاء أولادك فقال نعم وكأنى بكم وقد أنكرتم بياضهم وسوادى فقلنا له نعم قال هؤلاء أمهم افرنجية أخذتها فى أيام الملك الناصر صلاح الدين وأنا شاب فقلنا وكيف أخذتها قال حديثى بها عجيب قلنا أتحفنا به قال زرعت كتانا فى هذه البلدة وقلعته ونفضته فانصرف عليه خمسمائة دينار ولم يبلغ الثمن الى أكثر من ذلك فحملته الى القاهرة فلم يصل الى أكثر من ذلك فأشير على بحمله الى الشام فحملته فما زاد على تلك القيمة شيأ

بالموت فخزاه الله من حليلة وفيه خيرا (ولنجعل) لهذا الباب من القضايا ختاما هو أوجزها كلاما وأحسنها نظاما وأبينها احكاما واحكاما وهي قضية جمعت الأمرين وفاء وغدرا وعرفا ونكرا وخيرا وشرا ونفعا وضرا واشتملت على حال شخصين أحدهما وفى بعهده ففاز ونجا وحاز من مقترحات مناه ما أمل ورجا وغدر الآخر فلم يجد له من جزاء غدره الى النجاة فرجا ولم يلق له من ضيق الغدر مخرجا وهو ما ذكره عبد الله بن عبد الكريم وكان مطلعا على أحوال أحمد بن طولون عارفا بأموره عالما بوروده وصدوره فقال ما معناه ان أحمد بن طولون وجد عند سقاية سقطة لا مطروحا فالتقطه ورباه وسماه أحمد وشهره باليتيم فلما كبر ونشأ كان أكثر الناس ذكاء وفطنة وأحسنهم زيا وصورة فصار يرعاه ويعلمه حتى تهذب وتمرن فلما حضرت أحمد بن طولون الوفاة أوصى ولده أبا الجيش خمارويه به فأخذه اليه فلما مات أحمد بن طولون أحضره الأمير أبو الجيش اليه وقال له أنت عندي بمكانة أرعاك بها ولكن عادتي انى آخذ العهد على كل من أصرفه في شيء انه لا يخونني فعاهده ثم حكمه في أمواله وقدمه في أشغاله فصار أحمد اليتيم مستحوذا على المقام حاكما على جميع الحاشية الخاص والعام والأمير أبو الجيش بن طولون يحسن اليه فلما رأى خدمته متصفة بالنصح ومساعيه متسمة بالنجح ركن اليه واعتمد في أمور بيوته عليه فقال له يوما يا أحمد امض الى الحجرة الفلانية ففي المجلس حيث أجلس سبحة جوهر فائتني بها فمضى أحمد فلما دخل الحجرة وجد جارية من مغنيات الأمير وحظاياه مع شاب من الفراشين ممن هو من الأمير بمحل قريب فلما رآياه خرج الفتى وجاءت الجارية الى أحمد وعرضت نفسها عليه ودعته الى قضاء وطره فقال لها معاذ الله أن أخون الأمير وقد أحسن الي وأخذ العهد علي ثم تركها وأخذ السبحة وانصرف الى الأمير وسلمها اليه وبقيت الجارية شديدة الخوف من أحمد بعدما أخذ السبحة وخرج من الحجرة لئلا يذكر حالها للأمير فأقامت أياما لم تجد من الأمير ما غيره عليها ثم اتفق أن الأمير اشترى جارية وقدمها على حظاياه وغمرها بعطاياه واشتغل بها عن سواها وأعرض لشغفه بها عن كل من عنده حتى كاد لا يذكر جارية غيرها ولا يراها وكان أولا مشغولا بتلك الجارية الخاسرة الخائنة الغادرة العاثة العاهرة الفاسقة الفاجرة فلما أعرض عنها اشتغالا بالجارية الجديدة المجيدة السعيدة المسعدة الحامدة المحمودة الوصيفة الموصوفة الأليفة المألوفة العارفة المعروفة وصرف لبهجة محاسنها وكثرة آدابها وجهه عن ملاعبة أترابها وشغلته بعذوبة رضابها عن ارتشاف ضرب أضرابها وكانت تلك الجارية الأولى لحسنها متأمرة على تأميره لا تخاف من وليه ولا نصيره فكبر عليها اعراضه عنها ونسبت ذلك الى أحمد اليتيم لاطلاعه على ما كان منها فدخلت على الأمير وقد ارتدت من الكآبة بجلباب نكرها وأعلنت بالبكاء بين يديه لاتمام كيدها ومكرها وقالت ان أحمد اليتيم راودني عن نفسي فلما سمع الأمير ذلك استشاط غيظا وغضبا وهم في الحال بقتله ثم عاوده حاكم عقله فتأنى في فعله واستحضر خادما يعتمد عليه وقال له اذا أرسلت اليك انسانا ومعه طبق من ذهب وقلت لك على لسانه املأ هذا الطبق مسكا فقتل ذلك الانسان واجعل رأسه في الطبق وأحضره مغطى ثم ان الأمير أبا الجيش جلس لشربه وأحضر عنده ندماءه الخواص وأدناهم لمجلس قربه وأحمد اليتيم واقف بين يديه آمن في سربه لم يخطر بخاطره شيء ولا هجس هاجس في قلبه فلما مثل بين يدي الأمير وأخذ منه الشراب شرع في التدبير فقال يا أحمد خذ هذا الطبق وامض به الى فلان الخادم وقل له يقول لك أمير المؤمنين املأ هذا الطبق مسكا فأخذه أحمد اليتيم ومضى فاجتاز في طريقه بالمغنين وبقية الندماء والخواص فقاموا اليه وسألوه الجلوس معهم فقال أنا ماض في حاجة للأمير أمرني باحضارها في هذا الطبق فقالوا له أرسل من ينوب عنك في احضارها وخذها أنت وادخل بها على الأمير فأدار عينيه فرأى الفتى الفراش الذي كان مع الجارية فأعطاه الطبق وقال له امض الى فلان الخادم وقل له يقول لك الأمير املأ هذا الطبق مسكا فمضى ذلك الفراش الى الخادم فذكر له ذلك فقتله وقطع رأسه وغطاه وجعله في الطبق وأقبل به فناوله لأحمد اليتيم فأخذه وليس عنده علم من باطن الأمر فلما دخل به على الأمير كشفه وتأمله وقال ما هذا فقص عليه خبره وقعوده مع المغنين وبقية الندماء وسؤالهم له الجلوس معهم وما كان من انفاذ الطبق وارساله مع الفراش وأنه لا علم عنده غير ما ذكره قال أتعرف لهذا الفراش خبرا يستوجب به ما جرى عليه فقال أيها الأمير ان الذي تم عليه بما ارتكبه من الخيانة وقد كنت رأيت الاعراض عن اعلام الأمير بذلك وأخذ أحمد يحدثه بما شاهده وما جرى له من

فوصلت به الى عكا فبعت بعضه بالأجل والبعض تركته عندي واكتريت حانوتا أبيع فيه على مهلي الى حيث انقضاء المدة فبينما أنا أبيع اذ مرت بي امرأة افرنجية ونساء الافرنج يمشون في الأسواق بلا نقاب فأتت تشتري مني كتانا فرأيت من جمالها ما بهرني فبعتها وسامحتها ثم انصرفت وعادت الي بعد أيام فبعتها وسامحتها أكثر من الكرة الأولى فتكررت الي وعلمت اني أحبها فقلت للعجوز التي معها اني قد تلفت بحبها وأريد منك الحيلة فقالت لها ذلك فقالت تروح أرواحنا الثلاثة أنا وأنت وهو فقلت لها قد سمحت بروحي في حبها واتفق الحال على أن أدفع خمسين دينارا صورية فوزنتها وسلمتها للعجوز فقالت نحن الليلة عندك فمضيت وجهزت ما قدرت عليه من مأكول ومشروب وشمع وحلواء فجاءت الافرنجية فأكلنا وشربنا وجن الليل ولم يبق غير النوم فقلت في نفسي أما تستحي من الله وأنت غريب تعصي الله مع نصرانية اللهم اني أشهدك اني قد عففت عنها في هذه الليلة حياء منك وخوفا من عقابك ثم نمت الى الصبح فنامت الى الصبح وقامت في السحر وهي غضبى ومضت ومضيت أنا الى حانوتي فجلست فيه واذا هي قد عبرت علي هي والعجوز وهي مغضبة وكأنها القمر فهلكت فقلت في نفسي من هو أنت حتى تترك هذه البارعة في حسنها ثم لحقت العجوز وقلت ارجعي فقالت وحق المسيح ما أرجع اليك الا بمائة دينار فقلت نعم رضيت فوزنت مائة دينار فلما حضرت الجارية عندي لحقتني الفكرة الأولى وعففت عنها وتركتها حياء من الله تعالى ثم مضت ومضيت الى موضعي ثم عبرت بعد ذلك علي وكانت مستعربة فقالت وحق المسيح ما بقيت تفرح بي عندك الا

حديث الجارية من أوّله الى آخره لما أنفذه لاحضار السبحة الجوهر فدعا الأمير أبو الجيش بتلك الجارية واستقررها فأقرت بصحة ما ذكره أحمد فأعطاه اياها وأمره بقتلها ففعل وازدادت مكانة أحمد عنده وعلت منزلته لديه وضاعف احسانه اليه وجعل أزمة جميع ما يتعلق به بيديه * فانظر رحمك الله الى آثار الوفاء كيف تحمي من المعاطب وتنجي من قبضة التلف بعد امضاء القواضب ويفضي بصاحبه الى ارتقاء غوارب المراتب فهذا الغلام لما وفى لمولاه بعهده وهو بشر مثله وليس في الحقيقة بعبده واطلع الله عز وجل على صدق نيته وقصده دفع عنه هذه القتلة الشنيعة بلطف من عنده فاذا كان العبد مع خالقه ورازقه وافيا في طاعته بعقده كيف لا يفيض عليه من ألطاف مواهب بره ورفده ويفتح له من أنواع رحمته وأقسام نعمته ما لا يمسك له من بعده وقالوا ليس شيء أوفى من القمرية اذا مات ذكرها لم تقرب آخر بعده ولا تزال تنوح عليه الى أن تموت والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين والحمد لله رب العالمين

الباب الثامن والثلاثون في كتمان السر وتحصينه وذم افشائه

قال الله تعالى حكاية عن يعقوب صلوات الله وسلامه عليه يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك الآية فلما أفشى يوسف عليه السلام رؤياه بمشهد امرأة يعقوب أخبرت اخوته فحل به ما حل * ومن شواهد الكتاب العزيز في السر قوله تعالى فأوحى الى عبده ما أوحى وقوله تعالى وما هو على الغيب بضنين أي بمتهم وفي الحديث استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فان كل ذي نعمة محسود وقال علي رضي الله عنه وكرم وجهه سرك أسيرك فاذا تكلمت به صرت أسيره واعلم ان أمناء الأسرار أقل وجودا من أمناء الأموال وحفظ الأموال أيسر من كتمان الأسرار لان أحراز الأموال منيعة بالأبواب والأقفال وأحراز الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ويشيعها كلام سابق وحمل الأسرار أثقل من حمل الأموال فان الرجل يستقل بالحمل الثقيل فيحمله ويمشي به ولا يستطيع كتم السر وان الرجل يكون سره في قلبه فيلحقه من القلق والكرب ما لا يلحقه من حمل الأثقال فاذا أذاعه استراح قلبه وسكن خاطره وكأنما ألقى عن نفسه حملا ثقيلا وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه القلوب أوعية والشفاه أقفالها والألسن مفاتيحها فليحفظ كل انسان مفتاح سره * ومن عجائب الامور أن الاموال كلما كثرت خزانها كان أوثق لها وأما الأسرار فانها كلما كثرت خزانها كان أضيع لها وكم من اظهار سر أراق دم صاحبه ومنعه من بلوغ ما أربه ولو كتمه أمن من سطواته وقال أنوشروان من حصن سره فله بتحصينه خصلتان الظفر بحاجته والسلامة من السطوات وقيل كلما كثرت خزان الاسرار زادت ضياعا وقيل انفرد بسرك لا تودعه حازما فيزل ولا جاهلا فيخون وقال كعب ابن سعد الغنوي

ولست بعبد للرجال سريرتي * ولا أنا عن أسرارهم بسؤول

وقال أبو مسلم صاحب الدولة

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت * عنه ملوك بني مروان اذ جهدوا
ما زلت أسعى عليهم في ديارهم * والقوم في غفلة بالشأم قد رقدوا
حتى ضربتهم بالسيف فانتبهوا * من نومة لم ينمها قبلهم أحد
ومن رعى غنما في أرض مسبعة * ونام عنها تولى رعيها الاسد

وأسر رجل الى صديقه حديثا ثم قال له أفهمت قال بل جهلت ثم قال له أحفظت قال بل نسيت وقيل لبعضهم كيف كتمانك للسر قال أجحد المخبر وأحلف للمستخبر وقال المهلب أدنى أخلاق الشريف كتمان السر وأعلى أخلاقه نسيان ما أسر اليه ومن أحسن ما قيل في كتمان السر قول الشاعر

ولها سرائر في الضمير طويتها * نسي الضمير بانها في طيه

وقد أجازه الشيخ شمس الدين البدوي فقال

اني كتمت حديث ليلى لم أبح * يوما بظاهره ولا بخفيه
وحفظت عهد ودادها متمسكا * في حبها برشاده أو غيه
ولها سرائر في الضمير طويتها * نسي الضمير بانها في طيه

وقيل كتمان الاسرار يدل على جواهر الرجال وكما أنه لا خير في آنية لا تمسك ما فيها فكذلك لا خير في انسان لا يمسك سره قال الشاعر

بخمسمائة دينار أو تموت كمدا فارتعدت لذلك وعزمت انني أصرف عليها ثمن الكتان جميعه فبينما أنا كذلك والمنادي ينادي معاشر المسلمين ان الهدنة التي بيننا وبينكم قد انقضت وقد أمهلنا من هنا من المسلمين الى جمعة فانقطعت عني وأخذت أنا في تحصيل ثمن الكتان الذي لي والمصالحة على ما بقي منه وأخذت معي بضاعة حسنة وخرجت من عكا وفي قلبي من الأفرنجية ما فيه فوصلت الى دمشق وبعت البضاعة بأوفى ثمن بسبب فراغ الهدنة ومن الله بكسب وافر وأخذت أتجر في الجواري عسى يذهب ما بقلبي من الافرنجية فمضت ثلاث سنين وجرى للسلطان الملك الناصر ما جرى من وقعة حطين وأخذه جميع الملوك وفتحه بلاد الساحل باذن الله تعالى فطلب مني جارية للملك الناصر فأحضرت جارية حسناء فاشتريت له مني بمائة دينار فأوصلوا الى تسعين دينارا وبقيت عشرة دنانير فلم يلقوها في الخزانة ذلك اليوم لأنه أنفق جميع الاموال فشاوروه على ذلك فقال امضوا به الى الخزانة التي فيها السبي من نساء الافرنج فخيروه في واحدة منهن يأخذها بالعشرة الدنانير التي له فأتيت الخيمة فعرفت غريمتي الافرنجية فقلت أعطوني هاتيك فأخذتها ومضيت الى خيمتي وخلوت بها وقلت لها أتعرفينني قالت لا فقلت أنا صاحبك التاجر الذي جرى لي معك ما جرى وأخذت مني الذهب وقلت ما بقيت تبصرني الا بخمسمائة دينار وقد أخذتك ملكا بعشرة دنانير فقالت مد يدك أنا أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فأسلمت وحسن اسلامها فقلت والله لا وصلت اليها الا بأمر القاضي فرحت الى ابن شداد وحكيت له ما جرى فعجب وعقد لي

ومستودعي سرا كتمت مكانه * عن الحس خوفا أن ينم به الحس
وخفت عليه من هوى النفس شهوة * فأودعته من حيث لا يبلغ الحس

(وقال قيس بن الحطيم) أجود بمكنون التلاد وانني * بسرى عمن سالني لضنين
وان ضيع الاقوام سرى فانني * كتوم لاسرار العشير أمين

(وقال جعفر بن عثمان) ياذا الذى أودعنى سره * لا ترج أن تسمعه منى
لم أجره قط على فكرتى * كأنه لم يجر فى أذنى

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول ما أفشيت سرى الى أحد قط فأفشاه فلمته اذ كان صدرى به أضيق وقال الاحنف بن قيس يضيق صدر الرجل بسره فاذا حدث به أحدا قال اكتمه على قال الشاعر

اذا المرء أفشى سره بلسانه * ولام عليه غيره فهو أحمق
اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه * فصدر الذى يستودع السر أضيق

وقال آخر اذا ما ضاق صدرك عن حديث * وأفشته الرجال فمن تلوم
وان عاتبت من أفشى حديثى * وسرى عنده فأنا الملوم

وقال صالح بن عبد القدوس لا تودع سرك الى طالبه فالطالب للسر مذيع ولا تودع مالك عند من يستدعيه فالطالب للوديعة خائن * وقيل لاعرابى ما بلغ من حفظك للسر قال أفرغه تحت شغاف قلبى ثم أجمعه وأنساه كأنى لم أسمعه وكان يقال أحزم الناس من لا يفشى سره الى صديقه مخافة أن يقع بينهما شر فيفشيه عليه وقال حكيم قلوب الاحرار قبور الاسرار وقيل الطمأنينة الى كل أحد قبل الاختبار حمق وقال بعضهم

اذا ما غفرت الذنب يوما لصاحب * فلست معيدا ما حييت له ذكرا
ولست اذا ما صاحب خان عهده * وعندى له سر مذيعا له سرا

وأين هذا من القائل ولا تودع الاسرار أذنى فانما * تصب ماء فى اناء مثلم

أو القائل ولا أكتم الاسرار لكن أذيعها * ولا أدع الاسرار تعلو على قلبى
وان قليل العقل من بات ليلة * تقلبه الاسرار جنبا الى جنب

وقال آخر وانك كلما استودعت سرا * أنم من النسيم على الرياض

وقال اسحق بن ابراهيم الموصلى اناس أمناهم فنموا حديثنا * فلما كتمنا السر عنهم تقولوا

(ولله در المتنبى حيث قال) وللسر منى موضع لا يناله * نديم ولا يفضى اليه شراب

وقد اقتصرنا من ذلك على هذا القدر اليسير وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين والحمد لله رب العالمين

❊ الباب التاسع والثلاثون فى الغدر والخيانة والسرقة والعداوة والبغضاء والحسد وفيه فصول ❊

❊ الفصل الاول فى الغدر والخيانة ❊ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعجل الاشياء عقوبة البغى وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المكر والخديعة والخيانة فى النار وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه ثلاث من كن فيه كن عليه البغى والنكث والمكر قال الله تعالى انما بغيكم على أنفسكم وقال تعالى فمن نكث فانما ينكث على نفسه وقال تعالى ولا يحيق المكر السيئ الا باهله وكم أوقع الغدر فى المهالك من غادر وضاقت عليه من موارد الهلكات فسيحات المصادر وطوقه غدره طوق خزى فهو على فكه غير قادر وأوقعه فى خطة خسف وورطة حتف فماله من قوة ولا ناصر ويشهد لصحة هذه الاسباب ما أحاطت به علوم ذوى الالباب من قصة ثعلبة بن حاطب الانصارى وتلخيص معناه ان ثعلبة هذا كان من أنصار النبى صلى الله عليه وسلم فجاء يوما وقال يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحك يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه ثم أتاه بعد ذلك مرة أخرى فقال يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ثعلبة أما لك فى رسول الله أسوة حسنة والذى نفسى بيده لو أردت ان تسير الجبال معى ذهبا وفضة لسارت ثم أتاه بعد ذلك مرة ثالثة فقال يا رسول الله ادع الله ان يرزقنى مالا والذى بعثك بالحق نبيا لئن رزقنى الله مالا لاعطين كل ذى حق حقه وعاهد الله تعالى على ذلك فقال رسول

عليها وباتت تلك الليلة عندى فخدمتنى ثم رحل العسكر وأتينا دمشق وبعد مدة يسيرة أتى رسول الملك يطلب الاسارى والسبايا باتفاق وقع بين الملوك فردوا من كان أسيرا من الرجال والنساء ولم يبق الا التى عندى فسألوا عنها واتضح الخبر أنها عندى وطلبت منى فحضرت وقد تغير لونى وأحضرتها معى بين يدى مولانا السلطان الملك الناصر والرسول حاضر فقال لها الملك الناصر بحضرة الرسول ترجعين الى بلادك أو الى زوجك فقد فككنا أسرك وأسر غيرك فقالت يا مولانا السلطان أنا قد أسلمت وحبلت وها بطنى كما ترونه وما بقيت الافرنج تنتفع بى فقال لها الرسول أيما أحب اليك هذا المسلم أو زوجك الافرنجى فلان فاعادت عبارتها الاولى فقال الرسول لمن معه من الافرنج اسمعوا كلامها ثم قال لى الرسول خذ زوجتك فوليت بها فطلبنى ثانيا وقال ان أمها أرسلت معى وديعة وقالت ان ابنتى أسيرة وأشتهى أن توصل لها هذه الكسوة فتسلمت الكسوة ومضيت الى الدار وفتحت القماش فاذا هو قماشها بعينه قد سيرته لها أمها ووجدت الصرتين الذهب الخمسين دينارا والمائة دينار كما هما بربطتى لم يتغيرا وهؤلاء الاولاد منها وهى التى صنعت لكم هذا الطعام

❊ ومن لطائف المنقول من المستجاد ❊ قال الواقدى كان ابراهيم بن المهدى قد ادعى الخلافة لنفسه بالرى وأقام مالكها سنة وأحد عشر شهرا واثنى عشر يوما وله أخبار كثيرة أحسنها عندى ما حكاه لى قال لما دخل المأمون الرى فى طلبى وجعل لمن أتاه بى مائة ألف درهم خفت على نفسى وتحيرت فى أمرى فخرجت من دارى وقت الظهر وكان يوما صائفا وما أدرى

الله صلى الله عليه وسلم اللهم ارزق ثعلبة مالا قال فاتخذ ثعلبة غنما فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها ونزل واديا من أوديتها وهي تنمو كما ينمو الدود وكان ثعلبة لكثرة ملازمته للمسجد يقال له حمامة المسجد فلما كثرت الغنم وتنحى صار يصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر ويصلي بقية الصلوات في غنمه فكثرت ونمت حتى بعد عن المدينة فصار لا يشهد الا الجمعة ثم كثرت ونمت فتباعد أيضا عن المدينة حتى صار لا يشهد جمعة ولا جماعة فكان اذا كان يوم الجمعة خرج يتلقى الناس ويسألهم عن الاخبار فذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال ما فعل ثعلبة قال يا رسول الله اتخذ غنما ما يسعها واد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ويح ثعلبة فأنزل الله تعالى آية الصدقة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين رجل من بني سليم ورجل من جهينة وكتب لهما أنصاب الصدقة وكيف يأخذانها وقال لهما مرا بثعلبة بن حاطب وبرجل آخر من بني سليم فخذ صدقاتهما فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذه الا جزية وما هذه الا أخت الجزية انطلقا حتى تفرغا ثم عودا الي فانطلقا وسمع بهما السلمي فنظر الى خيار ابله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رأياه قالا ما هذا قال خذاه فان نفسي به طيبة فمرا على الناس وأخذا الصدقات ثم رجعا الى ثعلبة فقال أروني كتابكما فقرأه ثم قال ما هذه الا جزية أو ما هذه الا أخت الجزية اذهبا حتى أرى رأيا قال فذهبا من عنده وأقبلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآهما قال قبل أن يتكلما يا ويح ثعلبة فأنزل الله تعالى ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا في قلوبهم الى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب وكان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله أن يقبل صدقته فقال ان الله تعالى منعني ان أقبل منك صدقة فجعل ثعلبة يحثو التراب على رأسه ووجهه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني فلما أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبل صدقته رجع الى منزله وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقبل منه شيئا ثم أتى الى أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين استخلف فقال قد علمت منزلتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضعي من الانصار فاقبل صدقتي فقال أبو بكر رضي الله عنه لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم منك فلا أقبلها أنا فقبض أبو بكر رضي الله تعالى عنه ولم يقبلها فلما ولي عمر رضي الله عنه أتاه فقال يا أمير المؤمنين اقبل صدقتي فلم يقبلها منه وقال لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر رضي الله عنه فأنا لا أقبلها وقبض عمر رضي الله عنه ولم يقبلها ثم ولي عثمان بن عفان رضي الله عنه فسأله أن يقبل صدقته فقال له لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر ولا عمر رضي الله عنهما فأنا لا أقبلها ثم هلك ثعلبة في خلافة عثمان رضي الله عنه * فانظر الى سوء عاقبة غدره كيف أذاقه وبال أمره ووسمه بسمة عار قضت عليه بخسره وأعقبه نفاقا يخزيه يوم فاقته وفقره فأي خزي أربح من ترك الوفاء بالميثاق وأي سوء أقبح من غدر يسوق الى النفاق وأي عار أفضح من نقض العهد اذا عدت مساوي الاخلاق وكان يقال لم يغدر غادر قط الا لصغر همته عن الوفاء واتضاع قدره عن احتمال المكاره في جنب نيل المكارم قال الشاعر

غدرت بأمر كنت أنت جذبتنا * اليه وبئس الشيمة الغدر بالعهد

ولما حلف محمد الأمين للمأمون في بيت الله الحرام وهما وليا عهد طالبه جعفر بن يحيى أن يقول خذلني الله ان خذلته فقال ذلك ثلاث مرات فقال الفضل بن الربيع قال لي الأمين في ذلك الوقت عند خروجه من بيت الله يا أبا العباس أجد في نفسي أن أمري لا يتم فقلت له ولم ذلك أعز الله الأمير قال لأني كنت أحلف وأنا أنوي الغدر وكان كذلك لم يتم أمره (وورد) في أخبار العرب أن الضيزن بن معاوية بن قضاعة كان ملكا بين دجلة والفرات وكان له هناك قصر مشيد يعرف بالجوسق وبلغ ملكه الشام فأغار على مدينة سابور ذي الأكتاف فأخذها وأخذ أخت سابور وقتل منهم خلقا كثيرا ثم ان سابور جمع جيوشا وسار الى الضيزن فأقام على الحصن أربع سنين لا يصل منه الى شيء ثم ان النضيرة بنت الضيزن عركت أي حاضت فخرجت من الربض وكانت من أجمل أهل دهرها وكذلك كانوا يفعلون بنسائهم اذا حضن وكان سابور من أجمل أهل زمانه فرآها ورأته فعشقها

أين أتوجه فوقفت في شارع غير نافذ وقلت انا لله وانا اليه راجعون ان عدت على أثري يرتاب في أمري فرأيت في صدر الشارع عبدا أسود قائما على باب دار فتقدمت اليه وقلت هل عندك موضع أقيم فيه ساعة من نهار فقال نعم وفتح الباب فدخلت الى بيت نظيف فيه حصر وبسط ووسائد جلود الا أنها نظيفة ثم أغلق الباب علي ومضى فتوهمته قد سمع الجعالة في وانه خرج ليدل علي فبقيت على مثل النار فبينما أنا كذلك اذ أقبل ومعه حمال عليه كل ما يحتاج اليه من خبز ولحم وقدر جديدة وجرة نظيفة وكيزان جدد فحط عن الحمال ثم التفت الي وقال جعلني الله فداك أنا رجل حجام وأنا أعلم أنك تتقزز مني لما أتولاه من معيشتي فشأنك بما لم تقع عليه يد وكان بي حاجة الى الطعام فطبخت لنفسي قدرا ما أذكر أني أكلت مثلها فلما قضيت أربي من الطعام قال هل لك في شراب فانه يسلي الهم فقلت ما أكره ذلك رغبة في مؤانسته فأتى بقطرميز جديد لم تمسه يد وجاءني بدست شراب مطينة وقال لي روق لنفسك فروقت شرابا في غاية الجودة وأحضر لي قدحا جديدا وفاكهة وأبقالا مختلفة في طسوت فخار جدد ثم قال بعد ذلك أتأذن لي جعلت فداءك أن أقعد ناحية وآتي بشرابي فأشربه سرورا بك فقلت له افعل فشرب وشربت ثم دخل الى خزانة له فأخرج عودا مصفحا ثم قال يا سيدي ليس من قدري أن أسألك في الغناء ولكن قد وجبت علي مروءتك حرمتي فان رأيت أن تشرف عبدك فلك علو الرأي فقلت ومن أين لك أني أحسن الغناء فقال يا سبحان الله مولانا أشهر من ذلك أنت ابراهيم بن المهدي خليفتنا بالأمس الذي جعل المأمون ان دله عليك مائة ألف

وعشقته وأرسلت اليه تقول ما تجعل لى ان دللتك على ما تهدم به هذه المدينة وتقتل أبى فقال أحكمك فقالت عليك بحمامة مطوقة ورقاء فاكتب عليها بحيض جارية ثم أطلقها فانها تقعد على حائط المدينة فتداعى المدينة كلها وكان ذلك طلسما لا يهدمها الا هو ففعل ذلك فقالت له وأنا أسقى الحرس الخمر فاذا صرعوا فاقتلهم ففعل ذلك فتداعت المدينة وفتحها سابور عنوة وقتل الضيزن واحتمل ابنته النضيرة وأعرس بها فلما دخل بها لم تزل ليلتها تتضرر وتتململ فى فراشها وهو من حرير محشو بريش النعام فالتمس ما كان يؤذيها فاذا هو ورقة آس التصقت بعكنتها وأثرت فيها وقيل كان ينظر الى مخ عظمها من صفاء بشرتها ثم ان سابور بعد ذلك غدر بها وقتلها قيل انه أمر رجلا فركب فرسا جموحا وضفر غدائرها بذنبه ثم استركضه فقطعها قطعا فقطعه الله ما أغدره * وتقول العرب جزانى جزاء سنمار وهو أن ازدجر بن سابور لما خاف على ولده بهرام وكان قبله لا يعيش له ولد سأل عن منزل صحيح مرىء فدل على ظهر الجزيرة فدفع ابنه بهرام الى النعمان وهو عامله على أرض العرب وأمره أن يبنى له جوسقا فامتثل أمره وبنى له جوسقا كأحسن ما يكون وكان الذى بنى الجوسق رجلا يقال له سنمار فلما فرغ من بنائه عجبوا من حسنه فقال لو علمت أنكم توفونى أجرته لبنيته بناء يدور مع الشمس حيث دارت فقالوا وانك لتبنى أحسن من هذا ولم تبنه ثم أمر به فطرح من أعلى الجوسق فتقطع فكانت العرب تقول جزانى جزاء سنمار * وممن غدر عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله غدر بعلى رضى الله عنه وقتله وعمرو بن جرموز غدر بالزبير بن العوام رضى الله عنه وقتله * وأبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة لعنه الله غدر بامير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقتله * وجعل المنصور العهد الى عيسى بن موسى ثم غدر به وأخره وقدم المهدى عليه فقال عيسى

أينسى بنو العباس ذبى عنهم * بسيفى ونار الحرب زاد سعيرها
فتحت لهم شرق البلاد وغربها * فذل معاديها وعز نصيرها
أقطع أرحاما على عزيزة * وأبدى مكيدات لها وأثيرها
فلما وضعت الأمر فى مستقره * ولاحت له شمس تلألأ نورها
دفعت عن الأمر الذى أستحقه * وأوسق أوساقا من الغدر عيرها

وخرج قوم لصيد فطردوا ضبعة حتى ألجؤها الى خباء اعرابى فأجارها وجعل يطعمها ويسقيها فبينما هو نائم ذات يوم اذ وثبت عليه فبقرت بطنه وهربت فجاء ابن عمه يطلبه فوجده ملقى فتبعها حتى قتلها وأنشد يقول

ومن يصنع المعروف مع غير أهله * يلاقى كما لاقى مجير أم عامر
أعد لها لما استجارت ببيته * أحاليب ألبان اللقاح الدوائر
وأسمنها حتى اذا ما تمكنت * فرته بأنياب لها وأظافر
فقل لذوى المعروف هذا جزاء من * يجود بمعروف على غير شاكر

(وحكى) بعضهم قال دخلت البادية فاذا أنا بعجوز بين يديها شاة مقتولة والى جانبها جرو ذئب فقالت أتدرى ما هذا فقلت لا قالت هذا جرو ذئب أخذناه صغيرا وأدخلناه بيتنا وربيناه فلما كبر فعل بشاتى ما ترى وأنشدت

بقرت شويهتى وفجعت قومى * وأنت لشاتنا ابن ربيب
غذيت بدرها ونشأت معها * فمن أنباك أن أباك ذيب
اذا كان الطباع طباع سوء * فلا أدب يفيد ولا أديب

اللهم انا نعوذ بك من البغى وأهله ومن الغادر وفعله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿الفصل الثانى فى السرقة والسراق﴾ قيل مر عمر بن عبيد بجماعة وقوف فقال ما هذا قيل السلطان يقطع سارقا فقال لا اله الا الله سارق العلانية يقطع سارق السر وأمر الاسكندر بصلب سارق فقال أيها الملك انى فعلت ما فعلت وأنا كاره فقال وتصلب أيضا وأنت كاره * وسرق مدنى قميصا فأعطاه لابنه يبيعه فسرق منه فجاءه فقال بكم بعته قال برأس المال وقال أكتل السلمى وكان لصا فاتكا

وانى لأستحيى من الله أن أرى * أجرجر حبلى ليس فيه بعير
وأن أسأل المرء الدنىء بعيره * وأجمال ربى فى البلاد كثير

(وقال الفرزدق) وان أبا الكرشاء ليس بسارق * ولكن متى ما يسرق القوم يأكل

وكان لعمرو بن دويرة البجلى أخ قد كلف ببنت عم له فتسور عليها الدار ذات ليلة فأخذه اخوتها وأتوا به خالد بن عبد الله القسرى وجعلوه سارقا فسأله خالد فصدقهم ليدفع الفضيحة عن الجارية فهم خالد بقطعه فقال عمرو

ذرهم فلما قال ذلك عظم فى عينى وثبتت مروءته عندى فتناولت العود وأصلحته وغنيت وقد مر بخاطرى فراق أهلى وولدى

وعسى الذى أهدى ليوسف أهله * واعزه فى السجن وهو أسير
أن يستجيب لنا فيجمع شملنا * والله رب العالمين قدير

فاستولى عليه الطرب المفرط وطاب عيشه كثيرا ومن شدة طربه وسروره قال لى يا سيدى أتأذن لى أن أغنى ما سنح بخاطرى وان كنت من غير أهل هذه الصناعة فقلت هذا زيادة فى أدبك ومروءتك فأخذ العود وغنى

شكونا الى أحبابنا طول ليلنا * فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا
وذاك لان النوم يغشى عيونهم * سريعا ولا يغشى لنا النوم أعينا
اذا ما دنا الليل المضر بذى الهوى * جزعنا وهم يستبشرون اذا دنا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثل ما * نلاقى لكانوا فى المضاجع مثلنا

فوالله لقد أحسست بالبيت قد سار بى وذهب عنى كل ما كان بى من الهلع وسألته أن يغنى فغنى

تعيرنا انا قليل عديدنا * فقلت لها ان الكرام قليل
وما ضرنا انا قليل وجارنا * عزيز وجار الاكثرين ذليل
وانا لقوم لا نرى القتل سبة * اذا ما رأته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا * وتكرهه آجالهم فتطول

فداخلنى من الطرب ما لا مزيد عليه الى أن عاجلنى السكر فلم أستيقظ الا بعد المغرب فعاودنى فكرى فى نفاسة هذا الحجام وحسن أدبه وظرفه فقمت وغسلت وجهى وأيقظته وأخذت خريطة كانت صحبتى فيها دنانير لها قيمة فرميت بها اليه وقلت له أستودعتك الله فانى ماض من عندك وأسألك أن تصرف ما فى

وأخوه
أخا لدقد والله أوطئت عشوة * وما العاشق المظلوم فينا بسارق
أقر بعالم يأته المرء انه * رأى القطع خيرا من فضيحة عاشق

فعفا عنه خالد وزوجه الجارية

﴿الفصل الثالث فيما جاء في العداوة والبغضاء﴾ قد ذكر الله عز وجل العداوة والبغضاء في كتابه العزيز فقال تعالى وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة وقال تعالى ان الشيطان للانسان عدو مبين وقال تعالى ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا وقال تعالى ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه العداوة تتوارث وقال زياد بن عبد الله

فلو أني بليت بهاشمي * خؤولته بنو عبد المدان
صبرت على عداوته ولكن * تعالوا فانظروا بمن ابتلاني

ونث رجل في وجه أبي عبيدة مكروها فأنشأ يقول

فلو أن لحمي اذ وهى لعبت به * سباع كرام أو ضباع وأذؤب
لهون وجدي أو لسلى مصيبتي * ولكنما أودى بلحمي أكلب

وقيل لكسرى أي الناس أحب اليك أن يكون عاقلا قال عدوي قيل وكيف ذلك قال لانه اذا كان عاقلا كنت منه في عافية وأمن وقيل كونوا من المرء الدخل أخوف من الكاشح المعلن فان مداواة أهل العلل الظاهرة أهون من مداواة ما خفي و بطن وقالوا اياك أن تعادي من اذا شاء طرح ثيابه ودخل مع الملك في لحافه وقال أبو العتاهية

تنح عن القبيح ولا ترده * ومن أوليته حسنا فزده
ستلقى من عدوك كل كيد * اذا كاد العدو ولم تكده

وكانت جليلة بنت مرة أخت جساس تحت كليب فقتل أخوها زوجها وهي حبلى بهجرس بن كليب فلما كبر وشب قال

أصاب أبي خالي وما أنا بالذي * أميل وأمري بين خالي ووالدي
وأورث جساس بن مرة غصة * اذا ما اعترتني حرها غير بارد

ثم قال بعد ذلك

يا للرجال لقلب ماله جلد * كيف العزاء وثأري عند جساس

ثم حمل على خاله فقتله وقال

ألم ترني ثأرت أبي كليبا * وقد يرجى المرشح للدخول
غسلت العار عن جشم ابن بكر * بجساس بن مرة ذي البتول

(بيت) سن العداوة آباء لنا سلفوا * فلن تبيد وللآباء أبناء

ويقال دار عدوك لأحد أمرين اما لصداقة تؤمنك أو لفرصة تمكنك وكتب سويد الى مصعب

فبلغ مصعبا عني رسولي * وهل تلقى النصيح بكل واد
تعلم أن أكثر من تناجي * وان ضحكوا اليك هم الاعادي

ويقال فلان كثير المراق مر المذاق وقال الحجاج الخارجي والله اني لابغضك قال أدخل الله الجنة أشدنا بغضا لصاحبه * ولما أراد أنو شروان أن يقلد ابنه هرمز ولاية العهد استشار عظماء مملكته فأنكروا عليه وقال بعضهم ان أمه تركية وقد علمت في أخلاقهم ما علمت فقال ان الابناء ينسبون الى الآباء لا الى الامهات وكانت أم قباذ تركية وقد رأيتم من حسن سيرته ما رأيتم فقيل هو قصير وذلك يذهب ببهاء الملك فقال ان قصره من رجليه ولا يكاد يرى الا جالسا أو راكبا فلا يستبين ذلك فيه فقيل هو بغيض في الناس فقال أواه هلك ابني هرمز فقد قيل اذا كان في الانسان خير واحد ولم يكن ذلك الخير المحبة في الناس فلا خير فيه واذا كان فيه عيب واحد ولم يكن ذلك العيب البغض في الناس فلا عيب فيه

ولست براء عيب ذي الود كله * ولا بعض ما فيه اذا كنت راضيا
فعين الرضا عن كل عيب كليلة * كما أن عين السخط تبدي المساويا

وفي المعنى قيل
وعين البغض تبرز كل عيب * وعين الحب لا تجد العيوبا

هذه الخريطة في بعض مهماتك ولك عندي المزيد ان أمنت من خوفي فأعادها الي منكرا وقال ياسيدي ان الصه اليك مثالا قدر لهم عندكم آخذ على ما وهبنيه الزمان من قربك وحلولك عندي ثمنا والله لئن راجعتني في ذلك لاقتلن نفسي فأعدت الخريطة الى كمي وقد أثقلني حملها فلما انتهيت الى باب داره قال لي ياسيدي ان هذا المكان أخفى لك من غيره وليس في مؤنتك على ثقلة فأقم عندي الى ان يفرج الله عنك فرجعت وسألته أن ينفق من تلك الخريطة فلم يفعل فأقمت عنده أياما على تلك الحالة في ألذ عيش فتذممت من الاقامة في مؤنته واحتشمت من التثقيل عليه فتركته وقد مضى يحدث لنا حالا وقت فتزييت بزي النساء بالخف والنقاب وخرجت فلما صرت في الطريق داخلني من الخوف أمر شديد وجئت لاعبر الجسر فاذا أنا بموضع مرشوش عاما فبصر بي جندي ممن كان يخدمني فعرفني فقال هذه حاجة المأمون فتعلق بي فمن حلاوة الروح دفعته هو وفرسه فرميتهما في ذلك الزلق فصار عبرة وتبادر الناس اليه فاجتهدت في المشي حتى قطعت الجسر ودخلت شارعا فوجدت باب دار وامرأة واقفة في دهليز فقلت ياسيدة النساء احقني دمي فاني رجل خائف فقالت على الرحب وأطلعتني الى غرفة مفروشة وقدمت لي طعاما وقالت يهدأ روعك فما علم بك مخلوق واذا بالباب يدق دقا عنيفا فخرجت وفتحت الباب واذا بصاحبي الذي دفعته على الجسر وهو مشدود الرأس ودمه يجري على ثيابه وليس معه فرس فقالت ياهذا ما دهاك فقال ظفرت بالمغني وانفلت مني فأخبرها بالحال فأخرجت خرقا وعصبته بها وفرشت له ونام عليلا وطلعت الى وقالت أظنك صاحب القصة فقلت نعم قالت

وعن أبي حبان قال قال لقمان نقلت الصخور وحملت الحديد فلم أر شيأ أثقل من الدين وأكلت الطيبات وعانقت الحسان فلم أر شيأ ألذ من العافية وأنا أقول لو نزحوا البحار وكنسوا القفار لوجدوها أهون من شماتة الأعداء خصوصا اذا كانوا مساهمين في نسب أو مجاورين في بلد اللهم انا نعوذ بك من تتابع الاثم وسوء الفهم وشماتة ابن العم وقيل لأيوب عليه السلام أي شئ كان عليك في بلائك أشد قال شماتة الأعداء وأنشد الجاحظ

تقول العاذلات تسل عنها * وداو عليل قلبك بالسلو
وكيف ونظرة منها اختلاسا * ألذ من الشماتة بالعدو

وقال ابن أبي جهينة المهلبي كل المصائب قد تمر على الفتى * فتهون غير شماتة الأعداء

وقال الجاحظ ما رأيت سنانا أنفذ من شماتة الأعداء وقيل لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع بموته نساء من كندة وحضرموت فخضبن أيديهن وضربن بالدفوف فقال رجل منهم

أبلغ أبا بكر اذا ما جئته * ان البغايا من بني مرام
أظهرن في موت النبي شماتة * وخضبن أيديهن بالعلام
فاقطع هديت أكفهن بصارم * كالبرق أومض في متون غمام

فكتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه الى المهاجر عامله فأخذهن وقطع أيديهن ويقال فلان يتربص بك الدوائر ويتمنى لك الغوائل ولا يؤمل صلاحا الا في فسادك ولا رفعة الا في سقوط حالك وقال حكيم لا تأمن عدوك وان كان ضعيفا فان القناة قد تقتل وان عدمت السنان قال الشاعر

فلا تأمن عدوك لو تراه * أقل اذا نظرت من القراد
فان الحرب ينشأ من جبان * وان النار تضرم من رماد

(بيت مفرد) فمن لم يكن منكم مسيئا فانه * يشد على كف المسئ فيجاب

وقال عبد الله بن سليمان بن وهب

كفاية الله خير من توقينا * وعادة الله في الماضين تكفينا
كاد الأعادي فلا والله ما تركوا * قولا وفعلا وتلقينا وتهجينا
ولم نزد نحن في سر وفي علن * على مقالتنا يا ربنا اكفينا
فكان ذاك ورد الله حاسدنا * بغيظه لم ينل تقديره فينا

﴿الفصل الرابع في الحسد﴾ قال الله تعالى أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فان كل ذي نعمة محسود وقال علي رضي الله عنه الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له وقيل الحسود غضبان على القدر ويقال ثلاثة لا يهنأ لصاحبها عيش الحقد والحسد وسوء الخلق وقيل بئس الشعار الحسد وقيل لبعضهم ما بال فلان يبغضك قال لانه شقيقي في النسب وجاري في البلد وشريكي في الصناعة فذكر جميع دواعي الحسد وقال اعرابي الحسد داء منصف يفعل في الحاسد أكثر من فعله في المحسود وهو مأخوذ من الحديث قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله وقال الفقيه أبو الليث السمرقندي رحمه الله تعالى يصل الى الحاسد خمس عقوبات قبل ان يصل حسده الى المحسود أولاها غم لا ينقطع الثانية مصيبة لا يؤجر عليها الثالثة مذمة لا يحمد عليها الرابعة سخط الرب الخامسة يغلق عنه باب التوفيق ﴿ومن ذلك﴾ ما حكي أن رجلا من العرب دخل على المعتصم فقربه وأدناه وجعله نديمه وصار يدخل على حريمه من غير استئذان وكان له وزير حاسد فغار من البدوي وحسده وقال في نفسه ان لم أحتل على هذا البدوي في قتله أخذ بقلب أمير المؤمنين وأبعدني منه فصار يتلطف بالبدوي حتى أتى به الى منزله فطبخ له طعاما وأكثر فيه من الثوم فلما أكل البدوي منه قال له احذر أن تقرب من أمير المؤمنين يشم منك رائحة الثوم فيتأذى من ذلك فانه يكره رائحته ثم ذهب الوزير الى أمير المؤمنين فخلا به وقال يا أمير المؤمنين ان البدوي يقول عنك للناس ان أمير المؤمنين أبخر وهلكت من رائحة فمه فلما دخل البدوي على أمير المؤمنين جعل كمه على فمه مخافة أن يشم منه رائحة الثوم فلما رآه أمير المؤمنين وهو يستر فمه بكمه قال ان الذي قاله الوزير عن هذا البدوي صحيح فكتب أمير المؤمنين كتابا الى بعض عماله يقول له فيه اذا وصل اليك كتابي هذا فاضرب رقبة حامله ثم دعا بالبدوي ودفع اليه الكتاب وقال له امض به الى فلان وائتني بالجواب فامتثل البدوي ما رسم به أمير المؤمنين وأخذ الكتاب وخرج به من عنده

لا بأس عليك ثم جددت لي الكرامة وأقمت عندها ثلاثا ثم قالت اني خائفة عليك من هذا الرجل لئلا يطلع عليك فينم بك فانج بنفسك فسألتها المهلة الى الليل ففعلت فلما دخل الليل لبست زي النساء وخرجت من عندها فأتيت الى بيت مولاة كانت لنا فلما رأتني بكت وتوجعت وحمدت الله على سلامتي وخرجت كأنها تريد السوق للاهتمام بالضيافة فظننت خيرا فما شعرت الا بابراهيم الموصلي بنفسه في خيله ورجله والمولاة معه حتى سلمتني اليه فرأيت الموت عيانا وحملت بالزي الذي أنا فيه الى المأمون فجلس مجلسا عاما وأدخلني اليه فلما مثلت بين يديه سلمت عليه بالخلافة فقال لا سلم الله عليك ولا حياك ولا رعاك فقلت له على رسلك يا أمير المؤمنين ان ولي الثار محكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى وقد جعلك الله فوق كل عفو كما جعل ذنبي فوق كل ذنب فان تأخذ فبحقك وان تعف فبفضلك ثم أنشدت

ذنبي اليك عظيم * وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أولا * فاصفح بحلمك عنه
ان لم أكن في فعالي * من الكرام فكنه

فرفع الي رأسه فبدرته وقلت

أتيت ذنبا عظيما * وأنت للعفو أهل
فان عفوت فمن * وان جزيت فعدل

فرق المأمون واستروحت روائح الرحمة من شمائله ثم أقبل على ابنه العباس وأخيه أبي اسحق وجميع من حضر من خاصته فقال ما ترون في أمره فكل أشار بقتلي الا أنهم اختلفوا في القتلة كيف تكون فقال المأمون لاحمد بن أبي خالد ما تقول يا أحمد فقال يا أمير المؤمنين ان تقتله وجدنا مثلك قتل مثله وان

فبينماهو بالباب اذ لقيه الوزير فقال أين تريد قال أتوجه بكتاب أمير المؤمنين الى عامله فلان فقال الوزير في نفسه ان هذا البدوي يحصل له من هذا التقليد مال جزيل فقال له يا بدوي ما تقول فيمن يريحك من هذا التعب الذي يلحقك في سفرك ويعطيك ألفي دينار فقال أنت الكبير وأنت الحاكم ومهما رأيته من الرأي افعل قال أعطني الكتاب فدفعه اليه فأعطاه الوزير ألفي دينار وسار بالكتاب الى المكان الذي هو قاصده فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب رقبة الوزير فبعد أيام تذكر الخليفة في أمر البدوي وسأل عن الوزير فاخبر بأن له أياما ما ظهر وان البدوي بالمدينة مقيم فتعجب من ذلك وأمر باحضار البدوي فحضر فسأله عن حاله فأخبره بالقصة التي اتفقت له مع الوزير من أولها الى آخرها فقال له أنت قلت عني للناس اني أبخر فقال معاذ الله يا أمير المؤمنين أن أتحدث بما ليس لي به علم وانما كان ذلك مكرا منه وحسدا واعلمه كيف دخل به الى بيته وأطعمه الثوم وما جرى له معه فقال أمير المؤمنين قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله ثم خلع على البدوي واتخذه وزيرا وراح الوزير بحسده وقال المغيرة شاعر آل المهلب

آل المهلب قوم ان مدحتهم * كانوا الاكارم آباء وأجدادا
ان العرانين تلقاها محسدة * ولا ترى للئام الناس حسادا

وقال عمر رضي الله عنه يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك وقال مالك بن دينار شهادة القراء مقبولة في كل شئ الا شهادة بعضهم على بعض فانهم أشد تحاسدا من التيوس وعن أنس رضي الله تعالى عنه رفعه ان الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب وقال منصور الفقيه

منافسة الفتى فيما يزول * على نقصان همته دليل
ومختار القليل أقل منه * وكل فوائد الدنيا قليل

يقول الله عز وجل الحاسد عدو نعمتي متسخط لفعلي غير راض بقسمتي التي قسمت لعبادي قال الشاعر

أيا حاسدا لي على نعمتي * أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على الله في حكمه * لانك لم ترض لي ما وهب
فجازاك ربي بان زادني * وسد عليك وجوه الطلب

وقال الأصمعي رأيت اعرابيا قد بلغ عمره مائة وعشرين سنة فقلت له ما أطول عمرك فقال تركت الحسد فبقيت وقالوا الاخاء والسيد من ودود يمدح وحسود يقدح وقال ابن مسعود رضي الله عنه ألا لا تعادوا نعم الله قيل ومن يعادي نعم الله قال الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله وقيل لعبد الله بن عروة لم لزمت البدو وتركت قومك فقال وهل بقي الا حاسد على نعمة أو شامت على نكبة وقال الشاعر

يا طالب العيش في أمن وفي دعة * رغدا بلا قتر صفوا بلا رنق
خلص فؤادك من غل ومن حسد * فالغل في القلب مثل الغل في العنق

(وقال آخر)

اصبر على حسد الحسود * فان صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها * ان لم تجد ما تأكله

وفي نوابغ الحكم الحسد حسك من تعلق به هلك ولبعضهم

اني حسدت فزاد الله في حسدي * لا عاش من عاش يوما غير محسود

(وقال نصر بن سيار)

اني نشأت وحسادي ذوو عدد * يا ذا المعارج لا تنقص لهم عددا
ان يحسدوني على ما بي لما بهم * فمثل ما بي مما يجلب الحسدا

وكان عمر رضي الله عنه يقول نعوذ بالله من كل قدر وافق ارادة حاسد وقيل لارسطاطاليس ما بال الحسود أشد غما قال لانه أخذ بنصيبه من غموم الدنيا ويضاف الى ذلك غمه لسرور الناس والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباب الاربعون في الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها وفضل الجهاد وشدة البأس والتحريض على القتال وفيه فصلان

الفصل الاول في فضل الجهاد في سبيل الله وشدة البأس

قد أثنى الله تعالى على الصابرين في البأساء

عفوت عنه لم يجد مثلا شفاعن مثله فنكس المأمون رأسه وجعل ينكت في الارض وأنشد متمثلا

قومي هم قتلوا أميم أخي
فاذا رميت يصيبني سهمي

فكشفت المقنعة عن رأسي وكبرت تكبيرة عظيمة وقلت عفا والله عن أمير المؤمنين فقال المأمون لا بأس عليك يا عم فقلت ذنبي يا أمير المؤمنين أعظم من أن أتفوه معه بعذر وعفوك أعظم من أن أنطق معه بشكر ولكن أقول

ان الذي خلق المكارم حازها
في صلب آدم للامام السابع
ملئت قلوب الناس منك مهابة
وتظل تكلؤهم بقلب خاشع
ما ان عصيتك والغواة تمدني
أسبابها الا بنية طائع
فعفوت عمن لم يكن عن مثله
عفو ولم يشفع اليك بشافع
ورحمت أطفالا كافراخ القطا
وحنين والدة بقلب جازع

فقال المأمون لا تثريب عليك اليوم قد عفوت عنك ورددت عليك مالك وضياعك فقلت

رددت مالي ولم تبخل علي به
وقبل ردك مالي قد حقنت دمي
فلو بذلت دمي أبغي رضاك به
والمال حتى أسل النعل من قدمي
ما كان ذلك سوى عارية رجعت
اليك لو لم تعرها كنت لم تلم
فان جحدتك ما أوليت من كرم
اني الى اللؤم أولى منك بالكرم

فقال المأمون ان من الكلام دررا وهذا منه وخلع علي وقال يا عم ان أبا اسحق والعباس أشارا بقتلك فقلت انهم ما نصحاك يا أمير المؤمنين ولكن أتيت بما أنت أهله ودفعت ما خفت بما رجوت فقال المأمون يا عم امت حقدي بحياة عذرك وقد عفوت عنك ولم أجرعك مرارة امتنان الشافعين ثم سجد المأمون طويلا ورفع رأسه وقال يا عم

والضراء وحين الباس ووصف المجاهدين فقال تعالى ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص وندب الى جهاد الاعداء ووعد عليه أفضل الجزاء والرأى فى الحرب امام الشجاعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة وقال صلى الله عليه وسلم ما من قطرة أحب الى الله تعالى من قطرة دم فى سبيله أو قطرة دمع فى جوف ليل من خشيته وسمع رجل عبد الله بن قيس رضى الله عنه يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الجنة تحت ظلال السيوف فقال يا أبا موسى أنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله قال نعم فرجع الى أصحابه فقال اقرأ عليكم السلام ثم كسر جفن سيفه فالقاه ثم مشى بسيفه الى العدو فضرب به حتى قتل وكتب أبو بكر الصديق رضى الله عنه الى خالد بن الوليد اعلم ان عليك عيونا من الله ترعاك وتراك فاذا لقيت العدو فاحرص على الموت توهب لك السلامة ولا تغسل الشهداء من دمائهم فان دم الشهيد يكون له نورا يوم القيامة وعن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انتهينا الى خيبر الله أكبر خربت خيبر انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين وعنه رفعه لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها وعن ابن مسعود رفعه ان أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تاوى الى تلك القناديل وقيل ان أنس بن النضر عم أنس بن مالك رضى الله عنه لم يشهد بدرا فلم يزل متحسرا يقول أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه فلما كان يوم أحد قال واها لريح الجنة دون أحد فقاتل حتى قتل فوجد فى بدنه بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورمية فقالت أخته الربيع بنت النضر فما عرفت أخى الا ببنانه وعن فضالة بن عبيد رفعه كل ميت يختم على عمله الا المرابط فانه ينمى له عمله الى يوم القيامة ويؤمن من فتنة القبر وعن سهل بن حنيف رفعه من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وان مات على فراشه فنسأل الله أن يرزقنا الشهادة ويجعلنا من الذين أحسنوا فلهم الحسنى وزيادة

✻ الفصل الثانى فى الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها ✻

اعلم ان الشجاعة عماد الفضائل ومن فقدها لم تكمل فيه فضيلة ويعبر عنها بالصبر وقوة النفس قال الحكماء وأصل الخير كله فى ثبات القلب والشجاعة عند اللقاء على ثلاثة أوجه الوجه الاول اذا التقى الجمعان وتزاحف العسكران وتكالحت الاحداق بالاحداق برز من الصف الى وسط المعترك يحمل ويكر وينادى هل من مبارز والثانى اذا نشب القوم واختلطوا ولم يدر أحد منهم من أين ياتيه الموت يكون رابط الجأش ساكن القلب حاضر اللب لم يخالطه الدهش ولا تأخذه الحيرة فيتقلب تقلب المالك لاموره القائم على نفسه والثالث اذا انهزم أصحابه يلزم الساقة ويضرب فى وجوه القوم ويحول بينهم وبين عدوهم ويقوى قلوب أصحابه ويرجى الضعيف ويمدهم بالكلام الجميل ويشجع نفوسهم فمن وقع أقامه ومن وقف حمله ومن كبا به فرسه حماه حتى ييأس العدو منهم وهذا أحمدهم شجاعة وعن هذا قالوا ان المقاتل من وراء الفارين كالمستغفر من وراء الغافلين ومن أكرم الكرم الدفاع عن الحرم (وحكى) سيدى أبو بكر الطرطوشى رحمة الله تعالى عليه فى كتابه سراج الملوك قال كان شيوخ الجند يحكون لنا فى بلادنا قالوا دارت حرب بين المسلمين والكفار ثم افترقوا فوجدوا فى المعترك قطعة خودة قدر الثلث بما حوته الرأس فقالوا انه لم ير قط ضربة أقوى منها ولم يسمع بمثلها فى جاهلية ولا اسلام فحملتها الروم وعلقتها فى كنيسة لهم فكانوا اذا عيروا بانهزامهم يقولون لقينا أقواما هذا ضربهم فيرحل ابطال الروم اليها ليروها قالوا ومن الحزم ان لا يحتقر الرجل عدوه وان كان ذليلا ولا يغفل عنه وان كان حقيرا فكم برغوث أسهر فيلا ومنع الرقاد ملكا جليلا قال الشاعر

فلا تحقرن عدوا رماك * وان كان فى ساعديه قصر

فان السيوف تحز الرقاب * وتعجز عما تنال الابر

واعلموا أن الناس قد وضعوا فى تدبير الحروب كتبا ورتبوا فيها ترتيبا ولنصف منها أشياء نبدأ منها أولا بما ذكره الله تعالى فى القرآن العظيم قال الله تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم فقوله تعالى ما استطعتم مشتمل على كل ما هو فى مقدور البشر من العدة والآلة والحيلة وفسر النبى صلى الله عليه وسلم القوة حين مر على أناس يرمون فقال ألا ان القوة الرمى ألا ان القوة الرمى ألا ان القوة الرمى وأفضل العدة أن تقدم بين يدى اللقاء عملا صالحا من صدقة وصيام ورد المظالم وصلة الرحم ودعاء مخلص وأمر بمعروف ونهى عن منكر وأمثال ذلك والشان كل الشان فى استجادة القواد وانتخاب الامراء وأصحاب

أتدرى لم سجدت قالت شكرا لله تعالى الذى اظفرك بعدوك ودولتك فقال ما اردت هذا ولكن شكرا لله الذى الهمنى العفو عنك فحدثنى الآن حديثك فشرحت له صورة امرى وما جرى لى مع الحجام والجندى والمرأة والمولاة التى نمت على فامر المأمون باحضارها وهى فى دارها تنتظر الجائزة فقال لها ما حملك على ما فعلت مع سيدك فقالت الرغبة فى المال فقال لها هل لك ولد أو زوج قالت لا فامر بضربها مائتى سوط وخلد سجنها ثم قال احضروا الجندى وامرأته والحجام فاحضروا فسأل الجندى عن السبب الذى حمله على ما فعل فقال الرغبة فى المال فقال المأمون أنت يجب أن تكون حجاما ووكل به ما يلزمه الجلوس فى دكان الحجام ليتعلم الحجامة وأكرم زوجته وأدخلها الى القصر وقال هذه امرأة عاقلة تصلح للمهمات ثم قال للحجام لقد ظهر من مروءتك ما يوجب المبالغة فى اكرامك وسلم اليه دار الجندى بما فيها وخلع عليه وانعم عليه برزقه وزيادة الف دينار فى كل سنة ولم يزل فى تلك النعمة الى ان مات (ومما يضارع ذلك) أنه لما أفضت الخلافة الى بنى العباس اختفت رجال بنى أمية ومنهم ابراهيم بن سليمان بن عبد الملك وكان ابراهيم رجلا عالما عاملا أديبا كاملا وهو فى سن الشبيبة فاخذوا له أمانا من السفاح فقال له يوما حدثنى عما مر بك فى اختفائك قال كنت يا أمير المؤمنين مختفيا بالحيرة فى منزل بشارع على الصحراء فبينما أنا على ظهر البيت اذ نظرت الى أعلام سود قد خرجت من الكوفة تريد الحيرة فتخيلت أنها تريدنى فخرجت من الدار متنكرا حتى أتيت الكوفة ولا أعرف أحدا اختفى عنده فبقيت فى حيرة فاذا أنا بباب كبير رحبته واسعة فدخلت

الالوية فقد قالت حكماء العجم أسد يقود ألف ثعلب خير من ثعلب يقود ألف أسد فلا ينبغي أن يقدم الجيش الا الرجل ذو البسالة والنجدة والشجاعة والجراءة ثابت الجأش صارم القلب صادق البأس ممن قد توسط الحروب ومارس الرجال ومارسوه ونازل الاقران وقارع الابطال عارفا بمواضع الفرص خبيرا بمواقع القلب والميمنة والميسرة من الحروب فانه اذا كان كذلك وصدر الكل عن رأيه كانوا جميعا كأنهم مثله فانه ان رأى القراء الكتائب وجهاوا الارد الغنم الى الزريبة واعلم ان الحرب خدعة عند جميع العقلاء وكان عظماء الترك يقولون ينبغي للعاقل العظيم القياد أن يكون فيه عدة أخلاق من أخلاق البهائم شجاعة الديك وبحث الدجاجة وقلب الأسد وحملة الخنزير وروغان الثعلب وصبر الكلب على الجراح وحراسة الكركي وغارة الذئب وسمن نغير وهي دويبة تكون بخراسان تسمن على التعب والشقاء وكان يقال أشد خلق الله تعالى عشرة الجبال والحديد ينحت الجبال والنار تأكل الحديد والماء يطفئ النار والسحاب يحمل الماء والريح تصرف السحاب والانسان يتقي الريح بجناحيه والسكر يصرع الانسان والنوم يذهب السكر والهم يمنع النوم فاشد خلق ربك الهم اللهم انا نعوذ بك من الهم والحزن * ومن الحيل في الحرب ان يبث جواسيسه في عسكر عدوه ليستعلم أخبارهم ويستميل قلوب رؤسائهم وذوي الشجاعة منهم فيدس اليهم ويعدهم وعدا جميلا ويقوي اطماعهم في نيل ما عنده من الهبات الفخيمة والولايات السنية وان رأى وجها عاجلهم بالهدايا وسامهم اما الغدر بصاحبهم واما الاعتزال وقت اللقاء ويكتب على السهام أخبارا مزورة ويرمي بها في جيوشهم واعلم أن الحيلة لا ترد القضاء والقدر وان الدول اذا زالت صارت حياتها وبالا عليها واذا أذن الله تعالى في حلول البلاء كانت الآفة في الحيلة وقال الحكماء اذا نزل القضاء كان العطب في الحيلة ويغلب الضعيف باقبال دولته كما يغلب القوي ببقاء مدته فن الحزم المألوف عند سواس الحروب أن تكون حماة الرجال وكماة الابطال في القلب فانه اذا انكسر الجناحان كانت العيون ناظرة الى القلب فاذا كانت رايته تخفق وطبوله تضرب كان حصنا للجناحين يأوي اليه كل منهزم واذا انكسر القلب تمزق الجناحان مثال ذلك أن الطائر اذا انكسر أحد جناحيه ترجى عودته ولو بعد حين واذا انكسر الرأس ذهب الجناحان وقل عسكر انكسر قلبه فافلح أو تراجع اللهم الا أن تكون مكيدة من صاحب الجيش فيخلي القلب قصدا وتعمدا حتى اذا توسطه العدو واشتغل بنهبه انطبق عليه الجناحان فقد فعل ذلك رجال من أهل الحروب ويقال حبب الى عدوك الفرار بان لا تتبعهم اذا انهزموا ويقال الشجاع محبب حتى الى عدوه والجبان مبغض حتى الى أمه * ولما أقبل كسرى بن هرمز الى محاربة بهرام قال له صاحبه أما تستعد قال عدتي ثبات قلبي واصابة رأيي ونصل سيفي ونصرة خالقي * وخرج يزيد بن عبد الملك من بعض مقاصيره وعليه دروع وذلك في أيام قتال يزيد بن المهلب فانشده مسلمة قول الحطيئة

قوم اذا حاربوا شدوا مآزرهم * دون النساء ولو باتت باطهار

فقال يزيد اغاذاك اذا حاربتنا أكفاؤنا وأما مثل هذا ونظرائه فلا فقام اليه مسلمة فقبله بين عينيه وقيل لما مات ملك الفرس أرادوا أن يملكوا عليهم رجلا من آل ساسان فوفد عليهم بهرام جور فقال اعمدوا الى أسدين جائعين فاطرحوا بينهما التاج فمن أخذه فهو الملك ففعلوا فدنا منهما فاهوى بانحوه فاخذ برأس أحدهما فادناه من رأس الآخر ثم نطحه به فقتلهما جميعا وشد على التاج فاخذه ووضعه على رأسه وملكته الفرس عليهم (وقيل) لم يكن في العجم أرمى من الملك بهرام خرج يتصيد يوما وهو مردف حظية له كان يعشقها فعرضت له ظباء فقال في أي موضع تريدين أن أضع هذا السهم فقالت أريد أن تشبه ذكرانها بالاناث واناثها بالذكران فرمى ظبيا ذكرا بنشابة ذات شعبتين فاقتلع قرنيه ورمى ظبية بنشابتين أثبتهما في موضع القرنين ثم سألته أن يجمع بين ظلف الظبي وأذنه بنشابة فرمى أصل الاذن ببندقة ثم أهوى الظبي برجله الى أذنه ليحتك فرماه بنشابة فوصل أذنه بظلفه * ويقال ان من أعظم المكايد في الحرب الكمين وذلك أن الفارس لا يزال على حمية في الدفاع وحمي الذمار حتى يلتفت فيرى وراءه بندا منشورا ويسمع صوت الطبل فحينئذ يكون همه خلاص نفسه وعليك بانتخاب الفرسان واختيار الابطال ولا تنس قول الشاعر

والناس ألف منهم كواحد * وواحد كالالف ان أمر عنى

بل قد جرب ذلك فوجد الواحد خيرا من عشرة آلاف وسأحكي لك من ذلك ما ترى فيه العجب (فن ذلك) لما

فيها فاذا رجل وسيم حسن الهيئة على فرس قد دخل الرحبة ومعه جماعة من غلمانه وأتباعه فقال من أنت وما حاجتك فقلت رجل خائف على دمه وقد استجار بمنزلك فأدخلني منزله ثم صيرني في حجرة تلي حرمه وكنت عنده في ذلك على ما احبه من مطعم ومشرب وملبس لا يسألني عن شيء من حالي الا انه يركب في كل يوم ركبة فقلت له يوما أراك تدمن الركوب ففيم ذلك قال ابراهيم بن سليمان قتل أبي صبرا وقد بلغني أنه مختف فانا أطلبه لادرك منه ثاري فكثر والله تعجبي وقلت القدر ساقني الى حتفي في منزل من يطلب دمي وكرهت الحياة فسألت الرجل عن اسمه واسم أبيه فاخبرني فعلمت أن الخبر صحيح وأنا الذي قتلت أباه فقلت له يا هذا قد وجب على حقك ومن حقك أن أدلك على خصمك وأقرب اليك الخطوة قال وما ذاك قلت أنا ابراهيم ابن سليمان قاتل أبيك فخذ بثارك فقال اني أحسبك رجلا قد مضه الاختفاء فاحببت الموت فقلت لا والله ولكن اقول لك الحق يوم كذا وكذا بسبب كذا وكذا فلما علم صدقي تغير لونه واحمرت عيناه واطرق مليا ثم قال اما انت فستلقى ابي عند حكم عدل فيأخذ بثاره وأما انا فغير مخفر ذمتي فاخرج عني فلست آمن عليك من نفسي واعطاني الف دينار فلم آخذها منه وانصرفت عنه فهذا اكرم رجل رأيته بعد امير المؤمنين (ومن اللطائف ما نقلته من المستجاد) حدث أبو الحسن بن صالح البلخي بمصر قال أخبرني بعض عمال شيوخنا عن شيبة بن محمد الدمشقي قال كان في أيام سليمان بن عبد الملك رجل يقال له خزيمة بن بشر من بني أسد مشهور بالمروءة والكرم والمواساة وكانت نعمته وافرة فلم يزل على تلك الحالة حتى احتاج الى اخوانه

التقى المستعين بن هود مع الطاغية بن روميل النصراني على مدينة وشقة من ثغور بلاد الاندلس وكان
العسكران كالمتكافئين كل واحد منهما يقارب عشرين ألف مقاتل خيل ورجل فحدث من حضر الوقعة من
الاجناد قال لما دنا اللقاء قال الطاغية بن روميل لمن يثق بعمله وممارسته للحروب من رجاله استعلم لى من فى
عسكر المسلمين من الشجعان الذين نعرفهم كما يعرفوننا ومن غاب منهم ومن حضر فذهب ثم رجع فقال فيهم
فلان وفلان فعد سبعة رجال فقال له انظر من فى عسكرى من الرجال المعروفين بالشجاعة ومن غاب منهم فعدهم
فوجدهم ثمانية رجال لا يزيدون فقام الطاغية ضاحكا مسرورا وهو يقول ما أبيضك من يوم ثم ثارت الحرب
بينهم فلم تزل المضاربة بين الفريقين لم يول أحدهم دبره ولا تزحزح عن مقامه حتى فنى أكثر العسكرين ولم يفر
واحد منهم قال فلما كان وقت العصر نظروا الينا ساعة ثم حملوا علينا حملة وداخلونا مداخلة ففرقوا بيننا وصرنا
شطرين وحالوا بيننا وبين أصحابنا فكان ذلك سبب وهننا وضعفنا ولم تقم الحرب الا ساعة ونحن فى خسارة معهم
فاشار مقدم العسكر على السلطان أن ينجو بنفسه وانكسر عسكر المسلمين وتفرق جمعهم وملك العدو مدينة
وشقة فليعتبر ذو الحزم والبصيرة من جمع يحتوى على أربعين ألف مقاتل ولم يحضره من الشجعان المعدودين
الا خمسة عشر نفرا وليعتبر بفقدان العلج بالظفر واستبشاره بالغنيمة لما زاد فى ابطاله رجل واحد (وحكى) سيدى
أبو بكر الطرطوشى رحمة الله تعالى عليه قال سمعت أستاذنا القاضى أبا الوليد يحيى قال بينما المنصور بن أبى
عامر فى بعض غزواته اذ وقف على نشز من الارض مرتفع فرأى جيوش المسلمين من بين يديه ومن خلفه وعن
يمينه وعن شماله قد ملؤا السهل والجبل فالتفت الى مقدم العسكر وهو رجل يعرف بابن المصحفى فقال له كيف
ترى هذا العسكر أيها الوزير قال أرى جمعا كثيرا وجيشا واسعا كبيرا فقال له المنصور ماترى هل يكون فى هذا
الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والنجدة والبسالة فسكت ابن المصحفى فقال له المنصور ما سكوتك أليس
فى هذا الجيش ألف مقاتل قال لا فتعجب المنصور ثم قال فهل فيهم خمسمائة مقاتل من الابطال المعدودين قال لا
فحنق المنصور ثم قال أفيهم مائة رجل من الابطال قال لا قال أفيهم خمسون رجلا من الابطال قال لا قال فسبه
المنصور وأغلظ عليه وأمر به فاخرج على أسوء حال فلما توسطوا بلاد الروم اجتمعت الروم وتصاف الجمعان فبرز علج
من الروم بين الصفين شاكى السلاح وجعل يكر ويفر ويقول هل من مبارز فبرز اليه رجل من المسلمين
فتجاولا ساعة فقتله العلج ففرح المشركون وصاحوا واضطرب المسلمون لها ثم جعل العلج يموج بين الصفين
وينادى هل من مبارز اثنين لواحد فبرز اليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله العلج وجعل يكر ويحمل
وينادى ويقول هل من مبارز ثلاثة لواحد فبرز اليه رجل من المسلمين فقتله العلج فصاح المشركون وذل المسلمون
وكادت أن تكون كسرة فقيل للمنصور مالها الا ابن المصحفى فبعث اليه فحضر فقال له المنصور ألا ترى ما يصنع
هذا العلج الكلب منذ اليوم فقال لقد رأيته فما الذى تريد قال أن تكفى المسلمين شره قال الآن يكفى المسلمون شره
ان شاء الله تعالى ثم قصد الى رجال يعرفهم فاستقبله رجل من أهل الثغور على فرس قد تهرت أوراكها هزالا
وهو حامل قربة ماء بين يديه على الفرس والرجل فى حليته ونفسه غير متصنع فقال له ابن المصحفى ألا ترى
ما صنع هذا العلج منذ اليوم قال قد رأيته فما الذى تريد قال أريد أن تكفى المسلمين شره قال حبا وكرامة
ثم انه وضع القربة بالارض وبرز اليه غير مكترث فتجاولا ساعة فلم ير الناس الا المسلم خارجا اليهم يركض ولا
يدرون ما هنالك واذا برأس العلج يلعب بها فى يده ثم ألقى الرأس بين يدى المنصور فقال له ابن المصحفى عن
هؤلاء الرجال أخبرتك قال فرد ابن المصحفى الى منزلته وأكرمه ونصر الله جيوش المسلمين وعساكر الموحدين
(وحكى) أنه كان للعرب فارس يقال له ابن فتحون وكان أشجع العرب والعجم فى زمانه وكان المستعين يكرمه
ويعظمه ويجرى له فى كل عطية خمسمائة دينار وكانت جيوش الكفار تهابه وتعرف منه الشجاعة وتخشى
لقاءه فيحكى ان الرومى كان اذا سقى فرسه ولم يشرب يقول له ويلك لم لا تشرب هل رأيت ابن فتحون فى الماء
فحسده نظراؤه على كثرة العطاء ومنزلته من السلطان فوشوا به عند المستعين فابعده ومنعه من عطائه ثم ان
المستعين أنشأ غزوة الى بلاد الروم فتقابل المسلمون والمشركون صفوفا ثم برز علج الى وسط الميدان ونادى وقال
هل من مبارز فبرز اليه فارس من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله الرومى فصاح المشركون سرورا وانكسرت
نفوس المسلمين وجعل الكلب الرومى يجول بين الصفين وينادى هل من اثنين لواحد فخرج اليه فارس من

الذين كان يواسيهم ويتفضل عليهم
فواسوه حينا ثم ملوه فلما لاح له
تغيرهم أتى امرأته وكانت ابنة عمه
فقال لها يا بنت العم قد رأيت من
اخوانى تغيرا وقد عزمت على لزوم
بيتى الى أن يأتينى الموت ثم أغلق بابه
عليه وأقام يتقوت بما عنده حتى
نفد وبقى حائرا فى حاله فكان عكرمة
الفياض واليا على الجزيرة فبينما هو
فى مجلسه وعنده جماعة من أهل البلد
اذ جرى ذكر خزيمة ابن بشر فقال
عكرمة ما حاله فقالوا صار فى أسوا
الاحوال وقد أغلق بابه ولزم بيته
فقال عكرمة الفياض وما سمى
الفياض الا للافراط فى الكرم فما
وجد خزيمة ابن بشر مواسيا ولا
مكافئا فامسك عن ذلك فلما كان
الليل عمد الى أربعة آلاف دينار
فجعلها فى كيس واحد ثم أمر
باسراج دابته وخرج سرا من أهله
فركب ومعه غلام واحد يحمل المال
ثم سار حتى وقف بباب خزيمة فاخذ
الكيس من الغلام ثم أبعده عنه
وتقدم الى الباب فطرقه بنفسه فخرج
خزيمة فقال له اصلح بهذا شأنك
فتناوله فرآه ثقيلا فوضعه وقبض
على لجام الدابة وقال له من أنت
جعلت فداك قال له ما جئت فى هذا
الوقت وأنا أريد أن تعرفنى قال
خزيمة فما أقبله أو تخبرنى من أنت
قال أنا جابر عثرات الكرام قال زدنى
قال لا ثم مضى ودخل خزيمة
بالكيس الى امرأته فقال لها ابشرى
فقد أتى الله بالفرج فلو كان فى هذا
فلوس كانت كثيرة قومى فاسرجى
قالت لا سبيل الى السراج فبات يلمس
الكيس فيجد تحت يده خشونة
الدنانير ورجع عكرمة الى منزله فوجد
امرأته قد افتقدته وسألت
عنه فاخبرت بركوبه منفردا
فارتابت وشقت جيبها ولطمت خدها
فلما رآها على تلك الحالة قال لها
ما دهاك يا ابنة العم قالت سوء فعالك

المسلمين فقتله الرومى فصاح الكفار سرورا وانكسرت نفوس المسلمين وجعل الكاب يجول بين الصفين وينادى ويقول ثلاثة لواحد فلم يجترئ أحد من المسلمين أن يخرج اليه وبقى الناس فى حيرة فقيل للسلطان مالها الا أبو الوليد بن فتحون فدعاه وتلطف به وقال له يا أبا الوليد أما ترى ما يصنع هذا العلج فقال هاهو بعينى قال فما الحيلة فيه قال الساعة أكفى المسلمين شره فلبس قميص كتان واستوى على سرج فرسه بلا سلاح وأخذ بيده سوطا طويلا وفى طرفه عقدة معقودة ثم برز اليه فتعجب منه النصرانى ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه فلم تخط طعنة النصرانى سرج ابن فتحون واذا ابن فتحون متعلق برقبة الفرس ونزل الى الارض لاشئ منه فى السرج ثم انقلب فى سرجه وحمل على العلج وضربه بالسوط فالتوى على عنقه فجذبه بيده من السرج فاقتلعه وجاء به يجره حتى ألقاه بين يدى المستعين فعلم المستعين أنه كان قد أخطأ فى صنعه مع أبى الوليد بن فتحون فاعتذر اليه وأكرمه وأحسن اليه وبالغ فى الانعام عليه ورده الى أحسن أحواله وكان من أعز الناس اليه * وينبغى لقائد الجيش أن يخفى العلامة التى هو مشهور بها فان عدوه قد يستعلم حليته وألوان خيله ورايته ولا يلزم خيمته ليلا ولا نهارا وليبدل زيه ويغير خيمته كى لا يلتمس عدوه غرة واذا سكن الحرب فلا يمشى فى النفر اليسير من قومه خارج عسكره فان عيون عدوه متجسسة عليه وبهذا الوجه كسر المسلمون جيوش افريقية عند فتحها وذلك أن الحرب سكنت وسط النهار فجعل مقدم العدو يمشى خارج عسكره يتميز عساكر المسلمين فجاء الخبر الى عبد الله بن أبى السرح وهو نائم فى قبته فخرج فيمن وثق به من رجاله وحمل على العدو فقتل الملك وكان الفتح * ومثل هذا قهر ألب أرسلان ملك الترك ملك الروم وقمعه وقتل رجاله وأباد جمعه وكانت الروم قد جمعت جيوشا يقل أن يجمع لغيرهم من بعدهم مثلها وكان قد بلغ عددهم ستمائة ألف مقاتل كتائب متواصلة وعساكر مترادفة وكراديس يتلو بعضها بعضا لا يدركهم الطرف ولا يحصيهم العدد وقد استعدوا من الكراع والسلاح والمجانيق والآلات المعدة للحروب وفتح الحصون بما لا يحصى وكانوا قد قسموا بلاد المسلمين الشام والعراق ومصر وخراسان وديار بكر ولم يشكوا أن الدولة قد دارت لهم وأن نجوم السعود قد خدمتهم ثم استقبلوا بلاد المسلمين فتواترت أخبارهم الى بلاد المسلمين واضطربت لها ممالك أهل الاسلام فاحتشد للقائهم الملك ألب ارسلان وهو الذى يسمى الملك العادل وجمع جموعه بمدينة أصبهان واستعد بما قدر عليه ثم خرج يؤمهم فلم يزل العسكران يتدانيان الى أن عادت طلائع المسلمين الى المسلمين وقالوا لألب أرسلان غدا يتراءى الجمعان فبات المسلمون ليلة الجمعة والروم فى عدد لا يحصيهم الا الله الذى خلقهم وما المسلمون فيهم الا أكلة جائع فبقى المسلمون وجلين لما دهمهم فلما أصبحوا صباح يوم الجمعة نظر بعضهم الى بعض فهال المسلمين ما رأوا من كثرة العدو فأمر ألب أرسلان أن يعد المسلمون فبلغوا اثنى عشر ألفا فكانوا كالشامة البيضاء فى الثور الاسود فجمع ذوى الرأى من أهل الحرب والتدبير والشفقة على المسلمين والنظر فى العواقب واستشارهم فى استخلاص أصوب الرأى فتشاوروا برهة ثم اجتمع رأيهم على اللقاء فتوادع القوم وتحالوا وناصحوا الاسلام وأهله وتأهبوا أهبة اللقاء وقالوا لألب أرسلان بسم الله نحمل عليهم فقال ألب أرسلان يا معشر أهل الاسلام أمهلوا فان هذا يوم الجمعة والمسلمون يخطبون على المنابر ويدعون لنا فى شرق البلاد وغربها فاذا زالت الشمس وعلمنا أن المسلمين قد صلوا ودعوا الله أن ينصر دينه حملنا عليهم اذ ذاك وكان ألب أرسلان قد عرف خيمة ملك الروم وعلامته وزيه وزينته وفرسه ثم قال لرجاله لا يتخلف أحد منكم أن يفعل كفعلى ويتبع أثرى ويضرب بسيفه ويرمى بسهمه حيث أضرب بسيفى وأرمى بسهمى ثم حمل برجاله حملة رجل واحد الى خيمة ملك الروم فقتلوا من كان دونها ووصلوا الى الملك فقتلوا من كان دونه وجعلوا ينادون بلسان الروم قتل الملك قتل الملك فسمعت الروم أن ملكهم قد قتل فتبددوا وتمزقوا كل ممزق وعمل السيف فيهم أياما وأخذ المسلمون أموالهم وغنائمهم وأتوا بالملك أسيرا بين يدى ألب أرسلان والحبل فى عنقه فقال له ألب أرسلان ماذا كنت تصنع بى لو أسرتنى قال وهل تشك أنى كنت أقتلك فقال له ألب أرسلان أنت أقل فى عينى من أن أقتلك اذهبوا به فبيعوه لمن يزيد فيه فكان يقاد والحبل فى عنقه وينادى عليه من يشترى ملك الروم وما زالوا كذلك يطوفون به على الخيام ومنازل المسلمين وينادون عليه بالدراهم والفلوس فلم يبذل فيه أحد شيأ حتى باعوه من انسان بكلب فأخذه الذى ينادى عليه وأخذ الكلب وأتى بهما الى ألب أرسلان وقال قد طفت به جميع العسكر وناديت عليه فلم يبذل أحد فيه شيأ سوى رجل واحد دفع فيه هذا

بانة عمل أمير الجزيرة يخرج بعد هدأة من الليل منفردا عن غلمانه فى سر من أهله الا الى زوجة أو سرية فقال لقد علم الله ما خرجت لواحدة منهما قالت لا بد أن تعلمنى قال فاكتميه اذا قالت أفعل فأخبرها بالقصة على وجهها ثم قال أتحبين أن أحلف لك قالت لا قد سكن قلبى ثم أصبح خزيمة صالح غرماءه وأصلح من حاله ثم تجهز يريد سليمان ابن عبد الملك بفلسطين فلما وقف ببابه دخل الحاجب فأخبره بمكانه وكان مشهورا بالمروءة وكان الخليفة به عارفا فأذن له فلما دخل عليه وسلم بالخلافة قال يا خزيمة ما أبطأك عنا فقال سوء الحال يا أمير المؤمنين قال فما منعك من النهضة الينا قال ضعفى قال فمن أنهضك قال لم أشعر يا أمير المؤمنين بعد هدأة من الليل الا ورجل يطرق بابى وكان منه كيت وكيت وأخبره بقصته من أولها الى آخرها فقال هل عرفته قال لا والله لانه كان متنكرا وما سمعت منه الا جابر عثرات الكرام قال فتلهف سليمان بن عبد الملك على معرفته وقال لو عرفناه لأعناه على مروأته ثم قال على بقناة فأتى بها فعقد لخزيمة الولاية على الجزيرة وعلى عمل عكرمة الفياض وأجزل عطاياه وأمره بالتوجه الى الجزيرة فخرج خزيمة متوجها اليها فلما قرب منها خرج عكرمة وأهل البلد للقائه فسلم عليه ثم سارا جميعا الى أن دخلا البلد فنزل خزيمة فى دار الامارة وأمر أن يؤخذ عكرمة وأن يحاسب فحوسب ففضل عليه مال كثير فطلبه خزيمة بالمال فقال مالى الى شئ منه سبيل فأمر بحبسه ثم بعث يطالبه فأرسل اليه انى لست ممن يصون ماله بعرضه فاصنع ما شئت فأمر به فكبل بالحديد وضيق عليه وأقام على ذلك شهرا فأضناه ثقل الحديد وأضر به وبلغ

الكتاب فقال قد أنصفك ان الكتاب خير منه ثم أمر ألب أرسلان بعد ذلك باطلاقه وذهب الى القسطنطينية فعزلته الروم وكحلوه بالنار * فانظر ماذا يأتي على الملوك اذا اعرفوا في الحرب من الحيلة والمكيدة اللهم انصر جيوش المسلمين وعساكر الموحدين وأهلك الكفرة والمشركين وانصر المسلمين نصرا عزيزا برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين

﴿الباب الحادى والاربعون في ذكر أسماء الشجعان وذكر الابطال وطبقاتهم وأخبارهم وذكر الجبناء وأخبارهم وذم الجبن﴾

﴿الطبقة الاولى الذين أدركوا الجاهلية والاسلام﴾ حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم أسد الله وأسد رسوله صلى الله عليه وسلم قتل في غزوة أحد رماه وحشي مولى جبير بن مطعم بحربة فقتله وكان فارس قريش غير مدافع وبطلها غير ممانع وعظم قتله على النبي صلى الله عليه وسلم ونذر أن يقتل به سبعين رجلا من قريش وكبر عليه في الصلاة سبعين تكبيرة * أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه آية من آيات الله ومعجزة من معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم ومؤيد بالتأييد الالهي كاشف الكروب ومجليها ومثبت قواعد الاسلام ومرسيها وهو المتقدم على ذوي الشجاعة كلهم بلا مرية ولا خلاف روي عنه رضي الله عنه أنه قال والذي نفس ابن أبي طالب بيده لالف ضربة بالسيف أهون على من موتة على فراش وقال بعض العرب ما لقينا كتيبة فيها علي بن أبي طالب رضي الله عنه الا أوصى بعضنا على بعض وقال رضي الله عنه لمعاوية قد دعوت الناس الى الحرب فدع الناس جانبا واخرج الي ليعلم أينا المران على قلبه والمغطى على بصره وأنا أبو الحسن قاتل جدك وخالك وأخيك شدخا يوم بدر وذلك السيف معي وبذلك القلب ألقى عدوي وقيل له كرم الله وجهه اذا جالت الخيل فأين نطلبك قال حيث تركتموني وقيل له كيف كنت تقتل الابطال قال لاني كنت ألقى الرجل فاقدر أني أقتله ويقدر هو أني قتلته فاكون أنا ونفسه عونا عليه وقال مصعب ابن الزبير كان علي رضي الله عنه حذرا في الحروب شديد الروغان لا يكاد أحد يتمكن منه وكانت درعه صدرا لا ظهر لها فقيل له أما تخاف أن تؤتى من قبل ظهرك فقال اذا أمكنت عدوي من ظهري فلا أبقى الله عليه ان أبقى علي قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادي لعنه الله تعالى عليه غدرا وهو في صلاة الصبح * وسبب ذلك أن عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله تزوج بقطام بنت علقمة وكانت خارجية فقالت له لا أقنع الا بصداق اسميه وهو ثلاثة آلاف درهم وعبد وأمة وان تقتل علي بن أبي طالب فقال لها لك ما سألت الا علي بن أبي طالب وكيف لي به قالت تغتاله فان سلمت أرحت الناس من شره وأقمت مع أهلك وان أصبت دخلت الجنة فقال

ثلاثة آلاف وعبد وقينة * وضرب علي بالحسام المخذم
فلا مهر أغلى من علي وان علا * ولا فتك الا دون فتك ابن ملجم

قيل انه طعنه وهو داخل المسجد في الغلس وذلك في تاسع عشر رمضان المعظم سنة أربعين كفن رضي الله عنه في ثلاثة أثواب ودفن في الرحبة مما يلي باب كندة من أبواب المسجد قالوا ولما ضرب ابن ملجم لعنه الله ثار الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم فاحتضنوه وقام المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب فأخذه فأمر علي رضي الله عنه الى المغيرة ان صل بالناس فصلى بهم الفجر وأقبلت همدان فدخلوا على علي فقالوا يا أمير المؤمنين لا تقوم لهم قائمة ان شاء الله تعالى فقال لا تفعلوا انما النفس بالنفس قال ثم ان الحسن رضي الله عنه صلى الفجر وصعد المنبر فاراد الكلام فخنقته العبرة ثم نطق فقال الحمد لله على ما أحببنا وكرهنا وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم واني أحتسب عند الله عز وجل مصابي بأفضل الآباء رسول الله القائل صلى الله عليه وسلم من أصيب بمصيبة فليتسل بمصيبته في فانها أعظم المصائب والله الذي لا اله الا هو والذي أنزل على عبده الفرقان لقد قبض في هذه الليلة رجل ما سبقه الأولون بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يدركه الآخرون فعند الله نحتسب ما دخل علينا وعلى جميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم فوالله لا أقول اليوم الا حقا لقد دخلت مصيبته اليوم على جميع العباد والبلاد والشجر والدواب ولقد قبض في الليلة التي رفع فيها عيسى بن مريم عليهما السلام الى السماء وقبض فيها موسى بن عمران ويوشع بن نون عليهما السلام وأنزل فيها القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم ولقد كان

رسول

ذلك ابنة عمه فجزعت عليه واغتمت ثم دعت مولاة لها ذات عقل وقالت امضي الساعة الى باب هذا الأمير فقولي عندي نصيحة فاذا طلبت منك قولي لا أقولها الا للأمير خزيمة فاذا دخلت عليه سليه الخلوة فاذا فعل فقولي له ما كان هذا جزاء جابر عثرات الكرام منك في مكافأتك له بالضيق والحبس والحديد قال ففعلت ذلك فلما سمع خزيمة قولها قال واسوأتاه جابر عثرات الكرام غريمي قالت نعم فامر من وقته بدابته فاسرجت وركب الى وجوه أهل البلد فجمعهم وسار بهم الى باب الحبس ففتح ودخل فرأى عكرمة الفياض في قاع الحبس متغيرا قد أضناه الضر فلما نظر عكرمة الى خزيمة والى الناس أحشمه ذلك فنكس رأسه فاقبل خزيمة حتى انكب على رأسه فقبله فرفع رأسه اليه وقال ما أعقب هذا منك قال كريم فعالك وسوء مكافأتي قال يغفر الله لنا ولك ثم أمر بفك قيوده وأن توضع في رجليه فقال عكرمة تريد ماذا قال أريد أن ينالني من الضر مثل ما نالك فقال أقسم عليك بالله أن لا تفعل فخرجا جميعا الى أن وصلا الى دار خزيمة فودعه عكرمة وأراد الانصراف فلم يمكنه من ذلك قال وما تريد قال أغير من حالك وحيائي من ابنة عمك أشد من حيائي منك ثم أمر بالحمام فاخليت ودخلا جميعا ثم قام خزيمة فتولى خدمته بنفسه ثم خرجا فخلع عليه وحمل اليه مالا كثيرا ثم سار معه الى داره واستأذنه في الاعتذار من ابنة عمه فاذن له فاعتذر اليها وتذمم من ذلك ثم سأله أن يسير معه الى أمير المؤمنين وهو يومئذ مقيم بالرملة فانعم له بذلك فسارا جميعا حتى قدما على سليمان بن عبد الملك فدخل الحاجب فاخبره بقدوم خزيمة بن

رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثه فى السرية ويسير جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فما رجع حتى يفتح الله عز وجل على يديه وما ترك صفراء ولا بيضاء الا سبعمائة درهم أراد أن يبتاع بها خادما لأهله الا ان أمور الله تعالى تجرى على أحوالها فانا أحسنها من الله وأسوأها من أنفسكم الا ان قريشا أعطت أزمتها شياطينها فقادتها بأعنتها الى النار فمنهم من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أظهره الله تعالى عليه ومنهم من أسر الضغينة حتى وجد على النفاق أعوانا رفع الكتاب وجف القلم وأمور تقضى فى كتاب قد خلا ثم أطرق الحسن فبكى الناس بكاء شديدا ثم نزل فجرد سيفه ودعا بابن ملجم فأقبل يخطر واضعا شعره على أذنيه حتى قام بين يديه فقال يا حسن انى ما عاهدت الله تعالى على عهد فقط الا وفيت به عاهدت الله تعالى على أن أقتل أباك وقد قتلته فان تخلنى أقتل معاوية فان أنا قتلته أضع يدى على يدك وان أقتل فهو الذى تريد فقال الحسن رضى الله عنه أما والله لا سبيل الى بقائك ثم قام اليه فضربه بالسيف فاتقاه ابن ملجم بيده ثم أسرع السيف فيه فقتله * ومن الابطال خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومى رضى الله عنه سيف الله وسيف رسوله صلى الله عليه وسلم بطل مذكور وفارس مشهور فى الجاهلية والاسلام قتل مالك بن نويرة وقتل مسيلمة الكذاب لعنه الله وكان الفتح له يوم اليمامة وهو الذى فتح دمشق وأكثر بلاد الشام وله وقائع عظيمة فى الروم أيد الله بها الاسلام مات على فراشه وكان يقول لقد شهدت كذا وكذا زحفا وما فى جسدى موضع شبر الا وفيه أثر من طعنة أو ضربة أو رمية وها أنا أموت على فراشى لا نامت عين الجبان وكان ينشد ويرتجز ويقول

لا ترعبونا بالسيوف المبرقه * ان السهام بالردى مفوقه

والحرب دونها العقال مطلقه * وخالد من دينه على ثقه

رضى الله عنه * الزبير بن العوام رضى الله عنه حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته بطل شجاع لا يجارى وشهم لا يبارى قتله عمرو بن جرموز اغتاله وهو فى الصلاة * عمرو بن معديكرب الزبيدى فارس من فرسان الجاهلية وله مواقف مذكورة ومواطن مشهورة وأسلم ثم ارتد ثم عاد الى الاسلام وشهد حروب الفرس وكان له فيها أفعال عظيمة وأحوال جسيمة وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه اذا رآه قال الحمد لله الذى خلقنا وخلق عمرا وروى عنه رضى الله عنه أنه سأله يوما فقال له يا عمرو أى السلاح أفضل فى الحرب قال فعن أيها تسأل قال ما تقول فى السهام قال منها ما يخطئ ويصيب قال فما تقول فى الرمح قال أخوك وربما خانك قال فما تقول فى الترس قال هو الدائر وعليه تدور الدوائر قال فما تقول فى السيف قال ذلك العدة عند الشدة وقيل انه نزل يوم القادسية على النهر فقال لأصحابه انى عابر على هذا الجسر فان أسرعتم مقدار جزر الجزور وجدتمونى وسيفى بيدى أقاتل به تلقاء وجهى وقد عرفنى القوم وأنا قائم بينهم وان أبطأتم وجدتمونى قتيلا بينهم ثم انغمس فحمل على القوم فقال بعضهم لبعض يا بنى زبيد علام تدعون صاحبكم والله ما نظن أنكم تدركونه حيا فحملوا فانتهوا اليه وقد صرع عن فرسه وقد أخذ برجل فرس رجل من العجم فأمسكها والفارس يضرب فرسه فلم تقدر أن تتحرك فلما رآنا أدركناه رمى الرجل نفسه وخلى فرسه فركبه عمرو وقال أنا أبو ثور كدتم والله تفقدوننى فقالوا أين فرسك فقال رمى بنشابة فغار وشب فصرعنى ويروى أنه حمل يوم القادسية على رستم وهو الذى كان قدمه يزدجرد ملك الفرس يوم القادسية على قتال المسلمين فاستقبله عمرو وكان رستم على فيل فضرب عمرو الفيل فقطع عرقوبه فسقط رستم وسقط الفيل عليه مع خرج كان فيه أربعون ألف دينار فقتل رستم وانهزمت العجم وقتل عمرو بنهاوند فى وقعة الفرس بعد أن عمر حتى ضعف وكان من الشعراء المعدودين وفيه يقول العباس بن مرداس

اذا مات عمرو قلت للخيل أوطئى * زبيدا فقد أودى بنجدتها عمرو

* طلحة الاسدى رضى الله عنه كان من أكابر الشجعان جاهلية واسلاما ثم ارتد وتنبأ وجمع جمعا عظيما فقل خالد ابن الوليد جمعه وكان يتسكهن ثم عاد الى الاسلام وشهد حرب القادسية وغيرها من الفتوح * المقداد بن الأسود رضى الله عنه كان من أشجع الفرسان شديد البأس قوى الجنان رابط الجأش وله فى الشجعان اسم مشهور ووصف مذكور يعجز الواصف عن وصف صفاته رضى الله عنه وأرضاه * سعد بن أبى وقاص الزهرى الانصارى رضى الله عنه كان فارسا بطلا راميا وهو أول من رمى فى سبيل الله بسهم ولما قتل عثمان بن عفان

بشر فراغه بذلك وقال والى الجزيرة يقدم علينا بغير أمر نا مع قرب العهد به ما هذا الا لحادث عظيم فلما دخل عليه قال قبل أن يسلم ماوراءك يا خزيمة قال خير يا أمير المؤمنين قال فما أقدمك قال ظفرت بجابر عثرات الكرام فأحببت أن أسرك لما رأيت من شوقك الى رؤيته قال ومن هو قال عكرمة الفياض فأذن له فى الدخول فدخل فسلم عليه بالخلافة فرحب به وأدناه من مجلسه وقال يا عكرمة كان خيرك له وبالا عليك ثم قال له اكتب حوائجك وما تختاره فى رقعة فكتبها وقضيت على الفور ثم أمر له بعشرة آلاف دينار مع ما أضيف اليها من التحف والظرف ثم دعا بقناة وعقد له على الجزيرة وأرمينية واذربيجان وقال له أمر خزيمة اليك ان شئت أبقيته وان شئت عزلته قال بل أرده الى عمله يا أمير المؤمنين ثم انصرفا جميعا ولم يزالا عاملين لسليمان بن عبد الملك مدة خلافته * ويضارع ذلك من المستجاد أيضا * ما روى عن أبى موسى محمد بن الفضل بن يعقوب كاتب عيسى بن جعفر قال حدثنى أبى قال كنت أتردد الى زينب بنت سليمان بن على بن عبد الله بن عباس وأخدمها فتوجهت الى خدمتها يوما فقالت اقعد حتى أحدثك حديثا كان بالامس يكتب على الآماق كنت أمس عند الخيزران ومن عادتى أن أجلس بازائها وفى الصدر مجلس للمهدى يجلس فيه وهو يقصدنا فى كل وقت فيجلس قليلا ثم ينهض فبينما نحن كذلك اذ دخلت علينا جارية من جواريها فقالت أعز الله السيدة بالباب امرأة ذات جمال وخلقة حسنة وليس وراء ما هى عليه من سوء الحال غاية تستأذن عليك وقد سألتها عن اسمها

رضى الله عنه اعتزل ولم يشهد الحرب بعده ومات حتف أنفه * أبو دجانة الانصارى رضى الله عنه الذى خرج يتبختر بين الصفين فقال عليه الصلاة والسلام انها المشية يبغضها الله تعالى الا فى هذا الموضع * المثنى بن حارثة الشيبانى رضى الله عنه هو أوّل من فتح حرب الفرس * أبو عبيد بن مسعود الثقفى رضى الله عنه قاتل القوم يوم قس الناطف فى حرب القادسية * عمار بن ياسر رضى الله عنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم الحق يدور مع عمار حيث دار وأخبر أنه تقتله الفئة الباغية فقتل بصفين مع على رضى الله عنه * هاشم بن عتبة رضى الله عنه من أكابر الشجعان صاحب راية على رضى الله عنه بصفين * مالك بن الحرث النخعى الأشتر رضى الله عنه مات مسموما فى شربة من عسل فقال معاوية ان لله جنودا منها العسل * القعقاع بن عمرو طاعن الفيل فى عشية القادسية رضى الله عنه

﴿الطبقة الثانية﴾ عبد الله بن الزبير بن العوّام رضى الله عنه قاتل جرجير ملك افريقية الذى كان يرى أنه أشجع أهل عصره قال عمر بن عبد العزيز لابن أبى مليكة صف لى عبد الله بن الزبير فقال والله ما رأيت جلدا قط ركب على لحم ولا لحما على عصب ولا عصبا على عظم مثل جلده ولحمه وعصبه ولا رأيت نفسا بين جنبين مثل نفس ركبت بين جنبيه ولقد قام يوما الى الصلاة فمر حجر من حجارة المنجنيق بين لحيته وصدره فوالله ما خشع له بصره ولا قطع له قراءته ولا ركع دون الركوع الذى كان يركع قتله الحجاج بعد أن حوصر بمكة وأسلمه أصحابه وعشيرته وصلبه الحجاج ألا الى الله تصير الأمور * أبو هاشم محمد بن على بن أبى طالب ابن الحنفية رضى الله عنه كان أبوه يلقيه فى الوقائع و يتقى به العظائم وهو شديد البأس ثابت الجنان قيل له يوما ما بال أمير المؤمنين على كرم الله وجهه يقحمك الحروب دون الحسن والحسين رضى الله عنهما فقال لانهما كانا عينيه وكنت أنا يديه فكان يتقى عينيه بيديه وقيل ان أباه عليا رضى الله عنه اشترى درعا فاستطالها فأراد أن يقطع منها فقال له محمد يا أبت علم موضع القطع فعلم على موضع منها فقبض محمد بيده اليمنى على ذيلها وبالأخرى على موضع العلامة ثم جذبها فقطعها من الموضع الذى حدّه أبوه وكان عبد الله بن الزبير مع تقدمه فى الشجاعة يحسده على قوّته واذا حدث بهذا الحديث غضب مات حتف أنفه بشعب رضوى * عبد الله بن حازم السلمى رضى الله عنه والى خراسان شجيع مضر وفارسها فى عصره قتله وكيع بن أبى سويد بخراسان فى الفتنة * وكيع بن أبى سويد قاتل عبد الله بن حازم المتقدم ذكره شجاع فاتك أهوج والى خراسان قيل لما قتل عبد الله بن حازم ولم يتم أمره لهوجه مات بحتف أنفه * مصعب بن الزبير بن العوّام شجاع بطل جواد جاد بماله و بنفسه قتله عبيد الله بن زياد فى الحروب التى كانت بينه و بين عبد الملك بن مروان * عمير بن الحباب السلمى فارس الاسلام قتله بنو تغلب فى الحرب التى كانت بينهم و بين قيس * مسلمة بن عبد الملك بن مروان فحل بنى أمية وفارسها والى حروبها قيل انه جلس يوما يقضى بين الناس بمصر فكلمته امرأة فلم يقبل عليها فقالت ما رأيت أقل حياء من هذا قط فكشف عن ساقه فاذا فيها أثر تسع طعنات فقال لها هل ترين أثر هذا الطعن والله لو أخرت رجلى قيد شبر ما أصابتنى واحدة منهن وما منعنى من تأخيرها الا الحياء وأنت تخيلينى قليله * المعتصم بطل شجاع فارس صنديد لم يكن فى بنى العباس أشجع منه ولا أشد قلبا قال ابن أبى دواد كان المعتصم يقول لى يا أبا عبد الله عض على ساعدى بأكثر قوتك فأقول والله يا أمير المؤمنين ما تطيب نفسى بذلك فيقول انه لا يضرنى فأروم ذلك فاذا هو لا تعمل فيه الاسنة فكيف تعمل فيه الاسنان و يقال انه طعنه بعض الخوارج وعليه درع فأقام المعتصم ظهره فقصم الرمح نصفين وكان يشد يده على كتابة الدينار فيمحوها و يأخذ عمود الحديد فيلويه حتى يصير طوقا فى العنق * ابراهيم بن الأشتر النخعى كان من الشجعان المعدودين حارب عبيد الله بن زياد وهو فى أربعة آلاف وعبيد الله فى سبعين ألفا فظفر به وقتله بيده وهزم جيشه * عبد الله بن الحر الجعفى شجاع شاعر فاتك له وقائع عظيمة هائلة وأخباره فى الشجاعة مشهورة * جحدر بن ربيعة العكلى كان بطلا شجاعا فاتكا مغيرا شاعرا قهر أهل اليمامة وأبادهم فبلغ ذلك الحجاج بن يوسف فكتب الى عامله يوبخه بتغلب جحدر عليه و يأمره بالتجرد له حتى يقتله أو يحمله اليه أسيرا فوجه العامل اليه فتية من بنى حنظلة وجعل لهم جعلا عظيما ان هم قتلوا جحدرا أو أتوا به أسيرا فتوجه الفتية فى طلبه حتى اذا كانوا قريبا منه أرسلوا يقولون له انهم يريدون الانقطاع اليه والارتفاق به فوثق

فامتنعت من أن تخبرنى فالتفتت الى الخيزران وقالت ما تريدين فقلت أدخليها فانه لابد من فائدة وثواب فدخلت امرأة من أجمل النساء لا تتوارى بشئ فوقفت بجنب عضادة الباب ثم سلمت متضائلة ثم قالت أنا مزنة بنت مروان بن محمد الاموى فقالت الخيزران لاحياك الله ولا قربك فالحمد لله الذى أزال نعمتك وهتك سترك وأذلك أتذكرين يا عدوة الله حين أتاك عجائز أهل بيتى يسألنك أن تكلمى صاحبك فى الاذن فى دفن ابراهيم ابن محمد فوثبت عليهن وأسمعتيهن ما لا سمعن قبل وأمرت فاخرجن على تلك الحالة فضحكت مزنة فما أنسى حسن ثغرها وعلو صوتها بالقهقهة ثم قالت يا بنت العم أى شئ أعجبك من حسن صنيع الله بى على العقوق حتى أردت أن تتأسى بى فيه والله انى فعلت بنسائك ما فعلت فاسلمنى الله لك ذليلة جائعة عريانة وكان ذلك مقدار شكرك لله تعالى على ما أولاك بى ثم قالت السلام عليكم ثم ولت مسرعة فصاحت بها الخيزران فرجعت قالت زينب فنهضت اليها الخيزران لتعانقها فقالت ليس فى لذلك موضع مع الحال التى أنا عليها فقالت الخيزران لها فالحمام اذا وأمرت جماعة من جواريها بالدخول معها الى الحمام فدخلت وطلبت ماشطة ترمى ما على وجهها من الشعر فلما خرجت من الحمام وافتها الخلع والطيب فأخذت من الثياب ما أرادت ثم تطيبت ثم خرجت الينا فعانقتها الخيزران وأجلستها فى الموضع الذى يجلس فيه أمير المؤمنين المهدى ثم قالت لها الخيزران هل لك فى الطعام فقالت والله ما فيكن أحوج منى اليه فعجلوه فأتى بالمائدة فجعلت تأكل غير محتشمة الى أن اكتفت

بذلك منهم وسكن الى قولهم فبينما هو معهم يوما اذ وثبوا عليه فشدوه وثاقا وقدموا به على العامل فوجه به الى الحجاج معهم فلما قدموا به عليه ومثل بين يديه قال له أنت جحدر قال نعم أصلح الله الأمير قال ما جرأك على ما بلغني عنك قال أصلح الله الأمير كلب الزمان وجفوة السلطان وجراءة الجنان قال وما بلغ من أمرك قال لو ابتلاني الأمير وجعلني مع الفرسان لرأى مني ما يعجبه قال فتعجب الحجاج من ثبات عقله ومنطقه ثم قال يا جحدر اني قاذف بك في حاجر فيه أسد عظيم فان قتلك كفانا مؤنتك وان قتلته عفونا عنك قال أصلح الله الأمير قرب الفرج ان شاء الله تعالى فأمر به فصفد وبالحديد ثم كتب الى عامله أن يرتاد له أسدا ويحمله اليه فتحيل العامل وارتاد له أسدا كان كاسرا خبيثا قد أفنى عامة المواشي فتحيلوا حتى أخذوه وصيروه في تابوت وجعلوه على عجل فلما قدموا به على الحجاج أمر به فألقي في الحاجر ولم يطعم شيأ ثلاثة أيام حتى جاع واستكلب ثم أمر بجحدر أن ينزلوه اليه فأعطوه سيفا وأنزلوه اليه مقيدا وأشرف الحجاج والناس حوله ينظرون الى الأسد ماهو صانع بجحدر فلما نظر الأسد الى جحدر نهض ووثب وتمطى وزعق زعقة دويت منها الجبال وارتاعت أهل الارض فشد عليه جحدر وهو ينشد ويقول

ليث وليث في مجال ضنك * كلاهما ذو قوة وسفك * وصولة وبطشة وفتك
ان يكشف الله قناع الشك * فأنت لي في قبضتي وملكي

ثم دنا منه وضربه بسيفه ففلق هامته فكبر الناس وأعجب الحجاج ذلك وقال لله درك ما أنجبك ثم أمر به فأخرج من الحاجر وفك عنه قيوده وقال له اختر اما أن تقيم معنا فنكرمك ونقرب منزلتك واما ان نأذن لك فتلحق ببلادك وأهلك على أن تضمن لنا أن لا تحدث بها حدثا ولا تؤذي بها أحدا قال بل اختار صحبتك أيها الأمير فجعله من سماره وخواصه ثم لم يلبث ان ولاه على اليمامة وكان من أمره ما كان * المهلب ابن أبي صفرة كان من الشجعان ومن الابطال المعدودة وأولاده كلهم أنجاد أبطال الا أن المغيرة من بينهم كان أشد تمكنا وكان المهلب يقول ما شهد معي حربا الا رأيت البشرى في وجهه وحمل عليه بعض الشجعان وفي يده شجرة فلما رآها انكس رأسه على قربوس السرج وحمل من تحتها فبراها بسيفه وكان المهلب يقول أشجع الناس ثلاثة ابن الكلبية وأحمر قريش وراكب البغلة فابن الكلبية مصعب بن الزبير وأحمر قريش عمر بن عبيد الله بن معمر ما لقي خيلا قط الا فرقها وراكب البغلة عباد بن الحصين ما كان قط في كربة الا فرجها وهو من فرسان الاسلام وكان للمهلب في الحروب مكايد مشهورة ووقائعه أبادت الخوارج بعد ان كانوا قد استولوا على المسلمين وكان سيدا كريما مات حتف أنفه وكذلك ابنه المغيرة وفيه يقول زياد الأعجم

مات المغيرة بعد طول تعرض * للقتل بين أسنة وصفائح

وكان في الخوارج فوارس مشهورة لا تثبت لهم الرجال وذكرهم يطول ويخرج عما أردناه * فمنهم أبو بلال مرداس خرج في أربعين فهزم ألفين * وشبيب الخارجي الذي غرق في الفرات نذرت امرأته غزالة ان تصلي في جامع الكوفة ركعتين تقرأ في الأولى البقرة وفي الثانية آل عمران فعبر بها جسر الفرات وأدخلها الجامع ووقف على بابه يحميها حتى وفت بنذرها والحجاج في الكوفة في خمسين ألفا * ومنهم قطري بن الفجاءة كان رأس الخوارج وخاطبوه بأمير المؤمنين وعظموه وبجلوه وأشعاره في الشجاعة تدل على مكانه منها قتل في بعض وقائع الخوارج

(الطبقة الثالثة) معن بن زائدة الشيباني قتله الخوارج بسجستان في أيام المهدي * الوليد بن طريف الشيباني قتله يزيد بن مزيد * عمرو بن حنيف كان من الفرسان المعدودة نقل عنه أنه كان يتصيد فتتبع حمار وحش ومازال يركض الى أن حاذاه فجمع رجليه ووثب من على فرسه وصار على ظهر حمار الوحش وصار يحز عنقه بسيف او سكين في يده حتى قتله * ابو دلف القاسم بن عيسى العجلي فارس بطل شاعر نديم جامع لما تفرق في غيره طعن فارسين رديفين فانفذ الرمح من ظهريهما وحمل برمحه اربعة نفر وفيه يقول بكر بن النطاح

قالوا وينظم فارسين بطعنة * يوم اللقاء ولا يراه جليلا
لا تعجبوا لو كان مد قناته * ميلا اذا نظم الفوارس ميلا

وسأله يوما رجل شيأ فقال له أتسأل وجدك القائل

ثم غسلنا أيدينا فقالت لها الخيزران من وراءك مما تعتنين به قالت ما خارج هذه الدار من بيني وبينه نسب فقالت اذا كان الأمر هكذا فقومي حتى تختاري لنفسك مقصورة من مقاصيرنا وتحولي لها جميع ما تحتاجين اليه ثم لا نفترق الى الموت فقامت ودارت بها في المقاصير فاختارت أوسعها وأنزهها ولم تبرح حتى حولت اليها جميع ما تحتاج اليه من الفرش والكسوة قالت زينب ثم تركناها وخرجنا عنها فقالت الخيزران هذه المرأة قد كانت فيما كانت فيه وقد مسها الضر وليس يغسل ما في قلبها الا المال فاحملوا اليها خمسمائة ألف درهم فحملت اليها وفي أثناء ذلك وافى المهدي فسألنا عن الخبر فحدثته الخيزران حديثها وما لقيتها به فوثب مغضبا وقال للخيزران هذا مقدار شكر الله على أنعمه وقد أمكنك من هذه المرأة مع الحالة التي هي عليها فوالله لولا محلك بقلبي لحلفت أن لا أكلمك أبدا فقالت الخيزران يا أمير المؤمنين قد اعتذرت اليها ورضيت وفعلت معها كذا وكذا فلما علم المهدي ذلك قال لخادم كان معه احمل اليها مائة بدرة وادخل اليها وأبلغها مني السلام وقل لها والله ما سررت في عمري كسروري اليوم وقد وجب على أمير المؤمنين اكرامك ولولا احتشامك لحضر اليك مسلما عليك وقاضيا لحقك فمضى الخادم بالمال والرسالة وأقبلت على الفور فسلمت على المهدي بالخلافة وشكرت صنعه وبالغت في الثناء على الخيزران عنده وقالت ما على أمير المؤمنين حشمة انا في عدد حرمه ثم قامت الى منزلها فخلفتها عند الخيزران وهي تتصرف في المنازل والجواري كتصرف الخيزران فأرخها عندك فانها من أحسن النوادر (وروى) عن عبد

ومن يفتقر منا يعش بحسامه * ومن يفتقر من سائر الناس يسأل

وانا لنلهو بالسيوف كما لهت * فتاة بعقد أو سخاب قرنفل

فخرج الرجل فجرد سيفه فلم يصادفه فى طريقه الا وكيل لأبى دلف ومعه مال جزيل فاستلبه منه وقتله فبلغ الخبر أبا دلف فقال دعوه فانى علمته على نفسى * بكر بن النطاح بطل شجاع فارس فاتك له أشعار مشهورة وأخبار مذكورة (ومما جاء فى مدح السيف) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الخير فى السيف والخير مع السيف والخير بالسيف وكان صمصام عمرو أشهر سيوف العرب وممن تمثل به نهشل فقال

أخ ماجد ما خانني يوم مشهد * كما سيف عمرو لم تخنه مضاربه

ولما وهبه عمرو لخالد بن سعيد بن العاص عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم على اليمن قال

خليلي لم أخنه ولم يخنى * اذا ما صاب أوساط العظام * خليلي لم أهبه من قلاه

ولكن المواهب للكرام * حبوت به كريما من قريش * فسر به وصين عن اللئام

وودعت الصفى صفى نفسى * على الصمصام أضعاف السلام

ولم يزل فى آل سعيد حتى اشتراه خالد بن عبد الله القسرى بمال جزيل وكان قد كتب اليه فيه فلم يزل عند بنى مروان ثم طلبه السفاح والمنصور والمهدى فلم يجدوه فجد الهادى فى طلبه حتى ظفر به وكان مكتوبا عليه هذا البيت

ذكر على ذكر يصول بصارم * ذكر يمان فى يمين يمانى

وقال ابن الرومى

لم أر شيأ حاضرا نفعه * للمرء كالدرهم والسيف

يقضى له الدرهم حاجاته * والسيف يحميه من الحيف

(وقال زيد بن على رضى الله عنهما)

السيف يعرف عزمى عند هزته * والرمح بى خبر والله لى وزر

انا لنأمل ما كانت أوائلنا * من قبل تأمله ان ساعد القدر

(وقال عبد الله بن طاهر)

يبيت ضجيعى السيف طورا وتارة * تعض بهامات الرجال مضاربه * أخو ثقة أرضاه فى الروع صاحبا

وفوق رضاه اننى أنا صاحبه * وليس أخو العلياء الا فتى له * بها كلف ما تستقر كتائبه

وقدم عروة بن الزبير على عبد الملك بن مروان بعد قتل أخيه عبد الله فطلب منه سيف الزبير وقال له رده على فانه السيف الذى أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم له يوم حنين فقال له عبد الملك أوتعرفه قال نعم قال بماذا قال أعرفه بما لا تعرف به سيف أبيك أعرفه بقول الشاعر

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب

(وقال الأجدع الهمدانى) لقد علمت نسوان همدان أننى * لهن غداة الروع غير خذول

وأبذل فى الهيجاء وجهى وأننى * له فى سوى الهيجاء غير بذول

(وقال آخر) عشرون ألف فتى ما منهم أحد * الا كألف فتى مقدامه بطل

راحت مزاودهم علوة أملا * ففرغوها وأوكوها من الأجل

(ومن أخبار الشجعان ما حكاه الفضل بن يزيد) قال نزل علينا بنو ثعلب فى بعض السنين وكنت مشغوفا بأخبار العرب أن أسمعها وأجمعها فبينما أنا أدور فى بعض أحيائهم اذا أنا بامرأة واقفة فى فناء خبائها وهى آخذة بيد غلام فما رأيت مثله فى حسنه وجماله له ذؤابتان كالسبج المنظوم وهى تعاتبه بلسان رطب وكلام عذب تحن اليه الاسماع وترتاح له القلوب وأكثر ما أسمع منها أى بنى وهو يتبسم فى وجهها قد غلب عليه الحياء والخجل كأنه جارية بكر لا يرد جوابا فاستحسنت ما رأيت واستحليت ما سمعت فدنوت منه وسلمت فردت على السلام فوقفت أنظر اليهما فقالت يا حضرى ما حاجتك فقلت الاستكثار مما أسمع والاستمتاع بما أرى من هذا الغلام فقالت يا حضرى ان شئت سقت اليك من خبره ما هو أحسن من منظره فقلت قد شئت يرحمك الله فقالت حملته والرزق عسر والعيش نكد حملا خفيفا حتى مضت له تسعة أشهر وشاء الله عز وجل ان أضعه فوضعته خلقا سويا فوربك ما هو الا أن صار ثالث أبويه حتى أفضل الله عز وجل وأعطى وآتى من الرزق بما كفى وأغنى

ثم

الرحمن بن عمر القهرى عن رجال سماهم أمر المأمون أن يحمل اليه عشرة من أهل البصرة كانوا قد رموا بالزندقة فلما وافرآهم أحد الطفيلية وقد اجتمعوا بالساحل فقال ما اجتمع هؤلاء الا لوليمة فدخل معهم ومضى بهم الموكلون الى البحر وأطلعوهم فى زورق قد أعد لهم فقال الطفيلى لا شك انها نزهة فصعد معهم فى الزورق فلم يكن بأسرع من أن قيدوا وقيد الطفيلى معهم فعلم انه قد وقع ورام الخلاص فلم يقدر وساروا بهم الى أن دخلوا بغداد وحملوا حتى دخلوا على المأمون فلما مثلوا بين يديه أمر بضرب أعناقهم فاستدعوهم بأسمائهم حتى لم يبق الا الطفيلى وهو خارج عن العدة فقال لهم المأمون من هذا قالوا والله ما ندرى يا أمير المؤمنين غير أنا وجدناه مع القوم فجئنابه فقال له المأمون ما قصتك قال يا أمير المؤمنين امرأتى طالق ان كنت أعرف من أقوالهم شيأ ولا أعرف غير لا اله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم انما رأيتهم مجتمعين فظننت أنهم يدعون الى وليمة فالتحقت بهم قال فضحك المأمون ثم قال بلغ من شؤم التطفل ان أحل صاحبه هذا المحل لقد سلم هذا الجاهل من الموت ولكن يؤدب حتى يتوب قال ابراهيم ابن المهدى هبه لى وأحدثك بحديث عن نفسى فى التطفل عجيب قال المأمون قد وهبته لك هات حديثك قال يا أمير المؤمنين خرجت يوما متنكرا للتنزه فانتهى بى المشى الى موضع شممت منه روائح طعام وأبازير قد فاحت فتاقت نفسى اليها ووقفت يا أمير المؤمنين لا أقدر على المضى فرفعت بصرى واذا بشباك ومن خلفه كف ومعصم ما رأيت أحسن منهما فوقفت حائرا ونسيت روائح الطعام بذلك الكف والمعصم وأخذت فى اعمال الحيلة

ثم أرضعته حولين كاملين فلما استتم الرضاع نقلته من خرق المهد الى فراش أبيه فربى كأنه شبل اسد أقيه برد الشتاء وحر الهجير حتى اذا مضت له خمس سنين أسلمته الى المؤدب فحفظه القرآن فتلاه وعلمه الشعر فرواه ورغب فى مفاخر قومه وآبائه وأجداده فلما أن بلغ الحلم واشتد عظمه وكمل خلقه حملته على عتاق الخيل فتفرس وتمرس ولبس السلاح ومشى بين بيوتات الحى الخيلاء فأخذ فى قرى الضيف واطعام الطعام وأنا عليه وجلة أشفق عليه من العيون أن تصيبه فاتفق ان نزلنا بمنهل من المناهل بين أحياء العرب فخرج فتيان الحى فى طلب ثارهم وشاء الله تعالى ان أصابته وعكة شغلته عن الخروج حتى اذا أمعن القوم ولم يبق فى الحى غيره ونحن آمنون وادعون ماهو الى أن أدبر الليل وأسفر الصباح حتى طلعت علينا غرر الجياد وطلائع العدو فماهو الا هنيهة حتى أحرزوا الأموال دون أهلها وهو يسألنى عن الصوت وأنا أستر عنه الخبر اشفاقا عليه وضنا به حتى اذا علت الأصوات وبرزت المخدرات رمى دثاره وثار كما يثور الأسد وأمر باسراج فرسه ولبس لامة حربه وأخذ رمحه بيده ولحق حماة القوم فطعن أدناهم منه فرمى به ولحق أبعدهم منه فقتله فانصرفت وجوه الفرسان فرأوه صبيا صغير الامد دوراءه فحملوا عليه فأقبل يؤم البيوت ونحن ندعوا الله عز وجل له بالسلامة حتى اذا مدهم وراءه وامتدوا فى أثره عطف عليهم ففرق شملهم وشتت جمعهم وقلل كثرتهم ومزقهم كل ممزق ومرق كما يمرق السهم وناداهم خلوا عن المال فوالله لا رجعت الا به أولا هلكن دونه فانصرفت اليه الأقران وتمايلت نحوه الفرسان وتميزت له الفتيان وحملوا عليه وقد رفعوا اليه الاسنة وعطفوا عليه بالاعنة فوثب عليهم وهو يهدر كما يهدر الفحل من وراء الابل وجعل لا يحمل على ناحية الا حطمها ولا كتيبة الا مزقها حتى لم يبق من القوم الا من نجا به فرسه ثم ساق المال وأقبل به فكبر القوم عند رؤيته وفرح الناس بسلامته فوالله ما رأيناقط يوما كان أسمح صباحا وأحسن رواحا من ذلك اليوم ولقد سمعته يقول فى وجوه فتيان الحى هذه الابيات

تأملن فعلى هل رأيتن مثله * اذا حشرجت نفس الجبان من الكرب

وضاقت عليه الأرض حتى كأنه * من الخوف مسلوب العزيمة والقلب

ألم أعط كلا حقه ونصيبه * من السمهرى اللدن والمرهف العضب

أنا ابن ابى هند بن قيس بن مالك * سليل المعالى والمكارم والسيب

أبى لى أن اعطى الظلامة مرهف * وطرف قوى الظهر والجوف والجنب

وعزم صحيح لو ضربت بحده الـ * جبال الرواسى لانحطن الى الترب

وعرض نقى اتقى أن اعيبه * وبيت شريف فى ذرى ثعلب الغلب

فان لم اقاتل دونكن واحتمى * لكن واحميكن بالطعن والضرب

فلا صدق اللاتى مشين الى أبى * يهنينه بالفارس البطل الندب

وقال الشاعر

آراؤهم ووجوههم وسيوفهم * فى الحادثات اذا دجون نجوم

منها معالم للهدى ومصابح * تجلو الدجى والأخريات رجوم

وقال آخر

فوارس قوالون للخيل اقدمى * وليس على غير الرؤس مجال

بايديهم سمر العوالى كأنما * تشب على اطرافهن ذبال

(وقال آخر)

قوم اذا اقتحموا العجاج رأيتهم * شمسا وخلت وجوههم اقمارا

لا يعدلون برفدهم عن سائل * عدل الزمان عليهم اوجارا

واذا الصريخ دعاهم لملمة * بذلوا النفوس وفارقوا الاعمارا

﴿ذكر الجبن والجبناء وأخبارهم وما جاء عنهم﴾ قد استعاذ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجبن فقال اللهم انى أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال نعوذ بالله مما استعاذ منه سيد الخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكفيك أن يقال فى وصف الجبان أحس بعصفور طار فؤاده وان طنت بعوضة طال سهاده يفزع من صرير الباب ويقلق من طنين الذباب ان نظرت اليه شزرا أغمى عليه شهرا يحسب خفوق الرياح قعقعة الرماح قال الشاعر

اذا صوت العصفور طار فؤاده * وليث حديد الناب عند الثرائد

وكان حسان بن ثابت رضى الله عنه من الجبناء روى عن ابن الزبير أنه قال كان حسان فى قاع أطم مع النساء يوم الخندق فأتاهم فى ذلك اليوم يهودى يطوف بالحصن فقالت صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها

فاذا خياط قريب من ذلك الموضع فتقدمت اليه وسلمت عليه فرد على السلام فقلت لمن هذه الدار قال لرجل من التجار قلت ما اسمه قال فلان بن فلان فقلت أهو ممن يشرب الخمر قال نعم وأحسب اليوم أن عنده دعوة وليس ينادم الا التجار فبينما نحن فى الكلام اذ أقبل رجلان نبيلان راكبان فأعلمنى انهما أخص الناس بصحبته وأعلمنى باسميهما فحركت دابتى فلقيتهما وقلت جعلت فداكما قد استبطأكما أبو فلان وسايرتهما حتى أتيا الباب فدخلت ودخلا فلما رآنى صاحب الدار معهما لم يشك انى منهما فرحب بى وأجلسنى فى أفضل المواضع ثم جىء بالمائدة فقلت فى نفسى هذه الألوان قد من الله على ببلوغ الغرض منها بقى الكف والمعصم ثم نقلنا الى مجلس المنادمة فرأيت مجلسا محفوفا باللطائف وجعل صاحب المجلس يتلطف بى ويقبل على فى الحديث لظنه انى ضيف لأضيافه وهم على مثل ذلك حتى شربنا أقداحا اذ خرجت علينا جارية كأنها غصن بان فى غاية الظرف وحسن الهيئة فسلمت غير خجلة وأتى بعود فأخذته وجسته فاذا هى حاذقة واندفعت تقول

أليس عجيبا أن بيتا يضمنى
واياك لا نخلو ولا نتكلم
سوى أعين تبدى سرائر أنفس
وتقطيع أنفاس على النار تضرم
اشارة أفواه وغمز حواجب
وتكسير أجفان وكف يسلم

فهيجت يا أمير المؤمنين بلابلى فطربت لحذقها وحسن شعرها الذى غنت به فحسدتها وقلت قد بقى عليك يا جارية شىء فرمت العود وقالت متى كنتم تحضرون البغضاء فى مجالسكم فندمت على ما كان منى ورأيت القوم قد أنكروا على ذلك فقلت فى نفسى

ياحسان ان هذا اليهودي كما ترى يطوف بالحصن واني والله ما آمنه أن يدل على عوراتنا من وراءه من اليهود فانزل اليه فاقتله فقال يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا قال فاعتجرت صفية ثم أخذت عمودا ونزلت من الحصن فضربته بالعمود حتى قتلته ورجعت الى الحصن فقالت ياحسان قم اليه فاسلبه فانه مامنعني من سلبه الا أنه رجل فقال مالي بسلبه من حاجة (وقيل) كان لفتى من قريش جارية مليحة الوجه حسنة الأدب وكان يحبها حبا شديدا فأصابته اضاقة وفاقة فاحتاج الى ثمنها فحملها الى العراق وكان ذلك في زمن الحجاج بن يوسف فابتاعها منه الحجاج فوقعت منه بمنزلة فقدم عليه فتى من ثقيف من أقاربه فأنزله قريبا منه وأحسن اليه فدخل على الحجاج والجارية تكبسه وكان الفتى جميلا فجعلت الجارية تسارقه النظر ففطن الحجاج بها فوهبها له فأخذها وانصرف فباتت معه ليلتها وهربت بغلس فأصبح لا يدري أين هي وبلغ الحجاج ذلك فأمر مناديا أن ينادي برئت الذمة ممن رأى وصيفة من صفتها كذا وكذا ولم يحضرها فلم يلبث ان أتي له بها فقال لها الحجاج ياعدوة الله كنت عندي من أحب الناس الي فاخترت لك ابن عمي شابا حسن الوجه ورأيتك تسارقينه النظر فعلمت انك شغفت به فوهبتك له فهربت من ليلتك فقالت ياسيدي اسمع قصتي ثم اصنع بي ماشئت قال هاتي ولا تخفي شيأ قالت كنت للفتى القرشي فاحتاج الى ثمني فحملني الى الكوفة فلما قرب منها دنا مني فوقع علي فسمع زئير الأسد فوثب واخترط سيفه وحمل عليه وضربه فقتله وأتى برأسه ثم أقبل علي وما برد ماعنده ثم قضى حاجته وان ابن عمك هذا الذي اخترته لي لما أظلم الليل قام الي فلما علا بطني وقعت فارة من السقف فضرط ثم غشي عليه فمكث زمانا طويلا وأنا أرش عليه الماء وهو لا يفيق فخفت أن يموت فتتهمني به فهربت فزعا منك فما ملك الحجاج نفسه من شدة الضحك وقال ويحك اكتمي هذا ولا تعلمي به أحدا قالت على أن تردني اليه قال لك ذلك (وحدث) جار لابي حنيفة النميري قال كان لابي حنيفة سيف ليس بينه وبين العصا فرق وكان يسميه لعاب المنية فاشرفت عليه ذات ليلة وقد انتضاه وهو واقف على باب بيته وقد سمع حسا في داره وهو يقول أيها المغتر بنا المجتري علينا بئس والله ما اخترت لنفسك خير قليل وسيف صقيل وهو لعاب المنية الذي سمعت به أخرج بالعفو عنك قبل أن أدخل بالعقوبة عليك ثم فتح الباب على وجل فاذا كلب قد خرج فقال الحمد لله الذي مسخك كلبا وكفانا حربا * وخرج المعتصم يوما الى بعض متصيداته فظهر له أسد فقال لرجل من أصحابه أعجبه قوامه وسلاحه وتمام خلقه أفيك خير يارجل قال لا فضحك المعتصم وقال قبح الله الجبان ورأى الاسكندر رجلا سميا له لا يزال ينهزم فقال له يارجل اما أن تغير فعلك واما أن تغير اسمك * ووقع في بعض العساكر ضجة فوثب خراساني الى دابته ليلجمها فصير اللجام في الذنب من الدهش وقال يخاطب الفرس هب جبهتك عرضت فناصيتك كيف طالت (وخرج) أسلم بن زرعة الكلابي في ألفين لمحاربة أبي بلال مرداس وكان مرداس في أربعين رجلا فانهزم أسلم منه فلاموه على ذلك وذمه ابن أبي زياد فقال لان يذمني ابن أبي زياد حيا أحب الي من أن يمدحني ميتا وكان أسلم بعد ذلك اذا خرج الى السوق ومر بصبيان صاحوا به أبو بلال وراءك فكبر ذلك عليه فشكاهم الى ابن أبي زياد فأمر صاحب الشرطة أن يكفهم عنه وفي ذلك يقول بعضهم شعرا

يقول جبان القوم في حال سكره * وقد شرب الصهباء هل من مبارز
وأين الخيول الاعوجيات في الوغى * أنازل منهم كل ليث مناهز
ففي السكر قيس وابن معدي وعامر * وفي الصحو تلقاه كبعض العجائز

وهذا ما انتهى الينا من هذا الباب والحمد لله الكريم الوهاب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله واصحابه الطاهرين والحمد لله رب العالمين

﴿الباب الثاني والأربعون في المدح والثناء وشكر النعمة والمكافأة وفيه فصول﴾

﴿الفصل الأول في المدح والثناء﴾ المدح وصف الممدوح باخلاق يمدح عليها صاحبها او يكون نعتا حميدا وهذا يصح من المولى في حق عبده فقد قال الله تعالى في حق نبيه أيوب عليه الصلاة والسلام انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب وقال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وانك لعلى خلق عظيم وقال تعالى قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون الى آخر الآية فعلى هذا يجوز مدح الانسان بما فيه من الاخلاق الحميدة

واما

فاتني جميع ما أملت فقلت أثم عود قالوا نعم فاحضروا عودا فاصلحت ما أردت فيه ثم اندفعت فغنيت

هذا محبك مطوي على كمده
صب مدامعه تجري على جسده
له يد تسال الرحمن راحته
مما به ويد أخرى على كبده
يامن رأى كلفا مستهترا دنفا
كانت منيته في عينه ويده

فوثبت الجارية فاكبت على رجلي تقبلها وقالت المعذرة اليك ياسيدي والله ما علمت بمكانك ولا سمعت بمثل هذه الصناعة ثم أخذ القوم في اكرامي وتبجيلي بعدما طربوا غاية الطرب وسألني كل منهم الغناء فغنيت لهم نوبات مطربة فغلب القوم السكر وغابت عقولهم فحملوا الى منازلهم وبقي صاحب المنزل فشرب معي أقداحا ثم قال ياسيدي ذهب مامضى من عمري مجانا اذ لم أعرف مثلك فبالله يامولاي من أنت لاعرف نديمي الذي من الله علي به في هذه الليلة فأخذت اداري وهو يقسم علي فاعلمته فوثب قائما وقال قد عجبت أن يكون هذا الفضل الا لمثلك ولقد أسدى الي الزمان يدا لا أقوم بشكرها ومتى طمعت أن تزورني الخلافة في منزلي وتنادمني ليلتي وما هذا الا في المنام فاقسمت عليه أن يجلس فجلس وأخذ يسألني عن السبب في حضوري عنده بالطف معنى فاخبرته بالقصة من أولها الى آخرها وما سترت منها شيأ ثم قلت أما الطعام فقد نلت منه بغيتي فقال والكف والمعصم ان شاء الله ثم قال يافلانة قولي لفلانة تنزل ثم جعل يستدعي واحدة بعد واحدة يعرضها علي وأنا لا أرى صاحبتي الى أن قال والله ما بقي الا أمي وأختي ووالله لتنزلان فعجبت من كرمه وسعة صدره فقلت جعلت فداءك تبدأ بالاخت قال حبا وكرامة ثم نزلت أخته فاراني يدها فاذا هي التي

و أما قوله صلى الله عليه وسلم اذا رأيتم المادحين فاحثوا فى وجوههم التراب فقد قال العتبى هو المدح الباطل والكذب وأما مدح الرجل بما فيه فلا بأس به وقد مدح أبو طالب والعباس وحسان وكعب وغيرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبلغنا انه حثا فى وجه مادح ترابا وقد مدح هو صلى الله عليه وسلم المهاجرين والأنصار رضى الله عنهم وفى حثو التراب معنيان أحدهما التغليظ فى الرد عليه والثانى كأنه يقال له يكفيك التراب وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه اذا مدح قال اللهم أنت أعلم بى من نفسى وأنا أعلم بنفسى منهم اللهم اجعلنى خيرا مما يحسبون واغفر لى ما لا يعلمون ولا تؤاخذنى بما يقولون ومدح سارية الديلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سارية الذى أمره عمر رضى الله عنه على السرية وناداه فى خطبته بقوله ياسارية الجبل فمن مدحه فى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله

فما حملت من ناقة فوق ظهرها * أبر وأوفى ذمة من محمد

وهو أصدق بيت قالته العرب ومن أحسن ما مدحه به حسان رضى الله عنه قوله

وأحسن منك لم ترقط عينى * وأجمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرأ من كل عيب * كأنك قد خلقت كما تشاء

ومن أحسن ما مدحه به عبد الله بن رواحة الأنصارى رضى الله عنه قوله

لو لم تكن فيه آيات مبينة * كانت بديهته تنبيك بالخبر

(ولما) حججت وزرته صلى الله عليه وسلم تطفلت على جنابه المعظم وامتدحته بأبيات مطولة وأنشدتها بين يديه بالحجرة الشريفة تجاه الصندوق الشريف وأنا مكشوف الرأس وأبكى من جملتها

ياسيد السادات جئتك قاصدا * أرجو رضاك وأحتمى بحماكا
والله ياخير الخلائق ان لى * قلبا مشوقا لا يروم سواكا
وبحق جاهك اننى بك مغرم * والله يعلم اننى أهواكا
أنت الذى لولاك ما خلق امرؤ * كلا ولا خلق الورى لولاكا
أنت الذى من نورك البدر اكتسى * والشمس مشرقة بنور بهاكا
أنت الذى لما رفعت الى السما * بك قد سمت وتزينت لسراكا
أنت الذى ناداك ربك مرحبا * ولقد دعاك لقربه وحباكا
أنت الذى فينا سألت شفاعة * ناداك ربك لم تكن لسواكا
أنت الذى لما توسل آدم * من ذنبه بك فاز وهو أباكا
وبك الخليل دعا فعادت ناره * بردا وقد خمدت بنور سناكا
ودعاك أيوب لضرمسه * فأزيل عنه الضر حين دعاكا
وبك المسيح أتى بشيرا مخبرا * بصفات حسنك مادحا لعلاكا
وكذاك موسى لم يزل متوسلا * بك فى القيامة مرتجٍ لندا كا
والأنبياء وكل خلق فى الورى * والرسل والاملاك تحت لواكا
لك معجزات أعجزت كل الورى * وفضائل جلت فليس تحاكى

رأيتها فقلت هذه الحاجة فأمر بمالى لوقته فأحضروا الشهود وأحضروا بدرتين فلما حضر الشهود قال لهم هذا سيدى ابراهيم بن المهدى يخطب أختى فلانة وأشهدكم انى قد زوجتها له وأمهرتها منه عشرين ألف درهم فقلت قبلت ذلك ورضيت فشهدوا وأعلينا فدفع البدرة الواحدة الى أخته والاخرى فرقها على الشهود ثم قال ياسيدى أمهد لك بعض البيوت فتنام مع أهلك فأحشمنى ما رأيت من كرمه وتذممت أن أخلو بها فى داره ثم قلت بل أحضر عمارتى وأحملها الى منزلى فقال افعل ما شئت فأحضرت عمارتى وحملتها الى منزلى فوحقك ياأمير المؤمنين لقد حمل الى من الجهاز ما ضاقت عنه بيوتنا على سعتها وأولدتها هذا الغلام القائم بين يدى أمير المؤمنين فعجب المأمون من كرم هذا الرجل وقال لله دره ما سمعت قط بمثله وأمر ابراهيم باحضار الرجل ليشاهده فأحضره بين يديه فاستنطقه فأعجبه وصيره من جملة خواصه ومحاضريه (ومن غريب المنقول) ان فتى من ذوى النعم قعد به زمانه وكانت له جارية حسناء محسنة فى الغناء فضاق بهما الخناق واشتد بهما الحال فى عدم ما يقتاتان به فقال لها قد ترين ما قد صرنا اليه من هذه الحالة السيئة ووالله لموتى وأنت معى أحسن وأهون على مما أذكره لك فان رأيت أن أبيعك لمن يحسن اليك ويغسل عنك ما أنت فيه وأنفرج أنا بما لعله يصير الى من الثمن ولعلك تحصلين عند من تتوصلين الى نفعى معه فقالت والله لموتى على تلك الحالة معك آثر عندى من انتقالى الى غيرك ولو كان خليفة ولكن أصنع ما بدا لك قال فخرج وعرضها للبيع فأشار عليه أحد أصدقائه ممن له رأى أن يحملها الى ابن معمر أمير العراق فحملها اليه فلما عرضت عليه استحسنها فقال لمولاها كم كان شراؤها عليك قال مائة ألف درهم وقد أنفقت عليها مالا كثيرا حتى صارت فى رتبة الاستاذين قال أما ما أنفقت عليها فغير محتسب لك به لانك أنفقته فى لذاتك وأما ثمنها فقد أمرنا لك بمائة ألف درهم وعشرة أسفاط من الثياب وعشرة رؤس من الخيل وعشرة رؤس من الرقيق أرضيت قال نعم أرضى الله الأمير فأمر بالمال فأحضر وأمر قهرمانه بادخال الجارية الى الحرم فأمسكت بجانب الستر وبكت وقالت

هنيئا لك المال الذى قد أفدته * ولم تبق فى كفى غير التفكر
أقول لنفسى وهى فى كرباتها * أقلى فقد بان الحبيب أو اكثرى
اذا لم يكن للامر عندك موضع * ولم تجدى بدا من الصبر فاصبرى

فبكى مولاها وأجاب قائلا

ولولا قعود الدهر بى عنك لم يكن * يفرقنا شئ سوى الموت فاعذرى
أروح بهم من فراقك موجع * أناجى به قلبا قليل التصبر
عليك سلامى لا زيارة بيننا * ولا قرب الا أن يشاء ابن معمر

فقال له ابن معمر قد شئت فخذها بارك الله لك فيها وفيما وصل اليك منا فأخذها وأخذ المال والخيل والرقيق والثياب وعاد وقد حسنت حاله (ومما جنيته من ثمرات الاوراق) ان الحجاج لما ولى قتل عبد الله بن الزبير رحل الى عبد الملك بن مروان ومعه ابراهيم بن محمد بن طلحة فلما قدم على عبد الملك سلم عليه بالخلافة وقال قدمت عليك ياأمير المؤمنين برجل الحجاز فى

الشرف والابوة وكمال المروءة والادب وحسن المذهب والطاعة والنصيحة مع القرابة وهو ابراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله فافعل به ياأمير المؤمنين ما يستحق أن يفعل بمثله فى أبوته وشرفه فقال عبد الملك يا أبا محمد أذكرتنا حقا واجبا ائذنوا لابراهيم فلما دخل وسلم بالخلافة أمره بالجلوس فى صدر المجلس وقال له عبد الملك ان أبا محمد ذكرنا ما لم نزل نعرفه منك من الابوة والشرف فلا تدع حاجة فى خاصة أمرك وعامته الا سألتها فقال ابراهيم أما الحوائج التى نبتغى بها الزلفى ونرجو بها الثواب فما كان لله خالصا ولنبيه صلى الله عليه وسلم ولكن لك ياأمير المؤمنين عندى نصيحة لا أجد بدا من ذكرى اياها قال أهى دون أبى محمد قال نعم قال قم يا حجاج فنهض الحجاج خجلا لا يبصر أين يضع رجله ثم قال عبد الملك قل يا ابن طلحة فقال تالله يا أمير المؤمنين انك عمدت الى الحجاج فى ظلمه وتعديه على الحق واصغائه الى الباطل فوليته الحرمين وفيهما من فيهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبناء المهاجرين والانصار يسومهم الخسف ويطأهم العسف بطغام أهل الشام ومن لا رؤية له فى اقامة الحق ولا ازاحة الباطل قال فاطرق عبد الملك ساعة ثم رفع رأسه وقال كذبت يا ابن طلحة ظن فيك الحجاج غير ما هو فيك قم فرب ظان الخير بغير أهله قال فقمت وأنا ما أبصر طريقا قال وأتبعنى حرسيا وقال اشدد يدك به قال ابراهيم فما زلت جالسا حتى دعا الحجاج فما زالا يتناجيان طويلا حتى ساءظنى ولا أشك انه فى أمرى ثم دعابى فلقينى الحجاج فى الصحن خارجا فقبل بين عينى وقال أحسن الله جزاءك قال فقلت فى نفسى انه يهزأ بى ودخلت على عبد الملك فأجلسنى مجلسى الاول ثم قال يا ابن طلحة هل اطلع على نصيحتك أحد فقلت لا والله يا أمير المؤمنين ولا أردت الا الله ورسوله والمسلمين وأمير المؤمنين علم ذلك فقال عبد الملك قد عزلت الحجاج عن الحرمين لما كرهته لهما

نطق الذراع بسمه لك معلنا * والضب قد لباك حين أتاكا * والذئب جاءك والغزالة قد أتت
بك تستجير وتحتمى بحماكا * وكذا الوحوش أتت اليك وسلمت * وشكا البعير اليك حين رآكا
ودعوت أشجارا أتتك مطيعة * وسعت اليك مجيبة لنداكا * والماء فاض براحتيك وسبحت
صم الحصى بالفضل فى يمناكا * وعليك ظللت الغمامة فى الورى * والجذع حن الى كريم لقاكا
وكذاك لا أثر لمشيك فى الثرى * والصخر قد غاصت به قدماكا * وشفيت ذا العاهات من أمراضه
وملأت كل الأرض من جدواكا * ورددت عين قتادة بعد العمى * وابن الحصين شفيته بشفاكا
وكذا حبيب وابن عفرا عندما * جرحا شفيتهما بلمس يداكا * وعلى من رمد به داويته
فى خيبر فشفى بطيب لماكا * وسألت ربك فى ابن جابر بعدما * قد مات أحياه وقد أرضاكا
ومسست شاة لأم معبد بعدما * نشفت فدرت من شفا رقياكا * ودعوت عام المحل ربك معلنا
فانهل قطر السحب عند دعاكا * ودعوت كل الخلق فانقادوا الى * دعواك طوعا سامعين نداكا
وخفضت دين الكفر ياعلم الهدى * ورفعت دينك فاستقام هناكا * أعداك عادوا فى القليب بجهلهم
صرعى وقد حرموا الرضا بجفاكا * فى يوم بدر قد أتتك ملائك * من عند ربك قاتلت أعداكا
والفتح جاءك يوم فتحك مكة * والنصر فى الاحزاب قد وافاكا * هود ويونس من بهاك تجملا
وجمال يوسف من ضياء سناكا * قد فقت ياطه جميع الانبيا * نورا فسبحان الذى سواكا
والله ياياسين مثلك لم يكن * فى العالمين وحق من نباكا * عن وصفك الشعراء يامدثر
عجزوا وكلوا عن صفات علاكا * انجيل عيسى قد أتى بك مخبرا * وأتى الكتاب لنا بمدح حلاكا
ماذا يقول المادحون وما عسى * أن يجمع الكتاب من معناكا * والله لو أن البحار مدادهم
والعشب أقلام جعلن لذاكا * لم تقدر الثقلان تجمع ذرة * أبدا وما استطاعوا له ادراكا
لى فيك قلب مغرم ياسيدى * وحشاشة محشوة بهواكا * فاذا سكت ففيك صمتى كله
واذا نطقت فمادح علياكا * واذا سمعت فعنك قولا طيبا * واذا نظرت فلا أرى الاكا
يامالكى كن شافعى من فاقتى * انى فقير فى الورى لغناكا * ياأكرم الثقلين ياكنز الورى
جدلى بجودك وارضنى برضاكا * أنا طامع فى الجود منك ولم يكن * لابن الخطيب من الانام سواكا
فعساك تشفع فيه عند حسابه * فلقد غدا متمسكا بعراكا * ولانت أكرم شافع ومشفع
ومن التجا لحماك نال وفاكا * فاجعل قراى شفاعة لى فى غد * فعسى أرى فى الحشر تحت لواكا
صلى عليك الله ياخير الورى * ماحن مشتاق الى مثواكا
وعلى صحابتك الكرام جميعهم * والتابعين وكل من والاكا

وأعلمته انك استقللت ذلك عليه وسألتنى له ولاية كبيرة ولقد وليته العراقين وقررت له أن ذلك بسؤالك ليلزمه وماذا من حقك ما لابد له من القيام به فاخرج معه غير ذام لصحبته (ومن لطائف المنقول) عن القاضى أبى الحسين بن عبد المحسن بن على التنوخى رحمه الله تعالى ان الاسكندر لما انتهى الى الصين ونزل على ملكها أتاه حاجبه وقد مضى من الليل شطره فقال له رسول ملك الصين يستأذن عليك فقال ائذن له فلما دخل عليه وقف بين يديه وسلم وقال ان رأى الملك أن يخلى مجلسه فليفعل فأمر الاسكندر من بحضرته بالانصراف ولم يبق غير حاجبه فقال له الرسول الذى جئت به لا يحتمل أن يسمعه غيرك فأمر بتفتيشه ففتش فلم يوجد معه شئ من السلاح فوضع الاسكندر بين يديه سيفا مجردا وقال له قل ما شئت ثم أخرج جميع من عنده فلما خلا المكان قال له الرسول أنا ملك الصين لا رسوله وقد حضرت أسألك عما تريد فان كان مما يمكن الانقياد اليه ولو على أصعب الوجوه أجبت اليه وغنيت أنا وأنت عن الحرب فقال له الاسكندر وما الذى أمنك منى قال علمى بانك رجل عاقل وليس بيننا عداوة متقدمة ولا مطالبة بذحل ومتى قتلتنى أقاموا غيرى ولم يسلموا اليك البلد ثم تنسب أنت الى غير الجميل وضد الحزم

وماذا عسى أن يقول المادحون فى وصف من مدحه الله تعالى وأثنى عليه وقد قال صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم ولا فخر والله لو أن البحار مداد والاشجار أقلام وجميع الخلائق كتاب لما استطاعوا أن يجمعوا النزر اليسير من بعض صفاته ولكاوا عن الاتيان ببعض بعض وصف معجزاته صلى الله عليه وسلم ومدح رجل هشام بن عبد الملك فقال له يا هذا انه قد نهى عن مدح الرجل فى وجهه فقال ما مدحتك ولكن ذكرتك نعم الله عليك لتجدد لها شكرا فقال له هشام هذا أحسن من المدح ووصله وأكرمه وكتب رجل الى عبد الله بن يحيى ابن خاقان رأيت نفسى فيما أتعاطى من مدحك كالمخبر عن ضوء النهار الباهر والقمر الزاهر وأيقنت انى حيث أنتهى من القول منسوب الى العجز مقصر عن الغاية فانصرفت عن الثناء عليك الى الدعاء لك ووكلت الاخبار عنك الى علم الناس بك * وقال الحرث بن ربيعة فى رجل من آل المهلب

فتى دهره شطران فيما ينوبه * ففى بأسه شطر وفى جوده شطر

فلا من بغات الخير فى عينه قذى * ولا من زئير الحرب فى أذنه وقر

وقال اعرابى لرجل لا يذم بلد أنت تأويه ولا يشتكى زمان أنت فيه * وكان الحجاج يستثقل زياد بن عمر العتكى فلما قدم على عبد الملك بن مروان قال يا أمير المؤمنين ان الحجاج سيفك الذى لا ينبو وسهمك الذى لا يطيش وخادمك الذى لا تأخذه فيك لومة لائم فلم يكن بعد ذلك على قلب الحجاج أخف منه وقال رجل لآخر أنت بستان الدنيا فقال له وأنت النهر الذى يسقى منه ذلك البستان وقال رجل لابى عمرو الزاهد صاحب كتاب الياقوتة فى اللغة أنت والله عين الدنيا فقال له وأنت والله نور تلك العين وقال القاسم بن أمية بن أبى الصلت الثقفى

قوم اذا نزل الغريب بدارهم * تركوه رب صواهل وقيان

واذا دعوتهم ليوم كريهة * سدوا شعاع الشمس بالفرسان

(وقال أوس بن حاتم الطائى)

فان تنكحى مارية الخير حاتما * فما مثله فينا ولا فى الاعاجم

فتى لا يزال الدهر أكبر همه * فكاك أسير أو معونة غارم

(وقال ابن حمدون فى آل المهلب)

آل المهلب معشر أمجاد * ورثوا المكارم والوفاء فسادوا * شاد المهلب ما بنى آباؤه

وأتى بنوه ما بناه فشادوا * وكذاك من طابت مغارس نبته * و بنى له الآباء والاجداد

وكان الفرزدق هجا العمر بن هبيرة فلما سجن ونقب له السجن وسار هو و بنوه تحت الارض قال الفرزدق

ولما رأيت الارض قد سد ظهرها * ولم يبق الا بطنها لك مخرجا

دعوت الذى ناداه يونس بعدما * ثوى فى ثلاث مظلمات ففرجا

فاطرق الاسكندر متفكرا فى مقاله وعلم انه رجل عاقل فقال له أريد ارتفاع ملكك لثلاث سنين عاجلا ونصف ارتفاعه فى كل سنة قال أجبتك قال فكيف تكون حالك قال أكون قتيلا أو محاربا قال فان قنعت منك بارتفاع سنتين كيف حالك قال أصلح مما تقدم ذكره قال فان قنعت منك بارتفاع سنة واحدة قال يكون مضرابى ومذهبا لجميع لذاتى قال فان اقتصرت منك على السدس قال يكون السدس موفرا والباقى للجيش ولاسباب الملك قال قد اقتصرت على هذا فشكره وانصرف فلما أصبح وطلعت الشمس أقبل جيش الصين حتى طبق الارض واختاط بجيش الاسكندر فارتعب وتواثبت أصحابه فركبوا واستعدوا للحرب فبينما هم كذلك اذ ظهر ملك الصين وعليه التاج فلما رأى الاسكندر ترجل فقال له الاسكندر أغدرت قال لا والله قال فما هذا الجيش قال أردت أن أعلمك انى لم أطعك من ضعف ولا من قلة وما غاب عنك من الجيش أكثر لكنى رأيت العالم الاكبر مقبلا عليك ممكنا لك فعلمت انه من حارب العالم الاكبر غلب فأردت طاعته بطاعتك والذلة لامره بالذلة لامرك فقال الاسكندر ليس مثلك يؤخذ منه شئ فما رأيت بينى و بينك أحدا يستحق التفضيل والوصف بالفضل غيرك وقد أعفيتك من جميع ما أردته منك وأنا منصرف عنك فقال ملك الصين أما اذ فعلت ذلك فلست تخسر فلما انصرف الاسكندر أتبعه ملك الصين من الهدايا والتحف بضعف ما كان قدره عليه

ومن غريب المنقول عن أبى الفرج الأصبهانى أنه قال أخبرنى عمى عن أبيه عن الكلبى عن أبيه قال أخبرنى شيخ من بنى نبهان قال أصابت بنى نبهان سنة ذهبت بالاموال فخرج رجل منهم بعياله حتى أنزلهم الحيرة وقال كونوا قريبا من الملك يصبكم من خيره حتى أرجع اليكم ومضى على وجهه يسوق راحلته سبعة أيام حتى انتهى الى عطن ابل عند تطفيل الشمس فاذا خباء عظيم وقبة من أدم قال فقلت فى نفسى ما لهذا الخباء بد من أهل وما لهذه القبة بد من رب وما لهذا العطن بد من ابل فنظرت فى الخباء فاذا شيخ كبير قد أوهاه الكبر وهو شبه النسر فجلست خلفه فلما انصرم النهار أقبل فارس لم أر أعظم من شكله وفى خدمته أسودان يمشيان بين جنبيه واذا مائة من الابل معها فحلها فبرك الفحل و بركن حوله فقال لاحد عبيده احلب فلانة فحلبها ثم وضع اللبن بين يدى الشيخ فكرع منه وأخذه وقدمه الى فشربت نصفه ثم أمر بشاة فذبحت وشويت وأكلنا منها جميعا فأمهلت حتى اذا ناموا وحكم عليهم النوم ثرت الى الفحل فحللت عقاله وركبته فاندفع بى وتبعته الابل فمشيت الى الصباح فلما أصبحت نظرت فلم أجد أحدا ولما تعالى النهار التفت فاذا أنا بخيال كأنه طائر فما زال يدنو حتى تبينته فاذا هو فارس على فرس واذا هو صاحبى بالامس فعقلت الفحل وعمدت الى كنانتى فقال احلل عقاله فقلت كلا لقد خلفت خلفى عيالا جياعا بالحيرة قال فانك ميت حل عقاله لا أم لك وانصب لى خطامه واجعل فيه خمس عقد وقل لى أين تحب أن أضع سهمى فقلت فى هذا الموضع فكأنما وضعه بيده ثم أقبل يرمى حتى أصاب الخمس بخمسة أسهم فرددت نبلى وحططت قوسى ووقفت مستسلما فدنا منى وأخذ القوس

والسيف ثم أردفني خلفه وقد عرف أني الذي شربت اللبن عنده وأكلت اللحم فقال كيف ظنك بي فقلت أحسن ظن فقال أبشر انه لن ينالك شر وقد كنت ضيف مهلهل فقلت أزيد الخيل أنت قال نعم أنا زيد الخيل فلما انتهينا الى منزله قال لو كانت هذه الابل لي لسلمتها اليك ولكنها لابنة مهلهل فأقم عندي فأقمت عنده أياما فشن الغارة على بني نمير فأصاب مائة بعير فقال هذه أحب اليك أم تلك قلت هذه قال دونكها وبعث معي خفراء من ماء الى ماء الى أن وردت الحيرة فلقيني نبطي فقال يا أعرابي احتفظ بابلك فقد قرب مخرج النبي صلى الله عليه وسلم الذي يملك هذه الارض ويطرد أهلها حتى أن احدكم ليبتاع البستان بثمن بعير قال فاحتملت بأهلي الى النبط حتى جاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاسلمنا على يديه وما مضت الايام حتى اشتريت بثمن بعير من ابلي بستانا بالحيرة والله اعلم (ونقل عن الواقدي) قال كان لي صديقان احدهما هاشمي والآخر نبطي فكنا

في الصداقة كنفس واحدة فنالتني ضيقة شديدة وحضر العيد فقالت امرأتي اما نحن فنصبر على البؤس والشدة واما صبياننا هؤلاء فقد تقطع قلبي عليهم رحمة لانهم يرون صبيان جيراننا وقد تزينوا في عيدهم وهم فرحون ولا بأس بالاحتيال فيما نصرفه في كسوتهم قال فكتبت الى صديقي الهاشمي أسأله التوسعة على بشئ فوجه الى كيسا فيه ألف درهم فما استقر قراره حتى كتب الى صديقي الآخر يشكو الى مثل ما شكوته الى الهاشمي فوجهت اليه بالكيس على حاله وخرجت الى المسجد وأنا مستح من امرأتي فلما دخلت عليها لم تعنفني لعلمها بالحال فبينما أنا كذلك اذ أقبل صديقي الهاشمي ومعه الكيس بختمه فقال أصدقني عما فعلته فيما وجهت به اليك فاعلمته بالخبر فقال انك وجهت الي ولا أملك الا ما بعثت به اليك وكتبت الى صديقنا أسأله المواساة فوجه الي كيسي بختمه فاخرجنا للمرأة مائة درهم وتقاسمنا الباقي أثلاثا وبلغ الخبر الى المأمون فاحضرني وسألني عن الخبر فشرحته له فامر لنا بسبعة آلاف وكانت دينار منها ألف للمرأة وألفان لكل واحد منا (ويضارع ذلك ما هو منقول عن الاصمعي) قال قصدت في بعض الايام رجلا كنت أغشاه لكرمه فوجدت على بابه بوابا فمنعني من الدخول اليه ثم قال والله يا أصمعي ما أوقفني على بابه لامنع مثلك الا رقة حاله وقصور يده فكتبت رقعة فيها

اذا كان الكريم له حجاب * فما فضل الكريم على اللئيم

ثم قلت له أوصل رقعتي اليه ففعل وعاد بالرقعة وقد وقع على ظهرها

اذا كان الكريم قليل مال * تحجب بالحجاب عن الغريم

ومع الرقعة صرة فيها خمسمائة دينار فقلت والله لاتحفن المأمون بهذا الخبر فلما رآني قال من أين يا أصمعي قلت من عند رجل من أكرم الاحياء حاشى أمير المؤمنين قال ومن هو فدفعت اليه الورقة والصرة وأعدت عليه الخبر فلما رأى الصرة قال هذا من بيت مالي ولا بد لي من الرجل فقلت والله يا أمير المؤمنين اني أستحي أن أروعه برسلك فقال لبعض خاصته امض مع الاصمعي فاذا أراك الرجل قل له أجب أمير المؤمنين من غير ازعاج قال فلما حضر الرجل بين يدي المأمون قال له أما أنت الذي وقفت لنا بالامس

فقال ابن هبيرة ما رأيت أشرف من الفرزدق هجاني أميرا ومدحني أسيرا وقال مري بن عبد الرحمن الرفاء في خالد بن حاتم

ياواحد العرب الذي دانت له * قحطان قاطبة وساد نزارا
اني لأرجوان لقيتك سالما * أن لا أعالج بعدك الاسفارا

(وقال كعب بن مالك الانصاري في آل هاشم)

يا آل هاشم الاله حباكم * ما ليس يبلغه اللسان المفضل
قوم لاصلهم السيادة كلها * قدما وفرعهم النبي المرسل

(وقال الحسين بن دعبل الخزاعي)

ملك الامور بجوده وحسامه * شرفا به وعدوه بزمامه
فأطاع أمر الجود في أمواله * وأطاع أمر الله في أحكامه

(وقال آخر)

يلقى السيوف بصدره وبنحره * ويقيم هامته مقام المغفر
ويقول للطرف اصطبر لسنى القنا * فعقرت ركن المجد ان لم تعقر
واذا تراءى شخص ضيف مقبل * متسربل أثواب محل أغبر
أومى الى الكوماء هذا طارق * نحرتني الاعداء ان لم تنحر

(وقال شاعر بني تميم)

اذا لبسوا عمائمهم طووها * على كرم وان سفروا أناروا
يبيع ويشتري لهم سواهم * ولكن بالطعان هم تجار
اذا ما كنت جار بني تميم * فانت لاكرم الثقلين جار

وقالت امرأة من بني نمير وقد حضرتها الوفاة وأهلها مجتمعون من ذا الذي يقول

لعمري ما رماح بني نمير * بطائشة الصدور ولا قصار

قالوا زياد الأعجم قالت أشهدكم أن له الثلث من مالي وكان مالا كثيرا وأثنى رجل على رجل فقال هو أفصح أهل زمانه اذا حدث وأحسنهم استماعا اذا حدث وأمسكهم عن الملاحاة اذا خولف يعطي صديقه النافلة ولا يسأله الفريضة له نفس عن الفحشاء محصورة وعلى المعالي مقصورة كالذهب الابريز الذي يعز كل أوان والشمس المنيرة التي لا تخفى بكل مكان هو النجم المضيء للحيران والمنهل البارد العذب للعطشان وقال الحسن ابن هانئ

اذا نحن أثنينا عليك بصالح * فأنت كما نثني وفوق الذي نثني
وان جرت الالفاظ يوما بمدحة * لغيرك انسانا فانت الذي نعني

(وله في الفضل بن الربيع)

لقد نزلت أبا العباس منزلة * ما ان ترى خلفها الابصار مطرحا

وشكوت رقة الحال فان الزمان قد أناخ عليك بكلكله فدفعنا اليه هذه المرة لتصلح بها الحال فقصدك الاصمعي ببيت واحد فدفعتها اليه فقال نعم يا أمير المؤمنين والله ما كذبت فيه اشكوت لامير المؤمنين من رقة الحال لكن استحييت من الله تعالى أن أعيد قاصدي الا كما أعادني أمير المؤمنين فقال له المأمون لله أنت فما ولدت العرب أكرم منك ثم بالغ في اكرامه وجعله من جملة ندمائه ﴿ومن لطائف المنقول﴾ ما هو منقول عن الربيع انه قال ما رأيت رجلا أثبت ولا أربط جاشا من رجل رفع الى المنصور ان عنده ودائع وأموالا لبني أمية فأمرني باحضاره فأحضرته ودخلت به اليه فقال له المنصور وقد رفع الينا خبر لودائع والاموال التي لبني أمية عندك فأخرج لنا منها فقال يا أمير المؤمنين أوارث أنت لبني أمية قال لا قال فوصي قال لا قال فما سؤالك عما في يدي من ذلك قال فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه وقال ان بني أمية ظلموا المسلمين فيها وأنا وكيل المسلمين في حقهم فأريد أن آخذ أموال المسلمين وأجعلها في بيت مالهم فقال يا أمير المؤمنين تحتاج في ذلك الى اقامة البينة العادلة على ان الذي في يدي لبني أمية مما خانوه وظلموه واغتصبوه من أموال المسلمين فان بني أمية كان لهم أموال غير أموال المسلمين قال فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه الي وقال صدق الرجل يا ربيع ما وجب عليه عندنا شئ ثم بش في وجهه فقال هل لك من حاجة فقال نعم يا أمير المؤمنين حاجتي أن تنفذ كتابي مع البريد الى أهلي ليسكنوا الى سلامتي فقد راعهم اشخاصي وقد بقيت لي حاجة أخرى يا أمير المؤمنين قال ما هي قال تجمع بيني وبين من سعى بي اليك فوالله ما لبني أمية عندي ولا في يدي وديعة ولكنني لما مثلت بين يديك وسألتني ورأيت ما قلته أقرب الى الخلاص والنجاة فقال يا ربيع اجمع بينه وبين من سعى به فجمعت بينهما فقال هذا غلامي ضرب على ثلاثة آلاف من مالي وأبق فشدد المنصور على الغلام فأقر انه غلامه وانه أخذ المال الذي ذكره وأبق منه وكذب عليه خوفا من الوقوع في يده فقال المنصور للرجل نسألك أن تصفح عنه فقال يا أمير المؤمنين صفحت عن جرمه وأبرأته من المال وأعطيته ثلاثة آلاف دينار أخرى فقال المنصور ما على ما فعلت مزيد في الكرم قال بلى يا أمير المؤمنين هذا أحق كلامك وانصرف وكان المنصور يتعجب منه كلما ذكره ويقول ما رأيت مثل هذا الرجل يا ربيع ﴿رحلة الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه﴾ قال الشيخ الامام العالم المقرى أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف الأردبيلي المالكي بالجامع العتيق بمصر في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة أخبرنا الشيخ أبو محمد عبد الله بن فتح المعروف بابن الحبشي سنة ثلاثين وخمسمائة أخبرنا الشريف القاضي الموسوي أبو اسمعيل موسى بن الحسين بن اسمعيل بن علي الحسيني المقرى في سنة أربع وثمانين وأربعمائة بالجامع العتيق بمصر قال أخبرنا الشيخ أبو العباس أحمد بن ابراهيم الفارسي في ربيع الأول سنة احدى وخمسين وأربعمائة قال أخبرنا يحيى ابن عبد الله الرجل الصالح ويحيى بن موسى المعدل بمصر قال حدثنا أبو الحسن أحمد بن محمد الواعظ المصري السكر ازقال حدثني أبو الفرج عبد الرزاق حمدان البطين قال حدثني

وكلت بالدهر عينا غير غافلة * بجود كف تأسو كل ما جرحا

(وقال زياد الاعجم في محمد بن القاسم الثقفي)

ان المنابر أصبحت مختالة * بمحمد بن القاسم بن محمد
قاد الجيوش لسبع عشرة حجة * يا قرب سورة سودد من مولد

(ومن بدائع مدائح المتنبي قوله)

ليت المدائح تستوفي مناقبه * فما كليب وأهل الاعصر الاول
خذ ما تراه ودع شيأ سمعت به * في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل
وقد وجدت مكان القول ذا سعة * فان وجدت لسانا قائلا فقل

ومدح أبو العتاهية عمرو بن العلاء فأعطاه سبعين ألفا وخلع عليه خلعا سنية حتى انه لم يستطع أن يقوم فغار الشعراء منه لجمعهم وقال يا لله العجب ما أشد حسد بعضكم لبعض ان أحدكم يأتينا ليمدحنا فيتغزل في قصيدته بخمسين بيتا فما يبلغنا حتى يذهب رونق شعره وقد تشبب أبو العتاهية بأبيات يسيرة ثم قال

اني أمنت من الزمان وصرفه * لما علقت من الامير حبالا * لو يستطيع الناس من اجلاله
جعلوا له حر الوجوه نعالا * ان المطايا تشتكيك لانها * قطعت اليك سباسبا ورمالا
فاذا وردن بنا وردن خفائفا * واذا صدرن بنا صدرن ثقالا

ووفد أبو نواس على الخصيب بمصر فأذن له وعنده الشعراء فأنشد الشعراء أشعارهم فلما فرغوا قال أبو نواس أنشد أيها الامير قصيدة هي كعصا موسى تلقف ما صنعوا قال أنشد فأنشده قصيدته التي منها قوله

اذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا * فأي فتى بعد الخصيب تزور * فتى يشتري حسن الثناء بماله
ويعلم ان الدائرات تدور * فما فاته جود ولا حل دونه * ولكن يسير الجود حيث يسير

فاهتز الخصيب لها طربا وأمر له بألف دينار ووصيف ووصيفة (وحكي) ان أبا دلف سار يوما مع أخيه معقل فرأيا امرأتين يتماشيان فقالت احداهما للاخرى هذا أبو دلف قالت نعم الذي يقول فيه الشاعر

انما الدنيا أبو دلف * بين باديه ومحتضره * فاذا ولى أبو دلف * ولت الدنيا على أثره

فبكى أبو دلف حتى جرت دموعه فقال له معقل مالك يا أخي تبكي فقال لاني لم أقض حق الذي قال هذا قال أولم تعطه مائة ألف درهم قال والله ما في نفسي حسرة الا لكوني لم أعطه مائة ألف دينار ويقال هذه المدحة فاين المنحة قال بعضهم

اذا ما المدح صار بلا نوال * من الممدوح كان هو الهجاء

وامتدح محمد بن سلطان المعروف بابن حيوس محمد بن نصر صاحب حلب فأجازه بألف دينار ثم مات محمد بن نصر وقام ولده نصر مقامه فقصده محمد بن سلطان بقصيدة مدحه بها منها

أبو بكر محمد بن المنذر قال حدثني الربيع بن سليمان قال سمعت الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه يقول فارقت مكة وأنا ابن أربع عشرة سنة لا نبات بعارضي من الأبطح الى ذي طوى وعلى بردتان يمانيتان فرأيت ركبا فسلمت عليهم فردوا على السلام ووثب الى شيخ كان فيهم قال سألتك بالله الا ما حضرت طعامنا قال الشافعي رضي الله تعالى عنه وما كنت أعلم انهم أحضروا طعاما فأجبت مسرعا غير محتشم فرأيت القوم يأخذون الطعام بالخمس و يدفعون بالراحة فأخذت كأخذهم كي لا يستبشع عليهم مأكلي والشيخ ينظر الى ثم أخذت السقاء فشربت وحمدت الله وأثنيت عليه فأقبل على الشيخ وقال أمكي أنت قلت مكي قال أقرشي أنت قلت قرشي ثم أقبلت عليه وقلت يا عم بم استدللت على قال أما في الحضر فبالزى وأما في النسب فبأكل الطعام لانه من أحب أن يأكل طعام الناس أحب أن يأكلوا طعامه وذلك في قريش خصوصا قال الشافعي رضي الله تعالى عنه فقلت للشيخ من أين أنت قال من يثرب مدينة النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له من العالم بها والمتكلم في نص كتاب الله تعالى والمفتي بأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سيد بني أصبح مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه قال الشافعي رضي الله عنه فقلت وأشوقاه الى مالك فقال لي قد بل الله شوقك انظر الى هذا البعير الأورق فانه أحسن جمالنا ونحن على رحيل ولك منا حسن الصحبة حتى تصل الى مالك فما كان غير بعيد حتى قطروا بعضها الى بعض وأركبوني البعير الأورق وأخذ القوم في السير وأخذت أنا في الدرس فختمت من مكة الى المدينة ست عشرة ختمة بالليل ختمة وبالنهار ختمة ودخلت المدينة في اليوم الثامن بعد صلاة العصر فصليت العصر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودنوت من القبر فسلمت على النبي صلى الله عليه وسلم ولذت بقبره فرأيت مالك بن أنس متزرا ببردة متوشحا بأخرى قال حدثني نافع عن ابن عمر عن صاحب هذا القبر وضرب بيده الى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الشافعي رضي الله عنه فلما رأيت ذلك هبته مهابة عظيمة وجلست حيث انتهى بي المجلس فأخذت عودا من الأرض فجعلت كلما أملى مالك حديثا كتبته بريقي على يدي والامام مالك رضي الله عنه ينظر الى من حيث لا أعلم حتى انقضى المجلس وانتظرني مالك أن أنصرف فلم يرني انصرفت فأشار الى فدنوت منه فنظر الى ساعة ثم قال أحرمي أنت قلت حرمي قال أمكي أنت قلت مكي قال أقرشي أنت قلت قرشي قال كملت أوصافك لكن فيك اساءة أدب قلت وما الذي رأيت من سوء أدبي قال رأيتك وأنا أملي ألفاظ الرسول عليه الصلاة والسلام تلعب بريقك على يدك فقلت له عدمت البياض فكنت أكتب ما تقول فجذب مالك يدي اليه فقال ما أرى عليها شيأ فقلت ان الريق لا يثبت على اليد ولكن فهمت جميع ما حدثت به منذ جلست وحفظته الى حين قطعت فتعجب الامام مالك من ذلك فقال أعد على ولو حديثا واحدا (قال الشافعي رضي الله عنه) فقلت حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر وأشرت بيدي الى القبر كاشارته حتى أعدت عليه خمسة وعشرين حديثا حدث بها من حين جلس الى وقت قطع المجلس وسقط

تباعدت عنكم حرمة لا زهادة * وسرت اليكم حين مسني الضر

فجاد أبو نصر بألف تصرمت * واني عليم أن سيخلفها نصر

فلما فرغ من انشادها قال نصر والله لو قال سيضعفها نصر لاضعفتها له وأعطاه ألف دينار في طبق فضة ومدح بعض الشعراء وقيل هو البديع الهمذاني انسانا فقال

يكاد يحكيه صوب الغيث منسكبا * لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا

والدهر لو لم يخن والشمس لو نطقت * والليث لو لم يصد والبحر لو عذبا

وقال آخر

أخو كرم يقضي الورى من بساطه * الى روض مجد بالسماح مجود

وكم لجباه الراغبين لديه من * مجال سجود في مجالس جود

و يقال فلان رفيق الجود وخدينه وزميل الكرم ونزيله وغرة الدهر وتحجيله مواهبه الانواء وصدره الدهناء عونه موقوف على اللهيف وغوثه مبذول للضعيف يطفو جوده على موجوده وهمته على قدرته ينابيع الجود تتفجر من أنامله ورببيع السماح يضحك من فواضله ان طلبت كريما في جوده مت قبل وجوده أو ماجدا في أخلاقه مت ولم تلاقه باسل تعود الاقدام حيث تزل الاقدام وشجاع يرى الاحجام عارا لا تمحوه الايام له خلق لو مازج البحر لنفى ملوحته وصفى كدورته خلق كنسيم الاسحار على صفحات الانهار أطيب من زمن الورد في الايام وأبهج من نور البدر في الظلام خلق يجمع الاهواء المتفرقة على محبته و يؤلف الآراء المتشتتة في مودته هو ملح الارض اذا فسدت وعمارة الدنيا اذا خربت يحل دقائق الاشكال و يزيل جلائل الاشكال البيان أصغر صفاته والبلاغة عنوان خطراته كأنما أوحى التوفيق الى صدره وحبس الصواب بين طبعه وفكره فهو يبعث بالكلام و يقوده بألين زمام حتى كأن الالفاظ تتحاسد في التسابق الى خواطره والمعاني تتغاير في الامتثال لاوامره يوجز فلا يخل و يطنب فلا يمل كلامه يشتد مرة حتى تقول الصخر أو أيبس و يلين تارة حتى تقول الماء أو أسلس فهو اذا انشا وشى واذا عبر حبر واذا أوجز أعجز تاهت به الايام وباهت في يمينه الاقلام له أدب لو تصور شخصا لكان بالقلوب مختصا قال الشاعر

له خلق على الأيام يصفو * كما تصفو على الزمن العقار

(وقال آخر)

لو كان يحوي الروض ناضر خلقه * ما كان يذبل نوره بشتائه

أو قابل الأفلاك طالع سعده * ما ارتخس في نجوم سمائه

(وقال آخر)

ووجهك بدر في الغياهب مشرق * وكفك في شهب السنين غمام

عجيب لبدر لا يزال أمامه * سحاب ولا يغشاه منه ظلام

القرص فصلى مالك المغرب وأقبل على عبده وقال خذ بيده سيدك اليك وسألنى النهوض معه (قال الشافعى رحمه الله) فقمت غير ممتنع الى ما دعا من كرمه فلما أتيت الدار أدخلنى الغلام الى خلوة فى الدار وقال لى القبلة فى البيت هكذا وهذا اناء فيه ماء وهذا بيت الخلاء (قال الشافعى رضى الله عنه) فالبث مالك رضى الله عنه حتى أقبل هو والغلام حاملا طبقا فوضعه من يده وسلم الامام على ثم قال للعبد اغسل علينا ثم وثب الغلام الى الاناء وأراد أن يغسل على أولا فصاح عليه مالك وقال الغسل فى أول الطعام لرب البيت وفى آخر الطعام للضيف (قال الشافعى رضى الله عنه) فاستحسنت ذلك من الامام مالك رضى الله عنه وسألته عن شرحه فقال انه يدعو الناس الى كرمه فحكمه أن يبتدئ بالغسل وفى آخر الطعام ينتظر من يدخل فيأكل معه (قال الشافعى رضى الله عنه) فكشف الامام رضى الله عنه الطبق فكان فيه صحفتان فى احداهما لبن والأخرى تمر فسمى الله تعالى وسميت فاتيت أنا ومالك على جميع الطعام وعلم مالك انالم نأخذ من الطعام الكفاية فقال لى يا أبا عبد الله هذا جهد من مقل الى فقير معدم فقلت لا عذر على من أحسن انما العذر على من أساء (قال الشافعى رضى الله عنه) فأقبل مالك يسألنى عن أهل مكة حتى دنت العشاء الآخرة ثم قام عنى وقال حكم المسافر أن يقل تعبه بالاضطجاع فنمت ليلتى فلما كان فى الثلث الأخير من الليل قرع على مالك الباب فقال لى الصلاة يرحمك الله فرأيته حامل اناء فيه ماء فتبشع على ذلك فقال لى لا يرعك ما رأيته فخدمة الضيف فرض (قال الشافعى رضى الله عنه) فتجهزت للصلاة وصليت الفجر مع الامام مالك فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس لا يعرف بعضهم بعضا من شدة الغلس وجلس كل واحد منا فى مصلاه يسبح الله تعالى الى أن طلعت الشمس على رؤس الجبال فجلس مالك فى مجلسه بالأمس وناولنى الموطأ أمليه وأقرؤه على الناس وهم يكتبونه (قال الشافعى رضى الله عنه) فأتيت على حفظه من أوله الى آخره وأقمت ضيف مالك ثمانية أشهر فما علم أحد من الانس الذى كان بيننا أينا الضيف ثم قدم على مالك المصريون بعد قضاء حجهم لزيارة واستماع الموطأ (قال الشافعى) فأمليت عليهم حفظا منهم عبد الله بن عبد الحكم وأشهب وابن القاسم قال الربيع وأحسب انه ذكر الليث بن سعد ثم قدم بعد ذلك أهل العراق لزيارة النبى صلى الله عليه وسلم (قال الشافعى رضى الله عنه) فرأيت بين القبر والمنبر فتى جميل الوجه نظيف الثوب حسن الصلاة فتوسمت فيه خيرا فسألته عن اسمه فأخبرنى وسألته عن بلده فقال العراق فقلت أى العراق فقال لى الكوفة فقلت من العالم بها والمتكلم فى نص الكتاب والمفتى باخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى أبو يوسف ومحمد بن الحسن صاحبا أبى حنيفة رضى الله عنه (قال الشافعى رضى الله عنه) فقلت ومتى عزمتم تظعنون فقال لى فى غداة غد وقت الفجر فعدت الى مالك فقلت له خرجت من مكة فى طلب العلم بغير استئذان العجوز أفاعود اليها أو أرحل فى طلب العلم فقال لى العلم فائدة يرجع منها الى فائدة ألم تعلم أن الملائكة تضع أجنحتها

وأعجب من هذا غمام اذا سطا * تلظى مكان البرق منه حسام

(وقال الحسين بن مطير الأسدى)

له يوم بؤس فيه للناس أبؤس * ويوم نعيم فيه للناس أنعم * فيقطر يوم الجود من كفه الندى

ويقطر يوم البؤس من كفه الدم * فلو أن يوم البؤس خلى عقابه * على الناس لم يصبح على الأرض مجرم

ولو أن يوم الجود خلى يمينه * على المال لم يصبح على الأرض معدم

(وللشيخ جمال الدين بن نباتة)

والله ما عجبى لقدرك انه * قدر على باغى مداه بعيد

الا لكونك لست تشكو وحشة * فى هذه الدنيا وأنت وحيد

(ولصفى الدين الحلى)

أثنى فتثنينى صفاتك مظهرا * عياو كم أعيت صفاتك خاطبا

لو أننى والخلق جمعا ألسن * تثنى عليك لما قضينا الواجبا

(وللشيخ برهان الدين القيراطى)

أوصافكم تجرى أحاديثها * مجرى النجوم الزهر فى الأفق

كما أحاديث الندى عنكم * تسندها الركبان من طرق

(وللشيخ جمال الدين بن نباتة)

روت عنك أخبار المعالى محاسنا * كفت بلسان الحال عن ألسن الحمد

فوجهك عن بشر وكفك عن عطا * وخلقك عن سهل ورأيك عن سعد

(وقال غيره)

من زار بابك لم تبرح جوارحه * تروى أحاديث ما أوليت من منن

فالعين عن قرة والكف عن صلة * والقلب عن جابر والسمع عن حسن

ولأبى فراس بن حمدان

لئن خلق الأنام لحب كأس * ومزمار وطنبور وعود

فلم يخلق بنو حمدان الا * لمجد أو لبأس أو لجود

(وقال آخر)

ان الهبات التى جاد الكرام بها * مطروقة وندى كفيك مبتكر

مازلت تسبق حتى قال حاسدكم * له طريق الى العلياء مقتصر

(ولمحمد بن مناذر فى آل برمك)

أتانا بنو الأملاك من آل برمك * فيا طيب أخبار وأحسن منظر * لهم رحلة فى كل عام الى العدا

وأخرى الى البيت العتيق المنور * اذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت * بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر

فما خلقت الا لجود أكفهم * وأقدامهم الا لسعى مظفر

لطالب العلم رضاء بما يطلبه (قال الشافعي رضي الله عنه) فلما أزمعت على السفر زودني الامام مالك رضي الله عنه فلما كان في السحر سار معي مشيعا الى البقيع ثم صاح بعلو صوته من يكري راحلته الى الكوفة فأقبلت عليه وقلت بم تكتري وليس معك ولا معي شئ فقال لي انصرفت البارحة بعد صلاة العشاء الآخرة اذ قرع على قارع الباب فخرجت اليه فأصبت ابن القاسم فسألني قبول هديته فقبلتها فدفع لي صرة فيها مائة دينار وقد أتيتك بنصفها وجعلت النصف لعيالي فأكترى لي بأربعة دنانير ودفع الي باقي الدنانير وودعني وانصرف وسرت في جملة الحاج حتى وصلت الى الكوفة يوم رابع عشرين من المدينة فدخلت المسجد بعد صلاة العصر وصليت العصر فبينما أنا كذلك اذ رأيت غلاما قد دخل المسجد وصلى العصر فما أحسن الصلاة فقمت اليه ناصحا فقلت له أحسن صلاتك لئلا يعذب الله هذا الوجه الجميل بالنار فقال لي أنا أظن انك من أهل الحجاز لان فيكم الغلاظة والجفاء وليس فيكم رقة أهل العراق وأنا أصلي هذه الصلاة خمس عشرة سنة بين يدي محمد بن الحسن وأبي يوسف فما عابا على صلاتي قط وخرج مغضبا ينفض رداءه في وجهي فلقي للتوفيق محمد بن الحسن وأبا يوسف بباب المسجد فقال أعلمتما في صلاتي من عيب فقالا اللهم لا قال ففي مسجدنا هذا من عاب صلاتي فقالا اذهب اليه فقل له بم تدخل في الصلاة (قال الشافعي رضي الله عنه) فقال لي يا من عاب صلاتي بم تدخل في الصلاة فقلت بفرضين وسنة فعاد اليهما وأعلمهما بالجواب فعلما أنه جواب من نظر في العلم فقالا اذهب اليه فقل له ما الفرضان وما السنة فأتى الي فقال ما الفرضان وما السنة فقلت له أما الفرض الاول فالنية والثاني تكبيرة الاحرام والسنة رفع اليدين فعاد اليهما فأعلمهما بذلك فدخلا الى المسجد فلما نظرا الى أظنهما ازدرياني فجلسا ناحية وقالا اذهب اليه وقل له أجب الشيخين (قال الشافعي رحمه الله تعالى) فلما أتاني علمت اني مسؤل عن شئ من العلم فقلت من حكم العلم أن يؤتى اليه وما علمت لي اليهما حاجة قال الشافعي رضي الله عنه فقاما من مجلسهما الى فلما سلما على قمت اليهما وأظهرت البشاشة لهما وجلست بين أيديهما فأقبل على محمد بن الحسن قال أحرمي أنت فقلت نعم فقال اعربي أم مولى فقلت عربي فقال من أي العرب فقلت من ولد المطلب قال من ولد من قلت من ولد شافع قال رأيت مالكا قلت من عنده أتيت قال لي نظرت في الموطأ قلت أتيت على حفظه فعظم ذلك عليه ودعا بدواة وبياض وكتب مسئلة في الطهارة ومسئلة في الزكاة ومسئلة في البيوع والفرائض والرهان والحج والايلاء ومن كل باب في الفقه مسئلة وجعل بين كل مسئلتين بياضا ودفع الى الدرج وقال أجب عن هذه المسائل كلها من الموطا (قال الشافعي رضي الله عنه) فاجبت بنص كتاب الله وبسنة نبيه عليه الصلاة والسلام واجماع المسلمين في المسائل كلها ثم دفعت اليه الدرج فتأمله ونظر فيه ثم قال لعبده خذ سيدك اليك (قال الشافعي رضي الله تعالى عنه) ثم سألني النهوض مع العبد فنهضت غير ممتنع فلما صرت الى الباب قال لي العبد ان

اذا رام يحيى الأمر ذلت صعابه * وناهيك من راع له ومدبر

ولما عزل ابراهيم بن المنذر عن صدقات البصرة تلقاه مجنون وأنشد

ليت شعري أى قوم أجدبوا * فاغيثوا بك من بعد العجف
نظر الله لهم من بيننا * وحرمناك بذنب قد سلف
يا أبا اسحق سر في دعة * وامض مصحوبا فما منك خلف
انما أنت ربيع باكر * حيثما صرفه الله انصرف

(وقال آخر)

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم * قوم لقيل اقعدوا يا آل عباس
ثم ارتقوا في شعاع الشمس وارتفعوا * الى السماء فأنتم سادة الناس

وللحسين بن مطير الأسدي في المهدي

لو يعبد الناس يا مهدي أفضلهم * ما كان في الناس الا أنت معبود
أضحت يمينك من جود مصورة * لا بل يمينك منها صور الجود
لو أن من نوره مثقال خردلة * في السود طرا اذن لابيضت السود

(وقال آخر)

أوليتني نعما وفضلا زائدا * وبررتني حتى رأيتك والدا
أقسمت لو جاز السجود لمنعم * ما كنت الا راكعا لك ساجدا

(وقال آخر)

ثناؤك في الدنيا من المسك أعطر * وحظك في الدنيا جزيل موفر
وكفك بحر والأنامل أنهر * رعى الله كفا فيه بحر وأنهر
أعيذك بالرحمن من كل حاسد * فلا زالت الحساد تعمى وتصغر
لساني قصير في مديحك سيدي * لاني فقير والفقير مقصر

الفصل الثاني من هذا الباب في شكر النعمة أما الشكر الواجب على جميع الخلائق فشكر القلب وهو أن يعلم العبد أن النعمة من الله عز وجل وأن لا نعمة على الخلق من أهل السموات والأرض الا وبدايتها من الله تعالى حتى يكون الشكر لله عن نفسك وعن غيرك والدليل على أن الشكر محله القلب وهو المعرفة قوله تعالى وما بكم من نعمة فمن الله أى أيقنوا انها من الله وقيل الشكر معرفة العجز عن الشكر وقد روى أن داود عليه السلام قال الهي كيف أشكرك وشكري لك نعمة من عندك فأوحى الله تعالى اليه الآن قد شكرتني وفي هذا يقال الشكر على الشكر أتم الشكر * ولمحمود الوراق

اذا كان شكري نعمة الله نعمة * على له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر الا بفضله * وان طالت الأيام واتصل العمر
اذا مس بالسراء عم سرورها * وان مس بالضراء أعقبها الأجر
فما منهما الا له فيه نعمة * تضيق بها الأوهام والسر والجهر

وفي مناجاة موسى عليه السلام الهي خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكرك فقال علم ان ذلك مني فكانت معرفته بذلك شكره لي *وأما شكر اللسان فقد قال الله تعالى فيه وأما بنعمة ربك فحدث ويروى

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بالنعم شكر وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه تذكروا النعم فان ذكرها شكر * وأما الشكر الذي على الجوارح فقد قال الله تعالى اعملوا آل داود شكرا الآية فجعل العمل شكرا وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قام حتى تورمت قدماه فقيل له يا رسول الله أتفعل هذا بنفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا وقال أبو هرون دخلت على أبي حازم فقلت له يرحمك الله ما شكر العينين قال اذا رأيت بهما خيرا ذكرته واذا رأيت بهما شرا سترته قلت فما شكر الأذنين قال اذا سمعت بهما خيرا حفظته واذا سمعت بهما شرا نسيته وفي حكمة ادريس عليه الصلاة والسلام لن يستطيع أحد أن يشكر الله على نعمه بمثل الانعام على خلقه ليكون صانعا الى الخلق مثل ما صنع الخالق اليه فاذا أردت أن تحرس دوام النعمة من الله تعالى عليك فادم مواساة الفقراء وقد وعد الله تعالى عباده بالزيادة على الشكر فقال تعالى لئن شكرتم لأزيدنكم وقد جعل لعباده علامة يعرف بها الشاكر فمن لم يظهر عليه المزيد علمنا أنه لم يشكر فاذا رأينا الغني يشكر الله تعالى بلسانه وماله في نقصان علمنا انه قد أخل بالشكر اما أنه لا يزكي ماله أو يزكيه لغير أهله أو يؤخره عن وقته أو يمنع حقا واجبا عليه من كسوة عريان أو اطعام جائع أو شبه ذلك فيدخل في قول النبي صلى الله عليه وسلم لو صدق السائل ما أفلح من رده قال الله تعالى ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم واذا غيروا ما بهم من الطاعات غير الله ما بهم من الاحسان وقال بعض الحكماء من أعطى أربعا لم يمنع من أربع من أعطى الشكر لم يمنع المزيد ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب وقال المغيرة ابن شعبة أشكر من أنعم عليك وأنعم على من شكرك فانه لا بقاء للنعم اذا كفرت ولا زوال لها اذا شكرت وكان الحسن يقول ابن آدم متى تنفك من شكر النعمة وأنت مرتهن بها كلما شكرت نعمة تجدد لك بالشكر أعظم منها عليك فانت لا تنفك بالشكر من نعمة الا الى ما هو أعظم منها وروى أن عثمان بن عفان رضي الله عنه دعى الى أقوام ليأخذهم على ريبة فافترقوا قبل أن يأخذهم عثمان فاعتق رقبة شكرا لله تعالى اذ لم يجر على يديه فضيحة مسلم ويروى أن نملة قالت لسليمان بن داود عليهما السلام يا نبي الله أنا على قدري أشكر لله منك وكان راكبا على فرس ذلول فخر ساجدا لله تعالى ثم قال لولا أني أجلك لسألتك عن أن تنزع مني ما أعطيتني وقال صدقة بن يسار بينما داود عليه السلام في محرابه اذ مرت به دودة فتفكر في خلقها وقال ما يعبأ الله بخلق هذه فانطقها الله تعالى له فقالت يا داود تعجبك نفسك وأنا على قدر ما آتاني الله تعالى أذكر لله وأشكر له منك على ما آتاك وقال على رضي الله عنه احذروا نفار النعم فما كل شارد مردود وعنه عليه السلام اذا وصلت اليكم أطراف النعم فلا تنفروا اتصالها بقلة الشكر وقيل اذا قصرت يداك عن المكافأة فليطل لسانك بالشكر وقال حكيم الشكر ثلاث منازل ضمير القلب ونشر اللسان ومكافأة اليد قال الشاعر

أفادتكم النعماء مني ثلاثة * يدي ولساني والضمير المحجبا

وقال ابن عائشة كان يقال ما انعم الله على عبد نعمة فظلم بها الا كان حقا على الله تعالى ان يزيلها عنه وانشد ابو العباس بن عمار في المعنى

أعارك ماله لتقوم فيه * بواجبه وتقضي بعض حقه
فلم تقصد لطاعته ولكن * قويت على معاصيه برزقه

(وقال آخر) ولو أن لي في كل منبت شعرة * لسانا يطيل الشكر كنت مقصرا

وقال محمد بن حبيب الراوية اذا قل الشكر خسر المن وروى اذا جحدت الصنيعة خسر الامتنان وسئل بعض الحكماء ما أضيع الأشياء قال مطر الجود في أرض سبخة لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها وسراج يوقد في الشمس وجارية حسناء تزف الى أعمى وصنيعة تسدى الى من لا يشكرها وقال عبد الأعلى بن حماد دخلت على المتوكل فقال يا أبا يحيى قد هممنا أن نصلك بخير فتدافعته الأمور فقلت يا أمير المؤمنين بلغني عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال من لم يشكر الهمة لم يشكر النعمة وأنشدته

لأشكرن لك معروفا هممت به * فان همك بالمعروف معروف

ضيفي أمرني أن لا تصير الى المنزل الا راكبا (قال) الشافعي رضي الله تعالى عنه فقلت له قدم فقدم الى بغلة بسرج محلى فلما علوت على ظهرها رأيت نفسي با طمار رثة فطاف بي أزقة الكوفة الى منزل محمد بن الحسن فرأيت أبوابا ودهاليز منقوشة بالذهب والفضة فذكرت ضيق أهل الحجاز وما هم فيه فبكيت وقلت أهل العراق ينقشون سقوفهم بالذهب والفضة وأهل الحجاز يأكلون القديد ويمصون النوى ثم أقبل على محمد بن الحسن وأنا في بكائي فقال لا يرعك يا عبد الله ما رأيت فما هو الا من حقيقة حلال ومكتسب وما يطالبني الله فيها بفرض واني أخرج زكاتها في كل عام فاسر بها الصديق وأكبت بها العدو (قال الشافعي رضي الله تعالى عنه) فما بت حتى كساني محمد بن الحسن خلعة بالف درهم ثم دخل خزانته فأخرج الى الكتاب الاوسط تأليف الامام أبي حنيفة فنظرت في أوله وفي آخره ثم ابتدأت الكتاب في ليلتي أتحفظه فما أصبحت الا وقد حفظته ومحمد ابن الحسن لا يعلم بشيء من ذلك وكان المشهور بالكوفة بالفتوى والمجيب في النوازل فانا قاعد عن يمينه في بعض الايام اذ سئل عن مسئلة أجاب فيها وقال هكذا قال أبو حنيفة فقلت له قد وهمت في الجواب في هذه المسئلة والجواب عن قول الرجل كذا وكذا وهذه المسئلة تحتها المسئلة الفلانية وفوقها المسئلة الفلانية في الكتاب الفلاني فامر محمد بن الحسن بالكتاب فاحضر فتصفحه ونظر فيه فوجد القول كما قلت فرجع عن جوابه الى ما قلت ولم يخرج الى كتابا بعد هذا (قال الشافعي فاستأذنته في الرحيل فقال ما كنت لآذن لضيف بالرحيل عني وبذل لي في مشاطرة نعمته فقلت ما لذا قصدت ولا لذا أردته

ولا ألوم سك ان لم يعصه قدر * فالشر بالقدر المحتوم مصروف

(وقال) أبو فراس بن حمدان

وما نعمة مكفورة قد صنعتها * الى غير ذى شكر عانعنى أخرى
سأتى جميلا ما حييت فاننى * اذا لم أفد شكرا افدت به أجرا

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه من امتطى الشكر بلغ المزيد وقيل من جعل الحمد خاتمة للنعمة جعله الله فاتحة للمزيد وقال ابن السماك النعمة من الله تعالى على عبده مجهولة فاذا فقدت عرفت وقيل من لم يشكر على النعمة فقد استدعى زوالها وكان يقال اذا كانت النعمة وسيمة فاجعل الشكر لها تميمة وقال حكيم لا تصطنعوا ثلاثة اللئيم فانه بمنزلة الأرض السبخة والفاحش فانه يرى أن الذى صنعت اليه اغما هو لمخافة فحشه والأحمق فانه لا يعرف قدر ما أسديت اليه واذا اصطنعت الكريم فازرع المعروف واحصد الشكر ودخل أبو نخيلة على السفاح لينشده فقال ما عسيت أن تقول بعد قولك لمسلمة

أمسلمة يا فخر كل خليفة * ويا فارس الدنيا ويا جبل الأرض
شكرتك ان الشكر دين على الفتى * وما كل من أوليته نعمة يقضى
وأحييت لى ذكرى وما كان خاملا * ولكن بعض الذكر أنبه من بعض

فسمعه الرشيد فقال هكذا يكون شعر الأشراف مدح صاحبه ولم يضع نفسه وعن نصر بن سيار عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من أنعم على رجل نعمة فلم يشكر له فدعا عليه استجيب له ثم قال نصر اللهم انى أنعمت على بنى سام فلم يشكروا اللهم اقتلهم فقتلوا كلهم وعن على بن الحسين رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان المؤمن ليشبع من الطعام فيحمد الله تعالى فيعطيه من الأجر ما يعطى الصائم القائم ان الله شاكر يحب الشاكرين وعن محمد بن على ما أنعم الله على عبد نعمة فعلم انها من الله الا كتب الله له شكرها قبل أن يحمده عليها ولا أذنب عبد ذنبا فعلم أن الله قد اطلع عليه ان شاء غفر له وان شاء آخذه قبل أن يستغفره الا غفر الله له قبل أن يستغفره وأولى رجل رجلا اعرابيا خيرا فقال لا أبلاك الله ببلاء يعجز عنه صبرك وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك وأنشد بعضهم وأجاد

سأشكر لا انى أجازيك منعما * بشكرى ولكن كى يزاد لك الشكر
واذكر أياما لدى اصطنعتها * وآخر ما يبقى على الشاكر الذكر

(وقال آخر)

أوليتنى نعما أبوح بشكرها * وكفيتنى كل الأمور بأسرها
فلأشكرنك ما حييت وان أمت * فلتشكرنك أعظمى فى قبرها

(وقال آخر)

أيا رب قد أحسنت عودا وبدأة * الى فلم ينهض باحسانك الشكر
فمن كان ذا عذر لديك وحجة * فعذرى اقرارى بأن ليس لى عذر

وقال محمود الوراق

الهى لك الحمد الذى أنت أهله * على نعم ما كنت قط لها أهلا
ان زدت تقصيرا تزدنى تفضلا * كأنى بالتقصير أستوجب الفضلا

وقد أحسن نصيب فى وصف الثناء والشكر بقوله

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله * ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

﴿وقال رجل من غطفان﴾

أشكر أفضل ما حاولت ملتمسا * به الزيادة عند الله والناس

وقيل أشكر المنعم عليك وأنعم على الشاكر لك تستوجب من ربك الزيادة ومن أخيك المناصحة

﴿الفصل الثالث من هذا الباب فى المكافأة﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسدى اليكم معروفا فكافئوه فان لم تقدروا فادعوا له ولما قدم وفد النجاشى على رسول الله صلى الله عليه وسلم قام يخدمهم بنفسه فقيل له يا رسول الله لو تركتنا كفيناك فقال كانوا لأصحابى مكرمين وقيل أتى رجل من الأنصار الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال

اذكرنى اذا ما جالك ذو سفه * يوم السقيفة والصديق مشغول

فقال عمر باعلى صوته ادن منى فدنا منه فأخذ بذراعه حتى استشرفه الناس وقال ألا ان هذا ردء عن سقيها

ولا رغبتى الا فى السفر قال فأمر غلامه ان يأتى بكل ما فى خزانته من بيضاء وحمراء فدفع الى ما كان فيها وهو ثلاثة آلاف درهم وأقبلت أطوف العراق وأرض فارس و بلاد الاعاجم وألقى الرجال حتى صرت ابن احدى وعشرين سنة ثم دخلت العراق فى خلافة هرون الرشيد فعند دخول الباب تعلق بى غلام فلاطفنى وقال لى ما اسمك فقلت محمد قال ابن من قلت ابن ادريس الشافعى فقال مطلبى فقلت أجل فكتب ذلك فى لوح كان فى كمه وخلى سبيلى فاويت الى بعض المساجد أفكر فى عاقبة ما فعل حتى اذا ذهب من الليل النصف كبس المسجد وأقبلوا يتأملون وجه كل رجل حتى أتوا الى فقالوا للناس لا بأس عليكم هذا هو الحاجة والغاية المطلوبة ثم أقبلوا على وقالوا أجب أمير المؤمنين فقمت غير ممتنع فلما أبصرت بأمير المؤمنين سلمت عليه سلاما بينا فاستحسن الالفاظ ورد على الجواب ثم قال تزعم انك من بنى هاشم فقلت يا أمير المؤمنين كل زعم فى كتاب الله باطل فقال أبن لى عن نسبك فانتسبت حتى لحقت آدم عليه السلام فقال لى الرشيد ما تكون هذه الفصاحة ولا هذه البلاغة الا فى رجل من ولد المطلب هل لك أن أوليك قضاء المسلمين وأشاطرك ما أنا فيه وتنفذ فيه حكمى وحكمك على ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام واجتمعت عليه الامة فقلت يا أمير المؤمنين لو سألتنى أن أفتح باب القضاء بالغداة واغلقه بالعشى بنعمتك هذه ما فعلت ذلك أبدا فبكى الرشيد وقال تقبل من عرض الدنيا شيئا قلت يكون معجلا فأمر لى بألف دينار فما برحت من مقامى حتى قبضتها ثم سألنى بعض الغلمان والحشم ان أصلهم من صلتى

من قومه يوم السقيفة ثم حمله على نجيب وزاد فى عطائه وولاه صدقة قومه وقرأ هل جزاء الاحسان الا الاحسان وقال رجل لسعيد بن العاص وهو أمير الكوفة يدى عندك بيضاء قال وما هى قال كبت بك فرسك فتقدمت اليك قبل غلمانك فأخذت بعضدك وأركبتك وأسقيتك ماء قال فأين كنت الى الآن قال حجبت عن الوصول اليك قال قد أمرنا لك بمائتى ألف درهم وبما أسكه الحاجب اذا حجبك عنا (وقال) قطرى بن الفجاءة الخارجى أسره الحجاج ثم من عليه فأطلقه فعاود قتال عدو الله فقال هيهات شد يدا مطلقها وأرق رقبة معتقها ثم قال

أأقاتل الحجاج عن سلطانه * بيد تقر بانها مولاته
ماذا أقول اذا وقفت ازاءه * فى الصف واحتجت له فعلاته
أأقول جار على لانى اذا * لأحق من جارت عليه ولاته
وتحدث الأقوام ان صنائعا * غرست لدى لحنظلات نخلاته

واجتاز الشافعى رحمه الله تعالى بمصر فى سوق الحدادين فسقط سوطه فقام انسان فأخذه ومسحه وناوله اياه فقال لغلامه كم معك قال عشرة دنانير قال ادفعها اليه واعتذر له واستنشد عبد الملك عامر الشعبى فأنشده لغير ما شاعر حتى أنشد لحسان

من سره شرف الحياة فلم يزل * فى عصبة من صالحى الأنصار
البائعين نفوسهم لنبيهم * بالمشرفى وبالقنا الخطار
الناظرين بأعين محمرة * كالجمر غير كليلة الابصار

فقام أنصارى فقال يا أمير المؤمنين استوجب عامر الصلة على له ستون من الابل كما أعطينا حسان يوم قالها فقال عبد الملك وله عندى ستون ألفا وستون من الابل وعن على كرم الله وجهه أحسنوا فى عقب غيركم تحفظوا فى عقبكم وقال المدائنى رأيت رجلا يطوف بين الصفا والمروة على بغلة ثم رأيته ماشيا فى سفر فسألته عن ذلك فقال ركبت حيث يمشى الناس فكان حقا على الله أن يرجلنى حيث يركب الناس

﴿ومما جاء فى المكافأة﴾ ما حكى عن الحسن بن سهل قال كنت يوما عند يحيى بن خالد البرمكى وقد خلا فى مجلسه لاحكام أمر من أمور الرشيد فبينما نحن جلوس اذ دخل عليه جماعة من أصحاب الحوائج فقضاها لهم ثم توجهوا لشأنهم فكان آخرهم قياما أحمد بن أبى خالد الأحول فنظر يحيى اليه والتفت الى الفضل ابنه وقال يا بنى ان لأبيك مع أبى هذا الفتى حديثا فاذا فرغت من شغلى هذا فذكرنى أحدثك به فلما فرغ من شغله وطعم قال له ابنه الفضل أعزك الله يا أبى أمرتنى أن أذكرك حديث أبى خالد الأحول قال نعم يا بنى لما قدم أبوك من العراق أيام المهدى كان فقير الاعلك شيأ فاشتد بى الأمر الى أن قال لى من فى منزلى انا قد كتمنا حالنا وزاد ضررنا ولنا اليوم ثلاثة أيام ما عندنا شئ نقتات به قال فبكيت يا بنى لذلك بكاء شديدا وبقيت ولهان حيران مطرقا مفكرا ثم تذكرت منديلا كان عندى فقلت لهم ما حال المنديل فقالوا هو باق عندنا فقلت ادفعوه الى فأخذته ودفعته الى بعض أصحابى وقلت له بعه بما تيسر فباعه بسبعة عشر درهما فدفعتها الى أهلى وقلت أنفقوها الى أن يرزق الله غيرها ثم بكرت من الغد الى باب أبى خالد وهو يومئذ وزير المهدى فاذا الناس وقوف على داره ينتظرون خروجه فخرج عليهم راكبا فلما رآنى سلم على وقال كيف حالك فقلت يا أبا خالد ما حال رجل يبيع من منزله بالأمس منديلا بسبعة عشر درهما فنظر الى نظرا شديدا وما أجابنى جوابا فرجعت الى أهلى كسير القلب وأخبرتهم بما اتفق لى مع أبى خالد فقالوا بئس والله ما فعلت توجهت الى رجل كان يرتضيك لأمر جليل فكشفت له سرك وأطلعته على مكنون أمرك فأزريت عنده بنفسك وصغرت عنده منزلتك بعد ان كنت عنده جليلا فما يراك بعد اليوم الا بهذه العين فقلت قد قضى الامر الآن بما لا يمكن استدراكه فلما كان من الغد بكرت الى باب الخليفة فلما بلغت الباب استقبلنى رجل فقال لى قد ذكرت الساعة بباب أمير المؤمنين فلم ألتفت لقوله فاستقبلنى آخر فقال لى كمقالة الأول ثم استقبلنى حاجب أبى خالد فقال لى أين تكون قد أمرنى أبو خالد باجلاسك الى أن يخرج من عند أمير المؤمنين فجلست حتى خرج فلما رآنى دعانى وأمر لى بمركوب فركبت وسرت معه الى منزله فلما نزل قال على بفلان وفلان الحناطين فاحضرا فقال لهما ألم تشتريا منى غلات السواد بثمانية عشر ألف ألف درهم قالا نعم قال ألم أشترط عليكما شركة رجل معكما قالا بلى قال هو هذا الرجل الذى اشترطت شركته لكما ثم قال لى قم معهما فلما خرجنا قالا لى

فلم تسع المروءة ان كنت مستوليا على المقامعة فيما أنعم الله به على فخرج لى قسم كأقسامهم ثم عدت الى المسجد الذى كنت فيه فى ليلتى فتقدم يصلى بنا غلام صلاة الفجر فى جماعة فأجاد القراءة ولحقه سهو ولم يدر كيف الدخول ولا كيف الخروج فقلت له بعد السلام أفسدت علينا وعلى نفسك أعد فأعاد مسرعا وأعدنا ثم قلت له أحضر بياضا أعمل لك باب السهو فى الصلاة والخروج منها فسارع الى ذلك ففتح الله عز وجل على فألفت له كتابا من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام واجماع المسلمين وسميته باسمه وهو أربعون جزأ يعرف بكتاب الزعفران وهو الذى وضعته بالعراق حتى تكامل فى ثلاث سنين وولانى الرشيد الصدقات بنجران وقدم الحاج فخرجت أسألهم عن الحجاز فرأيت فتى فى قبته فلما أشرت اليه بالسلام أمر قائد القبة أن يقف وأشار الى بالكلام فسألته عن الامام مالك وعن الحجاز أجاب بخير ثم عاودته الى السؤال عن مالك فقال لى أشرح لك أو أختصر قلت فى الاختصار البلاغة فقال فى صحة جسم وله ثلثمائة جارية يبيت عند الجارية ليلة فلا يعود اليها الى سنة فقد اختصرت لك خبره (قال الشافعى رضى الله تعالى عنه) فاشتهيت أن أراه فى حال غناه كما رأيته فى حال فقره فقلت له أما عندك من المال ما يصلح للسفر فقال انك لتوحشنى خاصة وأهل العراق عامة وجميع مالى فيه لك فقلت له فبم تعيش قال بالجاه ثم نظر الى وحكمنى فى ماله فأخذت منه على حسب الكفاية والنهاية وسرت على ديار ربيعة ومضر فأتيت حران ودخلتها يوم الجمعة فذكرت فضل الغسل وما جاء فيه فقصدت الحمام فلما سكبت الماء رأيت شعر رأسى شعثا فبعوث

ادخل معنا بعض المساجد حتى نكلمك فى أمر يكون لك فيه الربح الهنى فدخلنا مسجدا فقال لى انك تحتاج فى هذا الامر الى وكلاء وأمناء وكيالين وأعوان ومؤن لم تقدر منها على شئ فهل لك أن تبيعناشركتك بمال نعجله لك فتنتفع به ويسقط عنك التعب والكلف فقلت لهما وكم تبذلان لى فقالا مائة ألف درهم فقلت لا أفعل فما زالا يزيدانى وأنالا أرضى الى أن قالا الى ثلثمائة ألف درهم ولا زيادة عندنا على هذا فقلت حتى أشاور أبا خالد قالا ذلك لك فرجعت اليه وأخبرته فدعا بهما وقال لهما هل وافقتماه على ماذكر قالا نعم قال اذهبا فاقبضاه المال الساعة ثم قال لى أصلح أمرك وتهيأ فقد قلدتك العمل فاصلحت شأنى وقلدنى ما وعدنى به فمازلت فى زيادة حتى صار أمرى الى ما صار ثم قال لولده الفضل يا بنى فما تقول فى ابن من فعل بابيك هذا الفعل وما جزؤه قال حق لعمرى وجب عليك له فقال والله يا ولدى ما أجد له مكافأة غير أنى أعزل نفسى وأوليه ففعل ذلك رضى الله عنه وهكذا تكون المكافأة (ومن ذلك ما حكى) عن العباس صاحب شرطة المأمون قال دخلت يوما الى مجلس أمير المؤمنين ببغداد وبين يديه رجل مكبل بالحديد فلما رآنى قال لى يا عباس قلت لبيك يا أمير المؤمنين قال خذ هذا اليك فاستوثق منه واحتفظ به وبكر به الى فى غد واحترز عليه كل الاحتراز قال العباس فدعوت جماعة فحملوه ولم يقدر أن يتحرك فقلت فى نفسى مع هذه الوصية التى أوصانى بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب الا أن يكون معى فى بيتى فأمرتهم فتركوه فى مجلس لى فى دارى ثم أخذت أسأله عن قضيته وعن حاله ومن أين هو فقال أنا من دمشق فقلت جزى الله دمشق وأهلها خيرا فمن أنت من أهلها قال وعمن تسأل قلت أتعرف فلانا قال ومن أين تعرف ذلك الرجل فقلت وقع لى معه قضية فقال ما كنت بالذى أعرفك خبره حتى تعرفنى قضيتك معه فقال ويحك كنت مع بعض الولاة بدمشق فبغى أهلها وخرجوا علينا حتى ان الوالى تدلى فى زنبيل من قصر الحجاج وهرب هو وأصحابه وهربت فى جملة القوم فبينما أنا هارب فى بعض الدروب واذا بجماعة يعدون خلفى فما زلت أعدو أمامهم حتى فتهم فمررت بهذا الرجل الذى ذكرته لك وهو جالس على باب داره فقلت أغثنى أغاثك الله قال لا بأس عليك ادخل الدار فدخلت فقالت زوجته ادخل تلك المقصورة فدخلتها ووقف الرجل على باب الدار فما شعرت الا وقد دخل والرجال معه يقولون والله عندك فقال دونكم الدار ففتشوها ففتشوها حتى لم يبق سوى تلك المقصورة وامرأته فيها فقالوا ها هو هنا فصاحت بهم المرأة ونهرتهم فانصرفوا وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة وأنا قائم أرجف ما تحملنى رجلاى من شدة الخوف فقالت المرأة اجلس لا بأس عليك فجلست فلم ألبث حتى دخل الرجل فقال لا تخف قد صرف الله عنك شرهم وصرت الى الامن والدعة ان شاء الله تعالى فقلت له جزاك الله خيرا فما زال يعاشرنى أحسن معاشرة وأجملها وأفرد لى مكانا فى داره ولم يحوجنى الى شئ ولم يفتر عن تفقد أحوالى فأقمت عنده أربعة أشهر فى أرغد عيش وأهنئه الى ان سكنت الفتنة وهدأت وزال أثرها فقلت له أتأذن لى فى الخروج حتى أتفقد حال غلمانى فلعلى أقف منهم على خبر فأخذ على المواثيق بالرجوع اليه فخرجت وطلبت غلمانى فلم أر لهم أثرا فرجعت اليه وأعلمته الخبر وهو مع هذا كله لا يعرفنى ولا يسألنى ولا يعرف اسمى ولا يخاطبنى الا بالكنية فقال لى علام تعزم فقلت قد عزمت على التوجه الى بغداد فقال ان القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج وها أنا قد أعلمتك فقلت له انك قد تفضلت على هذه المدة ولك على عهد الله انى لا أنسى لك هذا الفضل ولا وفينك مهما استطعت قال فدعا غلاما له أسود وقال له أسرج الفرس الفلانى ثم جهز آلة السفر فقلت فى نفسى أظن أنه يريد أن يخرج الى ضيعة أو ناحية من النواحى فاقاموا يومهم ذلك فى كد وتعب فلما كان يوم خروج القافلة جاءنى فى السحر وقال لى يا فلان قم فان القافلة تخرج الساعة وأكره أن تنفرد عنها فقلت فى نفسى كيف أصنع وليس معى ما أتزود به ولا ما أكرى به مركوبا ثم قمت فاذا هو وامرأته يحملان بقجة من أفخر الملابس وخفين جديدين وآلة السفر ثم جاءنى بسيف ومنطقة فشدهما فى وسطى ثم قدم بغلا فحمل عليه صندوقين وفوقهما فرش ودفع الى نسخة ما فى الصندوقين وفيهما خمسة آلاف درهم وقدم الى الفرس الذى كان جهزه وقال اركب وهذا الغلام الاسود يخدمك ويسوس مركوبك وأقبل هو وامرأته يعتذران الى من التقصير فى أمرى وركب معى يشيعنى وانصرفت الى بغداد وأنا أتوقع خبره لافى بعهدى له فى مجازاته ومكافأته واشتغلت مع أمير المؤمنين فلم أتفرغ أن أرسل اليه من يكشف خبره فلهذا أنا أسأل عنه فلما سمع الرجل الحديث قال لقد أمكنك الله تعالى من الوفاء له ومكافأته على فعله ومجازاته على صنيعه بلا كلفة عليك ولا مؤنة تلزمك فقلت

وكيف

المزنى فلما بدا برأسى وأخذ القليل من شعرى دخل قوم من أعيان البلد فدعوه الى خدمتهم فسارع اليهم وتركنى فلما قضوا ما أرادوا منه عاد الى فما أردته وخرجت من الحمام فدفعت اليه أكثر ما كان معى من الدنانير وقلت له خذ هذه واذا وقف بك غريب لا تحتقره فنظر الى متعجبا فاجتمع على باب الحمام خلق كثير فلما خرجت عاتبنى الناس فبينما أنا كذلك اذ خرج بعض من كان فى الحمام من الأعيان فقدمت له بغلة ليركبها فسمع خطابى لهم فانحدر عن البغلة بعد أن استوى عليها وقال لى أنت الشافعى فقلت نعم فقد الركاب مما يلينى وقال بحق الله اركب ومضى بى الغلام مطرقا بين يدى حتى أتيت الى منزل الفتى ثم أتى وقد حصلت فى منزله فاظهر البشاشة ثم دعا بالغسل فغسل علينا ثم حضرت المائدة فسمى وحبست يدى فقال مالك يا عبد الله فقلت له طعامك حرام على حتى أعرف من أين هذه المعرفة فقال أنا ممن سمع منك الكتاب الذى وضعته ببغداد وأنت لى أستاذ (قال الشافعى رضى الله عنه) فقلت العلم بين أهل العقل رحم متصلة فأكلت بفرحة اذ لم يعرف الله تعالى الا بينى وبين أبناء جنسى وأقمت ضيفه ثلاثا فلما كان بعد ثلاث قال ان لى حول حران أربع ضياع ما بحران أحسن منها أشهد الله ان اخترت المقام فانها هدية منى اليك فقلت فبم تعيش قال بما فى صناديقى تلك وأشار اليها وهى أربعون ألف درهم وقال أتجر بها فقلت ليس الى هذا قصدت ولا خرجت من بلدى لغير طلب العلم فقال لى فالمال اذا من شأن المسافر فقبضت الأربعين ألفا وودعته وخرجت من مدينة حران وبين يدى أحمال ثم تلقانى الرجال

وكيف ذلك قال أنا ذلك الرجل وانما الضر الذى أنا فيه غير عليك حالى وما كنت تعرفه منى ثم لم يزل يذكرلى تفاصيل الاسباب حتى أثبت معرفته فما تمالكت ان قمت وقبلت رأسه ثم قلت له فما الذى أصارك الى ما أرى فقال هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التى كانت فى أيامك فنسبت الى و بعث أمير المؤمنين بجيوش فاصلحوا البلد وأخذت أنا وضربت الى أن أشرفت على الموت وقيدت و بعث بى الى أمير المؤمنين وأمرى عنده عظيم وخطبى لديه جسيم وهو قاتلى لامحالة وقد أخرجت من عند أهلى بلا وصية وقد تبعنى من غلمانى من ينصرف الى أهلى بخبرى وهو نازل عند فلان فان رأيت أن تجعل من مكافأتك لى أن ترسل من يحضره لى حتى أوصيه بما أريد فان أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حد المكافأة وقمت لى بوفاء عهدك قال العباس قلت يصنع الله خيرا ثم أحضر حدادا فى الليل فلك قيوده وأزال ما كان فيه من الانكال وأدخله حمام داره وألبسه من الثياب ما احتاج اليه ثم سير من أحضر اليه غلامه فلما رآه جعل يبكى و يوصيه فاستدعى العباس نائبه وقال على بالفرس الفلانى والفرس الفلانى والبغل الفلانى والبغلة الفلانية حتى عد عشرة ثم عشرة من الصناديق ومن الكسوة كذا وكذا ومن الطعام كذا وكذا قال ذلك الرجل وأحضر لى بدرة عشرة آلاف درهم وكيسا فيه خمسة آلاف دينار وقال لنائبه فى الشرطة خذ هذا الرجل وشيعه الى حد الانبار فقلت له ان ذنبى عند أمير المؤمنين عظيم وخطبى جسيم ان أنت احتججت بانى هربت بعث أمير المؤمنين فى طلبى كل من على بابه فأرد وأقتل فقال لى انج بنفسك ودعنى أدبر أمرى فقلت والله لا أبرح من بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك فان احتجت الى حضورى حضرت فقال لصاحب الشرطة ان كان الامر على ما يقول فليكن فى موضع كذا فان أنا سلمت فى غداة غد أعلمته وان أنا قتلت فقد وقيته بنفسى كما وقانى بنفسه وأنشدك الله ان لا يذهب من ماله درهم وتجتهد فى اخراجه من بغداد قال الرجل فأخذنى صاحب الشرطة وصيرنى فى مكان أثق به وتفرغ العباس لنفسه وتحنط وجهز له كفنا قال العباس فلم أفرغ من صلاة الصبح الا ورسل المأمون فى طلبى يقولون يقول لك أمير المؤمنين هات الرجل معك وقم قال فتوجهت الى دار أمير المؤمنين فاذا هو جالس وعليه ثيابه وهو ينتظرنا فقال أين الرجل فسكت فقال ويحك أين الرجل فقلت يا أمير المؤمنين اسمع منى فقال لله على عهد لئن ذكرت انه هرب لاضربن عنقك فقلت لا والله يا أمير المؤمنين ما هرب ولكن اسمع حديثى وحديثه ثم شأنك وما تريد أن تفعله فى أمرى قال قل فقلت يا أمير المؤمنين كان من حديثى معه كيت وكيت وقصصت عليه القصة جميعها وعرفته اننى أريد أن أفى له وأكافئه على ما فعله معى وقلت أنا وسيدى ومولاى أمير المؤمنين بين أمرين اما أن يصفح عنى فأكون قد وفيت وكافأت واما أن يقتلنى فأقيه بنفسى وقد تحنطت وها كفنى يا أمير المؤمنين فلما سمع المأمون الحديث قال ويلك لا جزاك الله عن نفسك خيرا انه فعل بك ما فعل من غير معرفة وتكافئه بعد المعرفة والعهد بهذا الا غيرها لا عرفتنى خبره فكنا نكافئه عنك ولا نقصر فى وفائك له فقلت يا أمير المؤمنين انه ههنا قد حلف أن لا يبرح حتى يعرف سلامتى فان احتجت الى حضوره حضر فقال المأمون هذه منة أعظم من الاولى اذهب الآن اليه فطيب نفسه وسكن روعه وائتنى به حتى أتولى مكافأته قال العباس فأتيت اليه وقلت له ليزل خوفك ان أمير المؤمنين قال كيت وكيت فقال الحمد لله الذى لا يحمد على السراء والضراء سواه ثم قام فصلى ركعتين ثم ركب وجئنا فلما مثل بين يدى أمير المؤمنين أقبل عليه وأدناه من مجلسه وحدثه حتى حضر الغداء وأكل معه وخلع عليه وعرض عليه أعمال دمشق فاستعفى فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ولجمها وعشرة أبغال بآلاتها وعشر بدر وعشرة آلاف دينار وعشرة مماليك بدوابهم وكتب الى عامله بدمشق بالوصية به واطلاق خراجه وأمره بمكاتبته باحوال دمشق فصارت كتبه تصل الى المأمون وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لى يا عباس هذا كتاب صديقك والله تعالى أعلم (ومن عجائب هذا الاسلوب وغرائبه) ما أورده محمد بن القاسم الانبارى رحمه الله تعالى ان سوارا صاحب رحبة سوار وهو من المشهورين قال انصرفت يوما من دار الخليفة المهدى فلما دخلت منزلى دعوت بالطعام فلم تقبله نفسى فأمرت به فرفع ثم دعوت بجارية كنت أحبها وأحب حديثها وأشتغل بها فلم تطلب نفسى فدخل وقت القائلة فلم يأخذنى النوم فنهضت وأمرت ببغلة لى فأسرجت وأحضرت فركبتها فلما خرجت من المنزل استقبلنى وكيل لى ومعه مال فقلت ما هذا فقال ألفا درهم جبيتها من مستغلك الجديد قلت أمسكها معك واتبعنى فأطلقت رأس البغلة حتى عبرت الجسر ثم مضيت فى شارع دار الرقيق حتى انتهيت الى

وأصحاب الحديث منهم أحمد بن حنبل وسفيان بن عيينة والأوزاعى فأجزت كل واحد منهم على قدر ما قسم له حتى دخلت مدينة الرملة وليس معى الا عشرة دنانير فاشتريت بها راحلة واستويت على كورها وقصدت الحجاز فما زلت من منهل الى منهل حتى وصلت الى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم بعد سبعة وعشرين يوما بعد صلاة العصر فصليت العصر ورأيت كرسيا من الحديد عليه مخدة من قباطى مصر مكتوب عليها لا اله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم (قال الشافعى رضى الله عنه) وحوله أربعمائة دفتر أو يزدن وبينما أنا كذلك اذ رأيت مالك بن أنس رضى الله عنه قد دخل من باب النبى صلى الله عليه وسلم وقد فاح عطره فى المسجد وحوله أربعمائة أو يزيدون يحمل ذيوله منهم أربعة فلما وصل قام اليه من كان قاعدا وجلس على الكرسى فألقى مسئلة فى جراح العمد فلما سمعت ذلك لم يسعنى الصبر فقمت قائما فى سور الحلقة فرأيت انسانا فقلت له قل الجواب كذا وكذا فبادر بالجواب قبل فراغ مالك من السؤال فاضرب عنه مالك وأقبل على أصحابه فسألهم عن الجواب فخالفوه فقال لهم أخطأتم وأصاب الرجل ففرح الجاهل باصابته فلما ألقى السؤال الثانى أقبل على الجاهل يطلب منى الجواب فقلت له الجواب كذا وكذا فبادر بالجواب فلم يلتفت اليه مالك فأقبل على أصحابه واستخبرهم عن الجواب فخالفوه فقال لهم أخطأتم وأصاب الرجل (قال الشافعى رضى الله عنه) فلما ألقى السؤال الثالث قلت له قل الجواب كذا وكذا فبادر بالجواب فاعرض مالك عنه وأقبل على أصحابه فخالفوه فقال أخطأتم وأصاب الرجل ثم قال للرجل ادخل

الصحراء ثم رجعت الى باب الانبار وانتهيت الى باب دار نظيف عليه شجرة وعلى الباب خادم فعطشت فقلت للخادم أعندك ماء تسقينيه قال نعم ثم دخل واحضر قلة نظيفة طيبة الرائحة عليها منديل فناولني فشربت وحضر وقت العصر فدخلت مسجدا على الباب فصليت فيه فلما قضيت صلاتي اذا أنا باعمى يلتمس فقلت ماتريد ياهذا قال اياك أريد قلت فما حاجتك فجاء حتى جلس الى جانبي وقال شممت منك رائحة طيبة فظننت أنك من أهل النعيم فأردت أن أحدثك بشئ فقلت قل قال ألا ترى الى باب هذا القصر قلت نعم قال هذا قصر كان لأبي فباعه وخرج الى خراسان وخرجت معه فزالت عنا النعم التي كنا فيها وعميت فقدمت هذه المدينة فأتيت صاحب هذه الدار لاساله شيأ يصلني به وأتوسل الى سوار فانه كان صديقا لأبي فقلت ومن أبوك قال فلان بن فلان فعرفته فاذا هو كان من أصدق الناس الى فقلت له ياهذا ان الله تعالى قد أتاك بسوار منعه من الطعام والنوم والقرار حتى جاء به فاقعده بين يديك ثم دعوت الوكيل فأخذت الدراهم منه فدفعتها اليه وقلت له اذا كان الغد فسر الى منزلي ثم مضيت وقلت ما أحدث أمير المؤمنين بشئ أظرف من هذا فأتيته فاستأذنت عليه فاذن لى فلما دخلت عليه حدثته بما جرى لى فأعجبه ذلك وأمر لى بألفي دينار فاحضرت فقال ادفعها الى الاعمى فنهضت لاقوم فقال اجلس فجلست فقال أعليك دين قلت نعم قال كم دينك قلت خمسون ألفا فحادثني ساعة وقال امض الى منزلك فمضيت الى منزلى فاذا بخادم معه خمسون ألفا وقال يقول لك أمير المؤمنين اقض بها دينك قال فقبضت منه ذلك فلما كان من الغد أبطأ على الاعمى وأتاني رسول المهدى يدعوني فجئته فقال قد فكرت البارحة في أمرك فقلت يقضي دينه ثم يحتاج الى القرض أيضا وقد أمرت لك بخمسين ألفا أخرى قال فقبضتها وانصرفت فجاءني الاعمى فدفعت اليه الالفي دينار وقلت له قد رزقك الله تعالى بكرمه وكافأك على احسان أبيك وكافأني على اسداء المعروف اليك ثم أعطيته شيأ آخر من مالى فأخذه وانصرف والله سبحانه وتعالى أعلم (ومما هو واضح حسنا وأرج معنى) ما حكاه القاضي يحيى بن أكثم رحمة الله عليه قال دخلت يوما على الخليفة هرون الرشيد ولد المهدى وهو مطرق مفكر فقال لى أتعرف قائل هذا البيت

الخير أبقى وان طال الزمان به * والشر أخبث ما أوعيت من زاد

فقلت يا أمير المؤمنين ان لهذا البيت شأنا مع عبيد بن الأبرص فقال على بعبيد فلما حضر بين يديه قال له اخبرني عن قضية هذا البيت فقال يا أمير المؤمنين كنت في بعض السنين حاجا فلما توسطت البادية في يوم شديد الحر سمعت ضجة عظيمة في القافلة الحقت أولها بآخرها فسألت عن القصة فقال لى رجل من القوم تقدم ترما بالناس فتقدمت الى أول القافلة فاذا أنا بشجاع أسود فاغر فاه كالجذع وهو يخور كما يخور الثور ويرغو كرغاء البعير فهالني أمره وبقيت لا أهتدى الى ما أصنع في أمره فعدلنا عن طريقه الى ناحية أخرى فعارضنا ثانيا فعلمت أنه لسبب ولم يجسر أحد من القوم أن يقربه فقلت أفدى هذا العالم بنفسي وأتقرب الى الله تعالى بخلاص هذه القافلة من هذا فأخذت قربة من الماء فتقلدتها وسللت سيفي وتقدمت فلما رآني قربت منه سكن وبقيت متوقعا منه وثبة يبتلعني فيها فلما رأى القربة فتح فاه فجعلت فم القربة في فيه وصببت الماء كما يصب في الاناء فلما افرغت القربة تسيب في الرمل ومضى فتعجبت من تعرضه لنا وانصرافه عنا من غير سوء لحقنا منه ومضينا لحجنا ثم عدنا في طريقنا ذلك وحططنا في منزلتنا تلك في ليلة مظلمة مدلهمة فأخذت شيأ من الماء وعدلت الى ناحية عن الطريق فقضيت حاجتي ثم توضأت وصليت وجلست أذكر الله تعالى فأخذتني عيني فنمت مكاني فلما استيقظت من النوم لم أجد للقافلة حسا وقد ارتحلوا وبقيت منفردا لم أر احدا ولم أهتد الى ما أفعله وأخذتني حيرة وجعلت أضطرب واذا بصوت هاتف أسمع صوته ولا أرى شخصه يقول

يا أيها الشخص المضل مركبه * ما عنده من ذى رشاد يصحبه
دونك هذا البكر منا تركبه * وبكرك الميمون حقا تجنبه
حتى اذا ما الليل زال غيهبه * عند الصباح في الفلا تسيبه

فنظرت فاذا أنا ببكر قائم عندى وبكرى الى جانبي فانخته وركبته وجنبت بكرى فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لى القافلة وانفجر الفجر ووقف البكر فعلمت أنه قد حان نزولى فتحولت الى بكرى وقلت

يا أيها البكر قد انجيت من كرب * ومن هموم تضل المدلج الهادى

ليس ذلك موضعك فدخل الرجل طاعة منه لمالك وجلس بين يديه فقال له مالك فراسة قرأت الموطأ قال لا قال فنظرت ابن جريج قال لا قال فلقيت جعفر بن محمد الصادق قال لا قال فهذا العلم من أين قال الى جانبي غلام شاب يقول لى قل الجواب كذا وكذا فكنت أقول قال فالتفت مالك والتفت الناس باعناقهم لالتفات مالك رضى الله عنه فقال للجاهل قم فأمر صاحبك بالدخول الينا (قال الشافعي رضى الله عنه) فدخلت فاذا أنا من مالك بالموضع الذى كان الجاهل فيه جالسا بين يديه فتأملني ساعة وقال أنت الشافعي فقلت نعم فضمني الى صدره ونزل عن كرسيه وقال أتمم هذا الباب الذى نحن فيه حتى ننصرف الى المنزل الذى هو لك المنسوب الى (قال الشافعي رضى الله عنه) فالقيت أربعمائة مسئلة في جراح العمد فما أجابني أحد بجواب واحتجت أن آتي باربعمائة جواب فقلت الاول كذا وكذا والثانى كذا وكذا حتى سقط القرص وصلينا المغرب فضرب مالك بيده الى فلما وصلت المنزل رأيت بناء غير الأول فبكيت فقال مم بكاؤك كأنك خفت يا أبا عبد الله أن قد بعت الآخرة بالدنيا قلت هو والله ذلك قال طب نفسا وقر عينا هذه هدايا خراسان وهدايا مصر والهدايا تجبى من أقصى الدنيا وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويرد الصدقة وان لى ثلثمائة خلعة من رقى خراسان وقباطي مصر وعندى عبيد مثلها لم تستكمل الحلم فهم هدية منى اليك وفي صناديق تلك خمسة آلاف دينار أخرج زكاتها عند كل حول فلك منى نصفها قلت انك موروث وأنا موروث فلا يبيت جميع ما وعدتني به الا تحت خاتمي ليجرى ملكي عليه فان حضرني أجلي كان

الاتخـــبرني بالله خالقنا * من ذا الذي جاد بالمعروف في الوادي
وارجع حميدا فقد بلغتنا مننا * بوركت من ذي سنام رائح غادي

فالتفت البكر الي وهو يقول

انا الشجاع الذي الفيتني رمضا * والله يكشف ضر الحائر الصادي
فجدت بالماء لما ضن حامله * تكرما منك لم تمنن بانكاد
فالخير ابقى وان طال الزمان به * والشر اخبث ما اوعيت من زاد
هذا جزاؤك مني لا امن به * فاذهب حميدا رعاك الخالق الهادي

فعجب الرشيد من قوله وامر بالقصة والابيات فكتبت عنه وقال لا يضيع المعروف أين وضع والله سبحانه وتعالى اعلم بالصواب واليه المرجع والمآب

لورثتي دون ورثتك وان حضرك أجلك كان لي دون ورثتك فتبسم في وجهي وقال أبيت الا العلم فقلت لا يستعمل أحسن منه وما بت الا وجميع ما وعدني به تحت ختمي فلما كان في غداة غد صليت الفجر في جماعة وانصرفت الى المنزل أنا وهو وكل واحد منا يده في يد صاحبه اذ رأيت كراعا على بابه من جياد خراسان وبغال من مصر فقلت له ما رأيت كراعا أحسن من هذا فقال هو هدية مني اليك يا أبا عبد الله فقلت له دع لك منها دابة فقال اني أستحي من الله أن أطأ قرية فيها نبي الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة (قال الشافعي رضي الله عنه) فعلمت أن ورع الامام مالك باق على حاله فاقمت عنده ثلاثا ثم ارتحلت الى مكة وأنا أسوق خير الله ونعمه ثم أنفذت من يعلم بخبري فلما وصلت الى الحرم خرجت العجوز ونسوة معها فضمتني الى صدرها وضمتني بعدها عجوز كنت آلفها ادعوها خالتي وقالت

ليس امك اجتاحت المنايا
كل فؤاد عليك أم

تم الجزء الأول من كتاب المستطرف ويليه الجزء الثاني اوله الباب الثالث والأربعون


Bibliotheca Alexandrina
0519758